

دار نهضة مصر


ن
نادي الكتب
للكتب الإلكترونية



ثلاثية ابن طولون

رواية



ثلاثية
ابن طولون

تأليف: ريم بسيوني

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

بسيوني، ريم.

القطائع: ثلاثية ابن طولون: رواية / ريم بسيوني. - الجيزة: نهضة مصر للنشر، يناير 2021.

704ص، 14.5×21.5 سم.

تدمك: 978-977-14-6041-1

1 - القصص العربية.

أ - العنوان.

813

الترقيم الدولي: 978-977-14-6041-1

رقم الإيداع: 22031 / 2021

الطبعة الأولى: يناير 2022



تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -

المهندسين - الجيزة



ثلاثية

ابن طولون

على هامش الرواية

«أريـد للقطائـع أن تبقى مدينة بلا أثـر، أريد لكل حجـر أن يتفتت إلى ذرات رمـال لا تغمـر ولا تدفـئ، بل تتبعثـر في الهواء بلا غايـة ولا هدف. هـذه المدينة للنسـيان، هذه المدينـة للعدم. لو تبقى منهـا شيء فقد انهزمنا، ولو أرشـد الحجر الصغير على ما كان فلا أمل في محو العصيان، ولا تقبل القدر».

محمد بن سليمان الكاتب 905 م



فلا تعشق الدنيا أُخيَّ فإنما ... ترى عاشق الدنيا بِجُهدِ بَلاءِ
حلاوتها ممزوجة بمرارة ... وراحتها ممزوجة بعناءِ
فلا تمش يومًا في ثيابِ مَخيلَةٍ ... فإنك من طين خُلِقتَ وماءِ

أبو العتاهية
شاعر عباسي

الحكاية الأولى: ميسون

الحكاية الثانية: حلم أحمد

الحكاية الثالثة: العهد

قبل الحكايات...

بين الأنقاض

القاهرة 1918

الحزن يلبد في الأعماق بينما الجميع يحتفل بإنجازاته منذ زمن. زواج يبدو ناجحًا، عمل في ديوان حكومي، وأرض تجود وتفيض. ولكن صرخات النساء من حوله لا تتوقف والدعاء على الظالم يستفزه، وربما يخرج قسوة لم يكن يعرفها. انتاب الغموض النفس، وأصبح الفهم مستحيلًا. منذ عمل في هيئة الآثار العربية وهو يعد الأيام كما لو كان في سجن قاس، لا يفهم ما يحدث، ولا يأبه به. يجلس في مكتبه كل يوم ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى بيته، ولكن الوضع اختلف اليوم، فبعد الخمود تأتي المقاومة، وعند ركود الماء تتضح الرؤيا. السلطان الجديد مختلف، وطموحه قوي ولكنه لا يتبع الأعراف، يقولون إنه يتحدى الخلافة، ويريد فهم الماضي.. أي فهم؟ وأي تاريخ يريد السلطان أن يكشفه؟

صرخات النساء دفعت عادلًا إلى أن يصيح في حزم: لو سمعت صوتكن فسآمر بسجنكن اليوم.. هذه أوامر جلالة السلطان فؤاد.. يريد أن يصلي في مسجد ابن طولون.

قالت إحداهن في استجداء: هذا ليس مسجدًا يا بني، بل هو بيت للعجزة والمرضى.. لا صلاة تصح فيه.. لم يفعلها قبله أحد.

قال في حسم: قرار جلالة السلطان لابد أن ينفذ.

– ولِمَ يترك السلطان مساجد القاهرة كلها ويهدم بيوتنا؟

ثم تمتمت وهي تضرب بكفها على وجهها: مسجد طولون لا يصلح للصلاة.. الصلاة هنا حرام.. يقولون إنه بناه بأموال مسروقة، وشيده قبطي؟ كيف لمسلم أن يصلي في مسجد أمواله مسروقة؟

قال عادل في حسم: لا تناقشي معي.. أخلي المكان في ظرف ساعة.. جلالة السلطان رحيمٌ معكم، سيبني لكم بيوتًا جديدة.

عند ظهور الشرطة هدأت الكلمات، وبدأ الرجال في حمل الأمتعة.

قال الشرطي لعادل في صوت خفيض: لابد من هدم البيوت الملتصقة بالمسجد. لا يمكن لجلالة السلطان فؤاد أن يرى هذا الفقر وهذه القاذورات.

قال عادل في امتعاض: لابد أن تبقى معي عند الهدم، فلا أعرف كيف أجيب عن أسئلة النساء ولا أتحمل صرخاتهن.

قال الشرطي في ذهول: أسئلة؟ ونساء؟ منذ متى تسأل النساء؟ ومنذ متى يريد ساكنو الحارات المعرفة؟ لم لم يسألوا من قبل؟ هي أيام غريبة. لقد قرر جلالة السلطان فؤاد أن يخصص أربعين ألف جنيه تعويضًا لكل المتضررين. هذا لم يحدث من حاكم من قبل.

اقترب عادل من الشرطي، ثم سأل السؤال الذي ألحت عليه زوجته أن يسأله: يا أخي، سمعت أن السلطان بعد صلاة الجمعة سيتصور مع المصلين صورة تنشر في الجرائد.

قال الشرطي: سيسمح لكل من ساعد في تجهيز المسجد بالصلاة معه.

- وسوف آتي بعد الصلاة مباشرة للتصوير معه، سيتصور خارج المسجد أليس كذلك؟ لا أخفي عليك، زوجتي أخبرت كل أصدقائها بأني سأتصور مع جلالة السلطان فؤاد.. لا طاقة لي على إغضابها.

- ولكن لا تتأخر.. السلطان أحمد فؤاد لن ينتظرك.

***

ضغط عادل على جفنيه ثم فتحهما وهو ينظر إلى الأنقاض والصخور التي تتناثر حوله.. في صحن المسجد تكومت بقايا هدم قديمة لم يفكر أحد في إزاحتها منذ ألف عام أو يزيد. وحول المسجد تتكون اليوم أنقاض بيوت بناها أصحابها بداخله وحوله، وبجثوا الحائط سميك لا يعرفون تاريخه ليفترشوا مقعدًا أو يضيئوا نارًا.

بدا العالم البريطاني أكثر معرفة بالتاريخ وأكثر حماسًا للاكتشاف. وما الذي يمكن اكتشافه بين الأنقاض؟!

عند هدم بيتٍ ملتصق بحائط المسجد، ظهر مدخلٌ جديدٌ وبابٌ سحريٌّ، ودرجات سلم مدهونة بالأبيض الطازج كأنها بنيت بالأمس. إخفاء الماضي يجعل اكتشافه أكثر حدة وأكثر ارتباكًا، ودفن الوحش تحت الأنقاض يجعله أكثر ضراوة.

سلط عينيه على التشقق الناتج عن ضربة الفأس في البيوت، وكلما تهاوى سقف ظهرت حقيقة، وكلما تصدع حائط انكشف بابٌ جديدٌ تحته أو حوله..

صاح العالم البريطاني بالعربية: لا تقتربوا من الأنقاض، كلها كنوز، اتركوها لنا.

نظر إليه الشرطي في ذهول، بينما كان عادل مستغرقًا داخل نفسه التي تتصدع مع كل حائط، وفي غموض روحه الذي لا يقل إبهامًا عن لغة الطير والأحجار المتناثرة أمامه.

استمر العمال في هدم كل البيوت التي تجرأت على المسجد، ومهدوا طريقًا لدخول السلطان فؤاد، هذا السلطان هو أول من يصلي في مسجد طولون صلاة الجمعة منذ عصر المماليك ربما.

بدا العالم البريطاني هادئًا، ولم تتوقف عيناه عن امتصاص المكان، ثم نظر إلى عادل قائلًا: هل ترى الأحجار؟

- لا أرى سوى الأحجار.

- في صوتك سخطٌ لا أفهمه، هل هو سخطٌ مني أم من نفسك؟

- من الأحجار يا أستاذ.

اتجه العالم البريطاني بعينيه إلى حائط يتهاوى من بيت يبتعد مائة متر عن درج المسجد الذي ظهر لهم للتوّ، ثم صاح لأول مرة في صوت مرتعش: القطائع..

ثم اتجه العالم بخطى متسارعة إلى البيت.. عند هدم الحائط ظهر حائط آخر بزخارف من الجص على طراز سامراء في العراق. اقترب بأصابعه من الحائط ثم قال: عادل.. هذا البيت الذي اكتشفناه للتوّ هو بيت سعيد بن كاتب الفرغاني بلا شك.. ماذا ترى؟

- أرى أحجارًا قديمة.. ولا أفهم يا أستاذ لم يهتم جلالة السلطان فؤاد بهذا المسجد الآن؟ والنار تأكل البلاد، والعالم يتقاتل في ضراوة.

لم يجب العالم البريطاني، كان مستغرقًا في النظر إلى الزخارف، ثم اتجهت عيناه من جديد للصخور والعمال يحملونها خارج الجامع، فقال في حسم: إياكم.. انقلوها إلى دار الآثار العربية..

رموا بالصخور في غضب، الشرطي يأمرهم بأن يتخلصوا منها، والإنجليزي يأمرهم بأن يبقوا عليها، وهم يريدون العودة إلى بيوتهم قبل صلاة المغرب.

عند ارتطام الصخور بأرض المسجد رجت الأرض رجًا، وأخرجت الأوراق من باطنها، فتناثرت الأوراق في البيت الذي يقف بداخله العالم وعادل، وقال العالم في صوته المرتجف: لملم الأوراق، الواحدة تلو الأخرى، سيريد السلطان الاطلاع عليها كلها..

بدأ عادل يلملم الأوراق القديمة ثم قال: لا أعرف ماذا يريد جلالة السلطان يا أستاذ.

- يريد الكثير..

- لم يصلي هنا؟ الناس لن ترضى عن صلاته هنا.

ابتسم العالم، ثم انحنى وقال: هذه الأوراق تكفينا عمرًا أو أكثر.. لململها في حرص.

- تآكلت وقدمت.

- عند القراءة تعود إلى سابق عهدها دون أدنى مجهود.

في المستهل، وجد عادل هذه الكلمات على رقعة منفصلة:

«هذا البيت في القطائع كان بيت أنس بن حمزة السكندري، ثم أصبح بيت سعيد بن كاتب الفرغاني، هو كل ما تبقى من القطائع.. هذه الأوراق جمعها سعيد ابن كاتب الفرغاني من جعفر بن عبد الغفار كاتب أحمد بن طولون، ومن أسماء زوجة أحمد بن طولون، ومن محمد بن سليمان الكاتب، عدو أحمد بن طولون. ثم كتب سعيد كل ما عرف، وما شهد عليه والله أعلم».

في محو المدينة رائحة الخوف وطعم الخطر.

وفي محو المدينة حرب على الذاكرة بالسيوف والرماح.

وفي محو المدينة نقمة ونعمة، فالمدن الراحلة تكمن في الذاكرة.

المدن الراحلة دومًا بشمس ساطعة ومبانٍ شامخة.

عند البحث عن المدينة يلفظ القلب أنفاسه الأخيرة.

نامت المدينة فاستيقظ المسافر.

دنت المدينة فغفل ساكنها.

هذه حكاية مدينة غير كل المدن، في بدايتها التقاء بين العدو والحبيب..

وفي أزقتها اقتراب من هوة كلها كنوز، لا ترحم من يتردد، ولا تتعلق إلا بمن يفنى بها.

قالوا: لم تكن هنا، ولا هناك، قالوا بل كانت عند جبل يعصم من الموت، قالوا سكانها تناثروا حول الأرض بلا ذاكرة ولا معرفة.

قالوا: الأجداد لملمت أحجارها في حفرة قعرها أعمق من قاع البحر..

ثم طمسوا معالمها ليحموا الأوراق من التلف.

قالوا: الوقت يتلف القلوب، ويوهن الجسد، ويودي بكل المدن..

ولكن على هذه الأرض لا آثار تفنى، ولا تاريخ يضيع.

هنا يتقنون الاحتفاظ بكل الأوراق حتى لو لم يقرءوها.

تعال أحكي لكَ عن المدينة، وعن العشاق، وعن الحلم، وعن الوصول، وعن التيه أربعين عامًا أو أكثر.

سعيد بن كاتب الفرغاني

الحكاية الأولى .. ميسون

الباب الأول

سأندبُ حتى يعلم الطيرُ أنني ... حـزينٌ ويَرثي لـي الحمامُ المغرّدُ
وألثِمُ أرضًا أنتِ فيهـــا مقيمةٌ ... لَعَلَّ لهيبي من ثرى الأرض يَبرُدُ

عنترة بن شداد (شاعر جاهلي)

- 1 -

254 هجريًا / 868 ميلاديًا

وعند الوصول إلى ساحة السوق في الفسطاط طلب منها الحراس أن تتوقف عن السير فجأة. اجتمع الناس حول ميسون فظنت لثوانٍ أنهم مهتمون بجمالها، ويريدون أن يعرفوا من تكون ابنة القاضي التي يحكي عن حسنها كل أهالي الفسطاط. ولكن الناس اجتمعت لشيء آخر، اتجهت عيناها إلى منتصف الساحة، ورأت الشاب المقيد بسلاسل من حديد، رأسه متدلٍّ وكأنه فاقد الوعي، نظرت إلى الخازوق الأسود الذي يستعد الحارس لغرزه في جسد الشاب، لم تستطع أن تدير عينيها، ثبتت نظرها على رأس الخازوق وهو يخترق جسد الشاب، والصرخات مختلفة. لها طعم الدم ورائحة الانتهاء، استمر الحارس في عمله، يغرز الخازوق في إتقان حتى اتضحت الرؤيا وظهر رأس الخازوق من أعلى الشاب، انبثقت الدماء من عينيه أو هكذا ظنت، وشفتيه وجنباته. هدأت الصرخات، وتبعها أنين لم يترك أذنيها طوال العمر. تأوهت أم ميسون ثم بدا أنها فقدت الوعي، أما ميسون فقد غاصت داخل جسد الشاب، تنظر إلى تفاصيل أحشائه البارزة، واللحم المتسرب من بين جنبات الخازوق. ساد صمت الموت حول الشاب، واستمر أنينه ينشر العجز والذل حول الرجال والنساء. لم يجرؤ أحد على رفع رأسه اليوم. صاح الحارس وهو يمسك بشعر الشاب ليظهر رأسه للجموع: من يتحدَّ والي الخراج يتحدَّ أوامر الخليفة، ومن يتحدَّ أوامر الخليفة

يستحق نار جهنم. يا أهل مصر، الضرائب حق الخليفة، والخليفة أمير المؤمنين. أحمد بن المدبر والي الخراج له الطاعة من الخبيث والطيب.

علت الصيحات التي تدعو للخليفة، وكأن كل دعوة ممتزجة برجاء ومهلة للعيش يومًا أو شهرًا أو عامًا لو أمكن. لم تفقد ميسون الوعي كأمها، حدقت في عيني الشاب، لم تمتزج الدماء بمخاط أسود؟ ترى هل عمّ الظلام أم غضبت النجوم اليوم؟ سمعت صوتًا هادئًا يقول: مولاتي ميسون..

نظرت أمامها ورفعت خمارها، التقت أعينهما بلا عذر ولا إنذار، خفق القلب أو كاد، لم تتأكد لو كانت رجفة القلب من رؤية الشاب الذي لن يحتضر اليوم بل غدًا أو بعد غد، أم لرؤية الوراق، حامل الكتب، أنس، الذي نادى اسمها ونظر إليها في رقة بعينيه الكبيرتين، وحاجبيه السميكين الأسودين، هل يمكن أن تعشق العين وتعتاد، أم أن الدماء تطمس الحكمة؟ ابتسم وقال: والدتك تحتاج إلى مساعدة.

لم تنطق ميسون. ذهبت إلى السوق مع أمها على أمل لقاء حبيبها أنس الوراق. يسعدها سماع أشعاره ورؤية بريق عينيه لحظة اقترابها. تغير كل شيء اليوم. التقت أعينهما وتحدثت، واستفاضت في الحكي. منذ عام والحب يخرق العقول، واللقاءات قصيرة كلقاء سيف استلّ من غمد صاحبه ليقطع رقاب المظلومين.

التفت الجواري حول أم ميسون، وطلبن من الوراق أن يتركهن، ولكنه أصر على المساعدة، ألقى بالماء على وجه الأم ثم قال وهو لا ينظر إلى ميسون: والدتك لم تعتد أن ترى تأديب المتمردين يا مولاتي. هذا يحدث كل يوم. أنا ذاهب إلى بيتك لأعطي القاضي الكتب التي طلبها، لو سمحت لي أن أصطحبكم.

طأطأت رأسها ثم قالت وعقلها شارد: والي الخراج..

قال الوراق في حسم: ينفذ الأوامر، ويتقن عمله.

سار بجانبها، ثم قال في صوت خفيض لم يسمعه سواها: لو تفترشين حشا الصدر وتبددين جوارحي ويفوز قلبي ببريق لحظك مرة واحدة، ثم يفنى جسدي كما الشاب اليوم، فلن أبالي، فسوف أكون قد تعذبت وعيناك على قلبي، وفنيت وأنفاسك تبعثني كهواء الجنة.

تظاهرت ميسون بعدم سماع كلماته، وكتمت ابتسامة رضا خرجت دون استئذان. فأكمل أنس الوراق:

وألثِمُ أرضًا أنتِ فيها مقيمةٌ لعلَّ لهيبي من ثرى الأرض يَبْرُدُ

قالت في دلال بالقبطية: هذه ليست كلماتك.

فأجاب بالقبطية: أستعير كلمات العرب، فهم يتقنون العشق كما تتقن النجوم حرق نفسها.

ثم أكمل بالقبطية: ولكن الحب الذي يشق الروح لا يخرج إلا بلغة الأجداد.. أحبك يا ميسون وسأتزوجك.

أرخت جفنيها في رضا.

***

الوراق لم يعرف رائحة الصبر، ولا مذاق الحرية إلا عندما أحب ميسون. كان عمره فارغًا حزينًا، وأيامه المستقرة رتيبة، وأيامه المتوترة مؤلمة، ثم ظهرت ميسون، رآها أول مرة صدفة وهو يعطي والدها الكتب التي طلبها من حانوت الوراق في الفسطاط، ومنذ وقعت عيناه عليها وهي تغمر أيامه. لم يكن جمالها الساطع هو ما سيطر عليه ولا نظرات الكبرياء في عينيها، ولكنْ جنونٌ في مقلتيها اللتين لا تستقران، وجموح في ثغرها المحدد بإتقان الصانع العظيم. دخلت تمطي والدها رسالةً من الأم على عجلٍ، تزحزح خمارها، ولم تره، ولم تهتم بوجوده، ولكنها لم

تترك فؤاده. يومًا وراء يوم يتتبعها بعينيه في شوق ويأس. انتقل إلى الفسطاط منذ عامين، منذ تغيرت حياته، وارتبط مصيره بوالي الخراج إلى أبد الدهر.

همست له يومًا «بحنس» ساحرة الهرم بكلمات لم تترك ذاكرته، حكى لها ما كان. قالت في صوتها الهادئ: أنس، أحيانًا تلتحم الأرواح لأن ما بينهما حب لا يفنى، وأحيانًا تلتحم الأرواح لأن ما بينهما هو كره لا يفنى. وكثيرًا ما ينتهي العمر دون أن ندرك أننا عشنا أسرى لمن ظلمنا، وليس لمن أنصفنا. خطواتك تتبع أثر الظالم، فيغمر عينيك التراب. فكر في مَنْ تكون.

قال أنس الوراق حينها: ابن الصياد.

- أنت الوراق؟ أم الصياد أم المحارب أم العاشق؟

- أنا أنس، كل هؤلاء.

ضحكت حينها وتلاشت داخل ظلامها.

منذ عامين تغير العمر ومال. في الإسكندرية استقر شيخ الصيادين حمزة أبو أنس، ولم يستقر البحر. أفنى أيامه يدور حول ولديه ويعدد غنائمه. أراد لتجارته أن تنجح وأراد لأولاده أن يرثوا منه مراكب لا يرى نهايتها من يقف على الشاطئ. كان له ولدان، الأكبر «أنس»، والأصغر «علي». حيره أمر أنس وأقلق نومه، فلا صبر لديه للملمة الشباك، وانتظار الرزق، ولا ميل لديه للتجارة. منذ ذهب إلى الكتّاب وهو مشغول بالقراءة؛ تسحره الأوراق وصناعتها وخطوط الحبر والدواة، سافر أنس وهو دون العشرين إلى الفسطاط ليقابل عالمًا ذاع صيته حينها يدعى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، كتب عن مصر وعن الفتح الإسلامي، كتب كلامًا مختلفًا يكاد يُذهب العقل، تكلم كما لم يتكلم غيره عن حضارة قديمة، وأجداد عظماء، عن فنون وعلوم لم يتقنها غيرهم، فتح لأنس كتب الخوارزمي، علمه الجغرافيا والفلك وعلمًا جديدًا يُدعى الجبر. قيل إن في هذا العلم مفتاح كل العلوم وسر القدماء وسر الهندسة والكواكب. بدأ يتردد

على حوانيت الوراقين في الفسطاط، ويستمع إلى مناظرات الفلسفة، ويقرأ عن الحكائين اليونانيين. ترك الصيد والبحر، وغاص في عالم مختلف. نسي في غمرة الغوص أن يحب أو يعاشر جارية كأخيه ووالده. أصبح يقتصد من عطايا الأب ليشتري الكتب. لا صديق له ولا أنيس. عندما أصر الأب على عودته إلى الإسكندرية وتعلمه تجارة والده وافق على مضض؛ لأنه لا يملك المال. عاد وقلبه مع الورق. هذه الصناعة السحرية التي تجعل من نفس الكتاب عشرة وعشرين ومائة. بدأ الناس يتهامزون، ويدّعون أن ابن الصياد مجنون، غريب الأطوار، يصمت بالساعات ولا يهتم بامرأة ولا دنانير. أما عَلِيٌّ فقد تعلم الصيد، وانطلق بين الرجال يلهو أحيانًا، ويأتي سكّيرًا إلى البيت أحيانًا، وأحيانًا أخرى يصلي بإتقان، ويطلب المغفرة. عندما بدأ ابن المدبر يطلب الضرائب اعترض شيخ الصيادين أولًا، ثم اجتمع بالتجار ليكتبوا شكوى للخليفة، ولكن لا شكوى توقف ابن المدبر ولا واليًا. عندما لم يهتم الخليفة بأمرهم ثار حمزة السكندري شيخ الصيادين وكانت المواجهة بينه وبين ابن المدبر.

ثم جاء يوم جلد التاجر ومصادرة كل أمواله ومراكبه. جاء اليوم الذي غيّر حياة كل أهل الإسكندرية، فلم يجرؤ بعدها تاجر على أن يبعث بشكوى، ولا أن يعترض. أما الابنان فشاهدا والدهما وهو يُجلد من صيادٍ يعمل عنده، سبه الصياد واتهمه بأبشع التهم. ورجال ابن المدبر تحيط بالمكان وتمنع تدخل أحد. كلما سمع أنس صوت السوط يهوي على ظهر والده انفرط عقد حياته الماضية.

أنس، لو استطاع فقط أن ينسى طعم الحبل في فمه، والسيف في ظهره، كيف يكون لدمائه طعم لو لم تتساقط، كيف يستقر السيف في ظهره دون أن يخترق أعماقه. ولكم تمنى أن يخترق أعماقه! كانوا مائة رجل أو يزيدون وأنس ثاني اثنين، هو وعليٌّ. فَهِمَا بعدها أن ابن المدبر أراد أن يلقن أهل الإسكندرية درسًا، وأن يجعل من والدهما عبرة لكل من تجرأ. جاء بنفسه، والي الخراج ابن المدبر، لم يقترب، بقي بعيدًا كالجبال العاتية، رأى أنس وجهه وعمامته والتفت إلى جلبابه

الحريري الذي يرفرف من هواء الإسكندرية كلما سقط السوط على ظهر الأب.
جاء مائة رجل أو يزيدون، كتفوا الأب أولًا وسط مقاومة أنس ورجاء عليّ. قاوم أنس نعم، حتى لكمه رجل فتساقطت الدماء من فمه، مسحها بكفه ثم صاح: اتركوا أبي.. يا زايد يا حقير، هذا هو سيدك.. تذكر.. سأقطع أطرافك.

كلما صاح أنس اشتدت ضربات الرجال له ولأخيه ولأبيه. لم يقوَ على المقاومة أكثر من ساعة، خارت قواه بعد أن ركلوه، وسحلوه، وضربوا رأسه ثم ربطوا أطرافه بحبال سميكة، وتحركوا بعيدًا عن مرمى بصره حتى يشهد على ذل أبيه، ولكنَّ عينيه كانتا تنظران إلى ابن المدبر، وطرف عباءته الحريري الذي يتحرك مع الرياح النابعة من صرخات الأب. رأى عيني ابن المدبر، كانتا ثابتتين مبتسمتين راضيتين، ثم نظر إلى عيني زايد، كانتا ممتلئتين بنشوى وتشفٍّ، صاح زايد وهو يضرب الأب: أريد أن أسمع رجاءك يا ظالم، أريد أن أسمع رجاءك.. هيَّا.

تمتم أنس حينها وهو يغمض عينيه: أرجوك يا أبي لا تفعل، زايد الخادم، هو من أنعمت عليه.. لا تعطه هذا الانتصار..

ضربة السوط هذه المرة جاءت على وجه الأب، فصاح بأعلى صوته. صمم زايد على أن يسمع الرجاء.. وتوالت الضربات بقسوة وتصميم حتى قالها، رجا زايد، ثم طلب الصفح من ابن المدبر، مرة ومرتين. ولم تتوقف الضربات.

ابتسم ابن المدبر، وعندما أتم زايد مائة جلدة توقف، وترك الأب فسقط على الأرض نصف واعٍ، ثم التفت إلى ابن المدبر وطأطأ رأسه، وانحنى زايد أمام والي الخراج وقال: مولاي..

فقال ابن المدبر في قوة: والي الخراج رحيمٌ مع أهل مصر، وإلا كان سيذبح كل مَنْ تجرأ وكل مَنْ ثار. من اليوم لا أريد أن أسمع همسات بين الشفاه ولا أنفاسًا عالية. أريد للصيادين أن يتنفسوا في هدوء، وأريد لصيد البحر أن يصلني أولًا،

ثم أقسمه على مَنْ يستحق ومَنْ يطيع، مَنْ يُطع فسيفوز، ومَنْ يرفض فسيَبْقى هنا. أنا هنا ولن أبرح هذه الأرض. لا أمل لكم سوى الطاعة.

ثم التفت إلى أنس، التقت أعينهما، لم يدرِ أنس عينيه. قال ابن المدبر للرجال: لا أريد لأبناء الصياد أن يبقوا هنا. عليهم أن يرحلوا اليوم.

قال زايد في فرح: أنا أتأكد من هذا بنفسي يا مولاي.

رحل رجال ابن المدبر. وطأطأ الصيادون رءوسهم في حسرة. جن الليل، وعاد الأب إلى بيته منكس الرأس، ولم ينطق بكلمة.

ضمد عَلِيٌّ جراح الأب. بقي الأب ساكنًا. ربت أنس على يده، ثم قبّل رأسه وقال: ماذا يفعل الشجعان أمام وحوش الصحراء يا أبي؟! لننسَ ما كان.

لم يجب الأب، فقال أنس في رفق: هم جاهلون يا أبي، ولابد للظلم من نهاية.

فقال الأب في حسم: ليس للظلم نهاية.

قال أنس في إصرار: هناك عدلٌ في هذا الزمن. لابد أن نشتكي للوالي.

قال الأب في حسم: إياك أن تفعل. لا شيء يصل إلى الوالي. رجال ابن المدبر تسيطر على كل هواء مصر.

فقال أنس في غضب: ولكن الدنيا عادلة، والظالم سيأخذ جزاءه.

قال الأب: لم يعد لدينا أي شيء.

فقال عَلِيٌّ في عبوس: سنسترد كل شيء.

لم ينطق الأب.

عند منتصف الليل سمع أنس صوت الأمواج ترتطم بأبواب البيت، والرياح تخترق النوافذ. أراد أن يطمئن على والده، ذهب إلى حجرته فلم يكن موجودًا. أيقظ أخاه في هيستيرية، ثم هرولا خارج البيت. لم تكن الأمواج ترتطم بالباب،

ولا كانت الرياح تخترق النوافذ، كان الأب يأخذ قاربه الصغير، كل ما تبقى له، ويخرج إلى البحر ليلًا. التف الأخوان حول المكان، ثم أمسكا بقارب لأحد الصيادين، وحاولا اللحاق بالأب. عَليٌّ يتكلم بلا توقف، وأنس يستعمل المجداف بكل قوته والعرق يتصبب منه. قال عَليٌّ: ماذا يريد؟ هل يريد الصيد ليلًا؟ البحر لا أمان له الآن.. لمَ يتوغل بداخله..؟ أنس..

صاح أنس عندما وجد قارب والده: أبي.. انتظر..

التفت الأب إليه، ثم نظر إليه نظرة غير مفهومة في الظلام. لمعت عيناه أو هكذا رآها أنس، ثم ألقى بنفسه في البحر، واختفى أثره في ثوانٍ. صرخ عَليٌّ وألقى أنس بنفسه وهو يدور حول القارب في يأس، ولم ير سوى زبد الموج، أمسك بطرف القارب، فشده أخوه.. وعادا إلى الشاطئ بلا كلمة.

لجأ الأب إلى البحر وسكن بداخله. وزف زايد الخبر لكل الصيادين: حمزة قتل نفسه، حمزة ليس رجلًا، حمزة لا شيء.. حمزة كافر..

وعَليٌّ يلملم ما تبقى من بيتهم، ويتكلم دون توقف. يقول لأنس: لا تستمع إلى زايد، سنرحل من هنا..

خرج أنس في بطء من البيت، وعيناه تتبع زايد وهو يقفز كالقرد فوق النار في فرح هيستيري.

دنا منه أنس، ثم أحاط رقبته بذراعه وخنقه، حاول زايد أن يستغيث، فتح فمه ليتنفس، لم يتدخل أحد. لابد أن أنس كسر عنقه، فقد ضغط بكل حنقه وكل مرارته ولم يأبه لرجاء عَليٍّ. ترك زايد وهو جثة هامدة ثم قال في حسم وهو محاط بالرجال: حمزة السكندري شيخ الصيادين. وزايد خادم عنده. تذكروا هذا.

جروا بكل قوتهم. هربوا. دخلت الراحة قلب أنس برهة، ولكنها لم تستقر.

لكم ظن أنس أن القتل مستحيل، وأن من يتبع الحروف بقلمه لا يتقن سوى المعرفة! ولم يتوقع من نفسه أن تتوق إلى الذبح وأن محمد ثارها لحظة توقف الأنفاس. طوال عمره يؤمن بالقصاص حتى وهو طفل كان يقتص لنفسه أو لا يواجهها.. اليوم لم يعد يعرف من يكون. غاص في نفسه فلم يجد سوى رماد. ما يخيف هو الجهل، وجهل النفس لا شفاء منه.

هرب الأخوان من الإسكندرية إلى الفسطاط، لجأ أنس إلى معلمه عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم، فوجد له عملًا في حانوت في سوق الوراقين في الفسطاط. وبدأ أنس ينسخ الكتب ويبيعها، وأحيانًا يتكلم عنها مع الناس. أما عَليٌّ فحاول أن يعمل بالصيد، ولم يكن له خبرة في الصيد في الماء العذب. فلم يفلح في أن يجد عملًا بعد. هناك تعرف أنس إلى القاضي يحيى والد ميمون. كان كثير القراءة، يحب خط أنس وكلماته.

كل ليلة يرى والده بعينيه اللامعة بالعجز والخيبة، وكل يوم يقسم أن ينتقم. الغضب لم يكن موجهًا فقط لابن المدبر، كان غضبًا من نفسه ومن والده لأنه استسلم. مع أن أنس استقر في عمله ولم يشك أحد به، إلا أن عَليًّا كان قلقًا عليه. أنس يكبره ولكنه أكثر تعلقًا بالأوراق، ومن يتعلق بالأوراق ير نفسه عملاقًا وساحرًا. وهو طفل كان أكثر طفل مدلل رأته الإسكندرية، حمزة والده يعطيه كل ما يريد، حتى الطعام ينتقيه على مهل من أفضل أنواع اللحم والفاكهة. ظن حينها أنه أقوى وأعظم رجل في العالم، ثم جاء ابن المدبر، وقلص حجمه فأصبح أصغر من حبات الخردل. عَليٌّ يعرف أن الذل موجود، وأن والده حتى لو كان شيخ الصيادين فلن يستطيع الانتصار على والي الخراج، أما أنس فظن أن طوله يمتد لنجوم السماء، ويخترق عمق الأرض ليصل إلى المياه. أشفق عليه عَليٌّ، وجره إلى القاضي والشيخ بكار بن قتيبة، وكان معروفًا عن الشيخ كرهه للظلم وكتمانه أسرار البشر. دخل عَليٌّ يجر رأس أخيه، ثم صلوا ركعتين، كان أمل عَليٌّ أن يقنعه

الشيخ بالعدول عن قراره بالانتقام، فالغضب يقتل صاحبه أكثر من السم، والغيظ ينفذ إلى الكبد كالسيف والرمح معًا.

قال أنس حينها للشيخ بكار: يا شيخ.. جئت والنار تملأ قلبي. الظلم أعتى الجنود، وأشرس الأفاعي. هل لديك ترياق للظلم؟

ابتسم الشيخ، ثم قال: كأنك تطلب مني يا أنس أن أمسك بنجم قد هوى من السماء. لا شفاء إلا بيد الله، هو من يرد الظلم. إياك أن تظن أن سعيك سيكفي، هو من يعرف الحكمة والوقت.

قال أنس في غضب: عرفت أن العدل ليس موجودًا في هذا العالم. لا يرضيني أن آخذ حقي ممن ظلمني في الآخرة، أريد أن آخذ حقي منه في الدنيا ثم الآخرة. ألم يقل الله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾؟

ابتسم الشيخ ولم يجب. فقال أنس في إصرار: أنت تعرف يا شيخ.

قال الشيخ: من يدعي أنه يعرف كل شيء لم يدخل الإيمان قلبه بعد. أنا أتعلم، وأحاول الفهم، أفشل وأنجح ولكني أستمر في المحاولة. ربما تحتاج أن تفكر من جديد وتحاول الفهم.

- بل كنت غافلًا ثم سطع الضوء أمامي فأعمى عيني. لا أريد أن أفهم أكثر من هذا. يأكل الغضب كل روحي.

- افهم غضبك أولًا، ثم افهم معنى العدل، ثم افهم أنك عاجز عن معرفة غايته، هو الأعلم بها. أعرفك يا أنس، حكي لي عنك الشيخ عبد الرحمن، أنت قارئ وعالم. من يغضب يعرف بعد حين لو ترك العنان لنفسه، ومن يتساءل حتمًا فسيجد الإجابة. عندما تغضب اتجه إلى الله، وكرر كلماته، تصلي اليوم لأنك خائف منه أو طامع في عطاياه وليس لأنك تحبه، من يحب يتقبل قضاءه، ومن يحب لا يغضب من بشر، كيف تغضب من بشر فانٍ ومعك العالم بباطن الأمور كلها؟ كيف تفكر

في غيره وهو حولك بحبه؟! ألم تقل رابعة العدوية: «وحبيبي دائمًا في حضرتي، لم أجد لي عن هواه عوضًا، وهواه في البرايا محنتي ... يا حبيب القلب يا كل المنى، جُدْ بوصلٍ منك يشفي مهجتي»؟ الشفاء يأتي بحبه وليس بكره بشر ناقص.

قال أنس في حيرة: أقول لك إني غاضب فتلقي عليَّ الأشعار!

- قلت لك الغضب مرتبط بالخوف، عندما تحب تفهم أكثر. ولكن لا بد أن تعلم أن في علاقة حبك به لا سبيل لفهم كل شيء؛ لأنه هو العالم وأنت الجاهل. لا بد أن تتعلم أن تثق به، فتجعل الحب يتغلب على الغضب. هب أنك يا أنس تحب أباك أو أمك، هل تفقد ثقتك بهما حتى لو حاولا قتلك؟ هل فقد إسماعيل ثقته في النبي إبراهيم عندما حاول قتله؟

- لن أفقد ثقتي بهما.

- هو الله أقرب إليك من حبل الوريد، رحمته وسعت كل شيء. ولكنها علاقة حب بين القوي والضعيف، بين الذي وسع علمه كل شيء، والذي يطلب زيادة علمه حتى وهو يتعلم.

قال أنس: والعدل؟ ألم يطلق على نفسه اسم العادل؟!

- العدل أعيا الشيوخ يا بني، كلما حكموا حكمًا ظلوا في توجس أن يقع الظلم على إنسان بريء. هذا عدل ناقص لأننا لا نرى كل شيء. هو يرى ويعرف. الحب يا بني هو أن تسلم نفسك له وتسكن بين جنبات ضوئه وكلماته. وتعرف أنك عاجز أحيانًا وناقص كثيرًا.

قال في إصرار: ولكن القوي يأخذ كل شيء.

- لم تدخل في جوف قلبه، ولا تعرف معاناته. قال حكيمٌ يومًا، كل منا يحارب حربًا لا يعرف عنها الآخر شيئًا.

- هذه كلمات أفلاطون.

- أعرف. ألم أقل لك إنك قارئ؟ أنا أيضًا أقرأ لأفهم. فما أصعب أن تُفتي وأنت كائن ناقص! لا تقتنع بكلماتي وربما لست مستعدًّا لسماعها. أتعرف لماذا؟ لأن الغضب علامة ذهاب العقل أيضًا، يسكر كالخمر وأكثر. قبل أن تتوقف عن شرب الخمر حاول أن تتوقف عن الغضب حتى تتركه يداوي جراحك. يا بني، والدك عنده هو، ورحمته وسعت كل شيء كما قلت لك. لا تقلق على والدك، وسلم، واقتنع أنه لا يظلم ولا يقسو حتى عندما يقسو الشيوخ ويظلمون.

صمت أنس.

فأكمل الشيخ: تبغي الانتقام، والانتقام سراب يظنه الظمآن ماء. لا يروي من عطش، ولا يطعم من جوع. في النهاية العجز مصاحب للجسد. هذا الجسد الناقص من ابتلاءات آدم وعقابه، جسد هزيل ضعيف في دنيا تمر قبل أن يرتد إليك طرفك.

لم يتوقع كلمات الشيخ. لم تشف قلبه، ولكنها أربكته بعض الشيء. ولم يدرك حينها أن بعض المصلين كانوا يستمعون في صمت للحديث. اقترب أنس من الشيخ، نظر في عينيه ثم قال: أنت تعرف من أكون. ألن تطلب من الشرطة القبض علي؟ والي الخراج يبحث عني.

قال الشيخ بكلل في صوت خافت: وأنت تعرف أني لن أفعل وإلا لما جئت إليَّ.

حدق فيه أنس برهة ثم قام وخرج بلا كلمة.

***

هذا ماضٍ تمنى ألا ينساه قط. ولكن جاءت ميسون ففتحت أبواب النور حوله. اختلج القلب كلما اقتربت وانفرجت كل الحلقات لو رأى وجهها المنير بهدوء صافٍ كأنهار الجنة. منذ عامين ظن أن الفرحة لن تعود، وأن قلبه لن يخفق ويترقب قط، ثم غيرت كل شيء بإطلالتها وعينيها الجريئتين الخاشعتين دومًا.

أنس الوراق، علاقته بالكتب غير كل البشر، انتزع الألم أوصال فؤاده، ومن فقد كل شيء يصبح أقوى البشر وأكثرهم شجاعة. الفقد يصاحبه الحكمة أحيانًا، ولكن الأكيد هو أنه يحصن النفس بحصن منيع يشبه صخور الأهرامات في صلابته وقدرته على التحمل. ماذا سيخسر؟ عيناه حسدتا الشاب وهو يتأوه، فهو يعرف أن النهاية ليست ببعيدة. أما أنس فلا يقين لديه ولا نهاية. يكتب في دفتر في إتقان. فالانتقام عندما يشبه المسائل الحسابية يأتي بنتيجة متوقعة وسريعة. تأثر بكتابات الخوارزمي منذ الصغر، فك طلاسم رموزه، وفهم علم الجبر. عرف أن المعادلات الصعبة لها حل، ولكن لا بد من تقسيمها لستة أقسام وحل كل نموذج على حدة. الدنيا كلها ترابيع وجذور وعدد. والدنيا معادلة من ستة نماذج، فهمها سهل لو قسمنا وبحثنا عن النتيجة والجذر، لكل مسألة حل. كان لديه خانة للحب وأخرى للقبح والتنكيل. من يتعذب فلا بد ألا يتضرع لمعذبه، هذه خطيئة لا تغتفر. ترى هل تسبب أنس في موت والده؟ هل أبصر والده في عينيه اللوم دون أن يبرح؟ ألا يقدر الأب دومًا كل شيء؟ عندما التقت أعينهما، هل رأى الأب بعض الحسرة والإحباط في عيني أنس؟ في الخانة الثالثة العقاب وفي الخانة الرابعة الضحايا، من سيضم في هذه الخانة؟ ميسون؟ توقف عن الكتابة لحظة، كتب بخط جميل اسمها، لم يضعف أمام امرأة قط، ولكنه كتب خطته بعد دراسة وقراءة، وهي ناجحة لها نتيجة واضحة. الجذر والعدد.. ترى هل يعرض ميسون للخطر بالترابيع التي يكتبها الآن؟ في معادلته لا خطر عليها. ابتسم لنفسه وهو يفكر في خطة الالتحام بينهما. الحب شعور مختلف، ولكنه يخضع للمعادلات، هذا أكيد.

في خانة خامسة وضع اسم ابن المدير، ترى كيف سيتصرف؟ ومتى سيموت؟ الموت راحة، لا بد من تعذيب من نوع آخر، ذل ربما، رجاء، بقطع أطرافه، كل يوم يقطع طرفًا ثم يمنع عنه الماء. يحتاج إلى أن يقرأ أكثر، ويحفظ عن ظهر قلب. يحتاج

إلى أن يضيف خانة للمفاجآت. وأول مفاجأة أنه يشتاق أكثر مما توقع، ويتمنى أكثر مما يجب، ظن أن بموت القلب يخمد الجسد، ولكنه يريد ابنة القاضي.. يعشقها.

صاح أخوه في وجهه أنه مجنون. وعده أن يأتي إليه بجارية من اليونان اليوم، وستكون أجمل من ابنة القاضي. النساء سواء؛ وجه حسن وجسد فاره لا أكثر. فقال أنس في إصرار: لا أريد غير ميسون، ولن أتزوج غيرها.

قال عليٌّ في تهكم: أنت قاتل هاربٌ، وهي ابنة القاضي. أنس، عد إلى عقلك. كل يوم أرى أوراقك هذه بمعادلات غريبة، أرقام وحروف لا أعرف هل هي سحر من عمل الشيطان أم هي مس من الجنون؟ أنت لا تستطيع أن تنتقم من والي الخراج ولا أن تصل إلى ابنة القاضي حتى لو رسمت بلغة الطير وصاحبت ساحرة الهرم.

قال أنس في حسم: أنا ابن شيخ الصيادين، وهي ابنة القاضي، لا فرق بيننا. ربما ليس ببعيد كنت أغنى منها بكثير.

قال عليٌّ في فزع: افتح عينيك يا أخي ولا تعش في غفلة. أنت ابن رجل قتل نفسه، لا أمل لك.

بدا أن العشق لا يخضع لقواعد الجبر ولا علم الفلك، حتى النجوم تقف حائرة أمام سطوته ونفوذه. صلى اليوم وتذر نذرًا، تكلم مع الله، قال إنه مستعد أن ينسى كل ما فات، سيترك الظالم لحسابه مع الله، وسيمزق ورقته أو يخبئها داخل أعمدة القدماء، ولكن بشرط واحد أن تصبح ميسون له هو. تملكت الوجدان فأصبح غيابها يزيح كل حقد النفس، ونظرة عينيها التي لا ينساها تلعب بالذاكرة وتنسي الهدف. لم يعد يريد أن يضيع لحظة من عمره دون التفكير فيها وتصورها وهي بين ذراعيه وحول روحه. ولكن ساحرة الهرم تكلمت عن التحام أرواح الأعداء.. وليتها لم تعلم.. تقاربت أيام والي الخراج وأنس عندما عرف والي الخراج بجمال ميسون.

***

- 2 -

اليوم تساقطت النجوم من السماء وتوقع المصريون الحزن القادم. تغير والٍ وراء والٍ، وأحمد بن المدبر لا يبرح البلاد ولا ينوي المغادرة. اشتد السخط، واستقر الظلم، وأصبح النواح مكتومًا والأنين مملًا وبلا قيمة. ويوم تساقطت النجوم حدثت المعجزة أو كادت. ذاع الخبر في الفسطاط، وتناقله المارة حتى وصل إلى الجيزة وتعدى الحدود إلى الثغور، فضحك من ضحك، وذهل من ذهل، وتوقع البعض يوم القيامة. والخبر الذي أذهل المصريين لم يكن خبر تساقط النجوم، ولم يكن خبرًا عن والي مصر الجديد الذي لن يأتي، بل سيبعث نائبًا عنه. الخبر الذي أدهش العقول، وطار أسرع من الغربان بعد المعركة، كان خبرًا أكثر غرابة وأكثر أهمية. أحمد بن المدبر والي خراج مصر الذي عاصر واليًا بعدَ والٍ، وخليفة وراء خليفة، أحمد بن المدبر والي خراج مصر الذي حفر مكانه في بغداد وسامراء وحول بلاط خلفاء بني العباس، أحمد بن المدبر الذي أذاق المصريين ذل الحاجة بعد الاستغناء، والفقر بعد الثراء، ابن المدبر الذي ادعى أنه يملك ملح الأرض في مصر وصيد البحر، ابن المدبر عشق ابنة القاضي يحيى بن عيسى وكتب فيها الأشعار. علت ضحكات النساء، وتفوقت قصة لقاء ابن المدبر الظالم بابنة القاضي بارعة الجمال على أخبار الوالي الجديد وتساقط النجوم من السماء. بل قالت السيدات في خُبث إن النجوم سقطت بسبب قوة العشق. وإن ابن المدبر يملك بداخله قلب عصفور رقيقًا فتّته خصر ابنة القاضي. وبدأ الرجال يستمعون للحكاية في توق إلى النهاية، هل سيتزوج ابن المدبر من المصرية

التي عشقها؟ هل سيخطفها من والدها؟ هل سيرق قلبه على أهل مصر بعد زواجه؟ هل سيغلظ عليهم أكثر وأكثر بعد أن ينال ما يريد؟ يقولون إن القاضي لن يسمح بزواج ابنته من هذا الشيطان. ويقولون إن البنت عشقته كالجواري، فقد غمرها بالأشعار والحلي، فلم تعد ترى سواه. يقولون إنه أهمل زوجاته، ولم يعد يتردد على جواريه، وإن خبر غرامه بابنة القاضي قد وصل إلى بلاط الخلافة، حتى إن أشعاره القديمة في الجارية الشهيرة «عُرَيب» كانت لا شيء بالنسبة لأشعاره في ميسون ابنة القاضي. وصف خصرها وصدرها، ذاب داخل عينيها، وغاص داخل شفتيها، ودفن رأسه في شعرها الطويل. كتب عن الهيام والمتعة بين ذراعيها. فلابد أنه تذوق دفء ذراعيها، وقبَّل شفتيها، بل لا بد أنه رأى ما رأى حتى يصفه بهذه الدقة وهذا الشوق. ضربت النساء على وجوههن في حماس وخجل، ثم ضربن على أفواههن، وهن يتداولن الحكاية. الحكاية أصعب وأكثر خطورة مما يتخيل الرجال. حكت عبلة الماشطة كل شيء. تدخل كل بيت، وتعرف كل بنت وزوجة. بل تعرف ابن المدبر نفسه، أعطاها طوقًا من الذهب الخالص لتجهز له اللقاء الذي اشتهر في كل أركان مصر، بل وصل إلى الشام والعراق.

***

حكت عبلة الماشطة كل شيء. قالت إن الحكاية بدأت عندما ذهبت إلى بيت القاضي لتجهز ابنته رقية لزوجها، تزينها بالحناء، ترسم قدميها وكفيها، وتمشط شعرها، وتعصب رأسها، فتصبح أجمل حتى من زوجات الخليفة. لا يوجد في مصر كلها أغلى ولا أفضل من عبلة الماشطة لتزيين بنات الأمراء والقضاة. ولا يوجد في مصر كلها سوى عبلة الماشطة لمساعدة الفتيات على الزواج، ومعرفة خبايا البيوت والقصور. عندما دخلت عبلة الماشطة بيت القاضي يحيى لتزين ابنته رقية وقعت عيناها على ابنته ميسون، ففتحت فمها في ذهول. لم ترَ في كل عمرها وجهًا بهذا الجمال، ولا شعرًا بهذا الطول، ولا عينين بهذا العمق والصفاء،

ولا جسدًا يثير الشهوات ويفقد الرجال صوابهم كهذا الجسد. عندما خرجت من بيت القاضي أسرعت إلى قصر ابن المدبر، وحكت لزوجاته وجواريه بنية صافية لا قصدت أن تثير فضوله ولا شغفه. وتصادف يومها أن راق لإحدى زوجات ابن المدبر أن تغيظ ضرتها فأخبرت ابن المدبر بما سمعت لتلهيه عن ضرتها الشابة الجميلة. استدعى ابن المدبر عبلة الماشطة، وسمع منها بالتفصيل وصفها لميسون ابنة القاضي. ولم يصدقها. فدبرت له لقاءً خفيًا بميسون. استدعت رقية وأختها وأمها إلى بيتها لتريهن أثوابًا من الحرير الخالص المطرز، جاءت بها خصيصًا للعروس من الشام. وعندما دخلن البيت، وتحررن من خمارهن، وبدأت عبلة الماشطة تخرج لهن الأثواب من خزانتها، كان ابن المدبر يختبئ وراء الستار، وعيناه تحدقان في ميسون بلا توقف، وفمه مفتوح من الفزع، ثم بلع ريقه، وتمتم بالشتائم للقدر ولعبلة الماشطة التي أفقدته صوابه اليوم. لم يرَ في حياته الطويلة طوال أربعين عامًا هذا الصفاء في وجه امرأة. عندما خرجت النساء من بيت عبلة، جلس أمامها كالطفل الصغير وقال في لهجة آمرة: هذه البنت لي.

قالت وهي تبتسم: عذراء لم تخرج من بيتها سوى مرة أو مرتين.

- سأتزوجها.

- وهل سيوافق والدها القاضي يا سيدي؟

نظر إليها في غضب، وقال: ومن يجرؤ على معارضة والي الخراج يا امرأة؟ حتى الوالي لا قيمة له أمامي.. حتى الخليفة..

قاطعته في مكر: الحب يذهب العقول يا سيدي. أرجوك لا تتكلم عن خليفة المسلمين، فللجدار آذان تسمع أكثر من آذان الجواسيس. الحلم أفضل من القسوة في أمور الزواج.

قال مسرعًا: سأتزوجها قبل نهاية هذا الشهر.

ابتسمت، ثم همست وهي تقترب منه وتفتح يديها: لو عشقت ابنة القاضي والي الخراج، فلن يستطيع أحد أن يتدخل في زواجكما، للبنت طرقها في الحصول على ما تريد.

- ماذا تريدين؟

- كم يساوي عشق ميسون ابنة القاضي لك يا سيدي؟

- كل ذهب مصر.

قالت وهي تتنهد: كل صيد البحر، وملح الأرض، وذهب قبور القدماء لعبلة الماشطة.. حلم يا سيدي. اتركني أدبر لك اللقاء، فلست وحدك المدبر يا سيدي. ثم تتكلم فيما أستحق، وما ستدفع لي.

- لك أكثر مما تريدين لو دبرت لي اللقاء.

ابتسمت في خبث، ثم قالت: تذكر يا سيدي أنها فتاة صغيرة لا تفزعها بشوق لا تفهمه، أو شغف أقوى من قلبها الصغير، تريث في محبتك. فلطالما أغرى البنات الحلي اللامعة، والكلمات العذبة أكثر من القبلات المحترقة ولهيب شوق لا قبل لهن به.

ثم دعت عبلة الماشطة زوجة القاضي والعروس رقية وميسون إلى بيتها من جديد. اعتذرت زوجة القاضي، فصممت عبلة وألحت حتى وافقت زوجة القاضي. وحدث اللقاء الذي يتكلم عنه كل أهل مصر في بيت الماشطة. قالوا إن ابن المدبر فاجأهم بالدخول على النساء، ووسط فزع الأم وشهقات البنتين، أمرهن والي الخراج أن يتركن الحجرة له هو وميسون. رفضت الأم في خوف، فأصر في قوة، ثم قال إنه ينوي الزواج من ميسون. تسمرت الفتاة مكانها لا تتكلم، ولا تعترض، ولا تهرب. صاحت الأم في وجه عبلة وهددتها، وعبلة تقسم إنها لا تعرف شيئًا، وإنها تفاجأت مثلها. خرجن جميعًا، ولكن الأم صممت على أن

تستمع إلى الحديث من وراء الباب، بينما اقتربت عبلة من عقب الباب، ونظرت إليهما في تركيز. ورقية حائرة لا تصدق ما يحدث ولا تعرف ماذا سيفعل زوجها لو عرف ما كان. استرقت الأم السمع، سمعت كلمات الحب وقصائد الغزل. كان صوت والي الخراج منخفضًا، رقيقًا. ولم تسمع صوت ابنتها. ساد الصمت هنيهة، فقالت الأم في فزع: ماذا يفعل بها يا عبلة؟

قالت عبلة: اطمئني يا سيدتي، أقسم إنه يطلب منها الزواج.

بعد مرور ساعة فتح ابن المدبر الباب ثم قال في حسم: سأزور بيت القاضي اليوم لطلب الزواج من ابنتك، أخبري زوجك القاضي بزيارة والي الخراج اليوم.

ثم فتح الباب ورحل. جن جنون الأم، صرخت في وجه عبلة، ثم وجه ابنتها، وسط دموع رقية التي تمتمت: سيطلقني زوجي اليوم.. هذا أكيد.

قالت الأم وهي تنغز كتف ميسون: ماذا فعلت يا داهية؟ سيقتلك والدك اليوم.

***

ما حدث بين والي الخراج وميسون انتشر في ذرات الهواء كشظايا النجوم المتساقطة تلك الليلة، فأضاء وجوهًا بالحقد والتشفي، وأخرى باليأس والانحسار. وصفت عبلة الماشطة ما رأت لسيدات مصر. ابن المدبر بلحيته المخضبة بالحناء، وشعره المهندم، وعباءته الحريرية المطرزة بالذهب الخالص، وخُفه المطرز بالفضة، وجلبابه الذي يصل طوله إلى أطراف الفسطاط، راود ميسون عن نفسها، سمعت القبلات المشتعلة بنفسها، ورأت من ثقب الباب رداء ميسون يتساقط من على كتفها، ليظهر كتفًا غضة وصدرًا يدعو إلى المعصية، قبّل كتفها وصدرها، وهمس في يأس البائسين وهو القادر القوي، قال بأنه لم يرَ في عمره الطويل أروع منها. وإن كل ما يملكه رهن يديها، وتلك البلاد لا تكفي لقبلة من شفتيها، وقال إنه سيستل سيفه من غمده ليذبح كل من ينظر إليها من

اللحظة والشوق، وإن عمره قد بدأ اليوم. ارتجفت في خجل، ابتسمت في دلال، وقالت إنها لا تستحق رجلًا مثله، فهي فتاة مجهولة. وأقسمت عبلة الماشطة إنه ركع بين يديها، ووضع رأسه على قدميها، وقال في حسم: بل لم أعش حتى رأيتك.

حركت حينها ميسون يدها في بطء، ووضعتها على شعره، وقالت في رقة: هذا النجم في السماء يسقط بين يدي، ما أتعسني اليوم يا مولاي! فأنا لا أستحقك.

قبّلها، وأقسم إنها له، وإن زواجها سيتم اليوم أو أمس.

هذا ما قصته عبلة، قالت إنها ذهلت من خبث ميسون التي لم تتعد التاسعة عشرة، ومن خبرتها في الرجال وقدرتها على احتواء وحش وسبع كوالي الخراج. فطالما سمعت عن سيطرة الجواري في بلاط بني العباس، ولكنهن جوارٍ من العجم أو الروم، لم تسمع من قبل أن مصرية تجيد الإغواء والدهاء إلى هذا الحد.

***

أما القاضي يحيى فاستمع إلى زوجته في ذهول.

القاضي يحيى بن عيسى يعرف ابن المدبر، يعرفه معرفة السجين لسجانه، والناقة لصارمها. منذ عامين كانت بينهما واقعة يعرفها كل أهل مصر، واقعة ابن الصياد.

تذكر القاضي أيام ابن المدبر في مصر منذ عام 248 عندما عينه الخليفة واليًا للخراج. كان لبني عباس طريقة مختلفة في الحكم وخاصة حكم مصر، فقسموا السلطات بين الرجال حتى لا ينفرد أحد بمصر، ويحاول الاستقلال. فكان الوالي هو والي الحرب والصلاة فقط. يدعون له في المساجد بعد الخليفة، ويعلن الحرب بأمر الخليفة، وتنتهي سلطته عند هذا. أما والي الخراج فهو صاحب المال والنفوذ، ودومًا يكون من بلاط الخليفة نفسه، فهو من يجمع ويبعث الأموال، فلا بد أن يكون من الموثوق في أمانتهم وعهدهم، ثم يعين الخليفة أيضًا صاحب الشرطة،

فيصبح لكل رجل اختصاص، ولكل رجل هيبة. ولكن أقلهم هيبة هو الوالي، فليس بيده عزل والي الشرطة ولا صاحب الخراج. بل إن والي الفسطاط ومصر لا يحكم الثغور، فلا يسيطر على الإسكندرية. ابن المدبر فقط هو من يسيطر على كل مصر. جاء لمصر والٍ وراء والٍ، أحيانًا يحاول والٍ أن يعزل ابن المدبر عندما تزداد الشكوى من أفعاله ثم يفشل ويرحل. في عام واحد جاء أربعة ولاة، بعضهم حكم سبعة أيام، وبعضهم شهرًا، ومن حالفه الحظ حكم عامًا أو عامًا ونصف العام. ورسخ حكم ابن المدبر كالوتد في الأرض الخصبة. وبدأ يقر قوانينه بلا استشارة مع الشيوخ أو القضاة، فأعلن أن الضرائب ستفرض على كل المصريين، وعلى النطرون والمراعي والحيوانات، ثم على صيد البحر. خرج الشيوخ معترضين، وأولهم القاضي يحيى، قال في حسم لابن المدبر: إن الله في كتابه الكريم قال للبشر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، فكيف يستطيع والي الخراج أن يدّعي أن صيد البحر ملك له أو للخليفة؟ ولكن ابن المدبر أصر، بعث البصاصين إلى الإسكندرية والفرما ودمياط، جاء بحسابات كل تجار السمك، ثم أعلن لهم أن السمك ملك للخليفة ووالي الخراج، وكل ما يخرج من البحر لا بد أن يدفع عنه التجار الضرائب. ثار الناس في الإسكندرية وهاجموا رجال والي الخراج، فقضى على ثورتهم بالشدة والقتال. وفي العام الماضي ثار شيخ الصيادين بنفسه حمزة والد أنس، وحدث ما حدث، وقتل حمزة نفسه. طلب ابن المدبر من القاضي يحيى أن يعلن أمام الناس أن شيخ الصيادين مات كافرًا، وطلب منه أن يحكي القصة كعبرة لكل ظالم يعارض أوامر والي الخراج. رفض القاضي يحيى حينها، وقال إنه لا يملك الجنة والنار ليحكم على البشر. حمزة السكندري عند ربه يحاسبه، ويعرفه أكثر من الوالي والقاضي. هو قاضٍ يحكم في أمور الدنيا لا ما يحدث بعد أن يتسلم الله عباده. غضب ابن المدبر، وعاقب القاضي. منعه من الخطبة وأبقاه في بيته ثلاثة أشهر حتى تدخل الشيخ بكار بن قتيبة نفسه، وكان للشيخ شأن عند الخليفة، فاضطر ابن المدبر أن يعفو عنه.

تذكر القاضي كل ما مضى، وهو ينظر إلى أحمد بن المدبر الذي جاء يطلب يد ابنته للزواج.

قال ابن المدبر عندما انتهى من حديثه: ما رأي القاضي؟

فقال القاضي في تردد: يا مولاي، لديك بدل الزوجة ثلاث، وابنتي صغيرة، أخاف عليها وسط نسائك.

قال ابن المدبر في حسم: ستكون سيدتهن كلهن.

قال القاضي في شيء من اليأس: هذا أمر خطير، يحتاج إلى تفكير، اترك لي وقتًا أستشير أهلها، وأسألها رأيها.

فقال ابن المدبر في حسم: أي أهل أهم من والي الخراج؟ وأي أهل يعترضون على هذا النسب؟ اسألها هي فقط. ولو قالت لا، فلن أتزوجها. أما لو وافقت فهي لي.

فتح القاضي فمه في ذهول وغضب، وقال وهو يسيطر على عصبيته: هل قابلت ابنتي يا مولاي؟

قال في قوة: يا قاضي، افعل ما تؤمر. ابنتك زوجتي من اليوم.

- أليس للنساء حرمة في هذا الزمن؟

نظر إليه ابن المدبر في غضب ثم قال: جئت أطلب الزواج.

قال القاضي، وهو يقوم ويكتم سخطه: شرف لنا يا مولاي.

- يتم الزواج قبل مرور الأسبوع.

- نحتاج بعض الوقت لتدبر الأمر.

- يتم الزواج قبل مرور أسبوع.

بقي القاضي صامتًا فقال ابن المدبر وهو يبتسم: يا يحيى، أعرفك، وأعرف أنك ممتلئ بالحقد والغضب، تغضب مني لأني أقوم بمهمتي، تغضب لأنك مصري، ولو كنت غير ذلك لفهمت أكثر. أنا هنا من أجل الخليفة الذي تدعو له أنت كل يوم، أنا هنا لتنفيذ أمره. أتقن عملي لأني أخلص له، عندما تقوم ثورة، ويرفض الصيادون دفع الضرائب لا بد أن ألقنهم درسًا. قف مع الحق ولا تتبع الهوى.. الحق هو أن الأموال للخليفة.

بقي القاضي صامتًا، فأكمل ابن المدبر: أهل مصر لم يتقنوا العربية بعد، يلحنون في القول، وما دامت لغتهم تطغى على عربيتهم فهم يحتاجون من يعلمهم. أنت يا قاضي قدوة، عربيتك مثل عربية أهل البصرة لا لحن بها ولا أخطاء. هل تتكلم ميسون القبطية؟ هل علمت بناتك القبطية؟

– ما شأن اللغة بالزواج؟

– لو تعلم المصريون العربية لفهموا أن يطيعوا أولي الأمر، وألا يثوروا على أوامر الخليفة.

صمت القاضي برهة ثم قال: عندما تُحلَب البهيمة تحتاج إلى يد ماهرة تعرفها لتجود بلبنها. أن آمرك بحلب البقرة فهذا أمر، أما أن أعلمك كيف تحلبها دون أن تفزعها فهو أمر آخر.

– وكأنني أتكلم مع أحد الفلاحين، وليس مع رجل دين وعلم!

قال القاضي في صرامة: أقول يا مولاي إن أوامر الخليفة واضحة لنا جميعًا، ولكن كيفية تنفيذها تحتاج إلى بعض الحكمة والكثير من الصبر. القسوة لا تولد سوى الجفاء. لا مياه يطعم التين من بطون الصخور يا مولاي. ولكن لا بأس. اتركني أفكر في الأمر.

قال ابن المدبر في صرامة: الشيخ والقاضي يحيى يعرف أن رأي البنت مهم.

- بل رأي وليها يا مولاي.. تشرفت بزيارتك.

عند خروج ابن المدبر بقي القاضي يحيى في الحجرة لا يتكلم ولا يتحرك. حكت له زوجته باقتضاب عما حدث في بيت عيلة، قالت إن ابن المدبر دخل وراءهن ثم خرج. لم تحك عن اختلائه بميسون، ولا عن الصمت المخيف الذي هيمن على الغرفة. ثبت القاضي عينيه على الأرض برهة، ثم قام في هدوء ودخل حجرة ابنته، التقت أعينهما، قالت في استغاثة: أبي..!

رفع يده، وهوى بها على وجهها، فسقطت على الأرض. ساد السكون، ثم قال الأب في صوت مكتوم: أنت، ميسون، من تعلمتِ الدين وحفظتِ كتاب الله، أنت تجلبين لي كل هذا الذل! ما الذي تطمعين فيه؟ تريدين الكنز والمال؟ تريدين القوة؟ تتزوجين من الظالم الذي لا يخلو بيت في مصر من الدعاء عليه ليل نهار. أنت تفضحين والدك وتذلينه؟ أنت.. لو دفنتك حية كان أفضل بالنسبة إليّ من يوم يأتي إليّ ابن المدبر بجبروته ويخبرني أنك تريدينه. ابن المدبر الذي حبسني وجرسني أمام الناس لأني رفضت أن أطيع أوامره الظالمة.. هل تتذكرين؟

ثبتت نظرها إلى الأرض ولم تنظر إلى والدها، بقيت صامتة. فقال هو في قوة: القاضي يحيى - يا بنت - يموت قبل أن يزوج ابنته من هذا الظالم الجائر. لو قتلتك بيدي اليوم ودفنتك هنا يكون أفضل لي ولك، أنت عار على أهلك، كنت أظنك أعقل من أختك وأكثر تقوى، ولم أتوقع منك هذا الانحراف.

تحجرت الدموع في عينيها، ولم تتساقط.

فقال الأب في قسوة: انظري إليّ.

التفتت إليه، ونظرت إليه. رأى في عينيها غضبًا ولومًا فازداد سخطه، وبدأ الشك يساوره. ولكن في لحظات الغضب تحترق النجوم جميعًا. قال في تحدٍّ: هل تريدين أن تقولي شيئًا؟

قالت في صوت أرادته هادئًا، وخرج مرتجفًا: أنت تعرف كل شيء يا أبي، وتعرفني أكثر من نفسي.

- هل ستدافعين عن نفسك؟ بالطبع لن تفعلي، أتذكر اليوم عنادك وأنت طفلة وتحديك وعقلتك، ليتك مت.

فتحت فمها، فقاطعها قائلًا: لا أريد أن أسمع شيئًا. يكفي ما قاله لي والي الخراج. هل تريدينه زوجًا يا ابنة القاضي يحيى؟ نعم أعرفك وأعرف أنك اليوم انحرفت أمام القوة والمجد، وأعدك أنك لن تتزوجي ابن المدبر.

ثم خرج، وأغلق الباب.

***

خيم الغم على بيت القاضي. لمن يلجأ؟ وماذا يفعل؟ لم تجرؤ زوجته على الكلام معه، ولا على إبلاغه بالشائعات والكلمات المتناثرة. تقابل مع والي الخراج مرة ومرتين، واستطاع أن يؤجل الزواج شهرًا على الأكثر إلى حين تجهز البنت جهازها. تحاشى رؤية ابنته حتى لا يضطر أن يضربها مرة أخرى، فهو يكره أن يضربها وهي في هذه السن. ولكنها لم تعترض على ابن المدبر، واختلت به ولم تستغث. ميسون التي حفظت كتاب الله ودرست على يده الفقه والحديث، ميسون التي رفض تزويجها من الكثيرين حتى يحتفظ بها لرجل دين وعقيدة يحافظ عليها، توافق على الزواج من ابن المدبر! ولم لا؟ أليس هو أقوى رجل في مصر كلها من الإسكندرية إلى بلاد البوجا؟ ولم لا؟ هل يوجد من يحافظ عليها أو يغرقها بالذهب مثل ابن المدبر؟ هي فتاة صغيرة لا أكثر. وهو أعلم وأدرى بما ينتظرها. وماذا ينتظرها؟ لقد شغفها حبًا والي الخراج حتى أصبح ينتظر بصبر اليوم الذي تصبح له، وينفذ شروط القاضي بحرفية وطاعة. ربما ينتظرها النصر في بيت ابن المدبر. ومن يدري؟ ربما يفوز القاضي أيضًا بمنصب لا يحلم به. لم يحارب القدر ويقف أمام الأبواب التي فُتحت أمامه؟ هكذا قال الأصدقاء. وهكذا حاولت أن تقول له زوجته، ولكن القاضي يحيى لا يكره في حياته سوى الظلم. عرف أن

القسط مفتاح الجنة وراحة الدنيا، وعرف أن من يتعايش مع الظلم يأكل نارًا في بطنه لا تشبع ولا تروي من ظمأ.

***

لدى ميسون طبع حاد، تهدمه كالعروس يوم الزفاف أمام الأب، ولكنه ينفجر كرذاذ السم فيربك الأم ويحيرها. أمسكت بوعاء الماء، وألقت به بكل قوتها فانتفضت الأم من مكانها، ونظرت لابنتها في إشفاق ولوم. ولكنها تجاهلت الحطام كما تفعل دومًا، وطلبت من الجارية أن تلملم آثار الانفجار بلا كلمة عتاب لابنتها. نظرت ميسون إلى الجارية وهي تلملم الزجاج والفخار في حرص، وعقلها شارد في الوراق وابن المدبر. اتهمها الأب بأنها تفتن الرجال، وأنها حرضت والي الخراج وشجعته وأنها تريده زوجًا. اتهمها الأب بالغرور والكذب وربما الفجور، ثم انفض الناس من حولها، وبقيت في حجرتها وحيدة وسط نظرات الشك واللوم وكلمات الشعر التي تحاصرها ولسان عبلة الماشطة الذي لا يجف ولا يرتاح. هي الضحية وليست القاتل. هي من أغار عليها الرجل، واخترق عالمها، هي من كانت فريسة لحيلة ابن المدبر ثم سخط والدها ثم.. وثم..

استعادت ذلك اليوم في ذاكرتها.

أصابها فزع رهيب، قرأت آيات الله، ونظرت إلى والي الخراج. جلس أمامها، نظر إلى شعرها وإلى وجهها، ثم قال: أنت ميسون ابنة القاضي. لم أرَ امرأة في حسنك من قبل.

ارتجفت. فقال: هل تعرفين كيف يصاب العاشقون بسيوف لا قبل لهم بها؟ إذا أصابهم لحظ كلحظك.

بقيت صامتة. فقال: ولو طلبت الزواج منك فهل توافقين؟

قالت: أفزعتني يا مولاي.

قال ابن المدبر في رقة: لم يكن قصدي إفزاعك، بل النظر إلى وجهك يا مُنية القلب.

لم تتكلم ولم تعرف ماذا تقول. كانت خائفة من أبيها ومن ابن المدبر ومن أمها ومن كل شيء. فقال: صمتك يشي بحيرة ووعود.. هل لك أن تُطمئنيني؟

بعد فترة لابد أنها قالت شيئًا. ربما قالت: كيف يحتاج والي الخراج إلى الطمأنينة من مثلي وهو يملك كل زمام الأمور في مصر؟

فقال: بل لم يصبني الأرق والقلق مثل اليوم. كلمة واحدة تطمئنني ثم أرحل.

قالت مسرعة: لك الأمان دومًا يا مولاي.

لم تقل هذا لأنها كانت تريده زوجًا. ولكن ماذا يدفعها أن تقول لوالي الخراج وهو يختلي بها؟ ولكنه لم يغدر بها ولم يمسسها.

فزعت وخافت من ابن المدبر، ولكن ما إن نظرت إلى عينيه حتى اطمأنت، فقد رأت رقة الحب وليس رغبة المهاجم. هي فقط تعرف قلب والي الخراج وحقيقته. هي.. ربما.. يتبعها شعاع السطوة والغرور. من اعترف بحبه أمامها، من يحارب من أجلها هو أقوى رجل في مصر. في هذه الحقيقة بعض الرضا. منذ الصغر وهي تعرف أنها الأجمل والأغنى. ابنة القاضي التي تتمناها كل الأمهات لأولادهن وهي تتمنع. أرادت رجلًا ذا سطوة ونفوذ؛ إما سطوة مال أو علم. تاجرًا ربما أو قاضيًا أو.. ولكنها لم تحلم بصاحب الخراج. زوجاته من العراق، وجواريه من الروم والفرس. لن تكذب على نفسها، بعد أن تكلم معها عادت إلى البيت والخوف يسيطر عليها، وعندما هدأ الخوف تصورت نفسها وهي زوجته تملكه تمامًا وتسيطر عليه، فلا يوجد مكان في بيته لغيرها، يهجر زوجاته، ثم يطرد جواريه، ثم يصبح طوع إرادتها هي فقط، فتطلب منه أن يحنو على أهل مصر فيفعل. وتصبح هي منقذة كل البلاد، ويبني لها ابن المدبر ضريحًا كبيرًا باسمها ثم يدعو لها كل المصريين، سيقولون إن زوجته الشابة الفاتنة غيرته فأصبح أكثر

رأفة وأقل طمعًا. ساورها هذا الأمل.. لن تنكر، ولكنها سرعان ما استعاذت من الشيطان وقرأت القرآن وقالت إنها لو استأثرت به دون زوجاته تكون آثمة. ثم كلما تصورت نفسها بين ذراعي والي الخراج ثار الجسد وصرخ ألمًا. الحب المستقر لأنس مزعج لا يعطي فرصة للتفاوض ولا تقبل الغنائم. ثم إن والدها يحكي عن أفعال والي الخرج طوال الوقت، والحب لا يعالج كل قبح، ولا يشفي من كل إثم، بل الحب يزيد الآثام ويخرج الآلام. تعلقت بقريب وهي في الخامسة عشرة، وعندما تقدم لها رفضته. لم يعجبها شدة تعلقه، وكثرة كلمات الحب على لسانه. قابلته مرتين عند أختها، لم يلمسها، ولكنه كان يلهث كلما نظر إلى وجهها. بعث لها ورقة وراء ورقة، فتجاهلته وقد أقسمت إن رجلًا لن يملك قلبها، وإنها ميسون أجمل نساء الأرض وأكثرهن قوة. ربما ابن المدبر ليس أقوى الرجال. من يدري؟ ربما يجيء لها الدهر رجلًا أقوى وأغنى. طموحها لا حدود له، يمتد من الفسطاط إلى أطراف الجيزة. والدتها تلومها أحيانًا تقول: لا قلب لديك يا ميسون. ولدت بوجه جميل، وفجوة مكان القلب. لا أعرف ما تريدين.

تريد فقط من يستحقها. ويبدو أنه لم يولد بعد. لا مشاعر لديها لابن المدبر، ولكن شغفه يروي النفس الجامحة ويشبع طمع العين. ماذا لو طلق ابن المدبر كل نسائه، ثم أقسم أن يتغير، وأن يجود على أهل مصر، فربما حينها تتزوجه، ولم لا؟ أما القلب فلا وجود له.

ولكن الوراق اخترق السماء، ونثر الفتنة. يخفق القلب كلما اقترب، تتردد العين، وتتمنى أن تحدق فيه لبقية العمر. أمسكت بقلبها عله يخضع ويستكين، ولو لم يخضع، فالخازوق سيخضعه، كما أخضع ثورة الشباب. أي جنون انتابها؟ وماذا ينتظرها من حب رجل لا تعرفه، لا يملك ذهبًا ولا قوة؟

قرأت في كتاب الشعر، وضمته على صدرها وراحت في نوم عميق. تمتمت وهي نصف واعية: ميسون ستتزوج والي الخراج حتى لو أحبت الوراق، ثم

سترحل إلى العراق، فيراها الخليفة فيقتل ابن المدبر ليظفر بها وتصبح هي ملكة بغداد، ومالكة لكل الأرض. ثم يموت الخليفة فتتزوج أنس. نعم هذه النهاية رائعة.

تأوهت في نومها؛ تارة ترى الخليفة بوجه الوراق، وتارة ترى ابن المدبر بوجه الوراق. ولكنها تعرف أين تكمن القوة، وكيف يلمع الذهب ببريق أقوى من كل بريق العاشقين. لا بأس من الزواج بوالي الخراج، القلب يمكن التحكم فيه، أما القوة فلا تنهزم قط.

لو اختارت ابن المدبر فسيتردد اسمها إلى أبد الآبدين. ويسبق اسمها هي عريب جارية الخليفة التي كتب فيها كل رجال البلاط الشعر بما فيهم ابن المدبر. بل كانت ستصبح هي مثل «الخيزران» أم هارون الرشيد التي كانت تحكم مع ابنها وتحتم قرارات الدولة معه. هي أجمل من «الخيزران» وأقوى.

***

ذهبت إلى السوق مع جاريتها وعيناها تبحثان عن أنس. ترى هل صدق أنها أغوت والي الخراج؟ هل سيصفعها كما فعل والدها؟

شردت بين الأشجار وطلبت من جاريتها أن تشتري بعض الخضراوات.

جاء. قال في إصرار: ميسون لن تتزوج من والي الخراج.

قالت بلا إرادة وهي تنظر إليه: أنس..

سار، فاختفى عن نظرها، فسارت بمحاذاته لعلها تراه، ثم قال: أنت لا تريدين غيري.

- تأدب وإلا أخبرت أبي..

قال في حسم: قولي لي الآن، هل أحارب أم أختفي بين الأفرع، وأسكن الصحراء؟

هتت وهي تحاول أن تراه، وهو يسير بسرعة يختفي بين الأشجار، ثم قالت: هل تصدق ما قيل عني؟!

قال في حسم: لا. ولكنني أصدق أنكِ تعرفين قدر نفسك.. لدى الوراق قلادة من قلادات اليونان. وجدها أبي في البحر وأعطاها لي، سيعطيك والي الخراج الذهب والفضة، وسأعطيك أنا قلادة قدمها القدماء قرابين للآلهة لا يوجد في جمالها في بلاد الفرس ولا بلاد الروم. ما سأعطيك أنا يا حبيبتي لن يعطيه لك أي رجل.

بقيت صامتة ثم قالت: هل لي أن أراها؟

أخرجها من جيبه ووضعها أمامها ثم همس: للحب رهبة وثمن لو تعرفين.

شهقت من روعتها وأمسكت بها، فقال وهو ينتزعها من بين يديها: لو امتلكتيها تكونين أغنى من والي الخراج. هي مهرك ميسون.

ارتبكت، وهمت بالسير بعيدًا.

- تمهلي فإنك كريمة، لو بلّت الإبل أغيارها تحيا ولو بالقليل، أما لو تركتني في عطش دائم أهلك قبل أن يهلك الشاب من خازوق والي الخراج.

وضعت يدها على قلبها، ثم قالت: هل مات سريعًا؟

قال الوراق في رقة وعيناه لا تترك عينيها: عاش عشية وضحاها، بين أنين واشتياق إلى الموت، عدت إليه بعد قليل، يحتاج إلى الماء كل محتضر، ربما لترطبه بحياة قفر أدرك جفافها عند النهاية، أو لتمنيه أنهار الجنة. أعطيته شربة ماء والحارس نائم، ولكنه لفظها دمًا ومات.

أغمضت عينيها في ألم، فهمس وهو يمر بيده على أصابعها: للعاشق عذابان؛ عذاب معرفة أن الحياة ليست عادلة، وعذاب معرفة أنه ليس نوحًا ليواجه الطوفان بسفينة. ولي عذابان؛ عذاب معرفة أني وراق وأنتِ ابنة القاضي التي

يريدها ابن المدبر، وعذاب يقيني أن لا ماء يروي ظمئي، ولا أنهار جنة تنتظرني على هذه الأرض.

نظرت إلى أصابعه على يدها ولم تستطع أن تنتزعها. الكلمات العذبة لا تحركها، قالها الكثيرون، ولكن عيني الوراق غير كل العيون، وصوته غير كل الأصوات. تتشبث بمقلتيه كأنها اللبن العذب ويهدئها صوته كنغمات الملائكة.

- أخاف أن أراك على الخازوق. لكم آلمني هذا المشهد!

- هو يحدث في اليوم عشرات المرات، جزء من الدنيا التي نحياها. لا تجعليه يؤلمك، حتى لو رأيتني وأنا أموت من أجلك فاعرفي أن السكينة دخلت قلبي!

- تكذب.

- لو كنت أكذب ما حاربت، ولو حاربت فأنا لا أكذب.

- أنت مجنون، هذا أكيد. ولكن من يحارب من أجل ميسون هو من يحظى بها هذا أيضًا أكيد.

قال في حسم: معك حق.

***

يحدث الكثير هذه الأيام، تأقلمت مع جمالها وهي لم تزل صغيرة، عرفت أنها غير كل البنات، كلما نظر أحد إلى وجهها سبح باسم الله، وكم قالت لها أمها إن من يتزوجها سيكون من علية القوم، واليًا أو أميرًا، فلن يجد أحد وجهًا كالبدر، وشعرًا يمتد إلى الأطراف، وعينين تضيئان بلا شمع ولا نار سوى عند ميسون. ولكن جمال ميسون كان ابتلاءً للأب منذ أول يوم، خاف عليها، وتمنى أحيانًا أن يدفنها حية. انتابه إحساس بالشؤم منذ رأى وجهها أول مرة، أن ينجب بنتًا فهذا هم بالنسبة له، حتى لو حاول أن يجد زوجًا مناسبًا في سن مبكرة، الجمال يثير الفتن ويحث على الثورة. شك فيها منذ كانت في العاشرة، فكان يصرخ في

وجهها، يحبسها لو أخطأت، ويزيد العقاب قسوة خوفًا من تمرد لا تحمد عقباه، لم تجرؤ زوجته على أن تمنعه من القسوة، كان يقسو على ميسون أكثر من رقية، رقية ليست بجمال ميسون، رقية لا تمثل تهديدًا ولا تفتح الباب لهجوم من مكان مجهول. وها قد جاء الهجوم من ابن المدبر. مع أن القاضي يحيى يحاول دومًا أن يكون عادلًا فقد تسربت قسوته دون أن يدري إلى أقرب الناس إليه، لا يستمع إليها، ولا يتكلم معها. وعندما تتمرد أحيانًا يحبسها في حجرتها أو يصفعها وحينها لا تبكي ولا تتذمر، فتزيد قلقه وتزيد تشاؤمه. وكثيرًا ما تنظر إلى سقف الحجرة بلا كلمة. ثم حدث ما خاف منه الأب، وأراد ابن المدبر ميسون لنفسه، توقعت ميسون هذا، بل توقعت أكثر، ولكن الوراق جاء وأربك كل الماضي. لديه حنان لم تعرفه من رجل قط. يتكلم كأنه يعرف كل شيء. ثم إنه جميل، ترى هل تريد رجلًا يملك العالم أم رجلًا يعاملها كأنها هي العالم؟ ترى كيف يعطف الرجل على المرأة؟ ولو أحبها الوراق فكيف سيعاملها؟ لا زوجة له ولا ولد. لو أحبها فستكون هي كل حياته. أفقدت عقلها؟ هل تضحي بوالي خراج من أجل بائع كتب، أم أن القلادة أذابت كل شك؟ شرد خيالها إلى ما بعد الزواج، أغمضت عينيها، وتصورت والي الخراج يمسح بفمه على جسدها، عبس وجهها بعض الشيء، أصابها الضيق. هبت واقفة، ثم قالت وهي تخرج لفوارة المياه في الحديقة، وتنظر إلى ظلها في المياه يهتز ويثبت: من يحارب من أجل ميسون يَفُزْ بها.

***

لم يمر أسبوع حتى أصبحت أبيات الشعر على ألسنة النساء، شعر والي الخراج عن ميسون:

يا ميسون لم أر هذا الحسن على بشر

ليتك تسقي قلبًا لا ترويه سوى العبر

لها جسم يلوذ بالفرار بعد أن يلهب الشرر

ونهد يحرق المشتاق بلا جمر ويسكر بلا خمر

بالله لم أر هذا الحسن على بشر

قرأ أنس الشعر في صوت خفيض، وعيناه على وجه القاضي، ثم قال على استحياء: اعذرني يا مولاي، أردت أن ألقي بالحقيقة أمامك حتى لا تواجهك في معركة مفاجأة وأمام نفر من الحاكين.. أنت الشيخ والقاضي.. لك مني كل الاحترام. ليس من المعقول أن يشهّر والي الخراج بابنة القاضي، ولا أن يكتب فيها غزلًا كهذا حتى لو كان سيتر وجهها، هذه ليست أفعال رجل يتحكم في أموال مصر.

بقي القاضي ساكنًا، وعيناه تحترقان من الغيظ.

فأكمل أنس الوراق: جئت لك اليوم بالكتاب الذي طلبته مني.. ولي عندك رجاء.

نظر إليه القاضي بعينين كلهما حزن وذل، فقال الشاب: القاضي يحيى ليس ككل القضاة، تعلَّم على يد تلاميذ السيدة نفيسة، بيته بيت طهر ونقاء.

تمتم القاضي: اذهب يا بني، وأشكرك على الكتاب.

لم يذهب أنس. ساد الصمت برهة، ثم قال الشاب بصوت خافت: اعذرني يا شيخ، أتكلم معك كأبي الذي لم أره.. منذ جئت إلى دكاني في سوق الوراقين وأنا أشعر أنك أبي.. هل تترك لي الفرصة للكلام؟

قال الشيخ وعيناه تنظران إلى لا شيء: تكلم يا أنس.

قال في رفق: أنت لا توافق على هذه الزيجة. أنا أعرف. فمن لم ينهكه الخوف، لا ينهكه الطمع.

- أنا لا أوافق يا بني.

فقال الشاب: وابنتك؟

لم يجب، فهم أنس ما يجول بخاطر القاضي، فقال في هدوء: الفتنة غواية تصيب النساء والرجال، للفتنة قوة القتل وسرعة سنا البرق يا شيخ. ماذا تتوقع من فتاة أمام والي الخراج؟ رجل تحلم به كل فتيات مصر.

- إلا ابنة القاضي.

قال أنس في حسم: حتى ابنة القاضي.

نظر إليه القاضي فجأة، وكأنه لم يلاحظ وجوده من قبل، ثم قال: لقد جئت لي بالكتاب، أشكرك. يمكنك الذهاب الآن.

قال أنس وهو لا ينوي الذهاب: مولاي القاضي مهموم، ومعي حل لكل همومه.

نظر إليه القاضي في ريبة.

فقال أنس: لابن المدبر الكثير من الأعداء، كم خرب بيوتًا! وكم سجن من عجز عن الدفع! وكم رجل فقد ماله وتجارته بسببه! له الكثير من الأعداء.. تسمع عن قصص من المسيحيين والمسلمين.. القاضي لا بد يعرف.

ردد القاضي: أعرف.

قال أنس وهو يعتدل في جلسته وينظر حوله: هل هذا المكان آمن؟ هل أتكلم بحرية هنا؟

- تكلم.

- أنا يا مولاي شاب يتيم، أعمل في سوق الوراقين كما تعرف، مات والدي قبل أن أراهما، ونشأت مع أختي بلا سند، لولا أن رباني صاحب الدكان وعلمني فنون النسخ والخط، كنت سأصبح شريدًا في البلاد.. ولكني أسمع وأعرف، وأقرأ، أقضي عمري في القراءة. منذ عام سجن ابن المدبر القساوسة، وهرب البابا خوفًا من مصير مجهول، أراد ابن المدبر أن يأخذ كل أملاك الكنيسة، قال: لم يحتاج

الرهبان إلى الفضة والذهب؟ أنت تعرف لم يقُم البابا بالقداس هذا العام؟ لأنه هارب من بطش ابن المدبر، تُرى متى سيهرب الشيخ من صلاة الجمعة خوفًا من ابن المدبر؟ ليست هذه أول محنة ولا بداية الطمع...

- أعرف.

- تعرف أن ابن المدبر يزيد من الخراج ليضمن مكانه هنا في مصر، فكلما زاد الخراج شيدت القصور له هنا ولعائلته في بغداد، وكلما زاد الخراج أصبح أصله ثابتًا وفرعه في السماء. أما أهل مصر، فلم يأبه بهم أحد منذ زمن.

نظر إليه القاضي، ثم قال: ماذا تريد؟

- في العام الماضي ثار أهل الإسكندرية على والي الخراج، خرجوا بالأسلحة، وحاربوا غلمانه وجنوده. هذا لا يحدث في مصر، المصريون لا يحاربون، يزرعون فقط. ما الذي يجعل الكيل يطفح والنساء تخرج مع الرجال تحارب وتخطف أموال الخراج؟ بالطبع أخمد ابن المدبر ثورتهم وعاقبهم. ولكن للظلم رائحة عفنة تفوح حتى لو زرعت حولها حديقة من الياسمين. لا تزوج ابنتك من والي الخراج. في يوم الزواج سيخطفها أحد أعداء ابن المدبر وستختفي من على وجه الأرض، حتى غلمان الوالي لن يجدوها.

نظر إليه القاضي في ذهول ولم ينطق، فأكمل أنس: سيبلغ القاضي صاحب الشرطة، وسيلوم والي الخراج في ضعف على أنه كتب الشعر في ابنته، فأصبحت ضحية أعدائه. ترى من خطفها؟ أحد أبناء الصعيد؟ أحد أبناء الإسكندرية أم الفسطاط؟

- ماذا تقول؟

- تختفي البنت.

- سيجدها الوالي.. لا شيء يقف أمام ابن المدبر.

- أنا.. أقف أمام ابن المدبر.

- هل فقدت عقلك يا فتى؟

- سَخَّرَ سليمان الجان أعوامًا، وهم أقوى من ابن المدبر، ثم جاءت دابة الأرض لتظهر لهم جهلهم وعدم جدوى عملهم. اعتبرني دابة الأرض.

- هذا عصر الجنون.

- يتفشى الجنون عندما ينتشر الطمع.. كلنا نعرف هذا.

- لِمَ تريد مساعدتي؟

ساد الصمت ثم قال أنس: يا مولاي، رأيتك تقف أمام الشر في ثبات الجنود المؤمنة أمام سيوف المشركين، فأردت أن أتعلم منك.. كنت ستواجه الوالي بنفسك وتفنى، وهذا لا يرضيني.

- هل تساعدني لوجه الله؟!

- أساعدك لأنك تقف أمام الظلم دومًا.

قال القاضي في بطء وهو يقترب من أنس: وربما تريد ابنتي لنفسك.

ابتسم أنس ثم قال: مولاي القاضي، أنا لم أرَ ابنتك، ولكن والي الخراج وصف نهديها وخصرها لكل من يتكلم العربية، لابد أنها جميلة.

قام القاضي وهم بأن يصفعه، فقال أنس في هدوء: لم أقصد أن أتكلم عنها بسوء.

- سأجلدك الآن من أجل كلماتك.

- أذكرك يا مولاي بأنها ليست كلماتي، بل كلمات والي الخراج، وأن من يستحق الجلد هو والي الخراج. لي أخت في الجيزة تحيا مع زوجها، سأخبئ ابنتك

عندها في أمان. وسوف أطلب من زوجها أن يترك البيت.. لا حاجة لي بالنساء يا شيخ.. أريد أن أساعدك فقط.

- أي جنون هذا؟! تريدني أن أعطيك ابنتي ولا أعرف عنها شيئًا.

- تعطيها لي أو لجان أزرق، أم تعطيها لوالي الخراج؟!

قال بلا تفكير: أعطيها لجان أزرق.

- ستبقى في بيت أختي..

- إلى متى؟

- إلى أن ينساها والي الخراج ربما.

- ولو لم ينسها؟

- الأمر لك يا شيخ.

ساد الصمت من جديد، ثم نظر إلى الشاب وكأنها أول مرة يلاحظ وجوده. أنس سيطر على قلب القاضي منذ قابله، يقرأ الكتب ويلتهمها كما يلتهم السبع الحمل، من يقرأ الكتب فلا بد من الثقة به، لا شر يسكن أوراق الكتب، ولا حسد يسكن عند صاحب المعرفة. كلما طلب القاضي كتابًا وجد أن أنسًا يعرفه ويحفظ كلماته. ربما تمنى أن يكون أنس أحد أولاده، فلكم تمنى من يقدر الورق وينسخ في إتقان! يثق في أنس كما يثق مَنْ سقط في بئر تحترق في كل يد تمتد له.

ثم قال القاضي: وربما تكون خدعة، ربما تكون أنت من رجال والي الخراج.

- ربما.. ولكنك قاضٍ لك عين الصقر، ترى ما لا نرى، وتعرف ما لا نعرف. هل رأيت مني سوءًا؟!

- ماذا تريد في المقابل؟

ابتسم أنس ثم قال: زوجني إياها.

نظر إليه القاضي، ولملابسه البسيطة، ثم قال: ابنة القاضي تتزوجك؟ أهذا ما تبغي؟

- هل تزوجها لي أم لوالي الخراج؟

- أزوجها لمن يستحقها.

- من يستحقها لن يجرؤ على طلبها، ولن يجرؤ على مواجهة والي الخراج.

قال القاضي في حسم: اتركني أفكر في الأمر.

- ابن المدبر لم يفرض قوته على ابنتك مع أنه كان يستطيع، ولكنه طرق بابها أكثر خطورة، باب العاشقين، وعندما يطرق القوي باب الضعفاء فلا مفر من الهزيمة. استمع إليّ يا مولاي... ابنتك صغيرة وابن المدبر رجل ذو حنكة وسطوة لا يعرفها أحد في كل مصر. من يحكم مصر اليوم؟ عين الخليفة واليًا جديدًا تركيًا، ورفض الوالي أن يبرح بلاط الخليفة في العراق، فبعث نائبًا له هنا. يحكم الفسطاط اليوم نائب والٍ لا يتحكم لا في الإسكندرية ولا في الأموال. ليس في يده سوى إعلان الحرب. هل تعرف اسم نائب الوالي الجديد يا مولاي؟ هل تهتم؟ يقولون إنه من بخارى وولد في العراق يدعى أحمد بن طولون. جاء بملابس فقراء وهيئة محارب. لا يملك لا رجالًا ولا مالًا. سمعت أن ابن المدبر يسخر منه في كل مجلس. يقلد مشيته وملابسه. لا يلبس الخيش لأنه زاهد، بل لأنه لا يملك غيره. أما ابن المدبر فملابسه حرير مطرز بالجواهر، عباءته تغوي كل نساء الأرض، ولحيته المهندمة السوداء، وكلماته العذبة تنفذُ، لها مفعول اللهب. من سيحمي ابنتك؟ نائب الوالي الذي يسخر منه الرجال كلما خرج من بيته، أم الخليفة؟ لن ينقذها سوى زواجها مني. لو زوجتها مني اليوم فسيصعب على ابن المدبر تطليقها، حتى والي الخراج يستحي أن يطلق البنت غصبًا.. ثم إن الزواج سترة وحماية.

استمع إليه القاضي بقلب منفطر، وخوف نافذ.

ثم قال: أتريد الانتقام من ابن المدبر؟

- كل مصر تريد الانتقام منه.

قال القاضي: أخشى أن أزج بابنتي في نار لا قبل لها بها. انتقام والي الخراج ربما يكون منها هي أيضًا. لو قتلها؟

قال أنس في حسم: هي تحت حمايتي.

- وأنت.. من تكون؟! وراق لا أكثر..

- لو لم أستطع حمايتها فاذبحني بيديك.

***

لم ينم القاضي ليلته، كلمات أنس لم تتركه وفكرته استحوذت على عقله، فتصور ابنته بعيدة لا يصل إليها ابن المدبر، وأنس أمامه لا يبرح سوق الوراقين، سيطمئن على ابنته كل يوم، ولو خان أنس أو غدر يستطيع حينها أن يستعين بابن المدبر وينقذ ابنته. يفضل أن يرميها بين ألسنة النيران والأمواج على أن يرميها بين ذراعي ابن المدبر. يعرف أنسًا منذ وقت قصير، ولكنه قارئ والقارئ لا يخون. ثم إن دكان الوراق معتمد الآن على نسخ أنس ومعرفة أنس. يثني عليه صاحب الدكان، يقول للقاضي إنه لم يقابل قط رجلًا يعرف القدماء مثل أنس، قرأ لأهل اليونان والروم.. وجد المخرج.. وجده لأنه كان دومًا يدعو للحق والعدل. ولكن المهمة ستصبح صعبة لو لم تتعاون معه ابنته. كتم الأمر، واستمع إلى كلمات زوجته عن هدايا ابن المدبر، وذهب ابن المدبر، وعن رغبة ابن المدبر في رؤية ابنته. لم تعترض زوجته على الزيجة، ولكنها لم تصارحه بموافقتها حتى تتحاشى غضبه. عند بزوغ الشمس ذهب إلى حجرة ابنته. ما إن دخل حتى هبت واقفة وبصرها مثبت على الأرض. قال في رفق وعبوس: اجلسي يا ميسون.

جلست في بطء. لم تزل تتذكر صفعته. كانت أول مرة يضربها منذ بلغت الحلم. ما آذاها.. لم تكن الصفعة، بل نظراته وكلماته. قال بعد برهة: كنت دومًا أهل بناتي، وأقربهن إليّ. علمتك كل ما تعلمت، مع أنني خشيت من فتنة حسنك على نفسك اللوامة.

بقيت صامتة، فأكمل: ما رأيك في ابن المدير؟

لم تجب.. مما أشعل غضب القاضي. فقال: يتغنى بغزله لك في كل مكان. هل يرضيك هذا؟ يعجبك هيام والي الخراج بك؟ تعرفين شره؟ هل رأيت شره عندما قابلك؟

قالت بعد برهة في صوت خافت: لم أرَ شره يا أبي.

هز رأسه بالإيجاب وكأنه توقع إجابتها، ثم قال: زواجك منه مستحيل. أموت قبل أن أزوج ابنتي لظالم حتى لو امتلك الأرض وما عليها، حتى لو أردت أنتِ الزواج منه.. لو تزوجته تقضين عليّ. هل تريدين هذا؟

قالت في صوت متألم: فديتك بنفسي يا أبي.

ابتسم في تهكم ثم قال: لست متأكدًا من هذا، ولكني متأكد أني سأحارب حتى الموت، ولن أزوجك ابن المدير.. لدي خطة، ستسمعينها وتنفذينها، ولو لم تفعلي فسأواجه ابن المدير حتى الموت.

رددت من جديد: فديتك بنفسي يا أبي.

- لا تكذبي. أعرفك وأعرف أن القوة والثراء يُغريانك، وأن ولعه بك يرضي غرورك. شيدت الجدار بيننا للأبد يا ميسون. سأسامحك لو نفذت كل شيء أطلبه منك. ستدّعي أنك خُطفت.

عبس وجهها، فقال الأب: تشتاقين إلى الزواج منه؟ تريدين موتي؟

قالت في بطء: أخاف عليك يا أبي. لا أظن أن والي الخراج سيصدق هذه الرواية.

- أنت بالطبع تعرفينه أكثر مما أعرفه.. سيصدقها؛ لأنك ستختفين من كل الفسطاط. ولن يكون أمامه سوى البحث في يأس أعوامًا حتى ينساك. كل رجال مصر أفضل عندي من والي الخراج.. إياك أن تناقشيني، أنت تنفذين الأوامر بلا كلمة، وإلا قتلتك بيدي قبل زواجك.. أتسمعين؟

- أسمع يا أبي.

قال: سأزوجك بائع الكتب؛ الوراق.

أرخت جفنيها وأخفت رجفة القلب ورضاه عن والدها.

***

زوجها القاضي في الخفاء بين عشية وضحاها.. جاء بشهوده المقربين، وعندما انتهت المراسم قال الأب وهو ينظر إليها: هو زوجك الآن، وليس لك زوجٌ غيره. أريدك أن تحسني معاشرته، سينفذ أنس ما اتفقنا عليه، إياك أن تنطقي بشيء لأي مخلوق. سأتركك مع زوجك برهة، هو طلب مني هذا.

طأطأت رأسها، هم الأب بالخروج ثم عاد وأمسك بها، وقال: أنا راضٍ عنك يا ميسون.

فقالت وهي تمسك بيده: وهذا أهم شيء عندي يا أبي.

تركها الأب، فأمسك أنس بيدها، وقبلها في بطء، ثم قال وهو يجلس بجانبها: وعدتك أنك ستكونين لي.

- ومجنون أيضًا، أنت ستقف في وجه والي الخراج؟ أنت ستخطفني وتخبئني؟ إذا كان أبي لا يستطيع أن يقف في وجهه، ولا حتى الوالي يستطيع ولا.. ألا تخاف يا وراق؟

- كلنا نخاف يا سيدتي.. أفلاطون يقول إن الشجاعة هي معرفة ما لا يدعو للخوف وما يدعو للخوف. ابن المدبر لا يخيفني. لا يخيفني سوى غدر قلبك بي بعد أن حاربت من أجلك، وأنت ما الذي يخيفك؟

قالت بلا تفكير: غضب أبي.

ضحك وقال: ولو وعدتك أنه لن يغضب منك منذ اليوم.

- وأي قدرة لديك يا أنس. مصر كلها تخاف من والي الخراج، حتى الوالي يخاف منه.

- وأنس لا يخشاه.

- لماذا؟ هل لديك قوة خارقة، أم أنك جن أم راهب أم نبي؟

ابتسم ثم قال: ما الذي يخيف في والي الخراج؟ العمر كتاب مؤجل، والعذاب مكتوب علينا لا محالة، ماذا بيده؟

- ربما لا يقتلك ولا يعذبك. من يدري؟ ربما يقتل من تحب.

ساد الصمت برهة ثم قال وهو يضع إصبعه على شفتيها: مستحيل أن يصل إليك.

قالت في دلال: وهل أنا كل ما تحب يا وراق؟ ترى أتريدني من أجل جمالي أم من أجل منصب والدي؟

أخرج القلادة ووضعها بين يديها، ثم قال: مهرك يا ميسون.

مرت بأصابعها عليها في انبهار فأكمل: قبل أن تتزوجيني لابد أن تعرفي من أكون.

فتحت عينيها فحكى.

جذب ذراعها، ووضع رأسها على صدره وهي صامتة، تحاول استيعاب الجنون الذي يحاصرها وكون زوجها ابن شيخ الصيادين وقاتلًا أيضًا.

قبّل شعرها ثم قال: والدك سيدخل في أي لحظة. يمكنك أن تخبريه بحقيقتي ويطلقك مني.

حاولت أن تبتعد، فطوق كتفها ثم قبل خدها قائلًا: ابقي هنا بجانب ما أتلفت، هل تشعرين بالذنب؟

رفعت رأسها، ونظرت إلى وجهه ثم قالت: ماذا أتلفت؟

قال بصوت لاهث وهو يقترب ليقبل فاها: لا تسأليني وأنفاسي تائهة من شوقها لأنفاسك، أعطيني قبلة واحدة ثم أرحل اليوم. قولي إنك تحبينني.. إنك تغفرين لي.

فتحت فمها لتنطق، فقبلها في شغف شديد، حاولت أن تدفع به، ثم استسلمت لشفتيه وتلاشى التمنع برهة، وأخفت لسانه وجه ابن المدير، لم تكن تعرف أن للحب هذا المذاق، وأن شفتيه تطمس كل الماضي والحاضر. ابتعدت في رفق، فهمس وهو يقبل أذنها: هل غفرت لي؟ لا أريد للكذب مكانًا بيننا.

قالت وهي تتنهد: توقف يا أنس. أسامحك. ولكن لابد أن تتوقف.

قال في يقين وهو يحدق في شفتيها: أعرف.. كيف يمكن أن تكوني بهذه الغواية وهذا البهاء؟ ماذا ستفعلين بي يا ابنة القاضي؟

دفعت بصدره في دلال ثم قالت: أنا لا أفعل أي شيء. أنت من تخطط و..

سمع صوت الأب يفتح الباب، فأبعدها عنه في رفق، وقام من مكانه، وودع الأب وعيناه تنظران إليها وخرج.

***

- 3 -

جلس القاضي أمام ابن المدبر، التقت أعينهما، بدا على ابن المدبر حماسة الانتصار، وبدا على القاضي ترقب الفهد قبل هجومه، دوّت صرخة أم ميسون من داخل البيت، لقد تم خطف ابنتها العروس، هرولت إلى زوجها فاتجه إلى حجرة ابنته في تجهم، ووراءه ابن المدبر ورجاله. سأل القاضي زوجته ماذا رأت؟ فقالت إنها لم تر شيئًا، فقط سمعت استغاثة ابنتها ثم عندما دخلت حجرتها لم تجدها. نظر القاضي إلى ابن المدبر في لوم ممتزج ببعض التشفي ثم قال: يا مولاي، أنت مسئول عن حياة ابنتي. من خطفها لا بد أنه كان يبغي الانتقام.

قال ابن المدبر في حسم، وعيناه ثابتتان تنظران إلى عيني القاضي: من خطفها سيموت حتمًا، ولكن ليس قبل أن يعترف عن كل معاونيه؛ لم يجرؤ أحد على تحدي والي الخراج يومًا ولن يحدث الآن.

ثم خرج غاضبًا والشر يأكل نفسه. لم يكن يثق في القاضي، ولم يستسغه يومًا. ولم يكن بالساذج ليصدق قصته. القاضي لا بد أنه أخفى ابنته ليكسره ويذله. فحربه الآن لم تعد مع الصيادين ولا الفلاحين، بل إنه يقف أمام القاضي يحيى. ينوي أن يجد ميسون ويتزوجها، ثم يقتل والدها، ولكن ليس قبل أن يدور به في الفسطاط وهو على ظهر حمار، عاري الجسد يضربه الأطفال بالحجارة ويزفون كذبه وحقارته. عزم ابن المدبر أمره، ولم يتوقف حبه وشوقه لميسون.

نـام القاضي يومها في هدوء وسـكينة لأول مرة منذ شـهر، فقد ألقى بابنته في اليم ليلتقطها بعض السيارة؛ فهو لا يعرف بائع الكتب معرفة جمة ولا يثق في أحد في هـذا العصر، ولكن اليم لا بـد أن يكون أفضل من الزواج مـن ابن المدبر، على الأقل بالنسبة له هو. فلو قتلها بائع الكتب ليسرق شعرها يكون ذلك أفضل من زواجهـا من ابن المدبر. عرَّف أنـس كل أسرار البيت وخارجـه. أخذت زوجته تنوح وتنعى حظها، أقسـمت أن تذهب إلى السـاحرة داخل الهرم الأكبر، وتسـألها عن مكان ابنتها أو من خطفها. لم يجب ولم يهتم أن يطمئنها، نام في سلام.

***

أول ليلة لميسون في البيت المبني من الطمي على ضفاف النيل في الجيزة كانت تترقب قدومه. أنس وعدها أن يعود بعد أسبوعين. استقبلتها جارية عَلِيّ شقيق أنس، وأعطتها الطعام. لم تنم. تغيرت حياتها، غيرها الوراق بعينيه اللتين تضجان بـالإصرار. بعد أسبوعين تصبح له، يضمها مرة أخرى وربمـا يقبلها. ولو كانت لسـانه تخترق الوحدة والجفاء فسوف ترضى. ربما ضحت بكل قوة الوالي، ولكن في شـجاعة العاشـق قوة ألف والٍ، وفي إصراره كنوز القدماء. لم تعرف أنها تتبع القلب من قبل، ولكن والدها راضٍ وهي راضية. ترى ماذا سيفعل عندما يعود؟ هـل سـيأخذها بين ذراعيه مرة أخرى، يذيبها داخل صدره؟ هل سـيقبِّلها حتى تنسى أين هي؟ ومن تكون؟ وهل ستكفي قبلاته لتتحمل العيش في هذا المكان؟ وإلى متى؟

خرجـت عنـد الفجر، وغسـلت وجههـا في مياه النيـل، ثم ثبَّتت عينيها على صورتهـا في الميـاه. تحركت الصورة ثم تلاشت مع الموج، ثم عادت أكثر ثباتًا وعمقًـا، ركزت عينيهـا على انعكاس يَنبي العين في المياه، فـبدت عيناها لامعتين وكأنهما اغتسلتا من كل الذنوب. ابتسـمت ربما أو رددت كلمات لنفسـها، ثم قُذف

حجر قوي فجأة في الماء فشطر الوجه نصفين، وتناثرت الملامح كلٌ في جانب وركن، شهقت في فزع من الحجر ومن انشطار الوجه أمام عينيها.

* * *

انتظر القاضي زيارة سوق الوراقين بعد أسبوع ليسأل أنس الوراق عن حال ابنته، ساوره الشك في قراره وفي ثقته في أنس، وكلما تردد وندم تذكر ابن المدبر فيتملكه الخوف واليأس، ويتمنى لو دفنها حية ليحميها من الزواج منه.

التفت حوله وهو يتجه إلى دكان الوراق، وعندما تأكد أن رجال ابن المدبر وراءه كعادتهم، دخل الدكان في بطء، وجلس وهو يفتح أحد الكتب، وقال وعيناه تبحثان عن أنس: يا عبد العظيم، هل جاء أنس الوراق اليوم؟ كنت قد أوصيته بالبحث عن كتاب منذ أسبوعين.

قال عبد العظيم في أسًى: يا مولاي القاضي، تقبل أسفي على خطف ابنتك.

قال القاضي: أخبرنا صاحب الشرطة، وهو الآن يبحث عنها. لا بد أنه سيجدها.

نادى عبد العظيم صاحب الدكان على أنس من آخر الحارة فجاء يركض، وقال وهو يجلس أمام القاضي: اعذرني يا مولاي. كنت أبحث عن الكتاب الذي وعدتك به، هو بخير.

طمأنه أنس، ولكنه لم يطمئن.

* * *

مر الأسبوع الأول على ميسون كأنه حلم؛ البيت من حجرتين لا أكثر، كوخ صغير يكاد يغرق في المياه. تخرج للنهر، وتفكر ساعات في حالها، وأحيانا فيمن يحيطون بها. جارية عليٍّ شقيق أنس تُدعى جميلة، ولكنها ليست جميلة بالنسبة

ليسون. لها وجه مبتسم دومًا، وأسنان كبيرة، وشفاه غليظة، وحماس المحبين، وأدب المرحبين، منذ أول لحظة تعاملها كأنها ملكة. تجهز لها الطعام، وتلقِّبها بسيدتي، وتفرش لها مخدعها كل يوم وتغسل ملابسها، تتكلم دون توقف. بعد مرور ثلاثة أيام استأذنت من ميسون أن يأتي سيدها ليزورها ليلًا. ووافقت ميسون. لم تره في البداية، ولكنها سمعت أصوات الشوق من حجرة جميلة. انتظم عَليٌّ في زيارة جميلة ليلًا في البيت الصغير.

***

في هذه الليلة راقبت النجوم في السماء لعل نجمًا يتساقط كما حدث يوم رآها ابن المدبر. سيأتي اليوم أو غدًا. كيف استطاع البعد عنها أسبوعين!! إنَّ عقلها يفهم الأمر، ولكن القلب يشتاق إلى الحبيب.

تسلل من ورائها، واحتضن ظهرها في قوة قائلًا: افتقدتك، أقسم لم يكن بيدي، أردت أن أحكم خطتي، عيون والي الخراج تتبع كل أهل مصر اليوم.

لم تجب، ابتعدت عنه في دلال، فقال: تزوجنا بطريقة لا تليق بك، ولكني أتمنى أن نحيا حياة ترضيك يا ابنة القاضي. ليس معي المال ولكني أعدك أن..

قالت وهي تزعم العبوس ولا تستطيع أن تمنع شفتيها من الابتسام: لا تعد بما لا تستطيع أن تفي به.

حملها بين ذراعيه إلى البيت، وما إن دخلا حجرتهما حتى قبلها في لحظة سنين طويلة. دفعت بصدره ولكنه ألصق شفتيه بشفتيها، حاولت أن تتكلم ولم تستطع، رأت لون الشفق، وتناثرت حبات الرمال فتشوشت العقل، لم تزل يدها تدفع به، ولكنها تستقبل قبلته الآن، وتسمح لها بالدخول، يبدو أنها قبلة لا تنتهي، تنفذ إلى الأعماق. بعد أن توقف الزمن، عاود إنذاره: إن القادم أسوأ. ابتعدت فجأة وقالت: ابن المدبر.. يقف بيننا، أريدك أولًا أن تنسى فكرة الانتقام منه.

التقت أعينهما، ثم قال في استسلام: معكِ حق أن تخافي، ولكن لا بد أن تعرفي أن هذه القبلة كانت من صنع النجوم التي تهاوت ممزوجة برائحة الضوء.

- ليس للضوء رائحة.

- بل لا بد أن تستنشقي رائحة الضوء ولو مرة.

أغرقها بقبلاته، وهي تتذمر وتدعوه للتمهل والكلام. فزعت من ضربات القلب المسموعة، والفوضى التي تتسرب إلى العقل. طوقت عنقه، ثم قالت وهي تلهث: استمع إليَّ أولاً.

قال وهو يقبل رقبتها: أوافق على كل ما تطلبين.

قالت في حدَّة، وهي تخاف من نفسها بين ذراعيه: انسَ أمر ابن المدير، وانسَ أمر الانتقام منه، ابدأ معي من جديد.

توقف فجأة ونظر إليها في صمت. فقالت في تأكيد وهي تخاف من رد فعله: يجب أن تنسى أمر الانتقام.

قال وهو يعتدل في جلسته: ولكنه لن ينسى أمرنا.

قالت في رفق: نحن نعيش هنا في سلام.

- نعيش هاربين.

اقترب منها، وقبَّل فمها قبلات قصيرة وهو يقول: انسي أمر هذا الرجل، أرجوكِ، هل تعرفين كم أريدك؟

قالت وهي تبعد وجهها عنه: عِدني أولاً.

أغمض عينيه، ثم أمسك بيدها، وفتح كفها، وقبَّله وقال: أعِدك.

تنفست في ارتياح، ثم حكَّت خدها بخده وقالت والشوق يستقر بداخلها: وعدتني.

قال وهو يفقد كل صوابه بين ذراعيها: وعدتُك.

- وأريد الذهب أيضًا، لا اشتريت لي ذهبًا، ولا أعطيتني مالًا، القلادة لا تكفي مهرًا لميسون.

قال في حسم: هذا هين لو تعلمين. طلبك الأول أكثر طمعًا.

بعد الكثير من الوقت دسَّت رأسها في الوسادة في خجل وهو يحيط خصرها بذراعيه. أمسكت بيده التي تحيط خصرها، وضغطت عليها في قوة، تشعر أن ذراعيه هما مكانها الصحيح. إن أيامها الماضية بدونه كانت خاوية بلا ماء ولا رائحة للضوء. أقسم أن يضحي من أجلها بكل شيء. أحبها بجود واندفاع وكأنه مقدم على نهاية عمره أو بدايته. بحث معها عن رائحة الضوء، وعن طعم الألوان، وعن نور الأزهار. تعامل مع جسدها برقة والكثير من التصميم، كتب على رقعته بقية عمرها.

في الصباح أمسكت بيده لتحركها، فقال وهو يجلس ثم يضمها إليه: أين أنت ذاهبة؟

قالت في شيء من الخجل: ما حدث أمس؟

قال وهو يضمها: هو أجمل يوم في عمري، كأنني عشت أنتظر هذا اليوم.

قالت من جديد وهي تبحث عن الكلمات: ما حدث..ما وعدتني به..

فقال في حسم: أحبك.

ارتجفت فجأة، ثم اقتربت منه أكثر وقالت: ماذا ينتظرنا يا أنس؟

قال وهو يزيح شعرها من على وجهها: سيفكر في اليوم فقط. واليوم وغدًا وكل الأيام المقبلة، أريدك بين ذراعي.

مرت بيدها على موضع نومها ثم قالت في هيام: ميسون تستحق أن تنام على حرير، لقد وعدتني بهذا أيضًا.

قال وهو يغرقها بشوقه: ميسون تستحق أن تنام بين الإستبرق والسندس.

***

احمر وجهها خجلًا من نظرات جميلة، وحاولت أن تتحاشى الكلام معها. لم يكذب زوجها، كان يقضي معها معظم يومه، يأخذها بين ذراعيه أحيانًا، يسير معها على النهر في بعض الأحيان، وكثيرًا ما يسبح معها عند الفجر. كان يهتم بها وكأنها نباتٌ نادرٌ أو قطعة من الذهب الخالص. وكل يوم عندما تختلي بنفسها تضع يدها على قلبها في رضا، وكثير من الفخر. شعور القرب من رجل بهذا الشكل مختلف عن كل توقعاتها، أحيانًا كانت تفكر في المستقبل، وأحيانًا تسأله في قلق: ماذا سنفعل يا أنس إذا وجدَنا ابن المدبر؟ أخاف. فيطمئنها ويؤكد لها أن شيئًا لن يفرقهما حتى الموت.

هذا النوع من الرضا جديد عليه، والغوص في مجد الهوى يزيح الوحدة والمرارة. غدًا سيفكر ماذا سيفعل، ربما يهرب معها إلى الشام أو الحجاز أو حتى إلى بغداد. ربما يستقر في الجنوب أو الشمال، ولكن كل علوم الفلك لا تقوى على أن تزحزح اتجاه الفؤاد، ولا تعكس نزق النفس. عندما تضحك تمتزج الأضواء كلها. عرف حينها أن الجنة موجودة على الأرض لو اختفى منها ابن المدبر. في احتضانه طمأنينة ورضا. ظن أن الأوراق تغني عن أحضان النساء، توقع في البداية أن يعاشرها ثم يختلي بأوراقه وكتبه، ولكنها لم تترك له الفرصة، وجودها غواية،

واحتياجها الدائم لمن يقدس الجسد والوجه ويبوح بالتقدير لعظمتها وهيمنتها، جعلاه ينسى كتبه وربما انتقامه.

***

هذا ما عاشت حياتها من أجله؛ ذراعا أنس وحب أنس، وكلمات أنس. أصبح الضوء ينتشر في الأرجاء، وتنسيت ابن المدبر ووالدها ومكان مكوثها. فَلِمَ تحتاج إلى الذهب والفضة لو كان هناك رجلٌ يبجلها ويقبلها كأنها ملاك تجلّى له فجأة؟ ولِمَ تحتاج إلى السلطة لو كان النهر أمامهما يغرقان فيه عشقًا؟ فلتذهب كل الأحلام التافهة والأماني المتواضعة. مبسون تحب. تنتظر نظرة عينيه، وابتسامة شفتيه، وقبلته القوية، تنتظر كلمات الطمأنينة وسط قلق الأرض وارتباك الأوطان. تنتظر لحظة تضحك فيها، فيثبت عينيه على شفتيها، وكأنه امتلك الكون ويطلب منها أن تضحك مرة أخرى، بل مرتين..

في نور السَّحَر كان يأخذها من يدها، ويلقي بها داخل النهر، فتصرخ، فهي لا تستطيع العوم؛ وتخاف مياه الأنهار ومسارات الرياح، يقسم إنه سيحملها قبل الغرق، تتعلق برقبته، وتصرخ، وتبتلع المياه العذبة، وتتذمر وتتوعد، ويعيد الكرة كل يوم.

لم تعرف يومًا رجلًا يتقن فن الكلام كأنس، يحكي لها عن اليونانيين، وعن المصريين القدماء، وتستمع في حماس طفل يريد أن يعرف ويستمع إليها في إتقان وكأنها هي الخليقة، لم يستمع إليها أحد قبل أنس؛ لا أب ولا أم، الأب يخاف حسنها وما سيجره إليه من مشاكل، والأم تتباهى بحسنها وتمني نفسها بزوج لابنتها من الولاة، وأختها الوحيدة تغار منها أحيانًا وتتحاشاها كثيرًا، أما أنس فكانه الصديق والونس. ما أجمله! كلما حكت له بدا متفهمًا عارفًا ما تقول. اشتكت كثيرًا من معاملة والدها الجافة، ومن حبسها وهي صغيرة في غرفة

وحيدة حتى تعتذر، ولكنها أبدًا لا تعتذر، كان يضمها حينها ويخبرها عن والده هو، وكيف أفنى عمره ليربيه هو و عَليًا، ولم يتزوج ولم يهتم بالجواري مع أنه شيخ الصيادين وكل النساء تريده. كانت تقول حينها في مرارة: إنها كانت تتمنى أبًا بحنان حمزة السكندري ولكنها لم تزل تحب والدها. لغتها مع أنس كانت أحيانًا اللغة القبطية وأحيانًا العربية. عندما تتكلم عن عائلتها تتكلم بالقبطية؛ أخبرته في تذمر أن والدها منع القبطية من البيت، وادعى أنه لا يعرفها مع أنه يتقنها وكأنه يشعر بالخجل من لغته، أما أمها فلم تتقن العربية كإتقانها للقبطية؛ لذا تكلمت مع ابنتيها بالقبطية فقط. ولطالما تشاجر معها الأب لهذا السبب. القاضي يحيى عادل، نعم، ولكنه صارم صرامة تميل إلى القسوة مع ابنتيه مع أنه علمهما أفضل تعليم، واهتم بملبسهما وطعامهما. قالت لأنس: إنها لم تسافر إلى الإسكندرية قط. ووعدها أن يأخذها في قارب في عرض البحر ليلة كاملة كليالي الجنة.

مر شهران عليها قضتهما بين ذراعيه وكلماته، تستمتع بصحبته ولمساته ووجوده حولها، حتى بدأت تنسى الذهب والقوة، وانصهرت داخل هذا الجمال الممتزج بالنجوم، وكأنه لا يرى في الدنيا سواها. لم يتكلما عن ابن المدبر، ويبدو أنه نسي أمره. كل يوم تفتخر بنفسها، فقد استطاعت أن تنسيه الظلم بحسنها، فلو كان أنس مهووسًا بابن المدبر فميسون مهووسة بميسون، والآن بدا أنهما مهووسان ببعضهما، وأصبح العالم يدور حولها والنجوم تتساقط لتضيء طريقهما فقط.

***

- 4 -

الساحرة تسكن في سفح الهرم الأكبر، يهابها الرجال قبل النساء، فلم يفك سر الهرم أحد بعد، ولم يقوَ على دخوله سوى الخليفة المأمون منذ سنوات. عندما زار الخليفة المأمون مصر ليخمد ثورة القبط على بني عباس قرر أن يفتح الهرم الأكبر، فقد تأكد أن بداخله كنزًا يغمر بقية الأيام. هذه بلاد يتحول التراب فيها إلى مسك أسود ثم يبلع الذهب من أعماق الأرض، لا حدود لخيراتها ولا مفر من الغوص بداخلها. صرف الأموال في فتح الهرم، وانتظر الدخول في رهبة وترقب. وبعد عناء دخل المأمون إلى الهرم، فوجد بداخله كنزًا وتماثيل. الكنز كان يعادل بالضبط ما صرفه لفتح الهوة في الهرم لا أكثر ولا أقل، والتماثيل لم يفهم سبب وجودها. بدا أن القدماء يدفنون موتاهم وخيراتهم معًا، وكأن الخيرات في الموت وليس في الحياة، هو البداية وليس النهاية. لِمَ يدفنون الخيرات مع الأموات؟ لا أحد يعرف. ولكن بقيت الهوة مفتوحة، يخاف المصريون من الدخول إليها، سمعوا عن الجن الذي يسكنها والحسناوات العاريات اللاتي يخرجن ليلًا ليوقعن بالرجال ثم يلتهمنهم، ولكن أم ميسون قررت أن تزور الساحرة التي تسكن بين الجن ولا تخشى ظلام القبور ولا هول المباني الشاهقة. سمعت عن بخس الساحرة من أقاربها وجيرانها. تقرأ النفوس ولكنها لا تعرف المستقبل، تجد المفقود، ولكنها لا تصلح ما أفسده الحب والحرب، لا تقبل الأموال، ولا تأكل سوى الكعك المصنوع من القمح والسكر والتمر. صنعت أم ميسون الكعك بإتقان لتزور الساحرة، وأخفت الأمر عن زوجها الشيخ الذي سيظن أن المنجمين كاذبون

حتى في صدقهم. اصطحبت رقية ابنتها، وتعللت بزيارة الأهل، وذهبت صباحًا إلى الهرم تبحث عن الساحرة.

ارتجفت وهي تدخل من الحفرة المظلمة، وأمسكت بيد رقية، وقالت في يأس: لولا ميسون ما دخلت هنا أبدًا. ولكنها ابنتي، لا أعرف ما الذي يحدث لها.

قالت رقية وهي أيضًا ترتعش: ابنتي يا أماه.

سمعت أم ميسون صوتًا داخل القبو المظلم فصرخت، وتشبثت بيد ابنتها أكثر، ثم قالت بالعربية في رجاء: يا سيدتي، جئنا نطلب عونك.

تجلى وجه الساحرة من الظلام الداكن، كانت تجلس في استرخاء وسط التماثيل الملونة تشرب الماء، شعرها الطويل يكاد يصل إلى الأرض، وملامحها أكثر من رائعة، بدت في مقتبل العمر، لها رونق الجان، وجمال الحور العين. ارتدت الكتان الأبيض، ووضعت الكثير من الكحل، بدت كتماثيل القدماء، ولمست في جسدها المثالي كل ذنوب الماضي وجلاله.

أجابت الساحرة باللغة القبطية: لا أفهمك يا امرأة.

حمدت أم ميسون ربها أنها تتكلم اللغة القبطية. لطالما منعها زوجها من الكلام مع ابنتيها بالقبطية، ولكنها كانت تخاطبهما بها سرًا.

فقالت بالقبطية: أريد مساعدتك يا سيدتي.

ابتسمت بخبث الساحرة في رضا ثم قالت: أعرف؛ تعالي اجلسي هنا بجانبي.

جلست في ذعر، فأشعلت الساحرة شمعة، ولمعت عيناها الكبيرتان في الظلام، ولم تتأكد أم ميسون قط لو كانت الساحرة إنسًا أم جنًّا. بلعت ريقها، وقالت في رجاء: ابنتي.. فقدت ابنتي. خطفها المغرضون يوم زواجها.

هزت الساحرة رأسها ثم قالت: قدّمي التحية للقدماء.

نظرت إليها أم ميسون في عدم فهم، فألحت: قدّمي التحية.

- لا أعرف ماذا أقول، فهم ليسوا مسلمين ولا مسيحيين.

قالت في حسم: اطلبي لهم السكينة، واشكريهم على المحافظة على الأرض والذهب.

رددت: أشكركم على المحافظة على الأرض والذهب.. لكم التحية..

- يا أجداد..

- سيدتي، هم وثنيون، أخاف أن أغضب الله بكلماتي..

أصرت الساحرة: يا أجداد، هم أجدادك شئت أم أبيت.

قالت في استسلام: يا أجدادي.

قالت الساحرة في ثقة: بحنس تعرف كل شيء.

- طمئنيني إذن؛ هل ابنتي بخير أم في خطر؟

- هي بخير وفي خطر.

ثم مرت الساحرة بيدها على أحد التماثيل في احترام وقالت: الأجداد ينظرون إلينا في ترقب. هناك شيء ما سيحدث في البلاد يهتم به الأجداد.

- وابنتي يا سيدتي؛ كيف حالها؟

ابتسمت الساحرة: تغوص في لذة العشق وموت المحبين، لا جدوى من إنقاذها؛ لا إنقاذ يجدي مع العاشقين.

- هل تحب والي الخراج؟ لو كانت تحبه فربما نجدها وتتزوجه.

رددت: الأجداد يتوقعون سطوع قمر أو نجم، يوم تساقطت النجوم، احترقت الأشجار البرية ليخرج الماضي من باطن الأرض.

- وما شأن ابنتي بالأجداد؟

- قلت لك: كلنا منهم ولهم، ألا تفهمين؟ ابنتك محاطة برائحة الحقد، وتفور الكره، وشوق الزاهدين، ويأس المجذوبين. ستأتين إليّ مرة أخرى، أو ربما تأتين معها، من يدري؟! وسيأتي هو.

- هو مَن؟

- النجم الساطع.

- طمئنيني على ابنتي.

- ليست بخير. قلت لك.

- لا أمل في العثور عليها؟ هل سيقتلها خاطفها؟

صمتت ثم قالت: لا أمل في العثور على من تعرفين، وسيقتلها خاطفها، القتل أنواع؛ أسهلها الموت فهو متصل بالحياة، وأبشعها اليأس فلا شفاء منه. اذهبي الآن بعد أن تلقي التحية على الأجداد. تذكري هناك شيءٌ سيحدث في مصر. النجم يقترب.

تركتها كلمات الساحرة أكثر حيرة ويأسًا.

***

تحركت في نومها ثم اقتربت منه أكثر وأحاطت كتفه بيدها وراحت في نوم عميق. بعد ساعات وقبل بزوغ الفجر فتح عينيه في فزع وتوقع لما هو آتٍ؛ قام فجأة فأيقظها، قالت وهي نصف نائمة: ماذا بك؟

فقام من سريره وارتدى جلبابه وخرج من الحجرة مهرولًا بدون أن يجيبها. ثم أمسك بسيف احتفظ به منذ زمن عندما أعطاه له والده وهو صغير وفتح الباب، رأى الرجال يحيطون بالبيت. تجمد في مكانه، أشهروا السيوف واقترب منه أحدهم وقال في حسم: أنت أنس، أليس كذلك؟

فرد ذراعيه على الباب وكانت هي خلف الباب، تضع يدها على قلبها.

قال الرجل: نريدك حيًا، هكذا أمرنا ابن المدبر. لو جئت معنا الآن بلا مقاومة فستنقذ نفسك.

أمسكت ميسون بيده من وراء الباب وقالت في إصرار: لا تذهب معهم، سيقتلونك.

نظر حوله للرجال التي تحاصر كل المكان ثم قال: هل تريدني أنا فقط؟

قال الرجل: أنت فقط.

- وماذا ستفعل بأهل الدار؟

- نقتل ابنة القاضي.

رفع سيفه وقال في ثبات: تقتلني أنا أولًا.

قال الرجل في نفس هدوئه: ربما لو جئت معنا نتركها حية.

فقال أنس: وربما لا.

أمسكت بكتفه وأغمضت عينيها.

فقال الرجل: هل ستحارب خمسين رجلًا وحدك؟ ابنة القاضي تحدّت والي الخراج، والعقاب هو الموت.

تدخّل رجل آخر وقال في رفق: استمع إلينا، ابنة القاضي ستبقى هنا في أمان أسبوعًا لو جئت معنا.

- لا أمان لرجال والي الخراج.

وسط محاولات أنس وحده ومقاومته كان هناك سيف على رقبة زوجته، وآخر على رقبته. قيده الرجال، وحملوه إلى الخارج. تمتم لنفسه، وهو ينظر إلى الأفق: لن أتركك لو انهارت الجبال، وغمرت الأنهار كل اليابس.

***

الباب الثاني

لا تَعْذُلَنّي فـي مَسِيـ ـرِي يومَ سِرْتُ، وَلَمْ أُلاقِكْ
إنّـي خَشِيتُ مَـواقِفًا لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِكْ
وَعَلِمْتُ أنَّ بُكَاءَنَا حَسْبَ اشْتِياقِي وَاشْتِيَاقِكْ
وَذَكَرْتُ مَا يَجِدُ المُوَدْ دِعُ عِنْدَ ضَمِّكَ وَاعْتِنَاقِكْ
فَتَرَكْتُ ذاكَ تَعَمُّدًا وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكْ

البحتري (عصر عباسي)

- 5 -

نظر حولـه، رأى بيتًا كبيرًا في فضاء واسـع وهـو محاط بالرجـال، مر الوقت عليه، وشجاعته تتكاثـر كذبذبات المطر المصاحبة للعواصف. اشـتدت ثقته بأن المـوت لا محالـة منـه، وأن الفوز أيـام معـدودات، ولكن لا موت يمحـو الفوز، ولا حيـاة تمحو الهزيمة. لقد انتصر على ابن المدبر حتى وإن كان انتصارًا صغيرًا، فبقعـة الزيـت تعكر المياه حتى لو كانت المياه أنهارًا. ترى كيف سيخبر ابن المدبر أن محبوبته لم تعد محبوبته، وأن الزمن تغير عليه فلم يعد هو فقط المالك القادر، بل ملك غيره، فاستطاع غيره دون أن يكتب أنس الأشعار، أن يشهد عليها ويخترقها فأصبحت أوراق الأشـعار في جوفه وداخل بطنـه، هو المنتصر، هذا أكيد، هي له اليوم وغدًا. وهو وحيد بلا سـند مثلما كان من قبل، مثلما كان وهو بين صيادي والـده في بلدته الإسـكندرية، لم يسـاعده أحد ولم يرفق بحاله أحـد. رحل خائفًا مترقبًا، والكل يسـخر منه، ويفرح بهزيمته. تُرى هل يمكن أن ينسـى ميسـون في غمرة الخوف أو الطمع؟ استكانت واستقرت بين أضلعه، نعم، ولكن لا يمكن الاستهانة بطرق والي الخراج في تعذيب الثائر وكسر روح القوي.

دخـل رجل بعد الكثيـر من الوقت، لاحظ أنس طـرف عباءته وكان متهالكًا من كثرة الاسـتعمال. كان محاطًا بالجنود والحراس ولم يكن ابن المدبر. توغل أنس بعينيه في وجه الرجل وهيئته، بدا محاربًا، هو إذن صاحب الشرطة. لم يبدُ عليه أنه يكبره بسنوات كثيرة؛ خمسة أعوام ربما لا أكثر.

قال الرجل في ثقة وهو يجلس أمام أنس: ابن شيخ الصيادين، العالم القارئ الذي قتل عمدًا، ثم خطف ابنة القاضي.

لم يجب أنس، فأكمل الرجل: ترى ماذا كنت تبغي من فعلتك؟

قال أنس: هل أنت صاحب الشرطة؟

قال الرجل: أنا لست ابن المدبر، هذا أكيد، فأنت بالذات تعرف ملامح ابن المدبر، تحفظها عن ظهر قلب، تأتي لك في منامك كل ليلة لتذكرك بما كان. أنا أعرف، هذه بلاد غريبة، جاء نائب الوالي؛ هل سمعت اسمه؟ ربما لا، فما فائدة نائب الوالي الذي يحكم الفسطاط والجيزة ولا يسيطر على الإسكندرية؟ ما فائدة نائب الوالي والأموال في يد صاحب الخراج؟

قال أنس في بطء: أحمد بن طولون؟

جلس أحمد وقال: ظننت أن اسمي لا يعرفه رجال مصر، لا يشغلهم سوى اسم ابن المدبر.

قال أنس: سمعت أن الوالي رفض أن يبرح العراق، وبعث نائبًا عنه. هو شاب من الجيش. كان لا بد أن أعرف من يكون. لم يحكم تلك البلاد شابٌ منذ زمن.

قال أحمد: بحثت عنك وبحثت عني.

قال أنس: لتكتمل المعادلة.

ابتسم أحمد ثم قال: أكان ينقصك جذر أم عدد؟

- هل قرأت الخوارزمي يا مولاي؟

- حاولت، ولكن معرفتك أكبر من معرفتي. ألن تسألني كيف وجدتك؟

- بل سأسألك ماذا تنوي أن تفعل بي؟

- سأجيب عن سؤالين حتى لو سألت أنت عن واحد. كنت أبحث عنك، ثم سمعت حديثك مع القاضي والشيخ بكار بن قتيبة فعرفت من تكون.

نظر إليه أنس بلا كلمة.

فأكمل الرجل: سأسلمك لابن المدبر بالطبع. ربما يثق بي، ويعرف أني أقدر منه على معرفة نوايا الرجال. يا أنس يا بن الصياد.

قال أنس: ولِمَ لم تفعل بعد يا مولاي أحمد بن طولون؟

ابتسم أحمد ثم أكمل: يمكنك أن تطمح إلى التخلص من ابن المدبر لتنتقم لأبيك، ويمكنك أن تطمح إلى التخلص من الظلم لتنتقم لكل مصر. الاختيار لك.

فتح أنس فمه في عدم فهم ثم قال: التخلص من الظلم.. هدف أسمى من البشر، يستعصي على الأنبياء يا مولاي. تطلب مني ما لا طاقة لي به، دار العدل ليست دار الفناء.

- لو فكر كل والٍ مثلك ما حاول تطبيق العدل، نحن نجتهد على قدر علمنا، ما قمت به هو أمر جلل، تتحدى والي الخراج وحدك، وتقنع القاضي أن يزوجك ابنته، ثم تقنعها بالحب وتأسرها، وكل هذا وأنت طريد هارب من جرم وخطيئة، أنت مجنون يا رجل...!

نظر إليه أنس ولم يجب.

فأكمل أحمد: ولكني أحب هذا النوع من الجنون، أريد أن أتكلم معك في الكثير من الأمور، ستبقى معي يومًا أو أكثر.

- ثم تسلمني لابن المدبر؟

- ثم أسلمك لابن المدبر ربما.. لا أدري.

صرف الرجال ثم قدم لأنس بعض الماء وقال: جئت إلى مصر وأنا أعرف أن الوالي لا يبقى بها سوى شهر أو بضعة أشهر، وأن مصر في يد ابن المدبر، وأن المصريين يعانون من ظلمه وبطشه، ولكن الوالي لا قيمة له أمام ابن المدبر. أتعرف لماذا؟ لأن الوالي يمد يده كل شهر منتظرًا نصيبه من الأموال من ابن المدبر، أما أنا فلست حتى الوالي، بل أنا نائب الوالي، لا قوة لي على اتخاذ أي قرار. منذ أن أتيت إلى هنا وأنا أعرف أن عدوي ثابت كالوتد، وأنني هائم في الهواء كأوراق الأشجار، عرض عليّ المال ليكسر شوكتي فرفضت، لم آتِ هنا من أجل المال.

- مولاي يعطي الكثير من الثقة لقاتل مثلي لا يعرفه عندما يتفوه بكلماته هذه.

ابتسم أحمد ثم قال: مولاك يتكلم مع رجل في عداد الأموات، وليس أفضل من أن تسكب قلبك لرجل ميت فتفرغ هم النفس وأنت تعرف أن أسرارك تحت الأرض.

- مولاي أحمد بن طولون قد قرر قتلي إذن؟

التقت أعينهما، ولم يجب أحمد. استطرد: سمعت يا أنس أن الصيادين في الإسكندرية كانوا يسخرون منك لأنك مختلف، تقرأ وتهتم بالقلم والكتب، وليس باللهو ولا الصيد والجواري.

- هذا حدث.

- ما أشد الوحدة وسط الأهل! وما أتعس الغربة في الوطن وبين الأحباء! يا ابن الصياد، أتعرف أن رجال الخليفة في مصر يسخرون مني؟! من مظهري المتواضع، وقلة ذوقي في الملابس. أنا بالطبع لم أولد لأنعم بالرخاء، لقد ولدت لأحارب، المحارب ليس كالمنغمس في الملذات.

ابتسم أنس في بأس ثم قال: يا مولاي، اسمح لي أن أتكلم بصدق قبل أن تقتلني، لملم أشياءك، وارحل من هنا، هذا بلد اعتاد الظلم والظالمين، لا أنت تقوى على تغيير شيء، ولا ترسيخ عدل هنا.

- ويكأنك تعشق البلاد حد السخط، وتغضب من الأحبة حد اليأس! من يغضب يحب، ومن يحزن يعشق. كلماتك تشجع ولا تنفر، نادني بأحمد أو بأبي العباس، لا أنا راحل ولا الظلم مترسخ في هذا البلد، الظلم كالنبات ذي الأفرع الزاهرة الكبيرة تخدع البصر ولكنها بلا جذر. هو هين لو تعلم. قبل مجيئي حدث شيئان..

- ماذا حدث؟

- حلمت حلمًا، سأحكيه لك بعد حين.

- والشيء الآخر؟

- قرأت عن المصريين القدماء. أنت مصري، تتكلم القبطية واليونانية وتقرؤهما، أنا أعرف ذلك.

- يا مولاي.. أنا عبد فقير. أنا أنس بن الصياد.

- أنت ابن شيخ الصيادين، تعلم أن السيف مهم، هذا أكيد، وتعلم أيضًا أن القلم أخطر وأعمق.

- معذرة.

- ستتعلم كيف تمسك السيف.

قال أنس: المصريون لا يحاربون.

- منذ متى؟

- منذ ألف عام أو يزيد. آخر مرة كان لمصر جيشٌ من المصريين، وكان ذلك أيام فرعون موسى، ثم هلك الجيش في البحر، منذ ذلك اليوم ومصر بلا جيش، يحكمها اليونانيون ثم الروم ثم جاء العرب.

أكمل أحمد: وأصبح الجيش من العرب ومهمته الدفاع عن الخلافة، ثم قرر الخليفة أن يكون الجيش من العجم.

نظر أنس إلى نائب الوالي في بعض الشك، فأكمل أحمد: أبي من بخارى، نعم، وولدت في سامراء، ولكن اليوم أنا مصري.

- كيف تختار من تكون؟

- كما تختار أنت مَنْ تتزوج، ومَنْ تخطف، ومَنْ تراوض، وكيف تنتصر.

قال أنس في تأكيد: يقولون إنَّ المصريين يزرعون فقط، ولا يقوون على الحرب، ولا يحبونها. الجيش يحمي الخليفة وهو في دار الخلافة. ماذا تريد يا مولاي؟ وماذا قرأت عن القدماء فطمس بصيرتك؟ اعذرني، ولكني أتكلم معك بصراحة.

- أحلم.

قال أنس: أعرف ذلك.. قلت إنك حلمت.

- أحلم؛ أي أتمنى..

- لم تنفع الأماني أصحابها قط..

- أحلم بجيش لمصر كما كان الحال قبل فرعون موسى.

ابتسم أنس في بعض الرضا، ثم قال: أنت يا مولاي تظن نفسك من الملوك القدماء! حتى العرب لم يفعلوا هذا ولا الروم من قبلهم. هذا زمن فات وانتهى، لا نحن نتذكر القدماء، ولا نفهم لغتهم.

- لو عرفت حلمي كنت ستغير رأيك.

- اعذرني يا مولاي.. ولكن..

- أنا مجنون بعض الشيء، وأنت مجنون، الحكيم اليوناني أرسطو يقول: إن في العظمة بعض الجنون، فلا عظيم عاقل، كل العظماء مجانين. تكلم معي اليوم كصديق، وغدا كوالٍ وأمير. واستمع إليَّ..

قال أنس في وجل: مولاي أحمد يعرف أرسطو؟

- أفضل أفلاطون، هو من أفضل الحكماء. هل ظننت أنك تتحكم في أسرار اليونانيين وحدك يا أنس؟

- معذرة يا مولاي، لم نعتد من الوالي أن يعرف اليونانيين ويهتم بهم.

- أحمد ليس أي والٍ.

تمتم أنس لنفسه: وأحمد لا يتسم بالتواضع.

ولكن أحمد فهم قصده فابتسم قائلًا: على قدر إيمانك بقوتك يكون انتصارك.

- لن يسمح لك ابن المدبر ولا الخليفة بأن تقيم لمصر جيشًا، هذا مستحيل. قلت لك: لم يحدث منذ ألف عام أو يزيد.

- أعرف. لن يعطيني ابن المدبر المال، ولن يسمح لي الخليفة، وأنا هنا نائبٌ للوالي، لا قوة لي، ولا صديق، ولا عزوة. ابن المدبر يريد التخلص مني اليوم قبل غد. حاول هو وصاحب البريد، وسيحاول، سيبعث بالرسائل للخليفة، وسيعين الجواسيس، وسيجعل حياتي هنا جحيمًا حتى أرحل.

قال أنس في تردد: هل يسمح لي مولاي بالكلام؟

هز أحمد رأسه، فقال أنس في حسم: عندما تعمل من أجل مصر، تبني وتنشئ جيشًا فأنت لا تعمل للخليفة. مصر خزانة السلطان هكذا يقول العباسيون. سيدعي ابن المدبر أنك تتحدى الخلافة..

- بل أعمل من أجل الخليفة.

كتم أنس كلماته ثم قال: وكيف لي أن أساعدك؟

- كيف عرفت أني أريد مساعدتك؟

- أنت لا تريد تسليمي لابن المدبر.

- أريدك جنديًا في جيشي.

- لا جيش لك يا مولاي.

- سيكون لي جيش. الصبر هو عنوان الوصول، الجهاد ليس بالسيف فقط، تعمل معي وتتدرب على القتال، ولكن الأهم من ذلك أن تتدرب على فنون الحكم، أنت تريد أن تنتقم من ابن المدبر، وتعيد حق والدك، ولكن لا بد من الصبر.

- ولم اخترت رجلًا مثلي هاربًا من موت محقق؟

- أنت يا أنس غير كل الرجال، قارئ وعارف، تجيد اللغات والحيلة، وفوق كل ذلك كرهك لابن المدبر يجعلك أفضل صديق. لا أحد يعرف أن الوراق هو ابن شيخ الصيادين. تعجبني يا أنس، أرى فيك محاربًا، اليأس كله شجاعة، والمظلوم سطوته أكبر من كل جيوش قيصر وكسرى مجتمعة..

نظر إليه أنس في وجل، ثم قال وكأنه لا يصدق ما يسمع: يا مولاي، أنا من الموالي، مصري، هل تنوي أن تستعين بالمصريين في جيشك؟

قال في يقين: أهل البلد يعرفون أسرارًا لا يعرفها غيرهم دومًا. أستعين بهم في الحكم، وليس في الجيش فقط.

قال أنس: لم يفعلها أحد منذ دخول عمرو بن العاص مصر.

قال أحمد في بطء: معلمك الشيخ عبد الرحمن يكتب عن التاريخ، يقول كلمات عاقلة، وكأن هذه البلد تفتحك قبل أن تفتحها، وتدخلك قبل أن تدخلها، وتمص كنوزك قبل أن تمتص كنوزها!

- هذه ليست كلمات الشيخ عبد الرحمن يا مولاي.

- هي كلماتي أنا، ولكن هذا ما قصده الشيخ بكتاباته. فلنعد إلى ابن المدبر، هل سمعت سخرية ابن المدبر من مشيتي وملبسي؟ من هيئتي؟

- سمعت.

ابتسم أحمد ثم قال: لتعمل معي، فلا بد أن يكون الظلم صوب عينيك تحاربه وتسحقه، ومصر هي التي تحتاج إلى جيش من المصريين وغيرهم من الأجناس.

- أعرف.

- لا بد أن تترك ابنة القاضي.

قال أنس في حتمية: لن يحدث.

- أتحبها؟

- يا مولاي..

- يا أنس، أنا تركت زوجتي وابني في العراق، أتعرف لماذا؟ لأنهم رهينة هناك لعل ابن المدبر يغضب عليّ، ثم يغضب عليّ الخليفة، فيطلب مني العودة ولو لم أعد فسوف تصبح زوجتي ومعها ابني رهينة بين أيديهم.

- يا مولاي.. زوجتي لا بد من حمايتها...

أكمل أحمد: ومع ذلك أخطط لبناء جيشي. في الوقت المناسب سآتي بابني وزوجتي. اترك ابنة القاضي حتى تحين اللحظة المناسبة. افهم كلماتي واعقلها، لو عرف ابن المدبر أنك أنت زوجها فسيقتلها يا أنس، لن يقتلك أنت فقط. أتفهم؟ أتريد موتها؟

بقي أنس صامتًا.

فأكمل أحمد: أريدك أن تتجسس على رجال الخليفة في مصر، وتعرف كل شيء، تعمل معي وفي جيشي. أما لو أعدت ابنة القاضي لأبيها ووعدتها أن تعود إليها عندما تحين اللحظة المناسبة فستكون قد أنقذتها قبل أن تنقذ نفسك.

- سيتزوجها ابن المدبر غصبًا.

- هذا لن يستطيع فعله، أعدك بذلك، وأقسم لك. ستقول إنها متزوجة، ولكن لن نقول إنك أنت ابن شيخ الصيادين زوجها. ستعود إلى أبيها، وتبقى في بيته حتى يتوفر لنا الانتصار على ابن المدبر، ثم تعود إليها وتعود إليّ زوجتي.

-لا أستطيع.

-المحارب لا بد أن يفكر بعقله، ويعمل لمصلحة الناس وليس لنفسه. إما أن تقضي على ظلم ابن المدبر لكل أهل مصر، وإما أن تعود إلى ابنة القاضي، وتقضي بقية عمرك هاربًا معها من بلد إلى بلد، ويبقى ابن المدبر يظلم ويبطش.. فكر في الأمر، ولا تجب اليوم. فكر أنك ربما تقتلها بالتشبث بها الآن. تعرف أن المعادلات تحتاج إلى وقت وتحليل لتأتي بنتيجة، لو هربت معها ربما يجدكما، وعندما يجدكما لن يرحم، ولن يرحمها هي يا أنس.

ظل أنس صامتًا.

فأكمل أحمد: لو كان الأمر صعبًا عليك فسأتركك ترحل إليها كما جئت، وكأنني لم أقابلك، وكأنك لم تسمع مني. ولكن عندما يذبحها ابن المدبر أمام عينيك فلا تَلُم سوى نفسك.

ساد الصمت. تملكت أنس الحيرة، ولكن الأمل وجد منفذًا إلى نفسه، فازدادت الحيرة، وخفق القلب.

***

منذ طفولته وهو يعرف أنه مختلف، منذ علم نفسه اليونانية، وبدأ في ترجمة الكتب لنفسه حتى يهديها يومًا لمن يستحقها، منذ عكف على العلم وترك اللهو وتعلم الصيد ولكنه لم ينوِ أن يصبح تاجرًا للسمك. عرف والده أن ابنه مختلف فاعتمد على أخيه في العمل، وطلب منه أن يخلفه، ضحى الأب كثيرًا من أجل ولديه، ولم يهتم بغيرهما، ولم يبخل بماله في شراء الكتب لابنه، حتى كانت

المواجهة مع ابن المدبر ثم ميسون. انطلق لسانه معها، وتدفقت كلماته التي لم يجرؤ على البوح بها لغيرها، لطالما اتهمه أخوه بالخجل أمام النساء، ولطالما ظن أنه لن يعترف لامرأة بحبه قط، فهو لا يستطيع أن يرتب الكلمات، حتى رآها. لا لم يحبها من أجل جمالها، مع أن جمالها يحير كل الشعراء من الجاهلية حتى اليوم، ولكنه أحبها من أجل رقتها ربما، من أجل عينيها الممتلئتين بالحياة النافذة للأعماق، من أجل ذكائها الذي يخترق النفوس، اضطرب كيانه ولم يعد يريد سوى ذراعيها. لا شبع من جوعه ولا شُفي من ظمئه، حتى وهي حوله، واليوم يأمره نائب الوالي أن يتركها إلى حين. نعم، قال إنه يستطيع العودة إليها عند رحيل ابن المدبر، ولو لم يرحل ابن المدبر، فكيف يتخلى عنها بعد أن أصبحت له؟ يترك الغنيمة الوحيدة التي أخذها من ابن المدبر، لقد نسي أمر الانتقام وسط ضرام العشق، واحترق كل بغضه لكل من على الأرض برهة، ثم جاء أحمد كملاك الموت ليذكره.

وكيف يقنعها أن تنتظر؟ ولِمَ يثق نائب الوالي أن ابنة القاضي لن تتكلم؟ لو تكلمت ميسون، لو قالت إن الوراق هو الذي تزوجها فلن تفلح كل خطط نائب الوالي. ولكن نائب الوالي قال في يقين إنها لن تخبر أحدًا عن حقيقة من تزوجها. لِمَ كل هذا اليقين؟ فهو نفسه لا يثق في أنها لن تغضب وتظن أنه تخلى عنها؟ ترى هل ستنتظره؟ هل يمكن أن تطلب الطلاق أو تتزوج من ابن المدبر؟ هل سيستطيع تركها؟ طمأنه نائب الوالي بأنه سيتأكد من أنها لن تتزوج من ابن المدبر.

بدا مختلفًا نائب الوالي، أحمد بن طولون من بخارى، ولكن لغته العربية أفضل من عربية أنس، وعيناه تعرف أين تنظر وكيف تصل إلى ما تبغي. بدا مجنونًا بفكرة بعينها لم يفهمها أنس بالضبط، ولم يعرف ماهية أهدافه، ولكنه اطمأن إليه، تكلم كثيرًا عن مصر وعن العدل وعن حلم حلم به كثيرًا. لم يفهم أنس كل كلماته ولكنه وثق به. فبينهما ميثاق غليظ، الاثنان يبغضان ابن المدبر.

***

سيطر عليه الغم وهو يفتح الباب ليجدها أمامه، بعينيها الكبيرتين، تنظر إليه في ذهول، ثم قفزت من مكانها، وألقت بنفسها بين ذراعيه وقالت: ظننتك متَّ، أنس..

قال في صوت أراده أن يخرج قويًا وهو يحيط خصرها: حبيبتي، لا بد أن تعودي إلى بيت والدك يا ميسون.

قالت مسرعة: أعرف، توقعت هذا. ابن المدبر هدَّدك. طلب منك أن تتركني. حمدًا لله أنه لم يقتلك. هل ينوي قتلك؟ أنس..أجبني..

قال في بطء وهو يتحاشى عينيها: لو طلبت منك أن تنتظريني فهل ستفعلين؟ لو وعدتك أن أعود، لو وعدتك أن أتخلص من ابن المدبر، وأعود إليك فهل ستنتظرين؟

قالت بلا تفكير: بالطبع سأنتظرك. ولكنك لا تستطيع أن تتخلص منه. لم أطلق سراحك؟

- ليس هو من قبض عليَّ، من قبض عليَّ هو صاحب الشرطة.

- وأرغمك أن تتركني، أليس كذلك؟ ولكن يمكننا الهرب اليوم. لو تركك ترحل معي، وتعيدني لوالدي فيمكننا أن نهرب.

نظر إلى عينيها، ثم أحاط وجهها بكفيه وقال: أحبك.

رددت: هل هددك؟

- هل ستنتظرينني؟

- لا أفهم شيئًا.

- وعدني صاحب الشرطة أن ابن المدبر لن يتزوجك. ستعودين وكأنك هربت ممن خطفك. لن تذكري اسمه ولا أي شيء عنه، ولن يتزوجك ابن المدبر، هذا وعد، عندما تعودين سأكون حولك دائمًا، لن أستطيع الاتصال بك، ولا أن

أبعث لك الرسائل، ولكني سأكون حولك، وسأعود إليك. أقسم إني سأعود، وإني لن أخونك، وإني لا أريد غيرك، هل تصدقينني؟

نقلت عيناها إلى عينيه، ثم أزاحت يده في صرامة، وقالت وكأنها تفهم: أنت لست مرغمًا على تركي، أنت اخترت أن تتركني.

قال في حسم: لن أتركك.. أنت زوجتي.

قالت وهي تضرب برجليها على الأرض كالطفل الذي فقد كل صبره: عليك أن تختار الآن بيني وبين ابن المدبر. لو كان حبك لي أكبر من كرهك له فسنهرب معًا.

- لا مستقبل لنا يا ميسون لو هربنا، فكري في الأمر، هل سنحيا طوال العمر هاربين؟ ولو وجدنا وقتلني، فهل يرضيك هذا؟

قالت في قوة وهي تقوم: اختر بيني وبين ابن المدبر.

قال في غضب: لا بد أن تحكّمي عقلك.

صاحت: الآن تريدني أن أحكم عقلي؟! الآن؟! لِمَ لم تحكّم عقلك عندما أقنعت أبي بأن تهرب بي إلى هنا؟ ولِمَ لم تحكم عقلك عندما تزوجتني؟ ولِمَ لم تحكم عقلك عندما دخلت بي؟ اليوم تريدني أن أحكم عقلي؟

قال في حسم: ميسون، ستعودين إلى والدك، وتنتظرينني شئت أم أبيت، ستنتظرين وسأعود.. لا يساورك الشك أني لن أعود.

***

لم يتكلم معها طوال الطريق. غرز الخنجر، فاستقر مكانه في روحها وروحه. عندما اقترب من بيت والدها غطى وجهه ثم قال: لا أريد أن أتركك والغضب بيننا، لا أدري ما الذي سيحدث لي.

مد يده، وأمسك بيدها ثم قال: اجعلي يقينك يتغلب على كبريائك، أريد العيش معك للأبد، سوف أعود.

أزاحت يدها ثم قالت: لا تقلق، لن أخبر أحدًا مَنْ تكون، عد إلى سوق الوراقين، وانتقم من ابن المدبر.

- بل سأعود إلى زوجتي، ليس لي سواك.

- لكَ ابن المدبر.

- ميسون..

قالت في حسم: عد بي، هيا.

فقال في قوة: ستنتظرين شئت أم أبيت، ولن يراك ابن المدبر إلا عند موتي.

عندما سارت خطوات، عادت في تردد، ثم قالت في شيء من الرجاء: أنس..

نظر إليها وقال في لهفة: حبيبتي..

قالت: لا بد أن تختار بيني وبين ابن المدبر. من أهم عندك؛ ميسون أم والي الخراج؟

قال في رفق: حاولي أن تفهمي، كيف نحيا هاربين؟!

- أجب عن سؤالي..

- كيف تقارنين الحب بالكره؟

- بل الحب لا يقارن إلا بالكره، أجب عن سؤالي.

قال في حسم: سأعود إليك، وسأبعث لك الرسائل، انتظري.

هزت رأسها في حتمية، ثم قالت: أنت اخترت ابن المدبر يا أنس.

ثـم قالت في حدة: ومن يدري ربما أنت مـن دبرت كل شيء. ربما فرحت بأن والي الخـراج أحب مـن أحببت أنت فأصبح مصيركما واحدًا. هل دبرت رؤيته لي يا أنس؟

فتح عينيه في غضب، وأمسك بمعصمها وقال: أي هراء تقولين؟ إياك.. هل تسمعين؟ إياك أن تفكري ولو لحظة أني لن أعود.

***

سـارت بهمة مع الحراس، ابتعدت صورتها، ثم تقلصت، وتلاشت، انتزعت قلبه بخطواتها، لم يتوقع أن تتأثر ضربات القلب، ولا أن تنزف الكبد وتربك الحراس. أغمض عينيه وتأوه، هذا ألم يشبه ألم والـده قبل الموت وربما يزيد عليه مَنْ يدري؟ لمَ لا يلحق بها؟ يأخذها بين ذراعيه، وينسى كل ما كان وما سيكون، سيعين عشرة رجال حول بيت والدها يراقبونها طوال اليوم، سيبعث بالمال لوالدها، سيشتري لها الذهب من أول أموال يكسبها من عمله مع ابن طولون. ستنسى، ستسامح، المحب لا يغضب، المحب يمتلك قلبًا لينًا، ومن سكنت بين ذراعيه فلن تترك زاوية ذراعه من أجل بعض البين؛ الفراق يأتي كل حين، ولكنه لا يستقر.

امتلأ بالهم كامتلاء الحقل بالماء، وجد نفسه ذاهبًا إلى ساحرة الهرم يطلب منها أن تساعده؛ أن تخبره أن ما يفعله هو الصواب، وأن الفقد والشوق لها ترياق يحمي من الفناء.

- مرحبًا بالعالم القادر، صاحب المهام المستحيلة والقلب الممسوس.

- جئت أطلب المشورة.

- كلهم يأتون في طلب المشورة، ثم يتغلب عليهم الكبر، فينسون لحظات التردد والهوان؛ أنس المصري ينهكه الذل، ويشتد عليه الحقد، فيطرحه أرضًا. ملكت كل شيء، ثم ذكرك ابن المدبر بأنك أضعف من الضفدع في فم الثعبان.

هذا داء القارئ يا أنس، عندما تغرق داخل كتبك تنسى مَنْ تكون، ويهيأ لك أنك ملكت الكون، وعندما تعود إلى الدنيا تعرف قدرك، فينخر العجز نفسك، الهارب والي الخراج، بل الخليفة الذي عيَّنَ والي الخراج، تريد أن تلملم ذرات الهواء كلها بين راحتيك حتى يموت الظالم خنقًا! أي عابث أنت؟! وأي مجنون؟! أكل الغرور قلبك أيها المصري.

- أقسمت أن أنتقم لأبي، لقد انتصر موسى على فرعون.

- لا أنت موسى ولا عصاك هي عصا ساحر.

- جئت لأني متعب..

- لم يبدأ تعبك بعد.

- أتريدينني أن أرضخ للذل؟

- تريث في انتقامك، فالحرب تنهك، والقتل تفوح منه رائحة العجز، والذبح يغطي دماء الذابح قبل المذبوح.

- سأنتقم.

- تقرأ عن المصريين القدماء، أنت فقط تعرفهم. تكلموا عن الظلم والعدل والانتقام. والحرب المستمرة بينهما؛ لا هي تنتهي ولا الظالم هو ظالم طوال الوقت، ولا العادل معصوم. تدور بنا الأيام كدورة النيل قبل فيضانه. ابن المدبر علمك أنك عاجز.. والعجز أول درس يتعلمه البشر، لا بد أن تشكره.

- تكلمين بألغاز، وتثيرين رثائي لعقلك المفتون.

- أنت عاجز، وابن المدبر عاجز، وابن طولون عاجز، لكل امرئ لحظة يعرف فيها قدر نفسه وجهله وقلة حيلته؛ هي ساعة تأتي شئت أم أبيت؛ جاءت لك مبكرًا لتعرف، فالعجز يصاحبه المعرفة، والقدرة مقترنة بالجهل.

- أتريدينني أن أنسى أمر ابن المدبر؟

- حتى لو طلبت منك هذا، فلن تفعل. لقد جُرح كبرياءك، وذكّرك بأنك ثعلب منفرد في الصحراء، حتى جُحرك وصل إليه الذئاب، ولكن ما ظننت أنها لن تصل إليه؟ الذئاب تصل دومًا إلى كل الأماكن عاجلًا أم آجلًا. أين العلم المصاحب للعجز؟

ردد في حيرة: أين العلم المصاحب للعجز؟

- تذكر يا أنس، كلكم عاجزون، بل كلنا في العجز سواء، في دين الإسلام يحسب الفرد أن لن يقدر عليه أحد، ثم ماذا؟ يتهاوى من أعلى الجبل، فلا عاصم اليوم ولا حيلة أمام الأمواج العاتية. الحكمة تصاحب العمر الطويل، وإدراك العجز قوة، أما خداع النفس فسوس ينخر في الروح فتتلف.

- كلماتك تقلقني، جئت أطلب المشورة.

- بل جئت تتكلم مع الأجداد، أنا أقول لك كلماتهم.

- لا فائدة من الأجداد، رسائلهم متناقضة، ولغتهم مبهمة، وحكاياتهم كلها سحر وخرافات.

ابتسمت ثم قالت: ومع ذلك أردت أن تتكلم معهم. تعال بعد حين عندما تفتح صدرك لتعرف.

قال في أسى: بحسن، الحب أنهكني.

- ولطالما أنهك الحب أعتى الجيوش، الحب كالمُدام، يخدعك فتظن أنك القادر على كل شيء، ثم تستيقظ على أنين عجزك وقلة حيلتك. هو هكذا دومًا، لا راحة فيه، ولكنه بطعم العسل وحلاوة اللبن الصافي، فلا مفر من الغوص في عسله والشرب من لبنه. أين الكعك الذي طلبته منك يا أنس؟

***

- 6 -

في مجالس اللهو فائدة مضاعفة وإتقان وعطاء، فكثيرًا ما تُعقد الصفقات حينها وتقام الدول وتتلاشى، وكثيرًا ما يظهر وجه فاتن يتصارع عليه الرجال أو صوت جميل يخدر الأذن فتنصاع إلى كل الأوامر، يتقن الولاة والأمراء تلك المجالس، أتوا بها من بغداد مع غلمانهم وجواريهم. فتعلم منهم أهل مصر وأحيانًا كان بعض كبار التجار يقلدونهم، ويفتشون عن معنًى للسعادة المطلقة، النشوة التي لا تنتهي بانتهاء الليل. اليوم كان المجلس مختلفًا، فقد دعا ابن المدبر نائب الوالي إلى مجلسه. دعا أحمد بن طولون لأنه لا يطمئن له، فقد رفض المال الذي عرضه عليه هدية، ورفض الهدية هو إعلان حرب، دعاه حتى يسخر من ملبسه وهيئته وحتى يعرف أغراضه وخطورته، فلو استمر نائب الوالي في العبوس والغرور فلا بد من عزله اليوم، وابن المدبر قادر على هذا.

بدأت الجارية في الغناء بكلمات شعر علية بنت المهدي وهي تعزف على العود، وتسدل جفنيها في تأثر وغواية:

الشوق بين جوانحي يتردَّدُ ودموع عيني تستهلُّ وتنفدُ

إني لأطمع ثم أنهضُ بالمنى واليأس يجذبني إليه فأقعدُ

نظر ابن المدبر إلى أحمد بن طولون وهو ينصت في اهتمام، ثم ابتسم. وبعد أن انتهت الجارية من الغناء قال ابن المدبر: أتعجبك يا أبا العباس؟

قال أحمد وهو ينظر إلى عينيه: الأهم أن تعجبك أنت.

قال ابن المدبر: أعطيها لك اليوم يا أخي إن لم تقبل هديتي الأولى، أم إنك تفضل الغلاميات؟

قال أحمد: بل أفضل الغلمان الذين تحيط نفسك بهم؛ مائة أو أكثر.

- هم ليسوا غلمانًا للهو، بل جنود مدربة.

- أعرف يا أخي.

- ولم يحتاج نائب الوالي إلى الحراس؟

- كنت قد طلبت مني أن أختار هديتي.

بدا الضيق على وجه ابن المدبر، فأكمل أحمد: جئت اليوم أتكلم معك في أمر ابنة القاضي.

قال ابن المدبر والشوق يطفر على السطح: ميسون؟

- لا أتذكر اسمها، اعذرني يا أخي، جنودي وجدوها اليوم وحرروها من الخاطفين.

نظر إليه في شيء من الفزع ثم قال: وأين هم الخاطفون؟ لا بد من شنقهم نصفين أمام كل مصر.

- هربوا على ما يبدو، هذا ليس الأمر المهم الذي جئت من أجله، القاضي يحيى لا يوافق على تزويج ابنته من ولي الخراج.

صفر ابن المدبر، ثم قال وهو يزعم الدهشة: لم أكن أعرف أن نائب الوالي جاء خصيصًا إلى مصر ليبتّ في أمور الحب والزواج.

- بل جاء ليبتّ في أمور العدل يا أخي، الرجل لا يريد تزويج ابنته منك.

- إذن هو الذي خبأها كما ظننت.

- الأمر الآن في يدي، وأخاف أن يصل إلى الخليفة أن الولاة في مصر يرغمون المصريات على الزواج، ويتعرضون للأعراض.

- أتهددني يا أبا العباس؟ تهددني يا أحمد؟

- بل أوضح لك الأمور، البنت الآن في حمايتي، وَعَدتُ القاضي أنك لن تعرض لها. ستبقى في بيتها لا تبرحه.

ساد الصمت ثم قال ابن المدبر: البنت تريد الزواج مني، لا تعرُّض للأعراض في هذا.

- ومنذ متى تقرر الفتاة يا أخي ما لا يوافق عليه والدها؟ فلنهتم بشئون الدولة، ونترك أمر النساء فلا فائدة منه.

- جئت بطلبين لا أدري أيها أخطر من الآخر، تريد الرجال والبنت.

- نتركها الآن ربما يتغير القاضي بعد مضي بعض الوقت، وبلا إلحاح ولا تهديد.

- وكأن نائب الوالي جاء ليتقرب من أهل مصر، ويزدري أهل الخليفة.

- بل جئت من أجل الخليفة وإعلاء كلمته. ولكن يا أخي لكم أذهلني حال أهل البلاد! كانت مصر منذ فتحها عمرو بن العاص جبلًا من الذهب الخالص، الخير بين جوانحها يفيض فيغمر كل بلاد المسلمين ويفيض عن بلاد العجم، ثم دك الجبل دكًّا، وأصبح لا وجود له، فالناس فقراء، والأكل قليل، والأموال انتزعها من بين أسنانهم بالغصب والعنف. ماذا حدث لمصر يا أخي؟

- في كلامك أذى للخلافة العباسية، وانتقاد للخليفة نفسه، كانوا سيقلدونك ولاية واسط في العراق.

قال أحمد: ثم آل إليَّ حكم مصر.. هي أقدار مكتوبة يا أخي، بل أريد للخلافة أن تفوز بجبل الذهب كله، ولا تأخذ الفتاة.

- هل تنتقدني أنا يا نائب الوالي؟

- لكم يذهلني أن يجوع أهل البلاد، والذهب يغرق بيوتهم، تبعث إلى الخليفة بخراج كبير، ولكن لو شبع أهل مصر لبعثت له بخراج أكبر، اترك لي الزمام في بعض المال، لديّ فكرة..

قال ابن المدبر: نتكلم عن أفكارك بعد حين.. لو بقيت معنا يا أحمد فسوف نتبادل الكثير من الأفكار.

- لوا لم تفيد الامتاع في اللغة..

- ما أفصحك في العربية مع أنك من العجم!

- الفصاحة والإخلاص لا علاقة لها بالعِرْق، بل بمكان الولادة، وقد ولدت في العراق يا أخي.

قام ابن المدبر واتجه إلى الباب، وبعد السلام انفجر غضبًا وهو يردد: لا بد لأحمد أن يرحل اليوم قبل الغد.

قال أبو شعرة صديقه وهو يمشي مشية أحمد: يمشي كالضِّباع المتوحشة، ويحتاج إلى أسد يذبحه، هل رأيت ملابسه أو لحيته؟ كيف يفكر الخليفة؟ ربما لا بد أن تترك له بعض المال ليغير من هيئته.

- الخليفة لم يعيّنه بل عينه زوج أمه.

ثم ابتسم وهو ينظر إلى أبو شعرة وقال: لو كان لديك زوج أم من المقربين للخليفة، وأخذ ولاية مصر كان سيجعلك نائبًا، هؤلاء العجم لهم طرق مختلفة عن طرقنا.

قال أبو شعرة: قاسم.. جارية ابن طولون وأم أحمد بن طولون.. يقولون تزوجت القائد بايكباك من أجل ابنها.

قال ابن المدبر في حسرة: ميسون..

نظر إليه أبو شعرة في أسى ثم قال: أعرف.

فقال ابن المدبر: لا تعرف، كل حياتي قبل رؤيتها لا معنى لها، أسرتني من نظرة كأنها جان.

فقال صديقه أبو شعرة: ابن المدبر، مَنْ يرتعش أمامه رجال البلاط يعشق الصبيان!

- تأدب في كلامك..

- هي الخمر يا صديقي، ما الذي تجده فيها ولا تجده في تلك الجارية؟

- لا تسل السُحب عن القلب وإلا ظلمت العقل والقلب، سننتظر بعض الوقت.. حتى تتخلص من أحمد بن طولون.

ضحك أبو شعرة وقال: ربما يتخلص بابكباك من أمه قاسم، فيطرده إلى خارج أرض الخلافة من يدري؟ هذا كله يعتمد على قاسم وإتقانها فنون العشق.

قال ابن المدبر: بل العشق لا يمكن تعلمه ولا إتقانه، هو رزق وموهبة.

- يا لكلماتك التي تقلقني!

- صفت روحي من كل سوء حتى أني لم أعد أريد سواها.

- وجاريتك؟

- لا أشتاق لأحد بعدها.

***

انتقل أنس إلى بيت في مدينة العسكر يعرف باسم «بلد الإمارة» لاتساعه وكثرة أبوابه، أحمد بن طولون نفسه يسكن هذه الدار ومعه كل رجاله وحاشيته ورجال الشرطة، لكل نوع من الرجال باب خاص، يدخل أحمد بن طولون من

بباب يطل على حارة حوض أبي قديرة، أما أنس فيدخل من باب الشرطة بعد أن عينه أحمد نائبًا للشرطة الفوقانية المسئولة عن الفسطاط والعسكر.

كل ليلة يتذكر أحضانها، ورائحة الجنة الآتية بقربها، ضحكاتها، نظرات الحب في عينيها، كل ليلة يصاحبه نفس الحلم، تنظر إليه في حذر، وتتشبث برقبته، وترجوه ألا يلقي بها إلى النهر، تهمس: لا أستطيع العوم يا أنس. فيقول في حسم: سألتقطك قبل الغرق. فتقول كالطفلة التائهة: ولو لم تجدني في ظلام النهر؟ فيؤكد: ولو ابتلعتك المياه فسأجدك في جنبات أطرافي وأغوار أضلعي. يعطي والدها الأموال، يغدق عليه بمال لها خصيصًا. اشترى لها قلادة من الذهب الخالص بكل ما كسب، وأعطاها للحراس ليعطوها إياها.

قضى أنس شهرين في التدريب الشاق؛ في الصباح يتدرب على القتال مع الغلمان الذين أخذهم أحمد بن طولون من ابن المدبر بدلًا من هديته، وفي المساء يجلس مع أحمد بن طولون يقرأ له ويترجم كتب الفلاسفة اليونانيين، وقد وجد أحمد في أفلاطون حكمة وهدفًا فأصبح لا يسلو كلماته ولا يتوقف عن سماعها كل يوم، بعد شهرين طلب أحمد من أنس أن يتولى مسئولية الجواسيس على ابن المدبر. فأنس هو من عجز ابن المدبر عن شرائه.. اليوم أو أي يوم. طلب منه أن يعتني أيضًا بكل رسائل صاحب البريد إلى الخليفة. فشقير صاحب البريد هو الصديق المقرب لابن المدبر، وهو أيضًا الرجل المخلص لأم الخليفة فلا إمكانية للتخلص منه. ما يستطيع أحمد أن يفعله هو أن يراقب ويتخلص من رسائل صاحب البريد للخليفة فكلف أنسًا بالكثير من الأعمال، كل يوم يجلس معه ليلًا ويضعان معًا الخطط لكل شيء.

راقب ابنُ طولون أنسًا وعرف عنه الكثير، عرف أنه ليس ذئبًا بل ثعلب، يحب العيش منفردًا، ولا يتبع قواعد الجماعة، يغوص بين كتبه وعالمه الخاص لو استطاع، لا يريد أن يقود جماعة، ولا أن يتبع قائدًا. تعلم السيف والرمح سريعًا..

الحسم، ولكنه لم ير فيه جنديًا يتبع الأوامر، ويعمل مع جيش. يجيد حفر الجحور، ويتقن التخطيط الدقيق المطعم بالمعرفة والقراءة. قال له ابن طولون يومًا في القطائع: أتعرف يا أنس؟ أنت صديق اليوم، ولكنك لن تبقى صديقي للأبد، لأنك لن تطيع كل الأوامر.

قال أنس: مولاي يعرف أن من يطيع كل الأوامر لا أمان له، فمن لا يخالف في الجهر يخالف في الخفاء.

- رجل مثلك هو صديق جيد، ولكنه ليس قائدًا لجيش، بل معلم ومخطط للمستقبل.

قال أنس في حسم: المستقبل في الإسكندرية يا مولاي.

- أنس.. لا تجازف..

- قلت إننا أصدقاء. الإسكندرية لا بد أن تصبح تحت إمرة أحمد بن طولون، وحتى يحدث هذا، فخراجها ليس للخليفة.

فتح أحمد فمه في وجل وقال: ما تقدم عليه ربما يقضي عليَّ قبل كل شيء.

- طلبت مني أن تتخلص من ابن المدبر وظلمه. وأنا أساعدك.

- لم أطلب منك أن تقتص لأبيك، وتسرق الخراج.

- خراج الإسكندرية لأحمد بن طولون، يسرقه اللصوص ليلًا بلا علم الشرطة، ثم ينفق به ابن طولون كل ما يحلم به ولا يستطيع أن ينفقه في مصر، يبني لو أراد، أو يعطي الأموال للفلاحين.. يبني دارًا للصناعة، وأخرى للزراعة..

قال أحمد في بطء: والشرطة..

- نائب الشرطة سيغضب كثيرًا، ويبحث عن السارق.

- أنت داهية. أخالفك أحيانًا يا أنس.. كنت أظنك لا ترى سوى كتب الخوارزمي.

- نعم.. هي كتب الجبر ما أعرف. دعني أساعدك. عندما تقل هيبة ابن المدبر ويعرف الخليفة أنه لا يقوى على أهل مصر ينتهي أمره. لا حكم بلا هيبة، ولا بقاء بلا خزانة ودنانير. ولديَّ طلب آخر يا مولاي.

- اطلب.

- نائب الشرطة سيفتح باب الإسكندرية، فمصر لم تعرف في تاريخها أيامًا كهذه، يخاف فيها المسيحي من أن يقيم شعائره، وتخاف الكنائس من إخراج المباخر والقوارير خشية طمع والي الخراج.

- هل تريد أن تتحدى قرار والي الخراج؟

- نائب الشرطة له بعض الحرية في القرار.

- أنت لست صاحب الشرطة يا أنس.

- أطلق سراح رجال الدين، المصريون ربما يتحملون الفقر ولكنهم لا يتحملون الإهانة سوى بعض الوقت.

قال أحمد: افعل ما يحلو لك، ولكن فكر في النتائج.

نفذ أنس خطته، وحلمه يقترب كل يوم من التحقق. سيتخلص من ابن المدبر ثم يعود إلى حبيبته، يتصور اليوم والساعة، يتذكر رائحتها وذراعيها وهي تعانقه. سوف يتسلق شرفتها ويدخل عليها مفاجأة ثم يقبلها في قوة، وسوف تستقبله بنفس الشوق ونفس اللهفة، عندما سأل عنها بعد شهر لم يطمئنه المرسال ولم يقلقه. قال إنها أخذت الرسالة فقط. حاول من جديد أن يبعث لها، تمنى أن يراها، وكان يعرف أن هذا مستحيل ما دام ابن المدبر يراقب بيتها. وأي شيء يثير الشكوك في أنس سيجعل التخلص من ابن المدبر مستحيلًا. لا بد أن يصبر

وأن تصبر. تركها وهما متخاصمان ولكن قلبه صالحها حتى قبل الخصام. يفهم حسرتها وإحباطها، سوف يطلب منها العفو ويشرح لها، وسوف تحبه بقية العمر. لا راحة تدخل القلب في بعدها، هرول إلى أحمد يحاول أن يجد طريقة للعودة إليها، فهو لا يستطيع الاستمرار في البعد، ولكن أحمد طلب منه الصبر عامًا على الأكثر، وسيجد طريقة حتى ولو لم يرحل ابن المدبر.

منذ أول يوم استطاع أنس أن يقطع طريق الرسائل التي يبعث بها شقير صاحب البريد للخليفة، ومنذ أول يوم عرف أن الرسائل تطلب من الخليفة أن يعزل أحمد فهو لا يصلح لحكم مصر كما أنه بلا هيبة ولا هيئة . واتهمه شقير وابن المدبر بعدم احترام الخليفة، وأن عينيه ممتلئتان برغبة في الاستقلال والتمرد. مضمون الرسائل واحد وإن تغيرت العبارات: «أحمد بن طولون خطر على مصر، وعندما يتمكن منها لن يستطيع أحد أن يردعه، لا بد من خلعه قبل فوات الأوان». هذه الرسائل كانت تقع في يد أنس ورجاله، فيغيرها على قدر المستطاع، وبما أنه سريع في الكتابة والنسخ، فقد كان يفعل هذا في وقت قصير فلا يلاحظ شقير ولا رجاله.

بعد أن عين أحمدُ أنسًا نائبًا لصاحب الشرطة أصبح يستطيع أن يتوغل بين رجال شقير كما طلب منه، ثم توغل بين رجال ابن المدبر، تعلم الكذب والمراوغة والمكر والخداع، تعلم الكثير في غضون شهور، فالحزن أفضل معلم، والعجز عن رد الظلم يفتت النفس، ويجعلها أكثر شدة وشجاعة. أتقن كل شيء، وعمل ليلًا ونهارًا. دخل في حروب الساسة، وفهم أن العدل ليس سهلًا، وأن الظلم يجب محاربته بكل الطرق، وأن الاتحاد قوة، والوحدة هي كل العجز. في كل مرة يرتقف شر ابن المدبر يُشفى بعض عجزه. واليوم عندما استطاع الرجال سرقة خراج الإسكندرية، وتسلمه هو، شفيت بعض نفسه أو كادت. الانتصار قريب، أقرب مما يتوقع.

عين الحراس حول بيتها، ومنّى نفسه باللقاء، وهو يعرف أنه مجازفة الآن، سيصبر على أمل لقاء ليس بعده فراق.

حاول أن يطبق العدل، وأصبح في يده السلاح ليفعل هذا، ولكنه لم يلبس عباءة الشرطي قط، كان قلبه قلب الوراق حتى وهو يتمسك بالقوة والسيف. كلما نظر في أمر وجد وراءه والي الخراج، وكلما قبض على لص ليضعه في المطبق تمنى أن يفعل هذا مع والي الخراج. سيطر ابن المدبر على أيامه وكان يفكر فيه ليلهي القلب عما فقد وما ترك.

انفرج قلبه وهو يسير خطوات إلى المطبق ليطلق سراح البابا وكل من ثار من أجله، فتح الأبواب وأزاح الغشاوة من على الجدران. أكرم البابا و اعتذر له باسم أحمد بن طولون. ثم أمر الحراس بإخراج كل من تم سجنه مع البابا. وقف يلاحظ الفرحة في العيون، والأمل في الوجوه، حتى جاء رجل من ورائه وهمس: لم نكن نعرف أن الوالي يعين المصريين في هذه المناصب، تُرى أمصري أنت أم جاسوس؟

التفت إليه أنس في غضب: ويحك، ماذا قلت؟

فقال الرجل وهو ينظر حوله في حيرة: لم أقل شيئًا يا مولاي.

- بل قلت، سمعتك. أعد ما قلت هنا أمام الرجال لأضعك في المطبق من جديد.

تمتم الرجل: عندما يصبح السجن تبعًا لأهواء نائب الشرطة، تعرف أنك في مصر.

أمسك أنس بتلابيبه ثم قال: يبدو لي أن والي الخراج قد سجنك لأنك لم تتعلم الأدب.

- أو ربما سجنني لأني تجرأت كما تجرأت أنت يا بن شيخ الصيادين.

التفت أعينهما، بدا الرجل في مثل سنه، صرف أنس الرجال، ثم جلس على دكة، وطلب من الشاب أن يجلس أمامه ثم قال في هدوء: من أنت؟

- سعيد.

- سعيد مَنْ؟

-سعيد ابن كاتب الفرغاني.

-لقد أطلقت سراحك للتو، ولم أسمع كلمة شكر.

- كنا نتغنى ببطولاتك يا نائب الشرطة. كلنا في السجن نعرفك، ولكن لم نعد متأكدين مَن أنت.

قال أنس بالقبطية: ماذا تعرف عني؟

- قلت لك: كل مصر تعرفك، وأخبار الثائرين تصل إلى السجن قبل بلاط الخليفة، عندما عيَّن أحمد بن طولون أنس بن حمزة السكندري نائباً للشرطة عرفنا أن لكل ثائر ثمناً.

- أحمد ليس ابن المدبر. أحمد أطلق سراح البابا.

- لا شأن لنا بالحكام.

- بل لا بد أن تعرف قبل أن تغضب، لا تبطش بلا معرفة، اعرف عدوك قبل الصديق، وعندما تتأكد من العدو حاول أن تجد الصديق.

- لا أعرف ابن طولون، ولكني أعرف سوط ابن المدبر، أثره لم يزل يزين صدري وظهري.

- سعيد بن كاتب الفرغاني.. اذهب إلى حال سبيلك.

قال سعيد فجأة: لا سبيل لي. ولا حال تعجبني.

- ماذا تريد يا رجل؟

- هل يعين أحمد بن طولون المسلمين فقط من المصريين؟

- هل تريد العمل عند أحمد؟

- بل أريد العمل معك.

- لا تصلح للشرطة.

- لِمَ؟ لأني لا أكذب؟
- بل لأنك هزيل، لا صحة لديك ولا قوة.
- قضيت عامًا بلا شمس ولا طعام.
- اذهب إلى حال سبيلك، ولا أعدتك إلى المطبق.
- أريد أن أعمل معك. لا عمل لي ولا عائلة.
صمت أنس هنيهة ثم قال: دعني أفكر في الأمر.
- حتى تفكر سأسكن معك فلا بيت لي.
- أفقدت عقلك؟
- لن أبرح هذا الموضع.
أخرج أنس سيفه، ثم وضعه على بطن سعيد قائلًا: ولو قتلتك الآن فلن تبرح هذا الموضع.
- ليس لدي ما أخسره، ولا ما أنتظر حدوثه، افعل ما شئت.
نظر إليه أنس في فزع، ثم تركه على باب بلد الإمارة، وهو مشغول بأمره طوال اليوم حتى إنه نسي أمر ابن المدبر لبرهة.
جاءه الخبر عن سعيد، فعرف تاريخ سعيد كله؛ تربى سعيد في فرغان في دلتا مصر وسط أب وأم وأربعة إخوة، سافر والده إلى العراق بحثًا عن عمل، وعاد بعد سنوات ثريًّا، فاشترى بيتًا كبيرًا ليربي فيه أبناءه. بقيت عائلة سعيد مسيحية حتى مع دخول بعض الأقارب في الإسلام، أمه لا تترك صلاة ولا قُدَّاسًا. يعرف أهل الحي قصة سعيد مع اليتيمة. قيل: إن يتيمة ظهرت في الحي وهي في الخامسة من عمرها فأشفق أبو سعيد عليها، وطلب من الأم أن تربيها كأحد أبنائها، تذمرت الأم، ولكنها أخذت اليتيمة في كنفها دون أن تكترث بها على الإطلاق، وتعاملت معها كأنها تخدم في البيت لا أكثر، ولكن اليتيمة كانت غريبة الأطوار، في سن العاشرة كانت تجلس تحت أحد تماثيل الفراعنة ساعات وتتكلم معه، وعندما

بينها أم سعيد عن هذا، وأخبرتها أنه صنم قالت في تصميم: إنه والدها، ثم ادعت أمام كل أهل الحي أنها ابنة التمثال، ونسجت قصة طويلة عن أمها وأبيها، بدأت أم سعيد تتذمر، وتلومها، وتوبخها، وأحيانًا تضربها، في ذات الوقت نشأت بينها وبين سعيد قصة حب لم يعرف أهل بابليون مثلها على مر الزمان، كان يصاحبها طفلًا وهو بعمرها لا يتركها دقيقة، يصدق حكايتها ويستمع إليها في صبر، علمها الرسم والقراءة وعندما بلغا الخامسة عشرة تبادلا قبلة عشق لم ينسها سعيد طوال عمره. طلب سعيد من والديه أن يتزوج من اليتيمة، رفضا رفضًا قاطعًا، ليس لأنها يتيمة، ولكن لأنها غريبة، تجلس أمام الأصنام وتصاحبها. زواجه منها فضيحة للأسرة جميعها. حزن وحزنت. صبرت عليه اليتيمة، يقولون إنها كانت تتسلل إلى حجرته وتنام بين ذراعيه، والله أعلم. وانتظرت أن ينتصر لحبه، ولكنه لم يجرؤ، حدث شجار بينها وبين أهل الحي، فادعت أن سعيدًا هو أهلها وأنه سيتزوجها، وسط نظرات الفزع من الأهل والجيران بقي سعيد ساكتًا لحظات. لا أنكر ولا دعم كلامها، فتح عينيه بعد عامين ولم يجدها حوله، عم الظلام، وتلاشت كل نجوم السماء، لم يترك حجرته شهورًا، واستغاثت أمه بالقساوسة، وخافت أن تكون اليتيمة قد سحرت له، بصقت ثلاث بصقات على باب البيت، وقالت إن اليتيمة غارت إلى الجحيم، وإنه لا بد أن يجد زوجة تصلح له. ولكنه لم يتزوج. توغل الظلام بداخله حتى حفر أماكن مختلفة للوحدة والحنين، ولم يترك مكانًا لغيرهما. بعد عدة أعوام ماتت عائلته بسبب الوباء وأصبح وحيدًا وسط كل مصر.

اتخذ سعيد من مدخل باب أنس بيتًا، نصب خيمته، ووضع ملابسه وبعض الطعام، كل يوم صباحًا يلقي عليه السلام فلا يجيب أنس، وكل ليلة يسأله ماذا فعل فلا يجيب أنس. بدأ وجود سعيد يزعجه ويخيفه ولم يقو على أن يحركه من مكانه، ولا أن يطرده خارج الفسطاط كلها.

***

تواصل أنس مع أخيه عليّ. طلب منه أن ينضم للشرطة معه ولكن عليًّا كان يتمنى فقط أن يعود إلى الإسكندرية، ويعمل في الصيد مثل والده، فهو لا يعرف حياة أخرى. ولكنه رحل إلى الفرما فبحرها أقرب بالنسبة إليه من نيل مصر، وأخذ معه جميلة، واستقر هناك وعمل في الصيد، وتمنى يومًا أن يستطيع العودة إلى الإسكندرية وهو رافع الرأس بلا خوف من والي الخراج. وعده أنس أن هذا سيحدث بعد التخلص من ابن المدبر. ولكن التخلص من ابن المدبر لا يبدو بهذه السهولة.

ظهرت الثورات داخل مصر، ثار العلويون وغيرهم، عم الفساد والفقر. أرسل أحمد بن طولون إلى الخليفة يطلب منه أن يترك والي الخراج ابن المدبر الأموال له ليشتري الرجال ويكوّن قوة تستطيع أن ترضخ الثورات. رفض الخليفة طلبه على الفور. وعندما سمع ابن المدبر بطلبه أسرع يكتب للخليفة بأنه توقع هذا الطلب، وأن أحمد يريد أن يجمع الرجال ليستقل بمصر. لو أعطاه هو المال ليكوّن قوة وجيشًا يكون قد كتب نهاية وجود مصر تحت الخليفة العباسي. دب الشك في قلب الخليفة، وانتظر اليوم الذي يتخلص فيه من أحمد، أو ربما من الوالي الحقيقي. قُتل الوالي الحقيقي زوج أم أحمد، أصبح وجود أحمد في مصر على وشك الانتهاء، وهو لا يعرف ما الذي ينتظره في العراق، ترى أينتظره الموت أم السجن؟

بعد أربعة أشهر طلب أحمد بن طولون من أنس أن يذهب إلى العراق، ويبدأ في التلصص على رجال البلاط، ويفهم من يحيك المؤامرات ضده، ومن قتل زوج أمه والي مصر. بعثه برسالة إلى الخليفة، وطلب منه أن يبقى في العراق بضعة أشهر يستمع إلى حديث رجال القصر، وينقل إليه أي خطر أو وشاية. هاب أنس الرحلة، فلم يكن سوى مصري من الموالي، يعمل مع والده بالصيد ويقرأ الكتب، خاف ألا يتقبله رجال الخليفة؛ وألا يطمئنوا إليه، منذ متى يحمل المصريون رسائل

مهمة؟ لا بد أن الخليفة سيشك فيه. ولكن أحمد أصر، وقال إنه الآن لا يثق بغيره. لكن السفر إلى العراق سيؤجل لقاءه بميسون نصف عام على الأقل.

لم يزل أنس يبعث إليها رسالة كل يوم، ولكنها لم تجب عليه قط، ولم يعرف السبب، هل عدم ردها عليه يعني أنها تخاف من وقوع الرسالة في يد أحد، أم أنها غاضبة منه؟ كم يفتقدها! وكم يمني نفسه بيوم اللقاء!

مر أمام بيتها، لو دخل وضمها مرة قبل السفر، تردد فلو ترك القلب يتحكم، فلا فوز ولا نجاة. الصبر سيجمعهما، هذا أكيد.

اليوم عندما عاد إلى بيته، وجد سعيدًا قد لملم أشياءه، وكأنه ينوي الرحيل. فقال: أخيرًا عاد إليك عقلك؟

قال سعيد: بل سأذهب معك إلى العراق. أتمنى رؤية سامراء ومبانيها الزاهرة؟ قلت لك لم يعد لي أهل.

جلس أنس أمامه ثم قال: عمّ تبحث يا أخي؟

- كنت أبحث عن مياه تطفئ نار الندم ولم أجد. يقولون عندما تحمل كل أموالك وترحل على باب الله تغسل النفس من الهوى والعشق.

- أتعرف مكان حبيبتك؟ لم لا تعود إليها؟

ضحك ضحكة خفيفة ثم قال: احذر يا أخي غضب النساء، وخاصة العاشقات.

- لا أفهم عمّ تتحدث؟

- لم يعد لي بيت، كانت هي بيتي، رحلت، وتركتني تائهًا.

قال أنس وقلبه مقبوض لا يعرف لماذا: ربما تكون قد ماتت.

فقال سعيد: لا تقل هذا. لا بد أن أجدها. ساعدني يا نائب الشرطة. أنت تستطيع أن تساعدني، اجعلني رفيقك في السفر، لا أريد المال. ثم عند العودة أريد منك شيئًا.

نظر إليه أنس في دهشة ثم قال: ماذا تريد؟

- أريد أن أقابل أحمد بن طولون، وأخبره بما يمكنني أن أفعل، أتقن البناء كأبي وكل عائلتي.. اذكرني عند ابن طولون.. ولن أنسى هذا لك أبدًا، في البناء بعض السلوى، سأخلص لك طوال عمري، وأنفذ كل ما تطلب مني.

التقت أعينهما، فقال أنس في بطء: في عينيك تيه ومعاناة. سأدعو الله لك ولي.

***

أصبح سعيد يرافقه كظله، حتى في رحلته إلى العراق، بدا كأنه لا يملك سوى غاية الوصول إلى حبيبته، حتى لو أن حبيبته قد ماتت منذ زمن. دون أن يدري نفذ سعيد إلى قلبه، وأصبح صديقًا وونسًا، أشفق عليه أنس من مصير محتوم، فقد فَقَد عقله وهو يبحث عنها، وأشفق على يأسه وحيرته. ولكن سعيد كان صبورًا يستمع إلى أنس طوال الطريق وهو يقرأ عليه رسائله للوزير وللخليفة بالعربية، ويحاول أن ينطق القاف والظاء، ويبذل مجهودًا ليخرج الجيم كجيم أهل العراق. كان سعيد يضحك عليه أحيانًا ويقول: تعلمت الفقه، ولا تعرف كيف تنطق الحروف!

فيغضب أنس منه ويقول: من يتكلم؟! أنت تتكلم العربية كأهل اليونان!

قال سعيد ليلًا وهو يجلس ليدفئ نفسه أمام النار: تظنني فقدت عقلي، ولا تعرف أنك أنت المجنون. عندما تمتزج الريح بالنار تتجلى كل الوجوه. انظر إليَّ، ما تراه في مقلتي هو نفسك يا أنس.

- ها قد عدت للخرف. يا رجل.. أفق من غفلتك!

- أتعرف..؟ شيء أسوأ من الفقد وأقسى من الظلم. لو عاد بي الزمن لصرخت فيهم جميعًا وقلت لهم إنها حبيبتي وزوجتي، فالجبن خزي وعار. هل تسمعني؟

لم يكن أنس يسمعه، كان يفكر في ابن المدبر. أكمل سعيد: والي الخراج يتبعث كظلك، أليس كذلك؟

لم يجب أنس، ولكنه استمع، استهوته القصة أو أثارت فضوله، وجد عينيه تتبعان خطوات اليتيمة التي يحكي عنها سعيد، ثم تتبع دموع سعيد التي تتساقط دون حرج وهو يحكي، حكي بلا تحفظ ولا خجل. قال: إن اليتيمة اعتادت النوم بين ذراعيه منذ زمن. عندما زجرتها أمه ثم توعدتها أن الشيطان سيتبع خطاها، ارتجفت في صمت، ولبلا اتجهت إلى سعيد ودفنت رأسها في صدره، ومنذ ذلك اليوم وهي داخل الصدر لا تبرح مكانها. كل صباح تتسلل من حجرته إلى حجرتها. لم يلاحظ أحد ولم تشك قط أنه سيتزوجها. قالت له يومًا إنه أقرب من أي زوج فقد تربت بين ذراعيه وحوله. قالت الكثير، قالت إنه كل روحها ودنياها وإن الأمان بين ذراعيه، وإن الحنان في أنفاسه. كم وعد وكم أقسم، إنه سيحميها وينصرها وعند لحظة المواجهة تردد؟ تردد نفسه وجده. تردد بين خوفًا من لوم أهل الحي ولم ينتبه إلى هوان نفسه ولا موت روحه بغيابها. عندما صاح بها أهل الحي إنها عاهرة وشيطانة، وعندما حكت أمه عن إثم وذنب ارتكبه ابنها وكانت اليتيمة هي السبب، صمت هو. التفت أعينهم حوله. قالت عيناها الكثير، واستغاثت عيناه، طلبت مهلة ووقتًا، ولكنها تقدمت عليه أخذ دون سماع دفاعه، تقول إن الشجاعة لا تتبع الساعات ولا تعددها. الشجاعة لحظة ورمح يعرف طريقه.

تـردد أنـس ثـم ربت على كتف سـعيد بـلا كلمة. ولكـن الدمـوع لم تتوقف، وامتزجت بضوء النيران فأصبحت بلون الشفق واستحالته. فقال أنس في رفق: امسح دموعك يا أخي، هي امرأة لا أكثر.

- لم أحكِ لأحد من قبل. تُرى لِمَ حكيت لك؟

قـال أنـس: ربما لأننـا في الصحـراء وحدنا. أنصحك أن تنـسى أمـر حبيبتك وتتزوج غيرها.

- بل سأجدها. لا يوجد مثلها.

- الجنون يا سعيد هو التعلق بالمستحيل، وأنت تعرف أنه مستحيل.

ضحك سعيد وهو يبكي ثم قال: الجنون يا أنس هو التعلق بالمستحيل، وأنت تعرف أنه مستحيل.

- لِمَ تردد كلماتي؟

- لأنك صديقي.

- لـست صديقك.

- لا وقـت لديـك للأصدقـاء. ولكنـك صديقي. مـا دمت استمعت فأنت صديق.

- الصداقـة لا منفعـة منهـا ولا غرض، وأنـت تريد مني خدمة، هذه ليست صداقة.

- لو كنت تـستطيع أن ترتقي بنفسك لترى غيرك كنت ستعرف أننا أصدقاء. لا حيلة للمرء فيمن يحب، ولا فيمن يصادق. هي أقدار مكتوبة. عندما استمعت إليّ أصبحـت صديقًـا، فـلا مفر. نحـن لا نختار أصدقاءنـا كما لا نختار أرزاقنا ولا يوم موتنا.

-لا صداقة تجمعنا يا سعيد ولا وقت لديَّ للأصدقاء، أنت رفيق سفر اليوم وغريب غدًا.

ضحك سعيد حتى دمعت عيناه، ثم قال فجأةً في عبوس: وعدتني أن تذكرني عند أحمد بن طولون، لا عمل لي سوى البناء. ولن أبني للعقلاء، أنا أبني للمجانين فقط.

***

- 7 -

افتقدته، ولكنها كانت واثقة أن الشهر لن ينتهي وهي بمفردها، سوف يكون معها. فلا يمكن لأي رجل أن يضحي بأحضان ميسون، أجمل بنات الأرض، وبعد أن ذاق طعم العسل كيف له أن يحيا على السمك العفن؟ هناك حب ميسون لأنس، وحب ميسون لميسون، تشابك الحبان وأصبح الفصل مستحيلًا، فميسون تعرف أن النصر دومًا حليفها، ولو كان والي الخراج قد ذاب من نظرة من عينيها فكيف للوراق أن يقاوم المكوث حولها. هي لحظة ضلال ظن فيها أنه قادر على التغلب على والي الخراج، ستنتهي اللحظة ويعود الإدراك له ثم يرجوها. سيرجوها، سيبني محرابًا حول جسدها، ويطلب الصفح كل يوم، ولن تسامحه، فخطيئته لا تغتفر. لم تحك عنه لأمها ولا لأبيها، ميسون لا صديق لها سوى ميسون، هي ونفسها بينهما عِشرة وونس. نفسها دومًا تطيعها، وترفع من شأنها، وتطمئن الشك الذي يصيبها أحيانًا.

كل يوم يقترب الأمل، مر أسبوعان ثم مر أسبوعان آخران، ثم مر الشهر، فلا هو حاول أن يراها ولا أن يتصل بها. عند ظهور البدر تمنت لو تساقطت النجوم كلها، وأحرقت الفسطاط وما عليها، بلا مقدمات خرجت منها صرخة، ودفنت رأسها في الوسادة ثم بكت، وارتجفت، وشهقت ساعات، دخلت عليها أمها تسألها ما بها فلم تجب، بعد بضعة أيام توقفت عن الأكل والكلام، اقتربت منها جارية وقالت: إن غريبًا يقول لها إنه معها، ولا بد أن تنتظره. جاءت الرسالة، ولكنها جاءت متأخرة. دومًا يتأخر ابن الصياد. لم تجب. عندما سألتها أمها عن

حالها لم تجب. في ظلام الليل تخرج إلى الشرفة، وتنظر إلى النجوم وهي تدعو الله أن تتساقط اليوم. تريد لكل نجوم الفسطاط أن تبرح السماء وترسو فوق صدره. بعد مرور شهرين، سمعت أختها تهمس لأمها بأن ميسون ربما أصابها الجنون. لا تأكل ولا تتكلم مع أحد، بل أحيانًا تسمعها أمها وهي تصرخ ليلًا أو تبكي بكاء مصحوبًا بصراخ المعذبين، قرءوا لها آيات من القرآن، لم تتحسن. مر شهر وراء شهر وهي تزداد نحافة وتزداد حزنًا، سمعت الهمس يزداد، تناثرت الكلمات: هو الحب، تحبه، رحل عنها، هو ابن المدبر سحر لها، السحر، لا حل سوى ساحرة الهرم، لها اتصال بالجان. رأى البعض الساحرة عارية تحوم حول الهرمين ليلًا، هي تنبأت بهذا الحزن. هي عرفت أن الخراب قادم.

جرُّوا ميسون جرًّا، فقدماها لم تعودا تحملانها، لم تعترض، نظر الأب إلى عينيها في حسرة، أنس يدفع له المال كل شهر منذ أعادها إلى بيته، وهو يحتفظ به لميسون، بل عندما جاءها حارس ابن طولون بقلادة من الذهب هدية من أنس لميسون ألقت بها من النافذة، ولم تخبر والدها. ولكن والدها عرف، ووجدها، واحتفظ بها مع الأموال.

ولعنت الأم الحظ الذي أدى بابنتها إلى هذا المصير. أمسكت بها رقية أختها من تحت ذراعها، ثم أمسكت الأم بذراعها الأخرى واتجهتا بها إلى ساحرة الهرم.

كانت عيناها تحومان حول المكان، وكأنها لا ترى شيئًا. نادتها أمها فبدا أنها لا تعرفها، تنظر حولها كأن الخطر قادم لا محالة، ثم تصيح وكأنها رأت شبحًا ثم تغمض عينيها، ووالدتها تنظر إليها في حسرة.

جلست وعيناها تنظران إلى سقف الهرم، فقالت أمها في توسل للساحرة: افعلي أي شيء كي تعود ابنتي كما كانت قبل أن يخطفها المجرمون.

نظرت الساحرة إلى ميسون في معرفة ثم هزت رأسها وقالت: لقد حذرتك.

- أتوسل إليك يا سيدتي.

نظرت إليها الساحرة، ثم تفحصت ميسون وقالت: الحزن لا يتركك يا جميلة الدنيا.. أجيبي.. هل يسيطر الحزن؟

قالت وهي تتحاشى النظر إليها: يسيطر.

- هل تنتظرين سقوط النجوم؟

- كل يوم وكل ليلة، ولكنها لا تسقط.

- هل تظنين أن في سقوط النجوم نجاتك؟

قالت مسرعة: أعرف هذا.

فقالت الساحرة في تأمل: يا ميسون، الأجداد كانوا يتقنون السحر وعلم النجوم، ودفنوا أسرارهم معهم هنا في الهرم. كل يوم أحاول فك الرموز، أفهم بعضها، ويستعصي عَلَيَّ فَهْمُ البعض الآخر. ولكن هناك نصيحة في علم النجوم، عرفتها منذ زمن..

اقتربت من ميسون، ثم أمسكت بيدها وسط خوف الأم، ثم قالت: يدك مثل الثلج. وكأنك ولدت فوق السحاب. القدماء قالوا: عندما تريد للنجم أن يهوي لا تسعَ لسقوطه، انتظره حتى يقترب منك بنفسه. في سعيك خطر ونار، وفي اقترابه وحده ضوء ونجاة.

بلعت الأم ريقها وهي ترتجف ثم قالت: لا أفهم كلماتك يا سيدتي.

فقالت الساحرة وهي تمسح بكفها على وجه ميسون: ميسون تعرف، وميسون لا تستمع إلا لميسون، تذكري أن النفس أمارة بالسوء، وفي وهج العشق الكثير من ذرات النار الآتية من الجحيم مباشرة، لا بد لميسون أن تصبر حتى لا تحرق نفسها. عند الحرق لن تتأوه نفسك يا أجمل مَنْ في الكون، أتعرفين لماذا؟ لأن نفسك تَشِبُّ على الطاعة وعدم الاعتراض حتى وقت الفناء، اطلبي من نفسك بعض التمرد.

تحركت شفتا ميسون، وكأنها تتكلم بسرعة، وأمها تنظر إليها في فزع، فدست الساحرة يدها في جيبها، وأعطتها بعض الأعشاب ثم قالت: ضعيها في الماء الساخن كل يوم قبل النوم، وأرغميها على شربها، ستهدأ.

قالت الأم مستغيثة: هل ستعود كما كانت؟

فقالت الساحرة: هذا مستحيل. ولكنها ستهدأ.

فقالت الأم في رجاء: وهل ستعرفنا وتكف عن الصراخ؟

ابتسمت الساحرة وهي تسلط عينيها إلى عيني ميسون وتقول: لا بد أن تعرف ميسون نفسها أولاً، ثم تعرفكم.

قالت الأم: يا سيدتي..

فقامت الساحرة وقالت: انتهت الزيارة. خذي ابنتك، واتركي الأجداد.

***

الأعشاب ساعدت ميسون، أصبحت تنام ليلاً ولا تنظر إلى النجوم وتتمنى حرقها بيديها، لم تعد تفتح ذراعيها للقمر وتدعو النار أن تأكل كل القلوب، ولا عادت ترسم بأصابعها على سطح الشمس أرضًا كلها ضوء بلا رائحة تفزع العين وتهز النفس كالزلزال، لم تعد تتمتم بكلمات لا يفهمها غيرها، ولا عادت تلملم رفات الفؤاد وسط حروب الأقوياء، لم تعد تتذكر ذراعيه ولا قبلته، ولكنها لم تنسَ خسته وخيانته. ضمست كل الماضي وتأكدت أنها لا تتذكر المستقبل ولا الحاضر. فقد تناولتها الأيدي كأنها عروس خشبية في يد الأطفال، أب يكرهه ابن المدبر فيمنعها من الزواج منه، ثم رجل يريد الانتقام فيتزوجها، وهي بين كل الرجال قطعة من اللحم الأحمر تتساقط دماؤها بلا هدف ولا نهاية. هدأت بعد بضعة أيام، فأكلت في بطء، وتعرفت إلى أمها وأختها وحتى والدها تكلمت معه. وقالت أمها في فرح: إن شفاءها كان على يد ساحرة الهرم، تعلمت

من سحر القدماء. بعد عدة أشهر عادت ميسون إلى عالمها بلا ابتسامة وبقلب أجوف ونفس عرجاء، عادت والحزن لا مفر منه ولكنها دفنته في القاع، ولم يعد يسيطر عليها سوى السخط والمهانة. أنس يستحق الموت؛ أذلها وأهانها. وعندما ينتهي أمامها تهدأ النفس، ويعود للقلب رجاؤه. يومًا وهما معًا على النهر قالت له: ولكنك ستموت بعد أن يقطعوا أطرافك، ويفتتوا أحشاءك.

حينها كانت خائفة عليه. واليوم أصبح تحقيق تلك النبوءة هو المراد والغاية.

بعد مرور شهور سمح لها والدها أن تخرج محاطة بالحراس. حاول زوجها أن يرسل لها الرسائل، لم تجب قط، وكثيرًا ما مزقتها دون قراءة.

كل ليلة، لا تنام قبل أن تتذكر، وتُذكّر نفسها، اختار ابن المدبر ولم يخترها. كل ليلة تتذكر والدها عندما حبسها وهي في العاشرة وقال في حسم: أنت متمردة، بك مس من الشيطان، لا تطيعين الأوامر، لو بقيت وحدك فربما تدركين خطأك.

وعندما بقيت وحدها يومًا، ثم اثنين ثم ثلاثة لم تدرك حينها، بل ازداد السخط، وبدأت ترى في ظل الحجرة وجهها الجميل، جمالها سينقذها دومًا من كل سوء. رأت عينيها المضيئتين في الظلام، تخبرانها بأن الغد أفضل، وأنها أقوى من ساحرة الهرم. ابتسمت وبدأت تصاحب ظلها، وتثق به. كانت وحيدة وكان أنس وحيدًا. كانت غريبة وكان أنس غريبًا، ثم اختار ابن المدبر. بعد أن أغواها وخدعها انتصر كرهه على حبه، وهي لا تغفر. في الماضي عندما كان الأب يصفعها لو أخطأت هي ورقية، تعتذر رقية أو تبكي فيضعف الأب، ولا تعتذر ميسون ولا تبكي، بل تتذكر الصفعة كل يوم، وتغتاظ وتلعن اليوم الذي ولدت فيه في هذا البيت وبين هؤلاء. أحبت الأب، ولكن خوفها تغلب على الحب، بالضبط كما تغلب كره أنس على حبه لها، والدها تسامحه، وأنس لا بد أن يدفع ثمن فعلته.

تشرب دواء الساحرة قبل النوم، ثم تغمض عينيها، فترى ظلها حولها، يؤنسها في وحدتها. يوم سقطت النجوم سقطت من أجل ميسون. أنس يحترق

في أحلامها، يسقط في بئر مشتعلة بالنار، ثم تراه حتى يصبح ترابًا، فتلملم التراب في يديها في حرص، وتنفخ فيه فينتشر حولها، يغطيها، تبتسم في رضا، لا يمر يوم دون أن ترى أنس في منامها محترقًا.

أما ابن المدير فلم يترك فرصة إلا وحاول أن يراها، بعث الرسائل مع حراسه فتجاهلته. وعندما ذهبت لزيارة أختها وهي محاطة بحراس الوالي وحراس ابن المدير وجدته بالداخل. قالت أختها: إنه صمم على رؤيتها وإنها هي وزوجها لا يستطيعان الوقوف أمام والي الخراج.

دخلت الحجرة وهي لم تزل محاطة بالحراس. لم يطلب منهم ابن المدير الاختلاء بها، وكأن الحراس لا يعنون الكثير بالنسبة إليه، أو ربما حراس أحد لن يسمحوا بهذا.

ما إن رآها حتى قال في لهفة: ميسون.. يا مهجة القلب.. يا أغلى عندي من مقلتي، لو تعلمين عذابي بعيدًا عنك كنت أشفقت لحالي منذ زمن. أخبريني كيف حالك؟

تلفتت حولها ثم قالت وهي تفتح عينيها في استغاثة: لست بخير، عذبوني يا مولاي.

- مَنْ عذبك؟

- مَنْ خطفوني، لم يحترموا الحرمات، ولا أبقوا على براءة ابنة القاضي.

قال في عبوس: سأقتلهم بيدي.

فقالت في صدق: ولكم أتمنى أن أكون موجودة، وأشهد على عذابهم!

نظر إلى وجهها الشاحب، وعينيها الذابلتين اللتين تقلصتا وسط عظام وجهها: ما الذي يحزنك كل هذا الحزن؟

قالت في حسم: هذا الخاطئ تزوجني يا مولاي، أنا زوجته الآن.

- لا زواج ينفع بهذه الطريقة، لا تقلقي بالك.

- بل، لن يهدأ لي بال إلا بموته.

- وكأن حقدك أكبر من شوقك إليّ يا بنة القاضي! وكأن عشق ابن المدبر لم يعد يعني شيئًا بالنسبة إليك!

- لا أستطيع أن أتكلم عن العشق يا مولاي وأنا زوجة رجل آخر، لتترك الزمن يشفيني لو استطاع.

- وكيف لشقائك أن يستعصي على الزمن يا بنة القاضي؟

- لأن الزمن ضعيف أمام مرضي، والذنب لا يغتفر، ولا يمكن تجاهله، فهو لم يزل ينخر في الروح لو تدري.

- سأتكلم مع والدك.

- بل أتوسل إليك ألا تفعل، اترك الأمر الآن..

- أنت لي يا ميسون.

- ربما يكون قدري للتراب، وليس لأنسي.

- لا تقولي هذا.

- هي الدنيا دومًا لا تعطينا ما نريد، وكأن غرضها هو كسر النفس وترويضها، ونفسي تعلمت واعتادت على الحزن.

- ماذا تريدين مني؟

- جئت تطلبني يا مولاي؟

- لأني اشتقت إليك عامًا بأكمله. قولي إنك أنت أيضًا اشتقت إليّ.

صمتت.

فقال في حسم: إياك أن تكوني تلعبين بقلبي، لم تجرؤ امرأة أن تفعل هذا قط.

- لا قلب لي يا مولاي، عندما يسيطر الحزن يجعل رؤية الضوء صعبة، والاستمتاع بالعيش مستحيلًا، ساعتي لو كنت تنتظر أن أشفى.

- وأنا سأساعدك على الشفاء.

- لا دواء لدائي، اتركني أذبل مع فصول السنة، وأنتظر تساقط النجوم.

- ميسون، أنا لا أفهمك، ولكني أريدك أن تعرفي أن حبي لم يتزحزح، وأن رؤيتك في هذه الحال تزيد من الشجن ولا تداوي الشوق، حتى لو وقف القاضي والوالي والخليفة أمامي فسأتزوجك.

قالت في بطء وهي تتحرك خارج الحجرة: رجل يشبه النخل في إصراره، وآخر يشبه الهواء في فراره.

- عم تتكلمين؟

- عنك يا مولاي. أقدر مشاعرك وأحترمك، وأتمنى لك الانتصار على كل الخونة الذين يحاصرونك، ولكن ما دمت زوجة لآخر فإنه لا يتسنى لي مقابلتك ولا الكلام معك، أرجو أن تقدر حالي.

ثم خرجت وتركت الحجرة، ووراءها الحارس.

***

ما حدث لميسون في هذا العام يحتاج مئات الرقعات والأقلام لكتابته، كل ليلة تراه في أحلامها، يأتي أنس في اشتياق ويطلب العفو، يخبرها أنه لا يريد إلا أن يكون حولها، وعندما فقدت الأمل في أن تتحقق الأحلام غاصت داخل ظلها ونفسها، تحققت من الأوهام، وتبرأت من الحقائق، دارت في دوائر فارغة، واخترق الغضب كل الروح. فلم تعد تسمع ولا ترى، انقطعت عن العالم بعض الوقت، ثم عادت أكثر سخطًا وأكثر ثقلًا وهمًّا. رسائله لا تعني شيئًا، وما حدث منه خيانة لا غفران يقترن بها ولا عودة بعدها. يلهو في العراق، ربما. يتزوج

أو يشتري جارية. لا عيب، ولكن كيف لمن ذاق روعة ميسون أن يريد غيرها؟! أليست أجمل بنات الأرض؟ كيف له أن يرتكب تلك الأعاجيب وهي بهذا البهاء؟! وكيف ستتركه ينعم بحياته بعد خطيئته؟!

نامت، ثم صرخت ليلًا فهرولت أمها إلى حجرتها وقالت وهي تربت على صدرها: استيقظي يا حبيبتي هو حلم.

فتحت عينيها، وثبتت نظرها على الشمعة في يد أمها وقالت: أنا لا أرى شيئًا.

فقالت الأم في رفق: يا ميسون، عم الظلام يا بنتي، انظري إلى الشمعة..

قالت في تأكيد: لا أرى شيئًا، أين الشمعة؟!

بدأت الأم تردد الآيات القرآنية ثم قالت في رفق: يا بنتي، كنت أفضل حالًا، ماذا حل بك؟

قالت في يأس: لا تتركيني في الظلام.

قالت الأم: انظري إلى الشمعة في يدي..

رددت: أنس يجب أن يموت.

- يا بنتي..

- لقد امتص كل الضوء من عيني، وعلمني أن أشم رائحة الضوء، ثم امتص الضوء من عيني، أمي، من يظلم فلا بد أن يعاقب، من يتخلَّ عني أن يدفع الثمن..

- نامي يا بنتي..

صاحت في فزع: ولكني لا أرى الضوء..

- نامي يا بنتي..

أغمضت عينيها، وفي الصباح بدت أكثر هدوءًا، وقد عزمت أمرها على زيارة أحمد بن طولون.

* * *

خرجت وحدها وهي تمشي في إصرار المحاربين، واستقرار الموقنين بنصر مطلق، لو عرف والدها فسيقتلها ربما. وما أجمل الموت اليوم! انسلخ الجسد، واحترقت كل الآمال، انتظرت أمام دار بلد الإمارة حتى يسمح لها الحاجب بمقابلة ابن طولون. كانت متأكدة أنه سيسمح، وأن ابن طولون يعرف من تكون.

رفعت خمارها في بطء، ثم ثبتت نظرها على الأرض وقالت: مولاي الوالي، اعذرني في اللجوء إليك مع أني أعرف قدر مسئوليتك وأعمالك.

نظر إليها برهة ثم قال: ميسون ابنة القاضي بحيى، ماذا تريدين؟ ولمَ تأتين دون وليك؟

فقالت في استغاثة: لأن ما أريد قوله يخصني أنا، ولم أبح به لأحد من قبل يا مولاي.

جلس أمامها ثم قال: تكلمي..

التفتت حولها ثم قالت في صوت خافت: أحد رجالك المقربين ظلمني أشد ظلم، وجئت أطلب منك القصاص.

نظر إلى الحراس فتركوا الحجرة. ثم قال: وماذا فعل هذا الرجل؟

قالت في رجاء: لو تكلمت أتمنى أن تستمع لي، لكل رجل نفس بها الفجور والتقوى، ومن يبدو مخلصًا في كامنه تستقر الخيانة، ومن يبدو قويًا بقلبه نفحة من الضعف. هذا الرجل خطفني، ثم أرغمني على معاشرته حتى لو قال غير ذلك، أقنع أبي أن يتزوجني، ثم أساء معاملتي، ثم تركني ورحل.

- كل ما أعرفه أن والي الخراج يريد الزواج من ابنة القاضي. لا أعرف شيئًا من رجل آذاها.

- الظلم المعلن دومًا أقل من الظلم الخافت المختبئ وسط الرقة والرحمة. اتركني أخبرك بما حدث لي، وأتمنى أن تنصفني حتى لو لم ينصفني أبي، أريد العدل. مَنْ أرغمني لا بد من معاقبته.

- وكيف لي أن أعرف أنه أرغمك؟ ولِمَ لا تذهبين بشكواك إلى القاضي؟

- لأن القاضي هو أبي، ووالي الخراج لو عرف اسم الرجل فسيقتله.

- وأنت لا تريدين قتله إذن، تريدين معاقبته فقط.

- هو لا يصلح أن يعمل تحت إمرة الأمير أحمد بن طولون.

- ومنذ متى ينتظر الأمير رأي النساء في رجاله يا بنت. عودي إلى بيتك. هذا الكلام مضيعة للوقت.

- كنت أريد..

- عودي.

- يا مولاي سمعت أن اللصوص يسطون على خراج الإسكندرية. أنا أعرف هؤلاء اللصوص، بل متأكدة أن منهم هذا الظالم.

- بداخلك خبث وجرأة لا تصلح لابنة قاضٍ. عدم زواج والي الخراج منك إنقاذ ونجاة. هل تعرفين جزاء من يتهم أحدًا بالباطل؟ هذا أمر جلل.

- فقط استمع إلى شكواي. هذا الرجل ظلمني.

- أتريدين منه أن يعود إليك؟

- بل أن يطلقني، ويتركني أحيا في سلام، ثم تعاقبه لو رأيت في فعله ظلمًا، أنت العالم يا مولاي وليس أنا.

- وأي عقاب تريدين له يا امرأة؟

- الجلد.. ربما السجن، وأهم من كل شيء أن تحرمه من العمل تحت قيادتك، فهذا شرف لكل الرجال وهو لا يستحق هذا الشرف.

- والقتل؟

صمتت، ثم قالت: القتل راحة وسكينة.

- ولمَ تظنين أنه وراء سرقة الخراج؟

- هذا ظن، وإن بعض الظن إثم، أتمنى فقط أن تحقق في الأمر يا مولاي.

- سأبحث في هذا الأمر، عودي إلى بيتك.

- اغفر لي يا مولاي كلامي معك، أنا أعرف مدى عدلك وحكمتك..

قاطعها: واجبي حماية أهل مصر.

- وأهل مصر يدعون لك كل يوم.

لم يتأكد هل هي ساذجة الحمل، أم أنها أمكر مما تصور. لمَ جاءت الآن؟ ولمَ جاءت أصلًا وهي تعرف أن طلبها لن يتحقق وربما سيغضب الوالي؟ من المؤكد أنها تعرف أن الوالي لن ينفذ كلامها، وأن شكواها تافهة بلا برهان. ولكنها شكوى تشي بالكثير، ميسون جازفت.. ميسون ستجازف أكثر، ميسون ذكرت الإسكندرية وذكرت طلاقها من الرجل، لا ذكرت ماضيه ولا قصة هروبه ولكنه يعرف أنها تعرف. ميسون تقول: إن القلب يهتز وهو على وشك البوح، وإن اقتراب أنس من الوالي ربما يؤدي إلى مصائب. ميسون غامضة بغموض النجوم وقت سيطرة الظلام. سيعود أنس بعد أيام وتتضح الأمور. لن يفكر في ابنة القاضي، ولكنه يعرف الآن لمَ فقد ابن المدبر عقله.

***

- 8 -

عاد أنس من زيارته للعراق وتعلم الكثير، ظن أنه أتقن فنون الحروب كلها بإتقانه للسيف والرمح ومعرفته فك رموز اليونانية والقبطية والجبر، ولم يدرك أن هذه الحروب أقسى حروب الكون وأصعبها، وأن بلاط الخليفة ممتلئ بالمؤامرات. جاء إلى أحمد بن طولون ببعض الأخبار الجيدة وبعض الأخبار المخيفة. طوال الطريق وهو يفكر في مصيره ومصير أحمد. أصبح المصير واحدًا. وبعد تعجب الخليفة من بعث أحمد المصري إليه بالرسائل تقبل وجوده، ولكنه لم يزل يشك في نواياه كما يشك في نوايا الجميع، العرب منهم قبل العجم. أجمل ما جاء به من أخبار هو خبر خسارة شقير صاحب البريد لمسنده الأكبر أم الخليفة، فبعد موت الخليفة لم يعد لأمه قبيحة أي سلطة، بل تم عقابها وسجنها. هذا يعني أن شقير الخادم فقد كل قوته، واليوم يستطيع أحمد بن طولون التخلص منه، أما ابن المدبر فازدادت قوته، فأخوه إبراهيم لم يزل المتحكم في بلاط الخلافة، الخبر المخيف هو وصول أمر خراج الإسكندرية للخليفة وعدم اطمئنانه لأحمد بن طولون. لم يعرف أنس كيف يخبر أحمد، وقد عزم أمره أنه سيعود إلى ميسون غدًا أو بعد غد. لم يعد يستطيع البعد. وقف أمامه، وأخبره بأمر شقير أولًا، استمع أحمد ثم قال: وما رأيك يا أنس؟

قال أنس بلا تفكير: لا بد من القضاء على شقير ثم ابن المدبر، لو تمكن من أن يقضي عليك لفعل هذا، اليوم أو غدًا. قرأت بنفسك ما كتبه عنك للخليفة، ولولا مراقبة البريد لكان مصيرنا...

قاطعه أحمد قائلًا: الموت أو السجن. كان هذا هو مصيرنا.

- نعم يا مولاي.

- وهل تعتقد يا أنس أنني لو سجنت أو قتلت أو طردت شقير صاحب البريد فلن يدافع عنه الخليفة؟ أتعتقد أن الخليفة سيتركني أنكّل برجله، ويقف مكتوف الأيدي؟ لو كنت أستطيع لفعلت.

- اليوم فقد سنده بعزل ابن قبيحة المعتز بالله. اليوم الخلافة...

- لم تتعلم أمور الخلافة بعد. أنا ولدت في العراق، أعرف وأفهم. لو استطعت قتله لفعلت منذ زمن.

أطرق أنس ثم قال: دعني أنا أنتهي منه بلا إراقة دماء.

أطال أحمد نظره إليه ثم قال: أنس بن الصياد يتكلم كابن المدبر.. لم أعرف من قبل أنك بهذا المكر.

- الخائن دومًا يستحق العقاب، والظالم لا يردعه سوى الدهاء، أنا أخلصك من شقير.

- وماذا عن ابن المدبر؟

صمت أنس. فقال أحمد: الخليفة يشك فيّ، أليس كذلك؟ يظن أنني أنا من سرق خراج الإسكندرية.

قال أنس في صوت خافت: يا مولاي.. لقد بلغ الخليفة ما تفعله بمصر. عرف أنك تبني دارًا للصناعة، وأنك بنيت الترع والجسور للفلاحين. وهو يتساءل من أين أتيت بهذا المال؟! فكل دينار محسوب، وابن المدبر يبعث بالأرقام كلها للخليفة. واجهني أحد رجال الخليفة، وسألني سؤالًا مباشرًا.

-ترى من زرع الشك في صدر الخليفة؟ أتظن أن هذا كيد نساء؟

- لا أفهم يا مولاي.

- أكمل حديثك... عندما سألك الرجل مباشرة عن الأموال التي استعملتها ماذا قلت له؟

قال أنس: لقد بعثت بي إلى العراق مع أنني من الموالي، ربما تكون بصيرتك أكبر من بصيرة الكثيرين. أقنعته أنك أنت ورجالك لا شأن لكم بخراج الإسكندرية.

- وكيف فعلت هذا يا مصري؟

- قلت له: إنك وجدت كنزًا في الصحراء، كنزًا من كنوز القدماء.

- وهل صدقك الرجل؟

- نعم فعل، ولكنه طلب مني أن تخبر الخليفة بأي كنز تجده بعد اليوم.

ابتسم أحمد ثم قال: أحسنت. توقعت منك هذا. أمر تسرب الشك إلى الخليفة ربما له علاقة بزيارة زوجتك لي.

نظر إليه أنس في حيرة؛ فأكمل أحمد: قبل أن تتكلم في أمرها أخبرني بأمر والي الشام ابن الشيخ. ماذا يقول عنه رجال الخليفة في العراق؟

- يخشون خيانته، ويتوقعون انفراده بالحكم. يتوقعون أن يمنع الخراج هذا العام.

ابتسم أحمد ثم قال: يفتح الله بابًا لكل مجتهد، وفي صفاء النوايا شموس لا نراها إلا بالبذل.

- يا مولاي..

- جيش لمصر، هذا هو المراد..

- مولاي أبو العباس أحمد بن طولون، ماذا فعلت زوجتي؟

- يا أنس، عندما تكيد المرأة لا بد من جمحها وإلا يتطاير كيدها حول الأرض كلها، سخط المرأة أوعر وأخطر من سخط كل جيوش الخليفة مجتمعة. سيطر على زوجتك حتى لا أضطر أن أتهمها بالخيانة، أتركها لك هذه المرة، ولكن في المجازفة خطر عليّ وعليك. لو شق الخليفة رأسي، ونكّل بجثتي فلن تنفعني رأفتي بحالها. لك التصرف معها على أن تبقي لسانها داخل فمها. ولو رأيت منها ميلًا لابن المدبر فاقتلها، لا صلاح في الخيانة. أريدك أن تطلقها يا أنس.

قال أنس بلا تفكير: لن أطلقها.

- ستفتح نارًا على مصر وليس عليّ أنا. سيعرف ابن المدبر كل شيء، لو عدت إليها سيعرف من تكون، ولو كادت لك..

- هي نار لا بد منها، أعدك أني سأسيطر عليها.

***

عندما خرج أنس من عند أحمد كان تائهًا حائرًا كأنه دخل حياة رجل آخر لا يعرفه. ميسون أحبته، ميسون طلبت منه الهرب بعيدًا. ميسون أرادت منه أن يبقى، وميسون لم ترد على أي من رسائله، ظن أنها خائفة ولكنها على العهد، فلا يمكن أن ينقلب قلب المرأة في شهر أو عام. سافر إلى العراق وهو يُمنّي نفسه بعمر معها عند العودة، كان ينوي أن يجد طريقًا للفوز بها من جديد فقد طال الفراق وابن المدبر لا يبرح مصر، ثم ماذا؟ عاد إلى مصر ليسمع كلمات أحمد! هرول إلى رجاله الذين يعملون مع صاحب البريد شُقير، طلب منهم أن يبحثوا عن أي رسالة ذهبت إلى الخليفة من امرأة، طلب منهم أن يسألوا، أن يتذكروا، أن يتجسسوا. ثم جاءه الحارس الذي لا يفارق زوجته، والذي كان يعطيها الرسائل، حارس أحمد الذي يأتي إليه بأخبارها كل حين، جاء اليوم وبدا مترددًا ثم قال: يا مولاي، ربما أكون قد أخفيت عليك أنها كانت مريضة لا تبرح القصر ثم شفيت، سامحني لم أعرف بمرضها إلا منذ شهر. لم يطل مرضها، ولم أعرف

عنه شيئًا؛ لأنني لا أدخل حجرتها بالطبع، ولكني سمعت من كلام العاملين في البيت. لم يكن بالمرض الخطير.

- شفيت.

- شفيت، ثم ذهبت لزيارة أختها، وكان والي الخراج هناك.

حكى له الحارس ما حدث بالتفصيل وهو يستمع بوجه متحجر وعينين كُلّهما نار. عندما انتهى قال أنس: كيف كانت؟

- لقد أخبرتك بكل شيء.

دوّت الكلمات في عمق النفس، قالت لابن المدبر إنها كانت مجبورة، تعذّبت وقاست مع زوجها..

- ألم تصده؟ هل كانت تعلم أنه سيأتي؟ هل رتبت اللقاء؟ هل أرادت رؤيته؟

بدت الحيرة على الرجل ثم قال: ليس لي علم يا مولاي. القلوب لا يعلمها سوى الله. لم تكن نافرة ولا مرحبة، كانت بين هذا وذاك.

ردد: بين هذا وذاك.

جلس مكانه وهو يرى والده، كان يومًا مظلمًا، كيف هربت النجوم؟ عند هروب النجوم تجرأ الموج وطغى وامتد إلى أطراف البيت، اصطدم بالشرفة، هل اصطدم الموج بالشرفة أم شُبه له؟ هل سمع صوت والده وهو يحارب الأمواج أم كان والده يرافقها في سلام؟ لم تختلط الحقائق ليلًا؟ ولم تتبع الذاكرة النجوم الهاربة؟ صرخ حينها: أبي..

أي أبٍ لا يسمع صرخات ابنه؟ أي أبٍ يخون ويغدر؟ وأي أبٍ يرجو الجلاد ويتذلل له؟

أنس، خاف من انثناءات الأمواج المتتالية، كلما رآها متتابعة تدور حول نفسها وتدفن بداخلها قطعة من الظلام هابها وكأنها نهاية العمر. عند نهاية العمر تظهر

الفاجعة، ربما لم يكن والده يريد قتل نفسه غرقًا، ربما أراد فقط أن يغوص داخل ظلمات الموج فيعرف سر الظلام. ينتهي الظلام عند شرفات الأبدية، وينتهي الألم عند انتهاء الظلام. لو كانت النجوم نفسها هربت من ظلام تلك الليلة فيا باله يلوم الأب؟ هل هو أقوى من النجوم؟ هل هو أعلى من النجوم؟ هل هو أسطع من النجوم؟ غاص أنس، يتذكر، غاص يائسًا باحثًا في سواد الموج عن جسد الأب، ولكن الزبد رمى به إلى أعلى، كأنه يأبى أن يتقبل مجازفته. ليس لمثله سوى أن يطفو، لا غوص له ولا نجاة، نجا والده وهرب وتركه هنا، بين ظلم ابن المدبر وخيانة زوجته.

زوجته... لم تحركه كلمات الحارس ولا حتى كلمات أحمد بن طولون، لم يرَ سوى والده وصرخته الأخيرة.. صرخ؟ هل صرخ؟ لم لم يتذكر الصرخة إلا الآن. تأوه... ربما كان يخاطب الله يا ترى أم يخاطب النجوم حينها؟ هل توقع عفو الله أم شفاعة الضوء والليل معًا؟ هل توقع نارًا يحيا فيها ولا يموت أم راحة يتوق إليها كتوق الغارق للنجاة؟

غطى أذنيه... فصرخة الأب تنفذ إلى الأعماق.

قرأ ونسخ، تكلم كالعجم والعرب ولكنه انخدع في زوجته، رآها بجمال العاشقين وبراءة الأسماك الصغيرة عندما تقترب من الشاطئ مستطلعة مندفعة ومنتظرة الضوء. رأى بداخلها بعض العناد والكبرياء، ربما بعض الغرور، بل الكثير من الغرور، ربما كانت مهووسة بنفسها إلى حد لم ترَ حولها أحدًا. عرف هذا ولكنه أعجب بتوهج مشاعرها وإخلاصها معه. إخلاصها الذي يشبه إخلاص الملاك الصيف، وقلبها الذي تبلغ فتحاته اتساع السماء، ربما تسرب الحب من قلبها عندما غاب، ربما تذكرت أموال ابن المدبر وسلطته وفكرت في أنها أعطت نفسها لابن الصياد الهارب وعليها أن تنتظره الآن عامًا أو عامين بينما والي الخراج يقف مستعدًا متأهبًا لذراعيها، الخائنة، لو كانت فقط تريد والي الخراج فلِمَ ذهبت إلى

أحمد بن طولون؟ لِمَ هذه العداوة وهذا الغل، وكأنها تريد قتله وإذلاله؟ أنسيت أنها ذابت بين ذراعيه وهمست بكلمات الحب؟ أنسيت أنها تركت لمشاعرها الزمام ولم تحمِ نفسها من قبلاته؟ أندمت لأنه كان هو أول رجل في حياتها وليس ابن المدبر؟ ربما تريد الانتقام منه لأنه تجرأ وتزوجها أم لأنه تركها رغمًا عنه أم لأنه لم ينصَع لكلامها ويترك كل حياته ويصبح هاربًا مطاردًا معها؟ يعجز عقله عن الفهم، ظن وهو صغير أنه يعرف أكثر من أقرانه، فهو يقرأ وينسخ، هو يكتشف كلمات وحكمًا. ألم يقل أفلاطون إن كل الرجال شعراء أمام الحب؟ ألم يقل إن الحب نوع من الجنون ولكنه هدية من السماء؟ قال الكثير.. وكلما قرأ تصور اليوم الذي سيحب فيه. عندما كان الرفقاء يلهون ويقبلون الجواري والغانيات كان هو يحلم ويعرف أنه لا يريد جسدًا بين ذراعيه، يفرغ طاقته به، بل يريد نفسًا تسبح مع الأمواج حول نفسه، تعرف كيف تحتويه، وكيف تتبعها أحيانًا، وتتقهقر إن لزم الأمر. يطلب الكثير، عندما وبخه عليٌّ وقال: يا أخي، وكأنك راهب، أنا عاشرت خمسًا وأنت لم تعاشر واحدة.

لم يأبه بكلماته، فهو لا يريد أن يرضى بنصف جنة، ونصف متعة، ونصف نشوة، ونصف راحة، ونصف حياة. عندما جاءت إليه ميسون تغمره بحنانها وهي تريد حمايته، وترتجف بين ذراعيه واكتشفا معًا حياة مكتملة، تعلما معًا، ووصلا للسعادة معًا، وسبحا معًا في بحار هائجة بقدرة فائقة، وبلا تردد ولا خوف.. ثم ماذا؟

***

جاءت الشرطة إلى بيت القاضي تطلب مثول ميسون أمام والي الشرطة.

فقال والدها في استنكار: ميسون ابنة القاضي؟! كيف تجرؤ على أن ترغمها على الذهاب إلى السجن؟

- هي أوامر صاحب الشرطة يا مولاي. معذرة، لن يلمسها أحد.

- سآتي معها إذن.

- ليس ممكنًا يا مولاي.

- لن تقول للقاضي ما الممكن وما ليس ممكنًا.

- أخاف من بطش صاحب الشرطة يا مولاي.

- لن يبطش بك.

- بل أخاف أن يبطش بك أنت.

عند الوصول إلى دار بلد الإمارة، كان باب بيت صاحب الشرطة واسعًا، به جزءان؛ جزء للرجال وجزء للحريم، يجمع كبار رجال الشرطة. ومنهم نائب صاحب الشرطة.

دخل القاضي مع ابنته، وانتظرا ساعة أو أكثر، توتر القاضي، وبقيت ابنته هادئة، حتى دخل أنس.

- أنس..

قال في اقتضاب: مرحبًا بالقاضي يحيى بن عيسى.

ثبتت عينيها على عينيه وكأنها لا تراه، ولم يلتفت إليها.

قال القاضي: ماذا تفعل هنا؟

- أقبض على ابنتك لأضعها في السجن، فهذا هو مكانها الطبيعي.

- ما هذا الهراء؟

قال: هو ليس بهراء.. ابنتك تتدخل فيما لا يعنيها، وتثير الفتن، وتتهم زوجها بالباطل. ابنتك.. تقابل والي الخراج يا قاضي...

فتح القاضي عينيه في فزع.

فقال أنس: أحمد بن طولون ربما يفضل قتلها في التو، هل تريد هذا؟

فقال القاضي في حسم: نعم.

طلب منه أنس الجلوس، ثم نظر إلى زوجته لأول مرة منذ عام، التقت أعينهما، في عينيه حزن وغضب، وفي عينيها برود وجمود.

قال وهو يتجه إلى الباب: تعالي معي.

سارت وراءه، وارتسمت على شفتيها ابتسامة طفيفة، ثم دخل حجرة أخرى فدخلت وراءه، وأغلق الباب.

أقسم لنفسه أنها لن تنتصر، وأنه لن يفقد سيطرته، فلو أرادت أن تهزمه فلن تنجح. يعرف ميسون أو بعض الأشياء عنها.

قرأ عليها كل ما قالت لابن المدبر في هدوء.

ثم قال: زوجك الذي أرغمك وعذبك.. كيف حاله؟ هل أنقذك منه والي الخراج؟

قالت وهي تحاول أن تثير غضبه: لكم تمنيت لو فعل!

- ولكنه لن يفعل، أتفق مع والدك أن موتك رحمة لنا جميعًا. ولكنه رحمة لك أنت أيضًا.

- لو كنت أعرف أن زيارتي للوالي ستغضبك لذهبت إليه منذ زمن.

- لا تخافي العواقب؟

- لا عواقب تخيفني. تبخر آخر ألم ولم يتبقَّ سوى الجمود، قلبي صحراء قفرة.

قال وكأنه لا يسمعها: القتل بريح يا ميسون. وقد أقسمت أن أتأكد أن قلبك سيهيم في الجحيم بلا سكينة ما دمت حيًّا.

- ولو مت؟

- هل طلبت من ابن المدبر قتلي عندما قابلته سرًّا يا زوجتي؟

أمسك بمعصمها فجأة ثم قال: لكم يعزتني أن أفرق بين قلبين تحابًا، ولكنه لن يراك مرة أخرى!

أرادت أن تكسره الآن، أن ترى عذابه كما قضى على عقلها يومًا ما.

قالت: أحمد بن طولون يعين قاتلًا نائبًا للشرطة؟ من الأفضل يا ترى هو أم ابن المدبر؟

- من تُقابل رجلًا وهي متزوجة من آخر.. خائنة.

- قلت إنك عرفت كل شيء، لا تتهمني في شرفي وأنت تعرف أني حرة، ولست جارية كالتي يعاشرها أخوك وتعاشرها أنت.

أخرج سيفه وقال: إياك.. كل كلمة تقولينها من الآن تجلدين عليها مائة جلدة.

- أصبحت قادرًا. ماذا تريد؟ ضعني في السجن أو طلقني. افعل ما شئت، أنا لا أخاف.

- أطلقك..؟! هذا مستحيل، أما السجن والجلد والضرب فممكن، ولكن كل هذا لا يكفي.

- اقتلني إذن.

أحاط وجهها بيديه فجأة ثم قال: ميسون، ستبقين أملًا لا يصل إليه ابن المدبر حتى يموت، وإذا كان لسانك ينطق بالسوء فقط فلابد من قطعه أيضًا. السجن موجود، وبيتي أيضًا موجود، أضعك في حجرة به، ثم أنساك، عامًا وراء عام، حتى تخرجي يومًا بعد أن يتلاشى جمالك فتجدي زوجتي وأولادي في استقبالك.. سينفطر قلبك، وينشطر نصفين أو أكثر، وسأشهد على ذلك بنفسي. ظننت يومًا أني أكره ابن المدبر، ولكن الخيانة عندما تأتي من حبيب تخترق الروح، وتلعب العقل، فلا تطلبي مني الرحمة لا اليوم ولا غدًا.

قالت في هدوء: ولِمَ تظن أن رؤية زوجتك وأولادك ستؤلمني؟ أكرهك بعدد ذرات مياه النهر يا بن الصياد.

- ربما يؤلمك البعد عن ابن المدبر إذن. يؤلمك أن ينهزم والي الخراج أمام عينيك، هل يؤلمك هذا يا ميسون؟

قالت وهي تثبِّت عينيها على عينيه: يؤلمني هذا.

رفع يده ليضربها ثم توقَّف وقال: تريدين إثارتي؟ أليس كذلك؟ تتمنين غضبي، تتمنين أن أضربك وأصيح وأصرخ، أتعرفين لماذا؟

نظرتْ إليه ولم تنطق.

فقال: أنا أعرف لماذا يا أجمل بنات مصر كلها، لا تتقبلين أن رجلًا يستطيع البعدَ عنك من أجل أي شيء، لا تتصورين أن رجلًا يتركك شهرًا واثنين، كسَرتُ نفسك المتكبرة بلا قصد، فلم تهتمي برسائلي ولا كلماتي، أقسم لك أن عمري الباقي سيكون لكسر نفسك فقط يا بنة القاضي، أنت لا شيء بالنسبة لي، منذ قابلت والي الخراج وأنت لا شيء، مثلك مثل ذباب الفاكهة يزعج ولا يحترق ولا يدمر.

أمسك بكتفيها حتى تنظر إليه ثم قال: لا أنا أحبك، ولا أكرهك ،ولا أريدك، لا بد من إعادة تربيتك، أما والي الخراج فستكونين أول شاهد على نهايته.

قال وهو يتجه إلى الباب: الخيانة لا بد من معاقبتها، ثمانون جلدة على مدى أربعة أيام، هذا ليس بالكثير، سيشرف على جلدك رجال الشرطة.

قالت فجأة: أنا أعرف أنك سارق الخراج، فكّرت أن أبعث للخليفة، وخفت أن يقتلك، ليس خوفًا عليك ولكن رغبة في أن تبقى لتتعذب، تستحق هذا.

نظر إليها برهة، ثم خرج.

***

فلن أن رؤيتها ستثير شجنًا قديمًا وبعض الحنو، ولكنها كانت كرؤية حجر صلب، لا هو يتشقق ولا يتساقط من السيل العرم. عندما التقت أعينهما لم يكن هناك أي حب، بل كان هناك سخط وجفاء. كيف لعام أن يغير القلوب هكذا؟! وكيف للقلب أن يؤتمن لو كان متقلبًا تقلب الولاة على مصر؟! هذا أفضل جدًّا! لا شفقة ولا رحمة عند تعامله معها، لم يحدد بعد لو كان ينوي جلدها. قرأ كثيرًا وعرف، وعلى الرغم من قلة خبرته بالنساء فقد عرف أنها تريد أن تحركه، أن تخرج غضبًا أو هجومًا شرسًا، عرف أنها تتمنى لو عاملها كأنها عدو قوي، هذا لن يحدث. هي فقط امرأة بلا حكمة قتلها الغرور، ولم تحفظ العهد.

قال القاضي في ارتباك: لا يجوز أن تجلد زوجتك وابنة القاضي، تذكر يا أنس ما كان بيننا.

قال في فتور: هي خائنة. لو لم أجلدها أنا فسيقتلها نائب الوالي، لا بد من معاقبتها.

قال القاضي: هناك أصول وقواعد يا أنس..

قال أنس وهو لا ينظر إليه: تطلب الصفح مني، وتعد بعدم مغادرة بيتي ولا الكلام مع أحد، وسوف أفكر في الأمر.

قال الأب في حسم: ستفعل.

ثم اتجه إلى ابنته، أنبها، وقلب كفيه، لا هو يعرف لمَ فعلت هذا، ولا يفهم أي لعنة أصابته بإنجابها. قال لها في صراحة: أريدك أن تبقي هنا، ولا تخرجي حتى الموت. ميمون، اطلبي منه الصفح أمامي، لا يجوز جلد ابنة القاضي، يكفي ما سببته لي من آلام.

قالت وعيناها متحجرتان وتنظران إلى لاشيء: لن يحدث، ليجلدني ألف مرة أو يقتلني، ولكني لن أطلب الصفح من الوراق.

- ولو طلب منك والدك هذا، فهل ستطيعينني؟

- يا أبي..

- أتمنى أن تعرفي حجم معاناتي منذ قابلك ابن المدبر، بل منذ بشّرتني أمك بكِ وأنجبتكِ.

صمتت برهة، ثم قالت: سأفعل كل ما تأمرني به.

أمسك يدها وأخرجها أمام أنس، أسند ظهره إلى الحائط وهو ينتظر منها أن تطلب الصفح، قالت دون أن تنظر إليه: أخطأت، سامحني، وأقسم أن كلامي مع ابن المدبر لم يكن بترتيب مسبق، بل هو مَن فاجأني.

قال القاضي في رفق: أنس، هي زوجتك.

ثم وَخَزَ كتفها وقال: قبّلي يده أمامي، وقولي إنك أخطأت، هيا.

بقيت ساكنة، فدفع بها الأب، وأنس يقف ينظر إليها بلا كلمة، اقتربت منه، ثم انحنت، وأمسكت بيده وهي تعض على شفتيها من الغيظ وقبلتها وقالت: أنا أخطأت.

همت بالقيام فقال الأب: أبقي يده على جبهتك حتى يسمح لك بالنهوض. يا حسرتي عليك.. لم تتعلمي شيئًا.

بلعت ريقها، وأبقت يده على جبهتها وتمتمت: هذا يكفي. قل له إنك سامحتني.

قال وهو ينزع يده: لا.

ثم أمرها بالنهوض، وقال للأب: لقد عدت من العراق منذ يومين، كنت أنوي زيارتك لآخذ زوجتي.

قال القاضي: لم يحدث شيء، هي هنا طوع إرادتك، ولو أغضبتك تخبرني فقط.

قال في ثقة: لن تغضبني. سنبدأ معًا بداية جديدة بعد أن ندمت على فعلتها. لا تقلق بالك.

توقف القاضي فجأة ثم قال في تردد: أخاف عليك يا أنس، ستفتح نارًا عليك يا بني، عندما يعلم ابن المدبر..

- لا تقلق عليّ ولا عليها، والي الخراج نهايته على يدي، تذكر هذا، اليوم أو غدًا.

خرج القاضي وهو يشعر ببعض الارتياح لأنه تخلص من ميسون، ما ستفعله من اليوم ليس مسئوليته هو.

رفعت رأسها إليه، نظر كل منهما إلى الآخر، فقالت في صوت خفيض: لا ندم يدخل قلبي. كل ما قلته كان من أجل أبي.

ابتسم في جفاء ثم قال: أعرف.

- افعل بي ما شئت لا يهم.

- لن أفعل بك ما تتوقعينه، العذاب ألوان وأنواع، لكل نوع رائحة مختلفة، ولم يزل في العمر الكثير.

قال في حدة: عندما أدخل عليك تقفين، دومًا، تقتربين وتقبلين يدي كما فعلت اليوم. وأريدك أن تعملي مع الجواري في المطبخ، وأن تتعلمي ما لم تكوني قد تعلمته في بيت والدك، أنا الذي أحدد ساعات عملك.

قبل أن تنطق أمر إحدى الجواري بأخذها إلى الحجرة.

***

اليوم لم يرد هدية صديقه، كان يردها كل يوم. يبعث صديقه إحدى الجواري الحسناوات، ويردها إليه، ولكنه اليوم لم يردها، عندما دقت الفتاة باب حجرته فتح لها، نظر إليها، كانت في عمر ميسون، ربما أجمل، لم لا؟ قوامها ممشوق وعيناها كبيرتان، الكحل يزينهما ويظهر البياض والجفن الناعس الجذاب. ابتسمت له، فأمسك يدها ودخل بها حجرته، كانت ترتدي الزينة وتضع العطر، تتقن العشق وتعرفه عن ظهر قلب، أعطته أكثر مما أخذت، ولكنها لم تنس أن تثني عليه وعلى رقته وعذوبته، نظر إليها وهي بجانبه، وأغمض عينيه. ماذا حدث؟ عاشر امرأة، وأعطته نفسها بشوق وإتقان، ربما بإتقان أكبر من ميسون، وهي أجمل من ميسون، لم يفهم الدنيا طوال الأعوام الماضية. لم يكتفي بواحدة، وعندما يجدها خائنة يغضب ويحزن؟! لو كان يعرف أن الجسد جسد وليس روحًا، وأن الأسماك دومًا تسير في طريقها لا تلتحم بأسماك أخرى، ولا ترافق سوى العدو، لو عرف لأنقذ نفسه، فلتذهب ميسون إلى الجحيم.

يومًا وراء يوم، وجد نفسه قد مل الجارية، أعادها إلى صديقه وشكره، وأعطاها ما تريد من الأموال، ابتسم صديقه ثم قال: أفهمك يا أنس، لا تريد من تدفع لها، بل من تريدك لنفسك، تعال معي.

في اليوم التالي اكتشف أنس وجهًا جديدًا للمدينة، زارته امرأة مختلفة، في الثلاثين ربما، أرملة كانت متزوجة من تاجر في الفسطاط ثم مات. تزوجته وهي في الثالثة عشرة، وكان هو في الخمسين، بعد أن مات وهي في العشرين وجدت نفسها وحيدة ولم ترد الزواج مرة أخرى، ورأت أنس مرة أو مرتين، أعجبت به ووجدت به غايتها، لم ترق له منذ البداية، لم يحاول أن يعاشرها، كان يفضل العلاقات التي لا يحتاج فيها أن يشرح نفسه، ولا يبذل أي جهد في الكلمات ولا استرضاء القلب، أراد إشباع الجسد فقط حتى الثمالة ثم سينسى ميسون. هذا هو ما يجب أن يكون، واحدة واثنتين وثلاثًا وأربعًا، كل يوم يجرب امرأة مختلفة، لو أعجبته يبقى معها أسبوعًا ربما، لا أكثر من ذلك، ويتركها بلا شرح ولا وعد

بالعودة. في إحدى المرات، همست إحداهن وهي تضغط على ظهره: هل يمكنني أن أبقى معك؟ لا أريد أي شيء، فقط أن أبقى معك.

قال في حسم: لا.

ثم رحلت. امتلأ الجسد شبعًا وارتواءً، ولم يعد للقلب ولا للنفس أي جرأة لتطلب وتشترط.

بعد حين سيتزوج ابنة أحد القواد، لا بد أن يختار الأب وليس البنت، عندما يغدر صاحب القلب لا بد من بتر القلب من جذوره حتى لو أدى هذا إلى الموت، صادت أوراقه هي أصدق الأصدقاء، يقضي معها لحظات الحزن والضعف.

***

حياة ميسون في بيت نائب الشرطة، زوجها، في الفسطاط لم تكن كما توقعت، توقعت أن يجلدها، يضربها أو يعاشرها عنوة، ولم يفعل. في بيت نائب الشرطة داخل دار بلد الإمارة جناح خاص للحرم، وآخر للرجال، وبينهما حديقة صغيرة بها أشجار نخيل وعنب، يسكن في البيت أربعة من كبار رجال الشرطة منهم أنس، ويسكن في الحرم زوجاتهم وأطفالهم وجواريهم، حجرتها كانت متواضعة ولكن كان ممنوعًا عليها أن تتجول في الحديقة أو تتعرف إلى الزوجات، منذ اليوم الأول وهي تشعر باشتباه كل سيدات الحرم، يقلن إنهن لم يرين في جمالها من قبل، يعرفن قصتها مع ابن المدبر ثم أنس، ثار فضولهن إلى درجة أنهن كن يصطففن أمام حجرتها رغبة في الكلام معها وسماع ما حدث. لم تحظ في حياتها بهذا القدر من الاهتمام. ما يفصلها عن زوجها هو حديقة لا أكثر، ومع ذلك لم يحاول رؤيتها ولو مرة منذ شهرين، لم تشغل باله، ولم تتوقع قدومه. لو كان يعاشر الجواري فهذا متوقع ولا يحزنها ولا حتى يدهشها. لسبب ما لم تكن تعيسة، ربما لأنها استطاعت أن تنفذ إلى روحه وتسحقه، ربما لأنها في بيته وهو موجود حولها حتى لو لم تره. لا تدري بالضبط، تتمنى أن يكون السبب الأول هو تبرير ما تشعر به

لكي يستريح قلبها وإلا ستفقد عقلها مرة أخرى. أقنعت نفسها أن الحزن كفيل بتغيير كل المشاعر، هذا أكيد. كما أن وجودها هنا يسعدها؛ لأن النساء تقدر جمالها وتحسدها عليه، واحدة تسأل: كيف يلمع شعرك هكذا؟ والثانية تسأل: ما سر نعومة بشرتك؟ من أين لك بهذا القوام؟ كم عدد السنوات التي قضيتها صابرة حتى يصل شعرك إلى فخذيك؟ ماذا يحدث للرجال عندما يرونك؟ هل يفقدون رشدهم يا ميسون؟

كلما تناثرت الأسئلة من حولها وازداد الاهتمام غرقت في حلاوة الغرور واليقين، أحيانًا ليلًا تتذكر لحظات بينهما ظنت حينها أنها ستدوم، عندما ألقى بها في النهر وهي ترتعد خوفًا، ثم حملها فكادت تختنقه، وهمّ بأن يلقيها من جديد فرجته، تتذكر لحظات الشغب الرقيق والحنان المصحوب بالمناوشة. وعندما تخرج إلى الحديقة ليلًا وتنظر إلى النجوم ينتابها شعور مزعج أن ارتياحها ربما يكون نابعًا من وجودها معه. لم تكذب على ابن المدبر، فقد أرغمها، ربما لم يرغمها على معاشرته، ولكنه أرغمها على حبه، وربما لم يعذبها بالجلد، ولكنه نهش الحشا وغرز أنيابه في الكبد.

بدأت تتمنى لو تراه صدفة في الحديقة ولم يحدث، خافت على عقلها، فقد صاحبها الظل والظلام من قبل، وأحيانًا هذه الأيام يصاحبها الظلام ليلًا حتى والشموع مضيئة، وأحيانًا أخرى تتمنى ألا تراه، وتدعو الله ألا تراه، وتسير في خطًى سريعة حتى تتحاشى الوقوف لو رأته وكأن رؤيته حِمْل من الهم.

تحايلت عليه منذ أول يوم لها في دار بلد الإمارة، لم تعمل في المطبخ، كانت تبقى في المطبخ طوال اليوم تتكلم عن حسنها، وتأمر من حولها بالطبخ وكن يُطِعْنها بلا نقاش، ادعت للجميع أنها تطبخ، وأحيانًا كانت تطلب من زوجة مغيث أن تذوق طعامها الجميل وتشكرها زوجة مغيث. وبعد وقت طلبها

زوجها إلى حجرته، امتزج الخوف بشوق طمرته منذ زمن، وامتزج الخوف بمعرفة أنها تخدعه مرة ومرتين.

عندما دخلت كان جالسًا، نظر إليها برهة ثم أمرها بالجلوس، جلست وهي تنظر إليه في تحدٍ، هذه المرة أطالت نظرها إلى وجهه، ترى ماذا تخبئ النفس؟ وكيف ستفاجئها هذه المرة؟

قال بعد برهة: تنظرين إلى الأرض وليس لعيني يا ميسون! إياك أن تنظري لي.

فتحت فمها فقال في حسم: أي كذب تكذبين؟ يمكنك أن تخدعي الجواري، ولكن ليس للأبد، أمرتك أن تعملي لا أن تشرفي عليهن.

قالت في صوت قوي: هن يعرفن من أكون، ولا يسمحن لي بالعمل.

نظر إلى الأوراق أمامه ثم قال: أتعرفين كيف تكتبين؟

فقالت في استياء: أي سؤال هذا؟ أنا ابنة القاضي.

قام من مكانه، أمسك يدها، ونظر إليها لا تعرف ما حدث حينها، لمعت الدموع في عينيها بلا إنذار.

فقال وهو يشد يدها: تكتبين، تنسخين الكتب، ربما تبصرين حينها وتفهمين، هنا في حجرتي. تأتين في الصباح وتبقين حتى المساء سأرى بنفسي ما تفعلين، كل يوم.

كتمت ابتسامتها، ولم تجب. أمرها بالرحيل.

تركته وعادت إلى حجرتها وجسدها ينبض بالحياة، كأنها تصارع وحشًا وقد انتصرت عليه للتو.

كل يوم تأتي إلى حجرته في الصباح الباكر، وتبدأ في النسخ في بطء، في أول يوم وبخها وطلب منها أن تنجز أكثر حتى لا يضطر أن يجلدها، بدا قليل الصبر ولم

ينظر إليها حتى، فبدأت تعمل بجد، وتقرأ وهي تكتب لنفسها لتؤنس وحدتها، أحيانًا كان يعود إلى الحجرة ولا ينظر ناحيتها، يأمرها بالرحيل ثم يرى ما فعلت، وأحيانًا كان يأتي متأخرًا، وكانت تعرف، تشم رائحة امرأة حوله. مرّ أسبوع وهو لا يعطيها أي اهتمام كأنها ورقة تلفت، أو نواة خبز جاف، انتابها غيظ أكبر من غيظ العام الماضي. الغريب أنه أهداها الذهب والحرير، ترك في حجرتها كل ما حلمت به، ثم هجرها على ما يبدو. عندما دخلت حجرتها كانت تصرخ أحيانًا وتكتم رأسها في الوسادة أو تمزق بعض الأقمشة. لا تعرف مصدر الألم، هل هو نابع من النفس أم من القلب؟ من الروح أم من العقل؟ قررت أن تتوقف عن الذهاب إلى حجرته ونسخ الكتب. ماذا سيفعل؟ يضربها؟ هذا أفضل من أن تطيع كل أوامره. وعندما تأخرت صباحًا بعث إليها جاريتين، قالت لهما إنها لن تأتي. فقالتا في خجل إن نائب الشرطة أمرهما أن تجراها إليه لو لم تأتِ طواعية. فهمت لعبته وخطته، خرجت إليه ودخلت حجرته بلا كلمة، فقال وهو يتركها ويخرج من الحجرة: أريد أن أرى ما نسخت اليوم.

لم تنسخ كلمة اليوم.

***

- 9 -

أحمد بن طولون لم يحك لأحد عن حلمه وهو طفل. ولكنه طلب مقابلة ساحرة الهرم. قال الرجل: إنها لا تتكلم العربية. فاصطحب معه أنس، وعند وصوله للهرم الأكبر بقي واقفًا في وجل لحظات، ثم قال لأنس: أريدك أن تترجم لي الكثير، أريد معرفة كل شيء.

ابتسم أنس: لا أحد يعرف كل شيء هنا يا مولاي، حتى نحن. المعرفة شحيحة كالعدل والكنوز.

انحنى أحمد وهو يدخل إلى الهرم ووراءه أنس. ثم جلس ينتظر أن تنظر إليه الساحرة.

كانت ترتب أوراقًا كثيرة، ثم تنظف تابوتًا من الخشب، لم تلتفت إليه إلا بعد نصف ساعة: ما إن رأته حتى قالت في يقين: تأخرت.

نظر أحمد إلى أنس فترجم له.

فقال أحمد في ذهول: هل كنا على موعد يا امرأة؟

- كنت أنتظرك يوم تساقطت النجوم، جئت تسأل عن بيت القدماء وعن الكنز.

فتح فمه فأكملت: العرب يقولون إن سحر القدماء دفن في مقابرهم، فلا علم لنا بما صنعوا بالنجوم، ولا نحن نفهم لغة الطير، وأنا أقول لك: إننا نظلم السحر ونمجده، هو من عمل البشر، ولكن العجز عن المعرفة يتطلب الأعذار.

- هل تقصدين أن القدماء لم يسحروا؟ ألم يذكر القرآن سحرة فرعون؟

- أنا لا أشرح كلماتي يا أحمد.

- كيف عرفت اسمي؟

- كنت أنتظرك.

- لماذا؟

- قلت لك انتظرتك يوم تساقطت النجوم، جئت تسأل؛ لأن الحلم يزعجك، لا تعرف هل هو حقيقة أم هو درب من الجنون.

- كيف عرفت أمر الحلم؟ أنت ساحرة، هذا أكيد.

- أو ربما أكون عالمة بما لا تعلم، ربما أكون قد قرأت ما لم تقرأ فتجلت لي رموز لا تفهمها أنت. الفرق بين الساحرة والوالي يا مولاي هو أن الساحرة تفهم الرمز وتتقن تفسير الكلمات، بينما الوالي لا يقرأ إلا ما يعرف. لو كنت جئت تسأل عن السحر فانتظر قراءة الحلم وفهم الماضي، ولو كنت جئت تسأل عن الكنز فقد كذبت على الخليفة، ما يظنه الخليفة كنزًا هو خيرات تلك البلاد، بين ذرات الرمال الكثير من القصص وآلاف الكنوز، بين ذرات الرمال تجد مدنًا ضائعة وملكًا زائلًا، وأحلامًا مثل حلمك وأكثر. هذا تابوت الملك، ترى ماذا قال؟ هل تعرف؟

قال أحمد بسرعة: أخبريني ماذا قال.

- قال: يا أحمد «أنا الملك، بنيت الأهرام وأتممت بناءها في ست سنين، فمن أتى بعدي وزعم أنه مثلي فليهدمها في ستمائة سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البناء».

بقي أحمد صامتًا في وجل، فأكملت الساحرة: الدهر يفنى، والهرم لا يفنى.

- هؤلاء الملوك، ما الذي يميزهم عن غيرهم؟ في انقطع إرثهم ألف عام أو يزيد؟ اشرحي لي.

- أنت تريد الفهم يا أحمد، لا تبتئس، هل تعجبك مصر؟

- هي حلم وجائزة، هي مكافأة من الله.

انحنت، وأمسكت ببعض الرمال ثم قالت: هل حفرت في هذه الأرض من قبل؟ كلما حفرت وجدت مدينة، ولكل مدينة قصة، وفي كل مدينة محارب وعاشق وراهب ومجنون. أنت كل هؤلاء، لا تبتئس، المدن لا تفنى بل تبقى لحصا بين ثنايا العمر لتذكرنا بما كان، وعند المعرفة يتجلى السحر، وتشتعل النجوم ببهجة بضوء ساطع لا ينقطع. كلما تعمقت في الأرض وجدت ما تريد. اجعل عشقك صافيًا، وغايتك نصب عينيك.

ارتجف ربما لأول مرة ثم قال: أنت.. من تكونين؟

- يا أحمد، اجعل عشقك صافيًا، وغايتك نصب عينيك وتذكر..

- ماذا تريدينني أن أتذكر؟

- الحزن للعظماء، والهم الثقيل لا تحمله سوى القلوب الصلبة. عندما يُثقل اليأس قلبك اعرف أنك ارتقيت وكأنك من الملوك نفسهم.

- يا سيدتي..

- هم معك.

- كأنهم يساعدونني.

- لأنك عاشق جئت بعد ألف عام أو يزيد، اختاروك أنت، يا ملك.. هذه الأرض تعطي لمن يبحث، تعطي لمن لا يكتفي ببريق الذهب، الذهب للفناء، لا قيمة له إذا لم تعرف ماهيته. فكر يا ملك وحاول أن تفهم.

- أي ثقل هذا وأي همٌّ؟! أنا لست ملكًا.

- الهم قادم لا محالة، وعندما يأتي اطلب مساعدة راهب أو شيخ، لا تأتِ لي من جديد، قلت لك كل ما عندي، سلام لك.

- ولكم أتمنى السلام.

-لا سلام مع العظمة، ولا فناء مع القصص والأساطير.

***

قرأ أحمد ما كتبه العرب عن المصريين القدماء، سوريد هو من بنى الهرم الأكبر، وأحمد هو من سيحاول فهم لغة الطير. لا بد أن الساحرة تعرفها وإلا فلِمَ عرفت حلمه؟! كلماتها تدعو للحزن، وتشي بهمٍّ ثقيل قادم لا محالة. ترى من سيقتل؟ ومن سينهزم؟ فتح العرب مصر منذ حوالي مائتي عام، ثم ماذا؟ ثم جاء الإسلام والعربية والفسطاط و.. وأحيانًا يأتي ابن المدبر، وأحيانًا يأتي أحمد بن طولون. ترامت أطراف دولة آل عباس وأصبحت السيطرة صعبة. ثم جاء ابن الصياد يريد الانتقام لوالده، يريد أن يزلزل كوكبًا ويطفئ نجمًا ويشعل آخر، جاء وكأنه يملك عصا موسى وقدرة سليمان، جاء كأنه سيغرق الظالم، ويسوي بين البشر، جاء بحلم يشبه حلم أحمد ولكنه أكثر استحالة وأشرس ألمًا.

أول غنائم الحرب كانت من نصيب ابن المدبر، وأول انتصار كان أيضًا من نصيبه هو؛ فقد قُتل بايكباك والي مصر وزوج أم أحمد بن طولون الذي عين أحمد نائبًا عنه في مصر. بدا أن واليًا جديدًا سيفوز بمصر ولن يُبقي على ابن طولون نائبًا. لم يفقد ابن طولون رباطة جأشه، بعث بأنس مع بعض الرجال إلى بغداد برسائل لأصدقائه هناك، وبعث أنس برسالة للخليفة يشرح فيها كل شيء، وأهم من كل هذا بعث أحمد برسالة مهمة إلى الخليفة يخبره فيها بتحركات ابن الشيخ في الشام، يرصد للخليفة كل بوادر الثورة التي ستعم الشام. ابن الشيخ اقترب من دمشق وسوف يستولي عليها بنفسه، ولو استولى عليها ثم رفض أن يدفع الخراج

فسيصبح خارجًا على الخليفة. هذا الأمر أهم من كل الأمور التافهة التي سيتكلم عنها ابن المدبر، وأهم كثيرًا من ميسون ابنة القاضي وابن المدبر اللئيم.

صدق حدس أحمد، امتنع ابن الشيخ عن دفع الخراج، وعند تولية الخليفة المعتمد رفض أن يدعو له في المساجد؛ بل لقد تجرأ وقطع الطريق على قافلة الخراج القادمة من مصر إلى بغداد، واستولى على كل أموال خراج مصر. ابتسم أحمد في ارتياح، وبعث من جديد للمعتضد يطلب منه شيئًا آخر. قال أحمد في رسالته إن واجبه الأول والأخير هو حماية الخليفة، وحماية أموال الخراج، وإنه قادر على ردع ابن الشيخ في الشام فقد تدرب كجندي منذ الصغر، وكم من مرة حارب في بغداد وسامراء من أجل الخلافة! ولكنه لا يملك جيشًا ليحارب. لو سمح له الخليفة بشراء الرجال، وتكوين قوة تتصدى لابن الشيخ في الشام فسيكوِّن جيشًا في خدمة الخليفة والخلافة، ولكن لو أراد الخليفة مساعدة أحمد فلا بد أن يطلق ابن المدبر المال لأحمد ليشتري الرجال ويكوِّن جيشه.

كانت أهمَّ رسالة في حياة أحمد على الإطلاق. بالغ في خطورة ابن الشيخ على الخلافة، وبالغ في إقناع الخليفة أن سابقة كهذه ستهز هيبة الخليفة إلى الأبد، وانتظر الرد.

بعد بضعة أسابيع، أعطى الخليفة ولاية مصر والثغور إلى بارجوخ، فأصابت ابن المدبر الحسرة؛ فبارجوخ هو والد زوجة أحمد السيدة خاتون التي تركها في العراق مع ابنه رهينةً عند الخليفة. وما إن تسلم بارجوخ مصر حتى كتب إلى أحمد رسالة، قرأها شقير في صوت متقطع قبل أن يعطيها لأحمد: سلم من نفسك لنفسك.

أعطاه بارجوخ ولاية مصر، وأضاف إليها الإسكندرية. الحظ يساند أحمد على ما يبدو، ومكائد ابن المدبر لم تستطع أن تزحزحه، بل زوَّج أحمد ميسون بأحد رجاله نكاية في ابن المدبر. الحرب أصبحت معلنة وخطيرة.

استمر أنس في متابعة الرسائل بين الخليفة وجواسيسه في مصر، وبين الخليفة وابن المدبر. حكى ابن المدبر عن ميسون وأنس، وحكى أنس في رسالة إلى الخليفة عما حدث. لم يبدِ الخليفة أي تعاطف مع أنس ولا مع ابن المدبر، وكان شاغله الشاغل هو ابن الشيخ الذي استولى على دمشق، ورفض حتى الدعاء للخليفة.

بعد عدة أيام جاءت الرسالة مختومة من الخليفة، وصلت إلى أحمد ووصلت إلى ابن المدبر في نفس اليوم. ابتهج أحمد كما لم يبتهج طوال عمره. نسي افتقاده لزوجته وابنه. نسي كل شيء ماعدا الحلم وزيارة الساحرة. أما ابن المدبر فقد أصابه الغم، وهو يصبّر نفسه بأن أحمد ربما حالفه الحظ هذه المرة، ولكن لن يحالفه غدًا، هذا أكيد. جاءت الرسالة وحملها أنس بنفسه بعد ثلاثة أشهر من سفره إلى بغداد. أمر الخليفة والي الخراج بأن يطلق المال لأحمد بن طولون ليشتري الرجال ويكوّن جيشًا بأسرع وقت للتصدي لابن الشيخ في الشام.

***

عداء ابن المدبر، أهم رجل في مصر، لا بد ألا يوجهه إلى ابن الصياد، لا قيمة له ولا قوة. كل ما في الأمر أن الوالي الجديد جاء بنية التغيير وإثبات وجوده فلجأ للمصريين، ولماذا يلجأ للمصريين؟ سأل ابن المدبر في سخرية.. وماذا بيد المصريين؟ حتى تاريخ القدماء لا يعرفونه، انتقلوا من قسوة إلى قسوة، ومن حاكم غادر إلى حاكم يمحو ويدمر، عاشوا عصر الشهداء وعصر المجاذيب ولم يعد لديهم طاقة للتحدي أو الثورة. يسيرون على الكنوز في صبر ولا مبالاة، لا هم يريدون كنزهم، ولا يدركون قيمته، يكفيهم رغيف من الخبز، ولو كان مغمسًا باللحم فسيكفيهم دهرًا أو يزيد. يعرفهم ابن المدبر، ويفهمهم، واليوم يعرف ابن الصياد، فلِمَ خطف ميسون؟ وماذا ينوي أن يفعل؟ فهم كل شيء، وأصبح العداء جهرًا. تحدى أنس والي الخراج؛ لذا لابد من معاقبته، ولكن لم يزل

أحد عقبة في الطريق، يبني جدارًا فيعزل عنه ابن الصياد. لذا وجب التخلص من أحد وابن الصياد.

***

تقلب أنس في نومه، ثم انتفض من مكانه. لم يعاقبها بعد؛ لا جلدها ولا كسرها، ولكنه رأى في عينيها أنها تتمنى هذا، تتمنى أن تخترق قوته ورباطة جأشه، وأن تصل إلى الكبد فتأكلها، ولكنه لا أذلها ولا علمها أي درس. ماذا فعل مع ابنة القاضي إلا أنه هددها؟ أي رجل هو؟! اختلطت المشاعر ما بين رغبة في حرقها الآن، وتخيلٍ لمقابلتها مع ابن المدبر ثم رغبة فيها هي زوجة له. فليعاشر النساء الواحدة تلو الأخرى، ولكن تبقى زوجته طوع إرادته. نعم، لا بد أن تبقى طوع إرادته. اتجه بعينيه إلى الحجرة التي تمكث فيها. لم يغلقها عليها ولكنها تغلقها على نفسها طوال اليوم، تتحاشى رؤيته، وهذا أفضل كثيرًا. بدت الحجرة بعيدة مع قربها، بينه وبينها أنهار بماء متسخ وأسماك متوحشة. ولِمَ يريد الوصول إلى حجرتها؟ ألم يكتفِ بكل أنواع النساء؟

خرج إلى الحديقة، وجلس على الحشائش المبتلة، استحوذت على كل نفسه سيطرة الأرقام على صفحات كتاب الخوارزمي. ميسون وهي تضحك بين ذراعيه في صدق ضحكة من أعماق الروح، ميسون وهي ترخي جفنيها لحظات النشوى، ميسون وهي تسحق ما تبقَّى من أيامه.

رأى ظلها في الليل الداكن ولم يكن يحلم. كانت تجلس على العشب تناجي النجوم كساحرة الهرم، ثم وضعت رأسها بين راحتيها في عجز، انحنت بكل جسدها كأن العمر أنهك قواها، ثم رفعت رأسها واتجهت بعينيها إليه. هب واقفًا، واتجه إليها قائلًا في قوة: ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟

نظرت إليه ولم تجب. هل تخبره أنها لا تعرف لِمَ خرجت؟ ولا لِمَ تبحث عنه؟ ولا لِمَ تفتقده؟ ولا لِمَ تخمد نارها وهو حولها؟

قال وهو يتحاشى النظر إليها: عودي إلى حجرتك هيا.

عادت بلا كلمة. في اليوم التالي عند ليلًا، كانت جالسة تكتب في بطء، شعرت به يقترب فلم تتحرك، قبضت كفها، وضغطت على شفتيها، وادعت أنها لا تلاحظه. رفع يده ووضعها على شعرها، ومر بيده على شعرها في رقة، فتحت عينيها في فزع، وتوقفت عن الكتابة، بدا كالمسحور.

قال وهو يمر بيده على شعرها: هل انتهيت من الكتابة؟

لم تجب، التقت أعينهما، بدت مذهولة ربما، سقط قلبها ثم ارتفع إلى أعلى سماء، خسف القمر ثم أضاءت الشمس.

ثبتت نظرها على وجهه بلا كلمة، ثم قال في حسم: عندما أكون واقفًا تقفين أمامي وتنتظرين أوامري.

طبقت شفتيها، ثم قامت من مكانها وقفت أمامه، قال وهو يحاول ألا ينظر إليها، والثورة تسيطر على كل حواسه: هل تعلمت شيئًا مما تنسخين؟ احكي لي ماذا تعلمت؟

قالت والضغينة تملأ النفس بالرضا: هل أردت معاقبتي أم تعليمي؟

– في تعليمك عقاب لك. عندما تدركين أن العالم لا يهتم فقط بميسون ربما تتواضع نفسك وتعرف مكانها.

ابتسمت في جفاء وهي تنظر إليه وترى الغربة في عينيه ثم قالت: تعلمت من أرسطو أن حب النفس هو بداية حب البشر أجمعين.

تنهد في يأس، ثم أمسك بمعصمها وقال: أهذا ما تعلمتيه؟

ثم جذبها إلى صدره، وعانقها بكل قوته، دفعت به برهة، فقال في حسم وهو يحك خده بخدها: توقفي عن المقاومة. كنت تريدين الحرير والذهب. أتيت لك بالحرير والذهب، حجرتك ممتلئة بالحرير، أليس كذلك؟

رائحته هي رائحة الضوء الذي طمسه من قبل، لا أمان له، يدغدغ الضلوع، ويبعثر العقل... كم تفتقده!

همس: طوقي رقبتي، لو فعلتِ فلن تعملي طوال اليوم غدًا، ما رأيكِ؟

طوقت رقبته، ثم عبس وجهها، وقطبت حاجبيها وروحها تصرخ كم تفتقده! عامًا أو أكثر.. تجمعت الدموع في الحلق وتوقفت، لو قتلته الآن تبقى على ذكرى العشق. هل تستطيع أن تخنقه بيديها؟ هل تقوى؟ تمتمت: تعرف أني أريد قتلك والناه؟ بيدي.

قال في يقين وضربات قلبها داخل صدره: أعرف.

قبضت كفيها، وأبعدته ثم قالت: لو ابتعدت عني فلن أقتلك.

ابتعد قليلًا، ثم وضع يده على وجنتها، واقترب منها، وقبل وجنتها في بطء قبلة أعمق من مياه الآبار. أغمضت عينيها ثم قالت: هل يمكن أن أذهب إلى غرفتي؟

امتدت قبلته إلى أذنيها وقال: أريد أن أذكرك بمن أكون.

ظلت صامتة.

فأحاط وجهها بكفيه، وقبل أذنها، ثم رقبتها، فسرت قشعريرة في كل جسدها، وهمس: من أكون يا ميسون؟

قالت وهي تقبض يدها في غيظ: نائب الشرطة.

- زوجك.

شعر بجسدها ينبض من لسانه، خرجت أنفاسها مختلفة، ممتزجة بحيرة وشوق: أدرك.

قرب شفتيه من شفتيها وهمس: أتتذكرين؟

قالت مسرعة: لا.

- بل لا يمكن أن تنسي، أنفاسك تقول إنك تتذكرين، ترى هل ساورك الأمل، أم وسوس لك الشيطان أنك ستتزوجينه يومًا؟ هل فكرت أن هذا ربما يحدث، أنني سأتركك تتزوجينه؟ أهديتك عقدًا من الذهب بعثت به مع الحارس، أين هو؟

قالت وهي تستعيد سيطرتها على نفسها: ألقيت به إلى الشارع.. رميت به من أعلى إلى أسفل بكل قوتي.

قال وهو يبتسم في جفاء: عن أي قوة تتحدثين؟ لا وفاء لامرأة.

ثم قال في لامبالاة: ستنامين هنا اليوم على مخدعي.

فتحت فمها فقاطعها: أريد أن أتأكد لو كان شوقك لي قد خمد أم لا.

نظرت إليه في ريبة ثم قالت: ماذا تريد؟

قال وهو يقترب منها من جديد: أريدك أنت.

خرجت منها ضحكة ساخرة، ولمعت عيناها بالدموع في آن واحد، ثم قالت: يا رجل.. إذا كنت تركتني عامًا، إذا كنت تراني خائنة، إذا كنت تشك في ولائي فماذا تريد مني؟ ألا تخاف أن أقتلك وأنت منهمك في العشق؟

قال في حسم: أنا لا أفكر في كل هذه التفاصيل. هيا اخلعي ملابسك وتعالي إلي كزوجة.

ارتجفت يدها، ولم يكن واضحًا هل ارتجفت خوفًا أم غضبًا، ثم قالت: ثم ماذا؟

قال في قوة: تنتظرين أوامري. إياك أن تظني أني سأسامحك يومًا على ما فعلت.

- كم امرأة عاشرت يا أنس في هذا العام؟

قال بلا تفكير: قبل أن أعلم بمحاولتك لقتلي والوشاية بي لم أعاشر أي امرأة، ومنذ شهرين حتى اليوم عاشرت عشرًا.

قالت وهي تتمنى كسره من جديد: ومع ذلك تريدني أنا؟ لماذا؟ ألم تجد من هي أجمل مني في كل مصر والعراق، أم أنك دومًا تريد ما يريد ابن المدبر؟

كادت تكسره، وقبض على كفه حتى لا يصفعها، ثم أمسك يدها، ووضعها على قلبه، وقال وهو يزعم الهدوء: لا حب يسكن قلبي لك. كان وانتهى الأمر. ولكن عندما أشتهيك كما يشتهي الرجل فاكهة يحفظها في خزانته تكونين لي في أي وقت وفي أي مكان، هيا اخلعي ملابسك.

بقيت في مكانها وهي تخفي يدها المرتجفة ولم تجب، ولم تكن متأكدة مما يجب أن تفعله أو مما تشعر به. هل يمكن للسخط أن يمتزج بالوحشة؟ هل يكون الغضب على قدر التمني، أم أن التعلق على قدر الوفاء؟ أي تعلق يسلب المرء عقله فلا يفرق بين أمه وأخته، ولا بين مرارة العيش وحلاوة الذكريات.

دفع بها إلى الحائط، وضغط بيده على قلبها ثم قال: اسم والي الخراج لا تذكريه أمامي مرة أخرى أبدًا، لو سمعته منك أقطع لسانك، ثم أفتح قلبك بسيفي، وأخرج منه الخيانة والغدر.

قالت وهي ترتجف: ألم تزل تريدني يا بن الصباغ؟ أي هزيمة هذه؟

اقترب منها، وحملها بين ذراعيه قبل أن تقرر ماذا تفعل، ثم ألقى بها على فدعه. شهقت من المفاجأة. قبلها حينها، تتذكر، لم يقبلها في رقة العاشق، بل غضب المشتاق. دفعت به، فكادت تسقط من بين ذراعيه، علت دقات قلبها، واختلطت الأيام، لو ضربها لا يهم فقد ضربها والدها، ولو حبسها لا يهم فقد حبسها والدها، ولو جلدها فلن تخضع له. عندما انتهى من القبلة، التفت إليها، لمعت عيناها بضوء جديد، وكأنها هي نجم اشتعل، وضعت يدها على

قلبه وقالت: لم تزل تريدني، ولا تريد غيري، حتى بعد ان ذهبت إلى أحمد بن طولون؟ ماذا ستفعل بقلبك يا أنس؟

ضغط على جسدها بجسده، خرجت منها صرخة من المفاجأة ثم قال: سأفتته قطعًا صغيرة، ثم ألقي به من أعلى بكل قوتي، مثل القلادة التي رميت أنت بها بالضبط.

اقترب منها، فقبلت زاوية شفتيه في بطء ثم تمتمت: لا يعجبني ملمس الحرير، يراوغ ويهرب من بين الأصابع.

لم يسمع كلماتها غير المترابطة، ما إن لمست بشفتيها شفتيه حتى قبلها في قوة وإتقان، والشوق يمحو كل الحكمة.

ابتعدت عنه، فأمسك يدها قائلًا: لا تراوغي، ولا تظني أنك تسيطرين أبدًا.

حبسها بجسده وقال: من يسيطر يا ميسون؟

أغمضت عينيها، ثم شبكت يديها وراء ظهرها حتى لا تلمسه، سمعت صرخات من داخلها، وربما من خارجها، الوحدة تغمر أكثر من الصقيع والتراب. فتحت عينيها، وكأنها رأت جنيًا، ثم دفعت به بكل قوتها وصاحت: لا تلمسني يا أنس.

توقف وابتعد عنها، وعيناه تنظران إليها كأنه ينوي قتلها في الحال، ثم قال: أي لعبة تلعبين؟

قالت في قوة وهي تقوم: لو لم أكن أريدك، فلن ترغمني، وكيف ترغمني وأنت نائب الشرطة وحولك كل النساء؟ هل سترغم من لا تريدك ولا..؟

قال وهو يشد ذراعها: ولكنك تريدينني.

نظرت إلى عينيه وقالت في ثبات وهي تنزع يده من على ذراعها: لا أريدك يا أنس.

ثم اتجهت إلى الباب مسرعة، وخرجت في انتصار ورضًا لم تشعر بهما منذ عام.

***

دخلت حجرتها، واتجهت إلى سريرها، وأغمضت عينيها، لم تزل آثار قبلاته تحوم حول أضلعها ولمساته تغوص داخل دمائها، لم يزل الشوق ينخر روحها، ولم تتمنَ طوال عمرها إلا أن تبقى معه، ولم تتمنَ طوال عمرها إلّا أن تقتله. ظهر الظل ولعب بالبصر والبصيرة. امتزج الشغف بالغضب، وخمدت نيران الفراق. تبدت لها حقائق جديدة، تريد غضبه، نعم، تريد كسره، هذا أكيد، تريد تعذيبه بل تمناه، ولا ترضى إلّا وهي بجانبه. كان يريد أن يتعامل معها كالوعاء. شتان بين أنس الذي يذوب عشقًا ورهبة من جفافها، وأنس اليوم. ولكنها تصورته اليوم، بلهفة التائه وكأنه يعتصرها بين يديه، ويتلهف عليها، وكأنه حرم منها عمرًا ولا يستطيع العيش بدونها، مع أنه لم يفعل، مع أنه كان كالصلب معها فلِمَ يصور لها عقلها هذا؟ هذا عمل الشيطان. في الارتياح الذي اجتاحها الآن؟ تتمنى ألا يكون بقاؤها حوله هو كل ما تريد، تتمنى ألا يطاردها ظلها في هذه الليالي فيفقدها صوابها. اليوم رأت الشمعة، واختفى ظلها. ما أسوأ أن يتتبع العقل روح رجل لا أمان له، رجل يتبع مشاعر بغضه وليس هواه!

شدة التعلق تؤدي إلى الانهيار، التعلق شعور بربك، يهوي بالنفس إلى البئر بلا سبيل إلى النجاة. ولو اختفى من جديد، ولو مات، ولو استمر في إذلاله لها، تستمر في العيش لمجرد أنه بجانبها؟ ماذا فعل أنس بها؟ ولِمَ أنس وحده ووالي الخراج يذوب عشقًا وتمنيًا؟ ماذا وجدت في أنس؟ هل صاحبها ظله طوال العمر، أم أن نفسها تكرهها كل هذا الكره لتجعل التعلق بأنس غاية؟

استيقظت بهمة ونشاط والانتصار يحيط بها. لا تدري ما الانتصار اليوم، ولا تدري ما الذي يهمها لو كان أنس يريدها بلهفة ومس من الجنون. ألم تكرهه كرهًا جعلها تتمنى موتًا بطيئًا له أمامها؟ ألم تتمنَ هزيمته؟ ألم تتمنَ أن تدك الأرض

دكًا دكًا حتى تمحو من ذاكرتها وجوده؟ ما الذي يحدث اليوم؟ اليوم رفضته وهو يريدها. اليوم علمته أنها ليست كسائر النساء. اليوم شدت ملاءة كانت تنام عليها وأخذت تضرب بها على النافذة الخشبية. اليوم يختار أجمل جارية يعاشرها مرة ومرتين؛ لأن زوجته رفضت معاشرته. اليوم ينجب من إحداهن، وينسى أمرها تمامًا. اليوم أمسكت بالخشب الدقيق بالشباك بين أصابعها وضغطت عليه لعله يتحطم ولم يتحطم فأصابها هياج لا قبل لأحد به، صرخت بأعلى صوتها، دخلت عليها زوجة مغيث تسألها عما حدث، فقالت إنها تريد هدم هذه النافذة.

نظرت إليها زوجة مغيث برهة، ثم سألتها ما بها مرة أخرى وهي تمتم بآيات قرآنية، فقالت في تصميم: هذه النافذة تحتاج إلى الهدم، أريد من يهدمها اليوم، أريد هذا الخشب أن يتفتت، يزعجني منظره.

رمقتها زوجة مغيث بنظرة فهمت منها ما يعتريها، وأعطتها بعضًا من الطعام الذي طبخته، وقالت في خبث: يا ميمون، لا تتركيه يهرب منك مرة أخرى، سيطري واغمري قلبه.

قالت وهي منغمسة في التحديق في الخشب: لديه الكثيرات.

– كل الرجال لديهم جوارٍ ولكن للزوجة مكانة مختلفة، لو تركته يعتمد على الجواري ينجب منهن و..

جذبت الخشبة الرقيقة بكل قوتها حتى تحركت من مكانها ثم قالت لزوجة مغيث: ها هي تتحرك. اتركيني وحدي بعض الوقت حتى أهدم بقية النافذة.

مصمصت شفتيها ثم خرجت.

أغمضت عينيها في وسط النهار، حلمت به، كان يعشقها كما في الماضي ثم طوقت رقبته، وضغطت بكل قوتها، تشعر بملمس شرايينه المختنقة، خرجت منه شهقة عذاب داوت كل الجراح، ظهر الظل ثم اختفى، استنشق الظل أنفاسه،

ثم طار في الهواء وبقي أنس أمامها، لها وحدها، لا يهرب ولا يكذب ولا يهجر. يعرف أنها ليست كبقية النساء، ليس لأنها أجملهن، بل لأنها مجنونة. ترى ما لا نفهم، تصرخ ثم تندم، يسيطر اليأس حتى قبل أن يغمرها ضوء النهار.

عادت إلى عملها، يدخل عليها كل ليلة ينظر إلى ما كتبت في إتقان، يسألها عما فهمت وما تعلمت، تشرح له دون النظر إلى عينيه، لم يطلب منها أن تبقى.. يعاشر غيرها، هذا أكيد.. تسمع همسات الجواري وكلمات الحرم.

***

لم يفهم زوجته، هل طمعت في قوة والي الخراج وقررت التخلص منه؟ هل أهانها هجره الذي لم يكن بيده؟ لِمَ لم تعترض على قبلاته؟ ولِمَ رفضته؟ تنسخ طوال اليوم ولا تتعب، تطيعه ولا تسامح. لا تثور ولكنها لا تخضع. يمكنه أن يكسر كل عظامها، يجلدها حتى الموت من أجل ما فعلت، ولكنه يعرف أنها لن تبالي. يرى ميسون مختلفة الآن، ويرى وسط خيلاء نظرتها وهنًا وذلًا دفينًا، وبين ثنايا كلماتها القاسية ارتجافة قلب لا يقوى على التحمل، أغلق عينيه عما يشك به. ميسون هي ميسون لا ترى سوى نفسها، ولا تحب سوى القوة والمال. ولكن كلماتها تخرج أحيانًا بلا معنى، وعيناها تزوغان كأنهما تنظران إلى السحاب وتتحدثان معه. تدعي هذا، لعبة من ألاعيبها. ميسون هي هفوته ولكن لا بد أن يقسو لينتصر، لا انتصار مع رقة القلب، ولا وصول إلى القصاص إلا بالسيف.

***

ثار عليها، استدعاها مرة واثنتين، اتهمها أنها لا تتقن عملها، أجلسها أمامه لتنسخ ساعات، يحدق فيها بلا كلمة، وهي تعمل في إتقان، وقد عاهدت نفسها أنه لن يلمسها مرة أخرى. كبرياؤه لم تسمح له، لن يرغمها، وكلما رأت الأسى في عينيه اطمأن القلب ورضي، وكلما رأى هو حزنًا دفينًا في مقلتيها صبر وتمنى. لا يريحه سوى ذلها، ولا يريحها سوى عذابه، ولا راحة لهما وهما بعيدان عن

بعضهـا. ليلًا ترى ظلهـا ينقض عليهـا، ويخنقها على مهل، يخرج منهـا أنين لا يسمعه سواها، تفكر في بريق السيوف، ولكن لا يغريها سوى الخنجر، يعجبها شكله ومقبضه، يشي بسيطرة على النفس الجامحة، له نصل يذبح بلا هوادة، ويخترق الصخر بلا تردد، تتمنى أحيانًا لو غرزته في صدرها، أو لو غازل النصل عروق رقبتها فانبثقت الدماء الخاضعة. لم تستطع أن تجد الخنجر المناسب بعد، ولكن الظلام يحث على الثورة، والظل لا يتجرأ عليها إلا في الظلام؛ تارة تسمع همسًا، وتارة تسمع نحيبًا، وتارة تؤنبها النفس على أنها لم تغز ولم تتعلم.

يصاحبها خنجر صغير تمزق به الوسادة وسط الصرخات المكتومة، يتفق عليها كل البشر، وتبقى الوحدة دومًا مستقرة وساكنة.

***

ذهب ليزور أخاه في قوة، افتقد وجوده معه، مع أنهما كانا دومًا مختلفي الطباع إلا أن ثمة رباطًا قويًا يجمعهما منذ لعبا معًا في قاع البحر في الطفولة، وحاربا الرمال بالسيوف المصنوعة من الأخشاب، كم انتصرا معًا وكم انهزما! عندما استقبله عَليٌّ كان سعيدًا راضيًا، عَليٌّ دومًا سعيد راضٍ وكأن كل أحداث الكون لا تؤثر فيه. مات الأب، فقال عَليٌّ: هو قضاء الله. فقدا كل أموالهما، فقال: الأيام دول بين الناس. زاد الظلم، فقال: هو عالم لا يستوي أبدًا. قتل أخوه زايد وأصبحا مطاردين، فقال: الدنيا ابتلاءات متتالية. كم تمنى أن يكون مثل عَليٍّ! كم تمنى أن يجد الرضا بين ذراعي جارية! وأن ينتظر صيد سمكة أو اثنتين بحماس البراءة وفرحة العاشقين! عَليٌّ يعرف كيف يعيش وما الذي يتوقعه من تلك الحياة. قال عَليٌّ وهو يشوي الأسماك: عش حياتك وكأن الشر لا يخترق قلبك، ومت وأنت راضٍ عما كان. منذ وعيت الدنيا وأنت تحمل الهموم كما الشيوخ. يا أنس، أنا أحمد الله أني لم أتعلم القراءة، ولم أعرف ما تعرفه. أنا هنا بين الأسماك ملك وأمير.

قال أنس: أن تختبئ داخل الجحر ليس هو الحل يا عليّ. يومًا سيهدم الصياد الجحر عليك ويجدك.

- أصبحت محاربًا يا أخي، وأتقنت القتل، أما أنا فأفضل العيش في سلام.

قال أنس: لا سلام مع الظلم، ولا هروب من الحرب إلا للهزيمة. كتب علينا القتال حتى وهو كره لنا.

- أنت الأكبر والأحكم.. قرأت وعرفت.. كُل السمكة، واستمتع بجو البحر، وتكلم معي عن أحوالك..

استمتع بوجوده مع أخيه، لم يعد له غيره في هذا العالم، حتى وسط الاختلاف يجد معه السكينة والخلاص. لم يعد يريد العودة حتى لو تبقّى له في الحياة يوم أو اثنان.. لو نسي العالم من حوله..

عند العودة إلى البيت تردد قليلًا، فليطلبها إلى حجرته الآن، فليرغمها أو حتى يتشاجر معها. أغمض عينيه.. وضع يده على قلبه وكلمات تتسلل إلى الروح، ولأول مرة يصيبه الخوف. لم يحاول أن يعيد كلمات والي الخراج. حاول نسيان غريزة القتل التي انتابته والشر الذي اشتعل في عينيه، ولكنه يتذكر.. «وانتزاع الروح ليس بقتل الجسد، لن يبقى لك حبيب حيًا». دوت الكلمات حوله، امتلأت بها غرفته كدخان القناديل القديمة.. انتابته نوبة غضب مرعب.. هب من مكانه، وهرول إلى الحرم يبحث عن زوجته، ثم عاد دون أن يوقظها.

عاهد ابن طولون على أن خراج الإسكندرية له هذا العام أيضًا، حاول ابن طولون أن يقنعه بأن يعدل عن هذه الفكرة ولكن أنسًا أصر على أن الإسكندرية لم تخضع من قبل حتى في عصور الخلفاء، ولن تخضع اليوم لابن المدبر. الإسكندرية تعصف بالطامع بأمواجها، وتتحايل على الأيام بشجاعتها. هذا العام غير كل الأعوام، فابن الشيخ سيمنع وصول الخراج إلى الخليفة، وخراج الإسكندرية سيمر من ناحية الشام، لا بد من استعادته قبل أن يصل إلى ابن الشيخ. دبر أنس

خطته في إتقان، يعرف أنه سيقتل هذه المرة، لا بد من قتل حامل الخراج عبد الله السعدي. السعدي جلد الكثيرين من أهل مصر، مات بين يديه أربعة من التعذيب المستمر أمام ذويهم. لا بد أن يموت. قالها أنس لنفسه في حسم. هو ينفذ العدل لا أكثر. لو كان في مصر عدل ولو كان ابن طولون يستطيع كان سيقيم الحد على السعدي، وبما أن القوة اليوم في يد ابن المدبر فلا مفر من أن يقيم هو العدل. هو أنس، من يعرف الظلم ويصاحبه. طلب أن يأتي الجنود برأس السعدي، سيتنكر الجنود في صورة بدو يغيرون على القافلة وهي على حدود الشام. في البدء سيخرج ثلاثة رجال مدربين بعناية، ثم يزعمون الهزيمة أمام رجال السعدي، ويهربون، ثم بعد يوم يعيدون الكرة ولكن بمائة رجل ولكل رجل نصيب من الخراج، وبقية الأموال سيبني بها ابن طولون جيشًا ومدينةً ويعيدها إلى مستحقيها، ربما يظن الشيخ بكار أن الخليفة العباسي يستحق الطاعة، ولكن أنس لن يطيع ولن يتوقف عن الانتقام إلا حين يموت ابن المدبر على يديه. لو لم يستطع الخليفة رد الظلم فلا بد أن يرده هو ابن الصياد.

***

ما يقدم عليه أحمد بن طولون يبدو كضرب من الجنون. أحمد غريب الأطوار؛ لا هو ملاك طيب وعاجز عن الفهم، ولا هو يملك طمع أتراك العراق وشراستهم، فلا يملك خبث غلمان جواري الخلفاء، ولا يملك نقاء شيوخ الصوفية. لقد قرر ابن المدبر اليوم أن أحمد بن طولون يملك خصال المجاذيب، فهو لا يملك أي ذوق في اختيار ملابسه، ولا يلبس الحرير المطرز بالياقوت والفضة، بل لا يستمتع بالجواري الحسان ولا بالغناء، وما يزيد الأمر غرابة هو أن أحمد لا ينتمي لأي من الجماعات التي تحيط بالخليفة، كأنه يسير في الدرب وحيدًا ومع ذلك فيه شراسة وقسوة، ويتعامل مع الأعداء بعنف ودهاء. هناك شيء واحد لا يعجب ابن المدبر وهو الفجاجة. وأحمد رجل فج؛ في تصرفاته وفي ذوقه. إنه حتى لا يستمع إلى

الشعراء ولا يحضر مجالسهم. جاء بابن الصياد ليكون نائب الشرطة نكاية وحريًا عطية، ادعى أن ابن الصياد دفع فدية زايد، وأنه بلا جرم.

توقع ابن المدبر أن يجمع أحمد كل رجال بخارى حوله، يشتري الغلمان من هناك ليضمهم إلى جيشه. أطلق ابن المدبر الأموال له على مضض وهو على يقين أن نهايته قريبة. فعند ابن المدبر خطة محكمة للتخلص منه. ومنذ أن أطلق له الأموال وهو يراقبه في ذهول.

ما فعله أحمد بالأموال هو أمر مرعب يشي بعقل لا يمكن الاستهانة به؛ فقد جمع الرجال من كل درب ومكان، اشترى من السودان رجالًا، ومن النوبة رجالًا، ومن الترك رجالًا، ثم طلب من العرب أن يكونوا مجموعات ووعدهم بالعطايا، بل اشترى من الروم رجالًا، ثم فعل هذا الشيء العجيب الذي لم يفعله غيره حتى قبل دخول عمرو بن العاص مصر، كون أحمد بن طولون جنودًا من الموالي، من المصريين. منذ متى يحارب المصريون؟ هذا لم يحدث من قبل ولا يعرف عنه ابن المدبر أي شيء. قيل: إن آخر جنود مصر قد غرقوا مع فرعون موسى، ومنذ ذلك الحين ومصر ليس بها جيش ولا عساكر. قيل: إن أهل اليونان حكموها بجنودهم، ثم حكمها الروم بجنودهم، ثم حكمها العرب بجنودهم. فما بال أحمد يفقد عقله، ويسل سيف البرق في الليل الهادئ! ماذا يريد؟ وماذا سيظن أهل مصر بعد هذه الجرأة والفوضى؟ راقبه وهو يختار ستة آلاف جندي من شباب المصريين، لم يشترهم ولم يرغمهم، بل أغراهم بالعطايا والسلطة فخرجوا له من كل فج عميق. ستة آلاف رجل من أهل مصر سيصبحون مدربين على السلاح، وسيصبح ولاؤهم لأحمد. هذا الجنون لا بد أن يصل إلى الخليفة. ثم إعادة اللجوء للعرب في الجيش ستفتح نيران الولاءات والدم مرة أخرى. ولم لم يجمع أحمد جيشًا من الأتراك؟ فهم ابن المدبر منذ اللحظة الأولى أن أحمد لا يثق في أحد، ولا يهتم إلا بولده وزوجته وهما رهينان في العراق. فما دام ولده

العباس رهينًا في العراق فالسيف في يد ابن المدبر حتى لو امتلك أحمد كل جيوش الأرض.

جمع الرجال وعددهم حتى أصبحوا يفيضون كالنيل لا مكان لهم في الفسطاط ولا العسكر. خرج إلى الشمال الشرقي، وطلب من رجاله أن يقطعوا الأراضي لأنفسهم، ويبنوا بيوتهم في هذا المكان الجديد. يقولون إنه يبني مدينة جديدة أكبر من الفسطاط والعسكر، سيعيش فيها مائة ألف جندي، ولن تغلق الأبواب أمام المصريين، بل سيتسلل إليها كل أهل مصر، ينوي تعميرها لتبقى ألف عام أو يزيد. لو كان أحمد يبني مدينة جديدة فلا بد أنه ينوي البقاء ألف عام أو يزيد. هذا يقلق، ولكنها أول هفوة له، وهي أول ما سيسمع عنها الخليفة. استقرار أحمد خطر على كل الخلافة قبل أن يكون خطرًا على ابن المدبر.

سقوط النجم من السماء قريب. فليجمع رجاله ثم يفتنون في معركة مع ابن الشيخ.

فليبن مدينته ثم يهدمها ابن المدبر بعد أن يسجن أحمد بن طولون.

فليتجرأ ابن الصياد على ابن المدبر، ثم يفنى بعد ذل وهوان..

فلتضل ميسون وتقع في حيرة وهوان، ثم تستيقظ على حب حقيقي ليس بعده حب لوالي الخراج.

الدنيا بين يديه، فليعبث أحمد قليلًا ثم يدفع ثمن براءته وسذاجته.

***

الباب الثالث

لأخرجن من الدنيا وحبهم بين الجوانح لم يشعر به أحد

ألقيتُ بيني وبين الحُزن معرفة لا تنقضي أبدًا أو ينقضي الأبد

بشار بن برد

شاعر عباسي

- 10 -

الأرض التي اقتطعها أحمد بن طولون لأنس كانت واسعة خصبة. كلما تصور أنس بيته الرحب الواسع لم ير بداخله سوى ميسون. ربط على قلبه في لا وعي. نوى بعد غدرها أن يتزوج ابنة قائد تركي، وأن يمتلك الجواري وينجب الكثير من الصبيان. سينسى أمر ميسون، فالشغف والشوق لا يصنعان جدارًا ولا يشعلان نيرانًا تدفئ البيوت. ومن تنجب الأولاد وتربيهم لا بد ألا تغدر ولا تتغير مع تقلبات الزمان. عقله سيتحكم. ولكن هذا لا يمنع أن ميسون زوجته، وأنه لم يرتو منها بعد.

لو استطاع أن ينتزعها من بين شرايينه اليوم قبل الغد كان سيفعل. ولكنه لا يتصور جدران البيت إلا وهي حوله.

سمع صوتًا، فالتف فجأة للرجل الذي يناديه. سعيد. كان قد اختفى بعد وصولهم إلى العراق. قال في حماس: أنس بن حمزة السكندري. هل تذكرني؟

قال أنس وهو يتبسم: سعيد بن كاتب الفرغاني، من يسير بين أركان الأرض باحثًا عن اليتيمة. ظننت أنك غرقت في حب جواري سامراء، ونسيت أنني الصاحب في السفر.

- غرقت في حب عمائر سامراء نعم. ولا مكان في قلبي سوى لحبيبتي.

ثم قال سعيد في حماس وهو يشير إلى الأرض: سوف أبني لك البيت في أقل من عام.

ثم انحنى وبدأ يرسم على الأرض بأصبعه وهو يتكلم بلا توقف: هنا فوارة تبهج القلب، وهنا نوافذ تبلج منها النجوم، وهنا سنزرع أشجارًا تسر الناظرين، ما شكل زوجتك؟ وما طباعها؟

نظر إليه أنس في دهشة، فقال: لو عرفت طباعها، أعرف كيف تريد للبيت أن يكون، لا تخبرني، اجعلني أنا أخن، ولكن لِمَ التخمين وكل مصر تعرف من زوجتك؟ لا يوجد مثلي في كل مصر في الهندسة.

ابتسم أنس: ولا تتسم بالتواضع، مثلك مثل ابن طولون.

- التواضع للعظماء، وأنا من الصعاليك، لا عمل لي ولا مورد رزق. تعلمت الهندسة ولم أعمل بها. الناس لا يحبون البناء هذه الأيام. انظر إلى بيوت سامراء ومساجدها.. أين نحن من هذا المجد؟

- أحمد بن طولون سيبني مثله وأفضل.

- هذا ما جئت لك من أجله.

نظر إليه أنس ولم ينبس. فقال سعيد: سأبني لك بيتًا. أنت توفر مواد البناء، وأنا أصمم البيت كبيوت الأمراء والخلفاء. هنا في قلب المدينة الجديدة تنعم به مع زوجتك. ابنة القاضي تريد بيتًا شامخًا كله نور وحياة.

- لا يهمني ما تريد هي.

ابتسم سعيد ثم قال بالقبطية: النساء هم سبب الشقاء، ولكنك يا بن الصياد دومًا عابس كأنك لا تستطيع حل معادلة الخوارزمي أبدًا.

ثم أكمل: سأبني لك البيت على أن تذكرني عند أحمد بن طولون. لقد وعدتني. قل له إن مسيحيًا قبطيًا قد بنى بيتك، وإنه حاذق في الهندسة ويريد خدمة الوالي. ألم يصبح هو الوالي اليوم، أم أنه لم يزل نائب الوالي؟

قال أنس: هو الوالي، ولكن.. لن أذكرك وأنا لا أعرفك، كيف لي أن أتأكد أنك تجيد الهندسة؟

- ستتأكد عندما أبني لك بيتًا لم تر في روعته. أنت من رجاله المقربين. قلت لك: إن كل مصر تعرف قصة ابن الصياد، وكل مصر تحبك.

- كل مصر نبذتني في العراء مذمومًا عندما كنت ضعيفًا يا أخي.

- لا حيلة لهم أمام ابن المدبر. ولكن الناس دومًا لا تعجب بالضعيف ويسحرها القوي. في ديننا ودينكم الله فقط من يحب الضعفاء، أما البشر فيفضلون القوة والمجد. أخبر الوالي أن العبد الفقير مصري. يقولون إنه يحب المصريين. لماذا يحب المصريين؟

- لأنه يحكم مصر، أي سؤال هذا؟!

- وكم من حاكم حكم مصر وهو يبغض المصريين ويحتقرهم! ولكن مصر هي الأرض والذهب، ومصر الناس والصروح القديمة. عن أي مصر يتكلم؟

- عن الاثنين.

قال سعيد في حماس: بيتك لن يرى أحد في جماله.. لن يكون مرصعًا بالذهب، ولكن في كل جدار سترى بدائع الفنون ومجد الأجداد. اذكرني عند أحمد بن طولون، أنا صديقك.

- سأحاول، ولكنك لست صديقي، لا أصدقاء لي.

***

القتل يبدو خطيئة كبرى ولكنه أصبح كذرة رمال في جفن ملتهب... يزعج؟ نعم.. ربما لحظات لا أكثر. لا يدري كيف اعتاد الموت، منذ مات والده والموت بلا هيبة، ومنذ رأى الذل والموتُ راحة. لو تسبب في قتل أحد رجال ابن المدبر فسوف يسعد ويحتفل. اليوم خطط لموت شقير صاحب البريد. موت شقير

هو موت جزء من ابن المدبر. كان يعرف أن شقير أبيض الوجه، ممتلئ الجسد، فأخرج له الرجال تلقي القبض عليه، ثم اتفق مع الرجال على أن يكبلوه على خشبة ويتركوه في الشمس ويهددوه طيلة اليوم بأن أحمد ينوي أن يشق جسده ويخرج أمعاءه، وأن أحمد يعرف كل ما فعله شقير من فتن، وكيف أراد الوقيعة بينه وبين الخلفاء الواحد تلو الآخر حتى جاء الخليفة المعتمد. مع قدوم الليل فك الرجال قيده، وأعادوه إلى بيته، ثم قالوا: إن أحمد سيقتله قبل طلوع الفجر. عند عودة الرجل منهكًا خائفًا، مات على فراشه قبل طلوع الفجر. علم ابن المدبر بما حدث، وجن جنونه. بعث للخليفة بأن نائب شرطة أحمد بن طولون أنس بن الصياد قد قتل عامل البريد، وبعث الخليفة محققين ورجال شرطة لترى جثة شقير وتتأكد لو كان قد قتل، ولكن الجثة لم يكن بها أي أثر ضرب أو سيف. وادعى أحمد أنه تشاجر مع شقير فمات خوفًا ولكنه لم يقتله. لم يستطع رجال الخليفة إثبات أي شيء على أحمد بن طولون، فغادروا بالهدايا والمأكولات.

زهد ابن المدبر في النساء، حتى سخرية أبو شعرة من أحمد لم تعد تضحكه. أراد ميسون راضية محبة، وأراد كسر ابن الصياد، فلو لم يكسره موت الأب فلا بد من شيء آخر يكسره، فليفقد كل حبيب. وقبل كسره لا بد من خطة لتهريب ميسون التي تعاني في دار بلد الإمارة.

***

تناثرت الأحجار تنتظر الاستقرار على سطح، دشنت الأعمدة والأبنية في علنية وضحاها، نظر أنس إلى الأفق يفكر، كل المدن للزوال، يقولون إننا نسبح على مدن الأجداد، نطفو أحيانًا وتغوص بداخلها أحيانًا، سار فرعون بكل جيشه وراء موسى ثم غرق. العرب قرأت بعض الكلمات، وجدوا أن بعد فناء جيش موسى لم يعد لمصر جيش، فرموا عن مدينة تُدعى منف، لا أحد يدري هل محاها عدو أم اندثرت من تقلبات الأيام؟ ثم بنى أحمد بن طولون القطائع، ترى هل

نسي أن المدن للزوال؟ وماذا سيبقى من مدينته؟ بعض الأساطير ربما والقصص التي ترددها النساء.

القطائع مدينة بها جيش لا مثيل له، به جنود مصريون، وبه جنود من كل لون وبلد، ربما سيريد أحدهم أن يمحو ما تجرأ عليه أحد، سيتداول البشر أيامهم وينسون أمر جيش مصر، ستهب الرمال لتغمر كل الماضي، وسيزيل السيف الأثر، وستطمس السنون الذاكرة. سيتساءلون عما كان، وما بقي. بلا أثر لا يوجد حكاية، وبلا جدار لا يسكن الأمل. ستتناثر بقايا الأحجار وتمتزج بمن راح ومن رحل. ترى هل ستبقى تلك المدينة؟ ألف بيت أو يزيد، لكل بيت ضوء وظلام، فراق ولقاء، ذل وعزة، وفي كل بيت يتردد اسم أحمد وحلم أحمد.

المصريون يتقنون قراءة خطوط الماضي، يحبون العيش بين ثنايا الأمجاد، والمدن الزائلة دومًا بمبانٍ شاهقة ومآذن تصل إلى السماء. يا ليت كل مدن مصر تشهد على هذا اليوم! نظر أنس إلى سيفه، يا ليت كل المصريين يتذكرون متى كان السيف في يدهم! ومتى تغمدت الذاكرة المدينة! ربما يأتي عصر غير العصر، ويوم غير اليوم، ربما يدعي البعض أن المصريين لا جيش لهم، لا يتقنون فنون القتال، أو يدعي البعض أن الفراعنة زالوا كما زالت مدنهم، ولكن من ينقب عن المدن يجد في انتظاره ظلًا وظلالًا ونورًا ساطعًا وآخر باهتًا. هنا عاش أحمد، وابن المدبر. هنا عاش أنس بن الصياد والشيخ بكار بن قتيبة وسعيد بن كاتب الفرغاني.

تذكر أيضًا أنين الشاب والدم يتسلل من كل مخارج جسده، هناك صراخ من جوف الجسد، وهناك أنين من عمق الروح. كانت ميسون بعيدة ومستقرة داخل الكبد. وأصبحت قريبة ونفسها مهاجرة إلى بلاد ما بعد النهرين. ليت صراخ الحب يخرج كثيفًا متسارعًا كاندفاع أمطار العواصف! ليت المارد يسوق تيه الوحشة إلى العدم كما تزخ الإبل إلى مسكنها! ولكن يمتزج الأنين بالتيه، وبوحدة النفس المتضرعة إلى ظالمها. ترى هل تراه عندما تبحث بعينيها عنه داخل حجرته؟ هل

تراه عندما تسير وسط النساء وطمع الفؤاد يسيطر عليها؟ ترى هل يداعبها أمل الزواج من والي الخراج؟ هل انتصر عليها الغل والحقد؟ يبحث عنها فلا يجدها وطالما بحث عن نفسه ولم يعد يعرفها. أصبح يشدو كل القصائد ولا يفقهها، ينادي بكل الأسماء ولا يحفظها. لم يعد يريد شيئًا. ومن سيشبع جوع المرضى إذا استبد المرض وتمكن؟ وهل إشباع الجوع يشفي حينها؟ ومن يروي ظمآن يتطلع إلى النهاية؟ هل شربة ماء حين الفراق تروي؟ تمتم من جديد: سامحني يا أبي، ما رأيته في عيني يومًا لم يكن لومًا. أعدك أني لن أخيب رجاءك فيّ.

***

ميمون تطلب كل يوم وسادة تنهال عليها وتقطعها، ثم تخرج ريشها وتحرره. بدأ النساء يتهامسن، جميلة الجميلات أصابها مس من الجنون، ولم تجرؤ إحداهن بالنطق أمام نائب الشرطة حتى جاءتها عبلة الماشطة في زيارة مفاجأة سرية. حتى الحراس لم يعرفوها. جلست أمامها ميمون بوجهها الشاحب فقالت عبلة: مسكينة يعذبك ابن الصياد، أعرف! والي الخراج يريد إنقاذك ويستطيع. استمعي إلى النهاية، ولا تنبسي بكلمة واحدة وإلا فسأموت وتموتين معي. يثق بك والي الخراج. يريدك أن تهربي من هنا، سينتظرك رجاله بعد العشاء خارج البيت، بينما يقبض اللصوص على زوجك في الوقت نفسه، ربما لا يستطيعون قتله، ولكن اللصوص طرقهم في تحطيم العظام. هل تفهمين ما أبغي يا ميمون؟ نفذي الأمر بلا كلمة. زوجك سارق والسارق تقطع يده. هكذا يقول ابن المدبر.

قالت ميمون بصوت مبحوح: ماذا سرق؟

قالت عبلة وهي تربت على فخذي ميمون: لا تشغلي بالك بهذا.

بلعت ميمون ريقها في صمت، فقامت عبلة وقالت: سأنصرف قبل أن يعرف أحد من أكون. موعدنا بعد العشاء كما اتفقنا.

تركتها عبلة، نظرت للوسادة اليوم، ثم ابتسمت في سخرية من نفسها وليس من والي الخراج، ثم وضعت السكين بجانبها حتى تطمئن، وتنفست كأن أنفاسها تبكي بكاء حارًا. أغمضت عينيها ثم سارت في خطى بطيئة إلى ريحان جارية زوجها.

أغمضت عينيها، تحاول أن تستجمع كرمًا لا تملكه الآن: سيقطعون يده ثم يعذبونه ثم يقتلونه، سيدفع ثمن ما اقترف من ذنوب في حقها، أنس.. لو مسه السوء فسوف تموت اليوم. تعشقه عشقًا لن يقدر وطأته سوى المجنون، من فقد عقله من شدة الشغف، من محا لهيب النيران كل ذاكرته. آه يا أنس! يا معذبي أمس وغدًا! يا من توارت كل أنفاسي بغيابك حتى وأنت حولي!

دخلت على ريحان، أمسكت بيدها، وأعطتها الدواة والقلم، ثم أمسكت أصابعها وحركتها وهي تكتب الكلمات: غدًا من الإسكندرية يأتي الخطر.

قالت في صوت قوي للجارية: قبل أن تبادليه العشق أعطيه الورقة، لو لم تفعلي أذبحك غدًا، ولو قلت اسمي أذبحك اليوم.

نظرت إليها الجارية في ذهول، فأكملت ميسون: لا تظني أنه يعرفك يا حسناء.. أنس لا يعرف سوى أهدافه.

ثم تركتها وانصرفت.

***

لا متعة تأتي من معاشرة الجميلات هذه الأيام؛ فالنهم لا مكان له في الجنة، وشرب الماء بلا عطش لا يروي مشتاقًا، ولا يبل جوف عاشق. ليلًا يقترب من حجرتها كثيرًا، يفكر أن يدخل ويضمها عنوة، يخترقها كما اخترق صفوف ابن المدبر وأذل رجاله. شجاعة الرجال أهم من تعقلهم وكبريائهم. ودومًا تطغى الكبرياء ويتذكر أنه لو أخذها عنوة تعرف مدى لين الأضلع أمام حبها وثبات

الروح على ذكرى ماضي ولّى. لن يعطيها هذا الانتصار حتى لو حزن كل يوم ألف مرة، هو حزن متجدد بتجدد الصبح واختلاف لون السماء. عندما دخلت عليه الحسناء اليوم تكلمت بسرعة وقالت إنها تحبه وتتمنى أن تبقى معه، قالت الكثير الذي لم يسمعه، ولم يصل حتى إلى الهواء حوله. كانت ابتسامة ميسون تسطع وتنتشر، لحظات معها تذكره برضا الجنة، هذه اللحظات لن تعود، في لحظة إشباع الجسد تذكر أوراقه وكتبه، هجرها بحثًا عن ابن المدبر، لكم يتمنى أن يعود ابن الصياد الذي يفضل الجبر على الجواري! بعد أن انتهى، أدار وجهه، ثم أمرها بالرحيل. قالت في دلال وهي تمسك بكتفه: مولاي غاضب مني؟

استلقت على مخدعه، وأزاحت الغطاء فتبدّى له الوشم الأزرق بالحروف العربية على كتفها البيضاء، رآه من قبل كثيرًا ولم يلتفت إليه سوى اليوم. قرأ الكلمات بصوت مسموع إلى قلبه.

لم يكن المجنون في حالة إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وإنني قد ذبت كتمانا

قالت وهي تنظر إلى عينيه في دلال: هذه كلمات ليلى العامرية، وكأنها تنطبق عليّ يا مولاي. لو تعرف كم أحبك! يقولون الحرة لا ترسم الوشم، ولكن كيف للجارية أن تبوح بحبها سوى بالوشم؟

اقتربت منه، قبلته وهي تهمس: قل لي ماذا تريد لتحبني؟

كرر أمره لها بالرحيل وكأنه لم يسمعها.

ارتدت جلبابها، ثم قالت وهي تقترب منه، وتمد يدها بالورقة: أحبك يا مولاي، وأريد إنقاذك. في يوم ما سوف تعرف مدى إخلاصي، ربما تلتفت إليّ.

ثم رحلت. فتح عينيه، ونظر إلى الورقة التي كتبتها الجارية بخطها، قرأها ثم اعتدل في جلسته.

ابن المدبر بالطبع يريد التخلص منه، ويعرف أنها حرب معلنة، كل من فيها أشهر أسلحته، لا سيوف في الجب حتى لو تكاثرت الجواسيس كالغربان حول ما تبقى من جثث المحاربين. ربما زوجته قد تآمرت عليه، ألم تتمنَّ قتله؟ ألم تحاول؟ ألم...؟ ولكن ريحان لا تكتب ولا تقرأ!

استدعى الجارية وكل الحرم. عرف زيارة السيدة المجهولة لزوجته. أمرهن بالانصراف، وأبقى على ريحان، طلب منها أن تخبره بالحقيقة، أصرت أنها تحبه، وتعلمت الكتابة من أجله، بكت ورجته. وبدأ صبره ينفد. بعد أن أصر أن تخبره بالحقيقة، اعترفت بما حدث، ثم قالت في عتاب: مولاي، فعلت هذا لأني أحبك بينما زوجتك...

نظر إليها فأكملت: أعطني الأمان لأتكلم.

هز رأسه فأكملت: كل الحرم يتكلم عن... جنونها، تمزق النسيج، وتتكلم مع النيران، وتخاطب الشيطان. أبعدها عنك يا مولاي تسلم.

قال في همس وقلبه يذكّره بما حاول غضبه أن يطمره: من يتكلم عنها؟

- كل من يعرفها. تؤثر الوحدة مع شيطانها. تدعي أنها مريضة لتتكلم مع جني. يا مولاي.. زارت ساحرة الحرم فمسها جني، كل من يزور الساحرة يفقد عقله.

قال في صرامة: ريحان.. أريدك أن تخبري كل الجواري وكل الحرم أني لو سمعت همسًا يمسُّ زوجتي فسوف أقطع لسان من تكلم بلا هوادة ومهما كان مركزه.

- يا مولاي..

- أنقذي أصدقاءك هيًا.

- ظننت أن ما بيننا...

- ما بيننا منعني أن أقتلك اليوم، ولن يمنعني غدًا.

***

خرج اليوم في حماس طفل وجد كل أسماك البحار وهو يبغي صيد سمكة ولو صغيرة من النهر، وقلب عاشق فقد محبوبته منذ مائة عام وعثر عليها فجأة بين ذراعيه وهو يحتضر فاختفت كل آلامه، وتلاشى العمر البائس وانهار أمام مذاق الرضا وارتواء الروح من نفسها.

حاول أن يبدو طبيعيًا ولكن قلبه كان يخفق بصوت مسموع، وكانت عيناه تلمعان ببريق مكنون.

طلب من مغيث أن يجهز الرجال، ويقبض على من سيقترب غدًا من دار بلد الإمارة، ففي وجودهم خطر على أحمد بن طولون. جمع رجاله وعددهم.

ثم فتح باب حجرتها دون استئذان، انتفضت من مكانها وشهقت وهي تمسك بقلبها.

التقت أعينهم، لمعت عيناه ببريق لم تره من قبل، أغمضت عينيها ثم فتحتهما لعل بريقه يختفي، ولكنه لم يزل ينظر إليها ولمعة الرضا والانتصار لا تترك نظرته.

قالت في تحدٍّ: إياك أن تقترب مني، سأصرخ فيقول كل من في الدار إن زوجة نائب الشرطة لا تريده!

اقترب منها، وأمسك بمعصمها وجذبها إليه وقال: تحملت عذاب عام وأنا بعيد عنك، ونفسي معك، ثم عام وأنا بعيد عنك ونفسي حولك.

نظرت في خجل من الريش المتناثر حول الحجرة، من يدري؟ ربما يحبسها في البيت بعد أن يعرف أنها فقدت عقلها، وهل هناك انتقام أكبر من هذا؟ تمتمت: لطالما أردت قتلك.

دار بعينيه حول الحجرة والجنون يسيطر عليهما معًا، ثم قال في ثبات وهو يجلس على مخدعها: اقتليني.. أنتظر..

قالت بصوت خافت وهي تقترب منه وتتحاشى عينيه: لا تتحداني. ألم تخبرك جاريتك أنني مجنونة؟

أمسك يديها، وضغط عليهما ثم وضعهما على رقبته وقال: لا أحتاج لجاريتي لأعرف جنونك.

رفعت رأسها، ونظرت إلى عينيه وأصابعها ترتجف، ثم ضغطت على رقبته بكل قوتها. أرخت أصابعها بعد برهة، ثم اقتربت منه وحكت خدها برقبته وقالت في يأس: هل قتلتك يا أنس؟ أجب.

- قتلتيني مرات ومرات يا ميسون.

- أنت سبب شقاء كل أهل مصر، بل أنت سبب شقاء كل الناس من إفريقيا إلى الهند. جئت إليّ بعد أن أخبرتك جاريتك.. جاريتك لا تؤتمن على سر.

أزاح يديها في قوة، ثم قال في صوت أخافها: بل أنت لا تعرفين شيئًا؛ لأنك كنت كل شيء، كنت أنتظر النهار لأني سأصحو لأرى وجهك.

بقيت ساكنة، وقبضت يدها فأكمل: الحذر في عينيك، والغرور في ابتسامتك، والتحدي في أنفك، أحببت كل ما هو قبيح وليس جمالك فقط. هل تعرفين؟ هل يستطيع قلبك أن يعشق؟ لِمَ لم تتركي ابن المدبر يقتلني؟

قالت والحزن يخيم: أردت قتلك بنفسي.

- ستعرضين نفسك لانتقامه.

- لم يعد لديّ ما يستطيع أن يحطمه.

أحاط كفها بيديه ثم قال: أتحبينني يا ميسون؟

قالت بلا تفكير: لا. هذا ماضٍ وانتهى.

دفع بها في بعضه، ثم استقر فوق جسدها. فحاولت مقاومته، ولكنه رفع ذراعيها ونظر إلى عينيها وقال: شدة الغضب تشي بعشق دفين.

قالت وضربات قلبها تعلو: هذا حقيقي. وغضبك ليس بعده غضب.

ردد وهو يقترب من وجنتها ويقبلها قبلة طويلة، ولم تكن قبلة رقيقة، بل تخرج معها من داخله عنف جديد عليها ليس بعده غضب: لو كنت تحبينني..

صمت، وأغمض عينيه، وتنفس الصعداء ثم قال: لو كنت تحبينني فإنني قد قضيت أيامي في عذاب كالرماد.

تمتمت: الرماد أفضل من الظلام والظلم.

لم يفهم كلماتها ولم يهتم.

قال وهو يغرقها بقبلات مؤلمة تخرج القاتل الذي ذاب بداخلها: لو تدرين ما فعلت بي؟!

فقالت والدموع تتساقط من عينيها وهي لا تدري أهي دموع بسبب قبلاته المعذبة أم بسبب شوقها إليه، والقلب يتحرك مع الأنفاس الثقيلة: اتركني يا أنس.. لا ترغمني.. كبرياؤك لن تسمح لك أن ترغمني.

توقف عن تقبيلها، ونظر إليها ثم قال وهو يمر بيديه على ذراعيها: لو جاء ابن المدبر بجيشه وقطع رأسي الآن، ولو هوت كل نجوم السماء، ولو طويت الأرض على الأجداد فلن أتركك.

فتحت فمها لتكمل، فضغط على جسدها بجسده، قالت في صوت لاهث وصدره يخنق أنفاسها: أنا لا أحبك يا أنس ولا أريدك.

قال وكأنه لم يسمعها وهو يخلع عنها رداءها، ثم يمر بيده على كل جسدها: كنت أقول لنفسي إن لحظاتي بين ذراعيك هي لمحات من أيام الجنة، بها اكتمال

النفس ورضا القلب اللوام، كنت أقول إن فراقنا حتمي، وإن هذه اللحظات لن تدوم، أريدك بين ذراعي الليلة، أريد أن أتأكد لو كانت ستدوم.

قالت مسرعة وهي تحاول أن تزيح يده بلا جدوى: لن تدوم.

أمسك بذراعها، وضمها إليه حتى شعرت بأضلعها تتمزق، تأوهت، وحاولت دفعه بكل قوتها، ولم تستطع. طوقت رقبته وتمتمت: تظنني لا أستطيع قتلك؟

قال بأنفاس متقطعة وهو يلتهمها، ينهشها بكل جوارحه: تقتليني كل يوم. ما بال الموت معك! إنه حدث مستمر وليس له نهاية واحدة. آه من قتلك يا ميسون! إنه يستغرق الدهر بأكمله.

ارتجفت وهي تضغط بذراعيها على كتفه لتداري وجعها، أرادت أن تؤلمه كما آلمها، وألم القلب لا مثيل له. بدا أنه لا يبالي. غرزت أظافرها في كتفه، لا تدري.. تؤلمه ليبتعد، أم تؤلمه ليدفع ثمن فعلته؟

لم يبال، ربما لم يشعر، قبَّلها قبلة تصل إلى الروح؛ قبلة تذكِّرها بماضٍ كادت تنساه.. قبلة غير كل قبلاته المتقنة القاسية.. قبلة بها براءة وتردد، ضعف وقوة، وكأنهما لم يفترقا، لا غدرَت ولا تخلَّى.

ارتجفت دموعها قبل أطرافها. الأحشاء تعرفه أكثر من العقل، والجسد يشتاق إليه حتى والقلب غائص في مرارة الظلم. تاهت داخل غيابات اليم ولم تُفق بعد.

مر الوقت على ما يبدو وهما نصف واعيين، نصف غارقين. اشتعلت كل نجوم السماء ولم تخمد نيران الشوق. ليته ينطفئ بعد حين، بعد وقت، بعد عام أو دهر. يئس هو من رحيل الشوق، وعضت هي على شفتيها حتى سالت الدماء. استيقظ من غفلته والنار تحيط به.

رأته، لم تكن تحلم، رأته وهو يبقي فمه على صدرها باحثا عن ضربات قلبها
لحيا، شعرت بشوقه المتأجج الجامح وهو يتغلب عليه فيهمس: كم أحبك!

كانت له اليوم مرة ومرات. كلما همَّ أن يفيق تملكه الهذيان. وتناثر الفل حولها،
وانتشرت شظايا العظام فلم تعد في الجسد أي قوة، ولم يعد في الروح سوى اللين.

أحاطت جسدها بيديها، ثم ابتعدت عنه. فشدها في قوة ووضع رأسها على
صدره.

قرب كفها إلى فمه، ثم قبلها وقال: كنت أشتاق إليك شوق النجم للسماء ثم
هويت.. ماذا يهمي؟ أحبك. سنبدأ من جديد، بلا لوم. ما كان هو ماض به أذى
وضلال، وما سيكون لا بد أن نتحكم فيه. لو كانت هذه التجربة لم تقض على
الحب فلا شيء سيقضي عليه بعد ذلك. لا أنت من تركتها منذ عامين أو يزيد،
ولا أنا من تركتك منذ عامين أو يزيد، ولكن التحام الروح لا يتغير مع الزمن.

نظرت إلى آثار حرب ضارية على جسديهما. تنفست في إعياء، وقالت: ماذا
فعلت بنفسي؟

ابتسم، وقال وعيناه مغمضتان: أحببتني بكل قلبك، وقتلت قلب وحش
كاسر في الصحراء.

لابد أنها تعبت من تعب لم تشعر به في كل عمرها الماضي. فقد الوعي معه،
أو استغرق في النوم ساعة أو أكثر، وعندما استيقظت طوقت رقبته وقالت في
صوت غاضب: نعم أحبك، تريد أن تعرف؟ أحبك حتى إنني فقدت عقلي عندما
تركتني ولم أفرق بين أمي وأختي. أحبك حتى إنني تركت الظلام يسيطر على ما
بقي من حكمتي ومحوت كل ما تعلمت. أحبك حتى إن الظل لم يعد يتركني منذ
رحلت. لو سامحتني لأنني أردت تعذيبك وهزيمتك، فكيف أسامحك أنت وقد
أفقدتني صوابي وعقلي؟

نظر إليها بلا كلمة، ثم قال في هدوء: لو فعلت فأنا أطلب صفحك.

قالت في تهكم وهي تنشج من دموع لا تتساقط: أنس يطلب الصفح! هذا أصعب من ترك والي الخراج لمصر.

قبل كفها ثم قال: ولكن والي الخراج سيترك مصر، وأنا أطلب منك أن تسامحيني، وأعدك أني لن أتركك مرة أخرى أبدًا.

قالت في مرارة: لا تَعِد بما لا تستطيع أن تفي به.

- أقسم إني لم أرَ غيرك حتى لو عاشرت المئات، وإن امرأة غيرك لم تسر إلى حشا القلب ولا غاصت داخل الروح. في بيتنا الجديد في المدينة الجديدة سنكون أنا وأنت فقط.

بقيت صامتة فأكمل: لا جواري حولك يا ميسون، ولا زوجة غيرك.

نظرت إلى الريش المتناثر حول الحجرة ثم قالت: ألم تلاحظه يا أنس؟

قال وكأنه فاقد الوعي: نلملمه معًا.

ثم قال في جدية: أقسم إني لم أشعر بالرضا إلا بين ذراعيك، ولا ارتوى قلبي إلا من ثغرك أنت.

- تتكلم كلمات الأشعار فتلهو بما تبقّى من عقلي. أتريد زوجة مجنونة يا أنس؟ أدرك أحيانًا حد جنوني، وكثيرًا لا أدرك. ستغطي فضيحتك على فيضان النيل، وتغرق كل ما تبقّى من دنياك. لم أعد أعرف نفسي.

قال بلا تفكير: أريدك أنت بكل جنونك.

ساد الصمت. ما تبقّى من فتات العقل يريد أن يستوعب حجم ما خسر وما كسب، ولا يستطيع.

ثم طوقت كتفه وقالت: كيف هو بيتنا في القطائع؟

همس وكأنه نسي كل الماضي: هو بيت يليق بك يا بنة القاضي، فيه فوارة ونوافذ خشبية، بيت واسع، وله سقف عالٍ، يدخل النور من كل جوانبه.

قالت وكلماته تشبع غرور النفس: هل كنت تفكر فيَّ يا أنس وأنت تبني البيت؟

أكمل وكأنه لم يسمعها: سننجب الكثير من الأولاد، أردته بيتًا كبيرًا، فلطالما تمنيت عائلة كبيرة. تعرفين كنت أعيش مع أبي وأخي و...

تكلم ساعة أو أكثر، لم تسمع كل كلماته، يتجلى النهر ويغمر الليل العيون. لحظات الالتحام والحنو تمحو كل الذكريات. عندما يفتح القدر ذراعيه يبدأ العمر في الاعتدال.

انتهى سعيد بن الفرغاني من بناء البيت في أشهر كما وعد، وكان بيتًا لم ير أنس في روعته.. كان مضيئًا ممتلئًا بالدفء. جاءت ميسون إلى البيت مع أمها وأختها يحملن ملابسها وزينتها. لمعت عيناها فرحًا به.

***

- 11 -

بعد أسبوعين وصلته رسالة من عَلِيّ في الفارما يقول فيها إنه يحتاج إلى بعض المال، وإن الصيد لم يعد كما كان. لم يكن من عادة عَلِيّ أن يشكو أي شيء. وبدا له أن ثمة مشكلة تواجه أخاه وهو لا يعرف عنها شيئًا.

لملم بعض الملابس، ثم أخبرها باقتضاب أنه سيسافر إلى أخيه، وأن هناك حارسين على البيت، وأنه لا يريدها أن تخرج من البيت حتى يعود. حاولت أن تسأله، ولكنه لم يجب.

هرول إلى الفارما وقلبه مقبوض. وعند وصوله سمع صرخات جميلة، ووجد أخاه معلقًا على لوح خشبي بعد أن مزقت السياط كل جسده، فامتزجت الدماء بالجلد والعظم. أمسك باللوح بيده، وبدأ يفك قيود عَلِيّ وهو مغمض العينين. قال لجميلة: هاتي بعض الماء بسرعة.

فقالت في يأس: يا أخي، لقد فارق الحياة منذ ساعة. لا تتعب نفسك.

نظر إلى عيني أخيه المغمضتين، ثم هزه في قوة وهو يطلب منه أن يتحرك، لكنه لم يتحرك.

قالت جميلة وهي تلهث: رجال ابن المدبر طلبوا منه الأموال ولم يكن يملك شيئًا. أعطاهم الأموال التي بعثت بها له كلها ولم يكتفوا. قالوا إنه يتاجر في السمك سرًا. واتهموه بأشياء وأشياء، ثم ربطوه وجلدوه حتى الموت. حدث كل شيء بسرعة في اليوم نفسه، لم يكن هناك وقت لأخبرك و...

لم يزل يحاول إيقاظ أخيه ويتكلم معه دون توقف.

بعد مضي ربع ساعة، توقف ثم قال لنفسه ولها: ابن المدبر.

قالت جميلة في خوف: يا أخي، أعتقني وسأذهب إلى عائلتي، لا شأن لي بكل هذه المصائب.

لم يجب، حمل أخاه بين ذراعيه ثم قال: سأدفنه في القطائع بجانب بيتي، اذهبي حيث شئتِ.

لملمت أغراضها، ورحلت في دقائق. وضع جثة أخيه على حصانه، وقبل أن يتحرك وجد نفسه محاطًا برجال ابن المدبر. قال رجل: لم يأمر الوالي بدفن الثائر. لقد رفض أن يدفع ما عليه.

قال أنس في حسم: أفسح الطريقَ حتى لا أقتلك هنا.

أخرج الرجل سيفه، فأخرج أنس سيفه ثم قال: لو أردت الدماء فلنتقاتل إذن.

- هذا أمر والي الخراج.

- لو لم تبتعد عن طريقي أقتلك أنت وصديقك، ثم أدفن أخي.

أشهر الرجل سيفَه، فبتر سيف أنس ذراعه، ثم اخترق قلب الآخر. تملكته قوة الجان والشياطين. علت الصرخات ولم تهدأ روحه. احتضن جثة أخيه، ثم نظر للرجل وهو يصرخ وذراعه على الأرض، وغرز سيفه في رقبته قائلًا: أريد أن أريحك من حياة كلها ظلم.

ثم رفع أنس لجام حصانه وجرى به بأقصى سرعة، وجثة أخيه تنبض من حركة الفرس، فيبدو كأنه يتكلم معه ويؤنبه على أنه يغضب كثيرًا ويأسى على ما فات وما قد يأتي.

صاح بأعلى صوته: تكلم يا عَليّ..ماذا تريد أن تقول؟ ألم أقل لك الغار في مصر ليس بآمن؟! من كان على صواب يا أخي؟

وسار به متجهًا إلى القطائع، لم تتساقط دموعه، بدا أنه فقد كل مشاعره: الأب ثم الأخ. لم يعد له أحد. عند وصوله للقطائع دفن أخاه وحيدًا وصلى عليه وحده. ابن المدبر لن يموت فقط، الموت راحة وهناء.

***

سار في اتجاه المسجد، ذهب إليه مغاضبًا منذ عام أو أكثر، وعاد إليه اليوم والغضب قد استكان وتبدل حاله، واحتل الغم مكانه.

عند دخول الزاوية سمع الشيخ يسلم عليه فلم يجب. رفع كفيه مكبرًا، وبدأ يصلي في إتقان وبطء، عند السجدة الأخيرة تأخر في رفع رأسه، فلم يقم وبقي ساكنًا زمنًا.

نظر إليه الشيخ في إمعان، ثم ابتسم الشيخ في رضا. بعد أن انتهى قال الشيخ: تكلمت معه؟ شكوت إليه؟

فقال أنس: الشكوى اليوم طويلة..

- في التسليم اعتراف بالعجز أمامه، وفي الاعتراف بالعجز أمامه الوصول إلى القوة.

- هو الأقرب إليك، حتى في لومك وغضبك كان دومًا الأقرب إليك. ربما لم تع ولم تشعر، ولكنه كان بداخلك يحملك ويسكن أعماقك، ربما من شدة قربه لم تره. فعند شدة القرب يصيب الإنسان الفزع، الضوء الساطع يحرق العين فلا تعرف إلى أين تسير ولا ما النهاية.

- ربما لو أرشدتني، عذابي أصبح عذابين، وحسرتي حسرتين وغضبي غضبين.

- هو ليس غضبًا منه، هو غضب من نفسك اليوم. لا إرشاد مع النفس سوى النفس. لو اعتدت الضوء الساطع يصبح بصرك أكثر حدة، ولو سلمت

بجهلك تصل إلى منتهى المعرفة، ولو سلمت بعجزك تصل إلى منتهى القوة. هو كريم حينما يخطئ العبد، وهو كامل عند خطأ العبد، وهو رحيم عند ذنب العبد، يغفر..هذا أكيد. تذكر حتى لا تضل.

- ماذا تريدني أن أتذكر؟

- فكر في أن الإنسان يسعى للانتقام، ثم تتغلب مشيئته على كل المساعي. هي كذلك دومًا. أحيانًا عندما تعفو أو تنسى تستعيد قوتك وسيطرتك على نفسك.

- هذا لا أقوى عليه.

- لا تجعل شدة شغفك تحرق كل روحك وكل روح أحبائك.

قال أنس بعد برهة في يأس: لم أعد أعرف.

فقال الشيخ في يقين: لا ملجأ من الله إلا إليه. عندما تعييك الحيل الجأ إليه، هو يتحمل غضبك ويصبر على شكك وقلة بصيرتك. هو خلق النفس ويعرف أنها أمام الابتلاءات. لو تركت النفس تتكسر أمام الكره والغضب ظلمتها وهي تستحق ما هو أفضل، ربك يتحملك لأنه يحبك، لا تقابل حبه بالغضب فقط، اجعل في قلبك رحمة ورقة، وتذكر صفاته وكرامه حتى لا تتوه في دهاليز اليأس، هو اليأس عدو للإيمان دومًا. اجعل يقينك به يتغلب على يأسك من عباده. كلنا إليه، هو الغاية يا بني، كلما تركت الغل يتوغل في نفسك، رأيت ابن المدبر في ملامحك وحينها لن تستطيع التخلص منه ولا محاربته فسوف يسكن نفسك.

- لا فوز بلا قوة.. ولا عدل بلا سلاح.. يا شيخ..

قاطعه الشيخ: القوة في عزل النفس عن الكره والحقد وليس في خرق العيون وشق الأبدان.

***

راقبت ميسون زوجها في قلق أذهلها، وكأن نفسها قد سارت وحيدة وسط الحقول، تائهة ويائسة. لم تكن بهذا الوهن قط. دخل حجرته ومنعها من الدخول. أخذت تتقلب على مخدعها! مات عَليٌّ أو قُتل. قتله ابن المدبر. ترى أهي سبب كل مشاكله، أم هي وسيلته للانتقام؟ تتذكر وجه عَليٍّ الباسم وأمانيه القليلة. تتذكر ضحكته الصافية وتلقائيته وطيبة قلبه. لا امتلكَ مرارة أنس ولا حقدَ أنس. الموت دومًا للبراءة قبل أي شيء. سمعت صوت باب حجرته يُفتح. ربما يبحث عن الماء. قامت بلا تفكير، وفتحت باب حجرتها التي تنام فيها ونظرت إليه وهو يسير وكأنه خارج هذا الكون، لا يرى ولا يسمع. أمسك بقدح الماء، وشرب منه، ثم نظر إليها فجأة، حدَّق كل منهما في الآخر بلا كلمة.

قالت في صوت خفيض: عَليٌّ كان خير الرجال. ولكنه الموت، يأتي دومًا.

قال بلا تفكير: نعم يأتي دومًا للضعفاء.

فقالت مسرعة: لا أعرف قويًا يحيا إلى الأبد.

نظر إليها مرة أخرى في شيء من الارتباك وكأنه لا يعرفها، وترددت قليلًا، نظرت إلى الماء، تقلبت عيناها واستدارت، لم تعد ترى وجه ميسون في الماء الصافي، ارتبك الماء، وتعكر بوجوه كثيرة، ثم تجلى وجه أنس صافيًا بعينين كلهما أنين. اقتربت منه، واحتضنت ظهره بلا كلمة. انسكب حنان مختلف معصوم من الأنانية ومن اللوم، ضغطت برأسها على ظهره، ثم همست بعد حين: حزنك يفتت الدماء، ويقطع الأحشاء، يخترق لظى الجوف المحترق. حبيبي.. تعال معي.

تركته في بطء، وأمسكت بيده، وأجلسته على مخدعها، ثم دفعت به وغاصت داخل صدره. تمتمت: أتعرف.. لن أغضب منك مرة أخرى ما حييت. نفد الغضب من نفسي.

ابتسم في مرارة ثم قال: كان غضبًا طويلًا يا ميسون.

- أقسم لك لن أغضب منك مرة أخرى مهما فعلت، ولكن لا تحزن، حزنك ينفذ إلى الأعماق فيفقدني القدرة على التنفس.

أحكم ذراعيه حول كتفيها. بدا لها أنه تأوه ربما لم يبك ولكن خرجت منه «آه» تصدع كل بيوت القطائع. لم تعرف هل تتكلم أم تصمت.

قالت بعد برهة: فُتنت بكرهه والكره فتنة كما الحب.

قال وهو يفضي إليها: لو قتلني أنا كان أفضل. كنت أريد الموت، لكم حسدت أبي على شجاعته، وكان هو يريد الحياة، كنت أنا مثل أبي وكان هو مثل أمي. الاثنان ماتا مبكرًا، وبقي أبي ليتعذب ثم تركني اليوم وحيدًا بلا شيء سوى ذكريات أكثرها مر وختامها هزيمة وضلال.

نطقت اسمه بصوت لم يفهمه، ثم قبّلت خده وقالت وهي تمر بيدها على وجهه وشعره: لا تحزن، لابد أن هناك مخرجًا، سيجعل الله لنا مخرجًا.

***

عندما خرج كان قد عزم أمره أنه سيعاقب رجال ابن المدبر. عندما يشيع الخوف من العواقب بين رجال والي الخراج سيردعهم هذا عن نشر الموت من حولهم. أمر رجاله بالإتيان بكل من أسهم في خطة قتل أخيه ليلًا، ثم ربطهم وجلدهم حتى الموت، كانوا ثلاثة رجال، شهد على موتهم وصُراخهم وتوسلاتهم، ظن أنه سيشفق ولم يشفق، ظن أنه سيغفر ولم يغفر. عند موت الثلاثة، أخرج جثثهم، ورمى بها أمام بيت والي الخراج وأمام رجاله ليروا ويتعظوا، بلا كلمة وبلا رسالة.

استشاط ابن المدبر غيظًا، يعرف من الفاعل، تمكنت الأيام من رجاله، وسيتمكن هو والي الخراج من أنس، سيعذب قلبه قبل أن يموت، سيذبحه ببطء. اليوم قتل أخاه، وأمس قتل أباه وعندما تكون ميسون له ويشهد أنس على حبها

سيتمزق كفضحايا الكلاب البرية بلا موت، سينتزع لحمه قطعة قطعة. وما دام أحمد بن طولون في مصر فلا أمل في التخلص من أنس.

***

ليلًا تسللت إلى مخدعه، وطوقت ظهره بلا كلمة، لم ينم ولم تنم.

سيفكر في جثة والده وأخيه، سيفكر في ضياع العمر ووطأة الظلم. وضع يده على يدها، وضغط عليها، لمَ يشفق عليها؟! ولمَ يشعر أنها تائهة بلا ملجأ بدونه؟!

عند منتصف الليل سمع دقات الباب، الجارية تطلب منه القدوم. ترك زوجته نائمة، وارتدى ملابسه، رسول أحمد بن طولون كان ينتظره ويريده الآن عند الميدان، توقع وعرف، لامه ابن طولون وأغلظ عليه لأنه قتل رجال ابن المدبر، فقال حينها إنهم ماتوا من الجلد. ولكن أحمد عدد له الرجال الذين قتلوا منذ أصبح نائبًا للشرطة. الكثير من رجال ابن المدبر وأتباعه، الخليفة لن يتجاهل ذل والي الخراج ولا التهديد الذي يواجهه، عاد أنس إلى بيته والكلمات تهدئ وجعًا يأكل جسده. لو أرّق منام ابن المدبر فهو راضٍ ولو أذله فهو في راحة وهناء. عندما يتفشى الحزن يأكل اللحم كالجذام، لا علاج للجذام سوى رحمة الله. من قتل يقتل ولو بعد حين. ورحمة الله للضعفاء قبل الأقوياء ولكنه لا يعرف لو كان يستحق المغفرة. ليته يندم ولكنه لا يندم، ولو قتل كل رجال ابن المدبر فلن يندم.

عندما عاد وجدها نائمة، نام بجانبها دون أن يوقظها. فدست رأسها في صدره، ثم قالت في خوف: أتظن أنه مس من الجنون، عندما أرى الظل وحدي أو لا أرى غيره، أعني.. عندما تنال مني وحدتي يصبح العيش مستحيلًا، وتهوي نفسي أمام أول ظلام وأول شك، لا حيلة لي في سجن النفس ولا في ضيق الروح، عندما تكون حولي، ولو بعيدًا، تتسع الروح وتطمئن. ولكن أخشى أن يكون أصابني مس من الجن.. سيقولون: ميمون زوجتك من المجاذيب. ولو تركتني أسقط في قاع الحيرة.

وضع يده على شعرها، ثم قال في حسم: أموت، بل يقطع جسدي كالأسماك المتوحشة قبل أن أتركك. أقسم لك، لن يحدث.

***

بعث ابن طولون الرسائل لابن الشيخ، ولكن ابن الشيخ لم يستجب. عزم أمره على الاستقلال، وتوغل رجاله في بلاط الخليفة فلم يخش عواقب ثورته. اضطر أحمد إلى أن يخرج بجيشه إلى الشام، وخرج بكل مجموعات الجيش وهو يتمنى ألا يواجه ابن الشيخ ويعرف أنه حتى ولو هزم ابن الشيخ فسوف يخسر الرجال ولن يستطيع الخليفة معاقبة ابن الشيخ. عاشر أحمد الخلفاء العباسيين ودسائس الحكم، وعرف أن الرقعة عندما تتسع تصبح السيطرة مستحيلة؛ خليفة يقتل، وآخر يعزل، وثالث يفقد سطوته. تعلم في سامراء ورأى، ومن لا يربط الصورة بالكلمات لا أمل له في أي حكم.

ولكن الأجداد كانوا على ما يبدو يتابعون خطوات أحمد أو هكذا اقتنع. فعندما قتل زوج أمه ولي أمر مصر حنوه واليوم كاد له ابن المدبر فأنقذ جيشه. وصلت رسالة من ابن المدبر إلى الخليفة تحذره من أحمد بن طولون، فلو انتصر على ابن الشيخ ربما يأخذ الشام، وربما يستأثر بمصر، وربما تقوى شوكته ويصبح عزله مستحيلًا. انتصار الجيوش يُذهب العقول. بعد أن ذهب جيش أحمد لمواجهة ابن الشيخ استوقفته رسالة للخليفة تأمره أن يعود إلى مصر. ثم خرج ماجور التركي ليواجه ابن الشيخ بجيوش الخليفة، وانتصر على ابن الشيخ ولكنه لم يقتله فقد فرّ إلى أرمينية.

عاد أحمد بن طولون بجيشه كاملًا. وبدأ التفرغ لمصر.

تجرأ أحمد وقرر أن يعزل هو ابن المدبر. لو كان الخليفة لم يهتم بموت شقير، ولو كان لأحمد جيش من مائة ألف رجل فربما يدرك الخليفة قوته اليوم. وطلب من أنس أن يذهب بالجنود إلى بيت ابن المدبر، ويخبره أن والي مصر أبا العباس

أحمد بن طولون قد قرر عزله، وأن عليه أن يغادر مصر قبل مرور يومين، وعين بدلًا منه ابن هلال واليًا للخراج.

لكل جواد كبوة، والجرأة أكبر الكبائر، تبعث الأموات، وتخرج الخوف من الأرواح الخامدة. أحمد بن طولون عزل والي الخراج دون إذن الخليفة، بل عين غيره. كانت محاولة لعبور الزمن وتوطيد الأركان. كانت محاولة لتحقيق الحلم. ظن مخطئًا أن المدينة التي لم يبنِ لها أسوارًا ستحميه. ظن مخطئًا أن مائة ألف رجل سيغيرون مجرى النجوم وحركة الشمس، ظن مخطئًا أن الأجداد تقف معه وتنظر إليه من أعلى، وأن النجم الذي هوى يشي بالنهار القادم والشمس الساطعة. تعجل فوقع. هذا مصير كل من تسول له نفسه الاستقلال بتلك البلاد! أمره الخليفة المعتمد أن يعيد ابن المدبر إلى منصبه على الفور. وبدأ الشك يتوغل في قلب الخليفة، أرسل ابن المدبر رقعة طويلة شرح فيها ما كان من أحمد بن طولون.

***

رسالة إلى الخليفة بهذه الأهمية لا يمكن أن يبعث بها ابن المدبر مع رجل عادي، وبعد موت شقير يريد أن يختار رجلًا أهلًا للثقة، ورجلًا به خبث وقدرة على الحوار والإقناع. سرد ابن المدبر في رسالته أفعال أحمد بن طولون في العامين اللذين قضاهما في حكم مصر، حكى بالتفصيل عن المدينة التي بناها، اقتطع كل جندي من جنوده أرضًا بها وعمرها في أقل من عام. من يبني مدينة لجنوده لا ينوي أن يبرح البلاد، عندما بنى عمرو بن العاص الفسطاط كان يريد عاصمة جديدة لمصر بعيدًا عن الإسكندرية. وكان يعمل للخليفة وليس لنفسه وكان جنده من العرب، وعندما بنى بنو عباس مدينة العسكر كانت لعساكرهم وليس لوالٍ ولا لجنوده. أما أن يبني أحمد القطائع وينوي أن يبني قصرًا قارهًا على حدودها فهذا يشي بخيانة وغدر، أحمد لا ينوي أن يبرح مصر اليوم أو غدًا. هكذا كتب ابن المدبر: من يبني لا يرحل، ومن يرفع الأعمدة يصعد إلى عرش القدماء. أحمد لا يعدل، ولا يعرف شيئًا عن الإنصاف، ومنذ جاء وهو يُضيق على والي

الخراج، بل أثبت والي الخراج أن أحمد وأعوانه هم من سرقوا خراج الإسكندرية. بل لقد عين أحمد جاسوسًا قاتلًا يتهرب من دفع الضرائب اسمه أنس، ولو عين الوالي نائبًا للشرطة هاربًا من القتل ولو سرق ونهب فلا أمان له. لقد بدأ يتصرف دون استشارة الخليفة، بدأ يتعامل مع الخلافة مثل ابن الشيخ، بل أسوأ، فابن الشيخ لم يجمع حوله جيشًا كهذا. لقد تجرأ وكسر كلمة للخليفة عندما عزل والي الخراج دون إذن الخليفة. أحمد لا بد أن يرحل، وبما أن الخليفة يُبقي زوجته وابنه في العراق فلن يقاوم ولن يغدر، مع أن طبع أحمد الغدر والخيانة.

لم يفكر الخليفة كثيرًا قبل اتخاذ قراره، كان قد استشعر انفراد أحمد بمصر منذ بنى مدينته وكوّن جيشه. ولكنه يعرف أيضًا أن للجنود قوانين وحسابات، وأن تصرفاته وردود فعله لن تكون دومًا كما يتوقع الخليفة.

فلو أمر الخليفة أحمد بالعودة إلى بغداد فورًا وتسليم حكم مصر لآخر فربما يرفض وربما يحارب، ولو هدده الخليفة بزوجته وابنه فمن يدري، ربما يضحي بهما. لا بد من خطة محكمة للتخلص من أحمد بن طولون؛ لذا فكر الخليفة بمساعدة ابن المدبر في الخطة السريعة. سوف يأمر الخليفة بأن يذهب ابن المدبر إلى مصر ليتسلم حكمها بجيش كبير، وفي نفس الوقت سوف يبعث لأحمد بن طولون برسالة كلها ود وملاطفة، يخبره أن هناك ولاية أفضل تنتظره، بل إن مكانه سيكون في بغداد بجانب الخليفة، وإن استدعاه الخليفة بأسرع وقت فلن يجد أحمد بدًّا من العودة. ابن المدبر على يقين أن أحمد لن يُضحي بابنه، فابنه هو كل ما يملك حتى لو ضحى بزوجته.

وصلت رسالة الخليفة لأحمد بن طولون، قال فيها الخليفة:

«أما بعد، فإنا رأينا أن نرد إليك أمر دارنا بالحضرة، وتدبير مملكتنا، فإذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على مصرك من أحببت، والبلد لك وباسمك، وأشخص إلينا لما ندبناك إليه، ورأيناك أهلًا له، والسلام».

وفهم أحمد بن طولون مغزاها والتهديد غير المعلن، وعرف أن وقته في مصر قد انتهى.

***

انتهى عصر ابن طولون قبل أن يبدأ، ولم يبق في مصر سوى عامين. هكذا قال المصريون في سخرية. ولكن لا بد من الاعتراف بأن بقاء والي في مصر عامين إنجاز ليس بعده إنجاز. ويوم وصل أحمد بن طولون مصر سقطت نجمة من السماء، وهذا فأل شؤم بالتأكيد حتى لو قالت ساحرة الهرم الخرقة: إن الأجداد يحيون مجيئه وإضاءته لنور الأرض والمعابد، ضل من يتبع المنجمين. ابن المدبر لن يبرح مصر. اعتاد المصريون والي الخراج منذ دهر أو يزيد. تعلموا في الألف عام الماضية أن المصلح يفنى، وأن من يجمع الأموال ويبسط يديه بالسيف يصل. تعلموا أن آخر عهد لهم بالرخاء انتهى، وأن الأيام «نداولها بين الناس»، وأن البشر ليسوا سواسية، وأن طوفان نوح وبحر موسى هو آخر عهد لهم بالأجداد. الأجداد... لا يعرفون عنهم الكثير، ولكن الذهب دومًا في أحشائهم، يعبدون الأوثان ربما، ولكن بناياتهم ممتلئة بالسحرة والشموخ. قيل: إن علم النجوم من اختراعهم وإنهم دفنوا في رقاب ملوكهم كل أسرار السحر والمعرفة. قيل: إن الأجداد تقدس المعرفة وتمنعها عن كل فاتح وكل طامع. بل قيل: إن الأجداد يحتكرون المعرفة في قبورهم مع التوابيت الخشبية والأواني الفخارية التي تحدت كل الأزمنة.

لم يعرف أحد حلم أحمد. فلا فائدة من معرفة الحلم. ولو حتى كان أحمد قد انتصر في معركته اليوم فسيبقى أمامه آلاف المعارك. هي أرض مؤججة بالمعارك. كل من يمر طامع، وكل من يبقى مُريد. والمطالب هي مفتاح السر، فالمطلب هو الكنز الدفين، ودخول القبور مستحيل. يا حسرتنا على أحمد، بنى مدينته أو كاد، انتقل إليها المصريون بالأفران والدكاكين والأسواق والشواء، ثم جاء أمر الخليفة.

يقولون: إن الخليفة يُبقي زوجة أحمد وابنه رهائن عنده. فلو فكر أحمد في الاستقلال بمصر فلن يرى ابنه بعد الآن، وابنه هو كل حياته. لكل رجل هوى، ولكل رجل موضع لين يمكن خرقه وتدميره، وأحمد يعشق زوجته وابنه. بل ابنه أولًا. من لا يحب ابنه؟! ومن لا يريد أن يصاحبه طوال العمر؟! يا حسرتنا على أحمد وجيش أحمد. سيتبعثرون في الأرض كالجراد المنتشر، وربما يستدعيهم الخليفة ويخرج بهم في معارك خاسرة فيفنون قبل مرور العام. أما ابن الصياد، فكل مصر تعرف مصيره، سيفتت تحت سكاكين ابن المدبر، ثم يرى زوجته بين أحضان ابن المدبر، ثم يحترق في أفران القطائع مع فتات الخبز القديم، ثم يرى زوجته من جديد، ثم يقطع ابن المدبر لسانه حتى لا يصرخ، ويدخل الخازوق في أحشائه فلا يموت، يا حسرتنا على ابن الصياد. ولكنه تجرأ، أراد الانتقام على ما يبدو. الهروب الآمن أفضل من الشجاعة الحمقاء، أحمد تجرأ وحلم، وابن الصياد تجرأ وأحب، وابن المدبر لم يتجرأ فقد عرف وأبصر ما لم يبصروا. هي أيام نداولها بين الناس، دنت الأيام منذ ألف عام، ثم ابتعدت وأصبح البَيْن مكتوبًا لا محالة، والهزيمة قريبة دومًا وابن المدبر عندما يموت سيأتي مائة غيره أو يزيد. ماذا أراد أحمد؟ لم يفهم الكثيرون، بنى مدينة، وأقام جيشًا، ولِمَ؟ وفيمَ يطمح؟ يقولون: ميسون بارعة الجمال، ترى هل سيقتلها ابن المدبر أم سيرفق بحالها؟ ولكنها هي فقط موضع اللين لديه، لو ذهب كل أهل مصر إلى ميسون يطلبون الرحمة! ربما تفيد الشفاعة وربما لا.

***

خبر عزل أحمد بن طولون من ولاية مصر صدم أنس كالأمواج العاتية التي غاص فيها والده منذ عدة سنوات. استقر الأمل وأنبت الثبات أفرعًا خضراء، ثم جاءت النهاية سريعة وغير متوقعة. وعندما يرحل أحمد يقسو ويعاقب ابن المدبر. يعاقب مَنْ تجرأ على الحلم، ومَنْ حاول المعرفة، هذه طباع رجال الخليفة وأصحاب الولايات. لا بد من معاقبة مَنْ عرف ومَنْ تمنى، فالمعرفة والتمني

حكر على الحكام وخطيئة لغيرهم، فليبق كل في مكانه، لا داعي لتغيير المواضع ونبش الأرض وإخراج الديدان والجواهر. فليبق كل في مكانه، لا داعي لبناء جدار ولا بيت ولا صومعة، فالبناء يدعو للتأمل والأمل، والأمل يدعو للمعرفة، وقد رددنا أن المعرفة حكر وخطيئة.

قال أحمد بن طولون في معرفة وهدوء لأنس: فاز ابن المدبر هذه المرة يا أخي.

- يا مولاي، لو بعثنا إلى الخليفة أو لو تركتني أسافر إلى بغداد، وأتكلم مع الوزير فربما تنجح في تغيير القرار، لقد نجحت من قبل، وسأنجح هذه المرة.

قال أحمد في حسم: لا بد أن تعرف متى تتوقف عن المقاومة، ومتى ترفع راية السلام.

- لا راية سأرفعها أمام ابن المدبر.

- أنس، أبعد حقدك عن هذه المسألة. في الحكم لا بد من عزل القلب عن العقل.

- هو لن ينتصر.

التقت أعينهما، ثم قال أحمد: لقد انتصر، وانتهى الأمر، ولكني سأعود، هذا أكيد.

- هل تنوي الرحيل؟

ساد الصمت، ثم قال أحمد: ابني العباس.. هو كل ما أملك، لكم حلمت به أيضًا وكان غارقًا في دمائه. ليس لك أولاد يا أنس، ستعرف عندما تنجب.

- أعطني فرصة أحاول.

- سأفكر في الأمر، يهمني أمر مصر، بل يغمرني أمرها ويسيطر على خلجات النفس، ربما لا بد من زيارة الساحرة لتخبرنا مرة أخرى لم تساقطت النجوم.

***

أما ابن المدبر فلم يكتمل انتصاره بعد، أراح ابن المدبر رأسه على مقعده. جاء وقت الراحة بعد هم وتعب، كادت الأمور تصل إلى مدى مريب، ولكن جاء الاستقرار والهدوء، لم يزل لا يصدق أن أحمد عزله من منصبه بكل وقاحة وافتراء. ولكن أحمد دفع ثمن تجرئه. فعندما أعاد الخليفة ابن المدبر كانت أول هزيمة لأحمد أمام أعين المصريين والجيش وكل بني عباس، ثم أمر الخليفة بعزل أحمد.

قال أبو شعرة: بإمكانك أن تقتل زوجها اليوم وتصبح لك، هذه المرة لن يوقفك أحد.

- يا أحمق، أقول لك أحبها فتتكلم معي كأنني بلا قلب.

- تعني ستبقي على حياة زوجها من أجلها؟

صمت برهة ثم قال: ربما تحبه، لا أريدها أن تكون تعيسة، لو قتلته فقد حفرت مكانه في قلبها إلى الأبد.

- لا أفهم يا مولاي.

- أريدها أن تعرف حقيقته، وتعرف من يحبها حب قيس لليلى، ومن يحبها حب السارق للكنز.

- هذه الكلمات العميقة تحيرني يا مولاي.

- لأنك لا تفهم في الأشعار والحب، عندما أعطيها الاختيار ستأتي إلي طواعية.

- أتريد أن تخدعها؟

- ولمَ أخدعها؟ من يستحق حبها أنا أم ابن الصياد؟

- أنت بالطبع يا مولاي، لا يوجد مقارنة.

- وهي ستعرف هذا. أريد فقط أن أتأكد أنها ستعرف حقيقته قبل أن يذبل قلبي شوقًا إليها، ستعرفها عن قريب جدًا.

***

استدعاء ابن الصياد إلى بيت ابن المدبر لم يقلق أنس، تصور نفسه وهو يذبحه أمام رجاله، كلما استنشق رائحة الدماء واستطعمها في فمه هدأ وتمنى. لا يعرف لم يريده ابن المدبر، ولكنه يعرف أنه تمنى هذه المقابلة في أيامه الماضية حتى يقطع رأسه على مهل، مع أنه لن يفعل.

نظر كل منهما إلى الآخر، ثم قال ابن المدبر في هدوء: لم يتسن لي أن أعزيك في موت أخيك.

لم يجب أنس.

فأكمل ابن المدبر: أنت لا تعرفني يا بن الصياد، لو كنت تعرفني كنت ستدرك أنني أفضل اللعب عن الشدة، والشعر عن الجلد، ولكني مضطر، هو عملي، عليّ أن أكون شديدًا، كما كان والدك يقتل الأسماك التي تأتي واثقة إلى شباكه لتأكل في أمان. أي قسوة هذه؟ وأي ذنب اقترفت الأسماك؟ تود قتلي في التو واللحظة. أعرف، بل ربما تريد تعذيبي أولًا.

بقي أنس صامتًا يطبق شفتيه.

أكمل ابن المدبر: يمكنني أن أبقي على أحمد بن طولون في حكم مصر. ولكن لو فعلت فستكون نهايتي بالتأكيد، فهو يبغضني كما يبغض السمك خداع الصياد، أو يرحل أحمد وأقتلك وأتزوج من ميسون، لك الاختيار.

لم يجب أنس، يعرف أن أي كلمة تخرج نتيجة غضب ستودي بحياته.

أكمل ابن المدبر: تنقذ كل مصر، وتترك ميسون، وأعدك أني لن أرغمها على شيء، فكر في الأمر.

قال في حسم: لن يحدث مولاي.

- لا تتركها إلا بعد أن يوافق الخليفة على بقاء أحمد، سوف ألغي الضرائب على صيد البحر وعلى النطرون وعلى الأغنام والزرع. سأكتب رقعة بهذا، لا تتركها إلا بعد أن أبعث بها إلى الخليفة، سيشهد الرجال على كلامنا، وسيشهد عليه أحمد نفسه.

فتح أنس عينيه، وبلع ريقه، ترك سلاحه بالخارج، هل تستطيع يداه أن تخترق قلب والي الخراج.

أكمل ابن المدبر وهو يقترب منه: ولو رفضت ميسون زواجي منها فلن أتزوجها، مصير كل مصر بين يديك وكذلك مصير أحمد. ابن الصياد أصبح يملك زمام بقاء الوالي، وإنقاذ رقبة الفلاحين والصيادين وكل أهل البلاد، هي امرأة لا أكثر. تنقذ الآلاف وتضحي بنفسك أم يلقى كل أهل مصر مصير أخيك؟

قال أنس في حسم: يلقى كل أهل مصر مصير أخي.

- ربما ميسون لديها رأي آخر.

قال أنس: ليس لها رأي لأنها تعرف.

- ماذا تعرف يا أنس؟

- تعرف أني عاهدت نفسي أن أقتل من يأخذها مني وأقتلها معه.

رفع ابن المدبر سيفه، وضعه على رقبة أنس ثم قال: لا قُدرة لك على قتال الخليفة، ولا رجاله، يخترق السيف رقبتك وتموت في لحظة.

تمناها أنس ربما، لم يرتجف، ولم يغمض عينيه.

أكمل ابن المدبر، وهو يبقي السيف على رقبة أنس: سأعتبر هذا التهديد آتيا من رجل مجنون، والعشق جنون، عبلة الماشطة تخبرها الآن بكل شيء، لو تركتها ورفضت هي الزواج مني وقررت العودة إليك فلن أمنعها. أقول هذا أمام رجالي

وسأقوله أمام أحد، وأعرف أنك ستسألني كيف سأبقي أحمد في مصر. كما عرفت كيف أعزله، أعرف كيف أبقيه.

- ويكأنك الملك الذي ادعى أنه يحيي ويميت! هل تأتي بالشمس من الغرب يا مولاي؟

- لا تستهويني سخرية المصريين، ولا أعرف أهي نابعة عن معرفة أم جهل.

لم يجب أنس.

فقال ابن المدبر في انتصار: وعدتك، أتتذكَّر؟ سأقتل روحك قبل جسدك، لن يبقى لك حبيب في هذه الدنيا. ابنة القاضي لي أو لربِّها. يمكن لنائب الشرطة أن ينصرف.

ارتجف قلبه، وخرج من الباب بلا كلمة.

***

هرول إلى بيته، وقلبه على مسمع منه، ونادى اسمها بصوت عالٍ وهو يفتح الباب، كانت جالسة تنظر إلى الأرض وقد عقدت راحتيها وأراحتهما على رجليها في يأس وخيبة، ما إن نظر إليها حتى عرف أنها تعرف كل شيء.

جلس وقال في سخط: هذا المجنون، سأموت قبل أن أتركك.

نظرت إليه ثم قالت في بطء: بل هذه المرة لن أغضب منك لو فعلت.

أمسك بيديها وقال: ماذا تفرقين داخل قلبي؟

ترقرقت الدموع في عينيها ولم تنطق.

جلس بجانبها وأحاط كتفها، وقال: اطمئني.

همست: ربما كان فراقنا ينقذ كل من حولنا، لو بقي أحمد، ولو ألغى ابن المدبر الضرائب فسوف يتنفس المصريون وربما يُبعثون من جديد.

قال في قوة: موت ابن المدبر يحلُّ كل شيء.

- هل تثق في كلماته يا أنس؟ أنا أثق بها. لن يخون. فلو قال هذه الكلمات أمام رجاله وأمام أحمد نفسه فلن يخون.

- يريد الوقيعة بيني وبين أحمد، أحمد أيضًا لديه موضع لين ورقّة، ولده العباس، ابن المدبر يعرف كيف يخترق الموضع اللين، ثم يقضي على كل من يقف في طريقه.

قالت في حسم: هو لا يكذب.

بقي ساكنًا، ارتجفت فجأة، وألقت برأسها على صدره ثم قالت: أريدك أن تفهمني.

ضمها في قوة ثم قال: لمَ القلق؟ وعدتك لو هلك العالم بأكمله فلن أتركك.

- لو بقيت معي سيرحل أحمد، ثم يتمكن ابن المدبر، وربما بعد وقت يقتلك، من يدري؟ وسيستقر الظلم، ويغوص بجذوره. لو بقي أحمد فسوف يجمح ابن المدبر، ولكن لمَ يجازف هكذا؟ من أجل ماذا؟

- أنا أعرف لمَ يجازف.

- تظن أنه يريدني؟

- أظن أنه يحبك.

قالت وهي تضغط على رقبته بيدها: لا تقل هذا.

- أنت تعرفين وأنا أعرف.

قالت وهي تمسح دموعها في عصبية: لو كان أمامك أن تنقذ مئات وتضحي بنفسك، أو تعيش أنت وأنت تعرف أن مئات قد ماتوا بسببك، فماذا ستفعل؟ فراقنا موت لي.

قال بلا تفكير: وموت لي.

قالت في ثبات: ولكنك ستضحي وترتفع، ستحلق في السماء كالصقر والنسر، ولن تلتفت لتفاصيل الأرض التافهة، سترى من مكانك العالي رءوس الثعابين السوداء المستقرة نقاطًا في بحر لجي، وسترى الصدأ المتمركز على ساحات الشوارع ياقوتًا يلمع من أعلى، أنت غيري وغير ابن المدبر.

- لم تبكين؟

دست رأسها في رقبته، وقبلتها ثم قالت: أعرف اختيارك قبل أن تقوله، لقد عزمت أمرك.

قال في حسم: نعم.

- لن ترتفع، ولن تُحلّق.

- لن أترفع ولن أُحلّق.

- لن تتركني يا أنس، هذا أعرفه منذ البداية، ليس لأنك تحبني وتتعلق بكل الصفات التي لا تحبها، وليس لأنك لا تستطيع الفراق حتى لو قضيت على كل أهل مصر، ولكن لأنك تريد الانتقام، وأكبر انتقام هو أن تحرم ابن المدبر مني. أعرفك، ألم أقل لك إني أعرفك؟

نظر إليها مُنبهة ثم قال: كلامك غريب.

- هو الحقيقة.

نظر إليها في غضب، فقالت وهي تمسح دموعها: لو قتلتني وبعثت بجثتي إلى ابن المدبر يكون أفضل، ستكسر قلبه كما كسر قلبك على أبيك ثم أخيك، ستصل إلى قمة الرضا حينها.

قال في هدوء: هل انتهيت؟

صرخت بأعلى صوتها وارتجفت وهي تتمتم: اقتلني وإلا قتلت نفسي، ولكن لا تتركني مرة أخرى، إياك.. ولكنك لن تتركني لأن حبي أقل من حبة خردل أمام كرهك لابن المدبر، قلبك لا يعرف كيف يعدل بين الحب والكره، افترش الكره ساحة القلب، وغطى كل أطرافه فطوى الحب بين يديه، ولم يعد يستطيع الحركة، ولكن لا تتركني.. هذه المرة سأقتل نفسي، بل سأقتل نفسي إن لم تتركني، أو إن تركتني أو...

أمسك بذراعيها، وقال في حسم: توقفي. كُفّي عن الكلام، استمعي إليّ ولا تقاطعيني، ابن المدبر يا ميسون سيتفتت ويحترق ويموت ألف مرة قبل أن يراك مرة أخرى، لن أتركك، سأدور بك في كل موضع على الأرض وفي السماء، سألصق قلبك بقلبي حتى لا يفر ولا يتردد، أنت لي للأبد، ربما تأتي الأيام بمجهول عنيف، ولكن لو تذكرت كلماتي ننجو، أتفهمين؟

كانت تدق بأصابعها على الحائط، وتتمتم بكلمات سريعة وهي ترتعش، فقال لها حسم وهو يضع يده على قلبها: ميسون.

قالت في يأس: ميسون مجنونة لا تصلح لك يا أنس، قلت لك ضمني إليك ولم تفعل، لِمَ لم تفعل؟

همس في أذنيها: لا ظل يتبعك ولا ظلام يطمر عقلك بعد هذا الوعد، اهدئي، لقد فعلت، ضممتك إليّ.

ضغط على قلبها حتى تألمت، غاصت أصابعه داخل عظامها، أغمضت عينيها ثم قالت: لا سعادة لي ما دام العقل يفر ويهرب، الموت ينهي كل الآلام.

مسح دموعها بأصبعه ثم قال: أتريدين أن تنهي آلامك وتقتلي روحي؟ لن تفعلي هذا، تذكري.. بداخلك قوة ربما لا تعرفينها بعد. ميسون، الصبر هو ما نحتاج.

حاصرها بذراعيه ثم قال: كلنا نحارب الظل وشياطين النفس التي تحاصرنا، لست وحدك يا ميسون، قليلون من ينجون من تلك الحرب، إما أن تصاحبي شياطين النفس أو تواجهيها بعنف. أي فراق بيننا هو فراق مؤقت. لو قلت لك إنك أهم عندي من كل شيء فهل تصدقينني؟

هزت رأسها بالنفي في قوة، فازدادت قبضته عليها فقالت في حيرة: ربما لو عرفوا جنوني فسيطلبون منك أن تتركني، تضعني في البيمارستان الذي يبنيه ابن طولون.

أدارها إليه، وضمها قائلًا في إصرار: لو عرفوا جنونهم وجنوني وجنون كل البشر لصمتوا في خزي، أريدك أن تودعي والدك، وتخبريه أنك سترحلين معي، أريدك أن تطلبي منه أن يُبقي الأمر سرًّا لا يعرفه أحد.

تلعثمت وهي تقول: سنمضي معًا؟

- سنرحل معًا إلى العراق.. نعم.

حملها بين ذراعيه كأنها طفلة فقدت أبويها للتوّ، وهزها في رتابة وهو يردد كم يحبها، وقلبه مثقل بمستقبل مجهول ربما يؤدي إلى فراق، وربما يؤدي إلى دمار.. لا يعرف بعد. أغمضت عينها، نامت وهي تنشج.

***

لكل زرع موسم، ولكل نفس أجل، كان لا بد أن يفكر في قتل ابن المدبر منذ زمن، لمَ لم يقتله؟ حتى لو كان مصيره هو أيضًا الموت فسوف يرحم البشر من شروره. هل طمع في ذراعيها، إذن فألهته عن انتقامه؟ أم طمع في بيت جديد في القطائع وسيف وخيل مسومة؟ ولو قتله الآن فسيرحل أحد وسيأتي ابن المدبر جديد.

تراكمت الكلمات حول أنس من الكثيرين، وكأنه هو السبب والحل، وكأنه عمرو بني، طغى ثم سامح، زلزلت الأرض زلزالها من حوله، وبقي على ثباته بأن الموت أسهل من الاستسلام. جاءه سعيد بن الكاتب الفرغاني مهرولًا يذكره بوعده أن يذكره عند ابن طولون، ثم طلب منه أن يضحي بميسون من أجل أهل مصر، فما دام ابن المدبر باقيًا فلا بد من التصالح مع الظلم وترويضه، والحب ليس المشتهى ولا الدليل، حتى سعيد نفسه هائم وحائر بسبب حب لا يستطيع السيطرة عليه.

***

في بيت ابن المدبر كان هناك لقاء آخر، ولم تخلُ فيه الألسنة من اسم ميسون، وكان بين أحمد بن طولون وابن المدبر.

- لشد ما يؤسفني رحيلك يا أبا العباس، ولكني أعرف أن الخليفة يريد لك ما هو أكبر وأعظم من مصر.

ردد أحمد وهو يرمقه بنظرة ثابتة: وما هو الأكبر والأعظم من مصر؟

نظر ابن المدبر لأحمد ثم قال: أقسم إني مستعد أن أضحي من أجلك يا أبا العباس بعد موافقة الخليفة بالطبع، وأُخفِّض الخراج، وأشفع لك بنفسي.

ابتسم أحمد ثم قال: يقولون إنك مفتون بابنة القاضي يا رجل، لقد بلغت من الكبر عتيًا. أي بنت هذه التي سيضحي ابن المدبر من أجلها بالتخلص من أحمد؟

- يبدو أنك تشك في ولائي لك يا أبا العباس وأنت أخ وصديق. ميسون ضحية والدها تزوجت غصبًا من رجل لا تعرفه، والزواج لا بد فيه من الموافقة، أردت فقط أن يتركوا لها الاختيار.

- ترى أكانت ستختارك يا أخي؟

- لوالي الخراج قلب يا أبا العباس، ربما لا يعرف جنود الترك شيئاً عن الحب، ولكننا نحب ونعشق، ليس في العشق أي عار. ثم إني بلغت من الكبر عتياً كما تقول ولم تعد الدنيا أكبر همي.

- أصبح همك هو ابنة القاضي فقط!

- هل جئت تسخر مني يا أبا العباس؟

- بل جئتُ لأخبرك أنك صديق، وأني لم أرد الإضرار بك قط، حتى عندما عزلتك كان لمكانتك عندي، أردت لك خراج الشام لمعرفتي بخطورة وجودك في مصر، وتربص المصريين بك، أنت تخلص للخليفة، وأنا أخلص للخليفة.

- ابن الصياد يطلق ابنة القاضي، تزوجها غصباً.

ابتسم أحمد ثم قال: لا أستطيع أن آمره بهذا. ولا أعرف كيف تستطيع الشفاعة لي عند الخليفة، وكأنك تملك كرة سحرية تسيطر على المصائر، الملك بيد الله يا أخي.

- ومن تواضع لله رفعه يا أحمد، وأنت لست متواضعاً.

- وهل هناك تواضع أكثر من أن آتي إلى بيتك لأخبرك أنك الفائز اليوم، اليوم فقط، مع أنني أشفق على قلبك من هذا الحب الذي يغير النفوس ويعذبها.

خرج أحمد من عند ابن المدبر وقد عزم أمره، كان يريد أن يقيس مدى يقين ابن المدبر من النصر المحقق، ويتأكد بنفسه من قصة بنت القاضي.

عاد إلى الميدان فوجد أنس في انتظاره، أصر أنس على أن يذهب إلى العراق ويقابل وزير الخليفة، اقتراح أنس على أحمد بن طولون كان آخر محاولة منه للانتصار.

وافق أحمد بن طولون على سفر أنس بن حمزة السكندري مع الواسطي إلى العراق لمقابلة وزير الخليفة حسن بن مخلد وشرح الأمر. ثم بدأ في تجهيز الهدايا

والجواهر الثمينة والمأكولات النادرة، جمع المال وكتان دمياط الفاخر، والبغال والخيل، جاء بكنوز وسندس وإستبرق. هذه آخر محاولة ولكن لا بد من القيام بها، لن يتحدى الخليفة؛ ففي تحدي الخليفة موت ولده، بل لو تحدى الخليفة فربما ينتصر هو فلديه جيش قوي يفوق جيش ابن الشيخ، ولكن ولده سيموت، هذا أكيد. لا يستطيع أن يغامر بحياة العباس فهو كل ما يملك، ولا يستطيع ترك مصر فهي كل ما حلم به. هي محاولة ربما، وقد أرسل رسالة يشرح فيها ما حدث ويقول: إنه لم يقدم على قتل شُقير كما أثبتت الأدلة، فشقير قد مات وحده، وإنه مستعد للتعاون مع ابن المدبر من أجل إعلاء كلمة الخليفة. أما موضوع ابن الصياد فهو موضوع تافه لن تنشغل به الخلافة، وقد جاء ابن الصياد بنفسه إلى الخليفة ليحكم ويبت في أمره.

كان يعرف أن سفر أنس إلى العراق مغامرة، وأن الخليفة ربما يسجنه، أو يقتله. ولم يكن من عادته التضحية برجاله، ولكنها آخر محاولة، وما يأمل فيه أكبر من رجل وانتقام وابنة القاضي الحسناء، هذه المعركة فاز بها ابن المدبر، فلا بد أن ينكس رايته، ويعترف بالهزيمة، ويبدأ من جديد. مصر لن تسع أحمد بن طولون وابن المدبر، ولكن ما دام العباس في يد الخليفة فلا أمل له في الاستقلال بمصر. لم يزل الحلم يطارده، سيطلب من الخليفة أن يرد إليه زوجته وابنه مقابل هذه الهدايا، فلا بد أن تكون هدايا باهظة الثمن، رائعة المظهر.

هذا ما كان يبغي أنس، أن يذهب إلى العراق بنفسه، ربما تكون هذه آخر رحلة إلى العراق، وآخر مرة يرى فيها مصر.

***

عاد أنس إلى البيت، وحوله الحراس، ليجهز أمتعته، ويلحق بالقافلة إلى العراق.

حلقت في عينيه تقرأ مصيرها. فقال: هذه المرة لا أدري لو كنت سأعيش. هذا الأمر يعتمد على الخليفة وأهوائه.

قالت في هدوء: لن يعفو عنك. هو يخاف ابن طولون، ويريد تلقينه درسًا.

قال في حسم: أنت ستأتين معي، هذا أمر.

طأطأت رأسها فقال وهو يشدها إليه: هل أخبرت والدك وودعته؟ وهل طلبت منه ألا يخبر أحدًا مهما كان أننا سنسافر معًا؟

- نعم.

عانقها، وقبّل وجنتها في بطء، وهمس في أذنيها، بقيت عيناها مغمضتين، وفمها مطبقًا.

ثم قال: والدك له صلة بشيوخ العراق وقضاة العراق، ستبقين في بيت أحدهم، آمل أن يساعدنا القاضي.

- ومتى ستبدأ الرحلة؟

- اليوم، الحراس تنتظر بالخارج، سنذهب إلى العراق اليوم، احملي أغراضك، وضعي خمارك.

***

خرجت ميسون بعد أن طمر الليل كل الملامح والعيون، تسللت خلف زوجها ويدها في يده، سارا معًا داخل القطائع ساعة أو أكثر، بدت الأحياء مهجورة إلا من نعيق الغربان وبقايا اللحم والخبز، خرجت الكلاب البرية من مخابئها تبحث عن فتات الطعام، ضاقت الأزقة وتلوت كالثعبان، امتزجت المباني بعضها ببعض، تحسست طريقها وهي تبحث عن يديه. ها هي القطائع تبتعد ثم تتلاشى، ها هي ترحل بمبانيها وسكانها، أم إن الظلام يحرك كل ساكن ويبعث على النسيان والرحيل؟ حدث الكثير في تلك الليلة. القافلة تنتظر أنس وميسون

على أطراف القطائع، هي مدينة بلا أسوار ولا جدار، فمن يسكنها هم الجنود، ومن يحميها هم الأناس المكتظة بداخلها صباحًا، الآمنة ليلًا. لا أمان على أطراف المدينة، فابن المدبر لا يحب القطائع ولا يسكن فيها، ومصر خزائنه أو هكذا قال. صرخت، قاومت ثم ظهرت القناديل المضيئة من فم البيوت تحاول فهم ما يحدث، من قتل ومن نجا؟ كتم الرجال فمه، واستقرت السيوف على رقبته، كانوا خمسين رجلًا أو يزيد وكان وحده، ابتعد بعضهم وسط الصرخات، وقال رجل: كنت ذاهبًا إلى العراق، سنتأكد من وصولك، أكمل المسير، زوجتك عادت إلى والدها. بينما طرحه عشرون رجلًا أرضًا وسط مقاومته، ثم ضربوا رأسه ففقد الوعي.

عندما فتح عينيه كان في الصحراء، مربوطًا بحبال سميكة قبل أن يتحرك، غرز رجل طرف السيف في كفه وقال: والي الخراج دومًا رحيم، يريدك حيًّا، ويريدك أن تكمل مسيرك.

اصطدم السيف بعظام عصية، ولكنه استطاع أن ينفذ إلى النهاية، كتم صرخاته، ولكنه سمع الرجل: هذا لنضمن أنك لن تكتب بعد ذلك، الوراق يزعج والي الخراج، كلماته كلها أذى.

أبقى الرجل السيف داخل الكف برهة ثم حاول إخراجه في بطء، وهو يقول: لا نريد قتل رجل أحد، لا يجوز.

لم يصرخ ولكن الألم جعل العمر بلا قيمة. في خروج السيف دمار لكل الشرايين، وفي بقائه أمان واستقرار للألم، أحيانًا بقاء الخنجر يكون رحمة لا يعرفها سوى من مكث الخنجر بداخله أعوامًا.

نظر إليه الرجل، ثم قال وهو يرى الدماء تسيل من شفتيه التي عض عليها من الألم: يقولون نائب الشرطة قتل شُقير صاحب البريد، وقتل الكثير من رجال ابن المدبر.

أمسك الرجل بمطرقة، ثم اقترب من أنس في بطء، وقال في هدوء: كفك لا يصلح يا نائب الشرطة لا للكتابة ولا للقتل.

ضرب بالمطرقة على عظام أصابع أنس بكل قوته حتى سمع أنس الأصابع وهي تتفتت كأحجار الجبل، أغمض عينيه لعل الألم يرأف به ولم يرحم، عض على لسانه، وتساقطت قطرات الدماء فبللت شفتيه وذقنه، قطرات باردة، تُرى أهي دماء سوداء كثيفة كالتي خرجت من الشاب قبل الموت على الخازوق؟ تحولت برودتها إلى أسنان تفترس الوجه كله.

قال الرجل: والي الخراج فكر أن يقطع كل أطرافك، ولكنه عدل عن الفكرة، يريدك أن تتمنى، تشتاق، تحزن، تتحسّر وتندم على فعلتك، البقاء في السجن عشرين عامًا بلا امرأة أشق على الرجل من قطع رجليه، خاصة إذا كان يعرف أن ثمةَ امرأة كانت زوجة له، تنعم بأحضان رجل غير كل الرجال كوالي الخراج. سنترك لك قدميك في سجن ضيق فلن تعرف ماذا تفعل بهما، حينها ستتمنى أن تبترهما بيديك، ثم لن تجد يدًا لتبترهما بها.

زاغ بصره، ولم يَعُد يرى الرجل بوضوح، اقترب الرجل، ثم قال وهو يرفع سيفه: ولكنك سارق، تسرق خراج الإسكندرية وابنة القاضي، والسارق تقطع يده يا بن الصياد.

هوى الرجل بالسيف على معصم أنس بكل قوته، فبتر اليد قبل أن يرتد إليه طرفه.

قال الرجل وهو يمسك باليد: لم تكن تصلح يا أخي، لمَ نبقي عليها؟ يدك اليمنى تعرف مدى عجزك أمامه، فهي قد تحارب الذباب ولكنها لا يمكن أن تحارب والي الخراج! كنت رحيمًا معك واخترت سيفًا مسلولًا.

لم يقو أنس على الكلام، تذكر الرجل والخازوق يخترق أحشاءه، زغلل الضوء الساطع عينيه، ولم يكن يعرف مصدره، ويكاد يقسم أنه رأى أصابعه تتحرك في

كفه المبتورة. انشغل بأمر أصابعه، ورأى زوجه ولده وهو يتوسل للخادم، هزّ رأسه بالنفي وسمع صوتًا حوله: هذا يكفي. اربط اليد وإلا مات من النزيف.

قال الرجل وهو يضعه على الفرس: ابن نديم أراد أن يلقنك درسًا واحدًا، ويأمرك ألا تعود إلى مصر، هذا الفرس يأخذك إلى القافلة في الشام شئت أم أبيت أكمل مسيرك إلى العراق.

لا يتذكر سوى نقاط الدم التي كانت تتساقط في بطء، لم تتوقف ولم تيبس، فتح السيف السد فتدفق ما بداخله، رأى في خياله صورًا وأشكالًا لوالده وهو يؤنبه أنه لام وغضب.. كان الأب يقول: يا أنس، أنت السبب في موتي، رأيت عينيك، رأيت احتقارك لي وأنا أرجو الخادم عند الجلد هل تتذكر؟ كنت تلومني أني أتألم وها أنت تتألم.. عند الألم لا فرق بين الشجاع والجبان، وعند الفقد تتساوى كل المصائر ولا يصبح للعيش غاية، يا أنس...

اختلط صوت الأب بصوت الأخ، عليّ يضحك دومًا، ولكنه اليوم يبكي ويرجو، من يعشق الدنيا هو أول من يرحل، ومن يتحمل غدرها هو أول من تطرده. السفر طويل، والطريق ممتلئ بالموتى والدماء، يضحك الكثيرون وبينهم والده الآن، يهزءون منه، ابن الصياد يريد أن يحارب والي الخراج! ابن الصياد جن جنونه فظن أنه جان أزرق يخرج من تحت الأرض وأعماق البحار، يستطيع أن يحارب وحده خليفة في العراق، عندما يتجرأ النمل على الوقوف أمام قطيع البقر يستحق الردم تحت وطأة أقدامه. الأب يصرخ في غضب: كنت تلومني.. أتلومني؟

***

- 12 -

وضع يده على رأسه لعل الألم يتوقف، والعين تدرك وتتعلم.

حاول أن يحرك كفه، شعر بها، شعر بأصابعه تتألم، ولم يكن هناك سوى الخرقة التي تحيط ببقايا معصمه. قال صاحبه الواسطي: أنس.

- أين نحن؟

- على حدود الشام. لو أردت العودة فعُد، ولو أردت الذهاب إلى الخليفة فاذهب، من خطفوا زوجتك ألقوا بك إلينا لتنضم للقافلة. لديك جرح عميق، طهرته لك وربطته، قطعوا اليد، لو عدت الآن...

قال بلا تردد: سنذهب إلى الخليفة، ثم أعود، وعندما أعود سأخترق الشرايين وأمزق الأضلع، أعرف ما سيكون.

حاول أن يحرك ذراعه فلم يستطع.

قال الرجل في إشفاق: تمهل يا أخي، لم يزل الجرح غائرًا.

- ربما لا أستطيع أن أكتب، لم أحاول الكتابة بيدي اليسرى من قبل.

- ربما.

- ولكن أتمنى أن أستطيع أن أمسك بالسيف وأذبح، أحتاج إلى هذا.

- الذبح دومًا أسهل من الكتابة يا أخي.

طوال الطريق وهو لا يفكر في ابن المدبر ولا أحمد بن طولون، ولكنه يفكر في القاضي يحيى. متى وكيف خان؟ وكيف جاءت هزيمته؟ تكل رجل مدخل من الجلد الرقيق الذي تخترقه السيوف فتصل إلى عمق الاستسلام. بماذا هدده ابن المدبر؟ أو بماذا وعده؟ ترى أظنّ القاضي أنه لو فرق بينه وبين ابنته فسينتصر على الظلم، وأنه يساعد أهل مصر بفعلته هذه؟ أي سذاجة وأي بأس غمر العارف القارئ؟! لا بأس، لم يزل الأب يستغيث بالأمواج، ولم يزل الأخ يتجمد أمام الجلادين، ولم يزل أنس قادرًا على الانتقام. لا بد أن اليأس قد صاحب والي الخراج، وأن الشغف قد قضى على عقله، فوعد بما لا يملك، وأعطى من لا يفيد، هي حرب طويلة بدأت للتو، بها بعض المغامرة والكثير من التدبر.

***

لم يتكلم أنس مع الواسطي، كان بوجه متحجر وعينين زائغتين طوال الطريق، فقال الواسطي بعد حين إنه يعرف ما حدث، ويعرف أن القاضي يحيى قد استرد ابنته أو خطفها قبل أن تهرب مع زوجها إلى العراق، وأن كل هذا تم بمساعدة ابن المدبر. قال أنس في إصرار: ولكني أنا سأستردها من القاضي ومن ابن المدبر، عندما ننتهي من مهمتنا.

نظر إليه الواسطي كأنه يهذي، صحوة الموت على ما يظن الواسطي جعلت أنسًا يتمالك نفسه ولا يبكي على كل ما ضاع.

دخل أنس والواسطي على الوزير حسن بن مخلد.

قال أنس: مولاي الوزير، أي حظ الذي جمعني بك اليوم!

– حظك التعس يا بن الصباد.

– بل رجل، أحد قوادك، من يعمل من أجلك دومًا.

- لا تلعب بالكلمات. سمعت أنك تترجم أفكار اليونانيين وتنشرها، لا أنا أحب أفكارهم، ولا أقدر الجدل الكثير، جئت وستدفع ثمن كل أفعالك، كيف يحيط أحمد بن طولون نفسه بالقتلة؟! لا أعرف.

أطرق برهة ثم قال: مولاي يسمح لي بالكلام؟

- تكلم.

- في كلام وجدال اليونانيين بعض الحكمة، فهم يقولون: إن معادن الرجال لا تظهر إلا عندما يكون في يدهم مُلك وسُلطة، وأنت معدن ذهب خالص.

- من قال هذه الجملة؟

- أفلاطون.

قال الوزير: الخليفة المأمون كان مفتونًا به، وأحمد بن طولون أيضًا، أما أنا فأتمنى أن يكف المسلمون عن الجدال والمعارك.

- الجدال يا مولاي لا يؤدي إلى المعارك بل إلى التقارب دومًا، ألم يخلقنا الله مختلفين لنتعارف؟ وليس هناك أفضل من النقاش لنتعارف، ولكن أفلاطون قال أيضًا: إن الشجاعة هي أن يعرف الإنسان ما يستحق الخوف، وما لا يستحق الخوف، ومولاي الخليفة لا يخاف إلا من الله.

- لم أعد أتابع كلماتك يا مصري. ولا أدري لِمَ يُعين أحمد بن طولون المصريين، لا تنطق اسم الخليفة.

قال أنس في بطء: مولاي أحمد بن طولون، والي الخليفة، في يده جيش يفوق جيوش الكثيرين. هل في هذا ما يدعو للخوف؟

قال الوزير وهو يقوم: كيف تجرؤ؟ سأقتلك على الفور؟

- مولاي، اسمح لي بشرح كلماتي ثم اقتلني، اعذرني ربما لم تسعفني لغتي العربية في حسن التعبير.

- تحسن التعبير عندما تريد، قل ما تريد ثم ستموت حتمًا، وحاول ألا تلحن في القول. لهجتك تفقدني صبري.

- شجاعة مولاي الخليفة في معرفة من هم أصدقاؤه، جيش أحمد بين يديه وفي خدمته، فهو الخليفة، تدعو له في المآذن وتتمنى رضاه، الأمير أحمد رجل من رجال الخليفة، هل يكره الخليفة أن يقوى رجل من رجاله؟ لو ضعف أحد وكسرت شوكته أليس هذا ضعفًا للخلافة؟ شجاعة الخليفة في معرفة من يدعو للقلق من الولاة، أحمد بن طولون لم يخن يومًا ولم يغدر، رفض قتل الخليفة في الماضي مع أنه كان جنديًا لا حول له ولا قوة، أخلاقه غير أخلاق الآخرين، ولاؤه للخليفة، لو - مثلًا - أبقيت عليه في مصر، فسيكون لك في مصر سند وقوة دومًا. ولكني لم آتِ لأتكلم عن هذا، بل جئت لك بالهدايا، بعسل مصفى من عسل مصر، وتمر غير تمر العراق.

- تأتي كل هذه المسافة لتعطيني تمرًا هنا في العراق؟ من يهدي العراقيين التمر يا رجل؟

- عندما تحمله جارية تتقن الغناء بكل لغات العالم، صوتها من أصوات السماء لا مثيل لها في أي بلد من بلاد المسلمين، يكون له مذاق مختلف.

قال الوزير: ولكني سأقتلك على كل حال، غضب ابن المدبر منك يمتد من بلاد الفرس لبلاد الروم.

- والي الخراج يحمل الأموال لمولاي بإخلاص.

- لا أحتاج إليك لأعرف رجال الخليفة.

- ولكنه مثل الحمار يحمل أسفارًا.

- ستُجلد مائة جلدة قبل موتك من أجل سب والي الخراج أمام الوزير.

أكمل أنس مسرعًا: فما يحمله للخليفة ليس نصف ما يكمن في أرض مصر.

- أتدعي أنه يسرق الخراج؟

- أدعي أنه لا يفهم كيف يُخرج من الأرض ذهبها وقومها وعدسها، اكتفى بما هو أقل وترك ما هو أفضل، اعذرني لا أستطيع أن أقول أكثر، جئت بهدايا مولاي الأمير، وجئت أسلم نفسي للخليفة، وجئت أطلب من الخليفة الإبقاء على أحمد بن طولون في مصر، فهو سند، وجيشه قوة لمولاي، بل من طمعي في كرم الخليفة جئت أطلب أن يعود معي أو مع غيري أهل ابن طولون، زوجه وولده، فقد مر العام وراء العام ولم يرهما، ولكم يشتاق الرجل لابنه! عندما تقر عينه ويشتد عضده بابنه يخلص أكثر للخليفة. ويعطيه كل ما يملك، مولاي جئت لك ببعض الذهب.

- هل أحتاج إلى ذهب؟

- لو رأيته لعرفت ما أقصد، هناك ذهب وهناك ذهب، هناك دنانير وهناك دنانير، مولاي الموفق يحارب الزنج، ويحتاج إلى الأموال.

قال الوزير بلا تفكير: هل طلب من أحد الأموال دون إذن الخليفة؟

قال أنس مسرعًا وهو يتقهقر إلى الوراء: لو سمح لي مولاي، فقد تعديت حدودي، وتكلمت فيما لا أملك، وما لا أعرف.

- بل ستبقى هنا في سجن القصر حتى أبتّ في أمرك.

- سجني هنا عند الخليفة شرف لي.

- تلعب بالكلمات، هل كل المصريين مثلك؟

- كلهم مثلي.

- أي بلد هذا؟ يقرءون اليونانيين، ويجادلون ويتكلمون العربية بلحن العجم!

- يحاولون يا مولاي.

- وهل كل المصريين مثلك يكرهون ابن المدبر، ويحبون الأمير ابن طولون؟

ساد الصمت ثم قال أنس: ما يحب وما يكره أهل مصر لا بد ألا يشغل مولاي، فلا أحد يهتم بهذا، فلنقل إن أهل مصر يقدرون أمير المؤمنين خليفة آل عباس لأنه اختار الأمير أحمد بن طولون لحكم مصر.

- ولا يقدرونه لأنه اختار ابن المدبر؟ أكمل جملتك.

- تقدير الخليفة يا مولاي لا علاقة له برجل ولا باختيار.

- تتهرب وتراوغ، قلت للتو إن التقدير له علاقة بأحمد بن طولون، لا بأس، لك الجارية وغناءها وهدايا أحمد.

***

مكث أنس أسبوعًا في سجن قصر الخليفة، لم يكن متأكدًا من موعد للخروج، لا يبكي، ولا حزن، وخاف الواسطي أن يكون أنس قد فقد عقله تحت وطأة التعذيب، أو ربما كان حزنه أكبر من البكاء والكلمات، كان يكتب بيده الأخرى معادلات للخوارزمي ولا يأكل إلا القليل، لم يحاول أن يطمئن على الجرح في موضع يده وما اشتكى من ألم.

بعد أسبوع جاء الحارس بأمر من الوزير، الوزير يود الكلام معه مرة أخرى. الفرصة تبدو الأخيرة، حاول أن يرتب كلماته كما فعل في المرة الماضية. لا بد أن الوزير سيخبره بقرار أو بحدث جديد.

وقف أمام الوزير برهة حتى قال الوزير في صوت بطيء: والي مصر الجديد..

ساد الصمت بعد جملته، ولم يحاول أنس أن يستشف بقية الجملة.

قال الوزير فجأة: تمور مصر أيضًا جيدة، وابن المدبر سيبقى، لن يتدخل والي في قرارات الخليفة.

لم يتكلم أنس.

أكمل الوزير: كنت تتكلم معي منذ أسبوع عن قوة أحمد بن طولون وجيش أحمد، أجبني: لم أنشأ أحمد جيشًا في مصر؟ لم يفعلها والٍ قبله.

قال أنس: لقد أمره الخليفة بهذا عندما ثار ابن الشيخ وتمرد.

قال الوزير: وبعد أن انتصرنا على ابن الشيخ، لم أبقى أحمد بن طولون على جيشه؟ لم لم يسلمه للخليفة؟

قال أنس في بطء: يا مولاي، أنت تعرف أن بقاء كل الجيوش في العراق يشعر البعض بالتهديد، وهذا ليس في مصلحة الخليفة، حتى أقرب الناس رحمة يخشى الجيوش.

- عن ماذا تتحدث يا مصري؟ ومن تقصد؟

- أقصد أن الخليفة يعرف أكثر.

- لا بل تقصد شخصًا بعينه. أتظن أني لا أفهمك؟ هل تجرؤ على ذكر اسم أخي الخليفة مثلًا؟ مولاي الموفق.

قال أنس مسرعًا: لم أنطق بشيء يا مولاي، هو حدسك وفراستك التي تتحدث، ولكني لا أعرف عن ماذا تتحدث.

- لقد عين الخليفة واليًا جديدًا على مصر.

بقي أنس صامتًا، فأكمل الوزير: هدايا ابن طولون مقبولة كلها، وأنت رسوله، ولكنك قاتل أيضًا، دعوت إلى الثورة ضد الخليفة.

بقي أنس صامتًا، فأكمل الوزير في حسم: هناك مشكلة صغيرة، الوالي الذي عينه على مصر لا يجرؤ أن يذهب إليها، هذا ما فعله أحمد بن طولون برجال الخليفة، جعلهم جبناء أمامه، أرهبهم بجيشه وهيبته.

كتم أنس ابتسامته ثم قال: هو جندي الخليفة يا مولاي.

- هذا لم يحدث من قبل قط، ترى هل استقل أحمد بمصر، وانتهى الأمر؟

- مولاي.. لو سمحت لي، هيبة الخليفة من هيبة والي مصر، لو استقل بمصر هل كان سيبعث الهدايا ويطلب رضاك؟

- هو يريد ابنه.

لم يجب أنس، بدا على الوزير الحيرة وبعض التسليم، ثم قال مرة أخرى: ابن المدبر سيبقى في مصر، وأحمد بن طولون سيبقى إلى حين وليس للأبد. ولو كان يريد ابنه فسأبعث بزوجته وابنه مع المرسال، أما أنت فستدفع ثمن فعلتك، أنت ستبقى في السجن عامًا أو عشرة حتى يعفو عنك الخليفة.

***

توقع أنس بقاءه في السجن ولم يندهش من قرار الخليفة بإرسال زوجة أحمد وولده. منذ وصل العراق وهو يستشف التوتر بين المعتمد وأخيه الموفق، بدا أن الموفق مشغول بحرب الزنج، وبدا أيضًا أن المعتمد لا يريد أن يشارك أخاه في الحكم كما أراد الأب، بل يريد أن يستأثر هو به ويعين ابنه من بعده. لا المعتمد يقوى على الصراع مع أحمد بن طولون اليوم ولا هو راغب به، ربما كان لكلمات أنس بعض المفعول، لا يعرف هل يفرح أم يحزن؛ يفرح أن أحمد سيبقى أم يحزن أن ابن المدبر أيضًا سيبقى وأنه هو ربما سيقضي بقية عمره في السجن، ولكنه لم يعد يقوى على أن يفرح أو يحزن، أصبح يعرف فقط كيف يتحمل ويصبر.

***

عادت القافلة بالواسطي ورجال أحمد بن طولون مع ابنه وزوجته ولكن بدون أنس.

عندما وصل الواسطي حكى لأحمد بن طولون ما جرى. استقبل أحمد ابنه وزوجته في شوق، ولم يكن ينوي التخلي عن أنس، ليس فقط لأنه صديق ولكن

لأنه أحد رجاله، ولو شعر الجيش أن ابن طولون يضحي برجاله من أجل أي شيء فسوف تهتز الثقة ويأتي الخراب. خرج إلى جيشه يحكي لهم ويعطيهم كل الهدايا التي جاءت من عند الخليفة. قال: إن جيش أحمد بن طولون غير كل الجيوش، وإنه جيش على أرض مصر، أرض بها سحر القدماء وعلوم النجوم والقلم، من ينل شرف انضمامه له فهو في حماية ابن طولون وتحت رعايته حيًا أو ميتًا. الحروب ليست لمن يدفع أكثر بل للدفاع ونصرة الحق. وهذه أرض تحتها مدن، وفوقها مدن، وبين حنايا المدن تتسرب الكنوز دومًا. من يحارب من أجل الذهب فانٍ، ومن يحارب من أجل البناء باقٍ، هذا ليس جيشًا يحارب ثائرًا ثم ينفض، هذا جيش سيبقى.

تكلم ابن طولون عن القطائع، سأل الجيش لو يعرف لمَ بنى مدينته، قال: إن القطائع مدينة بلا أسوار لأنها مدينة جيش لا يقوى عليه أحد، بين ثنايا الأحياء يسترجع البشر حكايات القدماء يقرءون عن فرعون موسى وملك يوسف، يعرفون الكثير عن السنين العجاف وعن سنابل القمح وصراع القوي والضعيف، بقي البعض ثم فني، وبنى البعض فعاشوا، هذه المدينة ستبقى، لأنها مدينة جيش اختار مصر وطنًا، حتى ولو كان من شتى بقاع الأرض، الناس ما هم إلا كلمات منسوخة على رقعة قديمة، بها بعض الصدق وبعض الزيف، من يفهم الكلمات لا يفنى ومن غاب عنه قراءتها يعش أبد الدهر حائرًا تائهًا. جاء ملك وراء ملك، ولم يبق إلا من جهز الرجال للقتال ثم بنى وأصلح، تلك بلاد لا تُستأنس، كالوحوش البرية من يريدها لا بد أن يكسب ثقتها أولًا، ثم يحترم تلقائيتها وجنونها. القطائع ستبقى تشهد على من ظلم، ومن عدل، من بنى، ومن هدم، القطائع ستبقى كتماثيل القدماء ومعابدهم الشاهقة، لتحكي عن مجد عاد أو كاد، وعن طرق، بعضها فوق الأرض وأغلبها تحت الأرض، من يمشي في أحيائها فلا بد أن يفكر فيما يكمن في الأعماق، ولا يكتفي بما تراه العين.

أنس رجل من رجال أحمد بن طولون ولن يتخلى عنه أحمد، كما لن يتخلى عن أي رجل في هذا الجيش. لا لـون لجيش أحمد، ولا لغة واحدة، ولكنهم يجتمعون داخـل المدينة على أرض مصر، يسكنون القطائـع، ويتخذون منها بيتًـا ووطنًا. لا بد من الدفاع ليس فقط عن القطائع ولكن عن الوطن والأرض، المكان الذي سيكبر بـه الولد والبنت. عندما يرحل أحمد يبقى جيشه كقبضـة رجل واحد لا يفرقه قبيلة ولا لـون ولا أهل ولا عصب ولا حاكم. هـو جيش قوته في وحدته وتماسكه، هو جيش تجمعه مدينة، ومن اجتمع داخل القطائع لا يفرقه أحد.

بعث أحمد رسـالة للخليفة يطلب فيهـا أن يعفو عن أنس؛ فله زوجة وهو من رجـال أحمـد، ولكن الخليفة اعتبر أن هذا هو درس بسيط لأحمد ومحاولة للشرح له أن الأمر كله ليس بيده. ثم إن الخليفة أعاد له زوجه وابنه فلماذا يشكو اليوم؟

ازداد إحباط أحمد، وهو يعرف أن ابن المدبر باقٍ اليوم وغدًا.

***

سـجن الخليفة أوسـع من المطبـق الذي يلقي بـه أنس برجال ابـن المدبر. كم رجل سـجن! وكـم رجل قتـل في الشـهور الماضية! أعطـوه الكتـب والقناديل، ينظفون حجرته في السـجن كل يوم، ويعطونه أنواعًا فاخرة من اللحم والدجاج. ابتسم لنفسـه، كانت لديه خطة أن يعلم السـجناء في مصر، فابتدع عادة جديدة بعد موافقـة أحمد بن طولون بأن يأتي بالمدرسـين للسـجناء يعلمهم القـراءة والكتابة، ومن يتعلم سريعًا تنقص سـنوات بقائه في السجن، ومن يتقن قراءة الشـعر يقطع مدته في السـجن إلى النصف. كان رحيمًا عـادلًا ولم يكن يقتنص الفرص ويسرق الأمـوال، ويبيع ملـح الأرض لأصحابها كابن المدبر. ها هي رحمته تعود إليه وها هي الكتب تحاصره في سـجنه، ولكنه لا يسـتطيع معرفة أي شيء عـن زوجته، ولا عـن ابن طولـون، ولا عن ابن المدبر. ترى هل ذاب عقلها أمام اختفائه؟ هل سيطر شيطان النفس هذه المرة ولم يترك لها فرصة للفرار؟ هل هي سـجينة مثله

داخل الظلام الذي حاصرها من قبل؟ ولو كانت سجينة ألم يكن هو سبب كل تعاستها من البداية؟ هو من تزوجها، هو من أرادها أن تتعلق به، هو من تركها عانس. هو من عرضها لكل هذه الأخطار، هو.. من لم يفكر إلا في والي الخراج ووالده الذي آثر الأمواج العاتية على العيش ذليلًا، لم كان لا بد للأب أن يرجو الخادم؟ لو كان ينوي الغرق لما أقدم على الذل. ألم يكن من الأفضل لو ترك نفسه للأمواج منذ البداية قبل مجيء ابن المدبر؟ وهل تمنى من الأب أن يكون أكثر شجاعة؟ هل لام الأب على هوانه؟ هل تمنى موته قبل الذل؟ لو كان قد فعل فهو من قتله، هل رأى الأب عينيه حينها؟ هل سمع صوت همس شفتيه الصامت وهو يقول في مرارة: أرجوك لا تفعلها، لا تذل نفسك للخادم.

لكم لام نفسه على أنه لام والده! ولكم شعر بضآلته وأنانيته اليوم! من يكون؟ رجل يبحث عن القصاص ممّن أذل والده وأذله؟ من يكون؟ رجل لم يترك بابًا يدخل منه ابن المدبر إلا وأحرقه؟ من يكون؟ رجل لم يفكر إلا في مصيبته وابتلائه ومعاناته. والآن ميسون.. من أفقدها عقلها؟ هو. تمنى أن ينتزع ابن المدبر من البلاد التي التصق بها. هي بلاده هو، وهي صيده وملحه هو، زوجته هو.. ميسون..

يكاد يسمع صراخها، يرى التواءها من نار الظل وكلماته، ربما تتهمه أنه تركها من جديد. هل ستعرف أنه لم يتركها؟ لم يكن بيده، صاح باسمها، وقال في حسم: لا بد أن تعرفي، هذه المرة كنت عاجزًا. زوجتي ابنتي.. لا أريد سوى ثباتك.. من يحب يثبت، ومن يثبت ينتصر دومًا. لا انحناء لقلب العاشق، ولا نار تذيب وعد العشاق، هو وعد وقسم غليظ لو تعلمين، إياك أن تفني نفسك كما فعل أبي.

ضرب رأسه في الحائط في رتابة، ثم في قوة، بعض الألم مفيد، ومن اعتاد العذاب يحتاج إلى أن يرى طيفه كل حين.

* * *

- 13 -

لا نجاة بالنحر أو الرجاء. اختفت ميسون من على وجه الأرض، وزال أثرها كما زال آثر مدن القدماء. سيقولون: هنا كانت عاصمة الفراعنة، بنوا مدنًا بلا سور كالقطائع، مدنًا يحيا بها البشر في سلام بلا حواجز ولا عسر، بنوا مدنًا ملأوها القلاع والأسلحة، سكانها دومًا في ترقب لغازٍ ولص، السيوف مسلولة، والرماح مرفوعة والنساء بأوجه منكسرة متوقعة هزيمة قادمة لا محالة.

كيف اختفت ميسون؟ اختفاؤها من الغرائب، ولكن تغير والدها أكثر عجبًا من بناء الهرم ومن ساحرته التي لا يعرف أحد أصلها. كيف أقنع ابن المدبر القاضي يحيى بأن يسترد ابنته من الوراق. يقولون: إن ابن المدبر أخبر القاضي بماضي الوراق، ولكن القاضي لا بد أنه عرف من قبل، يقولون لابن المدبر طرق في الإقناع والحديث، هو أملس كالتمساح وجميل كالبدر. جلس مع القاضي ساعة لا أكثر، أخبره خلالها بأن الوراق قتل مرة واثنتين، وأنه لا يحسن معاشرتها، أخبره أن الله يغفر الذنوب، وأنه ينوي أن يغير كل ما كان، لا ضرائب على صيد البحر، ولا شدة مع المصريين من اليوم. ميسون المصرية ستساعده على لين القلب والرحمة بالفقير. قال ابن المدبر إنه ربما كان شديدًا قاسيًا. يعترف بذلك، ولكن الزمن غير الزمن، لطف العشق قلبه، قال إن للقاضي الاختيار بين من شرع في طريق الشر ومن انتهى منه. استيقظ القاضي في منتصف الليل وقد عزم أمره. جاءت ابنته ودعته، قالت إنها ستسافر إلى العراق مع زوجها غدًا ولن تعود ما دام ابن المدبر في مصر. لم يعد القاضي يطمئن لأنس، اختلف منذ أصبح نائبًا

للشرطة، مقتل عمال الخراج على يده لم يكن بالفعل الصحيح، وحربه مع ابن المدبر لا تشي بالطيبة ولا الرحمة. ووالي الخراج وعد أمام الجميع أن يساعد أهل مصر. هل سيثق في رجل ترك زوجته عامًا، ثم عاقبها، ثم يريدها أن تتوه في بلاد كثيرة بلا داع؟ هل سيثق في رجل، كل هدفه القتل والعذاب؟

خرج القاضي في منتصف الليل إلى بيت ابن المدبر. أبرم معه الاتفاق. طلب منه أن يمنع ابنته من السفر، وألا يمسها بسوء ويعيدها لبيت أبيها. وافق ابن المدبر، وكرر وعده له. بدا مخلصًا نادمًا وكأنه حقًا سيتغير. ضرب القاضي كفًا على كف، والعجز يفترسه، لا يعرف لو كان ما يفعل صوابًا أم لا، ولكنه لن يترك ابنته مع أنس. ومصلحة البلاد أهم من انتقام ابن الصياد. ما إن خرج أنس مع زوجته إلى شوارع القطائع حتى أطلق ابن المدبر رجاله وراءهم وعند أطراف المدينة، خطف الرجال ميسون وأصابوا زوجها في يده. لم يعرف القاضي شيئًا عن إصابة أنس، ولكنه عرف كل شيء عن خطف ابنته. انتظر قدومها كما وعد ابن المدبر ولكنها لم تأتِ. جاء النهار ولم تجئ ابنته. هرول إلى بيت ابن المدبر والندم ينهش قلبه، صاح في وجهه أنه خطف ميسون. بدا ابن المدبر مهمومًا حائرًا. قال للقاضي إن رجاله أمسكوا بامرأة فعلًا، وإن المرأة كانت تسير مع أنس، وأتوا بها إلى ابن المدبر ليعيدها لوالدها وعندما كشفوا عن وجهها لم تكن ميسون. كانت جارية في أحد أحياء القطائع. ضغط عليها ابن المدبر لتعترف فقالت إنها لا تعرف شيئًا، وإنها كانت تسير مع سيدها عندما اختطفها الجنود. كانت تكذب، هذا أكيد. عندما سألها ابن المدبر عن سيدها قالت إنه يدعى عبد الغفار أحد التجار. ضربها الرجال، وعذبوها ولم تعترف بأكثر من هذا. فقد القاضي أعصابه، واتهم ابن المدبر بخطف ابنته، ندم على ثقته، وعلى إعطائه فرصة لوالي الخراج. لكم ظلم ميسون! ولكم حملها ما لا تطيق! سيطر عليه شعور بالذنب لا يطاق. قرر أن يشكو إلى الوالي والخليفة. أصر ابن المدبر على أن حزنه مضاعف، وعلى أن قلقه مضاعف، وأن أنسًا لعب لعبة خطيرة. ولكن القاضي قال حينها إن والي الخراج هو من لعب اللعبة وليس أنسًا.

شكا القاضي للوالي. ميسون مرة أخرى، لا يخلو يوم في القطائع دون ذكر ابنة القاضي، هرول القاضي إلى أحمد بن طولون شاكيًا، وهرول إليه ابن المدبر شاكيًا، وبعث إليه أنس بأنهم خطفوا زوجه وبتروا يده، وأن الخليفة حبسه. بعث أحمد بن طولون الجواسيس إلى بيت ابن المدبر وبيت القاضي، كلهم يبحثون عن ميسون. علت همسات من دار بلد الإمارة أن الجميلة ميسون مجنونة وربما قتلت نفسها، بل لا بد أنها أغرقت نفسها في النهر العظيم ليلًا بعد أن هربت من الجنود. علت صرخات من بيت القاضي، وأرخى القاضي جفنيه وتساقطت دموعه.

***

بعد ستة أشهر بعث أحمد بن طولون للخليفة المعتمد رسولًا برسالة مهمة، لا يأمن أن يبعث بها أحمد حتى عن طريق الحمام. بعث بها الواسطي مرة أخرى إلى العراق. قال الواسطي أمام الخليفة: إن أخا الخليفة وشريكه في الملك الموفق يحارب الزنج، ويحاول القضاء عليهم، وهذا واجب ومحط إعجاب من أحمد وكل ولاة بني عباس. ولكن الموفق قد بعث لأحمد بن طولون يطلب خراج مصر، وخراج مصر كما يعرف المعتمد ليس بيد أحمد. وحتى لو كان بيد أحمد فلن يعطيه لأخي الخليفة بلا إذن من الخليفة نفسه؛ لأنه أولًا لا يملك الخراج ولا يتحكم فيه، وثانيًا لأن الخراج من حق الخليفة. وليكن أحمد صادقًا: إنّ الخلافة لا تنقسم كما لا ينقسم قدح الماء وإلا تحطم وسقط منه كل الماء ولم يشرب منه أحد. بعد أن أخبر أحمد الخليفة بما كان، طلب منه أن يفرج عن أنس حتى لا تزول هيبة أحمد أمام الرجال وإلا فلن يستطيع أن يطلب منهم التضحية بأنفسهم بعد ذلك.

هذه المرة، بدا القلق على الخليفة، وأثنى على أحمد بن طولون لأنه أخبره بما حدث من الموفق، ثم أمر بالإفراج عن أنس، على أن يبتعد عن طريق ابن المدبر ولا يزعجه.

تنفس أنس الهواء الطازج في صدره. وانطلق إلى مصر قاصدًا أحمد بن طولون.

***

شكر ابن طولون أنسًا ثم قال: أعرف ما فعلت من أجلي، ومن أجل زوجتي وابني. أعرف.

- أنا جندي في جيشك يا مولاي.

قال أحمد: نعم. وأنا لا أترك جنودي مهما كلفني الأمر. ولكن أنت لديك علم لو تعلمه الجنود والناس لتغير الحال. أريدك أن تقرأ وتنقل ما تقرأ، باليونانية أو القبطية. أريدك أن تنقل وتنسخ، وأريدك قبل أي شيء أن تُعلم أولادي ثم رجال الجيش.

- مولاي..

- أنس، أنت خلقت لتتعلم وتُعلم. علم أولادي القبطية واليونانية وعلوم الجبر.

قال أنس: مولاي أحمد بن طولون يريد أن يستغني عن خدماتي في الحكم والقتال.

قال أحمد: أفضل ألا أخسر رجلًا بذكائك - لو استطعت.

قال أنس في تصميم: وعدت نفسي - يوم مات أبي - أن ابن المدبر سيترك هذا البلد.

- ويكأنك تملكها يا رجل!

- هي لي وليست له.

- مصر كخزانة السلطان، هكذا يقول الخليفة.. تذكر.

- ما يبقى من دنانير هو للسلطان، لكن أنا من أحافظ على الخزانة، فهي ملكي.

- تظن أنك تستطيع أن تطرد من تريد، وتُبقي من تريد؟

- ويكأن أحمد بن طولون قد سالم ابن المدبر!

صمت أحمد قليلًا ثم قال: هي حرب وسلام، اليوم تحارب، ولو انهزمت تسالم.

قال أنس: ابن المدبر سيترك مصر أو يموت فيها. أنا من رجال جيشك حتى يحدث هذا. أعطني نائبًا للشرطة، هذا رجائي الوحيد.

ابتسم أحمد وقال: قررت أنت يا أنس، وكأنني لست الوالي!

- قوتك أكبر من قوة الخليفة يا مولاي..

- لو سمعك الخليفة لقطع رأسك ورأسي.

- الخليفة يعرف، وأنت تعرف. أخذت عهدًا منذ زمن، وأعطتني الدنيا فلم أفقده.

- وما هو؟

- رجل حاذق في الهندسة مصري اسمه سعيد بن الفرغاني، كان يلاحقني، يريد أن يقابلك. أتمنى أن تسمع له.

- أصبحت تشفع للمصريين حتى قبل أن تصبح من القواد!

- بل أريدك أن تسمعه، ربما تجد فيه بعض الفائدة.

قال أحمد في حسم: وأنت تنسى أمر ابن المدبر.

- اعذرني يا مولاي، هو ثأر لا بد أن آخذه.

- تأخذه وحدك، ولو قتلك لن أبالي.

بقي أنس صامتًا، بدا التوتر ظاهرًا بين الرجلين.

ثم استطرد أحمد: أنس بن الصياد، أحيانًا أراك أكثر جلدًا من ابن المدبر، لا تمل ولا تترك، لديك إصرار النمل، وصبر الجمل، وشراسة فرس النهر.

- هي أيام تلقن الغافل الدروس، لو لم أملك الإصرار والصبر والشراسة لكنت قابعًا في بلاط السلطان، أو خاضعًا لوالي الخراج أو..

- أو ربما تطيع أوامري عندما أطلب منك أن تنسى أمر ابن المدبر.

ابتسم أنس ثم قال: قضيت الكثير من عمري أنتظر يوم سقوطه، لا تحرمني اليوم مما عملت من أجله سنين.

- والي الخراج لن يسقط.

قال أنس في حسم: لو تركتني في منصبي نائبًا للشرطة، فسيسقط.

- أنس..

- تريده أن يسقط أكثر مما أريده أنا أن يموت. اترك لي الفرصة.. أطلق يدي في أمر ابن المدبر ورجاله.

- أنس..

- حلم أحمد لا بد أن يتحقق، وجيش مصر يستطيع اليوم أن ينتصر على كل جيوش الخليفة مجتمعة. هذه البلاد ستحكي عنك وعن مدينتك، مدينة بلا أسوار لأن الكل يحيا بها في أمان، تفوق في جمالها مدن العرب والعجم، ستبقى لتحكي عن ملك من ملوك القدماء، لم يولد بمصر ولكنه اختارها وطنًا، تتبع خطواتهم وعرف سحرهم وعلمهم.. سيحكي الناس عن أمير..

زاغت عينا أحمد برهة، ثم قال فجأة: أنس.. أريد أن أطلب منك طلبًا واحدًا.

- طلباتك كلها أوامر يا مولاي.

- ميسون..

- خطفوها يا مولاي.. سأجدها، لا بد أن أجد زوجتي. القاضي يحيى خان.

- هذا لا يهمني، ما يهمني هو ألا أسمع اسمها مرة أخرى، لذي ما يشغلني عن النظر في مشاكل النساء. منذ وصلت مصر واسمها لا يبرح الميدان، هل تستطيع أن تنهي هذه القصة لأتفرغ لما هو أهم؟

قال أنس في تأثر: عندما تمحو الظلم يا مولاي وأجد زوجتي!

***

زيارة ابن المدبر لنائب الشرطة كانت متوقعة. بقاء أحمد بن طولون في مصر أصبح يؤرق نومه، أحمد كالفيل لن ينسى الوشاية ولن يغفر. أما أنس فبينه وبين ابن المدبر اليوم دم وقلب ونفس ممزقة. زاره ابن المدبر بحراسه، ولكن عينيه هذه المرة كانتا منكسرتين مترقبتين، قبض أنس على مقلتيه، تتبع تحركاتها وخفقات قلبه تنخفض وترتفع مع كل توتر وحيرة وانكسار في عيني والي الخراج. انكسرت عينا أنس أيضًا، تمتمت ميسون في آخر لقاء لهما بكلمات كثيرة عن الموت وقتل النفس. ترى هل سيراها مرة أخرى؟ أمسك بقلبه لعل الوغز يتوقف ولم يتوقف. رحل والي الخراج وأنس قد اتخذ قراره بتكثيف المجانيق ورمي الرماح. طلب من مغيث أن يلقي القبض على أبي شعرة الصديق المقرب من والي الخراج ومساعده وسنده. من يضحك حين يضحك ابن المدبر، ومن يحزن حين يحزن. عندما سأل مغيث أنسًا ما سبب القبض على أبي شعرة، قال: إن حادثة حدثت بالأمس وكان أبو شعرة متورطًا فيها. بينما الأمير أحمد بن طولون يتفقد القطائع خرجت النساء من بيوتهن يشاهدن الأمير على حصانه ووسط جيشه ورجاله، وكانت إحدى النساء تتكئ على الشرفة فوقع زير على الأرض، وكان قريبًا من فرس الأمير حتى إن الفرس فزع وكاد يلقي بالأمير على الأرض. المرأة التي ألقت الزير أو لم تنتبه لوجوده هي زوجة أبي شعرة. أبو شعرة يسخر من الأمير، ويستهزئ به وأمير مصر لا بد أن يُحترم. لذا لا بد من القبض على أبي شعرة ثم طرد زوجته إلى الشارع ومحو بيته من على وجه الأرض، وزرع حديقة مكانه

بأشجار عالية وفوارة رائعة. استمع مغيث إلى أنس في تمعن وبعض الدهشة ثم قال: تريد أن تمحو بيت الرجل وتشرد أطفاله يا أنس؟

قال أنس في لا مبالاة: بعد أن نجلده خمسين جلدة يستطيع أن يلم شمل عائلته خارج القطائع. لا مكان في القطائع لرجال ابن المدبر.

- لا تزر وازرة وزر أخرى يا أخي.

ابتسم أنس وقال: يا مغيث، أنا لست أخاك، أخي مات على يد ابن المدبر. هذا أول رجل، أريدك أن تراقب بقية الرجال حول ابن المدبر، من يسخر من الأمير أو يتعدى على العامة أريد معاقبته بنفسي، ومن يجرؤ على جلد من لا يدفع الضرائب سيكون عقابه القتل.

- أنس، أنت تتعدى على كبار رجال والي الخراج وهذا لا يجوز. لم يكن للشرطة تدخل قبل ذلك مع عمال الخراج.

قال أنس في حسم: من اليوم الشرطة تتدخل في كل شيء. قبل نهاية العام أريد لابن المدبر أن يكون وحيدًا، وحدة ابن الصياد بعد غرق والده، وضياع أمواله، وتمرد الخدم عليه. رجال الشرطة لا بد أن يبحثوا عن ميسون في مصر والعراق والشام وكل مكان في الأرض. زوجتي أريدها حية.

***

أطلق أنس الجواسيس حول رجال ابن المدبر وحول كل رجال أحمد بن طولون، تتبع كل الكلمات. كل ليلة يصلي صلاة العشاء ثم يتفرغ لقراءة ما دار داخل جدران البيوت والقصور. عندما يعرف أن رجلًا يتكلم عن أحمد بن طولون بسوء، أو يتكلم عن ابن المدبر بالحسنى، أو يدعو للخليفة دون الأمير يأمر بالقبض عليه ووضعه في السجن. امتلأ سجنه قبل مرور ثلاثة أشهر، ولكنه كان رحيمًا بالسجناء فقرر أن يعلمهم القراءة والكتابة في السجن وأن يعيد تثقيفهم. خصص

ميزانية للمعلمين. لم يشعر بالذنب لحظة، بل كل يوم يقترب الهدف. ابن المدبر قدم شكوى للخليفة، شرح له ما يحدث من الأمير وأعوانه، ولكن الخليفة تجاهله، كان لديه ما يقلق باله؛ إنها حرب الزنج ومنافسة الأخ. سلط رجاله لقتل أنس ليلًا، ولكن أنسًا كان قد اشترى بعض رجال ابن المدبر للتجسس، فعرف بالخطة قبل وقوعها، وقبض على كل الرجال ما عدا والي الخراج.

تمتزج في الليل أحلامه بميمون وابن المدبر، يحلم أنها تصرخ، وأنه يجري بها بعيدًا، وابن المدبر يشد يدها، تتخلع يدها في يد ابن المدبر، ولكن أنسًا ينجح في أن يجرها خارج نطاق سيطرته، يبقي ذراعها المقطوعة على الأرض، وتتساقط الدماء من موضع البتر. تصرخ ولا يسمع، تستغيث ولا يجيب. يستيقظ مفزوعًا. يفتقدها ويخاف عليها ثم ينخر الهوى قلبه فلا يتمنى سوى تدمير والي الخراج. ولكن تعاوده صورة زوجته وهي تستغيث دون ذراع فيضغط على جفنيه ويطرد الصورة. وفي الصباح يأمر بمعاقبة رجل آخر أو اثنين أو ثلاثة من رجال والي الخراج.

***

بعد عدة أشهر طلب مقابلة أحمد مرة أخرى. رفض الحاجب أن يسمح له، قال: إن الوالي مشغولٌ هذه الأيام ببناياته وأعماله. ولكن أنسًا أصر، فسمح له أحمد بلقائه بعد يومين.

قال أحمد في عدم صبر: ما الأمر يا أنس؟

قال أنس في بطء: يبدو لي أن الفرصة قد حانت يا مولاي، أردت فقط أن أبشرك برسالة من الخليفة بعد قليل.

قال أحمد وهو ينظر إليه لأول مرة: رسالة بخصوص الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق.

قال أنس: الموفق شريك في الخلافة. ولكن المعتمد هو الخليفة، لطالما أعياني نظام الحكم ومنافسة الرجال، سيطلب منك الخليفة مساعدته. وأنت أهل لها يا مولاي.

- يا أنس، لو كنت تظن أنك أنصح الرجال فقد أخطأت. أعرف أن الرسالة قادمة، وأعرف كل تفاصيل الخلاف، وأعرف أن المعتمد يحتاج إلى الأموال.

- مولاي أحمد، المعتمد يحتاج لخراج مصر وحده، دون علم أخيه وبلا حساب للأخوة. يريد الخراج بصفته الخليفة. ولكن خراج مصر ليس بيدك يا مولاي لتعطيه للخليفة المعتمد. لو كان بيدك كنت ستعطيه كله إليه.

أطال أحمد نظره إليه، ثم قال: لم أكن أعرف أن الانتقام يخرج كل هذا الفجور!

أكمل أنس: لو تحكم الوالي في الخراج لأعطاه كله للخليفة دون معرفة الموفق، ودون أن يفصح عن كميته ولا ما سيفعله به.

ابتسم أحمد ثم قال: حان وقت التخلص من ابن المدبر.

- حان يا مولاي. إذا تكرم مولاي وطلب من الخليفة عزل والي الخراج حتى يتحكم في الخراج، ويعين رجلًا ذا ثقة ووفاء... فسيستقل أحمد بمصر.

ساد الصمت برهة ثم قال أحمد: ومن قال لك إني لم أفكر وحدي في هذا؟!

- مولاي أحمد يفكر في كل شيء، والتخلص من ابن المدبر يفسح الطريق للانفراد بها وتحقيق الحلم.

- لا تعرف حلمي.

- أكاد أقرؤه من عينيك.

- تعلمت السحر من ساحرة الهرم. كل المصريين يتقنون السحر.

- أنا جندي في جيشك.

ثم أكمل أنس في هدوء: ولكن عندما يعزل الأمير والي الخراج، يصبح أكثر خطورة عليه، فالأسد الجريح لا يفرق بين الذئب والأغنام.

- ماذا تبغي؟

أخرج أنس أوراقًا وقال: الأمير يقرأ رسائل ابن المدبر إلى الخليفة طوال الأعوام الماضية، احتفظت بها لهذا اليوم.

- أعرف محتواها.

أكمل أنس وكأنه لم يسمعه: وعندما يقرؤها الأمير يحكم بالسجن على والي الخراج الخائن، ولو اعترض الخليفة فالإثبات موجود، ومن مصلحة الخليفة أن يكون جيش الأمير في صفه.

- وكأنك أشر من ابن المدبر!

- لا يمكن أن نساوي بين من قتل ومن يريد القصاص. لا بد من التحرك السريع.

***

ولكن ابن المدبر استبق الأمر وهرب قبل أن يجده أنس.

اختفى من مصر.. عزله لا يكفي، لا بد من سجن مظلم، يعرف أنس السجن، ويعرف أن عجز الجسد واختناقه بين الأركان أبشع على القوي من الموت. من اعتاد أن يمشي في الأرض مرحًا لن يرضى بأن يعيش مكبلًا بين القاذورات وبقايا الروث العفن الجاف. ترى بما سيشعر والي الخراج عندما يضمد جراحه بملح الأرض الذي ادعى أنه يملكه؟ وكيف سيتقبل والي الخراج أن يثور عليه البحر بأسماكه فيحرقه زبد الموج، وأعشاب البحر السوداء ستلتف حول عنقه فلا يبقى منه سوى نفس تعجز ثم تندم؟ وعند الندم سيطلب المغفرة. يتمنى أنس ألا يطلب المغفرة. يتمنى أن يكون ابن المدبر من المخلدين في النار.

كم يفتقد زوجته! خرجت منه آهة ثانية. لو قتلت ميسون نفسها.. يطرد الفكرة ولا يبرح إلا أن يتذكر ابن المدبر تملكه وسيطر على أيامه، كيف يسيطر الكره حتى عندما يتأوه القلب من لوعة الفراق؟

اختفى ابن المدبر، سافر إلى الشام ربما، أو العراق. لا يأمن بطش أحمد. هلل المصريون وتنفسوا، خرجوا إلى الميدان يهتفون أحمد لأول مرة على أنه أميرهم، فقد استحق اللقب اليوم ولم يستحقه غيره. زغردت النساء، وصاح الرجال باسمه، دعوا له وانتظروا أن يغير مصائرهم المحتومة. قالوا: الأمير ابن طولون قوي في الخير، كريم في البر، قالوا: بنى قصره، وأنشأ الميدان لاستقبال كل المصريين، قالوا: ما فائدة شيخ يدعو لهم ولا يضرب بسيفه على يد الظالم؟ قالوا: الأمير يفهم لغة القدماء، يحلم بالملوك ويحلم بالصالحين، هو مسلم ولكنه فرعون، هو قائد ولكنه منهم. خرج لهم أحمد ووزع اللحم المُغمس بالخبز على الناس بنفسه، حملوه من فوق الأرض كما يحمل الجمل صاحبه، خاف عليه الرجال، ولكنه لم يبال. قال بعربيته الفصيحة إن ما كان من عهد قد انتهى، وإن مصر من اليوم بلد مزدهر، وعد أن يبني ويعمر، وأن يقضي عمره يدافع ويصد. وعد بأن الكنوز المطمورة في الأعماق هي لبناء الصروح، قال إن القطائع ليست ككل المدن، هي مدينة العدل والرخاء. ثم نطق بكلمات انتظرها الناس بصبر وتصميم، قال إن كل القوانين التي سنها والي الخراج تعتبر ملغاة. من اليوم لا ضرائب على صيد البحر ولا النطرون ولا الغنائم. ثم نطق كلمات لم يجرؤ غيره على نطقها قال في صوت قوي إن خراج مصر سيكون كبيرًا، وإنه هنا ممثلٌ للخليفة ولكن دنانير مصر لأهل مصر، ولإعمار أرضها، وعندما تعمر الأرض ويعم الخير على أهلها يزيد الخراج ولا يقل. سيبذل المال من أجل مصر، وسيبقى هنا في بلاده التي حلم بها. وعد أيضًا بأنه سيطعم الناس يومين من كل أسبوع، وسيقضي معهم هذين اليومين يستمع فيهما إلى شكواهم. من اليوم سيتغير كل شيء. سيبني البيمارستان ويعالج كل ضعيف وقوي، وسيبني المدرسة، ويشيد المسجد.

ولكن والي الخراج لم يظهر بعد. وما دام هو مختبئًا أو هاربًا سيبقى أحمد بن طولون في خطر. ويبقى أنس في عذاب.

***

يقولون إن المصريين القدماء كانوا يظنون أن ضوء الليل هو حياتنا وأن الموت خروج إلى النهار. ترى ألهذا يظهرون ليلًا عند سفح الهرم؟ ألأنهم يستمتعون بنهارهم في مكان أفضل؟ سار في خطى بطيئة وهو متجه إلى ساحرة الهرم. في هذه المرة لم يأبه بمن يسير وراءه، ولا من يتتبع خطاه في القنبا، تم عزل ابن المدبر، ولكنه بخير، هو محاط بغلمانه، يرتدي الحرير، ويبحث عن ميسون في كل أنحاء الأرض. لم تنزل جدران بيته تحميه، ولم تزل أعتاب مصر تُمتع فمه. حدق أنس في أبو الهول منتظرًا قدوم الجان من داخل الهرم. ساد السكون إلا من همسات التمثال، غريب أمر هذا الصنم فهو ليس بالأصم، بل يتكلم من كل حواسه! عيناه تصيحان بقدوم النهاية لا محالة، وأنفه يتنبأ بسنوات الشقاء، وشعره المهندم يشي بياض كأسوار المدن وجدران القلوع، أما فمه فلا يتوقف عن الحكي، هذا ملك طغى، وآخر طمع، هذا ملك دافع وحارب، وآخر ضحى واندثر، هذا يبحث عن النهار، وآخر عسعس بين حنايا الليل. هي أيام كالمدن لا تدوم، ولكنها مخضبة برائحة العيش وقتال الضعفاء، هذه أيام كالمدن تتلاشى أمام السيوف والمجانيق ولكنها لا تفنى أبدًا، ولا تترك الذاكرة، تبقى بين قطع الإناء المكسور ورائحة القلم والدواة، تبقى بين أوراق الوراقين ورسائل الجواسيس، تبقى في مآذن مساجد الملوك وقباب كنائس الأساقفة، تبقى في بقايا مياه عذب يشرب منه طفل يبحث عن العدل، وشيخ يبحث عن الرضا في باطن الأرض وحول التاريخ وفي حشا الأمل. تلك مدن تبنى على أيدي الآملين، الجريئين، الشجعان، هنا لفظ المحب أنفاس يأسه، وهنا استنشق العاشق رائحة الخلود.

جلس في انتظار الساحرة، أو الأجداد، حتى سمع صوت جريد النخل الذي يغطي الباب يتحرك في بطء. فهم حينها أنها أذنت له بالدخول.

لم تنظر إليه الساحرة، قالت وهي تبتسم اليوم ووجهها الجميل يضيء بالترقب: ها قد عدت يا غافل.

- لست غافلًا.

قالت وهي تفتح بابًا سريًا لا يعرفه غيرها: في ظلام الليل كل البشر غافلون، وعندما يضيء الصباح يزدادون غفلة. لو يدركون لكان أفضل لهم. أنت يا مصري تقرأ وتظن أنك تعرف، ماذا لو قلت لك إن من بنى الهرم ليس الملك سوريد؟ وإن ما قرأت ليس بالحقيقة ولا بالمعرفة. هل تصدقني؟

نظر إليها في حيرة ثم قال: لا أدري، أنت تقرئين أكثر مني، ربما أصدقك، وربما لا. ولكن أخبريني أولًا.. هل هي بخير؟

قالت: هي هنا.

قال في تردد وخوف: هي بخير؟

- لا تسأل عن بحنس أبدًا. قلت إنك مسئول عني منذ زمن، ولكنك لا تهتم إلا بالجميلة.

قال وأنفاسه تأتي متسارعة: بحنس، هل هي بخير؟

قالت: ليست بخير.

استحضر اختراق سن السيف إلى كف يده، هذا العقل يلعب بنا. كيف للألم أن يخترق أعوامًا كتوابيت القدماء؟ ثم قال: هي حية؟

قالت في يأس: قلت لك ليست بخير. لو ماتت لكانت بخير. حية وليست بخير..

انطلق وقلبه على مسمع منه، وقال قبل أن يراها في ظلام الحجرة: حبيبتي، القسم لم يكن بيدي، كنت سجينًا ثم مراقبًا من رجاله طوال الوقت، لا تغضبي مني من جديد، ميسون، هذه المرة لم أتركك باختياري، أنت تعرفين.. أليس كذلك؟

مد يده في الظلام يبحث عن يدها، أمسكت بيده، ثم قالت في صوت واثق: كنت أعرف أنك ستأتي.

قرب يدها من فمه، ثم قبلها في بطء وقال: يا قرة العين، كل يوم يمر بعيدًا عنك كنت حائرًا.. تائهًا.

ثم وضع رأسه على ساقيها، وأحاط بطنها وبقي ساكنًا. مرت بيدها على شعره، ثم قالت في صوت قوي: أنا بخير.

قال وهو يقبل بطنها: كنت أخشى عليك من الظلام، مضى عام، تركتك عامًا من قبل، فحار عقلك.

احتضنت رأسه، ثم أغمضت عينيها، ومدت يدها تبحث عن يده اليمنى، ثم قالت: في الغرص داخل النفس جهد وجهاد، وفي محاولة مقارمة الظل محو لبعض النفس. ماذا حدث ليدك؟ لا أراها، هل فقدت عقلي يا أنس؟

قال في يقين: دمرها ابن المدبر، ولم يستطع أن يدمر نفسي. تعرفين؟ كل الدنيا ابتلاء، بعضنا ابتلاؤه ظلم من الخارج، وبعضنا ابتلاؤه نفس لا ترضى ولا تُسلِّم. لا أدري أي ابتلاء أقوى.

نظرت إلى عينيه في الظلام، كانتا تلمعان بدموع لأول مرة، ثم همست: وأنت ابتلاؤك ظُلم من الخارج ونفس لا ترضى، الاثنان..

– ميسون..!

- لا مفر يا أنس، لم يعد لديك الاختيار. ربما لم يكن لك اختيار منذ البداية. أتبكي؟

مسحت دمعة بيدها، فقبل يدها ثم قال: افتقدتك. وخفت أن أفقدك. ولو فقدتك أكون قد فقدت كل ما تبقى لي.

- يا حسرتي عليك يا أنس! أنت لا تستطيع أن تحارب ظلك، أنت مثلي.. لذا أحببتني..

انحنت، ثم مدت ذراعيها تبحث عنه وسط الظلام، ثم استنشقت الهواء حوله وضمته إلى صدرها وهمست: رائحتك هي رائحة الضوء.

عندما تركها أنس هذا العام، كانت على يقين أنه يحبها، وأنه مرغم على تركها، ولكن الظل يأتي ليلًا يهمس بكلمات عذاب وعتاب، يطمس كل الشموع، ويطمر كل الآمال. تسمع صوته يقول إن ميسون دومًا متمردة، لا أمل لها، رزقها الله وجهًا كالقمر ونفسًا كالنجم المتساقط، تشتعل ثم تهبط بلا أثر. هناك صوت يهمس: إنها عنيدة، تأتي بالخراب ولا تصلح لا كزوجة ولا كبنت. صوت يصرخ بأنها ستموت وهي تشتاق إلى أمان وسكينة لا وجود لها في هذا الكون. عندما يجيء الظل النور لا تعرف من حولها. هذا حدث عندما تركها عامًا. وهذه المرة لم يحدث، ولكن الظل وسوس لها، والضوء محجوب عنها منذ زمن. كلما اختفى يظهر الغيم، وتتفشى الحيرة. لا تدري لم تتشبث به هكذا كأنه هو الوحيد الذي يقوى على محاربة الظل والانتصار على نفسها المتمردة.

تحسست عينيه بيديها، لم يبك يوم موت أخيه ولا يوم فراقها. أيبكي على أعوام من عمره أم على عذاب احتراق العظام بالسيوف؟ لم تعرف كيف توقف بكاءه، ولا كيف تتحكم في صرخات نفسها. دموعه تيه وخراب. سمعت صوت يحنس وهي تخرج كعادتها ليلًا لتنام خارج الحرم. أحاطت رأسه وكأنها تحميه من نفسه اللوامة، ثم ألصقت جسدها بجسده فغاص بداخلها، ونظر إلى عينيها

يحاول أن يعرف ماذا تعطيه اليوم؟ كانت ذراعاها تحوطانه فيكاد ينصهر داخل الظلام. ملأ جسدها فاكتمل به، توقفت دموعه، وربما غمره الشوق وسيطر على كل الحواس، حتى نسيَ لحظتها كل ما فقد من يد وأصابع وأخ وأب. همس داخل صدرها: افتقدتك. كم افتقدتك! عندما تعطين بلا مقابل تصبحين كضوء القمر عندما يدنو من المسافر.

مرت بأصابعها على وجهه. تنفست في ارتياح. عندما انتهى لم يبتعد عنها، عانقها حتى تأوهت وهمست: لا أعرف كيف أتكلم كالشعراء مثلك.

سمع صوت بخنس تدخل من جديد. ابتعد عنها في رفق ثم قال: قريبًا جدًّا، ستعودين لبيتك ولي. اصبري..

هزت رأسها بالإيجاب.

خرج من عند زوجته ووجهه عابس، ونفسه هائمة بين الأحجار، وكان يعرف حينها أنه مراقب، لم يزل مراقبًا.

قالت بخنس وكأنها تفهم كل شيء: ميسون تعرف أن الرجل لا يفهم سوى لغة الجسد. لا دخل له بلغة الروح. هل شفيت يا أنس من قلقك واطمأننت على زوجتك؟

- لا شفاء لي يا بخنس. أنا مثلك سأحيا طوال العمر هائمًا، تذكرينني بنفسي.

قالت الساحرة في ترقب: هل جئت بما وعدتني به؟

سار خارج الهرم، وحمل عشرين كتابًا أو يزيد ولفائف بلا حصر من الكعك.

قال في عدم صبر وهو يضعها أمامها: بخنس، لقد وعدتني أنك سترعينها.

قالت وهي تنظر إلى الكتب في ترقب وحماس، ثم تمسك بكعكة لتأكلها: وأوفيت بوعدي.

نظر إليها وهي تأكل الكعك، وانتظر أن تخبره بأي شيء، ولكنها لم تتكلم. قال في عدم صبر: كيف أنقذتها من الجنون؟ كان عقلها بين غوص ونجاة.

– في الكتب يقولون الطعام يساعد المجنون، والأمل يقضي على ظلام النفس، أما اليقين فلا شيطان يهزمه يا أنس.

– ولكنك أنت لا تأكلين سوى الكعك. لمَ لا تطعمين نفسك بنفس الطعام؟

– ومن قال إني أبغي العقل في أرض كلها جنون؟

قال أنس في رجاء: ستحافظين عليها حتى أعود.

ابتسمت ثم قالت: ما أجمل حيرة العاشق وشك الغائب! لكم أتوق إلى النظر إلى عينيك وأنت ترجو وتتمنى!

– أوفيت بوعدي لك. طلبت الكتب والكعك.

***

أنس يعرف بحنس منذ هاجر إلى الفسطاط بعد موت والده. أخبره صاحب دكان الكتب أن ساحرة الهرم تحتاج إلى الكتب والطعام، يبدو أنها ساعدته في يوم ما، ومنذ ذلك اليوم وهو يعطيها ما تريد. ذهب حينها إلى بحنس ومعه الكتب والطعام، نمت بينهما صداقة غريبة، يتكلمان ساعات عن القدماء، ويحاولان معًا قراءة لغة الطير. وأصبح أنس هو المسئول عن ساحرة الهرم.

ما حدث منذ عام، لم يعرفه غيره هو وهي. عندما قابل والدها بعد أن عقد عزمه على أن يأخذها معه إلى العراق، انقبض قلبه. وشك في نوايا الأب. تعلم في رحلته ألا يثق في أفضل الناس، تعلم أن النوايا تتغير، والقلوب كالبشر بلا جذر ولا أصل ثابت. وعلم أيضًا أنه مراقب، لطالما راقبه ابن المدبر. استدعى إحدى الجواري، أعطاها بعض الدنانير ثم بدأ خطته، لم يكن هناك الكثير من الوقت لشرح كل شيء لزوجته. عاد إلى بيته، وأخبرها أنه سيأخذها إلى العراق، ثم

فمها وهمس في أذنيها بكلمات متقطعة: ما إن نخرج من البيت، ونسير في الأزقة المظلمة حتى تأخذك جيلة إلى الساحرة وتتركك هناك. لا أثق بغيرها. ستبقى معك، من سيكون برفقتي إلى العراق هي جارية مجهولة وليست أنت. ارتدي خمارك. وانتظريني. هو فراق مؤقت، ليس لي بد به.

عندما فتحت فمها، وضع يده عليه وقال: أحبك. لن يفرقنا شيء. هو فراق مؤقت رغمًا عني. لا تنطقي لعل أحدًا يسمع كلماتك.

***

تذكر ما كان، ثم لم يعد إلى بيته. بقي حول الهرم في الظلام. ينتظر قدوم ابن المدبر. لا بد أنه سيأتي. عندما يصله خبر أن أنسًا ذهب ليلًا إلى الساحرة، سيأتي ليلًا يبحث عن ميسون. هي لم تعد فقط حبيبة، هي عمر وهدف، هي حرب بين الرجال.

انتظر ساعة ثم ساعتين وثلاثًا، رأى ضوء الفجر يدنو ويبتعد.

وهل يمكن أن تلتحم أرواح الأعداء؟ هل من الجائز أن نسبر غور الظالم ونتوحد معه؟ كيف لنا أن نقرأ غيابات عقله ونشعر بلوعة عذابه؟ قضى سنواته الأخيرة يفكر في ابن المدبر، انفرط عقد الساعات التي يتأمل بها لحظات الانتصار والانتقام. وعد نفسه أن ينسى لحظة محو الظلم، ولكنه خاف أن ينسى لحظة انقضاء العمر.

***

أمرتها الساحرة أن تأكل وتقرأ وتخرج إلى الهواء ليلًا فقط، ففي ظلام الليل تظهر النفوس الطيبة التي لا تخاف من ظل ولا أشباح، نفوس الصادقين لا تخشى الظلام. بحدس تعرف الكثير، تعلمت من كتب القدماء دواء من الأعشاب يهدئ العقل ولا يذهبه، قالت لميسون إن اختفاء الضوء سببه وسوسة شيطان النفس

وهو أقوى شيطان، فقد اعتاد روحها وعرف أسرارها، وقالت إن الظل ليس شرًا، ولكنه أحيانًا يظهر ليساعدها على اجتياز الصعاب. قالت بحنس الكثير. قالت إن القراءة تحرر الروح، وتحلق بالقلب إلى النهار كما يفعل كل من: الموت والبعث. كلما قرأت كتابًا تذكرت أنس، وكلما فهمت رمزًا تذكرت من تكون. الظل يأتي وهي وحيدة وليس أمامها سوى أن تصادقه، ففي عدائه نهايتها. أنس اليوم رحل رغمًا عنه، ووعد بالعودة. لا يعرف متى ولكنه وعد. غاب كثيرًا، ربما كان سجينًا أو قتيلًا، لو كان قتيلًا.. فلا أمل لها. ولكنه يقول إن الفراق مؤقت. لامتها بحنس على التعلق، قالت: إن التعلق هو داء البشر ولا علاج منه. قالت إنها تعالج الشر، وتعالج الطمع ولا تستطيع علاج شيئين في هذه الأرض: التعلق والعجز. من يُصَب بالعجز يدرك ماهية الكون، فلا يمكن أن يعود إلى الأرض بحماس البراءة وقوة الغافلين، أما التعلق فهو آفة أهل الأرض. يأتي إليها كل يوم رجل متعلق بولد، بمال، بسلطة، بامرأة، وأحيانًا بنفسه.. ولا تجد دواء. تقول إن الدواء سيأتي عندما يأتي العجز. في العجز علاج للتعلق. وفي معرفة قدر النفس الضئيل إدراك أن التعلق بما لا نملك جهل وسراب. ولكنها عجزت عن إقناع ميسون بعدم التعلق بأنس. لا تدري ما الذي وجدته ميسون في أنس ليصبح محور الكون، لتشرد في غيابه وتطمئن لوجوده. ربما رأت ما لا يراه غيرها. صبرت نفسها بأنه سيأتي، وجاء. وعد وأوفى هذه المرة.

***

يزورها كل يوم، يتكلم معها ساعات، يطمئنها، ولكنه يترقب، سيأتي السمك المفترس، والده يقول إن الصبر على الأسماك المفترسة هو احتراف الصيد نفسه.

كل يوم ينتظر خارج الهرم ليلًا قدومه.. سيأتي. تُرى هل يحب ابن المدير ميسون حقًا، أم أنها أصبحت دواء لكل هائم وتائه وعاجز وقادر؟ تُرى هل سيأتي إلى الهرم ليبحث عن ميسون أو ليستمع إلى ساحرة الهرم؟ فربما تريح الحيرة وتوجع الألم.

سمع خطواته، واستنشق رائحته كالذئب الذي يعرف رائحة القطيع، لم ينزعج من هذه الألفة مع ابن المدبر؟ لم يرهقه النصر أكثر من الهزيمة؟ هو قادم على فرسه، وحيدًا يقصد الهرم، إما لأنه يريد الساحرة وإما لأنه يبحث عن ميمون. هو قادم لأنه يطارد أنسًا كما يطارده أنس.

لم يحاول أنس أن يختبئ وراء صخرة، كيف يختبئ في هذه الصحراء الشاسعة، حتى بلا ضوء القمر يستطيع أن يسمع الظل، ويشعر بالخطوات، نزل ابن المدبر عن فرسه، ونظر حوله ثم أخرج السيف من جيبه، وقال بصوت عال: تعال يا أنس، هأنا هنا. من الخسة أن تتسلل من ورائي.

- الخسة لأهلها يا من يجلد أسياد البلاد من أجل رزق البر والبحر. لا أنوي قتلك.

ثم أكمل أنس وهو ينظر إلى ظل الرجل البعيد الذي يبدو قريبًا على الرغم من بعده، ويتوغل داخل الجسد مع أن أنفاسه مقززة كريهة: ابن المدبر، والي الخراج، الهارب من السجن.. كنت أعرف أنك قادم. أصبحت أعرفك أكثر من نفسك. حتى لو كان قدومك به هلاكك كنت ستأتي. استعصت عليك ابنة القاضي، ذكرتك بعجزك عن استخراج الخير من القلب.

قال ابن المدبر وهو يبتسم ابتسامة ثابتة: الوراق! من ظن أنه يعرف ويفهم! الشر بداخلك وليس بداخلي، تعرفني أكثر من نفسي، هذا أكيد. لو كنت مكاني كنت ستفعل ما فعلت وأكثر.

قال أنس وهو يستل سيفه من غمده: لست مكانك.. ولست أنت..

- وكيف لك أن تعرف ما دمت لا تملك؟ لتعرف.. لو كنت ستحطي لا بد أن تملك، ولتعرف.. إن كنت ستطغى لا بد أن تقدر، ولتعرف.. إن كنت رحيمًا لا بد أن تسطو في البدء. ماذا تريد؟

رفع أنس سيفه، واتجه إلى ابن المدبر في بطء، لم يتحرك ابن المدبر، وضع أنس رأس سيفه على رقبة ابن المدبر ثم قال: أريتك أنت..

- لأني أذكرك بنفسك ربما، على الأقل أنا أحببتها، أما أنت فلم ترَ فيها سوى وسيلة للانتقام. استغللت تعلقها لتحطمها لا أكثر، عامًا بعد عام، تبقيها أسيرة كالنبتة بلا ماء. اسجني يا مصري وسوف أخرج بعد يوم أو اثنين. لا مفر لك مني.

صاح أنس فجأة: أقسم إني لا أعرف رجلًا أشر منك..

تسللت الساحرة خارج الهرم ووراءها ميسون. اتجهت عينا ابن المدبر إلى ميسون ثم إلى الساحرة، ثم قال في حسم: أخبريها من أحبك، ومن طواك كالأوراق القديمة، أخبريها من جاء يضحي بنفسه، ومن ضحى بك من أجل نفسه.

ابتسمت الساحرة، ثم قالت في هدوء: كلماتك لي أم لميسون؟

قال ابن المدبر في ذهول: هل تعرفينني؟

- بالطبع أعرفك. وأنت تعرفني.

نظر إلى ميسون في رجاء ثم قال: ميسون..

طأطأت رأسها ثم تقهقرت لداخل الهرم.

التفت ابن المدبر للساحرة ثم قال: أنت السبب، سحرك أثر على عقلها.

ثم هم بغرز سيفه في بطن أنس، فأمسك به أنس، وضغط على معصميه حتى تأوه، ثم أخرج من جيبه حبلًا وحاول ربط معصميه، وابن المدبر يقاوم ويصارع، استمر الصراع، ابن المدبر يحاول تكميم أنس، وأنس يحاول ضرب ابن المدبر حتى يستكين. استمر ساعة أو أكثر حتى أنهكت قواهما معًا، واستكان ابن المدبر، وعرف أنس عجزه عن ربط يدي ابن المدبر ما دام هو بكف واحدة، فنادى الجنود المختبئين حول الهرم وأمرهم بوضعه في السجن.

عاد إلى زوجته مهرولًا، وحملها بين ذراعيه، وجرى بها وقلبه يكاد يسبح في سحب السماء من الفرح، الغريب، أن الفرح غير الحزن، يتسرب من جنبات العمر كالهواء، بينما يمكث الحزن ويتعمق كتراب الأرض وأحجار الجبال. ترى، أفقد يده من أجل لحظة تمر كمرور أيام العمر دون أن نلتفت إليها ولا أن تشبع روحًا أو تروي قلبًا؟ أي خداع في دنيا تُصل ولا تثبت، تخترق ولا تبقى، تغرز أظفارها ثم تدعي الفناء، تضرب بسيفها ثم تنقضي قبل أن تلفظ أنفاسك؟

عاد بها إلى بيتهما في القطائع والأمل موجود، ولكن ابن المدبر لم يزل حيًا. عندما يموت يهدأ أنين الفؤاد. لم لا يموت؟ ما دام هو حيًا قريبًا يخرج من سجن أحمد، من يدري؟

القاضي يحيى عندما علم بما كان، طلب من ابنته أن تعود معه وتترك زوجها، فقد خدع الأب وجعله يتلهف على ابنته. رفضت ميمون على استحياء، فأصيب الأب بداء غريب بعد أن بحث عن ميمون. ظل أعوامًا وهو يريد التخلص منها، يظن أنها ابتلاء ومصيبة، ولكن عندما أصبح قلبه خاويًا وهو يظنها قد ماتت، عرف أنه ربما لم يعرف، وشعر أنه ربما لم يفهم، رق القلب وضعف، وأصبح القرب من بضعة منه هو كل المنى. أما جميلة جارية عليّ فقد تكفل بها أنس وطلب منها أن تعيش معهما في بيتهما بالقطائع حتى بعد أن عتقها، طلب منها أن تعتني بزوجته، وأن يعطيها أجرًا يوميًا على عملها.

***

كانت ميمون في حيرة بعض الشيء، لا تعرف ما تغير في عام أو يزيد. لم يتكلم معها زوجها كثيرًا، بدا شاردًا مهمومًا قلقًا. كان أنس يتصور ابن المدبر وهو يهرب من سجنه أو يشفع له أخوه إبراهيم عند الخليفة فيخرج من سجنه وكأن شيئًا لم يكن. ويتصور ابن المدبر وهو يحيا في أمان وكأنه لا قتل ولا طغى، ولا أفقد أنسًا القدرة على النسخ، وقبل ذلك القدرة عن الفرح. ولكنه تعامل مع زوجته وكأنها عادت من حرب ضارية، طلب من الجواري أن يساعدنها في كل

شيء. أخذها بين ذراعيه ساعات بلا كلمة. ثم بدأ يُغدق عليها الحنان والوعود. قال إنه لن يتركها مرة أخرى مهما حدث. ووعدها أنه لن يغضبها أبدًا. بين حين وآخر ينظر إلى عينيها وكأنه يخاف أن يرى مسًّا من الجنون، لا عودة بعده إلى التأقلم. كل حين يطمئن إلى أنها تعرف من يكون وتسامحه فلم يكن بيده. بدا أقل ثقة وأكثر خوفًا.

كل يوم يستيقظ عند الفجر ويرسل أحد رجاله للاطمئنان على ابن المدبر. وعندما يعرف أنه لم يزل في سجنه، تقر عينه ساعة أو ساعتين.

ليلًا قالت له إنها تفتقد عائلتها، تتمنى أن ترى أمها وأختها وأباها. صمت برهة، ثم قال في هدوء إنه سيرتب لها زيارة من أمها وأختها. فقالت في براءة: وأبي يا أنس! ولكنه تجاهل كلماتها. بعد عدة أيام جاءت أختها وأمها، جلستا معها في توتر، سألتها عن والدها فقالت أمها في البداية إنه مشغول، ثم أخبرتها عند انتهاء المجلس أن زوجها قد أقسم إنها لن ترى والدها ما دام هو حيًّا. حكت الأم الكثير؛ قالت إن قلبها انفطر على ميسون مرة أخرى، وإنها أخبرت الأب بكل ما حدث في الماضي، وعن مرض ميسون الذي خبأته عنه، وعن الذهاب إلى ساحرة الهرم. ثم حكت الأم عن اتهام أنس للأب أنه هو من دبر خطف ميسون. لم تنكر الأم ولم تؤكد، حكت كأنها لا تعرف شيئًا عن الحقيقة. ثم خرجت ومعها رقية، وبقيت ميسون وحيدة في انتظار زوجها. اليوم غازلها الظل من جديد، ظهر صباحًا ثم اختفى، صرخت فجأة ثم أفاقت من غفلتها. عندما عاد ونظر إلى عينيها عرف. جلس أمامها، وأمسك بيديها، فقالت في بطء: تحاربني كثيرًا يا أنس، مع أنك لو أخبرت ابن المدبر بحقيقتي منذ البداية كان سيفر مني ويعافني. قل له: ميسون مجنونة، جمالها سيتلاشى أمام ظلام النفس.

قال في هدوء، وهو يتفحص كفيها وكأنه يقرؤها: ولو فعلت كان سيريدك رغم ذلك. أنت لست مجنونة. لكل منا ظل يظهر في الظلام، ولكننا لا نراه لأننا لسنا بنقائك ومعرفتك.

قالت في مرارة: تمنع أبي من أن يراني!

فقال في حسم وهو يقبل كفها: هو قسم لا رجعة فيه.

فتحت فمها، فقال: لا تكلفيني ما لا أطيق. ألم أقل لك: ظلي أنا يا ميسون لا يغفر ولا ينسى؟

ولكن القاضي يحيى أصر على أن يرى ابنته بعد مرور شهر، انتظر القاضي خروج أنس وذهب إلى بيت ابنته في القطائع. دق الباب، ففتحت الجارية وطلب أن يرى ميسون. جلس في ترقب ولأول مرة في شغف لا يعرف مصدره. خرجت له ميسون وهي تنظر إلى الأرض، ثم همت وهي تفتح ذراعيها ثم ترخيها: أبي، افتقدتك.

ثبتت نظرها إلى الأرض، وقالت في خوف: اعذرني، لم يكن بيدي، أقسم إني حاولت ولم أزل أحاول، وسوف أحاول، لن أرضى..

قاطعها فجأة، وجذب يدها، وعانقها لأول مرة منذ وُلدت. شهقت لحظة ربما، ثم أحاطت كتفه بلا كلمة. قال وعيناه ممتلئتان بالدموع: قسوة الأبناء لا تضاهيها قسوة. تطيعين زوجك، وتخسرين والدك..!

قالت مسرعة: أقسم لك إني لم أفعل. أنا..

قال في تلعثم: ربما قسوت بعض الشيء، ربما.. ولكني دومًا أردت لك الأفضل.. عنادك كان يصيبني بالعجز ربما، ميسون..

ودَّ لو قال إنه يحبها، لو طلب منها أن تسامحه، ودَّ لو أخبرها بخوفه وعجزه عند احتضانها ولم يستطع. تركها في بطء، ثم جلس أمامها، نظرت إلى عينيه ولم تصدق ما رأت. قالت في قوة: اعذرني لو خذلتك مرة أخرى، هذه المرة..

قبل أن تكمل كلماتها كان زوجها قد دخل من الباب. مكث في مكانه ينظر إلى زوجته ووالدها. قام الأب، فقالت ميسون في قوة: أنس، أتمنى أن ترحب بأبي في بيتنا، ولو لم تفعل فسأرحل معه الآن.

ابتسم الأب ونظر إلى ابنته ربما لأول مرة في فخر، وبقي أنس صامتًا. فقالت ميسون وهي تقترب منه: لقد تحملت من أجلك الكثير، تعرف هذا، عامًا وراء عام وأنا أتحمل.

بقي ساكتًا، يصارع هو ظله. فهمست في رجاء: أتوسل إليك ألا تجعلني أختار بين أبي وزوجي، لو فعلت تعرف أني سأضيع. أنت تعرفني وتعرف ما بي.

قال في امتعاض: مرحبًا بالقاضي في بيتنا.

تنهدت في ارتياح، ثم قالت في حماس: سأجهز لك العصائر يا أبي، والطعام..

ثم خرجت من الحجرة في حماس وفرح. فساد التوتر الممتزج بالحرج وبقي القاضي صامتًا.

قال أنس: ما الذي تغير يا شيخ؟

قال القاضي في صرامة: مصلحة البلاد أهم مني ومن ابنتي.

- تُرى هل وعدك والي الخراج بمنصب والٍ أم قاضي الخليفة نفسه لتخون؟

قال القاضي في حسم: يعلم الله ما في نفسي ولا يعلمه غيره. هل تريد أن تعرف لمَ تغيرت يا أنس؟ لأني رأيت في عينيك ابن المدبر، كلنا نرى فيك ابن المدبر، تقتل وتبطش بلا تردد. ولكم من ضحية أصبحت باغية! ولكم من فريسة قتلت الصياد! عندما رأيت أنك أشر منه أردت لابنتي أن تبقى معي ولا تعود إليك ولا إلى ابن المدبر. ثم كان وعد ابن المدبر لكل أهل مصر، والمصلحة العامة أهم من الخاصة، أنت تعرف هذا. ثم كان هذا الأمر في الماضي وانتهى الآن. ربما ظلمتك.. ربما أسأت التصرف.. وربما لا. اسمح لي برؤيتها واعذرني.. لم أتوقع ما فعله بك وبيدك، ولا يرضيني ما حدث.

نظر إليه أنس ثم قال في سخرية: أنت دومًا على صواب. القاضي يحمي لا يخطئ، حتى لو تسبب في الأذى فقد أساء الفهم. أي غرور لديك يا رجل؟!

بدا القاضي متوترًا، ولم يكن ينوي الاعتراف بأي خطأ.

ساد الصمت برهة حتى قال أنس: أحمد بن طولون يحب البناء، جاء ليبقى..

رد عليه القاضي: الكلام على المدينة والبيمارستان الذي سيبنيه أحمد كلام بلا اتهامات ولا لوم.

مر الوقت، والقاضي يثبت عينيه على ابنته، تتحرك في حماس وتلقائية، تتكلم معه بحساب، ولكن بحب وافتقاد. خرجت بعد حين فقال القاضي لأنس: هي سعيدة معك على ما يبدو، أمها حكت لي أمرًا قد حدث منذ وقت لن يحدث مرة أخرى.. ميسون عاقلة.. ميسون..

لم يعرف كيف يكمل جملته فقال أنس: هي عاقلة وبخير لا تقلق عليها.

قال الأب: ولو مت أريدك أن تعتني بها. لا تتركها حتى لو انحرف عقلها بعض الوقت. كيف لي أن أطمئن عليها؟

ابتسم أنس وقال في تهكم: كيف لك أن تطمئن عليها وأنت لا تثق بي؟ معك حق. ولكنها بخير.

***

ميسون كالكتاب القيم ذي النقوش الملونة الرقيقة، تحتاج إلى من يحملها على مهل وبرقة وصبر، وتحتاج لمن يتعامل مع النقوش وسط الكتاب بوجل وإعجاب طوال الوقت. لو تأخر عليها يومًا تتذمر وتبدأ خلافًا تتعامل معه بجدية، وهو في الحقيقة تافه لا يهمها. تحتاج إلى اهتمامه طوال الوقت، إما أن يعطيه لها طواعية أو تأخذه رغمًا عنه. إما أن يحبها بشدة أو تدفعه لكرهها بشدة. ولكنها لا تقدر على حياة الملل والمشاعر الفاترة. أعجبه هذا فيها. رغبتها أن تحيا وسط شغف دائم وعشق مستمر، وأن يمجدها بالكلمات والأفعال واللمسات. ولكنها كانت تحبه بصدق فاق كل ما توقع. لا يدري لماذا ولم اختارته هو. كانت تخلص في عطائها

وتفكيرها فيه، فتعلم أن يعطيها كل الاهتمام الذي تريده ولو تأخر أو شرد عنها يعود قبل أن تشعل بيته نارًا، وفي كل مرة يستطيع أن ينقذ نفسه من نهاية محتومة. بدا وكأنه يحيا وسط نيران يتجنبها كل يوم. ولكنه عرف كيف يسير وسط النيران، وكيف يجعلها تدفئه ولا تحرقه. عندما يعود تتوقع أن يجلس معها ساعات يخبرها بما فعل فتحيا معه وبداخل عمله. تعشق الكلام عن الحكم والحكام، وعن المدن والمساجد والحروب. تحب أن يعاملها معاملة الجنود أحيانًا، ومعاملة الأميرات أحيانًا، ومعاملة والي الخراج أحيانًا. ولكنها كانت ذكية، تفهم عينيه، وتعرف لو كان مرهقًا أو يائسًا، لو رأت الحزن في عينيه تتكلم دون توقف حتى يستجيب لها ويبتسم. اهتمت به، واقتنصت اهتمامه بها.

ليسون لحظات يأس عرفها أيضًا، تغلق قلبها عن العالم، وتجلس في حجرتها بلا أكل أو شرب أو كلام. جاءت بعد عدة شهور من الزواج. لكن لحظات اليأس قلت والاطمئنان دخل قلبها مع الوقت. أصبحت تعتمد عليه بقدر ما تحبه. وأحبت كلام اليونانيين وفلسفتهم من أجله، ثم استمرت في نسخ الكتب معه. هذه اللحظات كانت من أكثر لحظات الصفاء بينهما، فهي تشعر بأهميتها عنده، وتعمل معه وهو يملي عليها، ويتكلم ويجادلها في موضوع أو مسألة. وكثيرًا ما يحملها إلى حجرتها ليقبلها ساعات ثم يستمر الجدال الفلسفي بينهما. أصبح ارتباطها به ارتباط الأسماك بالحياة في لحظات الموت المحقق. تعرف جنونها الكامن وانفجارها الذي أصبح يأتي نادرًا، ولكنه هو أيضًا يعرفه ولا يكرهها من أجله. أنس هو الصديق والدواء، هو السكينة والونس.

***

- 14 -

مكث ابن المدبر في سجن أحمد.. حاول أن يطلب من أخيه إبراهيم أن يشفع له عند الخليفة، ولكن بدا أن الخليفة مشغول بأمور أخرى، وأنه قد استغنى عن ابن المدبر. أوقف أنس كل محاولات خروج ابن المدبر. كان يقضي أيامه يقرأ رسائله، ويعرف كل من زاره في سجنه. حتى نسي أحمد بن طولون أمره بعد وقت، ولكن أنسًا لم ينس. أقسم إن ابن المدبر سيموت في سجنه. وبدا هذا قريبًا.

قال مغيث في تأمل: هاهو يموت في سجنه المظلم، يفقد بصره كل يوم. هكذا يقول الحراس. ظننت أنك تريد أن تراه وتشفى فيه، بعد كل ما فعله بك. يقولون خارت كل قواه، وطال شعره ولحيته وفقد الشهوة في الحياة.

ردد أنس: عندما تملك رجلين قويتين تتوقان إلى الجري، يصبح السجن أقسى، لو بترتهما تخفُّ وطأة العجز. وعندما تملك كل القوة يصبح الضعف أخطر من الموت. لا أحتاج إلى رؤيته. أعرف وأشعر به.

فقال مغيث في تلقائية: ماذا حدث لنائب الشرطة؟! والله لم أر في قسوتك منذ بدأت عملي. لم يرق قلبك وكأنك لم تسجن ولم تجلد ولم تمح بيوتًا ولم تُشرد أطفالًا!

قال أنس في فزع: كل من عاقبته كان يستحق العقاب.

فقال مغيث في تهكم: أنس.. أتخدعني أم تخدع نفسك؟ تعال معي لتزور ابن المدبر، فرؤيته وهو عاجز ستشفي القلب. أنت تريد هذا، لا تدّعِ الفضيلة، تعال لترى من سجنت من أتباعه، أنت من أمرت بسجنهم.. هل تتذكر؟

نظر إليه أنس في شيء من الحيرة، شيء من الفزع. لا، لم يشعر بالذنب ولو للحظة. فليمت كل رجال ابن المدبر، وكل من يحبه وكل من يشجعه. كلهم يستحقون الموت. لا هو يأبه بمصيرهم، ولا هو يرى أنه أسرف في القتل والسجن. لم يفكر لحظة ولم يرَ سوى جسد أخيه الممزق وجسد والده الذي تلاشى بين الأمواج. كلما جلد رجلًا سيطرت صورة الأب والأخ، وكلما سمع رجاء سجين سيطر صوت الأمواج. لم يدخل الندم قلبه حتى لو حارت نفسه وطلبت السكينة ولم تجدها.

***

ابن المدبر كل ليلة يدعو الله أن يخرج من سجن أحمد، وفي كل ليلة تزداد عتمة عينيه. ظن في البداية أنها عتمة السجن والجحور، وخاف أن تكون عتمة الجنون. هو ضحية ابن الصياد وأحمد، ضحية الغدر والتخلي. تخلى عنه الخليفة وتركه لسطوة أحمد بعد أن عمل طوال عمره لحماية الخلافة وملء خزائنها بالذهب والفضة. أحمد بن المدبر لن يرى ميسون مرة أخرى، ليس لأنه سيموت في السجن، ولا لأنها سترفض أن تراه، ولا لأن غشاوة الجنون قدمته، ولكن لأنه فقد البصر بعد عام. وانفض الناس من حوله كأنه السامري مع أنه لم يدع لعبادة العجل ولم يحرف كلام الله. أدى عمله بإتقان وضمير، كان حازمًا أحيانًا لأنه أراد السيطرة على الأمور وليس لأنه يحب الظلم. هو ضحية.. هكذا قال لنفسه كل يوم. هو ضحية لعنة المصريين القدماء. سحرت له ميسون من أجل حبها لأنس، ربما سحر له أنس. أصبح المطبق مطبقين، والقضبان قضبانين، وضاقت نفسه ولم تتسع روحه. هو مظلوم، ضحية.. ضعفه دليل على قوته الماضية، وقلة حيلته دليل على صحة كلمته؛ هو أحمد بن المدبر الذي ارتدى الحرير، وسار في الأسواق

يفتخر بخيله وذهبه، أصبح يقطن سجنًا مظلمًا داخل وخارج النفس. لو فك السحر ربما ينجو، ولو مات ربما ينجو. لاح بخاطره شبح حزة السكندري وهو يغرق، بدا ضاحكًا مستبشرًا، كان يقول: تعال معي نلعب ونلهو، هي دار للهو ساعة أو أقل، تريد النهاية وتشتاق إليها.. مرحبًا بك في سجن اليأس والذل.

أغمض عينيه في ألم، ثم طلب من الحارس أن يأتي بساحرة الهرم، سمع عنها وعن دهائها، قال الحارس إنها لا تتكلم سوى القبطية، ولا تخرج من الهرم مهما حدث. يقولون إنها تخرج ليلًا فقط لتصاحب الجان وأرواح القدماء. فقال ابن المدبر في أسى: هل لك أن تسألها سؤالًا أو سؤالين وتأتي لي بالإجابة؟

تردد الحارس ثم قال: سأفعل من أجلك يا مولاي.

- اسألها لمَ يقع عليَّ كل هذا الظلم وأنا أتقن عملي؟ اسألها كيف أتخلص من جسد خائن ومن عينين غادرتين تلاشى منهما الضوء؟ اسألها لمَ ينتصر أحمد بن طولون عليَّ وهو خائن للخلافة؟

وعده الرجل أن يفعل، ولكنه سها ومرت الأيام ولم يفعل حتى مرض ابن المدبر مرض الحزن، وليس هناك أشد وطأة من هذا المرض. عجزت أطرافه وتوقف لسانه. حينها تذكر الحارس عهده فذهب إلى ساحرة الهرم، كانت تنتظره وأجابت عن أسئلة ابن المدبر دون أن تسمعها. ردد الحارس الإجابة طوال الطريق حتى لا ينساها. ثم همس في أذن ابن المدبر: الساحرة تقول لك يا مولاي إن العجز لم يساعدك على المعرفة، وإن الجسد الخائن للهلاك دومًا، هي ساعة أو أقل يملك فيها الإنسان الدنيا فيغتر بها. قالت: يا مولاي إن لكل إنسان لحظة يدرك أن العجز قادم لا محالة وحينها لا بد أن يعرف. تقول إنها لا تهتم بأمر الخلاف بينك وبين ابن طولون، ولكنها تعرف أن العجز لا يفرق بين الظالم والمظلوم، يأتي لكل البشر ولكن المظلوم يرحب به، ويعرف أنه ليس النهاية، أما الظالم فينخر قلبه كما الوسواس.

لم تهدئه كلمات الساحرة واستمر في الدعاء على ابن طولون وأنس وحتى ميسون التي فضلت عليه ابن الصياد. تملك الحزن من أطرافه فمات مكظومًا بعد حين.

***

أما أنس فقد خرج الخنجر من سويداء القلب بعد موت ابن المدبر، ولكن بقي المكان فارغًا كلما لفحه الهواء أنَّ والتهب. أحيانًا يعتاد البشر الشجن فيصبح الرضا عذابًا، وحين مات الأب من ذل وهزيمة أغرق معه النفس المتلئة بالرضا، والقلب الجامح المتمرد. لم يعد لرجفة القلب صوت الطير المغرد، ولم يعد لرعشة الروح صوت أمواج الفيضان الممتزجة بالرهبة والطمع. ظن يومًا أن موت ابن المدبر سيعيد ضحكة النفس ورفرفة الضلوع، ظن أن في الانتقام شفاء وارتواء. ولكن ما ضاع لا يعود، ومن رحل لا يُبعث حيًا في هذه الدنيا. لأنس ظلٌّ أيضًا يرافقه طوال العمر، ظل أسود باهت مشقق وواهن بخطوط مركبة ومعقدة كبيت العنكبوت. لم يعد إلى بيته ليذبح الذبائح ويحتفل ويفرح، عاد ليفكر ويفهم، ولكنه لم يفهم ولم يستطع التفكير. الفرح المؤجل وهم، وعودة الحياة كما كانت قبل ظهور الحزن مستحيلة باستحالة عودة الأموات والأجداد القدماء. فليتقبل الدنيا بحسرتها ولونها القاتم. فليكن على يقين أن ضياع براءة الجهل نعمة ونقمة، وأنَّ تقلب الأيام يترك ثقوبًا في النفس لا تشفى إلا بالموت والبعث. تُرى هل عرفت الساحرة هذا؟ هل عرف القدماء أن العمر قصير، وأن الأيام تفقد الألوان لمعانها؟

ظن أن موت ابن المدبر سيعيد الأب والأخ، ويغمر أيام العمر راحة بعد عناء، مات.. نعم، كما مات الأب والأخ، وكما سيموت هو وغيره. أي عبث؟! وأي وهم؟!

هي دنيا لا قبل لنا بها، لو سالمناها تغدر، ولو حاربناها تنتصر، وليس أمامنا سوى الصبر على الأيام، فهي تنتهي هذا أكيد، ولا يقين اليوم إلا في الانتهاء.

عندما نظرت إليه زوجته رأى في عينيها خوفًا لم يفهمه.

قال في يقين: تعرفين..

بلعت ريقها ثم قالت: ابن المدبر مات في سجن أحمد بن طولون.

هز رأسه، ولم ينطق. قالت بلا إرادة: تُرى ألم تزل تحبني؟

قال وهو يمسك يدها: في بعض اللحظات يشع الضوء من القيو المحترق فأرى لمعة الحياة، وهذا لا يحدث إلا معك. لا يا ميسون، لم أتزوجك لأنتقم، ولن أتركك بعد أن مات والي الخراج. أنت بريق الحياة، وأمواج البحر الحي.

قالت مسرعة: أعرف بالطبع. لم أشك فيك. كنت فقط.. لا أفهم حزنك.

- ولا أنا أعرف مصدره.

لا بد من زيارة الساحرة، فما يقلقه كامن بالداخل وليس له قدرة حتى على فهمه ولا العيش معه.

قرر أن يسير على قدميه من القطائع حتى الهرم في الجيزة.

تلكأ في أحياء القطائع لعل المدينة تضيء العتمة، وتظهر ما خفي داخل غيابات النفس.

القطائع هذه المدينة بها سحر القدماء ولعنتهم، لا مفر من عشقها. في الأزقة رائحة الخبز والحلوى لتذكرنا بمحاسن العيش ومذاق العشق، لا أحد يكتفي هنا من الخبز بالسكر، من يد إلى يد ومن فم إلى فم يذوب القمح في الأعماق ثم ينعش الذاكرة المبهمة. في هذه المدينة خياط ينسج ثوبًا من الحرير الخالص ولا أحد يعرف مصير صاحبه، ربما كان ثوبًا لعروس تشتاق وتتمنى أو لوالي الخراج الذي يمشي في الأرض مختالًا فرحًا، ربما كان مصنوعًا من خيوط ممتزجة

يبلاء ومعاناة أو صبر وجلد، هنا يكمن فرح غير مكتمل وجسد عاجز دومًا حتى لو أخذته العزة بالإثم.

في هذه المدينة حداد يصنع السيوف ويفكر فيمن سيموت بها، يتمنى أن تقضي على كل ظالم وكل طامع، ويعرف أنها ستبتر رءوسًا بريئة، وبعض رءوس التائهين في طرق كلها ظلام، وكثيرًا من رءوس المحاربين من أجل الذاكرة التي دومًا تتسرب من بين أيدينا، وهذا الدكان ينسخ كتبًا عن تاريخ قد مضى وآخر آت، يحاول أن يجمع الذاكرة في خفيه، ويتذكر حكمة القدماء ولكنه ينهزم أمام النار والدمار. وعندما يمحى أثر المدينة وتنتصر القوة على الذاكرة لا بد من الكتابة، في الإبقاء على الأوراق بعض الانتصار. هنا مات شيخ ولم يتزحزح عن الحق، وهنا راح رجلٌ ضحية حلمه، وهنا تبدّى العجز لكل قوي، وتفشى الضعف لكل ظالم، هنا اكتشف الإنسان أنه يفقد بضعة منه في كل يوم يمر عليه، وأن النهاية قادمة لا محالة وسوف يصاحبها بعض اليأس والكثير من الحنين.

عَبَرَ النيل كالمغمى عليه أو المسحور. وطوال الطريق وهو يرى أمامه ابن المدبر عاجزًا وحيدًا داخل سجنه، حبيس النفس المتمرسة والروح الهارية والقلب الخائن. وضع يده على قلبه بلا إرادة وكأنه يتأكد من وجوده، فتح عينيه وأغلقها لعل الصورة تختفي، ولكنها ازدادت وضوحًا، نظر إلى أسفل فرآها على جدران البيوت وحول أحجار الطريق، نظر فوقه فرآها بين السحاب والنجوم، هو ابن المدبر، هو.. ابن المدبر. ثبت عينيه على مياه النيل وهو يعبر، ولم يعبر، استقرت الصورة في مكنونه وبين ثنايا الروح. هز رأسه وكأنه يريد أن يتخلص منها ولم يستطع. غدًا يعود نائب الشرطة إلى عمله. سيبحث بين الزوايا عن خائن وعن مدافع عن ابن المدبر، ثم سيعاقب بلا تفكير. غدًا يعود نائب الشرطة إلى عمله، سيمحو بيوتًا وينشئ بدلًا منها فوارات تغسل النفس ولا تطهرها. سيهدم دكاكين ليملأ قلبه الفارغ ولن يمتلئ القلب ببقايا الهدم. لم يخطئ، لم يعاقب سوى من يستحق العقاب. من قتل يُقتل هذا أكيد. قالوا إن عمال الخراج مأمورون

لا إرادة لهم، وإن نائب الشرطة قتل منهم من قتل وسجن من سجن، لم يكن لهم الاختيار، ولم يكن له الاختيار. هي دنيا تحث على البتر وتدعو للمعصية. عاش بين كتبه أعوامًا، ثم انتزعته الدنيا من بين الأوراق بخياناتها ولم تبرحه حتى يقسو، وعندما قسى انتصر أو كاد.

هرول إلى ساحرة الهرم وهو لا يدري هل ارتجافة قلبه من فرحته أم من حيرته؟ دخل عليها دون استئذان، ثم قال: مات ابن المدير.

قالت وهي تتفحص وجهه: هل رأيته وقت عجزه يا أنس؟

- لا، استحرمت هذا. أردت الانتقام ولم أرد التشفي.

- ما أرحمك يا رجل! هل ارتاح القلب، وغمد السيف، واعتدلت الدنيا، وانتظمت ضربات القلب؟

- هو كذلك. هذا أسعد يوم في حياتي.

- وأحزن يوم.

- إياك.. لا تكثري من حيرتي.

- جئت إليَّ.. لأنك حائر..

- يا ساحرة.. أي جن يمسك كل يوم؟

- لقد امتلأ قلبك بكرهه، والآن بعد أن مات تشعر بالفقد، بفجوة دونه. ترى من سيملأ قلبك يا أنس؟

- زوجتي تملؤه و..

- وابن المدير..

- أي جنون تقولين؟!

- مات وستموت أنت ويموت أحد. اليوم تأتي إليّ منتصرًا، وغدًا يصيبك الأسى، واليوم يقف أحد منتصرًا وغدًا يأتي إليّ عاجزًا. لو عرفت أنها تدور بلا توقف لما يئست وتذمرت ولُمت. لا انتصار على الأرض.

- هو حق المظلوم.

- لِمَ لم توقفني منذ البداية أنه آتٍ؟

- سعيت له.

- ولكن الله شاء. سعيك بلا إرادته لا يعني الكثير. هيا اذهب واحتمِ بميسون، تبقى لك، فبداخلك خواء.

قال مسرعًا: ويكأنني أراه أمامي! بل بداخلي.. ظننت الرضا يدخل قلبي بعد موته. ولكن ابن المدبر..

- لأنه لن يبرحك. استقر وسكن. أتنفف الماضي والحاضر لأنه استقر وسكن، ولو تركته يبرحك؛ لما جئت اليوم.

- ماذا تقصدين؟

- أنت تعرفني لا أحب الشرح. اذهب إلى حال سبيلك، ولا تنس الكتب.

ترك الساحرة بقلب مهموم لا يدري لماذا. وكأن حياته قد انتهت قبل أن تبدأ. عاد إلى بيته، ودخل حجرته وهو يتساءل عن مغزى العمر ونهاية الأيام. لحظة النصر لا تستحق سنوات العناء. والموت لا يأتي للظالم ويترك المظلوم. منذ مات ابن المدبر والحزن لا يتركه. خاف أن يكون قد أفنى عمره باحثًا لاهثًا عن نهر، والنهر يجري تحت قدميه. بحث عن نجم ساطع في السماء، والنجم قد سقط حوله، يبحث عنه هو. شعر بوخز في صدره ربما. نظر إلى زوجته التي تنام بجانبه فأيقظها ثم قال: ميسون..

فتحت عينيها، ونظرت إليه ثم قالت: ما بك؟

- تعرفين أني أحبك...

- أعرف.

- وأني كنت سعيدًا معك. ربما كنت خليقًا أكون أكثر سعادة لو تركت لنفسي الفرصة، أتفهمين..؟

نظرت إلى عينيه ولم تجب.

ابتسم وقال: تحملتني.

- بل تحملت أنت جنوني ولم تعايرني قط.

- جنونك لا شيء بالنسبة لجنوني. اختلط عليّ الأمر بعض الشيء، ورُجّت الأرض رجًا.

في الصباح شعر بوخز في صدره، فقال في حسم لزوجته: لا قِبل لي بالعمل مع الشرطة، سأتفرغ للكتب.

نظرت إلى يده في تلقائية، فقال في تأكيد: ربما لا أستطيع أن أنسخ، ولكني أستطيع أن أبيع الورق.

قالت وهي تمسك ذراعه في راحة: وأنا أساعدك. أنا أستطيع أن أنسخ.

***

راقبت زوجها وهو يقرأ الكتب في بطء وإتقان، منذ مات ابن المدبر قبل شهر رأس مريض شاحب حزين، يغرق نفسه بين الأوراق. وضعت يدها على كتفه، حتى بعد أن أخبرته بحملها لم تهدأ نفسه. أما هي فكلما مر يوم طوى بعض اليأس، وفتح شقًا ليتسلل منه البحث عن رائحة الضوء ومذاق الإدراك. عندما مر موكب أحمد بن طولون، خرجت ميسون لتشاهده ولم يستطع أنس، قال إنه متعب.

نادى المنادي بصوت أجش، قوي ورخيم: الأمير أحمد بن طولون أمير الديار المصرية والشام والحجاز واليمن.

اجتمع الجيش صفًا وراء صف، ارتدى الفرسان الزي المزركش الملون، وارتدى المشاة السراويل والدروع والخوذات. سار الموكب وكأنه بلا نهاية، يمتد ليصل إلى اليمن من ناحية، وإلى بلاد الروم من الجهة الأخرى، كيف لموكب الجيش أن يبلغ الجبال طولًا ويغوص داخل السماء؟ شهق أهل مصر وهم يشاهدون الموكب، دقت الطبول وتزاحم أهل القطائع لرؤية الأمير حتى ولو من بعيد. كان يمتطي فرسه، ويسير بين جنوده في ثبات وثقة. نظر إلى المدينة من حوله، كادت المباني تمتزج برءوس الناس المزدحمة فبدت كالمدن المسحورة، يتكلم فيها الحجر، وتنثر حوطها الأمطار، وتتفجر في جنباتها أشجار العنب والتين، وتتلوى السحب وتتضاءل الغيوم. اشتعلت النجمة التي سقطت منذ عشرة أعوام، أضاءت كل ما بقي، هذا مسجد شامخ، وهاهو قصر الميدان، وهاهو البيمارستان ودار الصناعة والجسور والترع والحقول والزخارف والقناديل. اشتعل الضوء أخيرًا بين ثنايا الدروب المتداخلة، وكأنها بنيت منذ ألف عام أو يزيد. من يبتسم من أهلي؟ أهو من بنى الهرم الكبير سوريد بن سهلوق كما يطلق عليه العرب؟ أم الساحرة التي تعرف الأجداد وتتكلم معهم؟ من يبتسم تفاخرًا اليوم، ومن يشهق فزعًا، ومن يدرك أن الأيام بين يدي الأمير أحمد بن طولون يملأ بها راحتيه، ويرتشف من انتصاراتها. أراد أن يبني هنا، يتخذها بيتًا ووطنًا، وأراد أن يخلد اسمه بجانب اسم باني الهرم. يعرفه ويحلم به ولكم تسامر معه! لا يعرف غيره. سيخاف اليوم كل عدو، وسيفتح ذراعيه فتمتد لتحيط كل مصر. في الموكب رهبة وأنس وحميمية. بعضهم من أهل مصر اليوم، يمشون بملابس الجنود والفرسان، فترفع أم يدها في فخر، وتداري زوجة ابتسامتها في خجل. قالوا لو نبشت الأرض تجد الطمي والذهب. ولو نبشت الأرض، وأنت مخلص، تجد المجد الذي لا يفنى.

***

يفهم كيف تتحرك في حيرة وعصبية عندما تعجز عن الفهم، وكيف يتأرجح عقلها ما بين وهم وجنون بين الحين والآخر. يحاول جاهدًا ألا يضغط عليها

على قدر المستطاع. ولكنها أدركت أنه ليس بخير، وأنت بالطبيب بنفسها، قال الطبيب إن أنسًا بخير، لا داء في البدن ربما هو حزين أو مكسور النفس، من يدري؟ هذا يحدث كثيرًا لرجال الشرطة بعد أن يتركوا عملهم، ربما يحتاج إلى العودة لعمله مع أحد.

كم مكثوا معًا بلا ظلم ينخر في النفس! شهرًا ربما بعد موت ابن المدبر، عدة أشهر وهو في السجن.. لكم يندم على أيام أضاعها وهو لا يدرك روعتها وهي بين ذراعيه! ولكنه كان مُسيرًا إلى مصير لا يعلمه سوى الخالق، منذ رأى الأب يُجلد ويُذل.

قالت في إحباط: ماذا بك؟ الطبيب يقول لا داء في البدن.

- هو داء في النفس إذن.

نظرت إليه في حيرة ثم اقتربت منه، ووضعت رأسها على كتفه، وقالت: كيف لي أن أعالج هذا الداء؟

ساد الصمت، ثم قال وهو يمر بيده على رأسها: سعيد بن كاتب الفرغاني.. كان يريد أن يصبح صديقي، رفضت حينها، ولكنه يعرفني، ربما أكثر من نفسي. يبحث عن حبيبته يا ميسون.

- لا أفهمك.

- كلنا نلهث وراء المستحيل، ومن يتشبث بالمستحيل يفقد عقله، أريد أن أراه. سأبعث له برسالة غدًا.

قالت في يأس: لو كان هذا سيسعدك؛ فلترسل له رسالة.

قال وهو يدس رأسها داخل صدره: أتتذكرين عندما نزلت النهر معي، وحملتك بين ذراعي؟ كانت المياه ثقيلة ولكنك طفوت فوقها، صرخت أنك لن تستطيعي أن تري قاع النهر، تخافين مما لا ترين.

قالت وهي تبتسم: طفوت لأنك حملتني. كنت سعيدة حينها.

- سأحملك دومًا.

حك خده بخدها، وقال وهو يستجمع كل قوته: أغمضي عينيك وفكري في مستقبلنا معًا في أيام لا تنتهي. لو كنا نعرف أن الفراق حتمي ما تمنينا البقاء إلى الأبد.

قالت فجأة: عن أي فراق تتحدث يا أنس؟

- عن الماضي يا ميسون. الماضي الذي انتهى.

***

بعد يومين استيقظ أنس، ونظر حوله، وكأنه كان يحلم. كان بكامل قوته وطاقته، لا يدري لم مرضت نفسه قبل يومين. ربما أنبه ضميره على ما كان. كل رجال ابن المدبر يستحقون الموت. هو نائب الشرطة وهو يدافع عن العدل، لا داعي لأن يحزن على موت الخائن والظالم. يحتاج إلى أن يعود صيادًا كأبيه، يعود إلى الإسكندرية ويخرج المركب من التلال المهملة، ويشد بذراعه الشباك الممتلئ بالخيرات. عرض الفكرة على زوجته، فوافقت على الفور وبدأ يجهز لها. علم أحمد ابن طولون بخطته، فأعاد له ما أخذه ابن المدبر، وعينه شيخًا للصيادين خلفًا لوالده. قرر أن يبيع بيته في القطائع لسعيد بن كاتب الفرغاني فهو من بنى البيت وهو من يحتاج إليه. بعث بالرسالة لسعيد وانتظره في حماس. غدًا يأتي سعيد، وغدًا يعود هو إلى الإسكندرية.

اليوم عشق زوجته بقوة الأهرام وصلب أبي الهول. فتحت عينيها في دهشة ثم قالت: أنس، لقد شُفيت ربما كنت تحتاج إلى أن تفكر في البحر.

ابتسم وهو يأخذها بين ذراعيه وقال: ربما كنت أحتاج إلى البحر وأحتاج إليك.

اقترب الضوء واستنشقت رائحته، نامت بين ذراعيه في سلام. تقلبت في نومها وفتحت عينيها، فشدها إليه وأحاط خصرها بذراعه في قوة، ثبتت عينيها

على النافذة وأمسكت بموضع كفه المبتورة، وضغطت عليه فهمس: لا أشعر به يا ميمون، ضعي كفك على قلبي أفضل.

وضعت كفها على قلبه وتمتمت: أرهقتني بعشقك كما فعلت يوم اقتحمت حجرتي في دار بلد الإمارة، أتذكر؟ فقدت الوعي حينها من استغراقك في العشق يا بن الصياد.

ابتسم في رضا وهو مغمض العينين ثم قال: لا شيء يفقد الوعي سوى العشق.

راحت في نوم عميق.

في الصباح، حملت جميلة الأمتعة إلى العربة الكارو، وارتدت ميمون ملابسها، وجاء سعيد مهرولًا بعد أن وصلته رسالة أنس.

ذهبت ميمون لتوقظ زوجها. لم يستيقظ، بدا أنه يفضل النوم. كان مبتسمًا هادئًا هدوءًا لم تره في عينيه من قبل.

مكثت مكانها لا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله. أغمضت عينيها وضمت جسدها وكأنها تتوقع موجة من الصقيع. ظهر الظل واختفى، سمعت صوتها خارج الجسد يؤنبها أنها تأخرت، لا تدري علامَ، فرددت آيات من القرآن ثم كلمات، لا تعرف متى قالها. قال لها إنه سفر مؤقت. قال ألا تترك الظل يأخذ مكانه. قال..

صرخت وهي تنادي على جميلة: أغيثيني.. لا أستطيع أن أوقظه..

اقتربت جميلة، ثم رددت آياتٍ، وقالت وهي تربت على كتفها: لن يستيقظ يا سيدتي.

***

أمسك والدها يدها في رفق لأول مرة منذ ولادتها وقال: ابنتي..

نظرت إليه في ذهول.. ثم قالت: أين أنس؟

قال الأب: تعالي معي...

نظرت حولها وهي تردد الكلمات، وكلما حاول الظل اختراق النفس منعته، نظرت إلى جدار البيت ثم وضعت يدها على الجدار وكأنها تستمد منه بعض القوة وسقطت على الأرض.

مكث والدها بجانبها أيامًا. لم يدر بحربها مع الحزن، ولا مع الظل والظلام، كانت أشرس الحروب اليوم. استشف عمق المعاناة من عينيها ولم يعرف بالضبط ما الذي يدور بداخلها.

دارت بعينيها حول الحجرة في حيرة، فقال الأب: أنس طلب مني أن أذكرك أنه لن يقابلك لو سيطر الظلام والظل، لا أعرف ما الذي يقصد، قال إنك ستفهمين. طلب مني أن أخبرك بذلك كل يوم.

قالت في ألم: لو يعرف كم هو صعب..!

- ما الصعب يا بنتي؟

قالت بلا تفكير: لن يسيطر الظل والظلام.

***

الباب الرابع

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها

فهل سمعت بظل غير منتقلِ

الطغرائي-

شاعر وعالم عربي

455 هـ - 513 هـ

- 15 -

بعد مرور عام على موت أنس لم تفقد ميسون عقلها كما توقع الجميع. ولم تكف النفس عن الأذى، كانت تدرك وسوسة النفس ومكرها، تعذبت في صمت، وأحاطت ابنها بحبها وقد وعدته أن تعود به إلى الإسكندرية كما أراد الأب قبل موته. تنفذ كل ما أراد أنس، ستبيع البيت لسعيد بن كاتب الفرغاني، وسيصبح عليٌّ ابنها شيخ الصيادين.

أصبحت تهتم بحال أمها وأختها، تسمع أخبار مصر والقطائع. عرفت نساء الحي وتكلمت معهن عن حالهن. تعرف صاحب الفرن وبائعة الحلوى، وتعلمت تطبخ من بعض النساء، كما تعلمت كيف تخبز الخبز من البعض الآخر.

كانت حاضرة عندما دعا والدها سعيد بن كاتب الفرغاني إلى البيت.

ما إن فتح له الأب الباب حتى دخلت ميسون بالعصائر وبخمار يغطي وجهها. جلست ثم قالت: مرحبًا بك. أنس يحكي عنك كثيرًا. معذرة؛ فهو لا يحبني أن أكشف وجهي أمام الرجال.

اندهش من كلامها عن زوجها وكأنه لم يزل حيًا. ومع أن صوتها عاجز فإن عينيها كانتا تلمعان كالنجوم في ليلة مضيئة بلا سحب ولا ظلال.

قالت: أقول لأبي دومًا إنه لولا ميسون بنة يحيى ما استمر حكم أحمد بن طولون.

قال الأب وهو يشعر بالإحراج: لا مجال لهذا الآن يا بنتي.

ولكنها أكملت دون توقف: أشرح لابني كيف كان والي الخراج مستعدًّا أن يتنازل عن كل خراج مصر من أجلي، ولكني اخترت أنسًا..

بلع سعيد ريقه في إحراج، ولم يدرِ ماذا يقول.

فقال الأب لابنته في رفق: يا ميسون ادخلي أنت، هذا كان في الماضي.

- وماذا يتبقى لنا إلا الماضي لكي نحيا فيه وله؟ هو لم يعد ماضيًا، هو نحن، هو أنا وأنت وأنس. أنس يقول دومًا..

استوقفها والدها وقال في رفق: ميسون؛ زوجك..

قالت وكأنها لم تسمعه: هو يقول، لا فراق بين الأحبة، هي فترة سفر قصيرة يلتقون بعدها بلا سفر ولا بين، من يظن أنه الفراق لا يؤمن بالله، ومن يخاف الفناء لم يدخل الحب قلبه. هكذا يقول أنس، هو يحب اللعب بالكلمات. لا بأس، نريد أن ننفذ وصيته. بنى هذا البيت لي ولم أحيَ معه سوى شهور. في العمر شهور، هي دهر بأكمله، وهي سنون لا عدد لها ولا تساوي درهمًا من دراهم الخليفة ولا دينارًا أحمديًّا.. تقبل هو الدينار الأحمدي، إنه من الذهب الخالص، أنس يقول إنك أنت أحق الناس بالبيت، صممته وتعرف زخارفه وحوائطه. من يبني الجدار أحق بالبيت يا أخي. هكذا يقول أنس.

ثم استطردت في حماس: ولكن يا أخي، كيف بنى أحمد بن طولون القطائع؟ وكيف بنيت هذا البيت؟ بسبب ميسون التي فُتن بها والي الخراج وأرادها أنس لنفسه.. تاريخ طويل، ولكن لولاي لما بنى سعيد البيت، ولما عرف أحمد سعيدًا، ولما عرف أنس سعيدًا، ولما عرف أحمد أنسًا. أتفهم يا أخي؟

قال الأب وقد بدأ صبره ينفد، وكأنه سمع هذه القصة آلاف المرات: لا داعي لهذا الكلام يا أم عليّ.

نظرت إليه في لوم، ثم قالت: بل لا بد أن يعرف يا أبي. أنا قررت مصير هذه البلاد.

بدا لسعيد أن ميسون تقضي أيامها وحيدة، وأنها تود لو حكت قصتها كل يوم مرتين على الأقل، أو ربما لا تقضيها وحيدة، ربما تفتقد زوجها ولا تجد بُدًّا من الحديث عنه. ابتسم سعيد لنفسه، الخيلاء آفة لا شفاء منها..! ولكنها على حق، ما فعلته وما حدث بسببها كان تغيير مصائر كل البشر.

قالت وهي تقوم وتضع يدها على جدار البيت: القطائع، تلك المدينة الساحرة، قطعة من الجنة، كل العالم على أرض واحدة، الأبيض والأسود، العربي والأعجمي، القطائع تسمع فيها كل اللغات، وترى فيها كل الألوان، وتأكل كل أنواع الطعام. لو أردت الحدائق تجدها هنا، لو أردت البرقوق وشجر السفرجل فستجده هنا. حتى التفاح الأخضر والأعناب الملونة هنا. هذه المدينة أنا السبب في وجودها.

ثم أكملت في حسم: يا أخي سعيد، لولا أنس ما انتصر أحمد بن طولون، ولولا انتصار أحمد ما بُنيت القطائع وما بقيت. ستشهد القطائع على ما كان وسوف يكون. لا بأس، لنتكلم في شراء البيت، أنس لم يحدد سعرًا، قال لنا نتركك أنت تحدد السعر الذي تريده. ولكن تذكر يا أخي أنك لا تشتري بيتًا في القطائع بفوارة ونوافذ تمتص ضوء الشمس، أنت تشتري بيتًا امتص بين جدرانه أيامًا من الرحمة والمؤانسة.

- أعرف يا سيدتي. سأدفع ما تطلبين.

- عندما يكبر عَليٌّ سنعيش في الإسكندرية وسيعمل بالصيد مثل جده. الأمير أحمد بن طولون كان قد أعاد بعض الأموال والمراكب لأنس بعد رحيل ابن المدبر.

قال القاضي وبدا أنه أصبح أكثر صبرًا مع ابنته: أنس قال ابحث عن سعيد بن الفرغاني في كل القطائع، يوم وفاته اختفيت يا أخي وكم بحثت عنك! لا تستقر في دار يا رجل.. كأنك طائر يأتي كل موسم.

فقال سعيد: أبحث عن رحيق الفواكه في الأشجار، والرحيق لا يثبت ولا يقف، فلا بد من التحرك المستمر. سأدفع ما تقرره.

ثم التفت إلى ميسون، وقال في رفق: يا سيدتي؛ زوجك أراد لك أجمل بيت في كل القطائع، كانت تلمع عيناه وهو يرى الزخارف الجصية والفوارة والبهو. كان جنديًا ولم يكن جنديًا. أتعرفين؟ سأشتري البيت منك. القطائع يا سيدتي هي ما تبقى من ذكريات الصبا والإبداع. القطائع تشهد أن المعجزات ممكنة، وأن السحر في يد الأجداد يبني الجدار والحائط ويحمي من الفقر والفساد. في بعض الأحيان يجد الإنسان نفسه محاطًا بالزمن من كل اتجاه، غائصًا في تاريخ غامض، يحمل الألواح والرموز ويستمر في السير باحثًا عن المعرفة والانتصار. النصر في هذه الزخارف وهذه الرموز، ليس في فهمها ولكن في الاحتفاظ بها داخل القلب. هذا البيت هو ما تمنيت طوال عمري.

نقلت عينا ميسون إلى عينيه، ثم قامت فجأة واتجهت إلى حجرتها. فقال سعيد وهو يدنو من القاضي: أخبرني يا مولاي؛ كيف حال ابنتك؟

قال القاضي: منذ مات زوجها وهي ترفض أن يترحم عليه أحد ولا أن يقول أحد إنه مات. تقول إنه ذهب إلى مكان بعيد وسوف يلتقيان قريبًا. تتكلم عنه وكأنه معنا.

قال سعيد: هو الحب يا مولاي.

- أحيانًا أخاف عليها، ولكنها لا تنسى شيئًا أبدًا، كل التفاصيل، كل الأسماء، كلما تذكرت اطمأننت، وكلما تكلمت عنه وكأنه معنا خفت. اعذرني يا بني، أريد فقط أن أشرح لك حتى لا تفزع من كلماتها.

قال سعيد: أنت نعم الأب يا مولاي.

- أتعلم من أنس، أوصاني عليها وتكلم معي عنها.

- كيف للقاضي أن يتعلم من ابن الصياد؟!

- القاضي الذي لا يتعلم لا أمل فيه.

قال سعيد فجأة: كلنا هنا بنا بعض الجنون، يأتي مع مياه النيل ورحيق الأهرام.

- وهل للأهرام رحيق؟

- ألم أقل لك كلنا هنا بنا بعض الجنون؟ في الجنون سحر وإبداع، اصبر عليها.

دخلت ميسون الحجرة مرة أخرى، وقالت في حماس: سعيد بن كاتب الفرغاني؛ تذكرت الآن، أنس ترك لك رسالة. لم أفهم بالضبط ما يقصد، يقول إنك ستفهم.

نظر إليها سعيد فقالت وعيناها تلمعان في شغف: أنس يطلب منك أن تسامحه لأنه تأخر في المعرفة، فقد طمس الكره على قلبه بعض الوقت، ولكنه يحاول أن يستعيد نفسه منذ زمن، أنس يقول إنه يعرف من هي اليتيمة التي تبحث عنها في كل بلدان الأرض. كانت حولك وبجانبك، ولكن الفزع دومًا يعمي الأبصار ويحجب الرؤية.

- أين هي؟ وكيف وجدها أنس؟

- يقول إنه كان يراعيها طوال الوقت ولم يلاحظ إلا مؤخرًا.. تسكن الهرم، هي ساحرة الهرم.

فتح والدها فمه في ذهول ثم همس لسعيد: لا تأبه بقولها.. أحيانًا تخرف بعض الشيء..

قال سعيد وهو يرتجف: كيف عرف أنس؟!

فقالت ميسون وهي تنصرف: من الكتب التي تقرؤها. أخبرته أنت أنها تحب الكتب والكعك. أنس يقول أيضًا إنك صديقه حتى لو لم يحاول رؤيتك كثيرًا، الصداقة مصير، واللقاء ليس دومًا بالبدن. هكذا قال أنس.

أخذ القاضي يتكلم ويعتذر عما بدر من ابنته، وسعيد لا يتوقف عن الارتجاف.

وانصرف سعيد والدموع تنهمر.

قال الأب لابنته بعد حين في لوم: لم يكن هناك بد من ذكر من أعجب بك، ومن أراد الزواج منك.

قالت في حسم: هو تاريخ.. لا بد أن تذكر التاريخ كما كان.

ثم اتجهت إلى حجرتها وهي تتذمر، فذهبت إليها جميلة تحمل عنبًا، وقد اعتادت عصبيتها أحيانًا، وقالت في صبر: احكي لي يا سيدتي..

خلعت ميسون خمارها، ثم قالت وهي تتجه إلى الفوارة، وتنظر إلى نفسها في بركة المياه الصغيرة: وعدته ألا أترك الظل يأخذ مكانه. وعدته أن أتحمل وحشة النفس ووحدة الروح حتى ألقاه. قال لي لو تركت الظل يأخذ مكاني فلن نلتقي. هددني، هو قاسٍ أحيانًا، ولكنه كان يهدهدني ويدللني كالأب والأخ والابن والزوج. صبره معي أكثر من صبر أبي.

قالت جميلة: والدك نعم الأب.. يحبك ويخاف عليك.

- أعرف. أحيانًا يحاول الظل أن يغويني بعينيه المضيئتين، ولكني أغمض عيني وأتذكر أنسًا.

قالت جميلة في حماس: ماذا تتذكرين يا سيدتي؟

قالت في حنين إلى زوجها: كنت أنظر إلى وجهي في المياه هكذا، جاء.. بل تسلل من ورائي وكاد يفقد الوعي من جمالي.. لن أخفي عليك، أعجبني هو أيضًا.. ثم كان ما كان وما سيكون.. بنينا القطائع، وأنقذنا حكم أحمد بن طولون، وقضينا على ابن المدبر.. لو حكيت لك ما فعلنا، فستظنين أنني أبالغ.

- ماذا فعلتما؟

- احكي لابني وكل الناس، كلما رأوا نجمًا يتساقط من السماء أو يشتعل على أرض خضراء فلا بد أن يتذكروا.. كلما عجزت عيونهم عن رؤية آخر المدينة أو أولها فليتذكروا.. وكلما أحرقت نار الحب قلوبهم أو قطع البين أوصالهم فليتذكروا.. فليتذكروا ابنة القاضي؛ أجمل امرأة في مصر... ميسون.

***

كان سعيد - عامًا وراء عام - يحمل أغراضه ويسير هائمًا في الأرض، يقطن بيتًا شهرًا أو شهرين لا أكثر وينتظر يومًا يجدها فيه، يتذكر لحظات اندماج والتحام، لحظات فرح من أعماق الروح تنعش النفس وترجف الأطراف. حبيبته اليتيمة كانت كل ما يملك، وكانت كل ما يتمنى. عندما يجدها هذه المرة لن يتخلى عنها ولن يخاف. سمع عن ساحرة الهرم، لها طرق في الوصول إلى الأشياء. تعرف وتفهم، تقرأ وتحفظ. يقولون إن لساحرة الهرم ذاكرة الأفيال، تردد الكلمات كما الشعراء، وتخترق الأرض كما المعابد القديمة. سيطلب مساعدتها. سعيد بن كاتب الفرغاني اليوم مختلف، يبني لأنه مشتاق، ويبدع لأنه محروم، يأمل لأنه عاشق، ويقسو لأنه مُريد. دخل على ساحرة الهرم في حسم وقال دون أن ينظر إليها: أريد أن أجدها. ساعديني أن أجدها. ولك ما تطلبين...

بقيت الساحرة صامتة تنظر إليه. رفع عينيه إلى عينيها السوداوين الكبيرتين. ارتجف قلبه كما القمح وسط العاصفة، قال في يأس يصاحبه حنين: أنقذيني، يا ساحرة الهرم!

اقتربت منه ومدت يدها، وقالت: ولِمَ أنقذك يا قبطي؟

- أريدك.. منذ فتحت عيني على العالم وأنا أريدك. تعرفين.. يحس، أين اختبأتِ مني طوال تلك الأعوام؟ كنت حولي قريبة ولم أجدك، ما أغفلني! وما أضلني!

- ومع ذلك تخليت، ومع ذلك رضخت..

- كانت أيامًا دون الأيام، اغفري لإنسان رغبته في التضحية من أجل أمه وأبيه وبلدته وماضيه.

- لا أغفر. لا بأس. ماذا تريد يا سعيد؟

- أريدك أنت. أحبك. هنا لن يحكم علينا أحد، ولن يرشقنا أحد بالحجارة. القطائع غير كل المدن، تُقدِّر المعرفة والاختلاف.

ابتسمت، ثم أمسكت بيده وقالت: وهنا لن يرانا أهل البلدة، ولن يحكم عليك الأقارب والجيران. يقولون تحب الساحرة التي تصاحب الشيطان منذ الصغر، غريبة الأطوار التي لا يُعرف لها أهل ولا نسب! من تظن أن التمثال الصنم والدها؟!

قبل يدها في لهفة، ثم قال: اغفري لي، فما أنا سوى بشر. أحبك حبًّا لا يقدر على تحمله أحد.

- وهو حب لا شجاعة فيه. لا حب يحيا وسط الجبناء. ستبقى هائمًا طوال عمرك، تشهد على المحبين ولا تقترب منهم، ترى التضحية والشغف في عيون الرجال، فتحسدهم على شجاعة لم تملكها في شبابك.

- أنت ساحرة إذن، تصيبينني بلعنتك، لم تحبي يومًا، المُحب لا يغضب ولا ينتقم.

ابتسمت وقبلت يده في بطء، ثم قالت: المحب لا يغفر يا سعيد، كيف تغفر لمن سلبك الروح؟! كنت روحي..

ضمها إلى صدره في لهفة، وقال في رجاء: ولم أزل معك، لم أحب غيرك، ولن أحب غيرك.

دفعت به وقالت: ساحرة الهرم أعطتك نفسها يومًا لأنها رأت صدقًا. خدعتها نفسها حينها، فلو رأت صدق اليوم فلن تخضع له. عندما أعطيتك نفسي كنت لا أثق إلا بك، حتى نفسي لا أعرفها الآن، ثم أقنعك الأقارب أن بحتسي تصاحب الشيطان. لم أصاحب الشيطان، صاحبت الأجداد لأني كنت وحيدة حتى وأنا معك. كانوا هم أصدقائي وأهلي. غفلتهم وجهلهم يحيطان بك فلا مفر من عجزك.

- هل ستحكمين عليّ بالبقاء تائهًا كيهود موسى بين الجبال ووسط الصحراء، أبحث بلا جدوى أربعين عامًا أو يزيد؟

- أربعين عامًا أو يزيد يا سعيد. لن تنفعك سوى طاقة الإبداع بداخلك، فلم يتغلب عليها الجبن بعد. ابحث عن الهمة والعشق من حولك، وشاهد مصير العاشقين.. ستقابل الكثيرين..

- من هؤلاء؟ أعرف أنسًا وأحمد بن طولون.

- من يتأمل الأوراق يجد بين السطور غايته، ومن يقرأ بلا فهم ولا شوق فلا أمل في نجاته. اجعل من حبك وسيلة للفهم، فلا فهم بلا حزن ولا حب بلا عجز. وهي دنيا لا تعطينا ما نريد حتى لو أوهمتنا أنها طوع إرادتنا. في الوصول ضلال، وفي القوة عجز دفين. اصبر على قلبك، تستحق أن تحيا هائمًا بلا رضا، وتذكر أنك لست وحدك. كلنا نسير لاهثين وراء الخلود داخل جسد ناقص خائن ينهزم أمام أول سيف وأول وباء. نحن سجناء نسعى للحرية ربما في سماء الله نتقابل من جديد، وتتذكر..

ضُمت الدنيا أمامه، لم يعرف كيف يتنفس، كتم أنفاسه ثم ضمها من جديد، لم تعترض، قبلها، مر بيده حولها.. تبعثر عمره كله. أراد أن يلقي بروحه تحت قدميها الآن. تأوه على ما ضاع وما سيضيع. ابتعدت في رفق، وقالت في تأثر:

لكم أشفق عليك! ولكم أبحث داخل نفسي عنك! غدًا ربما أو بعد غد نتقابل مرة أخرى.

لم يفهم كلماتها، تجلت له لحظتها عرائس متعانقة تناجي الله في السماء، وتدعو إلى الرضى والمغفرة. لا بداية لها ولا نهاية لها، من ضلع صنعها الرب، ثم أخرجت هي الطفل من رحمها، هو اتصال بين البشر يصعب شرحه. هذا من ذاك، وذاك من هذا، كما البنيان الصلب يتصل البشر، ومع ذلك تريد بحنس أن تشرخ صدره.

قال في حسم: أراهم أمامي هنا وهناك، حولك وحولي، كيف تقطعين ما هو موصول بلا بداية ولا نهاية؟ لن تستطيعي بتر ما هو ملتحم ببعضه البعض.

أفلتت من بين ذراعيه وهو لم يزل هائجًا فاقدًا لوعيه كأنه تحت تأثير خمر نافذ، تلاشت من أمامه وكأنها لم تسمع ولم تشتق. تركته في وحشة تشبه أسنان التماسيح تخترق اللحم بلا هوادة ولا نظام معروف.

***

على هامش الحكي 1918

انفضّت الناس. وتفرقت بعد الصلاة مع السلطان أحمد فؤاد في مسجد أحمد ابن طولون، حتى العالم الإنجليزي قرر أن يكتفي من البحث ويكتب كتابه عن التاريخ. أما عادل فلم يكتف ولم يرض. أصبحت صورة أنس وميسون تسيطر على لياليه، يرى وجه ميسون وهو يقوم بواجبه مع زوجته، يراها في منامه وفي صحوه. فاز بصورة مع السلطان أحمد فؤاد. تباهت بالصورة زوجته، وبقي قلبه حزينًا. يعرف أن الحزن حوله، وأنه لم ينجح في وظيفة ولا زواج وحتى الأبناء يحتقرونه. هو سعيد بن كاتب الفرغاني. نعم هو سعيد بجبنه وعدم مواجهته في البداية، ثم بندمه وتيهه في النهاية. يا ساحرة الهرم، متى تغفرين؟

تمتم بكلمات وهو نائم: بحنس. أي قلب لديك؟!

عاد ليلًا للبيت الطولوني بجانب المسجد، أخذ ينبش في الأنقاض، جاءه حارس يريد طرده، فأعطاه بعض الخبز واللحم، وقال: لتتكلم يا أخي.. ما الذي يضرك في وجودي هنا؟

أزاح عادل الرمال بيديه ثم همس: يا بحنس، يا ساحرة الهرم، اغفري..

أخرج رقعة متآكلة فوضعها على صدره، عرف بعد ذلك أنها معادلة للخوارزمي، ربما كتبها أنس بن حمزة السكندري. ثم استمر ينبش في الأعماق حتى وجد دينارًا أحمديًّا يلمع في الليل كالعيون الثابتة للجان السفلي. التفت للحارس، ثم قال: تعرف أحمد بن طولون؟

قال الحارس: لا يعرفه غيري. أقضي عمري أحرس مسجده. هل جئت تبحث عن أثر أم كنز؟ اصدقني القول. ماذا ستفعل بهذه العملة؟

لكم أشفق عليك! ولكم أبحث داخل نفسي عنك! غدًا ربما أو بعد غد نتقابل مرة أخرى.

لم يفهم كلماتها، تجلت له لحظتها عرائس متعانقة تناجي الله في السماء، وتدعو إلى الرضى والمغفرة. لا بداية لها ولا نهاية لها، من ضلع صنعها الرب، ثم أخرجت صبي الطفل من رحمها، هو اتصال بين البشر يصعب شرحه. هذا من ذاك، وذاك من هذا، كما البنيان الصلب يتصل البشر، ومع ذلك تريد بحنس أن تشرخ صدره.

قال في حسم: أراهم أمامي هنا وهناك، حولك وحولي، كيف تقطعين ما هو موصول بلا بداية ولا نهاية؟ لن تستطيعي بتر ما هو ملتحم ببعضه البعض.

أفلتت من بين ذارعيه وهو لم يزل هائمًا فاقدًا لوعيه كأنه تحت تأثير خمر نافذ، تلاشت من أمامه وكأنها لم تسمع ولم تشتق. تركته في وحشة تشبه أسنان التماسيح تخترق اللحم بلا هوادة ولا نظام معروف.

***

على هامش الحكي 1918

انفضَّت الناس. وتفرقت بعد الصلاة مع السلطان أحمد فؤاد في مسجد أحمد ابن طولون، حتى العالم الإنجليزي قرر أن يكتفي من البحث ويكتب كتابه عن التاريخ. أما عادل فلم يكتف ولم يرض. أصبحت صورة أنس وميسون تسيطر على لياليه، يرى وجه ميسون وهو يقوم بواجبه مع زوجته، يراها في منامه وفي صحوه. فاز بصورة مع السلطان أحمد فؤاد. تباهت بالصورة زوجته، وبقي قلبه حزينًا. يعرف أن الحزن حوله، وأنه لم ينجح في وظيفة ولا زواج وحتى الأبناء يحتقرونه. هو سعيد بن كاتب الفرغاني. نعم هو سعيد بجبنه وعدم مواجهته في البداية، ثم بندمه وتيهه في النهاية. يا ساحرة الهرم؛ متى تغفرين؟

تمتم بكلمات وهو نائم: بحنس. أي قلب لديك؟!

عاد ليلًا للبيت الطولوني بجانب المسجد، أخذ ينبش في الأنقاض، جاءه حارس يريد طرده، فأعطاه بعض الخبز واللحم، وقال: لتتكلم يا أخي.. ما الذي يضرك في وجودي هنا؟

أزاح عادل الرمال بيديه ثم همس: يا بحنس، يا ساحرة الهرم، اغفري..

أخرج رقعة متآكلة فوضعها على صدره، عرف بعد ذلك أنها معادلة للخوارزمي، ربما كتبها أنس بن حمزة السكندري. ثم استمر ينبش في الأعماق حتى وجد دينارًا أحمديًّا يلمع في الليل كالعيون الثابتة للجان السفلي. التفت للحارس، ثم قال: تعرف أحمد بن طولون؟

قال الحارس: لا يعرفه غيري. أقضي عمري أحرس مسجده. هل جئت تبحث عن أثر أم كنز؟ اصدقني القول. ماذا ستفعل بهذه العملة؟

قال عادل في حماس: أتعرف؟ عند موضع قدمي كانت المدينة، وهنا بيت أنس ابن حمزة السكندري الذي أصبح بيت سعيد بن كاتب الفرغاني، ماذا ترى في المسجد يا أخي؟

قال الحارس في حيرة: لا أرى سوى العرائس المتعانقة أعلى الشرفات، انظر إلى أعلى.. إلى الشرفات التي تزين جدار المسجد.. هذا مسجد غير كل المساجد.. ولكني أبدًا لم أعرف ما معنى أشكال الشرفات هذه، ولم أر مثلها منذ ولدت.

جلس عادل القرفصاء فجلس الحارس بجانبه في حذر وهو يشرب من كوب الشاي ويأكل، وقال: السلطان أو الملك أحمد فؤاد.. يقولون: يا أخي إنه يريد أن يصبح خليفة المسلمين. فالخليفة العثماني انهزم أمام الإنجليز. ولكن أين هي الخلافة؟ بل سمعت أنهم يقولون إنه أراد بصلاته الجمعة في هذا المسجد أن يذكّر الناس بتاريخ قديم أو يحذو حذو أحمد بن طولون ويستقل بالبلاد.

ابتسم عادل وعيناه متسمرتان على الدينار الأحدي، ثم قال: يقولون أحمد بن طولون كان يوزع الخبز واللحم على كل أهل مصر..

قال الحارس في حماس: فلتدعُ الله أن يصبح السلطان أحمد فؤاد مثله إذًا. ولكن أعطني الدينار.

***

الحكاية الثانية

حلم أحمد

الباب الأول

أبكي الذين أذاقوني مودتهم — حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

لأخرجن من الدنيا وحبهمُ — بين الجوانح لم يشعر به أحدُ

ألقيت بيني وبين الحزن معرفة — لا تنقضي أبدًا أو ينقضي الأبدُ

بشار بن برد (شاعر عباسي)

«وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد عن كل إشفاق، حتى إنه كان يجوز إشفاق الوالد على والده، يحوطهم ويراعي أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم».

أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي يكتب عن أحمد بن طولون

312 هجريًا / 925 ميلاديًا

- 1 -

884 ميلاديًا / 270 هجريًا

حدثني جعفر بن عبد الغفار، كاتب أحمد بن طولون، فقال:

كنت أصاحب أمير الديار المصرية والشام والحجاز واليمن في جولاته الليلية داخل الفسطاط والقطائع. وأقسم إنه لم ينس ولم يسهُ يومًا عن تفقد حال المصريين طوال ستة عشر عامًا. خصص يومين في الأسبوع للاستماع لشكواهم ومقابلة كل أهل مصر. ولع أحمد بن طولون، أيده الله، بالمصريين كان واضحًا ليس فقط لي وأنا مصري، بل لجنوده من الأتراك والروم والسودان والنوبة. كل يوم جمعة يتنكر في صورة تاجر أو حرفي ثم يسير في الحارات والطرقات وحده أحيانًا ومعي في أحيان كثيرة.

لن أخفي أن ارتياحي لم يتوقف طوال مصاحبته، وأنني كنت أخشى الوشاية من خادمه لؤلؤ أو من أحد قواده الأتراك. كنت مصريًّا ولم يكن من عادة حكام مصر أن يستعينوا بمصريين، وعندما خلع عليَّ الأمير وأصبحت كاتبه قامت الدنيا ولم تقعد، قالوا: جعفر لا يتقن العربية، كيف يدير شئون الأمير؟ فأجاب الأمير، حماه الله: لو لم يتقن العربية فهو يتقن القبطية واليونانية، ويفهم البلاد، ويغوص في الأرض فيعلمني أسرارها، ويساعدني على فرز القيِّم من الرخيص، وشراء الثمين والتخلص من المسمم. قالوا: جعفر مصري لا يعرف شيئًا عن

الباب الأول

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

لأخرجن من الدنيا وحبهمُ بين الجوانح لم يشعر به أحدُ

ألقيت بيني وبين الحزن معرفة لا تنقضي أبدًا أو ينقضي الأبدُ

بشار بن برد (شاعر عباسي)

«وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد على كل إشفاق، حتى إنه كان يجوز إشفاق الوالد على والده، يحوطهم ويراعي أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم».

أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي يكتب عن أحمد بن طولون

312 هجريًا / 925 ميلاديًا

- 1 -

884 ميلاديًا / 270 هجريًا

حدثني جعفر بن عبد الغفار، كاتب أحمد بن طولون، فقال:

كنت أصاحب أمير الديار المصرية والشام والحجاز واليمن في جولاته الليلية داخل الفسطاط والقطائع. وأقسم إنه لم ينس ولم يسهُ يومًا عن تفقد حال المصريين طوال ستة عشر عامًا. خصص يومين في الأسبوع للاستماع لشكواهم ومقابلة كل أهل مصر. ولع أحمد بن طولون، أيده الله، بالمصريين كان واضحًا ليس فقط لي وأنا مصري، بل لجنوده من الأتراك والروم والسودان والنوبة. كل يوم جمعة يتنكر في صورة تاجر أو حرفي ثم يسير في الحارات والطرقات وحده أحيانًا ومعي في أحيان كثيرة.

لن أخفي أن ارتجافي لم يتوقف طوال مصاحبته، وأنني كنت أخشى الوشاية من خادمه لؤلؤ أو من أحد قواده الأتراك. كنت مصريًّا ولم يكن من عادة حكام مصر أن يستعينوا بمصريين، وعندما خلع عليَّ الأمير وأصبحت كاتبه قامت الدنيا ولم تقعد، قالوا: جعفر لا يتقن العربية، كيف يدير شئون الأمير؟ فأجاب الأمير، حماه الله: لو لم يتقن العربية فهو يتقن القبطية واليونانية، ويفهم البلاد، ويغوص في الأرض فيعلمني أسرارها، ويساعدني على فرز القيِّم من الرخيص، وشراء الثمين والتخلص من اللمم. قالوا: جعفر مصري لا يعرف شيئًا عن

بغداد وسامراء ولا حتى زارها. فأجاب: يعرف كل شيء عن مصر، وولاؤه لأميرها، هذا يجعله أفضل من الكثيرين.

لم يكن خوفي منه نابعًا من عدم ثقة به، بل عدم ثقة بخادمه لؤلؤ. كنت أعرف بطش الأمير وأفهمه، وكان بطشًا للظالم أو لسيئ النية، ولم يكن لأمثالي. ولكن للملوك أهواء لا يمكن فهمها، ولهم قرارات تُحسم في غضون يوم فتمسح بيوتًا وتشيد قصورًا. كنت أخاف الأمير، حفظه الله، وإعجابي به يزداد يومًا بعد يوم.

اليوم سرنا على أرجلنا في الصقيع أربع ساعات أو أكثر، وكان في الأربعين أو اقترب منها، وكنت ألهث وهو يسخر مني قائلًا: لا بد أن أستبدل بك آخر يا جعفر لو كنت لا تستطيع السير..

قلت مسرعًا: بل أستمتع به يا مولاي ما دام معك.

نظر إليّ في تهكم، ثم قال وعيناه تتجهان إلى بيت على سفح الجبل بعيد عن الفسطاط وضواحيها: تعال نتجه إلى هذا البيت.

قلت في رفق: مولاي، الحذر يمنع الخطر، نسير ساعات بلا جنود أو حراسة. من يدري ماذا ينتظرنا داخل بيت في الصحراء!

ابتسم وهو يتجه إلى البيت في حماس: الخير دومًا في المجازفة.

طرق باب البيت في ثقة، لم يفتح صاحب البيت. فقلت في رجاء: لا يوجد أحد بداخله. لنعد يا مولاي لو سمحت لنا.

قال في حسم: لا لن أسمح لك.

ثم أعاد الدق على الباب حتى اقترب شيخ وطلب الصبر، ثم فتح في رفق وقال: السلام على الغريبين.

قال الأمير بعد السلام: كنا نريد شربة ماء؛ فقد طال الطريق، وتلاشى الحماس في التقدم أكثر من ذلك.

قال الشيخ وهو ينظر إلى الأمير: من تكون؟

فأجاب الأمير: عابر سبيل.

ثم نظر الشيخ إليّ وقال: ومن هو؟

- يعمل عندي..

نظر الشيخ إليّ، ثم أعاد نظره إلى الأمير، ثم قال: صدقت يا بني، لو قلت لي إنه صديقك ما سمحت لك بالدخول، فأنا أرى الوجل في عيني من يعمل عندك. ما اسمه؟ وما اسمك؟

قال الأمير: أنا أحمد وهو جعفر.

قال الشيخ: أحمد.. على اسم الأمير؟

أشار إلينا بالدخول، ثم قال: تفضلا حتى آتيكما بشربة ماء.

قال الأمير وعيناه تتفحصان البيت: لِمَ تعيش بعيدًا عن الفسطاط؟

- لم ينفعني قربي من الناس، فآثرت البعد.

- هل تحيا وحدك يا شيخ؟

- لي أربع بنات ولم أُرزق بولد.

جاء ببعض الماء في إناء ثم قال: يا بني، لا تشربها كلها، فلا ماء يصل إلينا هنا. لأحصل على هذه القطرات سرت أيامًا، ودفعت الذهب والفضة.

رشف الأمير رشفة أو رشفتين، ثم قال: ماذا تعمل يا شيخ؟

- خياطًا.

- وماذا تخيط في هذا الفناء؟ ولمن؟ أين بناتك؟

نظر إليه الشيخ في شك، فأكمل الأمير: هل يعشن معك هنا؟

قال في مرارة: هن سبب انتقالي إلى الجبل. تزوجت اثنتان، وتحيا معي اثنتان.

ثم قام الشيخ في تردد ودخل حجرة وأمر إحدى بناته أن تجهز الطعام.

قال الشيخ في رفق: كان طريقًا طويلًا عليك يا أحمد، ابقَ لتأكل شيئًا.

سأل الأمير حينها: هل يهتم الأمير بأمركما؟

صمت الرجل، ولن أخفي عليك أن الخوف تسرب إلى قلبي من رده. خفت أن يقول لا فيقتله أحد في الحال لصدقه، وخفت أن يقول نعم فيقتله أحمد الآن لكذبه.

قال الرجل: لي ابنتان تعيشان معي، إحداهما جمالها يبهر الغريب والقريب، طمع فيها كل رجال الفسطاط حتى جنود الأمير.

قلت مسرعًا: ادعُ للأمير يا شيخ عند ذكر اسمه.

تجاهلني وأكمل: والابنة الثانية تكبرها، وهي أولى بناتي، ساء حظها وذبلت وتلاشى جمالها، لا تنجب لا ولدًا ولا بنتًا، لفظها زوجها كما تلفظ النعاج الحمل الغريب. عادت إليَّ ذليلة وليس بيدي شيء. آثرت الابتعاد بالجميلة والمنكسرة، فقد ازداد كلام الناس حول من تركها زوجها، وحول من تبهر الجميع بجمالها.

ابتسم الأمير ثم قال: يالشدة ذكائك! لم تُجب عن سؤالي.

- بل أجبته، ولكنك لم تستمع.

فتحت فمي في فزع ورعب على تجرؤ الشيخ.

فقال أحمد: معك حق، ربما لم أستمع. لا بد أن تُزوِّج ابنتك الجميلة، الجمال فتنة وحرب.

صمت لحظة ثم قال: تزوجها أنت أو خادمك يا بني.

قال الأمير أحمد في ذهول: تعرض ابنتك على الغريب؟!

- لا أثق في القريب.

- أتزوجها دون أن أرى حتى وجهها، ربما لم تكن بهذا الجمال.

تردد الشيخ قليلًا ثم قال: هل تريد أن ترى وجهها مرة؟ ربما.

- بل أريد أن أعرف ما الذي يُغضبك من الأمير. هل كنت تفضل ابن المدبر عامل الخراج الذي عينه الخليفة والذي نكل بأهل مصر على ابن طولون؟

- أعوذ بالله يا بني، ابن المدبر كان شؤمًا، الطمع يجلب الفقر، لم أر في شره أحدًا منذ وُلدت.

- وابن طولون؟

- هل أنت تعمل معه؟

- بل أتاجر في الشام.

- أتعرف أنه ينشر الجواسيس في كل مكان، لا يجرؤ أحد على قول الحق.

- قل الحق، الشجاعة تنقذ دومًا.

- أقول لك شيئًا، الأمير أحمد بن طولون مختلف.

- مختلف كيف؟

- يرى ما لم يره غيره، ويفهم ما لم يفهمه غيره. يقولون: يرى في منامه الملوك القدماء، ويراوض الخليفة كما يراوض الرجل السبع بالحيلة والحسم، بالتهديد والمناجاة. من يرى الملوك القدماء في نومه ينتصر دومًا.

ابتسم أحمد، ثم قال: أيعجبك الأمير؟

- لم أقل هذا، لا يعجبني الأمراء.

وضعت يدي على فمي وأنا أتخيل رأس الشيخ معلقًا على أبواب القطائع.

ولكن الأمير قال في هدوء: تظن أن الأمير يريد المجد والسطوة؟

- بل أعرف أنه يريد الخير لأهل مصر.

- لِمَ لا يعجبك إذن؟

- لا طاقة لي على فهم الأمراء، أنا خياط لم أنجب ولدًا ولا أعرف فنون القتال. الأمراء يا بني لا أمان لهم، يملكون الشمس والقمر، ومن يتحكم يسطو أو يرحم، والنفس بها الفجور والتقوى، والفجور قبل التقوى. فالرحمة تصبح معهم كالمياه النادرة في الجبل.

- لا تعجبني كلماتك. ماذا تبغي؟

قال الشيخ في سخرية: ولو قلت لك كل أمنياتي الآن ماذا تستطيع أن تفعل؟

- كلام الليل يتلاشى في النهار، ولكن الليل يخرج سكرات الموت، وما أصدق سكرات الموت.

- في هذه السن لا أبغي سوى ستر ابنتي الجميلة، ووفرة المياه حولي.

ساد الصمت ثم قال الأمير: لك ما تريد.

- معذرة؟ هل جاءتك سكرات الموت يا بني؟

- سآمر ببناء العيون لتوصيل المياه إلى بيتك أنت. وسأزوج ابنتك لقائد يصونها.

قال الشيخ في ريبة: ظننت أنك أنت من سيتزوجها.

صمت الأمير ثم قال: هل سأرى وجهها؟

- قلت لك سأسمح لك.

- كم عمرها؟

- هي أصغر بناتي ولكن لِمَ تهذي؟ هل شربت الخمر قبل المجيء؟ لابد أنك شربت الخمر، فأصابك العطش والخرف. كيف تأمر وتنهى؟ هل تعرف أحد جنود القصر؟

قلت حينها في رفق: يا شيخ.. لا تتلفظ بما ستندم عليه.

قال الشيخ في حسم: لا خوف لي من الجنود. ماذا سيفعلون بي في هذه السن؟

قال الأمير بعد تفكير: ماذا سيفعلون؟ هل تتذكر ماذا فعل الأمير بكاتب الخليفة؟ ربطه على اللوح الخشبي، ثم مد جسده حتى يتفتت كاللحم الضأن المطهي على نار هادئة يومًا أو اثنين.

- هذا كاتب الخليفة. أما أنا فشيخ لا قوة لي ولا ولد.

- لِمَ لا تريد لابنتك أن تتزوج أحد جنود الأمير؟

- أنت جئت تبغي شربة ماء. والرجل الذي يدخل البيت وهو يبغي العيش يصلح زوجًا.

تمدد الأمير في مقعده ثم قال: دعني أراها أولًا.

- قلت لك جمالها لم تره عين. عذراء يتشاجر عليها كل أهل القطائع والفسطاط.

- دعني أراها أولًا.

- هل ستتزوجها؟ لا أريد لابنتي أن يرى وجهها الرائع سوى من سيتزوجها.

- كيف لي أن أعد بما لا أعرف؟ دعني أراها..

نادى على ابنته قائلًا: سنية.. تعالي هنا..

صمت الأمير برهة ثم قال: سنية ابنتك خارقة الجمال، أليس كذلك؟

- هي كذلك.

- ولكني لا أريدها.. كنت أريد أن أرى ابنتك الأخرى.

فتح الشيخ فمه ثم قال: قلت لك إنك سكير..

- للقوة سكرتها نعم. ألا تعجبك ابنتك الأخرى؟

- تعدت الثلاثين، وبهتت بعد حزن عميق. قلت لك لفظها زوجها كنواة التمر، عقيًا بملامح مبهمة.

قال الأمير: ما اسمها؟

- أسماء.

- ناد عليها إذن.

ضرب الشيخ كفًا على كف، ثم قال في توعد: لو رأيتها ولم تعجبك..

قاطعه: لا تتوعدني، لم أعتد هذا. ناد عليها، لا أحتاج إلى الجميلات.

- كيف لرجل ألا يعشق الجمال؟

- لو كان كل الجمال أمام قدميه طوال العمر.. يصبح العقل أكثر جاذبية وأكثر ما يثير الشهوة.

- لا أفهمك يا بني.

- ناد عليها.

نادى ابنته، فدخلت في خطى متثاقلة وهي تغطي وجهها بخمارها، وترتدي خفًا قديمًا، قالت في عدم حماس: نعم يا أبي.

قال في لهجة آمرة: ارفعي خمارك..

نظرت إلى أبيها في ذهول، ثم إلى الأمير، ثم اتجهت عيناها إليّ، وأكاد أقسم إن عينيها اتجهتا بعد ذلك إلى الأمير، وكأنها لا ترى في الدار غيره، وكان شابًا بعينين سوداوين وملامح صارمة، وكنت دائمًا أرى الشغف به في عيني الجواري والزوجات.

التفت أعينهما، فقال في رفق: والدك طلب منك أن تكشفي عن وجهك.

قالت في صوت مبحوح: ليس لي أن أكشف عن وجهي أمام الغرباء.

نظر الأمير إلى الأب فقال في حسم: اسمعي ما أقول بلا جدال يا أسماء.

ترددت قليلاً وعيناها لا تتركان عيني الأمير أحمد، ثم زحزحت خمارها في بطء، وطأطأت رأسها، فقال الأمير وعيناه لا تتركان وجهها: هل ذهب نظرك يا شيخ؟ كيف لا ترى كل هذا الجمال؟ غطي وجهك يا فتاة.

نظرت إليه في دهشة، ثم غطت وجهها.

- ألم تزل تريدها؟

- أي زوج يترك هذه المرأة؟

- كان زوجها يعمل في صناعة الصابون. لا بد أنه يكسب أكثر منك بكثير، ولكنه لم يبق عليها حتى مع زوجاته وجواريه. لا أعرف لمَ غضب منها كل هذا الغضب. ألأنها لم تنجب؟

بدا على أسماء الحسرة، واتجهت إلى الداخل في بطء، فناداها الأمير في لهجة آمرة، ثم قال في رفق: لمَ تركك زوجك صانع الصابون يا أسماء؟

- لا أعرف.

- لا تعرفين؟ بل تعرفين.

قالت في بطء: يا سيدي.. هل آتي إليك بالماء؟

- والدك يقول إن الماء قليل هنا.

- للضيف حق.

- ولو شربت كل الماء. ماذا ستفعلون؟

- نبحث عن غيره، ولكنك ستخرج من بيتنا راضياً.

قال وهو ينظر إليها: سأخرج راضيًا هذا أكيد.

ثم قال للأب: متى يمكنني العقد على ابنتك؟

فتحت فمها في ذهول، وقلبها يخفق كما لم يخفق من قبل. قال الأب: عدني ألا تعيدها لي بعد شهر.

- لن أعيدها لك بعد شهر.

- ولا بعد عام.

- ولا بعد خمسين عامًا.

قام الأمير، ثم ربت على كتف الشيخ قائلًا: اطلب مهرًا يليق بالمصرية، فستدخل قصر الأمير.

- أي أمير يا بني؟ ابنتي ليست جارية.

- الأمير أحمد.. لن تدخله كجارية.

- هل تعمل في قصر الأمير يا بني؟

- بل أنا هو يا شيخ.

قالت أسماء في بطء لوالدها: لقد صدق يا أبي، عندما يتزوجني سيصبح أهم عندي من الأمير أحمد. الزوج أمير عند زوجته وملك وخليفة.

نظر إليها الأب في فزع ثم قال: كيف تجرُئين؟

نظر إليها الأمير حينها في انبهار، ثم قال: بل الأمير زوج، والملك زوج، والخليفة زوج أمام زوجته يا مصرية.

قلت حينها في حسم: انحنِ أمام الأمير يا سيدي.

ثم اتجهت للشيخ، وقلت نفس الشيء. وأكدت له مرة واثنتين وثلاثًا أن من يتكلم معه هو الأمير أحمد بنفسه.

رأيت الشيخ يرتعش ثم ينحني يلثم موطئ قدم الأمير، وغابت أسماء عن الوعي أمامي، سقطت على الأرض كسطل الماء بلا حراك. دخلت أختها وحاولت إيقاظها ففتحت عينيها، وانحنت أمام الأمير قائلة: معذرة يا مولاي..

- لِمَ تعتذرين؟

- لا أليق بمثلك. تركني بائع الصابون..

قاطعها: ليتزوجك أمير مصر.. هي دنيا تأخذ منحنيات مفاجئة، فلا بد أن تكوني دومًا متأهبة.

***

الأمير أعانه الله كان يفاجئنا بقرارات لم أعلم يومًا هل تخرج من بطن القلب أم من رجاحة العقل. فمنذ خدمتي لأحمد بن طولون، أطال الله عمره، لم أتوقع ردة فعله قط ولا خطوته القادمة. حكى لي عن الرؤية وعن الحلم وصدقته، فلا يستطيع أحد ألا يصدق الأمير، القوة تعطي المصداقية لكل الأفعال، والهيبة ترضخ النفس دومًا. كان في العاشرة يحلم بعشاء دافئ من يد أمه، ويتوق إلى صباح يمتلك فيه العالم أو بعضه. عندما أيقظته أمه قالت إنه كان يصرخ متحمسًا لشيء أو خائفًا من شيء. حكى لي الحلم ولم يقصه على غيري.

كان شابًا في الحلم وليس طفلًا في العاشرة، انطلق من بحر إلى بحر، ومن نهر إلى نهر، بلا مركب ولا شراع، كان يتزحلق على الأمواج كالطائر المتمرس أو المجنون، ثم تلاشت البحور، وهدأت الأنهار، وخرج من فم الأرض ملك غير كل الملوك، لا يرتدي تاجًا كالخليفة العباسي، ولا عباءة مرصعة بالذهب ولا يحمل سيفًا، كان حجرًا أو شُبِّهَ له بتاج يمتد من الرأس إلى السماء، وبؤبؤ أسود يقع في منتصف بياض ناصع، كان وجهه وجه بشر، وجسده جسد أسد، ولكن قوة العينين وحيويتهما صاحبت أيام طفولته وصباه. توقف أمام الملك الحجري وتقهقر، فقال الملك بصوت عميق: أحمد.. ماذا ترى؟

ارتعش صوته، وهمس: أرى ملكًا مهابًا.

قال الملك: وماذا تريد؟

قال أحمد: أريد ملكًا مثل ملكك.

- هل تتجرأ وتطلب؟ لو أغرقتك الآن تفنى، ولو رحمتك تخلد.

تساقطت الدموع من أحمد، وغطى وجهه وشعر بالمياه الباردة تغمر جسده.

قال صوت الملك من جديد: كاذب أنت يا غلام. أنت لا تريد ملكًا مثل ملكي، بل تريد خلودًا على الأرض مثل خلودي. لِمَ لا تبقى هنا؟

قال أحمد في صوت ضعيف: أبحث عن داري منذ سنين.

- أين دارك؟ أليست حيث يوجد أمك وأبوك هنا في سامراء؟ هنا في العراق؟

- لا.. هي حيث يتلاقى البحر والنهر، هي عند مجمع البحرين، هي حيث تكون أنت.

- أتعرفني يا أحمد؟

بدأ يسترد شجاعته ثم همس: أبحث عن دار ولدت من أجلها.

- ولم تولد فيها؟

- ولم أولد فيها.

- قال الملك: تظن نفسك ذا القرنين وأنت فتى ضعيف، لا ينفعك سوى منصب والدك ومكانته عند الخليفة العباسي. أنت تابع له!

- لست تابعًا.

- من تكون يا غلام؟

- أخاف من الغوص في روحي، فلم أعد أعرفها.

- ولو تمكنت منها.. ماذا ستفعل؟ كم من ملكٍ فني بها ولم يترك أثرًا.

- لن يترك أحد أثرًا مثلي.

- لم تسألني لمَ يفنى الملوك بلا أثر.

- لأنها أرض لا تقبل المنافسة، لا بد من عشقها بالروح قبل الجسد، أعرف.

- كيف تعرف وأنت لم تتعد العاشرة؟

- عندما أبحث عن داري لا بد أن أحافظ عليها وتملك كل عمري.

أقسم أحد أن الملك ابتسم من خلف شفتيه الحجريتين وقال: عندما تملكك تملكها. ولو تملكك الطمع تنهزم، ولو خفت تموت، ولو ترددت تنهزم. أما لو تملكتك..

ساد الصمت، وجسد أحمد يختنج، ثم قال الملك في صوت بطيء: يا أحمد.. لو ملكتك تكشف لك عن كنوزها، ولو لم تملكك فستدفع بك إلى الهاوية مثلك مثل غيرك.

- عن أي كنز تتكلم يا ملك؟

- تعرفني؟

- أقسم أني لا أعرفك، ولا رأيت مثلك.

- أين بلادك؟

- من حيث أتيت أنت.

- ومتى تبغي السفر إليها؟

- أمس أو منذ عام مضى؟

- في المجازفة كل انتصارك، ما تُقدِم عليه لم يقدم عليه مسلم قبلك.

- هي لي.

- هي للخليفة العباسي.

- هي لي.

- كوالي الخليفة العباسي.

- هي لي كأحمد بن طولون. هي لي بملكها وكنزها.

- هل ستهدم وتعبث بها؟

- بل سأفعل ما تريد.

- افعل ما يخرج من أعماق روحك. في العشق النجاة.

تلاشى الملك، وخرجت صرخات الطفل، هدأته أمه ولم تفهم لم يرتجف، ولم يتصبب عرقًا، قالت في فضول: أحمد، هل كان حلمًا جميلًا أم مخيفًا؟

- كان مخيفًا كل الخوف. يكاد يتملكني.. فيقضي على عقلي..

قالت في رفق: يا بني.. أنت أعز ما أملك.

التقت عيناه بعيني أمه ولم يعرف حينها ما ستفعله من أجله، ولا كيف يغمر الحب كل الطرق والمنعطفات.

***

قاسم أم أحمد بن طولون، تمسكت به ومن أجله، فلا عائلة لها، ولا رجل يستحق التضحية والثقة. هي جارية خطفها تجار النخاسة من بخارى وقدمها لطولون ولدت أحمد، وتحببت له بولد فأعتقها. أما طولون والد أحمد فقد خطفه الجنود هو أيضًا من بخارى وأهدوه للخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، فحظي عنده بمكانة عالية، وتدرج في المناصب حتى أصبح قائد حرسه الخاص، وعند وفاة المأمون اعتمد عليه المعتصم أخو المأمون، وقلده المناصب وأعطاه العطايا. جاد عليه الزمان، فبعد أن كان غلامًا للخليفة أصبح قائدًا يملك ويأمر.

وبعد شرائه لقاسم عشقها كما لم يعشق امرأة قط، وحظي ابنها على مكانة غير مكانة كل أبنائه. خافت عليه الأم من زوجة أب تغار منه، أو من أخ يريد أن يستأثر بحب الأب، فتكلمت معه ساعات وهو طفل تحذره من القريب قبل الغريب، قالت إن الفتى لا يثق إلا في أمه ثم ولده من بعدها، فلا عهد لجارية، ولا كلمة لقائد، ولا إخلاص لخليفة. قالت إن حياتها له وحوله، وإن إرضاءه هو غايتها، ووصوله فوزها.

عند موت والده وهو في الثامنة عشرة من عمره، خرج في حدائق سامراء في العراق يبكي وحده، يتوقع غدرًا كما علمته أمه، سيحبسه إخوته قطعًا أو يغضب عليه الخليفة فيذبحه اليوم أو غدًا. في سامراء تعلم الجندية واحترف فنون القتال، ولكنه تعرف أيضًا على الخيانة، وعاصر مجون الجنود الأتراك، فابتعد عنهم، لا انتمى إلى حاشية الخليفة، ولا رافق الأتراك.

كان يشاهد عن بعد، ويفهم ولا ينطق، آثر تعلم الفقه على شرب الخمر، وحفظ القرآن على المجون، فذاع صيته عند الخليفة وعند كل بني عباس.

منذ تولي بني عباس ومكانة العرب تتهاوى يومًا بعد يوم، فلا يثق بهم خلفاء بني عباس، للعربي عائلة وقبيلة وولاؤه لهما أولًا، وللعرب فخر وكبرياء يقفان عائقًا بينهما وبين طاعة الأوامر. اتجه الخلفاء لشراء الغلمان الأتراك وتدريبهم، وألغوا ديوان الجند فلم يعد للعربي عطايا في بلاد المسلمين، ولم يعد له مكانة ولا يتدخل في الحروب ولا يسيطر عليها كما كان في الماضي. ذاع صيت الجندي التركي والفارسي، وتزايدت الفتن والمؤامرات، وتوغلت الجواري في القصور، وقتل الأخ أخاه، وأصبح الخليفة مجرد منصب يموت صاحبه بين ليلة وضحاها.

لم يكن أحد في شجاعة أحمد، يخمد الفتن، ويأتي بالنصر كلما قاد جيشًا في الداخل أو الخارج. أحبه الخليفة المستعين وجعله من حرسه الخاص، ولكن الجندي المخلص ليس دومًا من يصل في زمن تتفشى فيه الخيانة. ازداد التنافس

بين المستعين وأخيه المعتز، وتآمرت أم المعتز للتخلص من الخليفة المستعين لتقليد ابنها الحكم، وطلبت من أحمد أن يقتل الخليفة فهو حارسه الخاص، هددته وتوعدته، وأغرته بالمال والذهب، ثم عرضت عليه ما لا يمكن لرجل أن يرفضه، ستعطيه ولاية واسط في العراق وهو في هذه السن الصغيرة، فلا سند له بعد موت والده، ولا شفاعة من جندي ولا خليفة، المستعين سيموت اليوم أو غدًا بيده أو بيد غيره.

قال إنه سيفكر في الأمر، وكان قد عزم أمره أنه لن يفعل ما تأمره به. عاد إلى أمه مهمومًا. أخبرها بما جرى.

قالت في رفق: أعرف أنك لن تخون.

- لن أخون. ولكن القادم أبشع.

- هل تخاف من تبعات رفضك؟

- بل أخاف من تبعات موت الخليفة، لا مفر من قتله، ستقتله الجارية.

- تحشّن في لفظك، فأمك أيضًا كانت جارية.

- أمي كانت حرة ظلمها الزمن يومًا ثم أنصفها، لديها صدق الحرائر وقوة الرجال.

ابتسمت، ثم ربتت على كتفه وقالت: لله الأمر من قبل ومن بعد. لا تغريك ولاية واسط! فماذا يغريك يا أحمد؟

بقي صامتًا.. فقالت في تأمل: تفكر في مصر فقط، تحلم بها ليلًا كحلم قيس بليلى، تحتاج إلى الزوجة التي توطد موقعك هنا.

قال في حسم: موقعي ليس هنا.

- هو الحلم أو الكابوس الذي يرافقك منذ عشر سنوات، اسمع ما تقول أمك واختر من توطد علاقتك بالخليفة تصل.

التقت عيناه بعيني أمه ثم قال: مصر..

ابتسمت وقالت: لم يكن الوصول إليها مباشرًا قط، ولم يكن تركها بالأمر السهل، من توغل بها لم يتركها إلا بحروب سبعة جيوش أو أكثر، لن يترك الخليفة عليها واليًا أكثر من عام، العباسيون يعرفون ويقرءون التاريخ.. دخلها عمرو بن العاص ظنًّا أنه يغزو وينتصر، فتملكته فأصبحت غايته البقاء بها، وغامر حينها بالكثير. لو أردت النصح فابتعد عما يملك قلبك.

- أموت إن لم أرجع إليها.

- لم ترها يا بني لتعود إليها.

- هي مكاني منذ رأيت الحلم.

- أحمد..!

- مَنْ تريدين أن أتزوج منها؟

- خاتون ابنة القائد التركي يارجوك. بزواجك منها تحمي ظهرك.

- اخطبيها يا أمي..

- هي جميلة.

- اخطبيها..

***

أقسمت أم المعتز أن تنتقم من أحمد لرفضه قتل الخليفة، سلطت عليه الجنود وكادت له المكائد. بينما أمه تمسك بقلبها وتعتصر خوفها الذي يمتد ليصل إلى حدود اليمن. لجأت قاسم أم أحمد لقائد آخر تركي أيضًا كان صديقًا لسيدها والد ولدها، باياك التركي، حكت له -وهي ترتجف- خوفها على الولد وطلبت حمايته، فله بيع عند المعتز. كانت امرأة تحارب امرأة، وأم ولد تحارب أم ولد،

كانت جارية أم جندي محارب أم الخليفة. صلت وقرأت القرآن وانتظرت ما تبغي.. وجاءت البشرى، وطلب منها القائد باياك الزواج. وافقت على الفور على أن يحمي ولدها، وعندما يأتي الوقت المناسب يقلده منصبًا يستحقه، فهو لم يخن يومًا ولم يخطئ. حارب وانتصر ودافع عن الخلافة مرة ومرتين.

وافق القائد باياك فقرّت عيناها إلى حين. تعامل مع أحمد كولده، وكان يُكِنّ احترامًا لطولون وحبًا لأم أحمد. أما قاسم أم أحمد فلم يشغلها العشق إلا بولدها، هو منها وكل الرجال غرباء.

***

عرفت الأمير أحمد بن طولون، أعانه الله، عن قرب، وعرفت تاريخه منه ومن المقربين إليه. كان جادًا لا تشرد عيناه عما يبغي، لا تفتنه جارية ولا تسيطر عليه مجالس اللهو، أهداه الخليفة جارية تعجز الأقلام عن وصف جمالها تُدعى مياس، ضمها إلى حريمه في العراق، وعند أول لقاء بينهما عشقته مثلها مثل غيرها، ولكنها عرفت أيضًا أن عشق أحمد هو العذاب نفسه. فزوجته ابنة القائد التركي يارجوك كانت لها مكانة خاصة عنده، أنجبت له الولد الذي رأى فيه نفسه منذ أول يوم، فأطلق على نفسه أبو العباس أحمد بن طولون وربط حلمه بولده العباس.

عندما تقابل مع مياس لأول مرة ورفع وجهها إليه، قال في بطء: لم أر هذا الجمال من قبل.

همست وهي تطأطئ رأسها: كيف أشكر قدري على أسر جعلني أتحرر بحبك، فالعشق هو الحرية يا مولاي؟

ابتسم: مياس، عندما يهدي الخليفة أحد جنوده جارية بارعة الجمال وعذراء، فهو إما ينوي قتله وإما يخشى من عداوته. ترى أي مصير ينتظرني لو تعلمين؟

قالت مسرعة: أقسم لك أن ولائي لسيدي، وأنت سيدي.

– لطالما استعمل الخلفاء جواريهم للقتل والخيانة، ولكل جمال قبح ولكل فصاحة بعض الخبث. من تكونين؟

– جاريتك وتحت طوعك.

– تغنين وترقصين وتلقين عليَّ الشعر وتبارزينني بالكلمات، ثم ماذا؟

– أفعل ما تأمرني..

– خاتون زوجتي.

– وسيدتي.

– والعباس ابني الذي سيرث ملكي من بعدي حتى لو أنجبت أنت جيشًا من الرجال.

بقيت صامتة.

فقال في غضب: ألا تسمعين؟

– أسمعك يا مولاي، ولكني لا أعرف عن أي ملك تتحدث، ولا عن أي إرث.

– عندما تنظرين إليَّ ماذا ترين؟

– أرى قائدًا شجاعًا من قواد الخليفة العباسي.

– ومواليًا وتابعًا.

– بل أرى قائدًا مخلصًا.

– تبادلينني الكلمة بالكلمة..

– أخاف من طموح القواد، وأطيع كل أوامرك..

– ابني وزوجتي..

- سيدتي وسيدي..

- لا أعرفك بعد ولا أثق بك. لا جمال يفتنني يا مياس.

- ربما لا جمال يفتنك يا مولاي، ولكن ماذا ستفعل بمن فُتنت بجمالك أنت؟

ضمها، فتنفست داخل صدره وقال: لو كنت تتجسسين لصالح الخليفة فسأقطع رقبتك قبل أن يصله ما سأقول.. اسمعيني اليوم والآن.. لي مُلك مصر.. وسأنقل إليها الخلافة نفسها يومًا ما.

فتحت فمها في ذهول فأكمل: ولو كان وراء كل هذا الجمال إخلاص وطيبة فسأعتقك وأريك دنيا لا تحلمين بها.

انحنت وقبلت يده قائلة: أعطني فرصة أثبت لك ولائي.

شد يدها قائلًا: الشيء الوحيد الذي لا أتسم به هو الصبر، ولاؤك تثبتينه اليوم والآن.

***

كان عمر العباس بن أحمد أربعة أعوام أو أزيد بقليل عندما اخترق كل القواعد، وقام بمجازفة لا قبل لأحد بها، كانت حادثة يعرفها كل المقربين من الأمير أحمد. في منتصف الليل والعباس يرقد في حجرة الأطفال مع مربيته بينما أمه تنام في الحرم ووالده في حجرته، تسلل العباس خارج حجرة الأطفال وسار في البيت الكبير تائهًا هائمًا يبحث عن شيء واحد، ولم يكن يبحث عن حضن أمه بل عن والده. طرق الأبواب وفتحها والدموع في عينيه حتى وجد حجرة والده، طرقها، فتح الباب ووقف أمامه، بدا كالنملة أمام جبل «يشكر»، الأبواب الشاهقة تعكس ضآلته واحتياجه. فتح الأمير أحمد عينيه ونظر لظل الطفل أمام الباب في الظلام وأشعل الشمعة، ثم اقترب من ابنه وسأله: ماذا تفعل هنا؟ فقال الطفل في تلقائية: كنت أبحث عنك.

- ولِمَ لم تنتظر حتى الصباح؟

- في الصباح لا أراك، بينما مكاني هنا معك.

ثم جرى الطفل ونام على سرير والده وأحكم الغطاء حوله وقال: أبي، تعال هنا، المكان واسع.

ابتسم الأمير أحمد، ثم تمدد على سريره وقال: ولكن هذا لا يجوز. أنت رجل تنام في حجرة وحدك.

- أنا رجل أنام مع أبي وليس في حجرة الأطفال.

ثم فاجأ والده بحضن كبير وقال: لا تطردني.

عانقه والده وقال: لن أطردك.

- غدًا ستطلب منك أمي أن تطردني.

- لن أطردك.

- أصاحبك طوال عمري ولن تفرقنا حجرات.

ابتسم الأمير حينها وهو يعرف أن الحب كامن في الأعماق للعباس أولًا ثم لأي إنسان آخر على الأرض. ويعرف أيضًا أن الخوف على ابنه لا يترك الروح تهدأ. هو أغلى من كل من أنجب، هو قطعة من الروح أو أكثر. لن تفهم خاتون ما يقول ولا مياس ولا أي امرأة. ينظر إلى العباس فيرى قلبه يمشي على الأرض، هو سلواه في الضجر، وزينته على الأرض، هو الونس والصحبة. لا يوجد أحد في تلقائية عباس ولا حنانه ولا مجازفته وقوته.

***

وكأن ملوك مصر القدماء كانت تساعد مولاي أعزه الله وأيده بنصره، فقد أعطى الخليفة العباسي ولاية مصر لبايباك زوج أم أحمد بن طولون، ففوض أحمد

بالرحيل إلى مصر وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، وليس لي سوى أن أشبهه بذي القرنين، فلا جسارة تضاهي جسارته ولا طموح يقارن بطموحه. لا بد أن سحر المصريين القدماء كان يحركه فلم يشأ القدر أن يولي زوج أمه مصر، أم أن أمه سعت سعيها إلى هذا والله أعلم؟ لا أعرف. عند وصوله إلى مصر أقسم أنها له هو فقط، وكيف لحاكم أن يحفر اسمه على بلاد كهذه؟ يسيطر الذهب على جنوبها، ويغرق النيل طميها الأسود، ليس لحاكم أن يسيطر إلا بالجيش وبالبناء.. كوّن جيشًا وبنى قصرًا.. وبقيت أموال مصر في يد غيره، صاحب الخراج ابن المدبر، وبقي كاتب الخليفة شقير يتجسس على الأمير أحمد، ويرسل إلى الخليفة كل نفس يتنفسه أحمد، وكل جندي يجهز به جيشه.

وعند موت زوج الأم تولى ولاية مصر حموه أبو خاتون زوجته، القائد التركي يارجوك، فبعث له رسالة قال فيها: «سلم من نفسك لنفسك»... فاستمر يحكم مصر نيابة عن صهره، وآل إليه ملكها أو هكذا ظن.

***

لم أر في حياتي أبًا يحب ابنه كما أحب الأمير ابنه العباس، لا أعرف السبب حقيقة، فقد رزقه الله بالكثير من الأولاد إناثًا وذكورًا، وأنجبت له مياس جاريته خارويه بعد العباس بعدة سنين، ثم أنجبت كل زوجة ولدًا أو أكثر. أعتقد أن حبه للعباس كان لأنه أول أولاده، وكان سببه أيضًا أنه تركه صغيرًا وهو في السادسة وذهب إلى مصر، ولم تأت زوجته خاتون مع أولادها سوى بعد عامين، كان يكتب رسالة إلى العباس كل يوم، وكان العباس متعلقًا بوالده حتى إنه رفض الطعام والنوم واستمر في بكاء لا يتوقف، هكذا بعثت له خاتون. وعندما حانت الفرصة أتى بزوجته وأبنائه وكل حرمه. وعندما مد يده لابنه انهمر في البكاء، وقال في تلقائية إنه غاضب منه لأنه تركه.

ضربته أمه خاتون وقالت: صافح والدك الأمير، ماذا حل بك؟

ولكن تلقائية العباس وشوقه جعله يقول: ولكني غاضب منه.

جلس أحمد على ركبتيه أمام ابنه وشرح له لمَ رحل. استمع الطفل والدموع تنهمر، ثم قال: ولكن سترحل من جديد.

قال أحمد في حسم: لن يحدث.

فانطلق الطفل إلى صدره وطوق رقبته وقبله في قوة قائلًا: وعدتني، لن ترحل مرة أخرى، ستبقى معي.

شدته أمه في ضيق: ماذا تفعل يا عباس؟! فقدت عقلك اليوم..

أحاط ابنه بذراعيه ثم قال: اتركيه معي.

قالت: اعذرني يا مولاي، لا أعرف ما الذي حدث. كان حزينًا في غيابك، ثم.. عندما وجدك..

رفع العباس بين ذراعيه، ثم قال: من سيرافقني طوال الوقت؟

قال العباس مسرعًا: طوال الوقت.

ثم مرض العباس بعد بضعة أشهر وازدادت عليه الحمى، بدا أن أحدًا دس له السم في الطعام، وكاد الأمير أن يفقد صوابه. جاء بالطبيب تلو الآخر، وقُبض على الكثيرين.

دعا الله قيامًا وقعودًا وتصدق، وخرج متخفيًا إلى المساجد والبيوت يعطي المال والطعام، ويطلب من الناس الدعوة لابنه. وقت اليأس يتجلى التشبث وتختفي كل الزينة. أقسم إن الأمير قال لي إنه يومها سجد إلى الله ودعاه قائلًا إنه لا يأبه بمُلك ولا هيبة، ولا يريد زوجة ولا مالًا. لو كان الله يريد أن يأخذ منه كل شيء ويعطيه شيئًا واحدًا فليكن هذا الشيء هو ابنه العباس. دوّى صوت ابنه في أذنيه وهو ينادي عليه في استغاثة ويضمه بذراعيه الصغيرتين بكل قوته. احتوته الذراعان الضئيلتان ولم تحتوه أي ذراع لامرأة ولا لسلطة ولا لمُلك.

فليضع المُلك، فلتسخر الحاشية، فليفقد قوته وشبابه، ولكن يبقى العباس على قيد الحياة.

حدق فيه الشيخ بكار بن قتيبة ساعة أو أكثر بلا كلمة. عندما التفت إليه الأمير قال في صوت بائس: أعطيه كل شيء ويُبقي لي على ابني.

فقال الشيخ بكار في رفق: لا يحتاج أشياءك يا أمير.

- فليأخذ كل ما أعطى ويُبقي لي على بضعة مني لا حياة لي دونها.

قال الشيخ: يا مولاي الأمير، قضاء الله غير عهود الخلفاء واتفاقات القادة. نتقبله في رضا حتى لو لم نسيطر على حزننا.

- ولِمَ يأخذ الله بضعة مني وهو يعرف أني لا أستطيع العيش دونها. هو رحيم لا بد سيرحم.

- لن تستطيع معه صبرًا يا مولاي، لا تسلْ عما لم تحط به علمًا.

ردد الأمير في إصرار: هو رحيم.

***

لم يبرح مخدع العباس إلا ليتصدق، من الحين إلى الحين. يهز الولد ويقول: عباس، هل تسمعني؟

يبتسم له المولود ثم يغمض عينيه. فيهزه أحمد في يأس ويقول: تعرف من أكون؟

يقول في صوت ضعيف: أبي.. أعرف. لا تتركني هنا وحدي.

قبض الأمير على يد ابنه العباس ثم قال: لن أتركك أبدًا.

كلما دخلت عليه زوجته خاتون وطلبت منه أن يذهب إلى عمله بينما تراعي هي العباس، رفض بشدة واستغاثت عينا الطفل به كي يبقى.

ثم يدخل طبيب آخر في خوف من بطش الأمير.

بعد أسبوع زالت الحمى وقال الطبيب: إن الولد ربما لم يكن مسمومًا، بل أكل طعامًا فاسدًا، أو أرهق نفسه في اللعب أو التدريب.

حمد الله وأخرج آلاف الدنانير إلى الفقراء، وعيناه حول ابنه طوال الوقت تحميانه وتبحثان عنه. اليوم نجا.. غدًا ربما ينجح أحد في قتله. من يدري؟! فلا بد من الحذر.

والحلم يأتي كثيرًا، يرى ابنه قتيلًا أمامه أو ذبيحًا وهو عاجز عن فعل أي شيء. ترى من سيحاول قتل العباس غدًا أو بعد غد؟

***

واعلم أن يد أحمد بن طولون، أعانه الله، كانت مغلولة أمام والي الخراج في مصر، ابن المدبر الذي أذاق المصريين الأمرّين، ويطش بالمسلم والمسيحي واليهودي. واعلم أن ابن المدبر قد سنّ سننًا كلها قهر للمصريين لا تُظهر سوى طمعه وجشعه وقلة حرصه على الديار المصرية. حتى إنه أقر بأن كل صيد البحر في الديار المصرية له هو، وهو من يقرر كم يعطي للصيادين وأصحاب المراكب، وأن النطرون كله حكر له، وهو يبيعه ويعطي المصريين الفتات. وعندما جاء الأمير أحمد إلى مصر استقبله والي الخراج بهدايا قيمتها لا تقل عن عشرة آلاف دينار، وكان ابن المدبر يحيط نفسه بالغلمان الأشداء المقاتلين، وصاحبه يومها شقير صاحب البريد وهو يقس بشاعة ابن المدبر وجشعه. رفض الأمير أبو العباس أحمد بن طولون عطاياه، وأعاد إليه المال، وطلب منه أن يعطيه بدلًا من المال الغلمان الأشداء الذين يحيطون به. وكانت هذه الواقعة هي بداية العداء بين ابن المدبر وابن طولون، فأمر ابن المدبر شقير صاحب البريد بأن يبعث للخليفة بعزل أحمد. ظن ابن المدبر أن لا أمان لأحد ما دام لا يملأ عينيه الذهب، ولا سلام مع رجل يحيط نفسه بالجيوش.

رأيت إحباط الأمير أحمد بنفسي، وبعد أن يحاصره لشقير، ويريد شقير في خيفة، كلما بعث شقير برسالة بعث أحمد قبلها برسالتين يوضح ويشرح. عين الأمير أنس ابن شيخ الصيدين نائبًا للشرطة، وكانت عينه على البريد وعلى رجال ابن المدبر. لو كان هناك رجل في كل الديار المصرية يتمنى قتل ابن المدبر فهو أنس، ذاع صيت قصة كرهه له حتى إن الشعراء نظموا الشعر الذي يحكي قصتهما معًا، هي قصة عداء معذّب وظلم يذيب القلوب. لا تقل قسوة عن قصة قيس وليلى، غير أن قيسًا قد ذاب عشقًا، وأنسًا قد ذاب كرهًا. لا بأس. كنا نتكلم عن الأمير أحمد بن طولون.

أرهقه عجزه عن مساعدة أهل مصر، وازداد الأمر سوءًا يوم زاره الراهب أندونة. وله مع الراهب قصة لم أسمع بمثلها طوال عمري سأقصها عليك الآن.

اشتد أذى ابن المدبر للرهبان وأغلظ عليهم وطلب منهم مالًا لا قبل لهم به، وكنت أعرف أن الراهب لا يترك الدير إلا لضرورة، يقال إن الدير بالنسبة إليه كالماء بالنسبة للسمك لو تركه يموت. وفي دير القُصير كان هناك راهب يدعى أندونة معروف عنه السماحة والسلام، ولكن كيله طفح من ألاعيب ابن المدبر وطغيانه، وسمع أن أميرًا جاء إلى مصر يتولى أمرها يقال إنه عادلٌ يقدر المسيحيين ولا يفرق بين العباد. جاء إلى قصر الأمير طالبًا لقاءه ولم يسمح له الحاجب. فانتظر أمام باب القصر يومًا بلا طعام ولا شراب حتى أعياه الانتظار، والحاجب لم يزل يرفض. وعندما بدا أن الراهب لن يرحل سأله الحاجب عن سبب زيارته فأخبره. رمى له الحاجب بعض الدنانير وقال: عد إلى الدير، ما تقوله خطير، ولو وصل إلى ابن المدبر أنك تشكو منه عند الأمير فسينكل بك وبالأمير. لا قبل لنا بابن المدبر، خذ هذا المال، وإياك أن تعود إلى هنا.

لم يتكلم الراهب، بقي ساكنًا ساعات، ثم وضع المال في بطء على الأرض بجانب الحاجب، وانطلق إلى الدير بلا كلمة. بعد ساعات وصل خبر ما حدث

إلى الأمير أحمد، فحزن على خيانة حاجبه وأمر بجلده خمسين جلدة وأمر منذ يومها بعين على كل حاجب وجاسوس على كل الموالي، حتى أنا، مع أنني كاتبه الخاص جعفر، وهذا شأن آخر سأحكيه بعد قليل. عندما علم الأمير بأمر الراهب أمر حراسه بأن يلحقوا به ويأتوا به إليه قبل أن ينتهي اليوم. فلحق الحراس بالراهب ودخل على الأمير، فصرف الأمير الحضور، ثم أمر الراهب بالجلوس وأخبره أنه عرف ما حدث من حاجبه وعاقبه.

قال الراهب في صوت هادئ: تعرف يا مولاي أن حياتنا مجاهدة. تركنا الدنيا القصيرة الناقصة لما هو أكبر وأعظم. ما يقلقني ليس المال الذي يطلبه ابن المدبر ولا غلظته مع الرهبان، ما يقلقني هو شعور ناقص بداخلي أحاربه منذ أيام.

نظر إليه الأمير في إعجاب ودهشة لا حد لها، ثم قال: وما هذا الشعور؟

– حقد كنت تغلبت عليه منذ وفاتي والصلاة عليّ، وعاد فاختبر إيماني. صليت من أجل ابن المدبر، ولكن من لا يصارح نفسه يخسرها، ونفسي تكاد تكرهه، وهذا يخيفني، ليس للميت أن يعود إلى مشاعر تركها بخاطره، كأنك تركت العالم من أجل حبيب ثم تحته في ظهر الغيب. لم أزل أصلي وأطلب القوة من الله، أصلي لأني لا أرى الجمال بداخل ابن المدبر مع أنه من صنع الله، وهذا نقصان مني قبل أي شيء.

ابتسم الأمير وقال: لا جمال بداخله يا أخي حتى لو صليت له مائة عام.

قال الراهب في عدم راحة: جئت أطلب منك أن تساعدني يا مولاي، واترك لي مجاهدة النفس فهي حربي أنا.

– مجاهدة النفس هي حربك أنت.. ما اسمك؟

– أندونة.

– هل لي أن أناديك به دون ألقاب؟

قال بلا تفكير: أي لقب لعبد فقير مثلي؟ بالطبع يا مولاي.

- أحمد.

- معذرة.

- لو كنت عبدًا فقيرًا فأنا أيضًا عبد فقير، كلنا فقراء إلى رحمة الله. أريدك أن تناديني بأحمد وتجلس هنا بجانبي.

نظر إليه الراهب في حيرة وتردد، ثم جلس بجانبه وعيناه مثبتتان على الأرض، وكنت حينها يكاد يغشى عليّ من الذهول، لم أر الأمير يطلب من أحد أن يناديه باسمه منذ عرفته.

قال أحمد في فضول: أندونة، عيناك لا تريان جمال القصر، هل ترى الذهب على أطراف القناديل؟

قال في خجل: لم أعد أرى ما هو زائل، تركت الذهب اللامع إلى ما هو باقي.

- أتركت الدنيا حقًّا؟ ألا تحب وتكره؟ ألا تطمع وتخاف؟

- الخوف يا مولاي..

- أحمد..

- الخوف يا.. يا أحمد من سمات الدنيا الناقصة، لا خوف مع الله. تخاف على مال جمعته وهو ليس لك، فأنت تاركه شئت أم أبيت، ثم تخاف على ولد بضعة منك وأنت تاركه لأنه ملك له هو، وتخاف على امرأة وشهوة وهي زائلة. بي طمع يا أحمد، ربما طمعي أكبر من طمعك؛ أطمع في مُلك لا يزول، وعمر لا يفنى، ونفس بلا خوف، وحياة في محبة من لا يغدر بل يرحم ويسامح. الجسد سجن يزداد ظلامًا كلما مر العمر، أحاول التحرر منه لأرى النور. لست أفضل منك يا أحمد، ربما أطلب ما هو أكثر لا غير..

ردد الأمير: تطلب ما هو أكثر.. أتعرف.. لي قلب يحب ويخاف أجاهده أيضًا؛ لأن لي مهمة أن أساعدك وأساعد أهل هذا البلد. قلبي يتملكه العباس. أخاف عليه من موت محقق، إما يموت مسمومًا وإما مقتولًا. لي أعداء بعدد نجوم السماء. أحلم به كل يوم. ألديك علاج لهذا الخوف يا راهب؟

ابتسم أندونة، ثم نظر إلى أحمد لأول مرة، وقال: الأمير يصارحني ويفضي إليَّ، شرف لا أستحقه وأنا العبد الفقير.

- لك سحر لم أر مثله، وكأنك صديق قديم اشتقت لرؤيته.

- جاهد يا أحمد، الخوف يبعدك عن الله، والمكتوب رحمة وكرم منه، حتى وإن بدا غير ذلك. ابنك ملكه وقصرك ملكه ونفسك ملكه.

- ليس لي أن أترك الدنيا مثلك ولي فيها دور وجهاد.

- لك دور ولي دور، ربما كنت أنت الأفضل..

- تحقِّر من شأنك؛ فترتفع مكانتك عندي.

- بل أحقِّر من شأني؛ لترتفع مكانتي عنده هو.

- ألا تهتم برأي الأمير فيك؟

- لو كنت أهتم برأي الأمير لما مت وصلُّوا عليَّ صلاة الموتى.

- يا أندونة، قوتك ترهبني لو تعلم.. لا بأس. أعدك أن يرحل ابن المدبر عن مصر؛ إما أن يموت، وإما أن يترك هذه الأرض.

- لا أطلب شرًّا له، بل أدعو له بالهداية.

- لا تطلب سوى حقك. اترك لي أمور الدنيا يا أخي؛ لم أزل أخاف وأطمع، أحب وأكره، فلا تؤاخذني إذا لم أسامح ولم أصلِّ من أجل هدايته، ولا تؤاخذني

إن رأيت من النفوس فجورًا لا قبل لك برؤيته، فأنا لم أمت ولم أترك. أريدك معي بعض الوقت.

- لا مكان لي في هذه الدنيا ولا بين هذا الثراء.

- تأكل معي ربما..

- أجلس معك نعم، ولكنني كتبت على نفسي الفقر، لا أستمتع بطعام الأغنياء.

- حتى الطعام تعافه نفسك!

- حب الله أشبعني، ومن يرى جماله لا يتذوق مرارة العيش.

مد الأمير يده وقال: أريد أن أصافحك وأزورك في الدير من حين إلى حين.. هل تسمح لي؟

ابتسم الراهب، وصافحه قائلًا: مرحبًا بالأمير الذي أكرمني واستمع إلى كلامي.. سامحني لو لم أعرض عليك طعامًا يناسبك، ولا رداء كردائك، هذا ليس لقلة احترامي وتقديري لك.

- عندما آتي إليك يا أندونة لن أتوقع طعامًا ولا بذخًا، سآتي لأتأمل نفسي وأجاهدها، حتى أنا أحتاج إلى هذا من حين إلى حين، وفي ظلام صومعتك نور أحتاج إليه، لا يعطيه لي القنديل المرصّع بالذهب. اذهب في أمان الله حتى نلتقي على خير، صلّ من أجل ابن المدبر، أما أنا فسأصلي من أجل القضاء عليه.

توقف الأمير أحمد عن الكلام برهة، ثم قال فجأة: يروقني الكلام معك يا أخي، في ديننا «المال والبنون زينة الحياة الدنيا». فكيف تريدني أن أتخلى عنهما؟ الباقيات الصالحات خير عند الله، ولكن للبشر ترتيبات مختلفة على الأرض.

قال أندونة في هدوء: كتابك يقول إن «المال والبنون زينة الحياة الدنيا»، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- وما رأيك في الزينة يا أمير؟

- قل لي أحمد كما اتفقنا.

- ما رأيك في الزينة يا أحمد؟

- الزينة نفرشها وقت الفرح والبهجة لتسر الناظرين.

- وبدون الزينة، ألا تسر الناظرين؟

- بدون الزينة تبدو الحارات والطرق والقصور باهتة، وأحيانًا مظلمة وكثيرًا حزينة.

- هذا ما كنت أبغي يا أحمد. قلت الحقيقة بلا زينة.

- ماذا تعني؟

- الحياة بلا زينة باهتة ربما ومظلمة وكثيرًا حزينة، الزينة تخدع الأبصار، وتعطي للبشر الفرحة المؤقتة التي تتلاشى مع اختفاء الزينة، واختفاء الزينة مؤكد، فلا شيء يبقى في كون فانٍ؛ لذا تركت الفرحة المؤقتة إلى النعيم الدائم الذي ينتظرنا.

- لا أستطيع أن أكون مثلك يا راهب.

- تذكر فقط يا أخي أن الزينة دومًا تُجمِّل ما هو باهت، ثم تزول بزوال الموسم والمناسبة. لا تتعلق بابنك ولا منكك ولا زوجتك ولا قوتك ومالك؛ فتفشل في رؤية ما يستقر وراء الدنيا.

- أي منطق هذا؟ كل الرجال يتعلقون بالابن والبنت والزوجة والقوة والمال.

تجاهله ثم أكمل: وعند رؤية الحقيقة يصبح العمر قصيرًا ونهايته معروفة، وتتلاشى الزينة أمام ضوء الأبدية دومًا. نحن نقول: «معك لا أريد شيئًا على الأرض».

ابتسم أحمد ثم قال: الراهب يشرح لي الآية. لو سمعنا أحدٌ الآن ربما يظن أننا مجنونان تائهان في الصحراء. سأزورك دومًا يا أندونة. فمن مع الله صحبته كلها سرور، ومن لا يريد شيئًا على الأرض يصبح أفضل صديق لمن يريد أن يسيطر على الأرض.

❁ ❁ ❁

ما حدث لصاحب الخراج وشقيق صاحب البريد سيحكي عنه في موضع آخر. نجح الأمير في التخلص منهما بالخيانة والتصحيح.

عندما حاز مصر التي حلم بها، عاوده الحلم، كانت أمه قد ماتت فلم يتسن له أن يحكي لها، ولا أن يطلب مساندتها.

عندما استيقظ نادى عليَّ وقال: يا جعفر، من يحفر عند سفح الأهرامات؟

قلت في تردد: لا أدري عمَّ تتكلم يا مولاي؟

- منذ زمن يبحث الناس عن «المطالب» عند الأهرامات وحولها.

قلت في رفق: يا مولاي، يعتاد المصريون هذا منذ زمن، يحفرون تحت بيوتهم، وما يجدونه من كنوز أو مطالب فهي لهم.

- هي لملوك مصر.

- ما تأمر به يا مولاي، ولكن ملوك مصر القدماء ولَّت أيامهم، لا نعرف عنهم الكثير.

اقترب مني، ونظر إليَّ قائلًا: بل نعرف عنهم أهم شيء.

- تقصد «المطالب» يا مولاي؟

- بل أقصد ما نعرفه عن مصر.. ما قاله الملك لي في الحلم، كان ينفرد بحكمها، لم تكن تتبع خلافة ولا رومًا ولا فرسًا.

- فتحت عيني على الدنيا ومصر تتبع الخلافة. وحكى لي الأجداد عن تبعية مصر للرومان وقبلهم البطالمة.

- وقبل البطالمة.

- لا أدري يا مولاي.

- من يكتب بلغة الطير هم الملوك القدماء. هل حكموا مصر كولاية؟

- لا نعرف شيئًا عنهم.

- قالها لي الملك وأنا أعرفه، لو انفردت بحبها لجادت عليك.. من اليوم لا يسمح لأحد بالحفر والبحث عن المطالب، كنوز مصر لحاكمها يفرقها على كل المصريين.

- مولاي.. ربما..

- أريد الذهاب بنفسي إلى سفح الهرم والبحث عن الكنز هناك عند تمثال أبو الهول.

***

ستسمعون الكثير عن الكنز الذي يطلق عليه المصريون اسم «المطالب» الذي وجده أحمد بن طولون عند الأهرامات، سيقول البعض إنه لم يجد شيئًا، وسيقول البعض إنه سلط رجاله ليبحثوا عن الذهب في أسوان كما فعل العرب من قبله، ولكني سأقول ما أعرف: وجد الأمير، أعانه الله، كنزًا لم أر في هوله ولا غزارته، ذهب يمتد حتى يتلاشى من مرمى البصر وزخارف وتماثيل من الذهب الخالص. يكاد الرجال يموتون من حملها الثقيل. وعندما يجد الحاكم الكنز في هذه الأيام يكتنزه ويوفره لأولاده، ولكن الأمير لم يفعل هذا. كان يعتقد أن الكنز أمانة من ملك قديم، يأتي له في منامه كل حين. قرر أن يجرده ويعرف قيمته، ويبني به مسجدًا لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار، ثم بنى أول بيمارستان في مصر،

يعالج فيه المرضى المصريين فقط وليس جنوده ولا حاشيته، بنى بيوتًا للفقراء وملأ مساحات قصره بالطعام «للمستورين» الذين تحسبهم أغنياء من التعفف، وأعطى العطايا كل من يحتاج. بنى السبل والمدارس، وبدأ في بناء مدينة شمال شرق عاصمة الدولة العباسية التي تسمى العسكر، التي تقع بجانب الفسطاط. بنى مدينته وزاد من عدد جنوده، فأصبح هناك قطيع للجنود الروم، وقطيع لجنود السودان، وقطيع لجنود النوبة، وقطيع لجنود الأتراك، وقطيع للمصريين.

نعم، فعلها أحمد ولم يفعلها قبله سوى الملوك القدماء، ضم الموالي المصريين إلى جيشه.

وأصبح في جيشه قطيع من الجنود المصريين، ساوى بينهم وبين بقية الجنود ووثق علاقته بهم، ثم صاهرهم بزواجه من أسماء المصرية، ولهذا وضع آخر.

أما العرب فعاهدهم على الطاعة، وأعطاهم من العطايا، وأغدق عليهم رغد عيشهم، ولم يحاربهم إلا للضرورة، بل جنّد بعضهم في الجيش والشرطة. قال إن العهد معهم يحفظ دماء المسلمين. فعاصرته وهو يزور بنفسه قبيلة بني سالم في أطراف الفسطاط، ويحمل لهم الهدايا، وأقسم شيخهم موسى بن عثمان على الولاء أمامي.

أما ما فعله الخليفة وبنو عباس وهم يشهدون على انفراد أحمد بن طولون بحكم مصر، فله موضع آخر.

أريد أن أشهد أني ما رأيت رجلًا يعشق هذا البلد مثل الأمير أبي العباس أحمد ابن طولون، وما رأيت الأقباط والمسلمين واليهود في مصر يتفقون على حبهم لحاكم كما اتفقوا على حب أبي العباس.

عادى ابن طولون من عادى، وحبس من حبس، ولكنه كان رقيق القلب مع المصريين، يحتويهم بعطاياه، فأصبح يعطي الفقراء عطايا شهرية، ويدعوهم

لحدائق قصره كل جمعة، ويخرج متخفيًا لحارات وطرقات الديار المصرية كل أسبوع يستمع إلى الناس ويعطف عليهم.

كان له وجهان؛ وجه يبدو صارمًا قليل الصبر، فيقطع هذا ويصلب هذا، ويسجن هذا ثم ينسى أمره؛ فيمكث في سجنه أعوامًا، ووجه رقيق، يبكي لو استمع إلى صوت شيخ يقرأ القرآن بإحساس قوي، ويصمم أن يصلي في جامع مجهول وراء شيخ فقير لم يعرف يومًا أن من يصلي وراءه هو الأمير، بل عندما اختلطت الآيات على الشيخ الفقير الذي يصلي الأمير وراءه عرف الأمير أنه لا بد يمر بأزمة وضيق؛ فبعثني متخفيًا أسأل عنه، وعرفت أن عنده ضائقة ويحتاج إلى الأموال، فأمرني الأمير أن أغدق عليه بالعطايا دون أن أقول من أين هي ولا من جاء بها.

أما من بطش بهم فكانوا دومًا ممَّن يؤثرون الخلافة، ويريدون هز ملكه وتهديده. لن أنكر أنه بطش بثمانية عشر رجلًا ماتوا في سجنه، ولكنه آثر الأمن والاستقرار على العفو أحيانًا، وآثر مصلحة الديار المصرية على الولاء للخليفة، فكلما شك في ولاء أحد الرعايا له قبل الخليفة سجنه بلا تردد.

بعد حين وقبل أن يتم عامه الأربعين كان أبو العباس يملك مصر والشام.

دنت منه الدنيا واستسلمت، أو هكذا شُبِّه له.



- 2 -

حدثتني أسماء بنت محمود الخياط زوجة أحمد بن طولون قائلة:

قرر أمير مصر والشام واليمن والحجاز الزواج من المصرية ابنة الخياط، المطلقة التي لفظها زوجها كقطعة اللحم التي تغير طعمها، بلا تردد ولا رحمة. كاد أبي يموت من الصدمة، وظن إخوتي أن أبي يهذي عندما حكى كيف زاره الأمير متخفيًا وكيف قرر في التو الزواج مني. لا صدقت القول، لم أصدق حينها وفهمت بخبرتي القليلة أنه يريد إعلاء شأن المصريين وتوطيد علاقته بهم، هكذا الزواج عند الملوك... ذرية وعهد ومواءمة. ولكني لم أفهم حينها لم وقع اختياره على الأخت الكبيرة المطلقة ولم يختر العذراء بارعة الجمال. لم يتوقف ارتجافي طوال أسبوعين فترة تجهيزي للذهاب إلى قصره في القطائع، ولم يهدأ بالي وتصورت احتقار زوجاته وسخريتهن، تصورت تزوجه عني ونفوره مني كما فعل زوجي السابق. تخيلت هيئة الأمير مرة أخرى، رأيته طيفًا لم يثبت ولم يبق وظلت عيناه السوداوان تحاصرني.

لا بد أن اختلاج قلبي قد وصل إلى أذنيه عندما دخل غرفتنا. جلست والرعب يحيطني، فجلس بجانبي وخرج صوتي قبل صوته، وخرجت أمنيتي قبل أمنيته، وقلت في استسلام: جبرتني ونصرتني يا مولاي، كأن الله بعثك لي ليضيء عتمة اعتادتها عيني، ولكن ليس للأمير أن يتزوج مثلي، رأيت زوجاتك

وجواريك، لا أنا في بهائهن ولا في بهجتهن، ليس عليك التضحية يا مولاي. تزوجتني ورفعت رأس أبي، لا تضحِّ وتتحمل معاشرتي وعشرتي.

نظر إليَّ وكأنه لا يفهمني فأكملت: سأبقى هنا طوع إرادتك مدى الحياة، وسأطيع كل أوامرك وأجهز لك زوجة أفضل مني؛ أجمل وأصغر.

ابتسم وقال: تجهزين لي زوجة! كيف؟

- من تستحقك يا مولاي، ستعافني عما قليل، ولشد ولعي بك أخاف من كسرة تقضي عليَّ هذه المرة.

ثم انحنيت فلثمت يده وقلت وارتجافي يهز أركان الجسد: نصرتك لي شرف، سأحيا به وأموت.

مد يده وأخذ يدي المرتجفة بين يديه ثم قال: ظننتك طيبة يا أسماء ولم أعرف أنك بهذا الخبث.

قلت مسرعة: أطلب الصفح لو أغضبتك.

- تريدينني ألا أعاشرك خشية تعلقك بي!! أي جنون هذا؟ أم أنك أذكى من كل النساء؟

لا بد أنه كان يحاول أن يخفف من وطأة قلقي وخوفي ولم يفلح. قبضت يدي بين يديه ارتجافًا حتى لساني أصبح يهتز ويثور عليَّ.

نظر إليَّ برهة بلا كلمة ثم قال: الأمير يأمرك يا أسماء أن تنهضي، وتجلسي بجانبه.

نهضت في بطء وجلست بجانبه وقلت وأنا ألهث: كنت أقول... يا مولاي.. إنه...

ابتسم وشد ذراعي ووضع رأسي على صدره ثم قال: ربما لو أغمضت عينيك تنسين من أكون، وقت الحب لا بد أن تنسي من أكون. كيف لك أن ترتجفي بين ذراعي زوجك؟ هذا لا يجوز.

أغمضت عيني وتنفست أنفاسًا طويلة أردتها أن تخرج بطيئة فخرجت لاهثة. مرر يده على شعري وظهري ثم همس في أذني: لِمَ تركك زوجك؟ الرجل يترك المرأة لسببين لا ثالث لهما.

- مولاي.. لم أنجب له ولم..

- لا يترك الزوج زوجته لهذا السبب، لابد أن الخوف منك دخل قلبه. عندما يخشى الرجل المرأة لا بد من أن يكسرها. تُرى أخاف من عقل يسحق عقله، أم من جمال يُظهر قلة حيلته؟

قلت وأنا مغمضة العينين بصوت مكتوم، وأنا أهرب من خوفي داخل صدره: لا جمال لدي، ولا عقل لامرأة مثلي. أرجوك يا مولاي أن ترفق بحالي، فلو ازداد شغفي.. أموت بين جدران قصرك.

قال في تأكيد: سأرفق بحالك.

تمتمت: ريحك تكفيني، لا أطلب أكثر من هذا. يمكنك تركي وقلبي ممتن لك إلى آخر العمر.

ضحك حينها، ثم تظاهر بالغضب وقال وهو يبعدني عنه وينظر إلى عيني: أتطردينني يا أسماء؟ تطردين الأمير أحمد من حجرتك يا مصرية؟

خرجت مني صرخة، ثم انحنيت وجلست على الأرض أمامه وقلت وأنا مطأطأة الرأس: اقطع لساني يا مولاي لو كنت أقصد هذا. أنا فقط.. اختلط عليّ الأمر.. وأعرف أني لن أروق لك.. جسدي فقد نضارته وترهل و..

أحاط خصري بيديه، ثم قال في حسم: أفكر فعلًا في معاقبتك.. على الأوامر التي تعطيها لي منذ دخلت.. أريدك أن تقبليني قبلة تطلبين بها الصفح، ثم أَبُتُّ في أمرك.

لم أفكر لحظتها، قبلت فمه بكل قوتي وخوفي وشوقي لا يجرؤ على التنفس.

همس وهو يخلع عني ردائي: هذه قبلة غير كل القبلات. أكل بنات مصر مثلك أم أنك أكثر من خوفًا وشغفًا؟

تمتمت: الآن تعافني. عندما ترى..

رفع يده لي لأصمت ثم قال: ربما لو توقفت عن الكلام تتركين للأمير فرصة للصفح عنك.

وبقي معي يومًا ويومين بل ثلاثة وأربعة حتى امتلك النفس وغمر البصيرة فأصبحت لا أفكر في سواه طوال أيامي، وكأنني لم أتزوج ولم أعرف رجلًا قبله، محا ذاكرة ما كان، ففهمت لمَ طلقني زوجي. أدركت بعد هذا العمر ما لم أدرك. كان جمالي يرهب زوجي السابق، وشوقي يفقده الثقة في نفسه. هكذا قال الأمير؛ قال إن امرأة مثلي تحتاج رجلًا كاملًا. قال الكثير.. فمحا ذاكرتي أو كاد.

وعندما توقف عن زيارتي بعد أسبوعين كنت أنتظره ليلة وراء ليلة ولم يأت.

زادت رهبتي ونما حذري من قصر الأمير، فلا أنا أعرف كيف سيتقبلني أولاده، ولا كيف سأتعامل مع نسائه، وما أوهن المرأة العاشقة عندما تتحسس طريقها وسط نساء زوجها وتود أن تقترض لفحة من عينيه أو اهتمامه! جعلني أميرة في لحظات، ولكن للوعة الشغف مرارة مختلفة. فهمت أن خاتون أم العباس وزوجته الأولى لها مكانة غير كل النساء، وللحق كانت تتبع أوامره بحذافيرها، وتعاملت معي بأدب وترحيب. وعرفت أن مياس أم ابنه الثاني خمارويه كانت جارية أهداها له الخليفة، كانت أقل ثقة من خاتون وامتازت بالخجل والبعد عن الكلام. ورأيت ابنها خمارويه وكان طفلًا خجولًا أيضًا لا يتكلم كثيرًا ولا يطمع في شيء. عرفت أن مياس لا تختلط بالزوجات وتفضل البقاء وحدها معظم الوقت. رأيت أولاده وبناته وكانوا عشرين أو أكثر، تعود أن يجتمع بهم جميعًا في المساء، يجمع كل أهل بيته ليأكل معهم، ثم يسأل عن كل ابن وبنت؛ عن تدريباتهم وتعليمهم وأحوالهم وصحتهم. ولكني كنت أرى عينيه كل يوم تلمع

بحب وشغف لواحد أكثر من الجميع.. إنه عباس. يبتسم عندما يقترب منه، ويسيطر على ابتسامته ليبدو أكثر صرامة، ولكن عينيه تفضحان عشقه. سمعت من الجواري أن الولد في سن صغيرة كان ينطلق إلى حضنه بلا رادع حتى وسط لوم الأم ويتعلق برقبته وهو يخبره كم يفتقده.

اليوم التقت عيناهما وساد الصمت بين الأبناء والوجل، واتجه الأمير إلى عباس أمامي وسأله كيف حاله فقال: بخير ما دام الأمير بخير دومًا، أعانه الله وأيده.

نظر أحمد حينها لأولاده وقال: حُكم مصر يبقى في بيتي بينكم. تكشّفت لي بكنوزها، ليس لأنها تتكشف لكل سائل، ولكن لأنها تتكشف لمن يبغي ما وراء المال والقوة ولمن يعرف أن الفناء مكتوب والنفس أمارة بالسوء. أجتهد وأخطئ وأصيب، ولكن لا بد أن تكون مصر نصب أعينكم، أتسمعني يا عباس؟

قال: أسمعك دومًا يا أبي.. يا مولاي الأمير.

ربت على كتفه وقال: عندما يئول إليك حكمها تذكّر ألا ترهق أهلها بالضرائب وأن تفعل ما فعله ملك يوسف لا فرعون موسى. لا تظن أنك ستخرق الجبال طولًا، ولكن فكر في السنوات العجاف قبل سنوات الرخاء ولا تبذر تبذيرًا.

انحنى عباس وقبّل يد والده قائلًا: أطال الله عمرك يا أبي.

فضغط الأب على يده قائلًا: لا أعرف إن كان طول العمر نعمة أم نقمة، أريدك سندًا وعصًا أتكئ عليها، وأريد لمصر أن تبقى في يد من يحمل لأهلها وليس لرجاله أو مجده فقط.

كنت أرى الأمير كل يوم عند وقت العشاء عندما يجتمع بأهل بيته، ولكنه لم يلتفت إليّ ولم يزر جناحي. ازداد غمي وتفشّى حتى إنني تجرأت بعد أيام وهمست في حضرته: مولاي الأمير عندما يغيب تزداد العتمة.

التفت إليّ يومها ونظر إلى عيني ثم أدار وجهه ولم يجب. ضعفت نفسي واستكانت، وماذا كنت أتوقع؟! أن يحبني مثلًا؟ إذا كان زوجي الأول طردني وأعادني إلى أبي، فماذا توقعت من أمير مصر؟ تزوجني شفقة وعرفانًا لأهل مصر وأذاع زواجه من أسماء المصرية فالتف العامة حوله. تزوجني كأنه يبني بيمارستان أو مدرسة. وحتى لحظات الشوق بيننا كانت وهمًا من صنع خيالي البائس، أو عمل خير يفعله الأمير مثلما يدعو المستورين إلى ميدان قصره كل يوم جمعة ليطعمهم. يا لطمعك يا أسماء وقلة حيلتك!

ولكن الشوق لا شفاء منه، أحيانًا يدفع صاحبه للمجازفة.

تجرأت وذهبت إلى خاتون أم عباس أسألها عن حاله، وأطلب منها أن تشفع لي لو كان غاضبًا مني.

وعدتني أنها ستتكلم معه. ولكنه غاب شهرًا أو يزيد.

ثم جاء بلا موعد وبلا إنذار.

وألقيت بنفسي بين ذراعيه بلا كلمة ثم قال في بطء: أتلجئين إلى زوجتي لتشفع لك عندي؟

همست وأنا أطوق عنقه: وألجأ لكل من في الأرض لأراك ولو مرة. كنت أخشى غيبتك، وأخاف التعلق بالمستحيل... لِمَ غبت؟

لم يُجب، وعرفت أنني ربما تعديت حدودي فقلت مسرعة: معذرة يا مولاي سأجهز لك الطعام..

بعد كثير من الوقت قال: أسماء.. عندما يغيب الرجل فلا بد أن تعرف المرأة.. بلا سؤال..

- اعذرني وسامحني على تجرئي.. أعرف حجم مسئوليتك، وأعرف أني واحدة من زوجاتك فقط ولست..

قاطعها: تسألين.. وتتوقعين الإجابة. يعجبني هذا. عندما يغيب الرجل عن امرأة فهي إما لا تروق له، وإما أن تكون توغلت وتملكت أكثر مما ينبغي.

- مولاي..

- تُرى ألا تروقين لي يا أسماء، أم أنك توغلت أكثر مما ينبغي؟

لم أعرف الإجابة ولم أجرؤ على التفكير حينها. وبعد وقت اخترق الأمل فؤادي أنه ربما تعلق بي حقًّا. فعند اللقاء كانت اللهفة صادقة والشوق مستقرًّا.

تأوه في حلمه ولم أجرؤ على أن أوقظه، وعندما استيقظ قلت له: خيرًا إن شاء الله..

قال في صوت حزين: نفس الحلم منذ سنين. أخاف على العباس من القتل، سيتربصون به.

- من يجرؤ على قتل خليفة الأمير؟

- بل من لا يريد قتله؟ الكل يريد موته، من الخليفة العباسي إلى جواري القصر. لا بد من الحذر، فلطالما تحققت أحلامي.

عند الصباح أمر الأمير أن يذوق بنفسه كل طعام يقدم إلى ابنه، وأن يراقب حراسه كل جواري العباس وزوجاته.

أريد أن أشهد بأن الأمير وفى بوعده وأوصل المياه لكل المصريين. فأمر بإنشاء العيون بعد زيارته الأولى لأبي مباشرة، وأوصل الماء إلى الجبل وإلى الفسطاط والقطائع وما بينهما.

***

- 3 -

حدثني محمد بن سليمان الكاتب عدو ابن طولون وقال:

لي مع أحمد بن طولون حكاية طويلة، أولها نذير شؤم وآخرها نهايته إن شاء الله. فلم أعرف ظالمًا خائنًا مثله. لا خليفة يُوقفه ولا رجال تخيفه. مات في سجن أحمد من مات، وأكاد أجزم أنه سجن سبعة عشر ألفًا أو يزيد. قال لي قائدي لؤلؤ خادم أحمد بن طولون وأحد رجاله: إن أحمد كان ينظر في شأن السجين عامًا، ولو لم يفرج عنه في غضون العام بقي في سجنه حتى الموت ونُسِّي أمره. نشر جواسيسه في الديار المصرية فأصبح الزوج يخشى زوجته، والجارية سيدة رجلها. فلا أحد يعرف من يخونه بالغيب ومن يحفظ السر. حكى لي سيدي لؤلؤ أن ابن طولون دعا جماعة من الأتراك من بغداد إلى مصر وجاد عليهم بما لذ وطاب من الشراب والجواري الساحرات، ثم أمر إحدى جواريه بأن تنفرد بالقائد التركي وتسقيه الشراب حتى الثمالة، ثم تسأله عن رأيه في أحمد بن طولون. وفعلت الجارية، وسب القائد أحمد بكل الشتائم ولوح بسيفه أنه يتمنى قتله هكذا وهكذا. وعند الصباح استدعاه أحمد وأبلغه ما حدث، فقال القائد في خوف: مولاي الأمير يحاسب القائد في وضح النهار على أفعاله، ولكن أتمنى أن يغفر لي الأمير ما يخرج وقت خَرَفِ الشراب والثمالة، فهو أضغاث أحلام وهراء أتمنى ألا تحاسبني عليه.

قال أحمد حينها: إنما الأعمال بالنيات.. أليس كذلك؟ ولا تسطع النوايا إلا في ظلام الليل.

لو كان أحمد بن طولون رجلًا عاديًا كان سيسجن القائد التركي ربما، ولكنه شيطان من شياطين الإنس، فلم يسجن القائد بل أعطاه العطايا والجواري وطلب منه أن يُحسن الكلام عنه عند الخليفة وإلا سيذبحه اليوم أو غدًا. عاد القائد يشكر في أحمد، ورحمة أحمد، وجود أحمد، وإخلاص أحمد للخليفة.

في حقيقة الأمر أراد أحمد أن يستأثر بمصر وقد فعل. كان لديه تصميم النمل وهي تبني بيتًا وحولها مُلك سليمان. وكأن مصر تملكته كما لم تتملكه لا امرأة ولا ذهب. قيل إنه رأى رؤيا منذ زمن وهو طفل وتجلى له أحد ملوك مصر وسحر له فأصبح مجذوبًا إليها لا يرى سواها. غمرت عينيه مصر بأهلها فلم يعد يأبه بخليفة ولا بصاحب خراج. ولكن هذا الملك الذي سحر له، وكم يتقن السحر هؤلاء الملوك القدماء، هيأ له الفرص وجعل الحظ يصاحبه، ففوضه زوج أمه لحكم مصر نيابة عنه، ثم فوضه صهره لحكمها فلم يبرح مصر. كان الوالي يأتي بأمر الخليفة إلى مصر فيسكن مدينة العسكر بعض الوقت، ويتغير في عام أو اثنين على الأكثر، لا يتخذها بيتًا ولا يبني فيها القصور. ثم جاء أحمد فحفر الأوتاد كالملوك القدماء، وبنى قصره في الميدان، وأنشأ مدينة في عظمة سامراء، ومسجدًا يرهب الرحالة والمقاتل. وقد أقسمت أنا لضغينة عندي وظلم وقع عليّ أن أمحو أثر ابن طولون من على وجه الأرض وأن ينسى أهل مصر أن أحمد انفرد بالحكم وطوّع خراجها للبناء لمصر والمصريين فانتهى ولاؤه للخليفة، بل استغل صراع الخليفة المعتمد مع أخيه الموفق ليوطد حكمه وينتزعها لنفسه.

سأحكي عما فعله بي، ولكني سأتكلم أولًا عما فعله بابن المدبر صاحب خراج مصر، والمسيطر على أموالها. عينه الخليفة قبل قدوم أحمد بأعوام واستقبل أحمد بالعطايا ظنًا منه أنه رجل ذو عهد، ولكن أحمد رفض العطايا وأعاد له عشرة آلاف دينار، وبدأ يجرده من رجاله فطلب كل الرجال، وترك صاحب الخراج بلا قوة. ابن المدبر كان يجمع الكثير من الأموال للخليفة، يعرف أين الولاء ولمن الولاية، كرهه أهل مصر؟ نعم حدث. رآه المصريون ظالمًا طامعًا يسرق

أموالهم؟ ربما، ولكن منذ متى يحكم الأقباط على صاحب الخراج؟ في أي عصر يحدث هذا؟ المصريون شعب يصعب فهمه، حقدوا على ابن المدبر، ثم استسلموا لأحمد وعشقوه بلا سبب ولا ذريعة، لا أمان لهم. تتغير مشاعرهم بتغير الأزمنة. ثاروا مع العرب ضد الحاكم العباسي في عصر المأمون، فخرجوا بالسلاح ضد بني عباس في القرى والمدن حتى أخمد المأمون ثورتهم بالسيف ثم عزل الوالي، ولكنهم رضوا بأحمد وهللوا له، وكأن أعينهم الطامعة لا ترضى إلا بمن لا يرى سواهم، ولا يعمل إلا لهم. أي ولاء، وأي جحود! في كل يوم كنت أنتظر أن يعلن أحمد استقلال مصر عن الخلافة، فلم يعد لها وجود في البلاد بعد أن سيطر على الخراج، واستطاع بالحيلة والمكر أن يقنع الخليفة المعتمد أن يعزل ابن المدبر عن خراج مصر بعد أعوام من التصميم والصراع، وأصبح خراج مصر في يد أحمد، فأنشأ جيشًا لمصر وليس للخلافة بأموال الخراج. ولكن أحمد لم يعلن استقلاله عن الخلافة، كان المكر ينسكب من أطرافه كالدماء، فقد فعل ما هو أشنع. فعند احتدام الصراع بين الخليفة وأخيه طلب أحمد من الخليفة أن يذهب إلى مصر وأن تصبح مصر هي عاصمة الخلافة العباسية، كان جريئًا وداهية يريد السيطرة على بغداد من مصر دون أن يسب الخليفة ولا يعاديه.

تخلص من ابن المدبر بعد أن تكلم عنه بكل سوء أمام الخليفة، وبعد أن أصبح الخليفة يستمع إلى أحمد فقط ولا يثق بغيره. استغل أحمد سيطرته فبدأ عقاب شقير صاحب البريد الذي عينه الخليفة في الماضي خصيصًا للتجسس على والي مصر، قرر قتله بلا تردد، فأمر بمد جسده على لوح خشب وشد أطرافه لتتمزق قبل أن يموت، ولكن القدر لم يمهله ومات شقير قبل التعذيب. أراد أحمد أن يبعث رسالة لكل جاسوس حتى لا يبقى في الديار المصرية سوى جواسيسه هو. أراد أن يوضح أن لا خليفة سيشفع، ولا خليفة سيحمي من بطشه، وأن غله لا طاقة لأحد به.

مع مرور الوقت أصبح ما يصل إلى الخليفة عن أخبار مصر هو ما يمليه أحمد على الكاتب، انقطع الوصال واستأثر بها هي والشام والحجاز واليمن. كان بارعًا في القتال فلم ينهزم قط. يخمد الثورات، ويكسب الموالي،

جئت أنا من عرب خراسان أبحث عن عيش في أنحاء مصر، لجأت إلى لؤلؤ خادم وقائد ابن طولون وكان من أخلص وأحب القواد إلى قلبه، كنت يائسًا أتمنى فقط أن أنظف الحظيرة أو أرعى الخيول. عملت في كنس الحظيرة في جَلَد ولم أشتك ولم أنطق حتى رق لي قلب لؤلؤ، وطلب مني أن أتدرب على الجندية وأنضم إلى عساكره. قابلتُ أحمد مرة أو مرتين ولم يلتفت إليَّ. ولكن الأمير أحمد رأى رؤيا على ما يبدو أو شيطانًا في نومه، قيل إنه حلم بي قبل أن يراني، ولم أكن أنظف الحظيرة في حلمه، ولكني كنت أكنس قصره ومسجده ومدينته، وكلما دفعت بالمكنسة محوت أثرًا من آثاره؛ محوت القصر ثم المدينة ثم المسجد. استيقظ مفزوعًا يومها وصادف أنه كان يمر وأنا أكنس الحظيرة فوقعت عيناه عليَّ فأمر بقتلي فورًا بلا مقدمات ولا محاكمة. هذا الأمير الذي هلل له المصريون وغمروه بالحب أمر بقتل رجل فقير لا حيلة له لمجرد أنه رأى حلمًا من عمل الشيطان.

شفع لي لؤلؤ وقال لأحمد: مولاي الأمير، هل سنقتل رجلًا بلا سبب؟

– ستقتله لأني آمرك أن تفعل.

– عدلك لا يسمح بقتل رجلٍ لجأ إلى مصر وإلى حمايتك.

– لَكَمْ من محتاج هو في الأصل لئيم!

– أستسمحك يا مولاي، أطلب رحمتك؛ ننفيه ونعيده إلى بغداد، ونطلب منه ألا يأتي إلى مصر مرة أخرى أبدًا.

استجداه لؤلؤ يومين حتى أمر بإعادتي إلى بغداد بعد أن أقسم ألا تطأ قدمي مصر حتى أموت وليس حتى يموت أحمد. ثم أمر بجلدي ثمانين جلدة للتذكرة بالقسم.

لو يعرف حينها أحمد أن القسم والسيف على رقبتك لا قيمة له! كرهته عندما أمر بقتلي، وكرهته عندما نفاني وأذلني. كلما حرق السوط ظهري أقسمت بالله

على ذبحه، وكلما رجوت الحارس أن يرفق بي وهو يضربني أقسمت بالله أن أكسره هو وكل ذريته.

سأمحو اسمه من على وجه الأرض. يفرح بمدينته كفرحة الكفار بغلبتهم. يقول مدينة بلا أسوار لأن الجنود تحرسها وتسكنها. يومًا أقسمت أن أمحو المدينة. أنا وكل من تذوق ظلم أحمد وكل من عرف قيمة الخلافة.

أريد للقطائع أن تبقى مدينة بلا أثر، أريد لكل حجر أن يتفتت إلى ذرات رمال لا تغمر ولا تدفن بل تطير في الهواء بلا غاية ولا هدف. هذه المدينة للنسيان، هذه المدينة للعدم. لو تبقّى منها شيء فقد انهزمنا، ولو أرشد الحجر الصغير على ما كان فلا أمل في محو العصيان، ولا تقبل القدر المكتوب من الأقوى والأعلم. ليت الناس يعرفون أن القطائع لا أصل لها؛ لم تكن ولم تُبنَ، لا هي حلم ولا حقيقة؛ هي كمدن الأساطير كلمات تتناثر مع ذرات الرمال التائهة ثم تغوص في عرض البحر بلا مسكن ولا طمأنينة. ليس لهذه المدينة أصل ولا منبع. من عاشوا هنا ومن بقوا لن يحكوا ولن يكتبوا. لو قالوا لك يومًا إن هناك مدينة هنا.. كانت هنا اسمها القطائع... ابتسم في حسرة ثم قل: هي كمدن الحكايات تهون الأيام ولا تأتي برزق ولا نبات... أين الأثر؟ وماذا تبقّى؟ هل تبقى شيء؟ لو تبقى شيء فهو هزيمتي أنا محمد بن سليمان الكاتب. لو تبقّى شيء فاقتلني على الفور واعلم أنني لم أنتصر. الانتصار هو محو الكبرياء لا أكثر، وكلما تبقّى أثر انتشرت الكبرياء كذرات المياه في الأحجار. أعدك أنها ستندثر وتنفق كالحيوانات، فهي مدينة بلا روح ولا هدف. ستندثر ويندثر معها حلم أحمد وكل من عاشوا بها.

***

- 4 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار كاتب الأمير أبي العباس أحمد بن طولون فقال:

واعلم أن أحمد بن طولون كان مفتونًا بالملوك القدماء ومبانيهم وسيرتهم وثوراتهم، وأني لم أعرف حاكمًا مسلمًا من قبل يفكر مثل أحمد وينفرد بالبلاد فيبني فيها لتصير وطنًا له هو وأبنائه. كان يبني بسرعة البرق وكأن جانًا من نار يساعده. يبني وكأنه باق أو كأن البلاد باقية، يستعمل أمهر البنائين ويختار من هو حاذق في الهندسة. عاصرت علاقته بسعيد بن كاتب الفرغاني المسيحي القبطي الشاب الذي سجنه أحمد ثم خلده. له معه قصة طويلة لا تنتهي ربما ولم تنته الآن. طلب من سعيد أن يبني له العين ومقياس النيل حتى تصل المياه لأطراف الديار المصرية. تتذكر عندما زرنا الخياط الذي تزوج الأمير من ابنته أسماء؟ منذ ذلك اليوم والأمير مهموم بأمر المياه ويريدها أن تصل إلى كل المصريين. بنى له سعيد كل ما يريد في أقصر مدة، ثم طلب من الأمير أن يأتي ليتفقد بنفسه العين والمقياس، وجاء الأمير وأنا وراءه بفرسه ليتفقد العين فسقطت قدم فرسه في حفرة فوقع، وظن حينها أن سعيدًا قد دبر هذا له. ووشى الواشون وفتن الجواسيس، فقرر الأمير أن يسجن سعيدًا وليس أن يكافئه على ما بنى. بقي سعيد الفرغاني في السجن إلى حين، ثم كان ما كان من عثور الأمير على كنز القدماء الذي لا يقدر بمال عند سفح الأهرامات، وأقسم لك إن الأمير، أيده الله، لم يأخذ دينارًا واحدًا من هذا الكنز لنفسه، بل بنى به العين والبيمارستان والمصانع والمدينة،

وقرر العطايا للفقراء والمستورين مدى الحياة، ثم قرر أن يبني مسجدًا كبيرًا، وقد أراده أكبر مسجد يُبنى في الديار المصرية على مر العصور، وأراد لمسجده أن يبقى مع تقلبات الدهر وفناء الحكام. تدر له الناس أن بناء مسجد كهذا سيحتاج إلى ثلاثمائة عمود من الكنائس، وأن الأمير يمكنه أن يستعمل الأعمدة من الكنائس القديمة في الأرياف والضياع الخربة. فكر في الأمر ثم أخلد إلى النوم. رأى في منامه حلمًا أزعجه أيامًا، فقد حلم أنه بنى مسجدًا كبيرًا شاهقًا وعظيمًا، وتمتد مدينته القطائع من المسجد إلى الفسطاط وما بعد، مدينة لا تنتهي، بمبان مزدهرة وأناس في راحة وهناء، ثم فجأة يتجلى الله على المدينة كلها ما عدا المسجد.

قام من نومه حينها منزعجًا متشائمًا، ونادى الشيوخ والحكماء يسألهم عن تفسير الحلم، فعجز كل الشيوخ عن تفسيره وربما خاف البعض من قول شيء يغضب الأمير فينتقم منهم. فكر كثيرًا ثم قال لي يومًا إنه يريد أن يبني مسجده بلا سرقات من معابد قديمة ولا كنائس، وإن الحلم ربما كان رسالة له أن يمتنع عن أخذ أعمدة الكنائس والمعابد القديمة. مكث الجموع حائرين في أمر الأمير وكيفية بناء مسجد بلا أعمدة حتى سمع سعيد في سجنه ما يشغل الأمير فقال لحارسه أن يوصل رسالة للأمير أنه هو الذي يستطيع أن يبني له المسجد بلا أعمدة سوى عمودي القبلة.

أبلغ الحارس الرسالة للأمير، فأمر بإحضار سعيد على الفور، وطلب منه أن يرسم له المسجد على رقعة، فرسمه سعيد في حماس، وكان حينها قد طال شعره وطالت لحيته وبدا متعبًا مهمومًا من مكوثه في السجن. رسم سعيد بيد مرتجفة، وثبت الأمير نظره على الرسومات ساعة أو أكثر، ثم أمر سعيد أن يبدأ في العمل من اليوم، وأن ينتهي من المسجد قبل مرور عامين، وقال إنه سيعطيه كل ما يحتاج إليه من مال. دار بينهما هذا الحوار أمام عيني، سأل الأمير سعيد: كم بابًا وشباكًا في مسجد كهذا؟ وأي سقف يتحمل غدر الأزمنة وحروب الدهر؟

- يا مولاي، أنا أبنيه لك بالدعائم بدلًا من الأعمدة حتى تتساوى في طولها فتعكس عدلك وحكمتك، وسنبني الدعائم بالطوب الأحمر، وسيكون للمسجد واحد وعشرون بابًا لتسهل على سكان المدينة الدخول من أي طريق، وسيحيط بجدران المسجد الأربعة مائة وتسعة وعشرون شباكًا، وسيرتكز المسجد على صخور الجبل فيثبت حتى لو تهدمت المدن مع الزمن. وسأستعمل جريد النخيل في الأسقف.

- جريد النخيل؟

- ليترك لي مولاي بعض الحرية، ويرى في النهاية لو كنت أستحق الموت أم المكافأة.

- نحتاج أن نكتب كل سورة البقرة، وسورة آل عمران على الجدران للتذكرة، فما أهمية مبنى شاهق بلا كلمات تدعو للمعرفة؟

- عندنا أفضل الخطاطين والعاملين يا مولاي.

***

انتهى سعيد الفرغاني من بناء المسجد وعلق الستور والقناديل، ودخل الأمير، أعانه الله، فسره ما رأى، ومكث يبحث عن سعيد ليشكره، فجرى سعيد وتسلق الركن النحاس ثم قال بصوت عالٍ: عاملك يريد الجائزة والأمان، لا تسجني كآخر مرة.

ضحك الأمير وقال: انزل وإلا ستموت قبل أن تحصل على الجائزة، لك كل ما تريد وأكثر.

وأعطاه عشرة آلاف دينار وقربه منه، فأصبح من أهم رجاله طوال عمره.

حدق الأمير في الشرفات التي تعلو سور المسجد منبهة، ثم قال في صوت لم أعرف أهو غاضب أم مبتهج: سعيد بن كاتب الفرغاني.. ما بال هذه الشرفات تشي بعشق وليس بعبادة؟

قال سعيد في ثبات: العبادة عشق له.

- هذه الشرفات ليست كأي شيء رأته عيني، كالعرائس المتعانقة المتراصة المتصلة بالجسد والروح. هذه ليست كشرفات مساجد سامراء ولا مصر ولا دمشق.

تضرع سعيد إلى العرائس المتعانقة التي ترتفع برأسها قاصدة السماء ثم قال في يقين: مولاي أحمد ليس ككل الحكام.

- اشرح ما قصدت بها وأوجز حتى لا ألقي بك في السجن مرة أخرى وإلا أمرت رجالي بهدمها.

- اقتلني واسجني وعذبني ولا تهدمها.

نظر إليه أحمد ينتظر شرحه. فقال سعيد في يقين وعيناه ترافقان الشرفات: الشرفات المنفصلة المسننة أو المورقة تشي بروح تحمي المكان وتطرد الشر والحقد. كان يمكنني أن أجعل شرفات المسجد على شكل هرم مسنن أو أوراق أشجار، ولكن حماية المكان تأتي بالتحام الأرواح واتجاهها إلى خالقها. اجتمعت العرائس على عبادته، وتعاونت على الخير، ولم تزل تتوق إلى لقائه.

التقت أعينهما، ثم قال أحمد: ما بال ساحرة الهرم التي أفقدتك عقلك؟ كل مصر تعرف حكايتها. هل تريدني أن آمرها أن تترك السحر وتعود إليك كزوجة؟

ابتسم سعيد في يأس ثم قال: بحسن لن تعود إليّ، ولكنها تعرف أو ربما ستعرف.

- بنيت مسجدي بقلب العاشق لساحرة يا رجل؟

- بنيته بقلب المتضرع إلى مغفرته، العالم برحمته المتجه إلى كرمه، من ذاق العشق يعرف روعة الخالق والمخلوق. لكم من الأجساد تتصارع ويفتك بعضها ببعض! وعند دخول مسجدك يتذكر البشر أن الالتحام هو الغاية، والانسجام التام هو نفحة من الجنة. اجعل المصلين يدركون أن شرفات أحمد غير كل الشرفات، وأن عناق الأرواح يحمي من ضعف النفوس.

- لك ما تريد يا سعيد وأكثر. اطلب مني وسأجيب.

- ما يستطيع أن يعطيه مولاي يكفيني، وما أطلبه ليس بيدك.

***

دعا الأمير أحمد كل المصريين لصلاة الجمعة في المسجد، ولكن أشاع البعض أن المسجد قد بناه الأمير بكنوز القدماء فإنه حرام، وأن شكله مختلف عن بقية المساجد، فهو بلا أعمدة كمسجد عمرو بن العاص. عرف الأمير بالأمر قبل يوم الجمعة فذهب إلى المسجد، وجمع العامة وخطب في الناس وحكى لهم حلمه وقال إنه لم يشأ أن يسرق من كنيسة أو معبد، وإن الكنز هو مال الملك الذي جاءه في الحلم أول مرة وهو طفل، وإن الكنز حلال وقد وهب مسجده للمسلمين، ووهب البيمارستان لأهل مصر. اجتمع العامة حوله وحيوه وكانت أول صلاة جمعة في المسجد. وفي هذا اليوم خطب الخطيب أبو يعقوب البلخي ودعا للخليفة ونسي أن يدعو للأمير أحمد، التفت الأمير إليّ وقال: يا جعفر، هذا الخطيب يُجلد خمسمائة جلدة على عدم الدعاء لي.

أشفقت على الخطيب، وظننت أنه ربما سها أو ارتبك فقط. بعد أن نزل الخطيب أول درج تذكر وحده، فعاد إلى المنبر وقال: الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين. تنفست الصعداء حينها، فقال لي الأمير: بدل بالخمسمائة جلدة خمسمائة دينار.

***

الباب الثاني

أشكو إلى الله أن الدمع قـد نفـدا

وأنـــي هــالك من حُبّكُم كمدا

قالوا الفراق غدًا لا شك قُلتُ لهُم

بل مَوتُ نفسي من قبل الفراق غَدا

ابن المعتز (شاعر عباسي)

الباب الثاني

أشكو إلى الله أن الدمع قد نفدا

وأنني هالك من حُبِّكُم كمدا

قالوا الفراق غدًا لا شك قُلتُ لَهُم

بل مَوتُ نفسي من قبل الفراق غَدا

ابن المعتز (شاعر عباسي)

- 5 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار كاتب أحمد بن طولون فقال:

اشتد الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق، والأمير، أعانه الله، يقف مع الخليفة الشرعي المعتمد الذي لجأ إليه ضعيفًا يبغي تأييد مصر، بل حثه الخليفة على ضم الشام إلى مصر حتى لا يسيطر عليها أخوه الموفق، ازداد الصراع بين الموفق والأمير أحمد، وكأن قوة العالم الإسلامي بين يدي رجلين أحدهما في مصر والآخر في العراق، أحمد والموفق. أما الخليفة فازداد عجزه وقلة حيلته حتى دعاه أحمد إلى أن يجعل مقر خلافته مصر. أحمد بلغ من قوة النفس وتهذيبها ما لم يبلغه قبله قائد من القواد، فكان يسيطر على مصروفاته ويهذب أهواءه فلا جارية تسيطر عليه ولا شهوة تتملكه. تدرب على القتال وأصبحت الحماية نصب عينيه. سَيَدَّعي البعض قلة صبره وطغيانه مع العدو، سَيَدَّعي البعض سرعة بطشه وسيطرته على الناس، سَيَدَّعي البعض هوسه بالسيطرة على القلوب والتجسس على همسات النفوس، ولكنني لم أعهد ولا أعرف أميرًا أحب مصر كما أحبها أحمد، ولا بذل من أجلها المال والأنفس، ولا التحم بشعبها كما التحم هو. وسوف أتكلم عن حب المصريين له في موضع آخر. لما اشتد الصراع بين الأخ وأخيه واحتدم، طلب المعتمد تدخل أحمد وخروجه بجيشه إلى الشام للسيطرة عليها قبل أن يسيطر الموفق برجاله عليها.

في تلك المرة خرج الأمير إلى الشام وهو مطمئن، فقد كبر أولاده الرجال وتدرب العباس على القتال وأصبح فخر البلاد. جمع الأمير أولاده ثم نادى

الباب الثاني

أشكو إلى الله أن الدمع قـد نفــدا

وأنـــي هــالك من حُبِّكُم كمدا

قالوا الفراق غدًا لا شك قُلتُ لَهُم

بل مَوتُ نفسي من قبل الفراق غَدا

ابن المعتز (شاعر عباسي)

- 5 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار كاتب أحمد بن طولون فقال:

اشتد الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق، والأمير، أعانه الله، يقف مع الخليفة الشرعي المعتمد الذي لجأ إليه ضعيفًا يبغي تأييد مصر، بل حثه الخليفة على ضم الشام إلى مصر حتى لا يسيطر عليها أخوه الموفق، ازداد الصراع بين الموفق والأمير أحمد، وكأن قوة العالم الإسلامي بين يدي رجلين أحدهما في مصر والآخر في العراق، أحمد والموفق. أما الخليفة فازداد عجزه وقلة حيلته حتى دعاه أحمد إلى أن يجعل مقر خلافته مصر. أحمد بلغ من قوة النفس وتهذيبها ما لم يبلغه قبله قائد من القواد، فكان يسيطر على مصر وقائه ويهذب أهواءه فلا جارية تسيطر عليه ولا شهوة تتملكه. تدرب على القتال وأصبحت الحماية نصب عينيه. سَيَدَّعي البعض قلة صبره وطغيانه مع العدو، سَيَدَّعي البعض سرعة بطشه وسيطرته على الناس، سَيَدَّعي البعض هوسه بالسيطرة على القلوب والتجسس على همسات النفوس، ولكني لم أعهد ولا أعرف أميرًا أحب مصر كما أحبها أحمد، ولا بذل من أجلها المال والأنفس، ولا التحم بشعبها كما التحم هو. وسوف أتكلم عن حب المصريين له في موضع آخر. لما اشتد الصراع بين الأخ وأخيه واحتدم، طلب المعتمد تدخل أحمد وخروجه بجيشه إلى الشام للسيطرة عليها قبل أن يسيطر الموفق برجاله عليها.

في تلك المرة خرج الأمير إلى الشام وهو مطمئن، فقد كبر أولاده الرجال وتدرب العباس على القتال وأصبح فخر البلاد. جمع الأمير أولاده ثم نادى

العباس وقال: أنت خليفتي في مصر، تحكمها نيابة عني حتى أعود، ترعى نساءه وتحمي إخوتك وتثبت لي الولاء والشجاعة.

انحنى العباس وقبل يد أبيه قائلًا: نفسي فداؤك يا مولاي.

فقال الأمير في حسم: بل أريدك حيًّا عند عودتي.

ثم استدعى أحد رجاله المصريين وكان يدعى أحمد بن محمد الواسطي، وأمره أن يساعد العباس، ويتولى وزارة مصر حتى عودته، وأن يتولى خراجها أيضًا ويؤيد العباس في قراراته. وأمر العباس أن يستشيره قبل أي إجراء. ازداد قلقه من سيف مسموم يخترق صدر العباس، فطلب من الواسطي أن يحيطه بالحراس، وأن يتذوق طعامه بنفسه قبل أن يأكله العباس، وأن يتجسس على كل جواري القصر.

أقسم الرجال على ولائهم للعباس، واتجه الأمير إلى أبواب المدينة، فاستوقفه ابنه وقال: أبي، أدعو الله أن تعود سالمًا غانمًا. لا تتأخر في رسائلك حتى يطمئن القلب وتقر العين.

ربت أحمد على كتف ابنه قائلًا: فليطمئن قلبك دومًا يا بني.

ولم أر في حياتي الأمير بهذا الحنو، ولأصدقك القول كنت خائفًا على العباس في غياب الأمير وأنا لا أعرف من أين سيأتي الخطر، هل سيبعث الموفق رجالًا يتخلصون منه ويضمنون القضاء على بيت طولون ويحرقون قلب الأب على زينة أبنائه؟ أم سيقتله أحد الرجال الطامعين من حوله؟ أم ستقتله جارية تمكن الطمع من قلبها؟ خفت على العباس كخوف الأمير عليه ليس حبٌّ لي العباس ولكن حبًّا في الأمير ومعرفة بقدر حب العباس لديه. ولكن لم يكن هناك بد من الرحيل

***

قلَّت رسائلات الواسطي إلى الأمير، وبدأ القلق يتسرب إلى قلوبنا أن يكون مكروه قد أصاب العباس أو أحد أفراد أسرة الأمير، فقرر الأمير أن يبعث أحد

رجاله متخفيًا إلى مصر ليعرف أخبارها ويعود بسرعة البرق أو يبعث رسالة مع الحمام الزاجل تصل قبله بأيام.

وصلت رسالة وجاء صاحبها بوجه خائف واجم. رأيت عيني الأمير وهو ينظر لحامل الرسالة وقد قال في يأس لم أر مثله: لو قلت لي إن العباس قُتل أو مات أقطع رأسك.

تردد حامل الرسالة ثم انحنى أمام الأمير وقال في خوف: أطلب رحمتك فما أنا إلا رسول.

قال الأمير وصوته يرتجف: لو كان مات فاخرج من أمامي الآن. أعطيك لحظات تهرب من أمام وجهي حتى لا أقتلك.

أطرق الأمير وأرخى جفنيه ورأيت أصابع يده تدق على مقعده وكأنه يغوص داخل سجن لا خروج منه. لم يزل الرسول ماكثًا أمام يديه، ولم يزل الأمير يدق بأصبعه وكأنه يتوغل داخل القدر فيتمنى محاربته، حتى قلت في رجاء: مولاي الأمير.. الرسول يخاف أن يتكلم.. اسمح له.

لم يسمعني على ما يبدو، فقلت للرسول في رفق: اخرج الآن لو كان الأمير العباس قد مات.. أنقذ نفسك.

همس الرسول في أذني: لم يمت.

تنفست الصعداء ثم قلت في ثقة: يا أمير مصر، العباس بخير..

نظر الأمير إلى الرسول منتظرًا الرسالة والأمان لا يدخل قلبه.

قال الرسول إن الواسطي سجينٌ لا يستطيع أن يتصل بالأمير، ويبدو -والله أعلم- أن العباس قد أخذ من خزانة الدولة ألفي ألف دينار، وأرغم التجار في مصر على دفع ثلاثمائة ألف دينار. عند سماع الأمير للخبر كذبه وبعث من يتأكد ويتكلم مع الواسطي في سجنه، وجاء الخبر اليقين وقال له القادم على استحياء:

مولاي، يبدو والله أعلم أن بطانة السوء قد أثاروا الفتن بين الأمير العباس والواسطي فقالوا للأمير العباس إن الواسطي مصري لا يتقن العربية، يلحن في القول ويتجسس لصالحك وينقل أخبارًا كاذبة لك... هم أصدقاء السوء يا مولاي، أما الأمير عباس فولاؤه لك بالتأكيد.

قرأ الأمير بين السطور أو لم يقرأ، ولكن العباس ترك القطائع وهرب إلى الإسكندرية خوفًا من بطش والده أو تدخل الكائدين. بعث له والده القضاة والشيوخ برسالة تحثه على العودة إلى القطائع وتعطيه الأمان. قال الأمير في رسالته إن طاعة الوالدين واجبة، وإن الخروج على الأب عقوق قبل أي شيء، وقال إنه يسامح الابن، فربما حمله ما لا طاقة له به في وقت فتن وطلب منه إعادة الأموال والعودة.

كان العباس قد كلف أخاه ربيعة بشئون مصر قبل الذهاب إلى الإسكندرية. ويبدو -والله أعلم- أن أصدقاء السوء شككوا في رسالة الأب ونواياه فقالوا للعباس: والدك يبطش بمن يشك فيه بلا رحمة، فماذا سيفعل بك؟

ثم قالوا إن وعده خدعة يريد بها أن يستدرجه إلى مصر ليبطش به. قالوا إن هناك خطى لا رجعة فيها، وإن العباس ليس أمامه سوى النصر أو الموت. بعث العباس رسالة تحد إلى والده، وأحاط نفسه بجيشه ورجاله واتجه إلى برقة ومنها إلى إفريقيا - تونس - ليغزو ويفتح ثم يعود إلى مصر منتصرًا حاكمًا بعد خلع الأب وهزيمته. قالوا للعباس إنه لا يقل قدرة عن والده، وإن الزمن يحترم من يعجل بالفوز دومًا، في إفريقيا سمعنا أن العباس عربد وسرق وهدم القلاع والبيوت حتى أتم واليها بالنَّيل من مصر وابن طولون. احتدم القتال حتى أشيع أن العباس قد قُتل. وصل الخبر إلى ابن طولون ولم أره في هذا الغم قط. أغمض عينيه برهة ثم فتحهما وساد الصمت ساعات، ولكن جاءه النبأ.. إن العباس حي.

هرب العباس إلى برقة مرة أخرى، وبعث الأب الرسائل يطالبه بالعودة إلى مصر، فرد برسالة لا أجرؤ على قراءتها، وظننت أن الأمير سيضرب عنق حاملها.

كنت موجودًا والأمير يقرأ الرسالة وفحواها: يا أبي، لا طاعة لك عندي كما لم يطع إبراهيم أباه في الشرك، أنا على حق وأنت على باطل.

ساد صمت رهيب حينها ثم قال الأمير أحمد: أخرج جيشًا للقاء العباس وأريده حيًا. لا بد من العودة إلى مصر.

***

تقاتل الجيشان؛ جيش الابن والأب، ولم يتحمل جيش العباس كثيرًا، فاستسلم من استسلم، وقُتِل من قُتِل، وتم أسر العباس، وجيء به إلى مصر كما أمر أحمد بن طولون.

ما شعر به الأمير أحمد لا أعرف كيف أصفه لأني لم أمر به، ولكنه استدعى القاضي الجليل بكار بن قتيبة إليه وقال في وجوم: استدعيتك لأسألك عن رأيك في عقوق الوالدين.

قال القاضي بكار في حسم: يفتت النفس ويكسرها أكثر من فقد الأبناء يا مولاي الأمير.

قال الأمير في تلقائية: وكأني أصبحت عاجزًا لا قدرة لي ولا غرض في الدنيا.

- هي دنيا غير مستقرة، لا دوام لأحد يا مولاي.

- أخدعني ابني طوال الأعوام الماضية؟ كنت أتجسس على أقرب الناس إلا هو. كيف لي أن أشعر بحبه حولي ثم يخونني؟ ترى هل كان سيدفع بي إلى السجن أم سيقتلني يا ترى؟ ابني..

صمت الشيخ ثم نظر إليه وقال: أن تكون ابن الأمير أحمد.. أصعب شيء في الوجود، لو كنت تريد رأيي، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. اغفر لو استطعت.

- كيف أغفر لمن مزق فؤادي بين يديه؟ لو كانت زوجة كنت غفرت، هو دمي رفيقي وصديقي وخليفتي.

قال القاضي: أن تكون خليفة الأمير أحمد، هو ما لا طاقة له به.

- ماذا تقصد؟

- تحمل الشاب ما لا يستطيع، هو ليس الأمير أحمد، ولكن الأمير أحمد حوله يطل من رءوس كل المحيطين.

- لم أوبخه يومًا، أردته أفضل مني وأقدر.

- لم توبخه أنت، وبخته نفسه على أنه ليس أنت. كلما دنا منك العالم ووقع في قبضة يديك شعر الشاب بقلة حيلته وهوانه بين الناس. أن تكون ابن الأمير هو أن تكون في عذاب مستمر، فلا أنت أحمد، ولا تستطيع أن تصبح هو، ومع ذلك يحملك أحمد ما لا تستطيع تحمله.

- هي غلطتي إذن.. أنني أردته خليفتي!

- هي الدنيا يا مولاي، ليست غلطتك ولكنها دنيا تعج بالابتلاءات.

- كنت أتحمل كل الابتلاءات ما عدا هذا الابتلاء.

- تصدَّق واستغفر، سيساعدك الاستغفار على الصبر، وعند الصبر تتنزل عليك صلوات من الله.

- آه من حزن لا قبل لي به.. أن يقتلني ولدي.. أن يجحد وينسى..!

- هو حزن لو كانت هي دار استقرار وبقاء، وهو ابتلاء له نهاية لو تذكرت أنها دار متنقلة.

- كأنني أصرخ في عماي وعماي.. كنوح وهو يستغيث بالله لينقذ ولده من طوفان ونار تتبعه. أريد أن يغفر له الله العقوق، ولا أريد أن أغفر له، ومع ذلك أحن إليه وأشفق عليه أي ابتلاء هذا؟!

***

- 6 -

حدثتني أسماء بنت محمود الخياط زوج أحمد بن طولون قالت:

لم يكتب لي بعد أن أكون أمًا، ولكني أعرف لوعة الأم على وليدها، ورأيت الارتجافة في عيني خاتون وأشفقت عليها، ولكن شفقتي كانت أعظم وألمي كان أعنف على الأمير. فلم أر هذا الغم يتمكن من رجل قط. عند عودته دخل على النساء ورأيت الخطوط تسيطر على عينيه وكأنه بلغ المائة، تكلم باقتضاب ودخل حجرته ولم يناد أيًا منا.

يومها حدث ما لم أتوقعه.. جاءت خاتون إلى حجرتي والدموع تملأ صوتها وعينيها وقالت: لك معزة في قلب الأمير.

قلت في تواضع: لا معزة تضاهي معزتك في قلبه يا مولاتي.

ثم أشفقت عليها من طلب أعرفه فقلت مسرعة: سأشفع للعباس، سنشفع له كلنا.

قالت في تأمل: كان أحمد يخاف عليه من القتل والموت؛ يحلم به كل يوم، يتذوق طعامه، ويتجسس على جواريه ورجاله حتى لا يغدر به أحد. أتعرفين؟

- أعرف يا مولاتي.

- بل قولي خاتون. خاف أن يغدر بابنه أحد فغدر به ابنه. ماذا بيدي أن أقول له؟

- هو فلذة كبده، لن يؤذيه.

- لو خرج الولد عن أبيه وبدد الأموال وسرق الرجال ثم أعلن الحرب، ماذا تتوقعين؟ ترى لو فاز بمصر العباس، فماذا كان سيفعل بأبيه؟

- الخير.

- لا خير في ولد يغدر بالأب.. كيف لي أن أطلب عفوه؟ لا يا أسماء، لم آتِ لأطلب العفو لابني، من خان يُقتل. أريد شفاعتك في شيء آخر.

قلت في حنو: مولاتي.. هوني عليك.. ربما يرحمه..

قاطعتني: أريدك أن تتوسطي عند الأمير بأن يسرع في قتله لا يُذله ولا يُعذبه.

قلت: فلنتوسط له أن يعفو عنه.

- هذه السذاجة لا تأتي إلا ممَّن لم تحيَ في القصور سوى يوم أو بعض يوم. هل تأتين معي لمقابلة الأمير؟

دخلنا على الأمير في خطى متثاقلة، وكنت خائفة من غمه أكثر من خوفي من غضبه. لم أعرف ماذا أتوقع منه ولا ماذا سيفعل بنا عند الكلام.

نظر أولًا إلى خاتون ثم قال: أجئت تشفعين له؟

قالت في قوة: لا أشفع لمن خانك حتى ولو كان ابني أريدك فقط أن ترحم بقدر ما أحببت.

- بل لابد أن أحزن بقدر ما أحببت، وأعاقب بقدر ما أحببت، وأعذب بقدر ما تعشمت في حبه.

قالت خاتون: احزن يا أحمد ولكن لا تجعل حزنك يتحول إلى مرارة وغضب. كم عمرنا معًا؟ أعرفك وأفهمك، لو كنت تنوي القتل فارحم ولا تقطع الأطراف أو تتعمد التعذيب.

لم يجب.. أطرق برهة ثم نظر إليَّ وقال: ماذا تفعلين هنا يا أسماء؟

قلت في رقة: جئت أملي عيني منك يا مولاي، سمحت لي مولاتي أن أصاحبها وهذا شرف لي، فجئت أرجوك أن تجعل رحمتك على قدر مرارتك، وعفوك على قدر غضبك، ورجاحة عقلك على قدر هوى قلبك.

هز رأسه وكأنه لم يسمعني ثم قال: لقد أذنت لكما بالانصراف.

نظرت إليَّ خاتون التي فتحت فمها لقاطعها أحمد: انتهى الكلام.

تقهقرَتْ إلى الوراء وأنا معها ويدي على قلبي لا أعرف أي هم سيملأ أيامنا القادمة.

***

طاف الرجال بالعباس مُقيد اليدين أرجاء مصر والقطائع، والغضب يتسرب من وجهه، والخوف يسيطر على جوانحه.

اجتمع الناس وراء النوافذ يشاهدون اللقاء في الميدان، والتف الجيش حول أحمد بينما كان رجال العباس مقيدين من ورائه يطأطئون الرءوس في خزي. التقت أعينهما وخيم الحنان على الأب لحظة أو أقل ثم قال: ما جزاء الخيانة؟

رد الرجال: الموت يا مولاي.

قال لابنه يخصه بالسؤال: ما جزاء الخيانة يا عباس؟

بلع العباس ريقه ونظر حوله ثم قال: في بعض الأحيان تختلط الحقائق يا مولاي.

قال الأمير: في بعض الأحيان تسطع الخيانة فيتكلم عنها العامة في بيوتهم، الابن يخون أباه، والقائد يبدد خزانة والده التي ادخرها لأهل البلاد. من اختصك بالنصيحة؟ أبو معشر؟ من نخر الحقد في قلبك؟ ومن استغل فجور نفسك ليجعلك تشبه أباك بأبي إبراهيم؟ أتراني كافرًا يا عباس؟ أم تراني ألقي بك في النار جزاء لك على إسلامك لرب العالمين؟

- بل أراك تعطيني السلام ثم تغدر بي.

قال أحمد: بل أعطيتك السلام ثم غدرت أنت بي.

- أبي..

- لست أباك، أنا أميرك اليوم.. أبوك تبرأ منك.

ثم رفع يده بالسيف وأنا أمسك بقلبي.. وضع السيف على كتف ابنه، والعباس يرتعش ودقات قلبه تصل إلينا في القصر ثم قال: خذ السيف.. أريدك أن تقطع يدي أبي معشر الذي كتب معك الرسائل، ثم تقطع رجليه أمام عيني، ثم تلقي به أسفل الجبل.

أغمضت عيني حتى لا أرى الأطراف التي تنبثق الدماء منها، ثم كتمت أذني بيدي حتى لا أسمع صرخات لا قبل لي بها، ولكني سمعت همس خاتون حينها: ستعذبه يا أحمد، طلبت منك أن تقتله بكرامة وأبيت، تُرى هل ستقتلع أطراف ابني بيديك يا أمير؟

قلت مسرعة: لن يفعل.

- بل سيفعل.

- أنا أعرفه، لن يفعل.

قالت خاتون: بل أنا أعرفه، سيفعل.

توقف الصراخ.. فتحت عيني.

قال أحمد لابنه: والآن اقطع أطراف كل فرد من رجالك الواحد تلو الآخر، ثم ألق بهم إلى سفح الجبل أمام عيني.

أغمضت عيني من جديد واخترقت الصرخات قلبي.. ثم فتحتها.

اتسخت ملابس العباس بالدماء ووضع سيفه على الأرض وهو يلهث، لا أدري أكان ذلك من مجهود القتل أم من الخوف من القادم، ثم نظر إلى والده ينتظر ما سيفعل.

قال الأب: بعت رجالك وتخليت عنهم قبل أن يرتد إليك طرفك، كنت أظنك ستطلب الشفاعة لهم، فقد حاربوا من أجلك لو تذكر.

لم يجب العباس، بدا تائهًا وائقًا من مصيره.

اقترب منه الأب، رفع يده ثم صفعه صفعة وصل صداها إلينا حتى وقع على الأرض وعيناه ممتلئتان بالدموع. شد يده وقال وهو يرفعه: لا تبك كالنساء.

ساد الصمت، وكنت أكاد أقسم أن الدموع لم تكن فقط في عين العباس، ولكن لابد أنه خيالي وسذاجتي.

نظر إلى حراسه وقال: خذوا العباس..

صمت حينها وسمعت شهقة من خاتون، اقترب من ابنه وضرب وجهه مرة أخرى ثم قال: لو قتلتك قتلت نفسي، ولو أبقيت عليك تُذكرني بعجزي وحسرتي، ولكن العجز والحسرة أفضل من الموت.

ثم قال لحراسه: خذوا العباس إلى بيته، لا يبرح بيته إلا بإذن مني، اتركوا معه أولاده ونساءه، ولا يزوره أحد إلا بإذن مني.

سمعت الرجال حينها يهللون لأحمد ويشكرون له رحمته وعدله.

فتحت خاتون فمها في ذهول ثم قالت: لم يقتله.. لماذا؟

قلت في انتصار: لا يستطيع، قلت لك إني أعرفه خيرًا منك. أتتذكرين؟

- ولكن..

قلت بلا تفكير وعيني على الأمير زوجي: أخاف على أحمد من همٍّ ليس بعده همٌّ، وخنجر استقر في القلب.

***

- 7 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار كاتب الأمير فقال:

فلم يجرؤ أحد على الكلام مع الأمير عن ثورة ابنه عليه، ولا عن قراره بعزله عن توليه الأمر من بعده. استقدم ابنه خمارويه، وكان ولده الثاني، أنجبته جاريته مياس بعد عدة أعوام من إنجاب خاتون للعباس. جلس مع خمارويه ساعة أو أكثر، ثم خرج علينا. وأذاع الخبر أن ابنه سيمسك زمام الحكم من بعده. زادت الهمسات يومها ليس اعتراضًا على خمارويه فقد كان صادقًا رحيمًا، ولكن خوفًا من خليفة عباسي ربما لا يروقه أن يحكم مصر سلالة طولون وكأنهم انفردوا بحكمها كالملوك القدماء بعد أن كانت تابعة للخلافة منذ عهد عمرو بن العاص وحتى جاء أحمد فتغير كل شيء. عبر أحد الحضور عن قلقه من الخليفة ومن أخيه الذي احتدم الصراع بينه وبين أحمد بن طولون، فقال أحمد في قوة: اترك لي أمر الخليفة فأنا كفيل به، وقبل مرور الكثير من الزمن ستصبح الخلافة في مصر إن شاء الله.

عند انصراف الحضور عطفت على أحمد ليس كأمير يواجه المخاطر والخيانات، ولكن كأب أرهقه طغيان أعز الأبناء. قلت في رفق: مولاي لم يذهب للحرم منذ وقت. في صحبة النساء بعض الراحة دومًا.

قال في حسم: انتظرني هنا يا جعفر، سأغير ملابسي ثم نرحل.

- نرحل إلى أين يا مولاي في منتصف الليل؟

- إلى الدير، لم أطمئن على ساكنيه منذ زمن.

قلت في توسل: في منتصف الليل؟

- وهل يستشعر من عكف على العبادة فرقًا بين ليل ونهار؟

- أخاف أن يفزع سكانه.

لم يجب. خرج بفرسه وأنا وراءه حتى كدت ألحق به، جرى بالفرس وكأن العمر في نهايته. عند وصوله إلى بوابة الدير القصير في المعصرة طرق الباب طرقة واحدة ففتح راهب أعرفه منذ زمن.

طأطأ رأسه قائلًا: مرحبًا بالصديق، طال غيابك.

نزل عن جواده واتجه داخل الدير وجلس على الدكة الحجرية، وعينا أندونة الراهب لا تتركانه، ثم قال: أريد الاعتكاف بعض الوقت.

هز أندونة رأسه ثم أشار لأحد وكنت وراءه، سرنا معًا في ممر مظلم ثم في بهو مستدير ثم في ممر آخر حتى وصلنا لحجرة ليس بها سوى دكة صخرية وبعض الماء وشمعة واحدة، فتح أندونة بابها الخشبي الأسود ثم قال: هي تحت أمرك يا مولاي.

دخل الأمير وأغلق الباب عليه ولم يدعُني للدخول. بقيت أنا وأندونة خارجها. قلت في قلق: هل الصومعة مؤمنة من الداخل؟ أخاف على مولاي..

ابتسم الراهب ثم قال: لا خوف هنا.

ثم قال أندونة بالقبطية: ازداد الحمل عليه، لم أره بهذا البؤس من قبل.

خفت أن أنطق فيقطع الأمير رقبتي وودت أن أسأل الراهب لو علم بأمر العباس ولكني لم أفعل.

بعد برهة قال لي أندونة: لا تدخل عليه إلا عندما يأذن لك ولا تزعجه. يحب الاختلاء هنا منذ قدومه إلى مصر. إن أردت الاطمئنان عليه فانظر من ثقب الباب سترى الدكة وتراه فوقها، لو كان يتحرك فهو بخير ولو لم يتحرك فهو بخير.

سار في خطى بطيئة وتركني حائرًا أحاول أن أرى الأمير وسط الظلام. لم يشعل الشمعة ولم ينبس بكلمة.

وضعت يدي على ذقني ورحت في نوم عميق حتى الصباح. كنت أعرف علاقة الأمير، أعانه الله وأيده، بالراهب أندونة، بدأت عندما كان ابن المدبر يسيطر على خراج مصر فيطمع في أموال الكنائس والأديرة ويرهق المسلم والمسيحي بالضرائب. جاء الراهب إلى والي مصر مستغيثًا ووعد الأمير أندونة أن ابن المدبر لن يتحكم في المصريين كثيرًا، دعاه أندونة لزيارة الدير وفعل. وكان يعطف على أقباط مصر ويقدرهم ويحترمهم. ويقول دومًا إن البيوت التي يتعبد فيها الخلق طامعين في حب الله ومغفرته تستحق أن تحترم. منذ ذلك الحين وأندونة صديق مقرب.

مرت الليلة ثم الليلة الثانية، فبدأت أخاف على الأمير، ولم يكن يتحرك من على الدكة كثيرًا. ناديت أندونة فطرق الباب في رفق ثم فتحه ودخل على الأمير وكان ممددًا على الدكة يسند رأسه إلى الحائط، والظلام يسيطر على الغرفة. تقهقرت خلف الباب أستمع وأسترق النظر.

وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها أحمد يبكي. رأيت الراهب يجلس على الأرض صامتًا احترامًا لدموع لم تسقط من قبل، ثم رأيت أحمد يمسح دمعتين أو ثلاثًا بيديه ثم قال: اشتد الألم وتفشى.

قال أندونة في هدوء: ألم عقوق الولد هو أكبر ألم، ولكن سامح، في الصفح راحة لك قبل أن تكون راحة له.

- ترى أكان ينوي قتلي أم حبسي؟ كنت أخاف النوم ليلًا خشية أن يؤذيه أحد وأفشل في حمايته. كنت أتألم من موته حتى وهو معي، ربما كان موته شفاءً لهذه الآلام. ولكنني لا أقوى على قتل بضعة مني.

- في الألم منزلة عليا عند الرب دومًا لا يصل إليها سوى من اختاره. ربما أراد الله أن يفتح لك طاقة نور لن تراها إلا عندما تعتاد ظلام هذه الصومعة، النور لا يظهر وقت الغضب.. سامح حتى ترى، واهدأ حتى تسمع صوته.

- ليتني أستطيع الفهم لم فعل ما فعل؟ كنت أرى الحب في عينيه طفلًا. هل خدعتني عيني أم خدعني هو؟ هل سيطر عليه أصدقاء السوء، أو أن الطمع يغير ألوان المشاعر كالزئبق؟

- أغمض عينيك لترى، وأغلق أذنيك لتسمع.

قال في ضيق: آه مما أرى ومما أسمع! ليتني لا أرى ولا أسمع!

قال الراهب: أحمد، هي مشيئته تقبّلها حتى يوضح هو لك، واصفح وسامح. غضبك على قدر حبك، وعذابك على قدر عطفك، وعقابك على قدر لهفتك عليه. تذكر هذا.

كنت مندهشًا من كلام الراهب مع الأمير وكأنهما أخوان وصديقا طفولة لا ألقاب بينهما ولا تكلفة.

ساد الصمت بينهما ثم ردد أحمد: هي مشيئته، وهو ابتلائي أنا وحدي، وهزيمتي أنا فقط.

قال أندونة في تأمل: يا أحمد، هذا النوع من الحزن به بعض الموت. وفي الموت حياة دومًا. لا بد أن تموت لتحيا، ولا بد أن تحزن لتموت ثم تحيا حياة أكثر عمقًا وأكثر معرفة. لا معرفة بلا ألم يسبقها، ولا حياة بلا موت يسبقها، ولا فهم بلا حزن يسبقه.

قال الأمير حينها: أتعرف يا أندونة؟ لكم أحسدك اليوم على أنك تركت دارًا لا أمان لها! لكم أتمنى أن أتخلى الآن وأن أترك!

بعد برهة قال لي أندونة: لا تدخل عليه إلا عندما يأذن لك ولا تزعجه. يحب الاختلاء هنا منذ قدومه إلى مصر. إن أردت الاطمئنان عليه فانظر من ثقب الباب سترى الدكة وتراه فوقها، لو كان يتحرك فهو بخير ولو لم يتحرك فهو بخير.

سار في خطى بطيئة وتركني حائرًا أحاول أن أرى الأمير وسط الظلام. لم يشعل الشمعة ولم ينبس بكلمة.

وضعت يدي على ذقني ورحت في نوم عميق حتى الصباح. كنت أعرف علاقة الأمير، أعانه الله وأيده، بالراهب أندونة، بدأت عندما كان ابن المدبر يسيطر على خراج مصر فيطمع في أموال الكنائس والأديرة ويرهق المسلم والمسيحي بالضرائب. جاءه الراهب إلى والي مصر مستغيثًا ووعد الأمير أندونة أن ابن المدبر لن يتحكم في المصريين كثيرًا، دعاه أندونة لزيارة الدير وفعل. وكان يعطف على أقباط مصر ويقدرهم ويحترمهم. ويقول دومًا إن البيوت التي يتعبد فيها الخلق طامعين في حب الله ومغفرته تستحق أن تحترم. منذ ذلك الحين وأندونة صديق مقرب.

مرت الليلة ثم الليلة الثانية، فبدأت أخاف على الأمير، ولم يكن يتحرك من على الدكة كثيرًا. ناديت أندونة فطرق الباب في رفق ثم فتحه ودخل على الأمير وكان ممددًا على الدكة يسند رأسه إلى الحائط، والظلام يسيطر على الغرفة. تقهقرت خلف الباب أستمع وأسترق النظر.

وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها أحمد يبكي. رأيت الراهب يجلس على الأرض صامتًا احترامًا لدموع لم تسقط من قبل، ثم رأيت أحمد يمسح دمعتين أو ثلاثًا بيديه ثم قال: اشتد الألم وتغشى.

قال أندونة في هدوء: ألم عقوق الولد هو أكبر ألم، ولكن سامح، في الصفح راحة لك قبل أن تكون راحة له.

- ترى أكان ينوي قتلي أم حبسي؟ كنت أخاف النوم ليلًا خشية أن يؤذيه أحد وأفشل في حمايته. كنت أتألم من موته حتى وهو معي، ربما كان موته شفاءً لهذه الآلام. ولكني لا أقوى على قتل بضعة مني.

- في الألم منزلة عليا عند الرب دومًا لا يصل إليها سوى من اختاره. ربما أراد الله أن يفتح لك طاقة نور لن تراها إلا عندما تعتاد ظلام هذه الصومعة، النور لا يظهر وقت الغضب.. سامح حتى ترى، واهدأ حتى تسمع صوته.

- ليتني أستطيع الفهم لمَ فعل ما فعل؟ كنت أرى الحب في عينيه طفلًا. هل خدعتني عيني أم خدعني هو؟ هل سيطر عليه أصدقاء السوء، أو أن الطمع يغير ألوان المشاعر كالزئبق؟

- أغمض عينيك لترى، وأغلق أذنيك لتسمع.

قال في ضيق: آه مما أرى ومما أسمع! ليتني لا أرى ولا أسمع!

قال الراهب: أحمد، هي مشيئته تقبَّلها حتى يوضح هو لك، واصفح وسامح. غضبك على قدر حبك، وعذابك على قدر عطفك، وعقابك على قدر لهفتك عليه. تذكر هذا.

كنت مندهشًا من كلام الراهب مع الأمير وكأنهما أخوان وصديقا طفولة لا ألقاب بينهما ولا تكلفة.

ساد الصمت بينهما ثم ردد أحمد: هي مشيئته، وهو ابتلائي أنا وحدي، وهزيمتي أنا فقط.

قال أندونة في تأمل: يا أحمد، هذا النوع من الحزن به بعض الموت. وفي الموت حياة دومًا. لا بد أن تموت لتحيا، ولا بد أن تحزن لتموت ثم تحيا حياة أكثر عمقًا وأكثر معرفة. لا معرفة بلا ألم يسبقها، ولا حياة بلا موت يسبقها، ولا فهم بلا حزن يسبقه.

قال الأمير حينها: أتعرف يا أندونة؟ لكم أحسدك اليوم على أنك تركت دارًا لا أمان لها! لكم أتمنى أن أتخلى الآن وأن أترك!

ابتسم أندونة، ثم قال كلمات لم أنسها طوال عمري: هناك حكمة وسر في التخلي، لابد أن تتخلى وأنت تشتهي وتطمع وليس بعد أن تيئس وتزهد. لا بد أن تترك الدنيا وهي تفتح ذراعيها بالأماني وليس بعد أن تذوق مُرّ صدقها وحقيقة توحشها.

قام الراهب وعاد ببعض الخبز والماء، فأكل أحمد وبقينا يومًا آخر ثم عدنا إلى القصر بلا كلمة.

***

توسطت أنا والواسطي لدى الأمير ليقابل ابنه العباس ويستمع إلى شرحه، وأن يسامح قبل سفره إلى طرطوس. رأيت عيني الأمير لأول مرة غير مستقرتين تراقبان السماء والأرض. كنت أخاف عليه هذه الأيام، والأخطر أني كنت أشفق عليه، وهذا لم يحدث من إنسي رأى أحمد بن طولون قط. فهو الصدق والقوة والسياسة والحنكة، هو الفارس والعالم الشجاع والعادل، كلنا كنا نتمنى أن نصبح أحمد، وكلنا اليوم نشفق عليه ونهادن القدر الغادر. دخل عليه العباس مطأطئ الرأس ويداه مربوطتان تتدليان على صدره. قال في صوت خفيض: أتمنى أن يغفر لي الأمير.

رفع أحمد رأسه ففهمت ما يبغي، صرفت الحضور، وبقيت أنا بجانب الباب حيث لا يراني أحمد، وحيث أستطيع التدخل لو احتاج الأمر.

اقترب منه أحمد، فأغلق العباس عينيه وكأنه يتوقع صفعة قوية، ولكن الأمير أمسك برباط يديه وفكه وألقى به على الأرض ثم قال: لا أحب أن أرى ابني ذليلًا، ارفع رأسك فأنت ابن أحمد.

رفع العباس رأسه في بطء والتقت أعينهما.. قال أحمد: عندما كنت صغيرًا تجلس معي على مائدة الطعام في رمضان كنتَ دومًا عديم الصبر، تملأ بطنك بالطير الصغير وتشبع قبل أن يأتي الضأن والدجاج، تأكل من السمان والزيرباج

ولا تستطيع أن تستمتع باللبن، بالبطة السمينة والجدي الرضيع، لِمَ لم تصبر حتى أموت فترث ملكي؟ الموت ليس ببعيد يا عباس، أم تريدني أن أدعو الله بأن يعجل لي بالموت لتأخذ ملكي؟ أم أردت أن تثبت أنك خير من أحمد؟

قال بلا تفكير: لا يوجد من هو خير منك يا أبي.

أمسك بكتفيه ونظر إلى عينيه، ولم أكن متأكدًا لو كان يتمنى أن يحتضنه أم يضربه، ثم قال في هدوء: ترى عندما أخرج للحرب أترك مَن مكاني؟

قال عباس فجأة في حسرة: اترك ولدك المفضل خمارويه.. فأنا لا أصلح للحكم، هكذا قالوا لك.

صاح في وجهه: كنت أنت ولدي المفضل يا أحمق. كنت أنت.. ترى لو أدرت وجهي فهل ستطعن ظهري؟ يقولون عندما يتغلب الابن على والده الملك يحرق عينيه ليبقى عاجزًا إلى الأبد. هل كنت ستقتلني أم تحرق عيني؟ ولو تركتك هنا في مصر فماذا سيحدث؟

قال عباس في فتور: أطلب المغفرة، حتى إخوة يوسف استمعوا للشيطان، ثم طلبوا المغفرة.

هز أحمد رأسه بالإيجاب ثم قال: تطلب المغفرة حتى لا أعاقبك؟ أم تطلب المغفرة حتى لا أغضب عليك؟

- غضبك أهم عندي من العقاب يا مولاي.

- كلماتك تخرج ككلمات الصنم وليس ككلمات الابن، ما بالي لا أشعر بصدقها. ترى متى توقفت عن حب أبيك؟ أهي فتنة النساء التي غيرت قلبك أم طمع الرجال؟

لم ينطق العباس، طبق شفتيه ليكتم غيظًا متأصلًا في الأعماق، فهز الأمير كتفه ثم قال: هل لو شققت صدرك أجد قلب ولدي الذي سرقته أم أجد خواء؟

لا صدق في كلماتك، ولا حب في عينيك، هو عمر ضاع هباء. الموت ليس ببعيد.. الموت ليس ببعيد..

اقتربت منه وقلت في رفق: مولاي الأمير..

قال وهو لا ينظر إليّ: عندما تسافر نصطحب العباس معنا، لا أثق في وجوده هنا. الجفاء يملأ عينيه، لا يعرف عيني الابن مثل الأب.

فتحت فمي فنظر لي فصمت، ولم أنس طوال عمري نظرة عينيه، ولا كيف أرخى ذراعيه وجلس كأنه يحمل الدنيا بين راحتيه. وضع كفه على قلبه وهو يبحث عن سكين ربما غرزها الابن أو فوّق سهمًا استقر في عصب الظهر، رأيت الموت في عينيه يومها وأيقنت دون أن أعترف لنفسي أنه لن يعيش كثيرًا... الأمير أبو العباس أحمد بن طولون.

***

- 8 -

حدثني محمد بن سليمان الكاتب قال:

دعني أحكي لك عن شيطان من الإنس يدعى ابن طولون، بكاه أهل مصر كما تبكي الأمة سيدها الذي يعذبها، لا عهد له ولا ضمير يوقف شروره. استغل صراع الإخوة وضعف الخليفة ليسيطر عليه وينفرد بمصر ثم الشام. لم أر في حياتي رجلًا يصرف على جيشه ما يصرفه أحمد بن طولون، ولا رجلًا يزيد من رجال الجيش كما زاد هو من رجاله، ولم أعرف منذ فتح مصر على يد عمرو بن العاص واليًا على مصر يتخذ من رجالها جنودًا، ويبني لهم بيوتًا في مدينته الجديدة التي أنوي يومًا ما أن أدكها دكًا على رأسه هو وعائلته وجنوده. بنى المسجد الذي امتد بين المدن بلا نهاية وكأن الورع يدخل قلبه مع أن الظلم من سماته. يرددون أنه لم يشرب الخمر، ولم يهتم بأمر الجواري، ولا شهوة تسيطر عليه. يرددون أنه منذ الصغر جندي يحارب بصدق وذكاء، وأقول أنا إنه كان يريد مصر منذ بلوغه ومنذ سمع عنها ورآها في حلمه، وإنه كالشيطان يراوغ باللين والقسوة، ويحنو ويعذب، ويهمس ويصرخ حتى يقضي على ضحيته.

دعني أحكي لك ما فعله عند دخوله مصر بشقير الخادم على البريد الذي كلفه الخليفة نفسه بنقل أخبار مصر كلها له، كرهه منذ البداية ورأى فيه جاسوسًا، وكان مهووسًا بالجواسيس كالمجاذيب، ما إن سنحت له الفرصة حتى قبض عليه، ثم ربطه على لوح خشبي، وشد أطرافه حتى يتمزق قبل الموت بأيام، مات

بالطبع. وكان يتمنى أن يقتل ابن المدبر أيضًا عامل الخراج، ونظرًا لمكانته عند الخليفة لم يقتله، ولكنه تخلص منه على كل حال.

أما تجسسه هو على بغداد وعلى كل موالٍ للخليفة فلن تكفي هذه الرقعة للحكي عن أفعاله. يكفي أن أحكي لك ما حكاه لي الهيثم بن عبد الشكور وكان من كبار الرجال مقامًا ومكانًا. عندما انتصف عليه الليل وجد طارقًا على الباب.. أحد رجال الأمير طلب منه القدوم معه على الفور. عرف حينها الشيخ أنها نهايته، فودع أهل بيته وجر قدميه إلى الميدان، وعندما امتثل أمام الأمير طلب العفو وهو لا يعرف ماذا فعل، فقال الأمير: علمت أنك في الغد تلتقي بكبار القوم في مجلس دُعيت له.

قال الرجل وهو يرتجف: نعم يا مولاي.

فقال أحمد: أريدك أن تكتب لي بالتفصيل كل ما تسمع منهم.

وأشفق الهيثم على نفسه أن يخون أصدقاءه وهو يعرف أن الفتنة أشد من القتل، وكان يعرف أيضًا أنه لو لم ينفذ الأوامر فسيقتله الأمير على الفور. فعاد إلى بيته مهمومًا لا يدري هل يرحل هاربًا أم ينفذ الأمر لينقذ نفسه وأهل بيته، نفذ الأمر على مضض وهو يكره نفسه ويحتقر جبنه، كتب كل ما سمع وقد تكلم الرجال بكل سوء عن أحمد بن طولون. في صباح اليوم التالي استدعاه الأمير فذهب إليه ومعه الرقعة التي كتب بها كل شيء. قرأها أحمد ثم نظر إلى الهيثم قائلًا: أهذا كل شيء؟

قال وهو يرتعش: أقسم لك يا مولاي إن هذا كل ما سمعته.

عندها أخرج أحمد رقعة أخرى وقال للهيثم اقرأ هذه. قرأها الهيثم فوجد نفس الكلام الذي كتبه. بدا أن الأمير قد عين جاسوسًا على الجاسوس، وأنه لا وثق في الهيثم ولا وثق في جاسوسه، فأراد التحقق من الاثنين. صرف الهيثم بعد أن أعطاه المال.

عاد الهيثم إلى بيته مهمومًا محزونًا لا يعرف مصير أصدقائه، ويتمنى أن يرحمهم الأمير، أو يتدخل الخليفة لإنقاذهم. بعد يومين ذهب ليزور أصدقاءه ويسأل عن حالهم فلم يجد بيوتهم، ظن أنه ضل الطريق، بحث ساعة أو أكثر فلم يكن هناك أثر لبيوت!! وجد مكان البيوت حديقة فكاد يجن فسأل الجيران عمّا حدث فقالوا إن جنود الأمير أغرقت أصحاب البيوت في النيل ثم هدمت البيوت وأقامت هذه الحديقة مكانها.

هذا هو أحمد لو كنت تريد أن تعرف سيرته. أحمد الذي كان يتجسس على المسجونين في «المطبق» سجنه الشهير، كان يضرب الغلام بالسوط كل يومين حتى يدمى، ثم يدخله السجن وهو في الحقيقة غلامه ورجله، ولكنه يحكم سيطرته فيظن المسجونون أن الغلام يُعَذَّب من الأمير وأنه لابد أن يكون معهم بينما هو رجل الأمير وسره. أحمد الذي يتجسس على زوجاته وكاتبه جعفر نفسه. أحمد الذي ثار عليه ابنه نفسه، فحطم كبرياءه وكسر غروره. أحمد الذي عندما ثار عليه خادمه لؤلؤ الذي أنقذني يومًا واتجه إلى الموفق لاجئًا، باع أهل بيته في سوق النخاسة؛ باع نساء وبنات خادمه وقائده لؤلؤ عندما لجأ إلى الموفق. أي شيطان يفكر هكذا؟

ولكني أقسمت أن أمحو أثر أحمد من على وجه الأرض، فلن يقف له مسجد ولا قصر، ولن يبقى له ولد ولا بنت. يومًا ستباع بناته وزوجاته بيدي. طردني وذلني حُلْمه حَلْمه، أراد قتلي لخوف وهوس في نفسه وكأنه الملك الذي ظن أنه يُحيي ويُميت. سأثبت له أن الشمس تشرق من الشرق، وأنه لن يستطيع أن يجعلها تشرق من الغرب. هو عاجز مهما زاد جيشه.

وهو ظالم مهما بنى للمصريين من مصانع، ومهما أطعم المساكين، ومهما دعا له أهل مصر بطول العمر.

***

- 9 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار الكاتب فقال:

الفتنة أشد من القتل، وابن سليمان يكره الأمير منذ زمن؛ لذا سيكذب ويؤلف الأنباء والقصص عما حدث بين الأمير وبطريرك الكنيسة القبطية البابا ميخائيل، وبين ما حدث بين الأمير والقاضي بكار بن قتيبة. سيدعي ابن سليمان أن الأمير يغار من رجال الدين وحب الناس لهم، ويريد دومًا كسرهم وتعريفهم حدودهم، وأنه لا يشفق سوى على رجال الدين المجهولين كالراهب أندونة والشيخ عليّ شيخ الجامع الصغير في أطراف البلاد وغيرهم. وهذا نبأ فاسق لا صحة له. سأحكي ما حدث مع البطريرك الذي وشى به أحد الأساقفة الفاسدين. أسقف سخا. لقد تعدى الأسقف على البابا عندما زار كنيسته. عندما تأخر الأسقف قدم البابا القرابين، فعند مجيء الأسقف قطع الصلاة وأمسك بالقرابين وألقى بها على الأرض. فأمر البابا بعزل الأسقف وتعيين غيره، فما كان من هذا الأسقف السيئ إلا أن استغل حاجة الأمير ابن طولون للأموال لحربه وزاره ووشى بالبابا وافترى عليه وقال كلامًا لا صحة له. ادعى أن البابا يكتنز الذهب والفضة بينما البلاد في حاجة إلى الأموال، وأن الكنائس ممتلئة بالقوارير والأواني الفضية والذهبية. استدعى الأمير البابا وواجهه بالاتهامات، وطلب منه أن يأتي بالفضة لتحويلها إلى نقود، حاول البابا أن يشرح حينها للأمير أن أواني الكنيسة وما بها ليست ملكًا له وأنه لا يستطيع التصرف فيها، فسجنه الأمير بضعة أشهر حتى توسط له كاتبان مسيحيان يعملان مع الأمير، الكاتب يوحنا والكاتب موسى، فأفرج الأمير عن

البابا. أريد أن أقسم أن الأمير، أعانه الله، هو أول والٍ على مصر لا يستحمل أعمدة الكنائس في بناء مسجده ولا حتى أعمدة المعابد القديمة، وأنه لم يضع يده على أي ممتلكات للكنيسة طوال حكمه. كان له نظرة ثاقبة، فأحبه المسيحي والمسلم واليهودي وصلّوا من أجله في أيام الجمعة والسبت والأحد.

أما حكايته مع القاضي بكار فكانت أشرس وأكثر تعقيدًا.. سأقصها الآن.

شاهدت اللقاء بين الأمير والقاضي والشيخ الجليل بكار بن قتيبة، وكان لقاء تمنيت نسيانه ولم يترك مخيلتي طوال الأعوام. عندما اشتد الخلاف بين الأمير وأخي الخليفة الموفق، بدأ الموفق يسب الأمير أحمد في مساجد بغداد، فقرر الأمير أن يدعو بخلع الموفق من ولاية العهد... وطلب من كل الشيوخ والقضاة أن يدعوا بهذا فوافقوا إلا واحدًا... القاضي بكار بن قتيبة.

رفض القاضي والشيخ أن يدعو في المساجد بخلع الموفق، وكان بين الموفق والأمير خلاف متأصل، فهما يتناحران على الوجود وعلى الانفراد بمصر قبل أي شيء. زاد الصراع بين المعتمد والموفق، وحالف الأمير المعتمد الذي كان لا يرفض له طلبًا، تركه يحكم البلاد كيفما يشاء، وترك الخيرات لأهل البلاد، فعززه الأمير وأعلى من شأنه، مع أنني، والله أعلم، كنت أسمع شائعات تشين الخليفة المعتمد وتمجد من قوة أخيه الموفق. قيل، والله أعلم، إن المعتمد ينصرف إلى الملذات ولا يعتني بأمور البلاد، ولا أدري هل وجد الأمير في ضعف المعتمد فرصة للانفراد بمصر والثغور؟ أم أنه كان يؤيده حقًا لأنه الخليفة الشرعي؟ إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، ومن الصعب معرفة نية الأمير، ولكني أعرف اهتمامه بالديار المصرية وبأهل مصر. عندما رفض الشيخ بكار بن قتيبة أن ينادي بخلع الموفق أخي المعتمد استدعاه الأمير وقابله مقابلة جافة ودار بينهما الحديث الذي لم يتركني.

سأله الأمير لِمَ يرفض أن ينادي بخلع الموفق؟ فصمت الشيخ برهة – وكان رجلًا قد تجاوز السبعين – ثم قال: تأمرني يا أمير أمرًا من أمور الدنيا، وليس لي أن أطيع ما يخالف كلام الله.

- بل الدعاء للموفق هو أيضًا أمر من أمور الدنيا يا شيخ.

- لم أر من الموفق مكروهًا لأنادي بخلعه.

- كلمتك لها وقع مختلف عند العامة، تعرف هذا.

أعاد الكلمات: لم أر منه مكروهًا لأنادي بخلعه.

- وهل يرضيك أن يسبني هو على منابر المساجد في بغداد؟ أنشرُ الكره من الدين يا شيخ؟

- لا، ليس من الدين في شيء.

- ولو كنت تعترف بهذا فلتناد بخلعه.

- هو صراع على السلطة والسلطان لا شأن لي به، لا تحملني ما لا أطيق.

- بل تدين بالولاء للموفق لأنه عينك قاضيًا هنا في البدء، أعرف هذا.

لم يجب، فقال الأمير: هذه حرب لم أسع إليها، بل سعى إليها الموفق، والخيانة تحاصرني من قائدي المقرب لؤلؤ قبل الغريب. وعندما تحاصر القائد الخيانة لا تتوقع منه الرحمة.

ساد الصمت المتوتر ثم قال الشيخ في استسلام: يا أمير، الرجال في عمري نوعان؛ نوع رأى من الدنيا ما سر وما أحزن فتمسك بما تبقّى من عمر قصير وأصبحت الدنيا هي كل ما يبغي، ونوع رأى من الدنيا ما سر وما أحزن فعرف أنها زائلة وأن ما تبقّى قصير، فلابد من أن يتركها بسلام مع النفس والرب.

- ونوع رأى التبجيل فأصابه الغرور وقرر أن يقف أمام الأمير يتحدى ويرفض.

- لو قتلتني فلن أكون أول شيخ يُقتل، ولو سجنتني فلن أكون أول من يسجن، ولو عذبتني فسيقولون الأمير عذب الشيخ الكبير، ولو اتهمتني بالكفر كنت كالصالحين من قبلي.. افعل ما شئت، فأنت هالك وأنا هالك.

- أنت هالك وأنا هالك.. حسنًا.. ظلام السجن له وقع السحر حتى على من يتبعه الناس ويبجلونه.

وعندها أمر بأن يلقى القاضي والشيخ بكار في السجن حتى يعدل عن كلامه.

***

آخر زيارة للأمير لدير الراهب أندونة، دير القصير، كانت أيضًا لا تتركني. تغير الأمير بعد خيانة ابنه وازداد همه حتى أصاب القلب والصدر.

اليوم قال لأندونة إنه لن يأكل سوى الخبز. قال: أريد أن آكل مما تأكل منه.

قال أندونة: لا يليق بك التجريد والفقر الاختياري.

فقال أحمد: بل التجريد والفقر الاختياري جهاد للنفس وأمان لها وتذكرة.

- هو جهاد للنفس أتفق معك يا أحمد.

- كنت أفكر في نعم الله عليّ وأشكره دومًا، ما الذي أستطيع أن أتجرد منه في دنيانا؟ أتعرف لو تركت القوة مثلًا أنتهي اليوم؟ فبلا جيشي يفترسني العدو، وبلا حزمي مع القريب والبعيد يطمع الطامعون. أهلك بلا قوتي وجيشي، فلا مفر من عدم التخلي.

- لذا تجردت أنا من القوة وأتيت له بضعفي، فهو لا يطمع ولا يهلك، بل يكرم ويطمئن. ولكني لا أتحمل مسئولية مصر يا أحمد. تركت هذا النوع من المسئولية لأقترب منه وأنتظر يوم لقائه.

فقال أحمد: ولو تجردت من مالي، فكيف أدفع رواتب الجنود؟ ومن أين أعطي الفقراء والمستورين؟ ومن يصنع الدواء للبيمارستان؟ أعمل من أجلهم وليس فقط من أجل نفسي.

ابتسم أندونة ثم قال: ولو تجردت من حب النفس تنجو يا أحمد. هذا لا يحتاج أن تضر أهل مصر. الويل ثم الويل لمن يجرح كبرياء الأمير... تجرد من الكبرياء يا أحمد.

- أتجرد منه أمام الضعفاء، ولكن لا أستطيع أن أتجرد منه أمام الأقوياء وإلا افترسوني.

- تنظر إلى الدنيا كأنك قاتل أو مقتول، منهزم أو منتصر. تراها حربًا ومنافسة مستمرة، هي بالنسبة إليك جهاد مستمر، ولكن لمكاسب زائلة. اترك الجزء من أجل الكل، اترك الهالك من أجل الأبدي. لا أطلب منك أن تفعل هذا طوال الوقت ولكن بعض الوقت حتى تريح النفس المثقلة بالهموم. هموم الدنيا تجهد العين، لابد أن تريح نفسك حتى تعيد لعينيك رونقها. وعندما تؤلمك الدنيا لا تأس عليها فهي مؤلمة بطبعها ولا تقصد إيذاءك أنت بالذات، هي دنيا ناقصة دومًا لا كمال فيها ولا اكتمال للنفس.

- وكأنك وصلت وكأنك لست منا؟ ألا تفكر كالبشر؟ ألا تخطئ؟ ألا تكره؟ ألا تطمع؟

ابتسم أندونة: بلى، أفعل كل ما قلت، وأحاول بالتخلي وليس بالتمسك بها. ربما تكون نفسك أقوى، فقد اخترت أنا التخلي بينما اخترت أنت الوصول بالتمسك بها.

- وربما تكون أنت أكثر تواضعًا، فقد انتصرت على الكبر داخل نفسك.

ثم قال أندونة فجأة: ما الذي يهمك في اعتراف القاضي بما تريد يا أحمد؟

- أندونة يدافع عن القاضي بكار المسلم؟ بل يتدخل في ما لا يعنيه. أندونة يجرؤ على تحدي الأمير.

- أندونة الصديق يتحدى أحمد وينفض عنه غبار الزيف، وأندونة الراهب لا ينفعه رضا الأمير.

- القاضي يتحداني وكأن سلطة البلاد بين يديه، الكبر في نفسه هو وليس في نفسي أنا. كل الشيوخ أطاعوني سوى هو، الموفق يسبني في المساجد ويلعنني ويخلعني عن الحكم، وأنا لا أفعل مثله، أنا فقط أطلب من الشيوخ أن يطيعوا الخليفة.

- بل تطلب منهم أن يقولوا ما يرضيك.

- لا شأن لهم بالحكم.

- وعندما تحداك أحدهم لم تستطع التحمل.

- هو غرور نفسه وليس غرور نفسي ما يمنعه عن قول الحق.

- أطلق سراحه، لا فائدة من سجن شيخ هرم ضعيف. اعتبر أن هذا هو تجريد النفس وكسر كبرها.

- اطلب مني أي شيء سوى هذا. لو تهاونت معه أو مع غيره أموت اليوم قبل غد، وعندما أموت يهلك أهل مصر من بعدي، أحميهم من مصائب لا قبل لهم بها. أحمد لا يتهاون ولا يسامح المتطاول المتمرد. إلا الحكم، ما يهدد حكمي يهدد كل المصريين.

- فكر في الأمر.. ولو كنت قد جئت لتتجرد فاعتبر أول مراحل التجرد هو كسر كبر النفس، من السهل التجرد من الطعام والملبس يومًا أو اثنين، ولكن كسر كبر النفس يحتاج دهرًا أو يزيد يا قائد الجيوش وهازم الأعداء وموحد البلاد. أحمد به رقة لا يراها سواي.

- أين خبزك المجرد يا راهب؟ لنترك الحديث عن الحكم حتى لا تخرج أسوأ ما فيَّ، جئت ألقي عن عاتقي همًّا في الصومعة وأقرأ آيات القرآن وحدي بلا حارس ولا زوجة.

***

عندما تأتي الخيانة من أقرب الناس تكون كالسهم المستقر في الرقبة تمنع التنفس وتخرج الآهات. بعد خيانة ابنه العباس كانت خيانة قائده لؤلؤ الذي لجأ إلى الموفق بل حثه على قتل أحمد بن طولون لولا أن الموفق كان يعرف خطورة هذا العمل وعواقبه، وكان رغم عداوته لأحمد يُكن له احترام المحارب ويقدر قوته وشجاعته. احتقر لؤلؤًا الخادم، ورفض التعاون معه، فأصبح لؤلؤ معلقًا بين مصر وبغداد بلا مؤيد. عندما علم الأمير، أعانه الله ورحمه، بخيانة القائد الذي رباه صغيرًا جُن جنونه، فباع أهل بيت لؤلؤ في سوق النخاسة جزاء له وردعًا لغيره.

أصاب الهم حشايا القلب، ولكنه لم يهدأ ولم يسترح، ثار عليه خادمه في طارسوس يازمان فحشد جيشه وخرج إليه. طمس الحزن لمعة عينيه وأصبح العمر كبركة المياه محدودة لا تسقي صاحبها ولا تشبعه. بدت النهاية قاب قوسين أو أدنى. في طارسوس أعطيته شربة لبن جاموس يبدو أنها أصابته بداء في بطنه، فلفظ الشربة وامتنع عن الطعام واشتد مرضه، ظن طبيبه القبطي المسيحي أن داء في المعدة كان سببه شربة اللبن، ولكنني كنت أعرف أن داء المعدة هو داء القلب، وأن الحزن أكثر خطورة من السيوف. عدنا به إلى مصر آملين في شفائه هناك، ولكن المرض اشتد عليه، فنصحه الطبيب بالاستقرار في الحرم ففي رفقة النساء بعض الراحة.

الأمير أحمد، أطال الله بقاءه وأعزه وأكرمه، طلب من أهل مصر أن يدعوا له بالشفاء، فخرج المصريون إلى الجبل باكين يدعون له بلا توقف. يقرأ المسلم من القرآن ويدعو له، ويقرأ المسيحي من الإنجيل ويدعو له، ويقرأ اليهودي من التوراة ويدعو له. لم أرَ في حياتي أضواء الشموع تنير الجبل هكذا ليلًا، ولا أمل

الكتب الثلاثة السماوية مجتمعة على حب رجل هكذا قط. ولكن المرض اشتد عليه.

***

لأحفظ الأمانة وأقول كل ما أعرف، أحمد بن طولون عندما اشتد عليه المرض قرر زيارة ساحرة الهرم. اصطحبني معه، ولكنه اصطحب أيضًا سعيد ابن الكاتب الفرغاني. في البدء طلب من ساحرة الهرم أن تأتي لزيارته، كان يشعر بقرب النهاية، رفضت. هي لا تبرح الهرم، هو البيت والملجأ. لم أفهم لمَ أصر مولاي الأمير على تلك الزيارة، كان محمولًا على سرير خشبي مزخرف من أفخر أنواع الخشب، تعثرت وأنا أحمله مع سعيد، وكاد يقع من السرير لولا ستر الله. دخلنا على الساحرة، وكنت أرتجف خوفًا منه وخوفًا عليه.

ما إن رأتنا حتى بدأت تتكلم بالقبطية. تعجبت حينها من نظرتها لسعيد الفرغاني، نظرة بعمق جوف الأرض، أما نظرته هو لها فبلهفة الطفل لأمه.. رأيت حنوًا ورحمة. ولكني أظن أنها أضغاث أحلام لا أكثر. نقل سعيد ما تقول بالقبطية إلى مولاي وعيناه لا تتركان عينيها. قالت بحنين ساحرة الهرم: قدم التحية للقدماء واشكرهم على الحفاظ على الأرض والذهب.

قال أحمد في حسم: وهل ستقدمين لي التحية يومًا وتشكرينني على الحفاظ على الأرض والذهب؟

التفت أعينها ثم قالت في صوت خافت: سأفعل ولكن بشرط..

- وما هو؟

- أن يبقى أثرك يا ملك الملوك، الأجداد تهتم بأمرك. فعلت ما لم يفعله غيرك، كنت أنتظرك يا أحمد.. العجز ليس في البدن بل في الروح.

نظر إليها أحمد بإعياء، فأكملت: ابتلاؤك ليس ككل ابتلاء.. عندما يفقد القلب الرغبة في الاستمرار يترك العنان للنفس لتسحب الأنفاس. أخبرني الآن؛

أعجزك أكبر أم عجز ابن المدبر؟ أحزنك أعمق أم حزن سعيد بن الفرغاني؟ هذا الذي يبحث عن حبيبته وهو يعرف أنها لن تغفر له. أي عجز وأي حزن.. وأي خيانة..؟ تتذكر كلماتي..

قال في ضعف: عجزي لا قبل لك بوصفه.

- يا أمير، لم تهزمك جيوش، ولم يقف أمامك والٍ ولا خليفة. أحمد بن طولون دومًا ينتصر في كل المعارك.

- هو هزمني.

رددت كلمات قالتها منذ زمن: اجعل عشقك صافيًا، وغايتك نصب عينيك.

قال أحمد في إعياء: لقد فعلت.

فقالت الساحرة: تتذكر منذ أعوام قلت لك: العشق يهزم دومًا، وعشق الولد يفتت القلب وينتزع الأوردة من الأعماق. تتذكر كلماتي؛ الحزن للعظماء، والهم الثقيل لا تحمله سوى القلوب الصلبة، عندما يثقل البؤس قلبك اعرف أنك ارتقيت وكأنك من الملوك القدماء.

ربتت على يده دون استئذان، ثم قالت وسط فزع سعيد وذهول أحمد بن طولون: يا أمير، لا أحد يشعر بك مثلي. لو هزمك جيش ولو قتلك عدو كنت ستتخطى الهزيمة، ولكن الرمح نفذ إلى الأعماق؛ لأنه من بعض النفس لكل النفس. هو رمح من بعض قلبك ليصيب كل قلبك. ما أتعسك اليوم! تذكرني بنفسي يا أمير..

أقسم أن الدموع لمعت في عيني الساحرة، وهمست وهي تنظر إلى سعيد: هو رمح من نفسك ليصيب روحك..

فتح أحمد عينيه لحظتها في دهشة، أصابتني الحيرة ولم أعرف ما يحدث.. رأيت دموع سعيد بن كاتب الفرغاني تتساقط، ورأيت الأمير ينظر إليها، ثم يقول في

حسم: لو أمرتك أن تتزوجي سعيد بن كاتب الفرغاني الآن.. فهل ستعصين أمر أمير مصر؟

رأى في عينيها ضوء الشمس وسط الظلام ثم قالت: هي شرفات متشابكة تتضرع إلى الله..

- تتكلمين عن شرفات مسجدي؟ لِمَ تغيرين الموضوع؟ يعني أمر سعيد..

قال سعيد: أتمنى الزواج منك، يشرفني لو تزوجتك.. أنت أطهر امرأة في كل..

قاطعته ثم قالت: أتحتمي بأميرك يا سعيد؟ ساحرة الهرم اعتادت أن تتونس بالأجداد فقط، لا تخاف وحدة ولا تحتاج زوجًا..

قال أحمد في غضب: قلبك أصبح كأحجار هذا الهرم..

فقال سعيد في رفق: مولاي الأمير.. لا تغضب منها..

ساد الصمت المتوتر هنيهة.

ثم ابتسم الأمير في شفقة وقال: من بنى هذا الهرم؟

اقتربت منه وهمست: يقولون إن اسمه الملك سوريد، وأنا أقول لك إنه ليس الملك سوريد. لو قلت هذا لغيرك يتهمونني أني أصاحب الشيطان ولكنك أنت تعرف..

قال أحمد في صوت خفيض: أنت تفهمين لغة الطير..

فقالت بصوت قوي: أدرسها منذ أعوام يا أمير، تتجلى الحقيقة دومًا لمن يبحث عنها ويعترف بغفلته ثم يصبر على معرفتها. غدًا أو بعد ألف عام سيعرفون أنهم غافلون. وغدًا أو بعد ألف عام سيتجلى أثرك يا أمير كما سيتجلى أثر من بنى الهرم حتى ولو غفلوا عن حقيقته اليوم. اليوم يا أمير أصبحت أنت من الملوك القدماء.

- 10 -

حدثتني أسماء بنت محمود الخياط زوجة الأمير أحمد بن طولون قالت:

كنت أنام كل يوم تحت مخدعه، أسند رأسي على ذراعه، لم أعرف يومًا هل أحبني كما عشقته؟! هل كان حنانه وكرمه معي شفقة أم حبٌّ؟! ولم أبالِ، كنت مطلقة منبوذة أسكن الجبل، يبتعد عني الأصدقاء، ويخاف مني الأقارب، ورفعني إلى درجة ملكة الملوك، جعلني أعز امرأة في مصر، لا أدري ماذا رأى فيَّ ولم لم يختر أختي الجميلة. لم أفهم كيف يعمل عقله، ولا كيف يأخذ قراراته، ولكنني كنت أثق فيه كما لم أثق في أحد من قبل. حزنه يشق القلب، وعيناه العاجزتان تجعلان الحواس بلا قيمة. استأذنت من خاتون ومياس أن أبقى معه، سمحتا لي على مضض. ليلًا تحرك ليعتدل في مجلسه ونظر إليَّ قائلًا: أسماء..

أمسكت بذراعه وقلت: حبيبي ومولاي..

- تبقين معي كل ليلة.. لماذا؟

- أتسأل لماذا؟! أشفقت عليَّ ونصرتني.. أنت كل حياتي.

ابتسم قائلًا: أشفقت عليك، كيف؟

- لا تتكلم كثيرًا، هل آتي لك بالماء؟

هز رأسه ثم قال: لا لم أشفق عليك. لا تعرفين الكثير عن الرجال.. لا شفقة تجعل رجلًا يتلهف على امرأة.. أريد أن أرى أولادي كلهم.

- حالًا يا مولاي.

- والعباس أيضًا.

قبل أن أتحرك من مكاني أمسك بذراعي ثم قال: انظري إليّ..

نظرت إليه والدموع تتساقط بلا توقف فابتسم وقال: من أنا يا أسماء؟

قلت وأنا أتحاشى عينيه: أمير الديار المصرية والشام والحجاز واليمن.. ومولاي و..

قاطعني وهمس: زوجك.. لم تنطقي اسمي طوال هذه الأعوام..

قلت حينها وأنا أقبل يده: أحمد.. حبيبي وأميري..

قال في ثقة: ستكونين في أمان بي أو بدوني، أريدك أن تطمئني. لو كان بكاؤك خوفًا من ذل من بعدي فلا تبكي، ولو كان إدراكًا لوحشة الفراق فلست وحدك يا مصرية من تخشى الفراق، كلنا نعجز أمامه، لا تبكي من عجز هو بضعة منا.

***

جلس العباس على طرف مخدع والده وعيناه ثابتتان على الأرض فقال الأب: انظر إليّ..

نظر إليه برهة، فقال أحمد في بطء: لا ندم في عينيك ولا عطف. تُرى ماذا حدث لك؟ أتراك غاضبًا مني أني لم أمت بعد؟ أم أنك غاضبٌ أني لم أستخلفك من بعدي؟

قال العباس في صوت منخفض: هو مُلكك تتصرف فيه كيفما تشاء يا مولاي.

- هو أمانة من الله، أعطيها لمن يصونها لا من تهواه النفس.

- يؤلمني أن تراني لست أهلًا له ولكن ليس لي الكلام في ما لا أملك.

- تتكلم عن الملك كأنه ملك لي أو لك أو لأخيك وهذا يقلقني، هو ملك الله دومًا.

ثم نادى حينها على ابنه خمارويه وأجلسهما الواحد بجانب الآخر وقال: ما أضعف الخلافة العباسية هو صراع الإخوة والأهل، وما يُبقي على حكم مصر بين أيديكما هو اتحادكما، أتفهمان؟

قال خمارويه في قوة: نطيع أوامرك دومًا يا مولاي.

نظر إلى العباس ثم قال: لم تطلب عفوي لا اليوم ولا أمس، حتى لو طلبته بلسانك فقلبك لم يطلبه، ولم يدخل الندم قلبك، ورثت مني التصميم والمجازفة، ولكنك لم ترث الحكمة. تعال هنا..

اقترب العباس في حذر، فأمسك أحمد بكتفه وقال: عانق أباك حتى يرضى عنك قبل موته.

قال مسرعًا: العمر الطويل لك يا مولاي.

اقترب العباس من والده وعانقه، ولوهلة ترددت جفونه وأشفقت، فربت الأب على خده ثم قال: عندما أموت، لو رحمني الله وأنعم عليَّ بالجنة، فسأطلب أن أراك بعد عمر.. أريدك وأتصورك أمام عيني لم تعد السابعة تتشبث بكتفي في جرأة وتلقائية، أتتذكر؟

قال العباس بصوت مبحوح: كيف لي أن أنسى؟

فقال الأمير: ولكنك لا تتذكر، ليتك تنسى لتتذكر. إياك وحرب أخيك، تجعلني اليوم أمام عيني أنت وهو.. لا تتنازعا فتفشلا وتذهب ريحكما.

ثم نظر لخمارويه وقال: العباس يحكم الشام، وأنت تحكم مصر. الجيش هو سلاحك. اهتم بالجيش وضعه نصب عينيك، جنودك من الموالي والعرب والترك وأهل السودان والنوبة. لا تعتمد فقط على الأتراك. لا تسرف، تذكر أنك جندي

مثل أبيك، الجندي لا يسرف في الملذات وإلا هلك، عَمَّر المدينة وأعط لأهل مصر خيراتها واعدل بينهم.

وعده الابنان ثم رحلا. نادى حينها كاتبه جعفرًا وطلب منه الذهاب إلى القاضي بكار، وأن يطلب منه أن يطيع أوامر الأمير، ويدعو بخلع الموفق. ثم قال الأمير: ولو وجدته يصلي في السجن فانتظر حتى ينتهي، ثم أخبره أني سأعفو عنه لو أطاع أوامري.

ذهب الكاتب جعفر إلى القاضي بكار ووجده يصلي، فانتظر حتى انتهى وأخبره بطلب الأمير، فقال القاضي حينها: قل للأمير إني لن أفعل ما يريد، وقل له أيضًا إني شيخ فانٍ وهو عليل مدنف، فلعل التقاءنا بين يدي الله عز وجل قريب وهو سيحكم بيننا.

ثم قام إلى صلاته من جديد.

عاد جعفر وأخبر الأمير بما حدث. ابتسم الأمير وقال بصوت مسموع: يا رب، ارحم من جهل مقدار نفسه وغره صبرك عليه.

ثم نطق الشهادتين ومات.

***

- 11 -

حدثني جعفر بن عبد الغفار الكاتب فقال:

كلفني الأمير أحمد أن أوصل ثلاث رسالات بعد وفاته؛ واحدة للقاضي بكار، وواحدة للشيخ «علي» شيخ المسجد الفقير الذي كان يتكفل به الأمير، وواحدة للراهب أندونة.

خلف من المال ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار تكون مخصصة للجيش، وخلف من رجال الجيش أربعة وعشرين ألفًا، ومن الموالي سبعة آلاف رجل، ومن الخيل سبعة آلاف رأس، ومن الجمال ثلاثة آلاف جمل، ومن البغال ألف بغل. وترك البلاد وخراجها يزيد على أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار، وكان قد أنفق على مسجده مائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار على البيمارستان، وعلى العين مائة ألف وأربعين ألف دينار، وأنفق مثلهم على المصانع والحصون والقصر، وترك من الصدقات كل شهر ألف دينار غير صدقات للمجهولين والمستورين.

هذه رسالته للشيخ بكار

«يا شيخ، عندما تأتي رسالتي أكون أنا قد مت قبلك ويكون السلام قد حل بي إن شاء الله. عندها لن يهمني لو ناديت بخلع الموفق أم لا. وعند الله يتقابل المختصمون، ولكني لا أريد أن أقابلك وأنت غاضب مني، ولا أجرؤ على إطلاق سراحك وأنا حي وإلا قالوا الأمير يخاف الموت، وأحد لم يخف الموت قط، بل

يتوقع رحمة ربه. عندما نلتقي أمام الله سأشرح له أني كنت أريد الخير والبناء، وستشرح له أنك لم تتبع أهواءك ولم تشعر بضعف النفس حتى عندما ضعف الجسد وهان. هو سيعرف وليس لعقلي وعقلك أن يدركا ما وراء الكلمات. عندما يصلك كتابي هذا تعرف أني أمرت أن يطلق خمارويه سراحك، وأني أرجو أن تدعو لي بالرحمة، وليس لي اليوم أن آمرك يا شيخ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.. هي أيام قصيرة، ستقابل في سلام، فمعه لا يوجد سوى السلام».

تسلم القاضي الرسالة، وعاد إلى بيته، ومات بعدها بشهرين.

أما رسالته إلى الشيخ «علي» شيخ الجامع الذي عطف عليه الأمير فكانت صدقة جارية، اكتبها له الأمير طوال حياة الشيخ. ذهبت يومها إلى الشيخ، وقلت له: أتعرف من كان يعطيك العطايا كل شهر؟ ومن اكتتب لك مبلغًا من المال كل شهر؟ إنه الأمير أحمد.

ابتسم الشيخ ابتسامة لم أفهمها.. لا اندهش ولا شعر بالامتنان.

- تعرف الأمير، أليس كذلك؟

- من لا يعرف أبا العباس أحمد بن طولون؟ ولّى عهده وانتهى، لكن لم تزل ذكراه تنير الأفق.

- أكنت تعرف؟

- هو أحمد أمام الله اليوم وليس الأمير، فما الفرق لو كنت أعرف أم لا؟ اذهب إلى حال سبيلك يا أخي وادع له بالرحمة كما سأفعل اليوم وغدًا.

***

كلفني خمارويه بإعطاء رسالة الأمير قبل موته إلى الراهب أندونة بنفسي، لم أفتح الرسالة سوى عند الراهب، كتبها الأمير أبو العباس أحمد بن طولون

باللسان القبطي، قيل إنه استعان بزوجته المصرية في ترجمة رسالته من العربية إلى القبطية. قال الأمير في الرسالة:

«كتبت الرسالة بلسانك لتصل إلى قلبك مباشرة، والوصول إلى قلب من ترك الدنيا صعب أو مستحيل. أنا في طريقي لترك الجزء إلى الكل، وترك أحزان العالم إلى راحة أبدية، أنتظر محاكمة منه وأستعد لها، حاولت وجاهدت ولكنني لم أستطع أن أستغني مثلك، ولا أن أتبع الحبيب تاركًا ورائي المال والولد والزوجة، أعرف أنه يرحم ويسامح ويقدر الاجتهاد والمحاولة. طلبت من المصريين الصلاة من أجلي، ولكني أعرف أن الوقت قد اقترب، وأن الأجل قد حان. أقرأ في كتاب الله، وأندم على بعض ما لم أقو على فعله، في كتابنا أن الجنة ليس بها لغو أو تأثيم، وأن الغل ينزع من الصدور يوم لقائه. أكاد أفتقد من سأترك؛ فلا حب الولد الخائن نضب، ولا حب المجد الزائل تلاشى. أترك أمورًا لم تكتمل وربما لا تكتمل. هل ستصلك الرسالة؟ هل سيفي ابني خمارويه بوعده؟ هل سيقتل الأخ أخاه؟ هل سيستقر الأمر في الديار المصرية؟ هل سيحفظ الجيش العهد؟ كلها أسئلة تدور في خلدي لا إجابة لها ولو كنت أعلم الغيب لتألمت ربما أو سعدت... لا أدري. أتعرف؟ لصداقتنا مذاقها الخاص، فليس لإنسي أن يصادق الميت، وكيف لمن يلهث وراء الدنيا أن يصادق تاركها؟ وكيف لمن يذبح بالسيف ويقطع الأطراف أن يستمع لمن يصلي من أجل أعدائه؟ ربما لا تريد أن تصادق إنسيًّا، ولكني أريد أن أحفظ عهدي معك ومع أهل مصر. هذا الدير ملجأ لمن يريد الراحة والأمان، من يبغي الخلود في دنيا زائلة، أوصيت ابني به وبكل الكنائس والأديرة في الديار المصرية. السلام لك يا أندونة في الحياتين».

كنت أراقب عيني الراهب وهو يقرأ الرسالة، وأقسم أني رأيت الدموع تلمع في عينيه، ثم سقطت دمعة واحدة فمسحها في خجل وارتباك وتظاهر بالقوة والجلد والصبر، ثم قال: أحتاج أن أصلي اليوم وأطلب المغفرة.

لم أفهم لم يطلب المغفرة ولم يصلي، وتوقعت أنه ربما تعلق قلبه بالأمير أحمد أكثر مما ينبغي، وأن التعلق بحب غير الله ليس ما ينبغي، ولكنني لم أجرؤ على سؤاله، بل قلت في حسم: الأمير خمارويه عند عهد والده مع أهل مصر.

قال وهو شارد: فليحفظه الله ويزكِّ نفس أحمد.

***

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها

فهل سمعتَ بظلٍّ غيرِ منتقلِ

الطغرائي - شعر عباسي

***

القاهرة 1918

تسخر منه زوجته كعادتها. قالت ذكية زوجته بصوتها الرقيق الذي لا يتصل بمكنونها: أصبحت تقرأ أيضًا؟ ماذا تقرأ؟ وإذا قرأت يا رجل هل ستفهم؟

كان عادل يتوقع القادم. ستسخر من طريقة حبه لها، ستقول إنه لا يتقن الحب، وإنه ليس رجلًا وستتهمه أنه لا يقوم بواجباته كلها قط.

قبل أن تنطق، قرأ عادل بصوت عالٍ كلمات من سيرة أحمد بن طولون للبلوي منذ ألف عام أو يزيد، وهو يصف دعاء المصريين لأحمد بن طولون وقت مرضه:

«فخرج المسلمون بالمصاحف إلى سفح الجبل، وتضرعوا إلى الله في أمره بنيات خالصة لمحبتهم له وشكرهم جميل أفعاله، وكثرة معروفه وإحسانه(...). فلما رأى اليهود والنصارى ذلك من المسلمين خرج الفريقان؛ النصارى معهم الإنجيل، واليهود معهم التوراة، واجتمعت الجماعة كلها في سفح الجبل يدعون الله عز وجل ويتضرعون إليه أن يمنّ عليه بعافيته، فكان يومًا عظيمًا، وارتفعت لهم ضجة هائلة حتى سمعها في قصره، فبكى لذلك وتضرع معهم إلى الله جل اسمه، والمنية قد قربت».

وأكمل قراءته عن جنازة أحمد بن طولون:

«ومضيت فرأيت جمعًا عظيمًا هائلًا، ورحالًا كبيرة تعجز الصفة عن ذكرها، حتى ظننت أنه ما بقي في البلد أحد من رجل ولا امرأة».

ضربت زوجته كفًّا على كف واتهمته بالجنون، قرر أن يبتعد عنها. فلو حاول التقرب منها ستصده وستسخر منه، وسخريتها أشد وطأة من خيانة العباس لأبيه. ترى هل سيخونه ابنه؟ ابنه الذي لا يفهمه ولا يعرفه؟ وما شأنه هو بأحمد بن طولون؟ هو عادل الذي لا يصلح لشيء سوى لنبش الأنقاض. ذهب كعادته إلى البيت الطولوني أو ما تبقى منه. لم يزل يبحث ولم تزل الحكاية في المستهل. لا يمكن للمدينة أن تختفي بلا أثر، وجد خرقة قديمة أخرجها من التراب، ونظر إليها، نفخ التراب بكل قوته فتبدت الألوان، وبرقت الأشكال على النسيج .. تمتم: ساعدني يا بحنس أما زلت تحين سعيد بن كاتب الفرغاني؟! هل رق قلبك يا قبطية؟

***

العهد

الحكاية الثالثة

الباب الأول

905 ميلاديًا / 291 هجريًا

لو كان قلبي معي ما اخترت غيركم ولا رضيت سواكم في الهوى بدلا
لكنَّهُ راغبٌ فيمَن يعذِّبُهُ فليس يقبل لا لومًا ولا عذلا

عنترة بن شداد (شاعر جاهلي)

- 1 -

صارت المدينة أكثر رهبة، ويلغ طولها عنان السماء. عجزت عيناها أن تريا تقسيمات الأحياء وألوان الجنود. أشار سعيد بن كاتب الفرغاني بأصبعه المرتجف المجعد: هنا قطيع السودان، وهنا قطيع الروم، وهنا قطيع الترك، وهنا قطيع النوبة، وهنا قطيع المصريين، هل ترين؟ هل تعرفين؟ هل تفهمين؟

خرجت رعشة هزت كل جسدها ثم قالت: كيف لي أن أفهم وأنا لا أعرف ولم أرَ المدينة من قبل؟!

أشار إلى غلمانه، فخفضوا القطعة الخشبية التي يجلس عليها حتى أصبح وجهه موازيًا لأذنيها ثم قال: عائشة، مستقبل هذه المدينة بين يديك، بل مستقبل بيت طولون. تعرفين هذا، أليس كذلك؟

قالت في صوت مرير: لمَ اخترتني يا خال؟ ألم تجد أعجز مني أو أضعف؟

- هي أقدار يا ابنتي، لكل منا دور في الحياة، ولكل منا أجل ويوم للموت وللحياة. جاء أجلك اليوم للحياة، ولا أعرف يوم موتك.

أحكمت خمارها على وجهها ليحميها من رياح المدينة ثم قالت: أنا أختار الرجل، فلو كان لا بد من المجازفة والألم فلا أريد أن أعذَّب إلى الأبد.

- لك هذا يا ابنتي. مع أنني أعرف أن هذه الرفاهية لم تكن متاحة لك من قبل في بيتك يا يتيمة.

- لست في بيتي يا خال.

- اختاريه في غضون يومين فلم يعد في العمر الكثير وبنو عباس على الأبواب، ومحمد بن سليمان الكاتب يريد الانتقام ويحقد على مَن بنى ومن فاز، الحقد نار تحرق بلا هوادة، ها هي القطائع أمامك.. اختاري زوجًا منها، ولكن تذكري.. لا بد أن تحملي منه بأسرع وقت وإلا قتلك هو بيده.

- تطلب مني الكثير يا خال.

- بل أخيرك بين جنود الطولونيين خير جنود الأرض، مَنْ أخضعوا البحور والصحراء من اليمن إلى طبرق. لو كان الأمير أحد هنا اليوم لانتصر في سرعة وإتقان كعادته، ولكنه مات منذ عشرين عامًا، وحان وقت الاختيار.

***

يقول معلمها سعيد الفرغاني إن حياتها ستتغير من اليوم، وعليها أن تتحمل الألم في صبر، وتكذب وكأنها تتفوه بالحقيقة.. قال: إن لكل نفس يومًا تواجه فيه ظلها فتُفتَن وتتهاوى، أما نفسها فلابد أن تنتصر، فهزيمتها دمار الديار المصرية. يقول الكثير معلمها ولكنه صبور معها. طافت بين قطائع الجنود فلم يعجبها أيًا منهم؛ لا الرومي ولا التركي ولا السوداني ولا النوبي. يقول المعلم: إن من الأفضل لها أن تختار رجلًا من العيارين أو اللصوص، الجندي الشريف لن يتحمل هذا الزمان ولا الدمار القادم. يتكلم بالألغاز كثيرًا، ويلعب بالكلمات كالأطفال، وهي تعبث بالحجارة. ليس ليتيمة لم تترك الميدان يومًا أن تفهم كل شيء. هكذا هو الإنسان يريد أن يجري قبل أن يحبو.

وقع اختيار عائشة على رجل بعد ثلاثة أيام من البحث، كان عربيًا يسكن أطراف القسطاط. لا تدري ما الذي جذبها إليه، رأته يدرب الخيول ويتفحص أسنانها، شاهدته وهو يحاور التجار، يراوغ وينازع ويتحدى؛ لحيته مهندمة، وعمامته البيضاء تُبْرِزُ حاجبيه السميكين وعينيه السوداوين. يرتدي سروالًا

وقفطانًا أبيض يبرز سمرة وجهه الصارم. ملامحه حادة كسن الرمح، انجذبت إليه بقوة الرياح بعد يوم أو قبل يوم.

ابتسم سعيد وقال: أيعجبك العربي؟

قالت في خجل: طلبت مني أن أختار يا خال.

طارده سعيد بعينيه ثم قال: ستكونين أول فتاة ترى زوجها قبل الزواج في كل القطائع والفسطاط ومصر.

قالت وهي تدير عينيها: أريد رأيك أولًا يا خال.

دنا العربي قليلًا ولكنه لم يرها، كانا يختبئان وراء سور. مر بيديه على رأس الفرس يتكلم معه بصوت خفيض. رفع عينيه إلى السماء باحثًا عن غنيمة، فتبدّى لها ظله وسط الضوء الساطع وخفق القلب.

قال سعيد: عبد الرحمن من بني سالم من قبائل قيس.

- أتعرفه يا خال؟

- يعمل مع الشرطة، ولكنه لص لا قسم له ولا مبدأ. سيراوغ ويقاوم، ولكن الذهب يذيب الصخور أكثر من العشق والخمر.

- لا أفهمك يا خال.

- لن يتردد في الخيانة والفسوق.

قالت بلا تفكير: إذن نبحث عن غيره.

- ولكنه يعجبك يا عائشة.

- لا أحب الخائنين.

- قلت لك: هو عصر الدمار يا ابنتي. لن يفلح سوى الصعلوك العيار اللص المراوغ. هو من تبغي.

- تريدني أن أتزوجه بعد كل ما قلت عنه.

- لو أعجبك تزوجيه.

- يا خال..

- قبيلة بني سالم من قبائل قيس، جاءت مع الجيش الأموي منذ سنين طوال، كانت تعيش مثل كل العرب بعطايا الجند، في الماضي كان رجالها يحاربون في الجيش ويحظون بمنزلة فوق كل قبطي، حتى جاء بنو عباس وفقدوا الثقة في العرب وقبائلهم، وجندوا الأتراك؛ فأصبح النسب بلا معنى، واسم القبيلة لا يعني للمصري الكثير. إخوة عبد الرحمن تركوا القبيلة واستقروا في الدلتا والصعيد، يعملون بالفلاحة، تزوج الرجال من المصريات، ونسوا ديوان الجند منذ أعوام ولكن عبد الرحمن لم ينس.

- يا خال..

- لابد أن تفهمي ما تقدمين عليه، ومع من ستتاجرين بالذهب، عبد الرحمن أصغر أبناء موسى شيخ القبيلة، يحتقر الفلاحة وقاطع إخوته واعتبرهم ضعفاء خائنين، كان والده يُغير على الحقول وقت أحمد بن طولون، يسرق ويخطف حتى هادنهم أحمد بن طولون، وأبرم معهم اتفاقًا أن يحموا الطرقات ويعطيهم من عطاياه. بينهم وبين الطولونيين عهد، وسينقضونه اليوم أو غدًا. عندما يدخل محمد بن سليمان الكاتب مصر مع جيش بني عباس سيكونون أول من ينضم إلى جيشه، عبد الرحمن يراسل الخليفة العباسي منذ عام.

أمسكت بقلبها ثم قالت: يعمل جاسوسًا يا خال أقسم أني كرهته للتوّ.

- لا تقسمي، اسمعي كلماتي، الولد مدلل، وحب الذات مرض لا شفاء منه. عبد الرحمن يظن أنه سيعيد المجد القديم ويفتح بجيوشه بلادًا وبلادًا. يا عائشة، الطمع ضعف، وطمعه سيفتح الباب لدخولك، وعند دخولك لا بأس من

أن تحميه، فالعذاب لا محالة منه، ولكن تذكري أن هذا الميدان وهذه المدينة والبيمارستان والعين والمسجد بين يديك أمانة من الله.

- أنا بنت ضعيفة لم أخرج من بيتي من قبل. لم تطلب مني المستحيل؟

- الأقدار بيد الله، هو يعطي لكل منا دورًا ومنفعة، من كان يظن أنني سأبني المسجد والعين؟ توكلي عليه وسوف نبدأ خطتنا من الآن.

***

زار سعيد عبد الرحمن في خيمته، طال الحديث التافه بين عبد الرحمن وسعيد، وبدا على عبد الرحمن عدم الصبر فقال في حدة: يا رجل جئت تشتري مني فرسًا أم تسألني عن حال كل الخيل في مصر؟ أقصر في حديثك، فعندي الكثير لأقوم به.

- بل جئت أعطيك لا أشتري منك يا بني.

نظر إليه عبد الرحمن في ريبة، ثم قال: تعطيني ماذا؟ هذه أيام البدع والمعجزات. ماذا ستعطيني يا رجل بعد أن تكلمت بلا داع ساعة أو أكثر؟!

- لم نأكل بعد، ألن تدعوني إلى الطعام؟ عرفت عن العرب الجود.

نظر إليه في ضيق، ثم أمر أحد الرجال بإحضار الطعام وقال: بعد الطعام ترحل يا عماد، فلا شيء تملكه يصلح لي.

ثم قام عبد الرحمن متجهًا إلى خارج الخيمة فقال سعيد مسرعًا: مَنْ مِنَ الرجال لا يريد الذهب ولا يقدره؟

عاد إليه عبد الرحمن ونظر إليه قائلًا: أتلهو يا رجل؟ عن أي ذهب تتحدث؟

- عن الذهب الذي وجده أحمد بن طولون منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

جاء الرجل باللحم والخبز، فأذن له عبد الرحمن بالانصراف، ثم قال: اشرح قولك وأوجز.

- «المطالب» ذهب القدماء، أعرف أين هو أو لأكون صادقًا هي تعرف أين هو.

- هي مَنْ؟

- بنت يتيمة رباها الكاتب جعفر بن عبد الغفار، هل سمعت عنه؟ كان كاتب بن طولون. مات والداها وهي صغيرة، فأخذها في كنفه، فصادقت حفيدة أحمد بن طولون قطر الندى وعرفت منها الكثير عن الذهب وكنوز الطولونيين.

ابتسم عبد الرحمن في تهكم ثم قال: وأنت جئت تعرض عليّ ستر البنت، والبحث عن الذهب، أليس كذلك؟

بدا الضيق على سعيد، ثم قال: ليس كذلك بالضبط.. ولكن..

- من عبث مع البنت يسترها، أنا لا أستر بنات يا رجل. تعرف مع من تتكلم وإلى أي قبيله أنتمي؟ هل تعرف من أجدادي ومن أبي؟

- كنت أظن في دينكم أن الناس سواسية كأسنان المشط.

- سواسية أمام الله، أما هنا في دنيانا فلا عدل ولا مساواة. لمَ يخطب مثلي يتيمة مسلمة؟ وأين جعفر الذي رباها؟

- موجود يا بني.. استمع إليّ لتفهم ما أريد قوله.. واصبر بعض الشيء ضاع صبر الشباب في هذا العصر.

- تكلم، أسمعك.

- عائشة لا أهل لها، وبنو عباس على الأبواب، حتى جعفر يخاف مما سيحدث له على يد محمد بن سليمان، يبدو أنه يعرفه وبينهم تاريخ أسود اضطر جعفر للهرب. أكلمك بصدق وأتمنى أن تُبقي على عهد قديم أعرفه بين والدك وأحمد بن طولون.

قال في قوة: مات أحمد بن طولون وانتهى العهد. مصر للخلافة منذ فتحها عمرو بن العاص.

- هذا لا يعنيني يا بني، أريدك أن تستر اليتيمة وأعطيك هذا الذهب لتصدقني.

وضع أمامه قلادة لها تاريخ قديم. وجدها يومًا والد أنس الصياد في قاع البحر، وأعطاها أنس بن الصياد لأجل بنت في مصر حينها ميسون. واليوم هي مع سعيد بن كاتب الفرغاني أعطتها له ميسون ليتقذ المدينة. طاردت عينا عبد الرحمن قطع الياقوت ببريقها الذي يتحدى الأعوام، كانت على شكل هلال مرصع بالياقوت والزمرد، وزنها يرهق كف المحارب، من بين ثناياتها يسطع نجم أو نجمان من المرجان.

لمعت عينا عبد الرحمن وهو ينظر إليها ثم قال: هذه القلادة لأهل اليونان، أتعطيني الذهب لأتزوج من يتيمة بلا عائلة وأنا ابن شيخ القبيلة؟

قال سعيد: لا يعيب الرجل أن يتزوج من يتيمة ثم يتزوج من قبيلته. أعرف حبك لابنة عمك، كل الناس تعرف عنه، وأعرف أنها تزوجت غيرك وطُلِّقت، وأنك تنوي الزواج منها، كل هذا أعرفه.

قال عبد الرحمن في صرامة: وتعرف أني أقسمت لها أني لن ألمس غيرها طالما حييت؟

- هذا لا أعرفه يا بني.. متى أقسمت لها بهذا؟

- منذ ثلاثة أيام، ومنذ ثلاثة أيام وأنا مخلص لها هي فقط. صرفت كل الجواري وتوقفت عن الذهاب إلى الحانات.

- ثلاثة أيام.. هذا قسم غليظ على ما يبدو.

- قسم لا أنوي أن أحنثه وإلا فلن تتزوجني. كان الاتفاق بيننا واضحًا أنا وابنة عمي، فلا مكان ليتيمتك في حياتي. خذ ذهبك وارحل.

قال سعيد: أفهمك يا بني، اعذرني. أريد فقط أن أوضح أن اليتيمة عذراء لم يمسسها رجل، بل لم تخرج من بيتها قط. ولكن لو كنت أقسمت فلا بأس. هنيئًا لك ابنة عمك.

وضع القلادة في جيبه، وقام قائلًا: أشكرك على الغداء وعلى الحفاوة.

قال عبد الرحمن مسرعًا: انتظر. هذه اليتيمة تحتاج سقفًا وطعامًا فقط، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- أخرج القلادة وضعها أمامي فربما أفكر في الأمر.

ابتسم سعيد ثم جلس قائلًا: اسألني عنها ما شئت.

- هل سيضرني وجودها عند دخول محمد بن سليمان مصر؟

- لا يعرفها أحد، يتيمة مجهولة.

- حسنًا. هل ستطلب أكثر من سقف وطعام؟

- لا تريد الملابس ولا الزينة.

- سيكون زواجًا صوريًا فلا رغبة لي سوى في من أحب.

- هذا أفضل لها.

- ولكن هذا الذهب ليس كل الذهب. كنت تقول إنها تعرف مكان كنز أحمد ابن طولون.

- كانت صديقة لقطر الندى، ويبدو أنها أخبرتها بالكثير أو ربما استأمنتها على ذهب.

- ربما.. لو لم تتأكد فلن أتزوجها.

- بل أقسم لك أن هذا ليس كل الذهب.

- سفهاء هؤلاء الطولونيون، يقولون خمارويه بنى لابنته قطر الندى قصرًا في كل مدينة مرت بها من مصر إلى بغداد لتتزوج من الخليفة المعتضد، وكان يضع دكة ذهبية تستريح عليها في طريقها كل برهة. ثم تموت قطر الندى بعد خمسة أعوام ويختفي الذهب.

- بل هو موجود.

- لو تزوجتها ثم لم أعثر على بقية الذهب، ماذا أفعل؟

- لك هذه القلادة، أو لا تكفي المرء عمرًا؟

- لو تزوجتها ولم أعثر على بقية الذهب فسأعيدها لك أو أبيعها في سوق النخاسة، أتسمعني؟

- ستحصل عليه يا بني.

- لست ابنك.

- قلة صبرك تجعلك مختلفًا عن والدك وأهل قبيلتك.

- هل جئت تعطي حكمك على أخلاقي أم تطلب مساعدتي؟

- هل بيننا عهد إذن؟

- بل اتفاق، هات اليتيمة لأعطيها سقفًا.

***

زواج عائشة لم يكن راحة ولم يكن مصيبة، مصيبتها الكبرى كانت يوم رحيل أمها منذ شهر، احتضنتها ثم قالت في حسم: جاء دورك يا عائشة، لكل منا دور في هذا العمر وإلا لمَ خلقنا الله؟!

قالت عائشة في ترجٍّ: لم أخرج قط يا أماه، لا تتركيني وحدي.

- يقولون إن الذكاء يأتي بالفطرة وليس بالخبرة، كم من امرأة أهلكها الدهر خبرة وابتلاء، ثم سقطت في البئر نفسها مرة ومرتين! أعرف ذكاءك وتربيتك، وأتمنى أن تساعديني أنا وكل المدينة. سنلتقي بعد عام عند هذا الباب أمام مسجد أحمد بن طولون قبل انتصاف الشمس في السماء، أعدك لو كنت حية فسآتي، ولو لم آتِ فقد وافتني المنية، لا تحزني حينها.

- أمي..

قالت الأم إنها سترحل إلى الإسكندرية، ستبقى في بيت ميمون ولم تعط ابنتها عنوانًا لليث، تلاشت كسحاب السماء وتركتها في حيرة تحت رعاية سعيد.

اليوم أرادت أن تسير في طرقات المدينة قبل أن تبدأ رحلة غامضة مخيفة إلى أطراف الفسطاط، سارت بين حارات القطائع وهي تنظر حولها في انبهار، طلبت من سعيد أن يشتري لها الخبز بالسكر من الخبّاز، ثم يشتري لها اللحم من الشواء، امتلأت عيناها بالزحام وبأصوات الباعة وألوان البشر المختلفة حتى إنها تناسيت أن ترمش، فظهرت الدموع بعد قليل.

قال سعيد في رفق: يا عائشة..

نظرت إليه فجأة وقالت: ما أجمل هذه المدينة!

- وأنت ستحافظين عليها.

انقبض قلبها.

تكلم معها سعيد اليوم للمرة الأخيرة، قال: عائشة، استمعي إليّ.. عبد الرحمن ليس أفضل الرجال، هو أسوأ مما توقعت يا ابنتي، ولكننا لا نحتاج رجلًا طيبًا لمهمتنا، انتهى عصر الفرسان يا ابنتي، يقول إنه أقسم على ألا يلمس امرأة سوى حبيبته، أتفهمين معنى هذا؟

قالت في سذاجتها التي لا يعرف كيف يتعامل معها سعيد: ولمِ أفرق بين رجل وحبيبه؟

- تحاربين من أجل العيش وليس من أجل الحب، لا حب وقت الخطر يا ابنتي، لابد أن تحملي منه قبل مرور شهرين.

- يا خال..

- هذا أمر.

- لا أعرف كيف..

- وإياك أن تخبريه بمكان الذهب، لو فعلت فربما يتخلص منك حتى لو حملت منه، لا أثق به، أبقي آماله معلقة حتى تحين اللحظة المناسبة، أعطيتك الفرصة.. والله هو ما تبغين شيخ القبيلة.. قبل مرور العام أريد لمصر أن تحكي عن البنت التي أقامت الدنيا ولم تقعدها وغيرت تاريخ هذه البلاد.

ظهرت الدموع في عينيها ثم قالت: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها..

- بالضبط. هذا ما كنت أبغي سماعه ونفسك تستطيع.

***

- 2 -

قامت الدنيا ولم تقعد على عبد الرحمن، وبّخه الأب وثارت عليه ابنة عمه وقررت أنها لن تتزوجه لو أتى لها بالنجوم من السماء، واتهمته أنه عاد لعاداته القديمة وعبثه الذي مقته، وأنه لم يغير نفسه ولم يزل يتبع أهواءه ويغامر مع النساء ويخرج مهاجمًا قوافل التجارة يسرق ويروع. لم يزل الرجل الذي رفضته منذ ثلاثة أعوام، بل أبشع؛ فقد تزوج من بنت لا أصل لها وهو يدعي أنه يحبها هي. شرح لوالده في هدوء، استمع له واختلق له الأعذار، فهو ابنه الأصغر والوحيد الباقي معه من كل أولاده الذكور بعد نزوح الآخرين إلى الدلتا والصعيد وعملهم بالفلاحة مثل المصريين. وافق الأب بدون حماس، ثم جاء دور عزة ابنة عمه، تكلم معها ساعة أو أكثر وأقسم أنه زواج صوري وعمل إنساني يقوم به، حكى عن الذهب، واختلق قصة عمن يبحث عن الفتاة لقتلها، وكيف سيحميها ويثبت حسن نيته وتغير طباعه، وأنه لن يبيت معها في نفس البيت ولن يلمسها، وأن عزة يمكن أن تتأكد من هذا بنفسها بأن تبقى هي مع الغريبة طوال الوقت.

لم تقتنع، ولكنها صمتت.

أما عائشة فمشطت مساكن العرب بعينيها، اختطوا لأنفسهم مكانًا في الصحراء بعيدًا عن مدينة أحمد بن طولون، ثم أقاموا مباني حول الرمال، وفي وسط المباني ربطوا خيامهم وبنوا مسجدهم. تلتصق بيوتهم بعضها ببعض، ولكن أرضهم تمتد حول الصحراء الشاسعة فترمح فيها الخيول وتعيش الجمال

والماعز. في القبيلة خمسمائة رجل والكثير من النساء والأطفال، وشيخ القبيلة موسى بن عثمان قد تعدى الستين وتزوج من خمسة أو أكثر.

علت دقات قلبها وهي تقترب من مدخل البيوت. سارت وراء سعيد بخطى متثاقلة وقلب حائر، كتب عليها العربي ولم يرها ولم يكترث بها. بعد أن كتب عليها قال لها: أعطيني يدك.

مدت عائشة يدها في تردد، فأمسك بها عبد الرحمن في قوة، ثم أشار لسعيد بالرحيل وقال: هي في أمان هنا، لا تقلق.

قال سعيد: هل يمكن أن أطمئن عليها بين الحين والحين؟

فكر برهة ثم قال: ربما، سنرى.. صحبتك السلامة يا عم.

رحل سعيد، وعيناه تنظران إلى عائشة، وهي تستدير لتحاول أن تفهم نظرته ولا تستطيع، استمرت في السير وراء العربي الذي يمسك بيدها، واحمرت وجنتاها خجلًا، وحمدت الله أنه لا يرى وجهها، لم تلمس رجلًا قط، ويده القوية تجعل التركيز صعبًا. هل يمكن أن تحبه بعد كل ما قاله سعيد؟ ولِمَ يخفق القلب وتضعف الأطراف كلما التفت إليها أو ازدادت قبضته على يدها؟

قال عبد الرحمن وهو لا ينظر إليها: ستبقين مع ابنة عمي بعض الوقت. اتفقت مع سعيد أنك ستخبرينني بمكان الذهب، هل أخبرك بهذا؟

التفت إليها ينتظر الإجابة.. لم تجب.

قال وعيناه على خمارها: اخلعي خمارك، أريد أن أرى وجهك.

التفتت حولها، ثم خلعته في عدم ثقة، ونظرت إلى عينيه.. التقت أعينهما برهة ثم قال: ضعي الخمار الآن، رأيت وجهك واكتفيت.

لم تعرف هل أعجبه وجهها أم لم يعجبه. أمها تقول إنها جميلة، ولكن أمها لم تترك الفرصة لأي رجل أن يراها، ربما تراها أمها جميلة ولكن الرجال لا تفعل، من يدري؟ ولا تجرؤ على سؤاله.

قال من جديد وهو لم يزل يمسك يدها: سمعت ما قلته عن الذهب؟

لم تجب.

ترك يدها وتوقف، ثم قال في عدم صبر: لا بد أن أوضح لك من البداية أنني لا أحب المراوغة، كان بيننا اتفاق.

قالت في صوت مبحوح: عم سعيد قال لي إنه أعطاك ذهبًا.

بدا عليه الفزع، ثم أمسك يدها مرة أخرى وشدها إلى خيمة صغيرة وقال: لا.. يبدو لي أنك أكثر مراوغة من عمك المسيحي، تعالي هنا نتكلم.

شدها لتجلس على الأرض ثم قال: اخلعي خمارك لأرى عينيك.

قالت بلا تفكير: رأيتهما من قبل.

قال في حسم: انزعي خمارك ولا تناقشي معي.

أزاحته ونظرت إليه بعينين أكثر ثباتًا.

قال: يا عائشة.. اسمك عائشة، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- ستخبرينني بمكان الذهب.. تعرفينه، أليس كذلك؟

بقيت صامتة.

فقال بلا تفكير: لو ألقيت بك إلى الطرقات الآن ماذا سيحدث؟

ساد الصمت المتوتر ثم قالت: سأخبرك.

- هذا أفضل جدًا.

- متى؟

- بعد أن تحميني.

- حميتك وانتهى الأمر.

قالت: بعض رجال الجيش انضموا إلى محمد بن سليمان ضد الطولونيين.

- نعم بالطبع، من يريد أن يعمل تحت قيادة طفل مثل ابن خمارويه يقضي وقته في الخمر والملذات؟

قالت وكأنها لا تسمعه: محمد بن سليمان ينوي دخول القطائع.

- فليدخل القطائع، ما شأني أنا؟

- عندما يدخل القطائع والفسطاط سأكون في خطر.

- لماذا؟ ولمَ يهتم قائد مثل محمد بن سليمان بأمرك أنت؟

- لقد كان ينظف الحظائر عند أحمد بن طولون، لابد أن يهتم بأمر كل من ساعد الطولونيين.

- لا أفهمك، تراوغين من جديد.

- ألم يقل لك سعيد إن الذي رباني هو جعفر بن عبد الغفار كاتب أحمد بن طولون؟ جعفر كان عدوًّا لمحمد بن سليمان الكاتب؛ لذا هرب قبل قدومه.

- لا تقلقي، أعدك أن القائد محمد بن سليمان الكاتب لن يكترث بيتيمة مثلك، ولن يعرف عنها شيئًا.

- أشكرك، عندما تنتهي الحرب سأعطيك كل الذهب الذي تريده، هذا وعد.

قال في عصبية وهو يهز رأسه: لا.. لابد أنك لا تفهمين، ستعطيني كل الذهب اليوم أو غدًا.

- أتمنى فقط أن تصبر.

- لن أصبر.

- معك ذهب يكفي الآن، أعطني فرصة.. أتوسل إليك، وأتمنى أن تحميني كما يفعل الرجال أمثالك.

قال في ضيق: ترتاحين اليوم وتخبرينني بمكان الذهب غدًا أو ترحلين من هنا، سأسلمك لرجال محمد بنفسي ليبيعوك في الأسواق.

قام، وأشار إليها أن تسير وراءه إلى بيت عزة وعائلتها، أمرها أن تدق الباب وستجد عزة في انتظارها. قال قبل أن يتركها: عزة ستكون زوجتي قبل نهاية هذا الشهر، هل أخبرك سعيد؟

قالت: نعم أخبرني.

-غدًا نلتقي وتخبرينني بمكان الذهب.

***

تفحصتها عزة من رأسها حتى قدميها ثم قالت في حسم: إياك أن تفكري في عبد الرحمن، أتسمعين؟ لا تحلمي أصلًا به، ولا تتصوري أنه سيكون زوجًا لك أبدًا.

لم تجب، انكمشت في مكانها وغطت جسدها على الأرض والخوف يسيطر عليها، تُرى هل ستحاول عزة قتلها؟ أم ستذلها؟ أم سيبيعها عبد الرحمن غدًا كما قال؟ وأي مصير ينتظرها؟ هي من اختارته بسذاجتها ولم تتصور أنه بهذا الطمع وهذه القسوة. لم يعد هناك اختيار، بدأت رحلتها ولا بد من أن تنجح. ترعمت النوم، أغمضت عينيها حتى لا تسمع شتائم من عزة، ولم تعرض عزة عليها الطعام. تسلل إلى نفسها بعض الفخر اليوم بعدما جادلت العربي كالرجال وراوغت. نعم لا بد أنها راوغت، عيناه.. ما أجمل عينيه! تذكرت قبضته على يدها فتنهدت، نسيت كل ما قال ولم تتذكر سوى مقلتيه، تنهدت ربما.

ولكنها سمعت سليمة أخت عزة وهي تقول: تبدو لي كالثعبان يا أختي، بالطبع سيعاشرها، فقد كان يعاشر الجواري والمغنيات، فلم لا يعاشر زوجته؟ هي جميلة وشابة لم تتعدَّ العشرين، فكري بطريقة صحيحة.

قالت عزة هامسة: وعدني أنه لن يفعل.

- كم وعدك من قبل يا أختي! لا تطلبي من الرجل ما لا يستطيع. لا يوجد رجل في هذا العالم يمكنه أن يخلص لواحدة، ليتك تفهمين هذا. لو اقتنعت بهذا كنت ستبقين مع زوجك عندما قرر الزواج من أخرى.

- كنت أكرهه وأنت تعرفين.

- هذه الثعبانة تستطيع إغواءه لو اقتربت منه، لو ضمته إلى صدرها، لو خلعت ملابسها أمامه، لو ولو.. للنساء الكثير من الحيل.

ساد الصمت ثم قالت سليمة: يا أختاه، لو كنت مكانك كنت سأرضى بزواجه منها وسأتزوجه.

اعتدلت عزة في جلستها ثم نظرت إلى سليمة وقالت: تعرفين، أصبحت أعرف الكثير عن الرجال، هم أقل صدقًا من النساء ولكنهم من سلالة آدم. القلب لا يعشق إلا واحدًا مهما حاول الرجال إنكار ذلك، عندما يتزوج الرجل من ثلاث أو أربع فقلبه يعشق واحدة، أما الأخريات فهن الخبز الذي يزين الطبق لا فائدة لهن سوى الزينة والتفاخر. المرأة تعرف هذا؛ لذا تعطي قلبها لواحد. الرجل لا يفهم نفسه يا سليمة. عبد الرحمن يحبني منذ كنا أطفالًا حتى لو عاشر كل النساء.

- لو كنت تعرفين هذا فلا بأس من تقبل هذه اليتيمة باختيارك حتى لا تتقبليها رغمًا عنك.

- هذا لن يحدث، سترحل من هنا بعد يومين أو ثلاثة.

***

يبدو أنها نامت بعد برهة، ولكن كلمات سليمة وعزة لم تترك عقلها. لا بد أن المساعدة ستأتي من حولها، من العدو قبل الصديق. ولا بد أن تتعلم سريعًا، فليس هناك وقت لتضيعه وساعاتها معه قليلة. وضعت جارية بعض الطعام أمامها فلم تلمسه خشية أن يكون به سم. بعد الإفطار جرتها عزة من يدها لتعمل مع النساء، تظاهرت بأنها تعمل ولم تفعل شيئًا. كانت عيناها تبحثان عنه وسط الرجال، أكلت بعض الخبز المتروك أمام النساء وقت العمل وشربت بعض اللبن وانتظرت قدومه كما وعد.

تأخر على ما يبدو، عند الغروب قالت عزة في تحدٍّ: عبد الرحمن يريدك في خيمته ليسألك عن اللعب. أنا أعرف كل شيء، سأراقبك ولن تبقي معه أكثر من لحظات، هيا.

سارت في خطًى بطيئة وهي تحاول أن تجهز نفسها للمواجهة وسط كل هذا الحقد. سليمة تقول: إن للنساء حيلًا، سليمة قالت إنها جيلة، لو ألقت بنفسها بين ذراعيه فلن يقاوم. نعم ستغمض عينيها ثم تلقي بنفسها بين ذراعيه. سعيد يريدها أن تحمل من عبد الرحمن قبل شهرين. يطلبون منها الكثير وهي لا تحتاج سوى حضن أمها. عزة تريدها أن تخرج بسرعة من خيمته.

دخلت عليه وكان جالسًا. وقفت عزة بالخارج وقالت بصوت مسموع لعائشة ولعبد الرحمن: لا أستطيع البقاء أمام خيمته، ولكن أحذرك، لو تأخرت فسأقتلك بيدي.

لم تجب.

نظر إليها، رفعت خمارها ثم جلست أمامه وقالت قبل أن ينطق: لن أبقى مع حبيبتك في بيت واحد، قالت للتوّ إنها ستقتلني.

قال في صرامة: تأدبي وأنت تتكلمين عن سيدتك، من أنت بالنسبة لعزة؟ هي ابنة عمي، وستصبح زوجتي، إياك أن..

قاطعته في صرامة: قلت لك لن أبقى معها.

- سألقي بك إلى الطريق إذن.

قامت وقالت: افعل لو أردت، ولكنك لن تحصل على الذهب. أريد البقاء في بيت وحدي، وأريد أن أصنع طعامي بنفسي، لم آكل شيئًا منذ أمس.

نظر إليها في انبهار ثم قال: اعتدت إعطاء الأوامر على ما يبدو يا يتيمة القطائع والقسطاط. من كان غنيًا في عائلتك والدك أم والدتك؟

- لا شأن لك بأهلي، وعدتك أني سأعطيك الذهب كله بعد أن تنتهي الحروب.

تمدد على الأرض وأسند رأسه على وتد الخيمة ثم قال: عائشة.. تتحدينني إذن؟!

نظرت حولها، ثم اقتربت منه وجلست بجانبه وقالت في رجاء: لا أريد أن أتحداك، أنت زوجي.

اعتدل في جلسته، وتفحص عينيها كأنه يريد فهم كلماتها، ثم أخذت نفسًا طويلًا وهي تتمتم لنفسها بالآيات، وكأنها تنوي عبور نهر وحدها، واقتربت منه أكثر، ووضعت رأسها على صدره بسرعة وارتباك وبلا أدنى غواية، ثم ألصقت جسدها بجسده بلا كلمة.

لأول وهلة تجمد مكانه، لم يتوقع تحركاتها، ثم أحاط خصرها وهمس وأنفاسه ممتزجة بأنفاسها: أنت أخطر مما توقعت، قال لي سعيد إنك لم تتركي بيتك.

قالت وجسدها يرتجف من جرأتها وترقبها للمجهول: لم أترك بيتي.

ثم أغمضت عينيها كأنها مُقدمة على عاصفة في الصحراء وطوقت كتفه بيديها في قوة.

حك خده بخدها، ثم قبّل خدها قائلًا في رقة: وتظنين أنك تستطيعين السيطرة عليّ بجسدك؟ من علمك هذا؟

احمرت وجنتاها، وابتعدت بعض الشيء، ثم قالت في خجل: اعذرني، كنت خائفة وجائعة و..

قربها منه مسرعًا حتى استقر رأسها على صدره مرة أخرى ثم قال: لا لا تتحركي، ابقي كما كنتِ. تريدين بيتًا لك وحدك إذن؟

لم تجب. بدأت تتوتر من فعلتها ومن ردة فعله غير المتوقعة. قبّل رقبتها في رقة وقال لها وهو يقبلها: أتعرفين أنني أخذت عهدًا على نفسي ألا ألمس امرأة حتى أتزوج من عزة؟ قلت لك..

قالت وهي لا تعرف كيف تستقبل قبلاته: أعرف.

- ومع ذلك تقتربين مني و..

قالت في يأس: أنا خائفة فقط.

- تُرى أي خطر يأتي معك يا عائشة؟ هل هو يأسك الذي يحركك أم عقل شرير يريد الخراب؟

أحاط وجهها بيديه، ثم قال: هل قبّلك رجلٌ من قبل؟

- أقسم لك..

- لا تقسمي.. جمالك لم أر مثله.. لو لم يقبلك رجل من قبل فلابد أنك لم تخرجي من بيتك حقًا.

لامست شفتاه شفتيها فشهقت والفزع يدخل قلبها، قبّلها قبلة طويلة، وتغلل بقبلته إلى أعماق الروح على ما يبدو. قبضت على كفها وهي لا تدري ما الواجب عليها الآن؟ ارتجفت وأرادت أن تبتعد وهي تدنو، اكتفت من جرأته، واستيقظ الشوق يطلب المزيد، طمس الغبار العالم من حولها. تحبه؟ لابد أنها تحبه. فقلبها لم يخفق هكذا لأي رجل رأته في القطائع وهي تسير مع سعيد. وعندما تركها كانت

ترتعش وعيناها غير مستقرتين. قال في رقة: كانت أول قبلة لم تكذبي. قلت لك أخذت عهدًا، لا أنقض عهدي قط.

قام فجأة وقال: ما حدث كأنه لم يحدث، لم أزل عند وعدي لعزة، ولكني سأنقلك إلى بيت أبي، ولكن إياك..

صمت ونظر إليها. لملمت ما تبقى من عقلها ثم قامت قائلة: إياي ماذا؟

- إياك أن تحاولي إغوائي أو الاقتراب مني مرة أخرى. لست الرجل الذي يتبع أهواءه، وعندما أقسم وأعد أفي بوعدي.

قالت مسرعة: أشكرك.

- تشكرينني على ماذا؟

- أشكرك على نقلي إلى بيت عائلتك وعلى كل شيء.

ردد وهو يبتسم ويقترب منها ويغطي وجهها بالخمار: على كل شيء.

***

بيت عبد الرحمن أعطاها الفرصة التي انتظرتها لتدخل عالمه وتخترق أيامه. وأهم من كل شيء لتجد السبيل لشيخ القبيلة موسى بن عثمان. كان بيتًا من طابقين تتوسطه فوارة بلا مياه معظم الوقت. ما إن دخلت حتى استقبلتها زوجة الشيخ بامتعاض وعدم ترحيب، عرفت بعد وقت أن عاتكة أصغر زوجة للشيخ في عمرها أو تكبرها بعام أو اثنين، وأنها صديقة مقربة من عزة وسليمة؛ ولذا لن تحبها ولن تتقبلها. لم تنجب عاتكة زوجة الشيخ الشابة، وكثرت الأقاويل عن السبب، البعض قال: إن الشيخ قد تعدى الستين ولم يعد قادرًا على الإنجاب ولا معاشرة النساء. والبعض قال: إن عاتكة لا تنجب، فقد أنجب الشيخ من قبل بدلًا من الولد سبعة من زوجاته. تزوج الشيخ موسى في شبابه من ابنة عمه خالصة وأنجب منها خمسة أطفال، عاش منهم ثلاثة أولاد رحلوا إلى الصعيد

ونسوا القبيلة والنسب. ثم بعد خمسة أعوام من زواجه من خالصة تزوج من أخرى ولم يدم الزواج سوى عام أنجبت له ولدًا رحل هو الآخر مع أمه إلى الدلتا. ثم تزوج من أم عبد الرحمن التي أنجبت له ثلاثة أولاد هي الأخرى ثم ماتت وهي دون الثلاثين وعبد الرحمن لم يتم العاشرة. رحل إخوة عبد الرحمن إلى الصعيد وبقي هو آخر أبناء الشيخ. بعد أم عبد الرحمن تزوج من شابة وتركها بعد عامين، ثم تزوج مؤخرًا من عاتكة ابنة أحد رجال القبيلة ومن أجمل النساء. لم يتبق في بيت الشيخ سوى ابنه عبد الرحمن وزوجته عاتكة وأولى زوجاته وابنة عمه خالصة. آثرت خالصة منذ ثلاثين عامًا أو أكثر أن تختفي عن الأنظار، استقلت بجناح في البيت وجاريتين لخدمتها، وامتنعت عن رؤية أحد سوى أبنائها، وبعد رحيل الأبناء كانت تراهم مرة كل عام فامتنعت عن رؤية كل البشر وخاصة زوجها الشيخ. لم توبّخه يومًا ولم تلمه ولكنها تجنبت رؤيته فقط. ولم يدفعها فضولها لرؤية زوجته الشابة. ولم تخرج من جناحها لأي سبب. أقامت مطبخًا صغيرًا به، وفرنًا في الحديقة، وأصبحت تخبز كل يوم وتتشاجر مع الجاريتين حتى ذاع عنها أنها أصعب إنسان يمكن التعامل معه، كلماتها تلدغ كلدغة الثعابين وجفاؤها لا رحمة منه.

عرفت عائشة كل هذا من الجواري وهن يرتبن لها حجرتها، استمعت في صمت وبعض الفضول، ثم قالت بلا تفكير: أريد أن أزور سيدة الدار.

قالت الجارية: سيدتي عاتكة هي سيدة الدار.

قالت عائشة في حيرة: ظننتك تقولين أن سيدتك خالصة هي أكبر وأول زوجات الشيخ؟

قالت الجارية: آه.. ولكنها لم تعد سيدة الدار ولا تقابل أي إنسان. تجلس في جناحها ولو دخل عليها أحد، من يدري؟ ربما تضربه.

ضحكت الجارية وهي تنظر لزميلتها وكأنهما يتذكران حادثة حدثت من قبل. فقالت عائشة: هي مخيفة إلى هذا الحد؟

- وأكثر يا سيدتي، إياك الاقتراب من جناحها. حتى سيدي عبد الرحمن لا يقترب منه، وحتى الشيخ لم يرها منذ أعوام. لسانها بطول نهر النيل، اعذريني.. وأتمنى ألا تنقلي كلماتي لأحد وإلا قطعوا لساني أنا.

قالت عائشة في إصرار: خذيني إلى جناحها.

حاولت الجارية أن تثنيها ولم تفلح، فأخذتها إلى جناحها وهي تنظر إلى زميلتها في حماس وكأنهما على وشك مشاهدة جريمة قتل أمام أعينهما والكثير من الدماء.

دقت عائشة على الباب، لم يجب أحد، دقت من جديد فقالت خالصة في استياء وهي تقوم من مكانها وتسير في بطء لتفتح: من التعيس الذي يدق بابي بلا موعد؟

فتحت ونظرت إلى عائشة في ذهول، رمقتها عائشة بنظرة رقيقة، تناثر شعرها الأبيض حول وجهها، وبدا أنها ممتلئة داخل عباءتها السوداء الفضفاضة. قالت عائشة: يا سيدتي، جئت أتعرف إليك وأتمنى رضاك، أنا زوجة عبد الرحمن.

قالت في استياء: عبد الرحمن مَن؟

فقالت عائشة في دهشة: ابن الشيخ موسى.

تمتمت ببعض الشتائم، ولم تعرف عائشة هل هي شتائم للشيخ أم لعبد الرحمن، ثم قالت: ارحلي هيا.

ابتسمت الجارية ونظرت لزميلتها، فقالت عائشة مسرعة: يا سيدتي، أنا غريبة هنا وأريد فقط أن ألقي عليك التحية، اسمحي لي بالدخول، لن أبقى كثيرًا.

حملقت بها خالصة ثم قالت: ماذا تريدين مني؟

قالت عائشة في رفق وهي تزيح الباب وتدخل ثم تغلق الباب وتجلس: أنا بلا أهل هنا، وأنت سيدة الدار، لو سمحت لي بزيارتك كل يوم أكون سعيدة.

- وأكـون أنا تعيسـة يا غريبـة! ما الذي يهمني في سـعادتك يـا حمقاء؟! وأي سـعادة في هذا العالم الأسـود؟! ما الذي أتى بك إلى هذا البيت؟! من غرر بك؟! الشيخ أم ابنه؟!

قالت عائشة في حماس وبراءة: أنا زوجة عبد الرحمن يا سيدتي، وليس الشيخ، هو ابن الشيخ.

- هو رجل فلا بد أنه غرر بك.

قالت في براءة وهي سعيدة، لا تعرف لماذا، بالتعرف إلى خالصة: أحب زوجي يا سيدتي. هو رجل..

ضحكت خالصة في جفاء ثم قالت: هو رجل نعم.. يعجبك شكله أم كلماته؟ هل يلقي عليك أشعار العرب وكلمات الحب؟

قالت بلا تحفظ: بل لا يشعر بي يا سيدتي. هل يمكن أن أقول لك يا خالتي؟

فتحت الباب ثم قالت: هيا إلى حال سبيلك، أنا لا أعرفك.

اتجهت عائشة إلى الباب في خزي ثم قالت: معذرة على إزعاجك يا خالة.

ثم همت بالخروج فاستوقفتها خالصة قائلة: هل سـمحت لك بـأن تناديني بخالـة؟ أنا لسـت خالتك، زوجك هذا يحب أخرى، هـذه عادة الرجال، لا يملأ عينيها سوى كل رمال الصحراء، لا تتعلقي به.

قالت عائشة في رجاء: هل يمكن أن أزورك كل حين أم أنك لا تتقبليني، لأني لست من القبيلة؟

قالت في صرامة: أنا لا أتقبلك لأني لا أحب كل البشر، ولكن يمكنك أن تزورني أحيانًا وليس كثيرًا.

***

ثارت عزة ويئست من إصلاح عبد الرحمن، بدأ الحب بينهما منذ كانا طفلين، وبدا الالتقاء في الأفكار مستحيلًا، كانت جادة وكان يلهو بلا رادع، أرادت الاستقرار، وأراد الهجوم على القوافل والمغامرة بالسيف والفرس والأسهم. أعياها تقلبه بين النساء واللصوص في الماضي، وتزوجت ولم يدم زواجها، لا أحبت زوجها ولا حاول هو إرضاءها واستمالتها. وعند الطلاق عاد إليها عبد الرحمن ووعدها بأن يتغير وأنها له حتى لو قاومت وتركته مرة أخرى. طلبت منه أن يكتفي بها ويستقر معها، قال إنه يستطيع أن يكتفي بها، ولكنه لا يعرف معنى الاستقرار في الصحراء، وإن السعي واجبه، لن يفعل فعلة إخوته ويهجر القبيلة ووالده، لابد أن يبقى لأن هيبته بين أهله، ولو بقي فسيجازف ويغامر دومًا. لم تفهم، ولكن وعده أنه سيكتفي بها هدأها. وها هو يتزوج وينقل زوجته إلى بيته، كيف استطاع خداعها مرة أخرى؟ وأي مصير ينتظر من تحب رجلًا مثل عبد الرحمن؟ أرهقه حب الذات، وهزمه حب المال والسيف والنساء. عندما جاء يقابلها كعادتها، قالت في قوة: انتهى ما كان بيننا.

فقال في إصرار: بل لم يبدأ بعد. قلت لك: لن أتركك تعبثين بمصيرنا مرة أخرى.

- عاشرت زوجتك يا عبد الرحمن وكذبت..

- وعدتك وأفي بوعدي. تعتقدين أني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الهوى؟ أتعتقدين أني أسيطر على الخيل بقوتي وأترك الجسد يسطو عليّ؟ لا. قلت لك لن يحدث، وستتزوج قبل مرور الشهر، فقد اشتقت إليك عمرًا.

قالت في خجل وكلماته تصل إلى القلب: تكذب عليّ.

قال في قوة: لو كنت أكذب فستعرفين، ولو عاشرتها فستشعرين، عهدت فراستك التي تتفوق على فراسة الفرسان وعسكر القطائع.

- لا أريد الذهب يا عبد الرحمن.

- من يجد الذهب يملكه دومًا. جاء إلى بابنا كيف نرفضه!!. هو رزق وكنز.

- معك ما يكفي.

- بل معي ما يفتح الشهية لوليمة ستتركنا غارقين في الهناء عمرًا. اصبري.

- هذا الطمع سيجني عليّ.

- صدقيني هذه المرة.

- آخر مرة.

- آخر مرة.

قالت في تأمل: أبي لن يوافق على زواجنا، تعرف، لن يوافق إلا إذا تركت له رئاسة القبيلة بعد والدك، هو أحق بها يا ابن عمي، هو أكبر منك.

قال في حسم: سيوافق شاء أم لم يشأ. والقبيلة من حق ابن الشيخ وليست من حق أخيه.

قالت في يأس: ستحارب أبي يا عبد الرحمن؟

فقال في رفق: لن يحدث، سيوافق وستتزوج، سيغير الذهب كل شيء.

***

قال سعيد: إن عليها أن تحمل خلال شهرين. احتضنت نفسها في الحجرة وهي تفكر، ليت والدتها أخبرتها بأي شيء عن غواية الرجال أو حتى الكلام معهم. أغلقت عليها الأبواب وأغشت الأبصار حتى تحمي ابنتها، وربما حتى تبقى معها ولا تتركها، من يدري؟ ألليتم ملمس كزبد البحر يتفتت عند الإمساك

به ثم يتساقط ويتلاشى. هي يتيمة وعليها أن تطلب الحماية من رجل أحبته ربما، ولكن لابد ألا تثق به. هكذا قال سعيد. الحذر هو المنقذ والملاذ، ومع ذلك سعيد يريدها أن تكون زوجته بحق وهي لا تعرف كيف. سليمة قالت: إنها لو خلعت ملابسها يستسلم لها ربما، ولكنه أقسم ألا يعاشر سوى حبيبته. أي مأساة تنتظرها؟! وأي هزيمة؟! جلست على مخدعها وأمسكت بردائها وأغمضت عينيها ثم حاولت أن تخلعه في بطء، وخجلت حتى من نفسها، فارتدته مسرعة وهي تقول: مستحيل.

ولكن سليمة تبدو على صواب.. ألم يقبلها كما توقعت سليمة؟ لم لا تتشجع وتخلع رداءها أمامه؟ ولو لم تفلح خطتها؟ ولو تركها واحتقرها وظن أنها رخيصة وبلا كرامة؟ لم تهتم بنظرته إليها؟ أسيطر عليها العربي؟ أن تحبه فهذا ربما يساعدها، ولكن أن يسيطر عليها شيء آخر. تعرف أنها ذكية ولن يسيطر عليها العربي ولا أي رجل.

هزت رأسها في ثقة وهي تردد: نعم، لن يسيطر.

ثم حاولت من جديد أن تخلع رداءها ولم تستطع، نفخت في ضيق وهي تدعو الله أن يعطيها الشجاعة أو يجعله أكثر لينًا معها.

***

صب العبد الماء فغسل الأب يده بعد الطعام، ثم قال الأب موسى لابنه: نهاية الطولونيين اليوم قبل الغد، الخليفة المكتفي غير والده ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ في عهد أحمد كانت القوة كلها في يده يخلص الشام من الأخطار ويضمها إلى ملكه، والخليفة يعرف أنه لا يستطيع مهاجمة جيوش أحمد. ثم جاء خمارويه وعندما حاول بنو عباس حينها دخول ملكه هزمهم ثم أكرمهم فلم يزل يدعو للخليفة فوق المنابر، وبعث ابنته قطر الندى قربانًا للصلح مع أنه كان يستطيع أن ينفرد بالحكم بلا منازع وبدون أن يبعث أي أموال للخليفة،

ولكنه عمل بوصية والده ولم يزل يحترم بني عباس، ولكن الحفيد ليس كالجد، ابن خمارويه أبو العساكر جيش كان في الرابعة عشرة، ولا يملك حكمة الأب ولا رأي جده، ينصرف إلى الشراب واللهو مثل أبناء الحكام دومًا، قتل عمه أبا العشائر نصر، ولم يشفع له دم ولا نسب، لم يزل طفلًا، وليس للطفل حكم الديار المصرية، عندما خلعه الجنود ولّوا أخاه هارون الذي لم يزل هو أيضًا طفلًا. ماذا توقعوا سوى دخول الجيش العباسي؟ ما لا أفهمه هو لمَ يكون دخول مصر من البر والبحر؟ لو كان القائد طفلًا فالتخلص منه لا يحتاج جيوشًا ولا مراكب ولا فرسانًا.

استمع عبد الرحمن في صمت، ثم قال الأب في صوت ضعيف وهو يتنفس في بطء: العمر في نهايته يا عبد الرحمن، لدينا خمسمائة رجل يتوقعون من شيخ القبيلة الحكمة والإرشاد، أنت من تبقَّى لي..

- سأكون عند حسن ظنك..

اتجهت عيناه إلى الباب لحظات، ثم نظر لأبيه وقال في قوة: تكلمت مع رجال الخليفة ولدي بعض الأصدقاء في العراق لهم وضع وشأن عند المكتفي بالله. لا بد أن نوضح ولاءنا من اليوم، أما محمد بن سليمان فمقابلتي معه عن قريب جدًا.

قال الأب في تردد: كان بيننا وبين أحمد بن طولون عهد لا أريد أن..

جاء الصوت فقزع الحضور، فتحت الباب في بطء ثم قالت في هدوء وصرامة: يا شيخ، اسمح لي.. واعذرني على دخولي، ولكن لدي أمر مهم أريد أن أتكلم معك فيه.

فتح الشيخ فمه في ذهول وبقي عبد الرحمن ساكنًا لا يدري أكان يريد قتلها للتوّ أم جلدها، ولكنه لم يبد مسرورًا.

رفعت خمارها وجلست على الأرض ثم قالت مسرعة: الشيخ موسى بن عثمان من بني سالم أولاد الأكرمين لا ينقض عهدًا. فلو نقض الشيخ عهده كيف يقسم له الرجال بالولاء؟ يتعلم الرجال منك ومن حكمتك وكرمك. كم سمعت عن جودك وقوتك!

ظهرت عليه الحيرة ثم نظر إلى عبد الرحمن وقال: هذه مَن تزوجت؟

قال عبد الرحمن وهو يبتسم في جفاء: صاحبة الذهب يتيمة القطائع كانت تتجسس علينا وظنت أني لا أشعر بها وهي وراء الباب.. ساذجة بعض الشيء.

قال موسى في قوة: عهدنا كان مع أحمد وليس مع أولاده.

قالت في إصرار: بل جددت العهد مع خماريه ابنه، العهد لا ينتهي بموت أحد الأطراف، هو كالدَّين يدفع وقت الحياة ووقت الموت.

- ما شاء الله على فصاحتك، من تكونين يا بنتي؟

قالت وهي تمسك بيد الشيخ وتقبلها: جاريتك وطوع أوامرك، أريد الخير لقبيلتي وأهلي.

ردد الأب: قبيلتك وأهلك؟

نظرت لزوجها الذي بقي صامتًا ثم قالت: جئت بالذهب لأجد من يحميني عندك، ولا حماية إلا مع الشيخ موسى بن عثمان الذي يصون العهود ويأوي اليتيم.

نظر لها الشيخ في إمعان ثم قال: لا يحكم مصر طفلٌ، هذا لا يجوز.

- من يحكم مصر هم الجنود وليس الطفل، جنود القطائع خير الرجال، قوتهم أرهبت الخليفة من قبل.

- لو دخل مصر يا ابنتي محمد بن سليمان فسيقتلك بمن لم يواله، هي هكذا الحروب، من ينتصر ينتقم، ومن ينهزم يسامح ويغفر.

قال عبد الرحمن في ذهول: هل تستمع حقًا لهذه البنت وتتكلم معها يا أبي؟

ثم نظر إلى زوجته وقال: عائشة، عودي إلى حجرتك حتى لا ألقي بك إلى الشارع لتختبر قوة جنود محمد بن سليمان اليوم.

قالت في صرامة: سأطيع أوامرك دومًا فقد أنقذتني وحميتني.

قال من جديد: عودي بلا كلمة.

قالت وهي تنظر إلى الشيخ: ولكني لا أخرج إلا عندما يأذن لي الشيخ هو أبي الآن وولي أمري.

قام عبد الرحمن ثم أمسك بيدها وشدها إلى الخارج قائلًا: بل تخرجين عندما يأمرك زوجك، أنا ولي أمرك، هيا إلى حجرتك.

خرجت إلى حجرتها. فنظر إليه الأب في شيء من اللوم ثم قال في تأمل: لم تحترم وجودي يا عبد الرحمن، كيف ستتصرف لو أعطيتك القيادة في حياتي؟ قالت كل الصواب هذه اليتيمة، و..

قاطعه: هل ستستمع للغريبة بالوقيعة بيننا!

- قالت: إنها لا تخرج من الحجرة إلا بإذني، وقالت: إن العهد لا يضيع بموت صاحبه.

قال في إصرار: لو لم توالِ ابن سليمان فسينهي هذه القبيلة، أريد نجاة الرجال.

- ولو قررت أنا البقاء على العهد، فهل ستتحداني؟

ساد الصمت لحظات ثم قال عبد الرحمن: أبي، لا أجرؤ ولا يجوز أن أتحداك، لن يحدث. فكر في الأمر، ثم نتكلم عنه مرة أخرى، واترك لي أمر اليتيمة ولا تجعلها توقع بيننا كما فعلت زوجتك من قبل.

- إياك يا عبد الرحمن.. سأطردك بلا رجعة.

- أطلب الصفح يا أبي.

- لا تختبر صبري.

- لن يحدث.

قالها في صوت ممتلئ بالغل لشخص واحد أو ربما اثنين.

***

توقعت ثورته وجهزت لها، قضت الساعات تفكر من جديد. ما تحارب من أجله ليس فقط حياتها بل أكثر بكثير. ربما يأمر بجلدها أو يضربها لكمة أو لكمتين، هذا ممكن بل هو مصير معروف، لا أهل لها ولا عزوة، وكونها تجسست، ثم تجرأت، ثم تكلمت، ثم عارضت هو أمرٌ ليس بالهين. سيأتي، لن يستطيع أن يتحاشاها كما فعل أمس، سيأتي ليسكب غضبه، وعندما يأتي ستكون فرصتها الأخيرة في العيش وليس فقط في الانتصار. تمنت لو تكلمت مع أمها، كيف لأم أن تتخلى عن ابنتها بهذه السهولة؟ بل تحملها ما لا طاقة لها به. كيف تغرقها ثم تطلب منها أن تنجو وهي لا تعلمت السباحة ولا رأت البحر. أيعجبها عبد الرحمن؟ هل يعجبها؟ هل أحبته؟ تعرف أنها أحبته منذ رأته ولم يرها، ثم طاردته بعينيها وهو يروض الفرس ويسيطر بعينيه على الشرق والغرب. أحبته ولم تنم ليلة أو اثنتين، فلو أحبت زوجها فهذا رزق من الخالق تعرف أنه لا يحدث كثيرًا. ولكن أن يحبها زوجها فهذا حلم لن يتحقق، قلبه مع أخرى، وعقله يصارع عقلها، لا التقاء بينهما لا اليوم ولا غدًا.

وعندما قبّلها عرفت الشوق مرة ربما، وتغلب القلب على كل الذاكرة. صلَّت ودعت الله أن ينصفها، ما تنوي عليه هو محاولة أخيرة لإنقاذ نفسها من موت محتوم.

ارتجفت وهي ترتدي رداء أبيض فضفاضًا ولا شيء آخر تحته، ثم تجلس على مخدعها تتمنى أن يأتي كما تمنت أمس ولم يأتِ.. أغمضت عينيها في يأس، ولكنه جاء.

بدأت تشجع نفسها وتتمتم بكلمات كثيرة لا يسمعها غيرها وهي تأخذ أنفاسًا طويلة، ستخلع الرداء وما إن ينظر إليها حتى يذوب عشقًا. سيخبرها اليوم كم هي جميلة وكم يحبها، لو رآها فسيفقد عقله وكل أهدافه، وربما يكتفي بها، من يدري؟ ارتجفت أصابعها وهي تمسك بطرف الرداء، فثبتتها بأصابع اليد الأخرى، وعقلها يطوف في جوف الأرض.

أغلق الباب بإحكام وجلس أمامها على مخدعها ثم قال: أعطيتك يومين لتفكري. اليوم تخبريني عن مكان الذهب، ولو لم تخبريني فسأعرف ولكن لن يكون لك عيش هنا.

توقعت أن يلومها على تجسسها أو على كلامها مع الأب، ولكنه يتكلم عن الذهب، لم يراوغ، وهل تعرف عنه كل شيء؟ ربما كان أذكى منها بكثير، ربما..

قالت في تلقائية وهي تضغط بأصابعها على طرف الرداء والرجفة تزداد، فيصبح مجرد الإمساك بالرداء مستحيلًا: لِمَ لا أعجبك؟ هل تراني بكل هذا القبح حتى تتحاشاني أمس وقبل أمس؟

ابتسم وكأنه يفهمها، ثم قال وهو ينظر إلى عينيها: عائشة.. ما تريدينه لن يحدث.

قالت في يأس وهي تهز رأسها: أعرف، لا أروق لك مع أني أحبك، أقسم لك منذ رأيتك وأنا أحبك.

ضحك وهو يقوم ثم قال: حتى غواية الرجل لا تتقنينها، الكذب في عينيك.. جئت تبغين الخراب وأنا تزوجتك وأنا أبغي الذهب، أحدنا سينتصر على الآخر.

يمكنني أن أرغمك على الاعتراف بمكانه، تعرفين هذا، ولكني أصبر عليك؛ لأنك رقيقة لن تتحملي التعذيب.

قام ثم قال: لو طلبت منك ألا تتجسسي فستتجسسين، ولو طلبت منك أن تبتعدي عن والدي فلن تفعلي. جئت في مهمة محددة كالجندي بالضبط. لا بأس. أريدك أن تعرفي أني أعرف وأصبر لا أكثر.

أدار وجهه عنها واتجه إلى الباب فقالت في استجداء: عبد الرحمن.. أرجوك أن تبقى..

اتجه بوجهه إليها، فأمسكت بطرف ردائها بكل أصابع يديها المرتعشة، وهمت بخلعه بأقصى سرعة ولكنها ارتبكت، فشبك طرف الرداء بطرف مخدعها، فمزقته في عصبية، ثم خلعته وأغمضت عينيها وهمست: أنت زوجي.

لابد أنه لم يترك الحجرة بعد، فلو تركها كانت ستسمع صوته. ترى أينظر إلى جسدها الآن؟ أيرى ارتجافة كل أطرافها، حتى إن قدميها لا تحملانها. لم تستطع أن تفتح عينيها ولكنها تشعر بلفحات الهواء على كل جسدها وتعرف أنه لم يترك الحجرة، وبدا جسدها كله أمامه كما أرادت. غطت صدرها بذراعيها بلا إرادة وهي لم تزل مغمضة العينين.

لو كانت سليمة مخطئة فقد انتهت حياة عائشة الآن. هذا كان اقتراح سليمة، هي لم تفكر هكذا، ولكن لو تركها ورحل فلن تجرؤ حتى على مواجهة نفسها بعد ذلك، ولو لم يرحل فهي لن تجرؤ على مواجهة نفسها أيضًا.

لم تر عينيه، نظر إليها في فزع مقترن بنار وكأنه على وشك قتلها في تلك اللحظة، ولكن عينيه تفحصتا كل جسدها، رأى ارتجافتها وعينيها المغمضتين فازداد الغضب واشتعل الغيظ. ثم خرج من الغرفة بأقصى سرعة وترك البيت وقلبه على مسمع منه. كان يتصورها ممزقة إربًا أمامه، مقطعة إلى قطع صغيرة، سيطرت صورتها على مخيلته فامتزجت بصورته وهو يعذبها.. كان يعذبها تارة،

ويفترسها تارة، ويعشقها كثيرًا. أغمض عينيه وامتطى فرسه ووكز الفرس بقدمه ليجري بأقصى سرعة ولكن النيران لم تنطفئ. أرادت شيئًا وكادت تصل إليه. كادت ولكنه لن يحدث. فمنذ جاء إليه المسيحي سعيد وهو ينفذ أوامرها وخطتها بالحرف كالفرس المطيع. وكز الفرس بقوة حتى صهل في ألم وازدادت سرعته وضربت الرياح وجهه والنار لا تنطفئ.

***

ارتدت رداءها والدموع تلمع في عينيها، كانت جارية في السوق اليوم ورفضها الجموع، أي يأس سيطر عليها؟ كان لا بد أن تعارض أمها وسعيدًا، عندما قال سعيد إن لها دورًا وواجبًا وإنها لابد أن تصبح زوجة حقيقية للعربي، كان لا بد أن تعترض، ولا بد أن تتوقف عن حبه. فهو حب مبتور منذ البداية. غطت نفسها وعضت على شفتيها، بدأ عذابها للتوِّ. لن تستطيع أن تواجهه بعد الآن بعد أن رفضها ولفظها كنواة بلحة عفنة.

ضمت جسدها، نادت على أمها في ألم ولم تجب. تكورت فوق مخدعها كالجنين يبحث عن دفء الرحم. بعد مرور ساعة شهقت عندما فتح الباب على مصراعيه ثم أغلقه.

نظرت إليه في حيرة ورأت النار تخرج من عينيه، تجمدت مكانها لا تعرف إن كان ينوي قتلها أم عشقها الآن، أخرج سكينًا من جيبه فعرفت ماذا ينوي. أغمضت عينيها وطبقت وجهها، وقلبها يخفق بشدة. رمى السكين في تمدُّ فاخترقت الحائط بجانب السرير بالقرب من أذنيها واستقرت في مكانها، صرخت وضمت جسدها أكثر وهمست: أرجوك.. ألا تقتلني..

خلع عباءته وجلس أمامها وشدها إليه قائلًا، وهو يحيط خصرها في قسوة آلمتها: تريديني زوجًا؟ سأتزوجك يا عائشة، سأحقق لك ما تريدين.

قالت ورأسها على صدره: أرجوك كن صبورًا معي وطيبًا، أتمنى ألا تغضب مني، لم..

قال وهو يخلع عنها رداءها: لا أريد أن أسمع صوتك اليوم.

***

استجمعت كل شجاعتها حتى لا تصرخ ولا تتكلم، وعندما شعرت به بداخلها تأوهت في ألم فقال في صرامة: عندما تصارعين الأسد فلا تتألمي من افتراسه.

وسط حيرتها وخوفها كان هناك شوقٌ، وفي بعض اللحظات بدا فيها كريمًا يجود بحنانه، ثم يتراجع ويتذكر من تكون، همست بصدق وهو يقبِّل جسدها: أحبك.

فقال وهو يضمها حتى كادت تذوب بداخله: لا أريد أن أسمع هذه الكلمة مرة أخرى منك أبدًا.

ثم تركها عندما انتهى واعتدل في جلسته وحملها لتجلس أمامه ثم قال: عائشة.. ارتدي رداءك، لابد أن نتكلم.

ارتدت رداءها في خجل وطأطأت رأسها ثم انتظرت أن يتحدث هو..

نزع سكينه من الحائط وأمسك بها وقال وهو يصوب السكين على صدرها: من تكونين؟

قالت في تردد وخوف: زوجتك.. هل ستقتلني الآن؟

اتجهت بنظرها إلى دماء يراها، تمنت أن تشفع لها.

بلعت ريقها وهو يمر بالسكين التي تكاد تمزق رداءها وقال: أنت شجاعة، أتخشين الموت؟

حنت رأسها بالإيجاب ثم قالت: خاصة لو كان من سيقتلني هو زوجي، أنت زوجي.

رمى بالسكين ثم رفع ذقنها بأصبعه وقال: هذا أعرفه، وأعرف أنك تحاورين كالرجال، وأن يديك الناعمتين لم تعملا قط، وأنك اعتدت إعطاء الأوامر، وأنك لم تتركي بيت أبيك قط، الذي مات قبل مولدك، مسكينة أنت يا عائشة تحملين همَّ كل عائلتك، بينما الرجال تلهو وتسكر، يا ابنة أحمد.

فتحت عينيها في فزع ليس بعده فزع وقالت: أحمد مَن؟

قال وهو يمر بكفه على خدها في رقة: أحمد بن طولون، تعرفينه؟ كان يحكم تلك البلاد ولكنه مات وولَّى عصره وانتهت دولته. أنا سأتأكد بنفسي أنها انتهت حتى تتعلم بناته عدم العبث مع الأسود.

بلعت ريقها ولم تنطق.

فأكمل هو: تظنين أني تزوجتك وأنا لا أعرف شيئًا؟ تظنين أن خطتك اليائسة الساذجة مع سعيد الفرغاني كانت ستخدعني؟ أي عقل لديك؟ لقد قضيت شبابي مع الصعاليك وفي الخانات، أعرف الكذب وأتنفسه. تسمعين مني ثم تمكنين لي.. أحمد بن طولون تزوج ابنة الخياط أسماء المصرية، حتى يتقرب من الرعية، عرف أهل مصر وفرحوا، ونسوا الآلاف الماكثين في سجونه، ونسوا تحديه للخلافة واستهوانه بالخليفة واستغلاله بالدينار المصرية. تكلموا عن زواجه من الثَّيب المصرية التي طلقها بائع الصابون فتزوجها الأمير، قصة كما الأساطير، لم تكن تنجب أسماء أو هكذا ظنت حتى حملت بعد ثماني سنوات، وعندما أخبرت زوجها كان مريضًا مهمومًا بعد أن خذله ولده العباس. لأحمد ابن طولون ثلاثة وثلاثون ولدًا وبنتًا من زوجاته، آخرهم عائشة وُلدت بعد وفاته، لابد أنها في العشرين الآن، خافت الأم عليها من صراع الإخوة، فآثرت الاختفاء بين حجرات القصر وحيدة مع ابنتها تربيها ولا تطلب شيئًا. أتعرفين

عائشة؟ اسمها مثل اسمك؟ يعجبني فيك أنك لم تغيري اسمك، هذا ذكاء، حتى لا تختاري عندما أناديك. ابنة الأمير هنا في مخدعي، ياالحظي الرائع أم إنه حظي التعس؟ ما رأيك أنت؟

بقيت ساكنة فأكمل: لم تتوقعي مني أن أعرف؟ عرفت قبل الزواج لست من يخاف المغامرة ولا من يبتعد عن اللهو واللعب، لو أردت اللعب فلنلعب معًا إذن. سعيد الفرغاني يريد أن يحمي ما بناه، الجامع والعين والقصر. شاد العمارة يريد أن يتأكد من خلود اسمه، أما أنت.. ماذا تريدين يا عائشة؟

شعرت أن عالمها يدور حولها والسنين تتناثر وتتبعثر همست: أريد شهامتك وكرمك.

قال في صرامة: لا كرم عندي ولا شهامة، أنا أخبرك بما تريدين، تعرفين أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، تعرفين وتدركين أن محمد بن سليمان الكاتب عندما يدخل الديار المصرية سيكون لديه هدف واحد بل هدفان؛ الأول هو محو أثر أحمد من على الأرض، والثاني هو التخلص من نسله كل نسله، النساء والرجال، محو أثر أحمد هو الغاية. فماذا تفعل اليتيمة التي ترى ما لا يراه الآخرون وتفهم ما لم يفهموا؟ تبحث عن رجل يحميها، تتخفى داخل قبيلة، ومن الأفضل أن تحمل طفلًا من الرجل حتى لا يخبر ابن سليمان بمن تكون. فبالطبع سيغدق ابن سليمان بالعطايا لمن يخبره بمكان ابنة أحمد، والزوج لا أمان له، أما إذا كانت تحمل ابنه فربما يتردد في تسليمها لابن سليمان؟ ترى ماذا سيفعل ابن سليمان بآل طولون؟ هل سيسلمهم للخليفة أم سيقتلهم جميعًا؟ لا أحد يعرف بعد. أتريدين المزيد أم اكتفيت؟

- كيف..

- ربما يومًا أخبرك كيف عرفت ولكن ليس الآن، وعندما يصبح ولاء الزوج لك أنت وعائلتك ربما يحارب، وربما ينقذ الأطفال الذكور أيضًا ويبقى من نسل

طولـون من يطلب الملك بعد عام أو اثنين ومـن يلتف حوله الجنود؟ من تريدين أن تتقذي؟ ابن أخيك الصغير؛ أليس كذلك؟ أصغر أبناء خمارويه؟ هو ما تبقى؟ هو الأمل. إبراهيم.

أمسكت بقلبها، ثم قالت: أريد العدل.

قـال في صرامـة: لا عدل يأتي بالخديعة، ولا صدق يتبعه كـذب ومكر، أنت خراب على هذه القبيلة.

قالت في غضب: لو كنت تكرهني كل هذا الكره اتركني أرحل.

قـال في صرامة وهـو يمسـك بكفها: لا، كنـت تقولـين إن العهـد واجب، عاهدتك أن أحبك.. سأفعل. أعطيتني القلادة لأحبك. لك عندي الحماية فقط. ولكن لـو تدخلت في شيء، لو تكلمت مع أبي، لـو قلت كلمة عن أصلك لأحد سأتحلل من وعدي، وسأنتقم منك أشد انتقام.

- لو كنت تحتقرني كل هذا الاحتقار اتركني إذن.

شـدها إليه، فشـهقت، وحاولـت الابتعاد عنـه، ولكنه أزاح يدها وقال وهو يعتصر خصرها: لا، قلت إنك زوجتي، الزوجة تطيع زوجها في كل شيء. عندما أريدك تعطيني نفسـك برضا وحماس دومًا، هل تسمعين؟ سقطت في بئر لا قبل لك بها، ولن تنفعك محاولات الطفو على السطح.

قالت: أسمعك.

أحاط وجهها بيديه، ثم قال: أريدك الآن، ما يحدث بيننا لا يعرفه أحد.

قالت في غيظ: تريدني أن أنكر أنني زوجتك.

- أريدك ألا تتكلمي مع أحد قط.

قالت بلا تفكير: لا، لو كانت ابنة عمك تريدك فلا بد أن تتزوجها وهي تعرف أنني زوجتك وإلا لن تلمسني مرة أخرى. ماذا لو حملت؟ كيف ستخفي عنها هذا؟

ابتسم قائلًا: هذا لن أخفيه عنها يا عائشة، ولكن حقيقتك لابد ألا يعرفها أحد. أما إنك زوجتي فكلهم يعرفون.

- أقسمتُ لها ألا تلمس غيرها..

- كنت تعرفين وأغويتني..

- تزوجتني أنا ولم تتزوجها هي..

- قلت لك: إنك اعتدت إعطاء الأوامر، هي حبيبتي وليس أنت؛ حتى لو كنت أريدك الآن، أتفهمين هذا؟

قالت في كبرياء: أفهم، اتفاقنا هو أن تحميني لا أن تحبني.

- هو كذلك.

هذه المرة عندما أعطته نفسها كانت المرارة تطغى عليها والدموع تملأ البئر، ولا تتساقط.

***

لم يتكلم معها بعد ذلك أدار ظهره عنها وأغمض عينيه وبقيت هي مستيقظة تفكر فيما حدث وفي مصيرها وفي حب لابد أن تنحره قبل أن ينمو. كيف عرف؟

لاحت بذاكرتها إلى ماض حكته لها أمها يومًا وراء يوم، يوم موت الأب، جلست أمها بجانبه تمسك يده وتبكي، قالت في رجاء: لا تتركني يا مولاي، ماذا سأفعل بعدك؟ لكم فرحت بحملي! ولكم حزنت به اليوم! لم أتوقعه ولا انتظرته.

قال في صوت مجهد: جاء ليذكرك بي يا أسماء.

- وهل لي أن أنساك يا كل الروح؟

حكت الأم لابنتها.. قالت لعائشة إن والدها قال إنها ستذكرها به طوال الوقت. قالت لعائشة إنها قطعة من أحمد، تشبهه في قوتها وجمالها. قالت إنها أميرة وعليها حمل ثقيل. عند موت الأب كانت الأم حاملًا في شهرها الخامس؛ طلبت رؤية الأمير خمارويه الذي خلف زوجها في حكم مصر وسمح لها. كان في العشرين من عمره حينها، استقبلها بالترحاب وأخبرها أن والده أوصاه بها وبطفلها، فطلبت منه أن تنفرد بجناح في القصر تحيا فيه مع طفلها ولن تطلب الكثير وهي لا تعرف شيئًا عن الحكم، تريد أن تربي طفلها في سلام. وافق بلا تردد وأغدق عليها في العطايا. عندما أنجبت عائشة كان الصراع قد احتدم بين خمارويه والعباس، ولم تشفع نصائح الأب ولا كلماته. فالعباس لم يتقبل ولا يقبل إلا بحكم مصر وخلافة والده، ولم يوافق أن يولّى الشام، بل كان يريد أن يأخذ حكم مصر والشام. عندما طلب منه خمارويه أن يقسم أمام القضاة بولائه تردد وراوغ. نصحه المقربون بالتخلص من العباس، فلو كان العباس يريد التخلص من أبيه ولم تشفع له أبوة ولا دم فلن يتردد في محاربة أخيه أو اغتياله. اضطر إلى القبول، وتم قتل العباس في هدوء. وأنجبت أسماء ابنتها عائشة آخر أبناء أحمد، وارتجفت وهي تسمع الخبر، ووصل لها أنين خاتون وصمت مياس أم خمارويه وأسفها على مصير العباس. عندما زارت أسماء خاتون قالت لها خاتون في استسلام: هو قضاء أخف من قضاء، عشقي كان أحمد ولو قتل من أحب ابني كنت سأنشطر نصفين ولكنه لم يفعل.

فقررت أسماء أن تحمي ابنتها بعيدًا، ولا تخرج بها خارج الميدان قط. بلغت الابنة اثني عشر عامًا وهي تسمع عن صراعات خمارويه والخليفة العباسي في الشام، وكيف انتصر خمارويه؛ لأنه كان يسمع نصائح والده الذي كان يقول له دائمًا: لتوطد حكمك اهتم بجيشك أولًا، ادفع للجنود وزودهم بالسلاح

والرجال قبل أي شيء. مع أن أخاها خمارويه كان يعيش في ترف لم يخشه الأب، ولكنه كان محاربًا صادقًا يهتم بمصر وأهلها، كسب قلوب أهل الشام حتى إنهم أغلقوا أبوابهم أمام جنود الخليفة في دمشق عندما طلبوا المسكن والطعام. استمر صراعه مع الدولة العباسية ومع القواد الذين يحاولون الاستقلال بالمدن والبلاد عامًا وراء عام، وعندما انتصر على الخليفة العباسي قرر أن يصاهره حتى يضمن حكم الطولونيين لمصر والشام لأولاده وأحفاده، فزوجه من ابنته قطر الندى وكانت تكبر عائشة حينها بثلاثة أعوام، خافت البنت من رحلة طويلة ومصير مجهول، فطمأنها الأب وبعث معها كل ما تحتاج وبعث عمها يحرسها حتى تصل بغداد، وصرف على رحلتها كل كنوز مصر على ما يبدو. لا أحد يعرف لماذا؟ ربما لأنه يريد أن يوضح للخليفة مدى قوته، أو ربما يقدم قربانًا للخليفة ليؤكد ولاءه. عند ذهاب خمارويه لدمشق مات مسمومًا وهو لم يتعد الثانية والثلاثين، وخلفه ابنه أبو العساكر جيش، وكان أهوج سريع الغضب، لا يعرف الكثير عن الحكم. خافت أسماء من مصير مجهول لابنتها من ابن خمارويه، وما أخافها أكثر من أي شيء هو أن يقدمها الطفل قربانًا لأحد القادة، فتلقى مصير قطر الندى التي ماتت بعد أربعة أو خمسة أعوام من الاستقرار في بغداد، ولا أحد يعرف هل ماتت بالسم أم بداء ليس له علاج، خبأت عائشة حتى ينسى أهل القصر وجودها وحرمت عليها الزواج. وعند مقتل أبي العساكر جيش ثم تولية هارون وسيطرة الخليفة على الشام بدا أن دخول بني عباس مصر أصبح قاب قوسين أو أدنى، وانتشرت الأخبار أن من يقود جيش دخول مصر هو القائد محمد بن سليمان الكاتب. كانت أسماء تعرفه جيدًا، فلطالما جاء لزوجها أحمد بن طولون في أحلامه. قررت الفرار قبل أن تُذبح أو تذهب إلى بغداد أسيرة مع ابنتها. ولكن فرارها إلى الإسكندرية مع ابنتها يثير الشبهات ويجعل العثور عليها أمرًا سهلًا. لأول مرة تترك ابنتها وحدها، تركتها لأحد معلميها سعيد الفرغاني الذي كان له مكانة عند أحمد ثم خمارويه. عرف سعيد وتوقع ما سيحدث، وكانت خطة مع

عائشة، ولكنه لم يخبرها ماذا تفعل لو عرف العربي من تكون. لم يخبرها أحد ماذا تفعل الآن.

عند الصباح قام من جنبها وخرج بلا كلمة، فتنفست الصعداء وهي تفكر بسرعة في إمكانية إنقاذ نفسها والمدينة دون أن تقف أمام زوجها وقفة عدو. فكرت طوال اليوم، وجدت في كلامها مع الأب بعض الميل من جانبه نحو الحفاظ على العهد. ولكن لو استمالت الأب وحدثت وقيعة بينه وبين ابنه فسينتقم منها الابن إلا لو طلبت اللجوء للأب، ولكن بطلبها اللجوء تكون حربها مع زوجها قد أعلنت، وفي هذه الحال يستطيع أن يخبر الجميع عن حقيقتها، وسيتم تسليمها لمحمد بن سليمان منه أو من عنزة أو من أي رجل أو امرأة في القبيلة. هذه البئر لا خروج منها، خاصة أن هناك قلبًا تعلق برجل يكرهها ويحب أخرى. لو فقط عاش معها في سلام وحاولا معًا إنقاذ حكم أبيها! وماذا سيفعل رجال قبيلة أمام جيوش الخليفة؟ أي سذاجة وأي جنون أصابها. لا تريد هزيمة ابن سليمان، تريد فقط إنقاذ المدينة وآل طولون، بل إنقاذ المدينة وإبراهيم ابن أخيها خمارويه. ولد واحد من سلالة طولون يكفي لاستعادة المجد عندما يحين الوقت، ولو استطاعت هي أيضًا العيش سيصبح هناك اثنان من آل طولون في مصر، وهنا يمكن التفكير في المستقبل. استمالة الجنود أمر جائز دومًا، خاصة بعد رحيل ابن سليمان لو رحل. ستفكر طوال اليوم، وتدعو الله.

***

في الماضي حكت لها أمها ما كان، هي الصديق والأخت والأب والعون، حكت عن الأب وعن العباس وعن خمارويه وعن مياس وخاتون. تارة تحكي والدموع في عينيها فتبكي الطفلة، وتارة تحكي في فخر عن أحمد فتجري الطفلة بين النخيل المرصع بالذهب وتقول إنها ستجري حتى بغداد تسيطر على العالم وتحارب البيزنطيين، وإن والدها سيفتخر بها أكثر من فخره بكل رجاله.

فتضحك الأم وتحاول اللحاق بها. حكت عن الخوف والغدر والحزن الذي أصاب القصر بعد موت أحمد الحبيب والزوج، الأمير صاحب الحلم وصديق ملوك مصر القدماء. حكت عن الكنز والمسجد والقطائع.

حكت عن القطائع ولكنها منعت ابنتها من الخروج من القصر ولو لساعة. يومًا بكت وهي في العاشرة وقالت إن كل الأميرات رأين القطائع إلا هي، يومًا تمردت، واتهمت أمها أنها تسجنها بداخل القصر، فلم تجب الأم، نظرت إليها في وجوم، ثم ذهبت وتركتها حتى ندمت على الكلمات، وعادت تصالحها وتطلب العفو فأعطتها الأم رقعة وقالت: من يرى أحيانًا يضيق أفقه ولا ينطلق لسانه. من يرى بالعين يقيد القلب ويكبح صدقه، ارسمي في هذه الرقعة، ارسمي القطائع، وارسمي والدك وكل ما تريدين.

رسمت الأب طويلًا ذا همة وقوة، يفتح بابًا على الكون فيتجلى له كل شيء، يمسك بالشمس ويرمي بالقمر على المدينة ليوقظ النيام، رسمته يحملها على ظهره وسط حديقة القصر وهو يلاطف أسدًا من أسود خمارويه، وينظر إلى الأفق في تمنٍّ، ثم رسمته وهو يسير معها وسط الجنة التي لا تنتهي، لم تصل بعد لنهاية حدائق القصر. ترى ألها نهاية؟ والدتها قالت إنها يومًا حاولت أن تصل إلى نهاية الحدائق وعادت ليلًا وهي تلهث. امتزج النخيل بالذهب في رسمها؛ فخمارويه قد كسا جذوع النخل بالذهب والنحاس المرصع بالفضة، ثم شيد البحيرات الممتلئة بالزئبق التي تخدع العين، أطلقت عليها البحيرات المسحورة. وفي كل ركن من أركان الحديقة أقام خمارويه فراشًا من الحرير الخالص المرصع بالأحجار، يومًا نامت عليه دون أن تقصد وكان مخصصًا للأمير أبي الجيوش خمارويه، وعندما رآها خمارويه ابتسم، فقامت في خوف، قال في رفق: أختي المغامرة، ما الذي أتى بك إلى هنا يا صاحبة الرقعة والأقلام؟

أمسكت بقلبها وقالت: أتذكرني؟

- وهل أنسى أختي يا حمقاء؟ حتى لو خبأتك أمك خوفًا عليك أتذكَّرك. دومًا تسيرين بقلم ورقعة، ماذا ترسمين اليوم؟

وضعت الرقعة بين يديه ثم أخبرته بحماس بأنها ترسم والدها مع أسده.

نظر إلى الرقعة في تأمل ثم قال: أتريدين أن تصافحي الأسد اليوم؟

شهقت في خوف ممتزج بحماس، فأمسك بيدها الصغيرة وأخذها إلى مكان الأسد. ارتجفت فحملها وقال: لا تخافي، معك أخوك.. الأسد صديقي.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما وهي تطوق عنقه وتنظر إلى الأسد في حذر وهو يزأر في خشوع أمام الأمير، فقالت في حماس: أنت قوي مثل أبي وشجاع مثل أبي.

ثم قال وهو يشير إلى الأشجار: انظري إلى أشجار السفرجل.. أحضرتها من الشام خصيصى إلى مصر؛ لأن أبي كان يحبها.

بدا حزينًا بعض الشيء، كانت في العاشرة حينها، ولم تفهم سبب حزنه.

قال وكأنه يتكلم مع نفسه: البقاء على الديار المصرية أهم من البقاء على أي شيء. هكذا قال أبي.

قالت وهي لم تزل تخاف الأسد: نعم يا مولاي.

ابتعد بها عن الأسد ثم أنزلها وقال: أنت صديقة قطر الندى.

- بالطبع.

- ستتزوج الخليفة.

فتحت فمها في فزع ثم قالت: هنا في مصر.

- يا عائشة، الخليفة ليس في مصر، هي قرة عيني أعطيها له وأنا قوي بعد أن انتصرت عليه حتى يبقى حكم البلاد لآل طولون. ليبقى حكم البلاد لأولاد أحمد فلا بد من التضحية، يومًا ستضحين أنت أيضًا وأنا.. لا تظني أن حياتنا

رخاء وجنة، هي تخلٌ وعذاب، ولكنها قرة عيني كما قلت لك، فلابد أن أحميها وأبذل ما بوسعي لأجعل رحلتها لبغداد كلها راحة حتى لو بنيت لها قصرًا في كل مدينة تتوقف فيها.

قالت في حزن: هل ستزورها هناك؟

- ربما.. وربما لا. سأبعث معها أخي وأختي، لا تقلقي عليها، ولكن يوم أن يأتي دورك يا عائشة لابد أن تعرفي أنك من آل طولون، وأنك ولدت بهدف وجهاد مثلي ومثل والدك وأمك وكل من حولنا. هذا الملك يمتد من برقة إلى الفرات، ومن آسيا الصغرى إلى بلاد النوبة.

حنت رأسها بالإيجاب في حماس وعادت إلى البيت مهمومة.

***

بعد أعوام ارتجفت أسماء وهي تتوقع طلب أبي العساكر جيش ابن خمارويه بعد أن آل إليه حكم مصر. ولا تعرف هل تخاف طلبه لأنها لا تعرف القائد الذي يريد أن يزوجه لعائشة أم لأنها لا تريد أن تتخلى عن عائشة، أهي أنانيتها التي تتحكم فيها، أم خوفها على ابنتها من مصير قطر الندى بأن تموت مسمومة في بيت الزوج بعد خمسة أعوام من الزواج وهي حامل؟ تفضل أن تبقى عائشة بلا زواج.

استمعت لطلب أبي العساكر جيش وهو لم يتعد السابعة عشرة، هو يكبر ابنتها بعدة أعوام لا أكثر، انحنت وقبّلت يده ثم قالت: كلام الأمير أمر لنا. ولكن اسمح لي بقول شيء واحد ربما لا تعرفه عن عائشة مع أنك العالم ببواطن الأمور.

نظر إليها في غضب فقالت وهي تنظر حولها: بها بعض الجنون. مولاي الأمير خمارويه كان يعرف. عقلها متعب وبطيء؛ لذا لا أخرجها من القصر خيفة أن يراها الناس فيتكلموا عنا بسوء.

نظر إليها في ذهول وهو لا يصدق كلماتها، فأخرجت بعض رسومات عائشة وقالت: انظر يا مولاي، هذه رسومات رسمتها على رقعة، ترسم الأمير أحمد وهو يمسك بالشمس ويلقي بالقمر على المدينة.

شهق أبو العساكر جيش حينها ثم أتى بعائشة، وكانت أمها قد تكلمت معها قبلها ولقنتها الكلمات. سألها لمَ رسمت الأمير هكذا؟! قالت ولم تكذب: إنها تراه يفعل هذا. تأكد من ضعف عقلها وخاف من غضب القائد لو تزوجها، فقرر أن ينفذ كلام الأم ويبقيها بعيدًا عن الأنظار.

تنهدت الأم في ارتياح، كانت هذه فكرة ميسون، تعرفت على ميسون عندما بدأ سعيد يعلّم ابنتها القبطية كما أوصى أحمد بن طولون، حكى لها سعيد قصة ميسون وزواجها من أنس ابن شيخ الصيادين، حكى لها صراع أنس مع ابن المدبر. تمنت التعرف إليها، وأصبحت ميسون تزورها في القصر كل عام. أخبرتها ميسون يومًا عن بعض الجنون الذي انتابها، وعن ظل صادقته اليوم ولم تعد تخشاه. ونصحتها أن الجنون أحيانًا ينقذ من مصير أبشع من القتل. لم تزل ميسون تحكي عن جمالها وتشكو من زوجة الابن وتغير الزمن. ولكن صداقتها مع أسماء كانت النجاة، وعندما أعطت ميسون قلادتها لسعيد كانت تفعل هذا؛ لأنها تعرف أن أنس أحب القطائع، وشهد على كل حجر فيها وكل شارع.

***

اليوم داهمتها الذكريات، وافترشتها بيتًا، واليوم افترستها الوحدة فوجدت قدميها تسيران بها إلى جناح خالصة، وخالصة ترفض أن تفتح لها الباب، فتصر على الدخول وترجوها بلا تردد وكأنها تعرفها منذ زمن، كأن خالصة من دمها وعائلتها. تفتح لها خالصة في ذهول، فتدخل وتجلس وتشكي لها من جفاء الزوج والوحدة القاتلة والحيرة والبراءة والحب. وخالصة تستمع في ذهول وفزع، ولا

تعرف كيف اخترقت الغربة حصونًا شيدتها ثلاثين عامًا. اخترقتها الغربة بسلاسة وبلا استئذان.

الغربة لا علاقة لها بالمكان، بل بالحبِّ والندم. والوحدة تتغلل في ثنايا الأضلع لحظات الحيرة والوهن.

***

عرفت عزة ما حدث من عاتكة زوجة والد عبد الرحمن، صديقتها وأكبر كارهة لعبد الرحمن في بيت الشيخ، قالت إن عبد الرحمن قضى ليلته مع زوجته، واستفاضت في الوصف، وعينا عزة زائغتان والكلمات مختنقة، عندما انتهت قالت لعزة في حسم: قلت لك: لا أمل فيه.

فقالت عزة: معك حق.

ثم هرولت لبيتها وبكت وحكت لأختها... استمعت الأخت ثم قالت: وماذا تنوين؟ هل ستواجهينه؟

قالت عزة: بالطبع أواجهه هو كاذب وخائن.

- يا حمقاء! لو واجهته فلن ينكر بل سيتجه إلى أحضانها بقية عمره. تجاهلي ما حدث طالما لم يخبرك وعجلي بزواجك منه. هو يحبك أنت وليس هي، عندما تتزوجينه سينساها، أما إذا واجهته فستخسرينه. ثم ألم أقل لك إن للنساء ألاعيب ومكرًا وكيدًا لا تعرفينها، هي غريبة، ولا ندري من أين جاءت، ولا ماذا كانت تفعل قبل أن تأتي إلى هنا.

اعترضت عزة بعض الوقت ثم اقتنعت بكلام أختها. فلم تنبس بكلمة، وعندما قابلها اليوم كانت واجمة، وعندما سألها ما بها لم تتكلم، سألته فقط عن موعد الزواج فقال إنه سيتفق على الموعد مع والدها اليوم أو غدًا.

أقسمت على أن تطرد عائشة بنفسها يوم زواجها من عبد الرحمن بعد أن تذلها وتجرها من أطرافها أمام كل القبيلة.

تكلم عبد الرحمن مع عمه في حذر، فهو يعرف أطماع عمه والحقد الكامن بينهما منذ زمن. أعلن الأب أن عبد الرحمن سيصبح شيخ القبيلة، غضب العم ربيعة وفكر في الثورة ولم يجرؤ، وعندما خطب عبد الرحمن ابنته فكر في أن النسب ربما يجعل موقفه أقوى، وربما يجعل موقفه أضعف، لم يتأكد بعد. أما بعد زواج عبد الرحمن فقد اتضح كل شيء. قال العم إنه لم يتوقع زواج عبد الرحمن بعد أن يخطب ابنته، وإنه لن يزوج ابنته لمن يتزوج عليها حتى قبل أن يدخل بها، وقال: إن شرطه هو أن يطلق عبد الرحمن زوجته أولًا ثم يتزوج من عزة. بدا أنَّ هناك تحديًا واضحًا من العم، وإعلان حرب على عبد الرحمن. ذكَّره عبد الرحمن بأنه متزوج من أربع ولم يلمه أحد، فقال إن تجرؤ الصغير على مقارنة نفسه بالكبير بداية النهاية. التقت الأعين والسيوف خامدة تنتظر الأمر وتتأهب، تركه عبد الرحمن بلا سلام.

***

قضى عبد الرحمن يومه في إقناع رجال القبيلة بما ينوي وتدريبهم على السيف والرمح، خطب فيهم بكلمات عن التاريخ والمجد وما كان وما ضاع، قال: إن قبيلة بني سالم لابد أن تعود لعهدها القديم، وإن رجال القبيلة مكانهم الجيش، وإن الأتراك والروم هم سبب ضعف بني عباس، ولكن الخليفة عندما يعرف قدرتهم وقوتهم سيعلم أن الجندي العربي هو أهم جندي. ذكَّرهم بزمن ليس ببعيد عندما كان الخليفة الأموي يغدق بالعطايا على كل عربي في مصر وكان ديوان الجيش حكرًا عليهم، ذكرهم بأن عهدهم كان مع أحمد بن طولون ومن بعده خمارويه، وبموت خمارويه مات العهد، وأن الغلبة دومًا للأقوى. تكلم عن الغنائم والذهب وقال ممنيًا نفسه بالأمل: هذه بداية.. بل بداية نصرنا وعزتنا.

ذكرهم بتاريخ آل طولون وقال في قوة: أحمد احترم العهد وفهم أهمية العرب، وابنه خمارويه صار على حذوه فجنَّد المصريين والعرب، ولكن الزمن غير الزمن. منذ قدوم أبي العساكر جيش بن خمارويه والبلاد تنحدر إلى الظلام. أبو العساكر جيش كان طفلًا في الرابعة عشرة سيطرت عليه حاشيته وقواده، وولاء هؤلاء ليس لبلد ولا قبيلة، بل للكنوز والقوة. عندما يكون ولاء رجال الحاكم لأنفسهم وقوتهم تنهار الدول، وعندما تستقل الشام عن مصر نعرف أنها النهاية. في عهد أبي العساكر جيش استقل والي الشام طغج بن جف بالشام، فماذا فعل أبو العساكر جيش؟ لم يقو على شيء. شتان بين الجد والحفيد، عندما كان يثور والٍ كان أحمد بن طولون يذهب لمحاربته بنفسه، كان جنديًّا، أما أبو العساكر جيش ففتى يلهو. بعد مقتله ظننا أن الأمر سيتحسن وسيأخذ الحكم أحد أبناء أحمد، ولكن بطانة السوء فضلت أخا أبي العساكر جيش الطفل الثاني هارون بن خمارويه، وكان أسوأ من أخيه، انغمس في الملذات، وأصبحت أمور الديار المصرية في يد أبي جعفر بن عليّ، وكم نكل بالعرب وبالمصريين حتى بعساكر الجيش! ما يخيف ابن عليّ هو جنود أحمد بن طولون، من تدربوا على الولاء للديار المصرية وليس للملك ولا وزير؛ لذا نكل بهم ابن عليّ، ثم نكل بهم بدر الحمامي عندما تولى أمور الشام، وعادت مصر والشام منبع كنز للقواد لا أكثر. لا عناية بأهلها، ولا اهتمام بأمور الدين، بل أصبحت سيطرة الطولونيين على الشام سيطرة صورية، وانطلق بدر الحمامي يعبث بأهل الشام وينكل بهم حتى لجئوا للخليفة العباسي بأنفسهم. لا.. لا عهد لنا مع الطولونيين. من لا يحمي داره لا قيمة له. عندما ظهر القرامطة في الشام واجتاحوها لم يحمها الطولونيون، بل حماها الخليفة بل من حماها هو ابن سليمان القائد القوي الذي أصبح ولاؤه للخلافة، وليس لسلطان طفل يلهو بالبلاد. مع من ستقف؟ مع من حرر الشام من القرامطة أم من فشل في حماية نفسه وبلاده؟ مع من ستحارب؟ مع من نكَّل بالجنود الشجعان وأبقى حوله

الخونة وأصحاب المصالح المفسدين في الأرض أم مع من فضّل مصلحة الخليفة وتوحيد الأمة؟

قال صالح في صوت خفيض: يا أخي.. عندما ثار المصريون والعرب وقت المأمون نكل بهم وأخذ ثرواتهم بالقوة والقسوة. من يضمن لنا أن هذا لن يتكرر في عهد الخليفة اليوم؟ العباسيون ينظرون لمصر كولاية، وآل طولون يتخذونها مسكنًا ووطنًا.

قال عبد الرحمن: عندك حق، المأمون انتقم من أهل مصر والعرب عندما ثاروا عليه. هذا حدث.. لكنه أيضًا عزل الوالي العباسي الظالم واستمع لمطالب المصريين في النهاية. عندما تسقط الشام تسقط مصر، والشام اليوم في يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفي، أخذها بعد أن فشل الطولونيون في هزيمة القرامطة في الشام. محمد بن سليمان في طريقه إلى مصر، وقبله دخل أسطول الخليفة الثغور والموانئ؛ لذا فهزيمة الطولونيين مؤكدة.

قال صالح: لم تر مصر الرخاء سوى على يد أحمد. كأنه يعرف الديار المصرية كما يعرف النهر العروس فيفيض ويعطي. أخرج من مصر الكنوز التي لم يرها المصريون، من بنى المصانع ومن بنى المساجد؟ من بنى البيمارستان؟ من نشر العقاقير النادرة بين أبناء الشعب بعد أن كانت حكرًا على الأغنياء؟ ومن اعتنى بالمسيحي والمسلم واليهودي؟ من أشفق على أهلها؟..

قاطعه عبد الرحمن: قلت لك: أحمد مات منذ عشرين عامًا. وخلال عشرين عامًا انطفأ ضوء قنديله فلم يعد له وجود.

قال صالح: ولكن القطائع هي أحمد، وجوده في مدينته، في كل ما في المدينة من رخاء وفرح ومصانع ومساجد ومحال وقصور وبيوت.

قال عبد الرحمن في عدم صبر: عندما يتكلم ابن شيخ القبيلة يستمع الجميع ولا يقاطعه أحد، ابن سليمان قادم إلى مصر الآن عن طريق فلسطين بعشرة آلاف

مقاتل، دخل دمشق دون مقاومة وقد جهز له جنود الخليفة الطريق للقطاط والقطائع ومنعوا المدد، فأحرقوا الجسر الشرقي الذي يصل القطائع بالروضة، وأحرقوا الجسر الغربي الذي يصل القطائع بالجيزة. وسوف تستسلم المدينة عند دخوله، ولو لم تعلن الولاء له فلا مكان لنا في مصر. انقسم الجيش الطولوني؛ بعضهم ولاؤه للقوة والمال، وبعضهم ولاؤه للديار المصرية، وعند انقسام الجيوش تزول الديار.

صمت الرجال.. فقال في قوة: عند وصول ابن سليمان نذهب لمقابلته والتفاوض معه على مصلحة القبيلة قبل كل شيء.

صاح الرجال مهللين لعبد الرحمن، ولأول مرة يصبح هو الشيخ.. والعالم.

ضمن ولاء كل الرجال ما عدا ثلاثة: عمه، الذي ترك كل أولاده القبيلة واستقروا في الدلتا والصعيد، ووالده الذي لم يزل مترددًا، وشابًا آخر من فرع فقير ضعيف، صالح، الذي أصر في هدوء على أن العهد قائم ونقضه حرام. التفت إليه عبد الرحمن ثم قال: صالح، تعجبني شجاعتك، ولكن قرار الحرب والسلام بيد شيخ القبيلة وابن شيخ القبيلة، تطيع الأوامر بلا نقاش.. هل تسمعني؟

بقي صالح صامتًا ثم قال: أسمعك.

***

قضت عائشة معظم يومها تفكر، ازدادت حيرتها وضاق الخندق عليها. ما أحبطها هو أن حبها للزوج بدا حقيقيًا بداخلها، فكلما اقترب تفتحت الأزهار وتجلى النهار، كانت تنتظره، وعندما تراه تلمع عيناها وتزدهر جبهتها ويلهث القلب وكأنه وجد غايته. كيف لها أن تنكر هذا الحب؟ وماذا تتوقع لو استمر الزوج يحارب والدها؟ والدها.. هو عشقها الأول والأخير، لم تره ولكنها رسمته على رقعة وهي في العاشرة، واحتفظت بها لتدفئ القلب وتعطي الأمان للروح. قالت أمها: إن والدها يشبه رسمها بالضبط، هو بعينين سوداوين قويتين، ووجه

مستدير، وأنف شامخ. لم يرتدِ تاجًا في حياته، ولم يطلق على نفسه ملكًا قط، ولكنها رسمته بتاج وأطلقت عليه ملكًا. كم حكت لها أمها عن البنت الفقيرة المصرية التي تزوجها الملك فأصبحت ملكة، وعن عطف الأب على المحرومين، وعن حبه لأهل مصر، والبيمارستان الذي جعله حكرًا على المصريين فقط! كم حكت لها عن القطائع؛ تلك المدينة التي تشبه الأساطير في روعتها، يسكن فيها المسيحي مع المسلم، واليهودي مع المجوسي، وتمتزج بها كل الألوان في تلقائية وسلام؛ الأسود والأصفر والأبيض والأحمر! لم يُبنَ مثلها في هذا العالم، ولن يُبنى مثلها.. القطائع هي والدها.. وهل يمكن لشخص أن يصبح مدينة؟ سألت أمها في دهشة.

فقالت الأم في حماس: والدك يا عائشة هو مدينته، مات وبقيت لتُذكِّر الكون بمن يكون.. أحمد.. الذي جمع الرجال من كل العالم في جيشه فعاشروا في سلام، واحترم الأسود والأبيض، وصادق الراهب والشيخ. أحمد.. هو القطائع. لو زالت القطائع زال أحمد. أتفهمين؟ وماذا يتبقى لنا يا ابنتي سوى عمل صالح؟ وأي عمل أفضل من إعمار الأرض؟ مسجد أحمد، وعين أحمد التي أوصل بها الماء لكل العطّاش، وبيمارستان أحمد، ومصانع أحمد، وبيوت أحمد تشهد على عظمته حتى نهاية الكون. أنت منه هدية أعطاها لي الله عندما عاد أحمد إليه. لو هدم أحمد بناية من بنايات والدك محا أثره وأثرك.

ضغطت على جفنها واستجمعت كل شجاعتها، وقررت أن تجد الفرصة لتنفرد بخويها اليوم. طبخت له عصيدة تعلمت طريقتها من والدها، ثم طلبت من زوجته أن تقابله وابتسمت لها في براءة.. ترددت الزوجة، ولكنها سمحت لها. قبّلت يده، ومدحته أولًا، ثم أعطته العصيدة. وجلست بجانبه تشكر القدر الذي جعلها تلتقي به وتتعرف إلى ابن الأكرمين، ثم شكرت في زوجها وأخلاقه وكرمه وقالت: يا عمي، لكم بكيت أمس!

- لمَ بكيت يا ابنتي؟

- من عظمتك وكرمك. كلما ذكرت عهدك مع أحمد بن طولون ورغبتك في الوفاء بالعهد حتى بعد عشرين عامًا من موت أحمد أبكي. أيوجد رجل في هذا العصر بهذا الكرم؟

قال في تأمل: ولكن عبد الرحمن على حق.. لو لم نتحد مع ابن سليمان فسيُقضى علينا. تكلم اليوم مع الرجال وحاول إقناعهم.

قالت وقلبها يكاد يتوقف: إقناعهم بماذا؟

- بالتحالف مع ابن سليمان.

ثم نظر إليها في دهشة وقال: ما دخلك أنت بشئون الدول؟

كادت تنفجر أمامه من الغيظ. صمتت ثم قالت وهي تسيطر على نفسها: كنت فقط أظهر إعجابي لعمي وأستأذنك في الذهاب لحجرتي.

ضربت بقبضة يدها على الحائط وقد اتضح بداخلها الهدف. ليس للحب مكان في صراعات البقاء. ولو كان عليها أن تختار بين زوجها وأبيها فالدم الذي يسري في عروقها يشهد بمن ستختار.

***

عاد الزوج بعد يوم طويل. دخل عليها وخلع عباءته. نظرت إليه في حنق ولم تنطق. جلس أمامها والتقت أعينهما ثم قال وهو يقترب منها: عائشة..

- نعم.

داعب خدها بكفه ثم قال: تعجبينني؛ جميلة وذكية، والخبث بداخلك لا حدود له، وأميرة أيضًا. اليوم أريد أن أحبك فقط وننسى الصراعات والحروب. ما رأيك؟

بقيت صامتة تحاول السيطرة على الغضب، ولا تعرف هل تواجهه الآن بحديثه معها أمس أم تنتظر. لم تتأكد من غايته، ماذا ينوي اليوم؟

قال وهو يقترب منها ويضع رأسها على كتفه: تعرفين، الدنيا قصيرة فلابد من الاستمتاع بها. أنت غاضبة مني وأنا غاضب منك. بيننا أسوار عالية ولكني أريدك وتروقين لي، ومن يدري؟ ربما أروق لك أيضًا. هل أروق لك يا عائشة؟

بقيت صامتة تطبق شفتيها حتى لا تنفجر.

قال فجأة: ربما لو التحمت الأجساد تقترب النفوس، من يدري؟ ربما تنجحين في إقناعي يومًا بما تريدين.

ابتعدت عنه ونظرت إليه وكأنها لا تصدقه فقال في تأكيد: أعدك أني سأستمع إليك اليوم أو غدًا. ما رأيك؟

لم يترك لها فرصة الإجابة.

قال في رقة: هل مازلت غاضبة مني؟ أعلم أني لم أكن رقيقًا معك أمس ولم أراع أنها أول مرة بالنسبة لك.

نظرت إليه في دهشة، لا تدري كيف قرأ أفكارها.. لم تنطق. أكمل وهو يقبلها ويده تدور حول كل كيانها: لا تخافي من العشق، أمس ربما كنت غاضبًا من نفسي؛ لأني لم أستطع مقاومة سحرك، ولكنك لأنك أغويتني.

قالت في خجل: لا سحر لي ولا أتقن الغواية.

ابتسم وفمه يقترب من فمها وهمس: بل أنت أميرة وساحرة في آن واحد.

بدت خائفة ومترددة فقال في حسم: آلمتك أمس.. أعرف. لابد من بعض الألم. اليوم أعدك أن هذا لن يحدث. هل تثقين بي؟

قالت بلا تفكير: لا أثق بك.

همس في أذنها وهو يمر بيده على شعرها: لابد للزوجة أن تثق في زوجها دومًا. أعرف ما يدور بخلدك وأعدك لا ألم اليوم، ولو طلبت مني أن أتوقف فسأتوقف. أتريدينني أن أتوقف؟

قالها وهو ينثر القبلات على أذنيها، ضغطت على جفنيها ولم تنطق، حك ذقنه في رقبتها وهمس: هل آلمتك الآن؟

قالت في صوت مبحوح: لا.

قال وهو يقبلها: احكي لي اليوم، لم اختارني سعيد؟ أم اخترتني أنت يا أميرة؟

ترددت وتلعثمت ولم تجب.

ابتسم، وقبلاته تنتشر حولها ثم قال: لا خجل بيننا، ألم أقل لك؟! اليوم ستشعرين أنك غائصة داخل حدائق أخيك خارويه، بين الأشجار والزهور النادرة...

أخفت رأسها في صدره ثم همست: هل نستطيع أن نقضي طوال اليوم هكذا؟

قال في رقة: هكذا كيف؟

قالت في خجل: أعني وأنا بين ذراعيك فقط، لا نفعل أي شيء آخر. ولا..

- أتعنين أنك تريدينني أن أقبلك فقط؟

هزت رأسها بالإيجاب في حماس ثم قالت: لا ألم في القبلات.

ابتسم، فذابت كل أسوار القصر، ومضى على النهر النخيل والسفرجل.

ثم قال: يا أميرة.. لو وثقت بي نحلق في السماء كالنجوم.. ونترك الحديقة والأشجار.

- أثق بك، ولكن..

- لم تجيبي بعد.. هل رأيتني قبل زواجنا؟.. أتمنى، فقط أتمنى أن تكون الأميرة قد اختارتني أنا.. من بين كل الرجال.

اليوم كان مختلفًا، وكأنه تخلص من كل الحقد عندما خلع عباءته. كان رقيقًا حنونًا ينطق بكلمات الحب ربما، ويهدهدها ويدللها ويقبلها في تأنٍّ وإتقان حتى كادت تفقد عقلها، وعاد حبها له إلى السطح يغمر كل الخوف والخلر. عندما

انتهى اليوم وحاولت أن تبتعد شدها إليه حتى استقر رأسها على صدره ثم قبل شعرها وهمس: أنت جميلة. هل تعرفين هذا؟ رقيقة رقة الأميرات، ولديك شوق كشوق المغامر للصحراء.

قالت في تلقائية وهي تحيط صدره بيديها: أريد أن أبقى معك طوال عمري.

ابتسم وبدأ يداعب خصلات شعرها ولم ينطق. كانت أجمل ليلة مرت على عمرها، اليوم كانت أميرة بل ملكة، أرادت أن ترسم صورتها وهي ترتدي تاجًا مرصعًا بالذهب والفضة والياقوت والمرجان. أغمضت عينيها وتمنت ألا تنام حتى لا يأتي الصباح وتتلاشى الكلمات وينسى ما قال وما فعل. خافت فجأة أن يكون كل ما حدث حلمًا أو عبثًا، ولكنها استمعت إلى أنفاسه، وتأكدت أنه معها بين ذراعيها. ابتسمت وقبلت صدره وهمست: زوجي.

قال وهو مغمض العينين: الأميرة.

بدأت ترسم من جديد في خيالها، في الغد ستضع كل أفكارها على رقعة، سترسم وجهه الجميل وحاجبيه الأسودين السميكين وعينيه الحادتين وشفتيه، ما أجمل شفتيه على شفتيها! سترسم فارسًا يحمل الملكة على فرسه ويجري بها بعيدًا عن الحروب والمؤامرات. كانت هي فقط أميرته لا يشاركها فيه أحد. يدور حولها ويسقيها من ماء عذب في جدول صغير ثم يأخذها على فرسه ويجري بها في صحراء بيضاء لم يمسسها سوء. كم هو جميل العشق ليس بعده جمال! ليت أمها هنا لتخبرها عن حبها وعن لحظة ما عانقها في قوة وأعطاها أكثر مما تستحق!

بدأت تتقلب في مخدعها وهي تتصور الصورة، فأمسك بها وحملها حتى استقرت فوقه شهقت في فزع، فقال: لا أمل لي في النوم إلا لو حبستك هكذا.

ابتسمت وقبلت وجنته فزحزحها بعض الشيء، ولكنها لم تزل تكاد تنام بداخله، وقال في صرامة: لا تتحركي.

- هل يمكن أن أتنفس ربما..

- أنفاس قليلة

في الصباح شعرت به يتحرك في بطء، ويرتدي ملابسه ثم يقبل جبهتها ويرحل. لم تجرؤ على أن تفتح عينيها ساعات بعد ذلك. لم تزل تخط في خيالها رسومًا تفصيلية للفارس الذي سينقذها ويحميها من كل سوء.

***

في منتصف النهار جاء فجأة، وطلب منها أن ترتدي رداءها وخمارها، ثم أمسك بيدها وخرج معها إلى الصحراء. قال في حماس إنه يريد أن يقدمها إلى كل خيوله، لكل فرس اسم وصفة. لم تصدق نفسها من الفرح.. عيناها تنظران إليه من حين إلى حين وهو يشرح لها في حماس عن أصل الفرس وسرعته وصفاته.

حكى لها كيف تعلم السيف والرمح ورمي السهام. منذ الصغر وهو يتعلم من جده ثم عمه الذي رحل إلى بهنسا. لطالما حكى له عمه عن مجد قديم وعمل عمه في شرطة أحمد بن طولون أعوامًا ثم قرر الرحيل إلى بهنسا والعمل بالفلاحة مع أولاده وزوجاته. أما هو فيحلم منذ الصغر بأن يكون أفضل رامٍ للسهام في كل الديار المصرية، يقضي أوقاته في التدريب، فيومًا ما سينضم للجيش مثل أجداده وعندما يحين اليوم لابد أن يكون على استعداد. أخرج لها القوس والسهم ورمى سهمه فاستقر بين فرسين ملتصقين دون أن يجرحهما، قال إن الرامي هو مفتاح المعارك كلها. فمع أنه تدرب على السيف إلا أن رمي السهام يعطيه إحساسًا بالقدرة لا يضاهيه إحساس، فعند رمي السهم في الهواء يصوب عينيه على الهدف فيملك كل الصحراء، يصبح هو الريح والمطر والكواكب مجتمعة. استمعت إليه في حب، كل ما يقول يدخل القلب مباشرة، لا تدري أهذا لأن القلب مفتوح له هو بالذات أم لأنه بارع في الحكي.

ثم مد يده وقال: لو وثقت بي فستطيرين معي في الهواء حتى تظني أنك يمامة حائمة، ولكن لابد أن تغمضي عينيك، وتثقي بي حتى لو شعرت بأنك ستسقطين من أعلى الجبل وحتى لو علت صرخاتك وأنت على وشك الاصطدام بريح لا قبل لك بها. هل تستطيعين يا أميرة؟ هل لديك الشجاعة لتفعلي هذا؟

قالت بلا تفكير وهي تمسك بيده: لدي الشجاعة.

طار بها بفرسه وهي تصرخ من خوف، وترجوه تارة، وتصرخ من الحماس، وتثني عليه تارة أخرى. سمعت صوته وهو يحيطها بذراعيه ويقول: هل أنت مستعدة لأكبر مغامرة في عمرك..

قبل أن تجيب دفع بها معه من على الفرس فسقطت وسط جبل من الرمال البيضاء. واستمر الفرس في الجري. كادت أنفاسها تتوقف، صرخت رعبا، ثم فتحت عينيها وكأنها رحلت إلى السماء. قال وهي لم تزل فوق جسده: أما زلت على قيد الحياة.

قالت وهي ترتعد: لمَ فعلت هذا؟

ضحك قائلًا: مازلت على قيد الحياة.

دفعت به في غضب ممتزج بجسارة جديدة عليها، ثم قالت: هذه مغامرة غير محسوبة.

قال وهو يقبل يدها: وهكذا هي المغامرة دومًا يا أميرة، اليوم ستفتخرين بأنك وقعت من الفرس ولم تصابي بمكروه، المهم متى تقعين وأين. هل تفهمين؟

ضحك من جديد، كم تعشق ضحكاته ثم قال: هل تعرفين كيف تذهبين إلى البيت وحدك؟

قالت وهي ليست متأكدة أنها تستطيع الوقوف على قدميها: لا أعرف.

رفعها ثم أمسك يدها وسار بجانبها ثم قال وهو ينظر إليها: أتعرفين.. عندما تغنين بي تتحقق كل أحلامك. هل خذلتك اليوم؟

قالت وعيناها تحتضنان وجهه: أنت لا تخذلني قط. ولكنك أوقعتني.

- ولم يمسسك سوء!

***

ابتسمت لنفسها وهي ترسم وجهه، لا تدري كيف غاص الهدف في الأعماق، ونسيت الذهب والمدينة لبعض الوقت، وتذكرت فقط حنانه الطاغي وأحضانه القوية وكلماته الساحرة. بدأت حياتها للتو.

يا ليت قطر الندى حية كانت ستحكي لها، وتكتب إليها رسالة طويلة، ستكتب إن بيت الشيخ أقل من الأكواخ التي تحيط بالقصر، ويقطنها عبيد ينظفون الحديقة، يبدو أن أهل مصر لا يعيشون في قصور مثل قصرها، لا مثيل لقصر الميدان الذي بناه والدها، ووالدها هو أعظم رجل في كل الكون، ستخبر قطر الندى أنها لا تحيا في قصر الخليفة الذي رأته قطر الندى قصرًا متواضعًا لا ذهب حوله ولا زينة، بل في بيت في الصحراء ومع زوجها ترى الحائط العالي المصنوع من الجص والخطوط الجميلة، ولا ترى الأسقف القصيرة التي تكاد تختنق بالمقارنة بسقف قصرها، لا ترى سواه. عندما تنظر إلى عينيه يتسع البيت وتمتد الأسقف وتفتح كل الأبواب. وهو معها تنطلق المياه من كل الفوارات، وتجري الأسود في الحديقة، وتتزين الأرائك بمياه سحرية مثل الزئبق يتغير لونها من ذهبي إلى فضي، ومن فضي إلى أحمر صارخ، ومن أحمر إلى أزرق وأخضر. عندما يضمها تجري في حديقة القصر بين الأزهار النادرة والنخيل الشاهق ولا تشقى ولا تتعب. كانت ستحكي الكثير لقطر الندى.. تفتقدها، وربما تشفق عليها أيضًا.

عندما انتهت من رسمه أرادت أن تشارك أحدًا فرحتها، فالفرح كالحزن يستحق المشاركة، جرت تبحث عن خالصة، كانت جالسة القرفصاء كعادتها تغزل في بطء. انحنت بجانبها وقالت: خالتي، انظري ماذا رسمت؟

نظرت إلى الصورة في إمعان وكأنها تتذكر من تكون عائشة ثم قالت: هذا عبد الرحمن.

فقالت عائشة في حماس: نعم زوجي.

قالت في سخرية: ماذا فعل حتى يستحق أن تتلفي هذه الرقعة من أجله؟

قالت عائشة في خجل: اعذريني أتيت بالرقعة والقلم معي لا أستطيع أن أعيش دون أن أرسم.

- لا يمكن أن تنهي كل المشاكل بالذهب يا ابنتي.

نظرت إليها في ذهول، فقالت في ثقة: خالصة تعرف كل شيء دومًا. من تكونين؟ لابد أنك بنت أصل، هيئتك ومشيتك وطريقتك وكلامك.. أيعجبك عبد الرحمن؟

قالت في خجل: هو زوجي.

- زوجك أنت فقط؟

قالت عائشة وهي تشعر بغصة: الآن هو زوجي أنا فقط.

- حتى يحين زواجه من عزة ثم يصبح زوجها هي أيضًا، أو زوجها هي فقط من يدري. ماذا فعل؟ أعطاك من حنانه؟ أخبرك كم يريدك؟

لم تجب عائشة. فقالت خالصة: عندما يريد الرجل شيئًا يصبح برقة اليمام والعصافير وعندما يحصل عليه يلتهمك كالسبع، ولكن الرجل لا يلتهم كالسبع يا عائشة، السبع يقتل فريسته أولًا ثم يلتهمها، أما الرجال فتقطعك قطعًا صغيرة

وأنت على قيد الحياة، هم كالضباع تلتهم دون أن تفكر في صرخات وآلام الضحية.

قالت عائشة والخوف يتسرب إلى قلبها: ولكني على يقين أنه لا يكذب. أعرف الرجل عندما يخرج مشاعره بصدق.. أعرف.

ابتسمت خالصة في تهكم ثم قالت: تعرفين كيف؟ أنت لم تخرجي من بيتك طوال عمرك، أقسم لك أنه لو أخبرك أنه يكذب فلن تصدقيه. الحب خطر يا بنتي، أخطر من كل الحروب مجتمعة، وأكثر إيلامًا أيضًا، الرجال لا أمان لهم.

- أنت تعرفين عبد الرحمن منذ كان صغيرًا، هو حنون وطيب..

قاطعتها: هو رجل، أنا أحبه لأنه مثل ابني ولكنه رجل. كان طفلًا حنونًا طيبًا، ولكنه الآن الرجل. الرجال مثل النيران، لو هرولت إليها تحرقك، ولو ابتعدت عنها تموتين بردًا، لابد أن تقتربي بحذر ومعرفة بالأخطار.

قالت عائشة في تلقائية: ما رأيك أنت؟ أتظنين أنه لا يحبني؟

- كيف لي أن أعرف القلوب؟! أظن أنه يريدك.

- ليس هناك فرق يا خالتي.

- بل هناك فرق كبير يا ابنتي.. ستعرفينه. قلبه مع ابنة عمه منذ زمن طويل. هل تغير قلبه بهذه السرعة؟ وهل تثق بمن يتغير قلبه؟ فكّري بعقلك ولا تلقي الرقعة في رسم من خيالك.

قامت عائشة في بطء واتجهت إلى حجرتها وفرحة الصباح قد زالت: ولكن الشوق لم يزل مشتعلًا.

***

رتبت كلامها بقية اليوم وانتظرته، وعندما جاء احتضنها في شوق أنساها كل الكلمات.. أغمضت عينيها والعالم يسطع بضوء قوي يصل إلى الروح مباشرة. في منتصف الليل وهي بين ذراعيه قالت: عبد الرحمن.. كنت أود الكلام معك..

قال وهو مغمض العينين: الآن؟

اعتدلت في جلستها وقالت: كنت أود الكلام معك منذ الصباح.. اعذرني..

شدها إليه وأحاط بخصرها وقال: تكلمي، أسمعك..

أمسكت يده لتزيحها وقالت: لا يمكنني أن أتكلم معك هكذا، لو جلست معي بعض الوقت..

قام وجلس وأسند رأسه على الحائط ثم حملها معه وقال وهو يطوق كتفيها: ما الأمر؟

صمتت برهة لا تدري، أتحاول الابتعاد عنه أم تبقى بين ذراعيه؟ همست: قلت لي إنك ستستمع إليّ، وربما أستطيع أن أقنعك..

حك شفتيه في رقبتها وهمس: ربما..

ثم قبل رقبتها فابتعدت عنه وشوقها يغرق كل الكلمات وقالت في جدية: أريد أن أنقذ إبراهيم ابن أخي وأن أنقذ المدينة، لا يهمني من ينتصر في الحرب ومن ينهزم.

قال وهو ينظر إلى عينيها: من أقنعك أنك تستطيعين إنقاذ المدينة أو إنقاذ أي شخص؟ من أقنعك أنك أقوى من جيوش الخليفة؟ وأنك أكثر صلابة من مؤامرات القصور؟ لا تحملي نفسك فوق طاقتها يا أميرة.

قالت فجأة: لماذا لا تريدني أن أخبرك كم أحبك؟

- فلنترك الحب للشعراء. لم يتكلم عنه غيرهم.

- أنت..

- أنا ماذا؟

خافت أن تسأله لو كان يحبها، خافت أن تسمع ما يحطم الروح اليوم. قالت من جديد: رسمتك اليوم على حصانك. أنت من تستطيع أن تنقذ المدينة.

خرجت منه ضحكة ثم قال: أنا وخمسمائة رجل سننقذ المدينة! عائشة، أعرف أنك أميرة ولم تخرجي من قصرك، ولكن لابد أنك تعلمت ودرست.. وتعرفين وتفهمين.. فكري بعقلك هذا أفضل كثيرًا.

- لم تعد تطلب مني الذهب. لماذا؟

بقي صامتًا فقالت من جديد: ما أقصده هو أن الله يأمرنا بإعمار الأرض، والهدم ذنب كبير. الله يأمرنا بالكثير، وخُلق الإنسان ضعيفًا.

- لابد من الاجتهاد والمحاولة.

- الله يأمرنا أيضًا ألا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة، أتعرفين أن عمك شيبان قتل اليوم ابن أخيه هارون بن خمارويه وأخذ الحكم؟

بلعت ريقها من الصدمة، ثم قالت: كان ابن أخي لا يصلح لحكم مصر.

- في الحكم يا أميرة الأميرات لا يوجد أخلاق ولا عدالة ولا خير. ولو ألقيت بكل رجالي إلى التهلكة فسيحاسبني الله أيضًا.

- ولكن لو وقفت ساكنًا وهم يهدمون بيمارستان للفقراء، فكم شخصًا سيموت بعدها؟ ولو وقفت ساكنًا وهم يهدمون مسجدًا صنعه أبي بلا سرقة وبلا سطو لا على كنيسة ولا على الملوك القدامى، فكيف ستواجه ربك؟ ولو وقفت ساكنًا وهم يشردون الناس من بيوتهم، فكيف سنعيش نحن في بيوتنا آمنين؟ من رأى منكم منكرًا فليغيره. ربما نحتاج إلى الحيلة، وربما..

- وربما نحتاج إلى الذهب.

نظرت إليه وكأنها لا تفهم. فقام وأخرج القلادة التي أعطاها له سعيد، ووضعها على أرجلها وهمس في رقة: من يتزوج أميرة في جمالك لابد أن يعطيها الذهب لا أن يأخذه منها، خذي ذهبك لا أحتاجه.

ثبتت عينيها على عينيه ثم قالت في خجل: عبد الرحمن.. هو حقك، كان بيننا اتفاق.

قبل وجنتها وقال: أنت أجمل من رأت عيناي لو تعلمين، براءتك تنفذ إلى الروح.. تعالي هنا بين ذراعي.

كاد قلبها ينفطر من شدة الولع به، ثم همست: ليس لي سواك، أنا غريبة هنا، وحيدة وحدة لا تتلاشى إلا وأنت معي.

قال في رقة وهو يغرقها بقبلاته: أنا معك يا أميرة.

***

صدى كلماته لم يتركها طوال النهار، ونظرت إلى القلادة التي أعادها إليها في إحساس بالذنب. هو الفارس، هذا أكيد.. وكم ظلمته وأساءت الظن به! هو هدية السماء لها ودعوة أمها التي استجاب لها الله. تنهدت وهي تنتظره وعندما عاد أخذها بين ذراعيه في حنان فتكلمت بلا توقف. حكت له عن عائلتها وطفولتها وحدائق القصر والأسود والزهور والأشجار وأمها والرسومات التي أنقذتها من زيجة رتبها لها أبو العساكر جيش.. حكت وهو يسمع في انتباه. ويسأل من حين إلى حين. قال: كنت تنامين في حجرة والدتك! كيف؟

قالت والحنين يطغى عليها: كنت أنام بين ذراعيها حتى رحلت. أخاف الظلام وأخاف البقاء وحدي. ما أحن ذراعيها! أتسلل إلى حجرتها ليلًا وأنام في خدرها.

ابتسم، وقال: أكانت هي من تخاف الظلام ربما؟ وربما هي من تخاف البقاء وحدها.

قالت وهي تشير بيدها في حماس: حمتني من كل المكائد.

- ولكن لِمَ لم تترك لك الفرصة للزواج؟ من يدري؟ ربما كان الزوج الذي اختاره لك أبو العساكر جيش مناسبًا.

قالت في حماس: لو تزوجته لم أكن لأتزوجك، وأنا لا أستطيع أن أتصور حياتي بدونك.

حكت عن والدها وعن خمارويه، وكيف قتله الغادرون بعد أن انتصر على الخليفة وسيطر على الثغور والموانئ. قتله خادمه وهو لم يتعد الثانية والثلاثين، وهو يحارب ثورات في الشام، فعادوا بجسده إلى مصر لأنه أوصى أن يدفن في مصر عند سفح الجبل. خمارويه كان يبذر بعض الشيء ولم يحرص على المال كأحمد، ولكنه اهتم بأمر الجيوش وكان لينًا هينًا مع كل مصري. حكت له عن جعفر بن عبد الغفار وعن سعيد الفرغاني وكيف أخلصا لوالدها حتى بعد موته، وكيف اهتما بأمرها هي وأمها، فأصبح سعيد هو معلمها، وبدلًا من أن يعلمها الشعر علمها الرسم سرًا. وأخبرته عن اللغة السرية بينها وبين أمها؛ اللغة القبطية التي لا يفهمها سوى المصريين.. وأمها حرصت على تعليمها القبطية حتى تكون حبل الوصال بينها وهم مجتمعون مع كل العائلة. وحكت كيف أمسكت أمها بيدها وسلمتها لسعيد وأخبرتها أن مصير مصر كلها بين يديها، وأن بيت طولون قد أصابته اللعنة منذ زمن، ولم ينج من اللعنات سواها هي؛ عائشة بنة أحمد. أخبرته عن قصة أنس وميسون والقلادة التي عاصرت الحب والخيبة والفقد.

وكل يوم كانت تخبره بقصة جديدة عن بيت طولون، تارة تحكي له عن أمها وأحمد، وتارة تحكي له عن أحمد والراهب المصري أندونة، وتارة تحكي له عن

العباس وكيف خان الأب وحطم قلبه قبل موته. قالت عائشة إنها تعرف كل زوجات والدها، تحترم مياس أم خارويه فقد كانت قليلة الكلام لا تتدخل في شيء، ولا تحاول السيطرة حتى بعد تولي ابنها الحكم، وتشفق على خاتون أم العباس التي عاشت مكلومة حزينة بقية عمرها. بل حزنها بدأ منذ خان الابن الأب فعرفت حينها أنه ميت لا محالة من قبل الأب أو من الأخ أو من سوء حكمه على الأشياء.

عندما يسألها زوجها عن سجناء أحمد وعن القاضي بكار بن قتيبة وعن قلة صبر أحمد وصرامته، كانت تحكي عن إحسانه وإشفاقه وعدله مع أهل مصر.

قالت في حماس: عبد الرحمن، لو كان أحمد ظالمًا فلِمَ يخرج المصريون إلى الجبل يدعون إلى الله ويتمنون شفاءه؟ ولِمَ يجتمع المسلمون مع المسيحيين مع اليهود وهم يتضرعون إلى الله أن يبقي على روح أحمد؟

قال عبد الرحمن: يا عائشة، لو أمر الحاكم الرعية بالدعاء فلابد أن يخرجوا للدعاء له، الحاكم حتى وهو يحتضر يعلم عدد الرعية وكل أسمائهم وينتقم ممَّن يخالف الأمر.

قالت في رفق: لو كان كلامك صحيحًا يا زوجي فلِمَ تخرج مصر كلها في جنازته؟ بعد موت الحاكم لا يوجد من يعرف الأسماء ولا من ينتقم أليس كذلك؟ هل بقي أحد المصريين في بيته يوم جنازة أبي؟

فكر قليلًا ثم قال: أتفق معك أن الجنازة يحضرها من يريد الحضور وليس من ثم إرغامه على الحضور.

- في جنازة أبي لم يتخلف طفل ولا امرأة يا عبد الرحمن.

ابتسم وقال: لا أعرف هل أغار من أمك التي أحاطتك بحب لا يجعل لغيرها مكانًا في قلبك، أم أغار من أبيك الذي لم تتقابلي معه ولكنه سيطر على كل عقلك!

قالت في رقة: لا حاجة لك للغيرة. أنت كنزي وذهبي وكل شيء.

***

أخبرها عبد الرحمن كيف عرف أنها ابنة أحمد؛ فبعد أن تكلم معه سعيد أول مرة، بعث الرجال ليلًا إلى بيت سعيد وكأنهم ينوون السرقة والسطو، سرقوا بعض الأشياء، ولكنهم كانوا يبغون معلومات عن سعيد، ربما رسالة كتبها لأحد حتى يعرف من هي اليتيمة. عاد الرجال بكل محتويات بيت سعيد، بحث وفتش حتى وجد رسالة. رسالة من قطر الندى إلى ابنة أحمد.. عائشة، هذه هي الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله سلامتك يا أختي، وأتم نعمته عليك، وزاد في إحسانه إليك وفضله عندك..

أكتب إليك كتابي هذا من قصر الخليفة في بغداد، ولكم أفتقد قصرنا يا عائشة! وكم أفتقدك أنت والسير معك وسط أشجار السفرجل! قصر الخليفة واسع ولكن قصرنا لا نهاية له، وحدائق الخليفة شاهقة ولكن حدائقنا تمتد لتصل إلى السماء، ومساجد الخليفة جميلة ولكن مسجد جدي أروقته لا مثيل لها في الحسن والعظمة. هل تتصورين يا عائشة أن قصر الخليفة بلا أشكال ذهبية ولا مشكاوات بديعة مثل قصرنا؟! لا يقارن بقصرنا. أفتقد مصر يا عائشة، أعرف أني لن أعود إليها. الخليفة، أيده الله، يُحسن معاملتي، ولكني أخاف المكائد من حولي، سمعت أن من يفضلها الخليفة لابد أن تموت مسمومة من جواريه، ومن تحمل منه فالموت واجب لها. كل يوم أخاف أن آكل أو أشرب، أجلس في الحرم وحدي وأنا أعرف أن مصيري الموت، منذ أن مات والدي وأنا خائفة يا عائشة. أعانك الله يا صديقتي الوحيدة، فأخي ربما يزوجك أنت أيضًا، خالتي أسماء كانت دومًا تعرف كيف تحجبك عن الحكام، تُرى هل تزوجت يا أختاه؟ اعذريني فكتاباتي لم تصل، وربما هذا الكتاب أيضًا لن يصل إليك، من يدري كم

عمرك اليوم؟ أنت في الخامسة عشرة أو يزيد وأنا في العشرين ولكني أشعر أني تعديت المائة.

كتبت لك عن مشاجرة بيني وبين الخليفة، كنت حمقاء في البداية، تعرفين لم أتعد حينها الخامسة عشرة، وليلة دخل عليَّ الخليفة وحياني، قال: لابد أن تشكريني يا ابنة خمارويه أني أبقي على والدك في حكم مصر هو ثم أولاده من بعده لمدة ثلاثين عامًا.

قلت بلا تفكير حينها: ولا بد أن تشكرني يا مولاي؛ لأن زواجنا يؤمنك من جيوش أبي التي هزمت الخليفة من قبل، وأنك بزواجك تضمن ولاء أبي.

حينها تركني شهرًا بلا كلمة عقابًا على كلماتي. ندمت بعض الشيء ولكني سعدت كثيرًا. هل تتذكرين يا عائشة كلامنا عن الحب؟ هل تتذكرين رسوماتك لفارس يتقلنا ويخطفنا بعيدًا؟ يقولون هذا الرسم حرام يا عائشة. أنا أيضًا أظن أنه حرام، ليس لأنه يغضب الله، بل لأنه كذب؛ ومن يتعلق بالفرسان يسقط في بئر يوسف، ولكن دون أن يجد رجالًا تنتشله ولا تنقذه. لا فرسان حولنا يا أختاه، ولا حب.

لو وصلك كتابي هذا فاعلمي أني لم أزل بخير مع أنني حامل وأصاب بالغثيان طوال الوقت، أخاف أن يكون في الشراب سم بطيء يقتلني. لا بأس، لك مني الدعوات، بارك الله فيك.

ابنة أخيك وأختك

أسماء ابنة أبي الجيوش خمارويه بن أحمد بن طولون

قطر الندى.

أمسكت عائشة بالرسالة في حنين، وحكت له عن حزن قطر الندى وزواجها.

***

أحيانًا يمر عليها في منتصف اليوم ويأخذها معه إلى الصحراء ويتكلم معها ويحكي لها وتحكي له. حكت له عن حيلة أمها التي أنقذتها من الزواج من قائد، واستمع ثم قال: ولمَ ترسمين هذه الأشياء الغريبة يا عائشة؟ لمَ ترسمين ما لا ترين؟

قالت في إصرار: أرسم ما أرى.

- ولكنك رسمت والدك وهو يمسك بالشمس.

- رأيته هكذا.

- أنت ترين ما لا نرى إذن أم أنك ترين ما تودين رؤيته فقط؟

قالت فجأة وهي تنظر حولها: لمَ تعيش في الصحراء، والنيل المبارك يعطي الخير، ويجود على من يقترب منه؟

صمت برهة ثم قال: إخوتي هاجروا إلى الدلتا والصعيد، واستقروا بها واختاروا الزراعة ونسوا مجد الأجداد. تصرفوا كالمصريين وهم عرب.

- ما الذي يعيب المصريين يا عبد الرحمن؟

- المصريون يزرعون، ولكن العرب تحارب. منذ أيام عمرو بن العاص والعرب تحارب في جيشه، ثم في عهد بني أمية كان الجندي عربيًا فقط. لا يمكن أن تنسى من تكون، ما فعله إخوتي هو خيانة للأجداد، من فتح مصر يا عائشة؟ العرب من فتح الشام والعراق وكل البلاد؟ الجندي العربي.

- ولكن أحمد بن طولون جنَّد المصري أيضًا.

- المصري من الموالي وسيبقى.

- ولكنك تحيا على أرض مصر.

- هي بلادي ولكل منا دورٌ بها، لي قبيلة وبيت في الصحراء، ومن يحيا في الصحراء لا يغويه النهر. سأنتظر يومًا ليعود المجد القديم، سأتدرب تحسبًا للقتال كما أفعل كل يوم، ويومًا ما سيعرف بنو عباس قيمة الجندي العربي.

قالت مداعبة: وكأنك تظن أنك أفضل مني فأنا مصرية.

- وأنا أحيا على أرضها، هي بلادي ووطني.. أنت مصرية وأنا عربي، لكل منا دور كما قلت لك. ما فعله إخوتي خيانة للقبيلة لن أسامحهم عليها.

- لا أعرف ما الذي يغوي في الصحراء.

أمسك بيدها وسار معها ساعة أو أكثر، ثم حملها أعلى الجبل، ودفع بها فتدحرجت إلى أسفله وهو وراءها، وهي تصرخ وتحاول الإمساك به وتضحك وتستغيث، ثم استقرت أسفل الجبل وهي تلهث وهو فوقها. قال حينها: ما رأيك في الصحراء؟

نظرت إلى عينيه ثم قالت: أحبها.

***

مر على عائشة شهر من أيام الجنة، وفي كل يوم ينمو الحب، وتزداد الكلمات، وتعلو الضحكات ويعتدل الكون. وفي كل يوم تذهب صباحًا إلى خالصة حتى لو رفضت مقابلتها، وتجلس أمامها وتحكي لها في حماس، وخالصة تمصمص شفتيها ولا تتكلم. عندما استيقظت اليوم اخترق العقل هاتف ودخلت الطمأنينة النفس. خرجت إلى الصحراء واستنشقت الهواء وانحنت وأمسكت بالرمال وهي تريد شيئًا واحدًا، أن تخبر زوجها بمكان الذهب، لقد كان أمينًا معها، حنونًا، عاشقًا، استمع لكل قصصها في صبر وفهم. بل تكاد تقسم أنه أحب والدها وقدره واقتنع بكلامها. لا يمكن أن تُبقي سرًا يقف حاجزًا بينها

وبينه. ومن يدري؟ ربما يستعمل الذهب في مساعدتها، وربما تنقذ المدينة.. من يدري؟ ربما..

أمسكت بقلبها الذي صاح ألمًا وفرحة وهي تفكر، ربما لا يتزوج من عزة، ربما يكتفي بها، وربما لا. لن تفكر في هذا الآن. الآن لا تريد حاجزًا بينها وبينه، تريد أن تثبت له كم تثق به وكم تحبه، ومن لا يحب رجلًا كزوجها؟

انتظرته في حماس طفل سيعترف اليوم لوالده بما كان، وبدأت تتكلم معه دون توقف كعادتها.

وعندما انتهت من الحكي قبلها في خفة فنسيت ما ستقول وما سيحدث إلى حين، ثم بعد وقت قالت وهي تنام بين ذراعيه: عبد الرحمن، لو وعدتني أن تساعدني أخبرك بمكان الذهب اليوم.. الليلة أقصد. أنا أثق بك، لقد أعدت لي الذهب.. و.. أفهم سبب غضبك، وأعدك أني لن أكذب عليك مرة أخرى أبدًا. لو وعدتني فقط أن تساعدني.

صفر في دهشة ثم قال: ولمَ تثقين بي؟ لو وعدتك وأخلفت الوعد فماذا ستفعلين؟

- لن تفعل، أنت لا تخلف وعدك.

قال: وعدت عزة ألا أعاشرك وأخلفت الوعد.

قالت في ارتباك: هذا شيء مختلف، أنا زوجتك و..

فتح كفها وقبله وقال: وأنت لا يمكن لرجل أن يقاوم سحرك.

- لم أقصد هذا.

قال بلا تفكير: وعدت عزة أن أتزوجها.

أمسكت بقلبها وقالت في صوت متحشرج: لو وعدتني فسأخبرك بمكان الذهب.

أمسك بذراعها ومر بيده عليه وقال: وماذا ستفعلين عندما أتزوج من عزة؟

- سننقذ المدينة أولًا.

قال وهو يمسك يدها: لمَ تهربين من السؤال؟

- لا طاقة لي به.

ابتسم ثم قال: أعدك أن أساعدك.. ولكن ليس عليك أن تخبريني بمكان الذهب يا أميرة.

قالت في تأكيد: بل ستحتاجه لتساعدني، أنا أريد أن أخبرك.

قال في تصميم: لا تخبريني إلا عندما تطمئني إليّ.

قالت في حسم: أنا أطمئن إليك منذ زمن.

- إذا كنت أعرفك منذ أقل من شهر، فكيف تثقين بي؟

- يا عبد الرحمن، لقد أعطيتك نفسي وجسدي، فما أهمية الذهب؟ هو لا شيء أمام النفس.

بقي ساكنًا، فقالت في بطء: المغامر هو من سينقذ المدينة، هو الفارس، وأنت فارس.

وضع إصبعه على شفتيها ثم قال: وعدتك أن أساعدك، المساعدة أهم عندك من زواجي من عزة، أليس كذلك؟ هل تثقين بي؟

قالت في تلقائية: أحبك.

- لم أسألك عن الحب. أسألك، هل تثقين بي؟

- لو أحببتك فلابد أن أثق بك، قلت لك من قبل.

- تربطين الحب بالثقة، والوعد بالذهب، وترسمين فارسًا على حصان أبيض، هل كل أميرات بيت طولون مثلك؟

- أنت زوجي وحبيبي..

نظر إلى عينيها ثم قال وهو يبتسم في رضًا وفوز: احكي لي لم اخترتِني سعيد؟

قالت في خجل وهي تمر بيدها على لحيته: لأنه خيرني بين كل جنود أبي ورجاله، واخترتك أنت.. منذ وقعت عيناي عليك وأنا أراك بقلبي.

قال في رقة: أنت من اخترتني بنفسك.. دون أن تعرفي عني أي شيء؟ لديك بصيرة يا أميرة الأميرات.. أين الذهب؟

وصفت في بطء مكان الذهب في أسفل الجبل حيث خبأته والدتها قبل أن ترحل. بعد أن انتهت قالت: عبد الرحمن. أمنتك على روحي ومالي وكل عمري، أعطيتك كل شيء. لا تخني.

قال وهو يضمها: تزوجنا منذ ثلاثين يومًا والليلة أخبرتني بمكان الذهب، وأنت تعرفيني منذ شهر ربما وعاشرتني لمدة تقل عن هذه الأيام، هل لديك عقل تفكرين به؟

- أفكر بقلبي الذي يصدقك.

- والدتك لم تعلمك ألا تفكري بالقلب أبدًا؟

قالت في رجاء: لن تخونني أليس كذلك؟

- أنت من تجيب على السؤال وليس أنا.

ضمته في قوة ثم قالت: أنا أعرف الإجابة.

قال وهو يقربها من قلبه: وأنا أيضًا. كنت أظنك مختلفة عندما جئت إلى هنا متخفية، وحاولت إغوائي بينما براءتك يخجل منها المهد نفسه، وليس الطفل الذي في المهد. نامي يا أميرة. فلا نعلم ما يحدث غدًا.

* * *

انتابها شعور بالندم والقلق في الصباح، وساورها شك طفيف في أنها ربما أخطأت بإخباره بمكان الذهب، خافت أن يتغير معها وأن يكون كل ما مر بينهما حلم يتلاشى كزبد البحر. ولكنه عندما عاد ليلًا كعادته قابلها بالشوق نفسه وباللهفة نفسها. لامت نفسها على الشك وسوء الظن، وكل يوم كان يقابلها بالحماس نفسه فتلوم النفس أكثر وأكثر، وتعاتبها على الشك في الفارس العربي الذي لا يخون ولا ينقض عهدًا، الذي يحب برقة شعراء الجاهلية ويحارب بغلظتهم. مر أسبوع وراء أسبوع والهناء لا ينقطع، حتى جاءها زائر. سعيد بن كاتب الفرغاني.

وقف سعيد بن الفرغاني منتظرًا قدوم عبد الرحمن يساوره بعض القلق، وعندما رآه سأل عن عائشة في لهفة وطلب أن يراها. فدعاه عبد الرحمن إلى البيت وطلب من زوجته أن تأتي لمقابلته.

نظرت إليه في فرح ثم سألت عن حاله في حماس. الفرح في عينيها زاد من قلق سعيد وتشاؤمه. فقال لعبد الرحمن في رفق: هل يمكنني الكلام مع عائشة وحدنا؟

قال عبد الرحمن بلا تفكير: لا.

- يا بني، هي مثل ابنتي وكانت في كنفي.. أريد الاطمئنان عليها..

- اطمئن عليها، هي الآن في كنف زوجها.

نظر إلى عائشة ثم قال بالقبطية: كيف حالك؟ لا أدري لو يفهم لغتنا، ولكني أشك أنه يفعل، فالعرب لا يتعلمون القبطية. هل يسيء معاملتك؟

قالت بالقبطية وهي تنظر لزوجها الذي أسند خده على يده ومكث ينظر إليهما بلا كلمة: لا، هو نعم الزوج يا عمي. هو رجل بحق وعدني أن يساعدني.

ابتسم عبد الرحمن وقال: لديكم لغتكم السرية إذن.

قالت عائشة في رجاء: عمي سعيد يريد الاطمئنان عليّ لا أكثر. سامحني لو تكلمت معه بلغة لا تفهمها.

نظر إليها سعيد في لوم لأنها تطلب الصفح منه وكأنه ملكها تمامًا. وقال عبد الرحمن وهو ينظر لسعيد وكأنه يغبطه: تكلمي أي لغة تشائين يا عائشة، أنا أثق بك.

نظر إليها سعيد في دهشة وقال: وعدك أن يساعدك كيف؟ ماذا حدث بينكما.

قالت: يا عمي، هو نعم الزوج، يحسن معاملتي، بل يدللني حتى إني لا أعمل في البيت، ولا أفعل أي شيء سوى الجلوس معه وانتظاره. لقد صان العهد.

- هل يعرف حقيقتك يا عائشة؟

نظرت إلى زوجها الذي أدار وجهه عنها وقالت: نعم.

- كنت أعرف أنه سيكتشف، سطا على بيتي ليلًا وسرق رسالة من قطر الندى، كيف تثقين بمن يسطو ويسرق؟

قالت في حسم: قلبي يصدقه يا عمي، ثم لقد كذبنا عليه فما فعله متوقع.

تنهد سعيد في يأس، ثم قال في حدة: وقت الحب تختلط كل المشاعر... لا فائدة. استمعي إليّ جيدًا، أحبيه كما تشائين ولكن إياك، هل تسمعين؟ إياك أن تخبريه بمكان الذهب.

نظر عبد الرحمن إلى عائشة ثم قال: ماذا يقول؟ لمَ يحتد عليك؟

قالت في توتر: لا تشغل بالك يتكلم عن الماضي.

قالت في شيء من الشعور بالذنب لا تدري لماذا: لقد أخبرته عن مكان الذهب يا عمي لا تغضب مني أرجوك، أنا أثق به.

صاح في وجهها: هل جننت؟

نظر إليه عبد الرحمن وهو لا يعرف ما الذي قاله عائشة بالقبطية ليفجر فيها الرجل، ولكنه لم ينطق.

قالت: عمي، لقد أعاد لي القلادة دون أن أطلبها، ووعد أن يساعدني.

نظر حوله في حيرة ويأس ثم قال: وعد أن يساعدك، كيف؟ هل قال إنه سيحارب ابن سليمان؟

- لا، قال إنه سيساعدني.

- هو يساعدك الآن من وجهه نظره؛ لأنه يحميك من ابن سليمان، ألا تفهمين؟ لم يَعِد بشيء، أعمى العشق قلبك بعد شهر من الزواج، أنا حزين عليك، وعلى أمك لو عرفت، وعلى والدك الذي خذلته اليوم. كم مرة قلت لك ألا تخبري أحدًا بمكان الذهب مهما حدث!

- عمي، أقسم لك أني أثق في عبد الرحمن أكثر مما أثق في نفسي.

- نفسك تحطمت يوم وثقت به، ليس للعشق موضعٌ في حياة من اختارها القدر لتنقذ المدينة.

- لا تحملني فوق طاقتي يا عم.

- بل لا فرق بينك وبين الجواري، اعشقيه حتى يتزوج غيرك، ويلقي بك إلى حجرة لا يتذكر مكانها.

- لم تَقْسُ عليَّ هكذا قط.

- لم أتوقع منك هذا.

احمرت وجنتاها ثم قالت: أعدك أقسم لك أنه سيساعدنا.

- تقسمين نيابة عن رجل لا تعرفين عنه أي شيء.

- أصدقه.

- لأنك بسذاجة الكبش قبل الذبح. من المؤكد أنه خبأ الذهب الآن، لا أستطيع حتى أن أذهب وآخذه، ولو فعلت فربما يؤذيك، من يدري؟

قلب كفيه ثم قال: اعتني بحالك يا ابنتي، لا تتركيه يحطمك، سيخون، وعندما يخون فقفي شامخة كالأميرات فأنت ابنة أحد.

قالت في أسى: عمي، لا تغضب مني.

- ربما حملتك ما لا طاقة لك به وأنت في العشرين، فلينقذنا الله مما هو قادم، ولكن إياك، هل تسمعين؟ إياك أن تتذللي له. أنت أميرة.

خرج سعيد في بطء وهو لم يزل يقلب كفيه.

نظر إليها عبد الرحمن ثم قال: ماذا قال ليحزنك هكذا؟

أطالت نظرها إليه ثم قالت: ذكرني بأبي وأمي، لا تنشغل بكلامه، هو طيب ويعتبرني ابنته.

***

بدأت تنشغل بأمر عزة.. منذ زيارة سعيد وقلبها منقبض والوجوم لا يتركها.. تُرى هل يقابلها؟ ربما يتزوجها، بل قال إنه سيتزوجها. ألم يتزوج والده من خمس نساء؟ ماذا تتوقع منه؟ أغلقت العقل عن الشك، وقررت أن تستمتع بلحظاتها معه، وتمتص الحنان والرقة اللذين يتجليان لها بين حنايا ضلوعه.

ثمة متعة في البقاء حوله ومتابعة حركاته والشعور بعروقه النابضة بين حشايا القلب حتى وهو بعيد عنها. هرولت في اتجاهه وهي تحمل الطعام. توقفت ثواني لتملأ عينيها من وجهه وهو يدرب الخيول في تركيز. لاحظ وجودها فتجاهله واستمر في عمله حتى قالت في حماس: جئت لك بالغداء بنفسي، أتعرف؟ هذه أول مرة أحمل الغداء لأحد.

قال وهو لا ينظر إليها: أشكرك يا عائشة. يمكن أن تتركيه هنا وتعودي إلى البيت.

تسمرت مكانها ثم قالت بلا وعي: هل تقابل عزة؟

نظر إليها في غضب ثم قال: وما شأنك أنت؟ أي سؤال هذا؟

إجابته جعلتها تسأل من جديد: هل ستتزوجها قريبًا؟

قال في برود: عندما أحدد الموعد سأخبرك. لا أحب هذه الأسئلة.

صمتت برهة فقال وهو ينظر إلى الفرس: هيا يا عائشة اذهبي إلى البيت.

قالت في تلقائية: أحبك.

لا تدري لماذا نطقت بهذه الكلمات الآن! ربما لتطمئن نفسها أنه يبادلها المشاعر، أو ربما لأنه كان باردًا مختلفًا وكأنه يشيد حاجزًا بينهما.

تجمد مكانه وكأنها غرست سيفًا في ظهره، ثم استدار إليها في بطء وقال: اجلسي يا عائشة.

جلست وبدأت ترتب الطعام أمامه وهي لا تلاحظ نظراته ولا تجمده حتى قال: انظري إليّ.

نظرت إليه، فقال في هدوء: قلت لك من قبل لا أحب سماع هذه الكلمة، أتدرين لماذا؟

قالت في شيء من الضيق والحيرة: كان هذا في الماضي، ولكن الآن..

قاطعها: الآن لم يتغير شيء. مزقي رقعتك يا أميرة، فما ترسمين إلا خيالًا، كان من خيالك وسيبقى من خيالك.

قالت وهي تحاول ألا تفهم قصده، ففي الإدراك الآن نهايتها: لِمَ تقول هذه الأشياء؟ ما بيننا.. كل..

صمتت وغمرتها الحيرة.

فقال: جئت إليّ تطلبين المساعدة ووعدت أن أحبك، لا أحببتني ولا أحببتك.

صمتت وكلماته تنخر القلب بلا رحمة فأكمل: أنا أحب ابنة عمي منذ زمن قبل أن أراك وقبل أن أعرفك، تأجل زواجي منها بعض الشيء ولكنه سيحدث.

همست في مرارة وهي تحاول أن تسيطر على رعشة يدها ولسانها: كذبت عليّ.

- لم أكذب.. أنت جميلة، بارعة الجمال، تعجبينني وأريدك وأنت زوجتي، هذا كل ما في الأمر.

رددت في بلاهة وهي تفكر فقط في الرقعة وكيفيه حرقها: كذبت عليّ.

قال في رفق ولكن في جود لم تره من قبل: أنت لا تحبينني يا عائشة، هي أيام تختلط فيها الأمور عليك لأنك خائفة وحائرة، لا حب يدخل قلب الأميرات، هي ائتلافات ومعاهدات تلك التي تحكم علاقتهن.

قالت في حنق: أخذت ذهبي.

- ليس ذهبك، هو ذهب الملوك القدامى، وجده والدك، وأخذته مقابل حمايتك. هكذا كان الاتفاق بيننا من البداية، وهذا ما وعد به سعيد.

- تحايلت عليّ.

- كما تحايلت أنت عليّ.. أتتذكرين؟ عند الزواج كان الاتفاق أن تخبريني بمكان الذهب ولم تفعلي.

احتضنت جسدها كالجنين كعادتها ولم تستطع النطق. فقال في رفق وهو يربت على يدها: لن أتركك، أقسمت ووعدت بمساعدتك.

فقالت وهي تبتلع الدموع: هل ستتحالف مع ابن سليمان؟

- سأفعل من أجل قبيلتي، وسيفعل كل جنود ابن طولون عاجلًا أم آجلًا، لكل أجل كتاب، وقد جاء أجل الطولونيين ونهايتهم.

تمتمت لنفسها: بل أتمنى أن يأتي أجلك أنت على يدي، أتمنى أن أراك غارقًا في الدماء أمام عيني.

لم يسمعها، ولكنه توقع كلماتها.

قام وقال: لا تخرجي من البيت، لا أريد لأهل القبيلة أن يتساءلوا عن أهلك وأصلك، الفضول سمة هذا المكان.

قالت وهي تحاول من جديد أن تمنع العقل عن استيعاب كلمات تفتت ما تبقَّى: لقد كنت تقول لي: إنك تشتاق إليّ وتريدني. قلت الكثير، أتذكّر كل شيء.

نظر إليها في شيء من الشفقة وشيء من البرود ثم قال: كنت أشتاق إليك نعم، وكنت أريدك. افصلي الجسد عن القلب يا أميرة حتى تفهمي ما أقول، فيبدو لي أنك لا تريدين الفهم.

بلعت ريقها وكلماته تنخر في جسدها وهي تتمنى أن تجد نارًا لتحرق قلبها أولًا ثم تحرقه، ثم قالت: كنت..

قال في إصرار: كنت..

صمتت برهة لا تدري هل التنميل في جسدها سببه أنها ستفقد الوعي الآن أم أن الصدمة أكبر من استيعابها؟!! ثم قالت في صوت ضعيف وهي تتحسس رجليها لتتأكد أنها تستطيع المشي: أنت لا تفرق بين الأميرة والجارية.

نظر إليها برهة ثم قال في نفس بروده: وأنت لا تعرفين شيئًا عن الرجال. كم من أمير اختار الجارية ولم يختر الأميرة وقت الحب. وقت الحب بين الرجل والمرأة لا فرق بين الأميرة والجارية.

قالت بلا تفكير: أنا لا شيء بالنسبة إليك.. جسد بلا روح.

لم يجب، أدار عينيه عنها. فقالت في إصرار: يا عربي..

قال في ضيق: تعرفين الإجابة يا أميرة.

قالت بلا تفكير: كذبت عليّ.. قلت لي لابد أن تنامي عند موضع قلبي كل يوم.. كل يوم..

ثم أكملت لنفسها: يا حسرتك يا أميرة.. على موضع قلبك أنت!

تحجرت الدموع ولم تتساقط. أدار وجهه عنها في لامبالاة فقالت فجأة: لم طلبت مني هذا؟ قلت لي إنك تريدني بجانبك بين ذراعيك.. قلت هذا.. كيف تكذب؟

رفع حاجبيه ثم قال وهو يزعم الدهشة: لو كنت قلت هذا فلابد أني كنت تحت تأثير شفتيك.. وتأثير الشوق لا يدوم. كلام الشوق كهذيان الخمر لا أمان له. ما قلته انسيه. وما حدث بيننا هو اتفاق فقط.

أمسكت بقدح الماء الذي جاءت به وبدأت تسكبه في بطء على الرمال وهي تنظر إلى الصحراء القفراء التي تبتل ثم تجف بدون أن تتأثر، ثم بدأت تسير متجهة إلى البيت وقد فرغ كل ما بداخلها للتوّ. فقال في صرامة: لا تنسي أنك زوجتي، هذا لن يتغير.

قالت هامسة: في نار جهنم إن شاء الله أنت وابن سليمان.

- ماذا قلت؟

لم تجب. هرولت إلى البيت، ثم دخلت حجرتها وأغلقت الباب.

***

وانكمشت مكانها ساعات تستوعب ما قال، وما فعلت، وصيحات سعيد تدوي في أذنيها. لامت الأم على أنها أغلقت عليها المصباح فلم تر العالم، ثم لامتها على أنها لم تتركها تتزوج من القائد أو من أي رجل حتى لو كانت تكرهه،

فما فائدة الحب في زمن المراوغة والخداع؟ ما فائدة الحب بين القصور وحول الميادين لو كان المصير الخيانة بالتأكيد؟ ألم يمت والدها كمدًا بعد خيانة أعز الناس إلى قلبه؟ ألم يمت أخوها على يد أخلص خادم له؟ ألم يقتل أخوها شيبان ابن أخيه؟ بل ألم يقتل ابن الأخ أحد الأعمام من قبل وهم يقتل الآخرين؟ ماذا توقعت؟ أن يخلص لها الفارس لأنها تحبه؟!! الحب لا يخلق شعورًا بالامتنان عند الآخر. هو شعور بالوحدة مثله مثل الحزن والفقد، ما أصعبه على النفس الطاهرة! وما أغلظ قلوب الرجال!

تلقائيتها هي سبب عذابها، واليوم تحتاج إلى الكلام، ولا صديق لها في هذا البيت سوى خالصة.

اتجهت إلى خالصة وبدأت تحكي لها في غيظ وحزن دون أن تتطرق إلى أصلها، وخالصة تضحك من حين إلى حين ولا تتكلم، قالت في رجاء: ألا تشفقين عليَّ يا خالة؟

- لِمَ أشفق عليكِ يا حمقاء؟ قلت لك من قبل ما سيفعله بك، حذرتك.. أتريدين حرق الرقعة الآن؟

صمتت.

فقالت خالصة في تهكمها المعتاد: تحبينه كالبهيمة التي تشتاق إلى الخضرة، فتأكل بلا توقف! يا بنت، الرجل قال لك إنه يحب أخرى.

قالت في يأس: ربما يكذب، ربما لا يدرك حجم مشاعره لي.. يا خالتي، كان حنانه يتدفق حولي.. حنان لم أرَ مثله.

- يا حمقاء، قلت لك حنان الرجل عندما يريد شيئًا كالزرع الشيطاني لا جذور له. لِمَ لا تفهمين؟ احرقي الآن وقطعي الرقعة، هيا.

-لا أستطيع.

قالت خالصة: لا يهم، ستحرقينها اليوم أو غدًا، أعطيك أسبوعًا قبل أن تلغي اليوم الذي قابلته فيه. ما رأيك؟

- أليس لديك أمل أن يحبني؟

- ليس لدي أمل أن يحب أصلًا يا عائشة، الرجال لا ترى إلا نفسها، ومن لا يرى سوى نفسه لا يحب سوى نفسه. تحنين إليه وتبقين على رسوماتك، أليس كذلك؟ حسنًا، تعالي بعد أسبوع لتحرقيها يا حمقاء.

قالت في يأس: أمي قالت لي إن أبي كان يقول دومًا «عندما يغيب الرجل عن امرأة فهي إما لا تروق له، وإما أن تكون توغلت وتملكت أكثر مما ينبغي.»

ضحكت خالصة في تهكم ثم قالت: وماذا كان يفعل والدك يا بنت؟ لابد أنه كان خياطًا! ألم تقولي لي إن جدك كان خياطًا؟ لم يفهم الخياط كل الرجال، والدك كان خياطًا أليس كذلك؟

قالت في استسلام: كان خياطًا.

***

لم يأت الزوج كعادته ليلًا ولم يطرق باب حجرتها أحد، وهل يملها زوجها ويبتعد بعد شهر فقط من الزواج؟ أي امرأة هي؟ حتى لو كان يلهو فكيف يعاقبها هكذا؟ احتقرت النفس التي تشتاق وحاولت أن تتذكر الهدف من الزواج ومن الذهب. كان لابد أن يكون الأب نصب عينيها ولا يغويها عشقٌ ولا قلبٌ جامحٌ مثل قلبها، والآن ضاع الذهب وضاع القلب، لو ضاع القلب فهي تستحق هذا، أما لو ضاع الذهب فهذا هو الموت الأخير الذي لا تتبعه انبعاثة، كل يوم تنتظره أن يأتي إلى حجرتها في حماس ويأخذها بين ذراعيه ويخبرها أن ما قاله ليس حقيقة وأنه اكتشف فجأة أنه يحبها هي فقط.. ولكنه لم يفعل. مر يوم ولم يأت، ومر اثنان ولم يأت.

بعد أسبوع ذهبت ليلًا إلى حجرته وطرقت الباب فأذن لها بالدخول. كان ممددًا على مخدعه لم يتحرك فقالت: لا أدري ما الذي فعلته لتغضب مني.

قال في فتور: لست غاضبًا منك.

- ربما مللتني فلم تعد تزور حجرتي..

وبخت نفسها على كلمات خرجت بلا تفكير واحمرت وجنتاها

فنظر إليها برهة، ثم قال في برود: لماذا جئت يا أميرة؟

- جئت أطلب منك أن تفي بوعد وعدته لي بأن تساعدني.

قال في تهكم: وأنا الذي ظننت أنك جئت لأنك تهيمين شوقًا إليّ..

ثبتت نظرها على الأرض ثم قالت: قلت إنك لا تحبني، الآن أعرف أنك لا تريدني أيضًا.

بدا غاضبًا. رأت نبض عروقه ولم تفهم هل غضبه منها أم من تجرئها على الكلام، فقالت مسرعة: وعدت أن تساعدني.

قال في برود: أساعدك! لم أزل أساعدك.

قالت في إصرار: يهمني أمر أبي قبل أي شيء. معك حق، الزواج تحالف ومعاهدات؛ تحالفت معك وأعطيتك الذهب لتنصر أهلي وتنقذ مدينتي وبيتي.

- قلت لك من قبل إنك تطلبين المستحيل، جاء ابن سليمان بجيش من عشرة آلاف جندي، هل تتوقعين لقبيلة من خمسمائة رجل أن تقف أمامه؟

- لا أدري، ربما لو حاولت أن تنقذ المدينة من الدمار، أتمنى أن تنقذ ما بناه أبي لمصر.

- بل بناه ليخلد نفسه كالملوك القدماء، ألم يأتِ له أحدهم في حلمه؟

- ربما كانوا يخلدون مصر يا زوجي وليس أنفسهم. وُلدت هنا مثلي، وانطلق إخوتك في أرضها يبغون الخيرات، أنقذ ما ينفع الناس حتى يرضى عنك الله.

- هل تملكون رضا الله أنت وأهلك؟ كفاكم طغيانًا. ألا ترين؟ أي حقيقة تجهلين؟ أضاع ابن أخيك الشام من يده وطرسوس ثم الثغور، غلبه القرامطة في ليلة وضحاها، كان يُبقي على الشام بالعطايا وليس بالقوة، ألا تعرفين كيف كان يقضي أوقاته؟ في المجون والسكر!! ألا تتذكرين أن أولاد خمارويه اعتلوا عرش البلاد مع أن الأعمام الكبار كانوا الأصلح، لكن بطانة السوء أرادت السيطرة وبقي الأعمام عاجزين كالنساء؟ ألم تُعلمك أمك شيئًا؟ ألم تري أي دسائس وأنت في القصر؟

قالت في حماس: أنت على حق في كل ما تقول، ولكن ما ذنب البيمارستان والقصر؟ ما ذنب المدينة وأهلها؟

- للحروب قوانين يا أميرة.

- ماذا تريد حتى تساعدني؟ أعطيتك نفسي، ثم أعطيتك كل ذهبي، ماذا تبغي أكثر من ذلك يا بن الشيخ؟

قال في تحد: أخذت كل ما أريد، فلا يوجد ما تعطينه لي يا بنة الأمير أبي العباس أحمد بن طولون. لم يعلمك أحد ألا تعطي قبل أن تأخذي، فأعطيت.. ولكن لأني كريمٌ معك سأحميك كما وعدت، هيا اذهبي إلى حجرتك.

طبقت شفتيها في غيظ ثم قالت: أولاد الأكرمين يوفون بالعهود، أشكرك على الحماية.

تركت حجرته ولم يتحرك من مكانه، وذهبت إلى حجرتها وأغلقت الباب. ربما يأتي، لم تزل تتمنى أن يأتي. هناك عائشة الأميرة وهدفها، وهناك المرأة التي أذلها ذلًا لا يُغتفر. في الماضي جاء إليها بعد ساعة، لابد أنه سيأتي اليوم. فعندما

ذهبت إلى حجرته حن إليها، أليس كذلك؟ تذكَّر الشوق بينهما ولهفته عليها، هل نسي بهذه السرعة؟ ما حجم ذاكرة الرجال؟ لينها تستطيع أن تنسى. هي على يقين أن الساعة لن تمر إلا وهو يفتح الباب ويأخذها بين ذراعيه، كان يزعم البرود والقسوة ولكنه ليس كذلك، لو اعترفت أنها فرضت في الذهب والقلب والجسد هباء فربما عليها أن تموت، تستحقه عن جدارة! هل هناك عقوبة للحمقى؟ مرت الساعة، سمعت صوت خطوات قريبة من الباب، قامت وضربات قلبها تعلو، هو.. لابد أنه هو، يشتاق، يتردد، ربما خجل من نفسه لما فعل وقال. فتحت الباب في بطء فرأت عاتكة تأتي لنفسها بشربة ماء. رأتها عاتكة فابتسمت في انتصار وتهكم، ثم قالت: هل تنتظرين أحدًا يا غريبة؟

قالت عائشة وهي تكتم دموعها: لا.

قالت عاتكة وهي ترمقها بنظرة فهم: ما تنتظرينه لن يحدث.

ثم سارت بعيدًا، أغلقت الباب وهوت إلى سريرها.. لا لم يأت، لا اليوم ولا الغد.

***

أن يخون العهد فهذه خسة، أن يسرق ذهبها فهذه أيضًا خسة، أما أن يعاقبها ويبتعد عنها وكأنها حيوان أجرب فهذه جريمة لابد أن يدفع ثمنها. ابن الشيخ مثل الأميرة ويتوق إلى ابنة عمه ولا يتمنى غيرها. استشاطت غيظًا ولم تبرح حجرتها يومين آخرين.

كتبت رسالة أخرى إلى قطر الندى في مخيلتها، قالت في رسالتها إنها حزينة هنا، وإن بيت الشيخ ضيق يخنق الفؤاد، قالت لقطر الندى إنها تنام كل ليلة وحدها، وكلما ازدادت الوحدة طوت الأبواب أخشابها على صدرها، فقد ذهبت إليه بنفسها، ذهبت إلى حجرته ولم يقبلها أو يلاحظ وجودها، ما هذا العذاب الذي لا قبل لها به؟! قالت إن العربي بعد أن أخذ الذهب هجرها، وكأنه كان

يعاشرها من أجل الذهب. هل تصدق قطر الندى هذا؟ هل تتصور أنه لم يجد في عائشة ما يجذبه! كان يتظاهر باللهفة وهو يخطط لهزيمتها، وكأن كل قبلاته زيف وكل كلمات الغزل ضلال. قالت إن السم في الطعام أهون من الهجر، وإن الغربة داخل الوطن هي وجودها في بيته.

ثم ذهبت إلى خالصة في يأس وقالت في رجاء: يا خالتي، لمَ يعافني؟ هل يكتفي الرجل بشهر مع امرأة؟

ضحكت خالصة ثم قالت: أحيانًا يكتفي بيوم يا بنت.

ثم نظرت إليها خالصة نظرة مختلفة وكأنها تفهم وتعرف وقالت: تعتصر روحك بين ضلوعك، تشتاقين إليه وتحقدين عليه، تتمنين موته ولا تريدين سوى ذراعيه. يسطو اليأس ثم اللهفة، ويبقى الحزن كامنًا لا يختفي بمرور الأيام ولا السنين. عندما يهجر الرجل المرأة يذبحها يا بنت. ألم تنزل آيات القرآن خصيصًا لتحث الرجل ألا يهجر زوجته؟

قالت في خجل: ما يؤلمني هو أنه يريد غيري وكأنني لست جميلة ربما وكأنني.. لست امرأة. هل كذب عليّ؟ كان يتظاهر بالشوق بينما هو يعافني؟

– ربما لم يكذب حينها، من المؤكد أنه وجدك جميلة. أنت جميلة يا عائشة.

كانت أول مرة تنطق فيها خالصة بكلمات إطراء. أكملت خالصة: وأنا كنت جميلة عندما هجرني زوجي.. هي عادة الرجال. أتدرين ما الذي يؤلمني؟

– ما الذي يؤلمك يا خالة؟ الشوق إليه؟

– لا، ما يؤلمني هو عدم إدراكه بأنه ذبح وقطع وسلخ والروح لم تزل تنبض، أتمنى أن يشعر يومًا.. أن يتعذب. لو كان في هذا الكون عدل فلابد أن يلمس العذاب قلوبهم. ولكن العدل عند صاحب الملك، سيشوي ضلوعهم في نار جهنم.

قالت عائشة في حماس: نعم أتمنى أن أراه في نار جهنم، وأشهد على الشواء بنفسي، وأتبل ضلوعه بالزعفران والقرنفل.

قالت خالصة في استهزاء: من يتبل الضلوع بالقرنفل يا حمقاء؟ هل تعرفين كيف تطبخين حتى؟ تتبلها بالقرفة والملح والفلفل، ثم نجيد طهيها حتى تصبح طرية وتذوب في الفم. أتمنى أن نأكل الضلوع وهم يشهدون على هذا، نستمتع بالأكل وهم ينظرون إلينا.

- ما أجملها صورة! سأرسمها يا خالتي.

- ليس قبل أن تحرقي وجهه الذي رسمته من قبل.

قالت في خزي: أتمنى الموت يا خالتي وأفتقده.

- إياك.. هل تسمعين؟ إياك أن تذللي إليه.. أذبحك بيدي.

- لن أفعل.. بالطبع لن أفعل. حتى خالي سعيد أمرني بهذا

***

بكت اليوم، في صمت في البداية، ثم في صوت مسموع.. دفنت رأسها في الوسادة والدموع تنهمر، ليت أمها علمتها أي شيء. ولكنها كانت تتشبث بها ليلًا نهارًا. تنام معها على سريرها، تحتضنها لتحميها، ترافقها وتحيطها ثم تركتها هنا في هذه الحجرة وبين الصقيع. تخاف الوحدة وتريده معها، بل تخاف ظلام الغرفة وصوت ذرات الرمال. لو ذهبت إليه الآن وقالت إنها خائفة فسيظن أنها كاذبة، وربما يظن أنها تتحايل عليه أو تريده. نهضت من مكانها واتجهت إلى حجرته، تذكرت كلمات سعيد وكلمات خالصة.. لن تذل نفسها، لابد ألا تذل نفسها، لو رأى دموعها.. مسحت دموعها في عصبية، فتحت باب حجرته، كان نائمًا يدس رأسه في الوسادة، ضربت بيدها على صدرها كأنها تمنع القلب من اختلاجه ثم همست: عبد الرحمن..

لم يفتح عينيه. فقالت: هل تسمعني؟

قال: أسمعك.

مسحت دموعها في عصبية من جديد ثم قالت: كنت أريد الكلام معك.

أدار وجهه وهو مغمض العينين ثم قال: اذهبي إلى حجرتك يا أميرة.

فتحت فمها في غضب وعلت دقات قلبها ثم قالت: لم آتِ لألقي بنفسي بين ذراعيك حتى تطردني، من حقي أن أتكلم معك.. هذا ظلم.. رد لي ذهبي..

تمطى ثم قال وهو لم يزل مغمض العينين: سأرده في الصباح. هيا إلى حجرتك.

ضربت يدها بالباب في غلٍّ ثم عادت إلى حجرتها وصرخت تؤنب النفس التي أذلتها. عرف.. لابد أنه عرف أنها تريد النوم بين ذراعيه، وتريد منه أن يطمئنها وتريد وتريد.. عرف.. أنها أميرة بروح ضعيفة ذلَّت للتو للمرة الألف في غضون أيام.

***

بدأ عبد الرحمن يدرب رجاله على القتال، فالمعركة آتية لا محالة، لا شيء يسعده أكثر من التدريب على القتال، لا يهم من العدو ومن الصديق، مغامرة الحروب لها نشوة خاصة وراحة ليس بعدها تعب، وبين أذرع الحروب كنوز لا قبل لإنسي بها، لا كنوز تضاهي كنوز الحروب ولا إشباع أقوى من إشباع النصر، عندما ينتصر الجندي يملك، وعندما يملك يكتفي. يتمنى أن يكتفي، ستسجد بين يديه كل جميلات الأرض، وسيختار من يريد من بينهن وسيكتفي وسيرتاح وسيشبع. قال أحد رجاله إن هناك رجلًا ينتظره منذ زمن يريد التكلم معه. ترك التدريب وحمل سيفه ورمحه وذهب ليقابل الرجل. كان سعيد الفرغاني، ابتسم له عبد الرحمن في برود، ثم بدأ ينظف سيفه وقال: أهلًا بك ومرحبًا، جئت تطمئن على الأميرة أم تتكلم معي؟

قال سعيد وهو يجلس ويحدق في عبد الرحمن بلا توقف: جئت أتكلم معك.

قال عبد الرحمن وهو يجلس ويستمر في تنظيف سيفه: غضبت منك يا سعيد عندما تكلمت بالقبطية وأنت تعرف أني لا أفهمها، وكأنك كنت تتكلم مع زوجتي عني.. هذا لا يجوز.

قالها عبد الرحمن في تهكم ممزوج بإحساس بالقوة والنصر.

قال سعيد: يا عربي، لا شيء يدعو للزهو والتفاخر، لم تنتصر سوى على يتيمة بريئة.

ترغّم عبد الرحمن الغضب ثم قال: من قال إني انتصرت عليها؟ هي زوجتي وكل ما تملك ملكٌ لي، لا أسرار بين الزوجة وزوجها. تطيع أوامري فقط وليس أوامر رجل لا علاقة لها به مثلك.

- وعندما تحصل على الكنز هل ستسعد؟ هل ستملك الدنيا؟ يا بني، أنا أكبر منك والدنيا لا تعطي إلا لمن تحلى، وأنت تطمع في كل شيء.. تريد الوصول ولن تصل سوى للسراب، لا ماء في طريقك يا عربي ولا نخيل، بل جفاف وقحط، من يشرب السراب لا يكتفي، يريد أن يرتوي ولا يرتوي، ستستمر في المحاولة ولن تصل.

- هذه الكلمات المعقدة لا تروق لي، قل ما تريد وارحل، لا وقت عندي.

- يهمني أمر عائشة.

نظر إليه عبد الرحمن في غضب ثم قال: لماذا؟ أنت لست والدها ولا خالها، لا شأن لك بها.

- هل هجرتها أم ليس بعد؟ هل اكتشفت جرم ما فعلت بنفسها؟ أحبتك واختارتك من بين كل جنود القطائع، هل تعرف؟

قال وهو ينظر لسيفه الذي يعكس وجهه الآن: أعرف.

نظر سعيد للسيف ثم قال: تنوي أن تساعد عدو أبيها.. تنوي أن تشهد على خراب الفسطاط والقطائع، وعندما يريد ابن سليمان أن يهدم المسجد ماذا ستفعل؟ من يهدم هو عدو للبشر، ومن يبني باقٍ بعد الفناء. ليس المُصلح مثل الفاسد، وليس الباني مثل الهادم.

قال عبد الرحمن وهو يطرح سيفه جانبًا: يا سعيد، يمكن للحاكم أن يبني ويشيد ويظلم ويجور، البناء لا يعني سوى أنه يريد تخليد اسمه، أحمد لا يعني لي أي شيء، لم أشهد عصره ولا أعرف عنه سوى أن ثمانية عشر إنسانًا ماتوا في سجنه. ما الفرق بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي؟

قال سعيد في حسم: أحمد كان عنده حلم، أحمد أنصف أهل مصر ونصرهم وعدل بينهم، أحمد بنى لهم وفضلهم، أحمد.. لكنك لن تفهم، وقت الطلب تعمى الأبصار، لو هدم ابن سليمان المسجد تصبح أنت شريكًا في الهدم.

قال عبد الرحمن في سخرية: يعجبني قلق المسيحي على مسجد أسسه رجلٌ بسرقة كنوز.

- ويعجبني عدم اكتراث مسلم بمصير بيت من بيوت الله. أمس خرجت مع رجالك للسطو على الفلاحين، أعرف أنك لا تحب السطو، ولا تعرف سوى الصعلكة. سطوت على الفلاحين وأخذت الأموال والقمح والماشية ثم وزعتها على رجالك، فعلت هذا حتى تستطيع أن تأمرهم غدًا بالالتحاق بجيش ابن سليمان، ونقض العهد مع آل طولون. تغريهم بالمال المسروق.. هذه طبيعتك يا رجل.

قال عبد الرحمن في حدة: ارحل من هنا حتى لا أصيب رأسك بسهم وأنت رجل كبير لن تتحمل سهامي.

- سأرحل يا عبد الرحمن، ولنا لقاء آخر سأخبرك فيه أنك خسرت أميرة أعطتك بلا مقابل، وأن الكنوز لا تروي طامعًا، وأن عمارة الأرض هي صلب دينكم. سأقابلك بعد عام أو قبل ذلك لأخبرك أنك انهزمت، وأنك لم تصل لا لسعادة ولا راحة.. لا سلام لك ولا وداع.

قال عبد الرحمن في حدة: لا تأتي هنا مرة أخرى. سأمنعها من مقابلتك منذ اليوم.

قال سعيد: هي قوية حتى لو كانت رقيقة القلب، من المؤكد أنها عرفت حقيقتك وكرهتك وندمت؛ الندم أولى درجات النضج. لا تحاجني الأميرة. ولكن إياك أن تسيء معاملتها أو تشي بها؛ سأقتلك بيدي. لا ترغمها.. هل تسمع؟ ولا تذلها..

ضحك عبد الرحمن ثم قال: اذهب إلى حال سبيلك يا رجل. الأميرة تهيم عشقًا بي، وأنت تعرف أنَّ العشق مذلة دومًا.

- يعجبك شبابك وقوتك، يغرك الذهب والمجد، ستحيا في ضلالك؛ لأن مثلك لا يملك البصيرة ليندم، ستبحث بين القصور عن الجواري وتنجب البنين وتتزوج من ابنة عمك ربما، ولن ترتوي أبدًا.. لن ترتوي.

نظر إليه عبد الرحمن بعينين مبتسمتين منتصرتين ثم قال: ارتويت يا رجل وانتهى الأمر.

***

جاء النبأ اليقين، ابن سليمان تقدم من فلسطين ووصل إلى مصر، نصب خيمة كبيرة خارج حدود القطائع وانتظر الفرصة للهجوم عليها بجنوده. ستشتعل الحروب في الديار المصرية، ولن ينجو أحد من التوابع. شيبان يجهز جيشًا كبيرًا بعد أن أخذ الحكم من ابن أخيه هارون بن خمارويه. ينوي الصمود والانتصار على

ابن سليمان. لم يزل جيش طولون يخيف القريب والبعيد، هو مشهور بانتصاراته وشجاعته، لا جيش في إمكانياته ولا قدرته على الصمود والمقاومة، ابن سليمان يعرف هذا لذا يبقى داخل خيمته يخطط لضربة مختلفة تأتي غير متوقعة، اليوم لا إمدادات تصل القطائع بعد حرق الجسور، لن يتبقى سوى المدينة أمام جيش الخليفة، وابن سليمان لا يريد سوى محو أثر المدينة وربما سكانها لو استطاع. دعا شيوخ القبائل لخيمته والجنود المنشقة عن صف الطولونيين، أراد الفوز بالحيلة تارة وبالخيانة تارة. هدد ابن سليمان بأن من لم يقبل دعوته من شيوخ القبائل فلن يأمن على داره ونفسه.

جلس عبد الرحمن ليلًا يتشاور مع والده، ويختار الرجال التي سترحل معه لابن سليمان بعناية. سمعت حوارهما من وراء الباب وقلبها يتمزق. اختار عبد الرحمن ثلاثة رجال، منهم رجل يدعى صالح قال لوالده إنه لا يثق به ويريده معه ونصب عينيه. ربت الأب على كتف عبد الرحمن وشكره على توليه أمور القبيلة في هذه اللحظات الصعبة، ثم أخبره أنه لم يزل يشعر بالغصة لأنه يحنث في القسم وينقض العهد مع بيت طولون. فطمأنه عبد الرحمن وقال له أن لا عهد يثبت أمام السيوف، ولا قسم ينفع وقت الذبح. رتب أغراضه للذهاب إلى ابن سليمان. وذهبت هي إلى حجرتها، ووضعت الغطاء على رأسها وهي تكاد تنفجر، وكأن كل صخور الجبل تضرب رأسها وتثقل صدرها. دخل عليها وقت الفجر فقامت، ونظرت إليه في حنق ولم تنطق. قال: كنت تتجسسين كعادتك. أعرف. إياك، هل تسمعين؟ إياك أن تتحركي من البيت حتى أعود. ولا تتكلمي مع أحد خارج جدران هذا البيت، وحتى من في البيت تكلمي معهم بحرص ولا تكثري.

قالت في جفاء: لو أخذتني لابن سليمان فسيعطيك ضعف الذهب الذي أخذته مني. ما رأيك؟

أرادت أن تغضبه وربما نجحت. قال في تأمل: معك حق، سأفكر في الأمر، وحتى أصل إلى قرار لا تتطفي لأحد بشيء.

قالت وهو يخرج من الباب: أنا لم أعد أحبك يا عبد الرحمن، أريدك أن تعرف، أنا لا أحبك ولا أريدك.

قال وكأن الكلمات لا تصل إليه: هذا أفضل كثيرًا حتى نتعامل معًا بصدق وبلا رياء.

- وأنت صادق دومًا يا زوجي.

ابتسم في جفاء وقال: أنا صادق عندما تصدقين، وكاذب عندما تكذبين.

- هل ستعطي ذهبي لابن سليمان؟

- لا ذهب عندك يا أميرة، هو ذهبي أنا.

قالها ثم أغلق الباب وراءه ورحل.

***

بعد يومين من غياب زوجها انتشرت الأخبار عن خيمة ابن سليمان التي استقبل فيها رجال القبيلة وعن زوجها، زفت النساء الأخبار حتى قبل عودة الرجال إلى القبيلة، ورددت النساء اليوم - خاصة عزة وسليمة وعاتكة - أخبارًا بعينها على مسمع من عائشة. نادت عاتكة على عائشة وطلبت منها أن تجلس معهن، ثم قالت لعزة وعائشة تنظر إلى الأرض في صمت: أتعرفين ما حدث مع عبد الرحمن؟ أهداه ابن سليمان جاريتين من أجمل نساء الأرض، اختار واحدة، وأعطى الثانية لأحد الرجال. يقولون قضى معها ليالي من ليالي الأساطير، ليست ككل النساء، رومية تربت على الغناء والفنون، عيناها زرقاوان كمياه البحر.

رمقتها عزة بنظرة طويلة بها كل الكلمات وكأنها تقول بنظرتها: خانك كما خانني، لست مختلفة عن الجارية، قضى مع الجارية ساعات، وقضى معك ساعات، وقلبه معي أنا وسيبقى دومًا..

قالت عاتكة وهي تنظر إلى عيني عائشة المنكسرتين المرتجفتين: تُرى هل سيأتي بالجارية إلى هنا؟ تُرى هل ستبقين عليها يا عزة بعد زواجكما؟

ابتسمت عزة وقالت: لو كانت تسعده فسأبقي عليها مع أنني متأكدة أنه لن يحتاج سواي بعد الزواج.

فقالت عاتكة: مثله مثل أبيه. أتعرفين؟ تزوج خمس نساء، ولكنه الآن معي أنا فقط لا يحتاج سواي.

ثم همست في أذن عزة، فابتسمت.

قامت عائشة في بطء فمدت سليمة رجلها حتى ترتطم برجل عائشة فتتعثر، وقعت عائشة على وجهها وتحسست ذقنها المبتل بالدماء وسيطرت على البكاء، ثم قامت وسط ضحكات عاتكة ودخلت حجرتها.

قالت عزة في لوم لسليمة: لمَ فعلت هذا؟

فقالت سليمة: لا أحبها سارقة الرجال هذه. ثم أكملت وهي تضحك: هل رأيت نظرتها وهي تسمع قصة الجارية والدموع في عينيها لحظة وقعت على الأرض كالإبل؟ هل رأيت الدماء على ذقنها؟

لم تشاركها عزة الضحك.

عندما دخلت عائشة حجرتها لم تبك، مسحت ذقنها بظهر يدها وبحثت عن الرقعة التي رسمتها ثم أخذتها وذهبت إلى خالصة بلا كلمة، أشعلت النيران، وأحرقت الرقعة في بطء والدخان يمتزج بأنفاسها المحترقة.

قالت خالصة في تهكم: قلت لك ستتلفين الرقعة، والآن تشعلين النيران في حجرتي.. بعض العقل يساعدك يا عائشة، لِمَ البكاء؟

أبقت أطراف الرقعة بين أصابعها حتى وصلت النيران إلى أصابعها ولم تبالِ.

قالت خالصة: وعندما تحرقين أصابعك هل ستخمد نيران قلبك؟

غطت رأسها بيديها ولم تبك، فهناك ذل سليمة وسخريتها وإيذاؤها، وهناك سخريته هو وإيذاؤه وقد تعدى سليمة في قسوته وحقده عليها.

قالت خالصة في حدة: توقفي عن التفكير، لا يستحق الرجل عذابك، قلت لك من قبل هم كالنيران ولكنك اقتربت فاحترقت، وأتلفت الرقعة. ماذا توقعت منه؟ أن يكتفي بك أنت ويزهد في كل النساء؟ تصدقين الشعراء يا حمقاء؟

تمتمت عائشة: لو ابتلعتني الصحراء فأصبحت فتاتًا وذرات رمال في الهواء فأرتاح.

- تموتين من أجل رجل يا غبية، لا ولاء لهم، مثلهم مثل القطط البرية، حتى لو أطعمتها طوال عمرك فستترعم المتعة بين ذراعيك، ثم تتركك وتتمرد وربما تفترسك.. تعالي هنا..

شدتها إلى ذراعيها وقالت: لِمَ لا تبكين؟ من جرح ذقنك؟

- أندم على ما أعطيت.

- لا تندمي على عطائك، الكريم يعطي اللئيم دومًا، أعطيت لأنك كريمة، ولم يقدِّر لأنه لئيم، فلا ذنب لك. أعطيت لأن نفسك أبية وطيبة.

- أكرهه.

- بل تعشقينه، ليس للعشق دواء سوى الموت، هذا النوع من العشق يا ابنتي لا يتغير، كالوحمة وقت الميلاد.. أعرفه.

- سأموت إذن.

- بل تطحنين معي الحبوب وكأن قلبك يذوب وبغنت معهم حتى تهدأ نفسك وتنامي.

- سأقتله بيدي.

- تنهزمين مرتين لو رأى العجز في عينيك.. إياك.

ابتعدت عنها بعض الشيء ثم قالت: لا أفهمك يا خالة.

- استمعي إليّ وافهمي كلماتي، إياك أن تظهري عجزك أمامه، ولا كره القلب ولا الحزن، وإياك أيضًا أن يرى الشوق في عينيك، فتصبحي كالكلب الذي يلهث وراء صاحبه حتى عندما يبتعد.

- تطلبين الكثير، لا شوق بداخلي، هو الحقد والكره فقط.

- ألم أقل لك؟ الحقد والكره باطنهما الشوق والعشق. ستفهمين مع الوقت، عندما يعود تتعاملين معه كالزوجة التي يريدها بلا شوق وبلا توبيخ.

- كأنني بلا حياة!

- كأنك بلا حياة حتى لا يقضي على ما تبقّى من قلبك. استمعي إليّ مرة واحدة، الرجل كالقط البري كما قلت لك؛ لذا يأتي عندما يريد، ويرحل عندما يريد، لا ولاء له ولا رغبة في الاستقرار. لا تعلقي قلبك به مرة أخرى، وانسي ما يحدث، لحظات الحب هي لحظات كالدنيا تتنقل كالسحاب.



الباب الثاني

أغرَّكِ مني أن حُبكِ قاتلي | وأنكِ مهما تأمري القلب يفعلِ
وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي | بسهميكِ في أعشار قلبٍ مُقتَّلِ

امرؤ القيس

(شعر جاهلي)

- 3 -

كيف استطاع محمد بن سليمان أن يصل إلى منصب القائد في جيوش الخليفة؟

لا أحد يعرف بالضبط ولكن الرجال تتناقل قصة رجل صنع نفسه بنفسه، كاد أحمد بن طولون أن يقتله وهو شاب بلا سبب، ولم يشفع له سوى لؤلؤ قائد من قواد أحمد بن طولون، ثم أمره أحمد بن طولون أن يترك الديار المصرية، فذهب إلى بغداد يعمل في أي عمل حتى انقلب لؤلؤ على أحمد بن طولون فغادر مصر إلى بغداد، وهناك سعى محمد بن سليمان لمقابلته فرحب به لؤلؤ ودربه على السيف، واعتمد عليه ووثق في ولائه ثم قدمه لأخي الخليفة الموفق. وبعدها لم يترك قصور الخلفاء في بغداد، يتعلم سريعًا، ويبدي حماسًا وشجاعة. بقي هدف واحدٌ أمامه طوال السنين الماضية، وهو القضاء على أحمد بن طولون، ولكن القدر لم يعطه الفرصة، فقد مات أحمد قبل أن يقتله بيده، أما ما بناه أحمد، أما سيرة أحمد، فلم تزل قائمة قوية البنيان. أقسم على محو أثر بيت طولون وكل ما بنى.

حمل عبد الرحمن الهدايا والأغنام إلى ابن سليمان، وأمر رجاله بعدم الكلام في حضرته، وبعدم نقل ما يحدث بينه وبين ابن سليمان لأحد.

دخل على محمد بن سليمان الكاتب في خيمته فاستقبله استقبال المرحب الصديق، كان ضخم الهيئة قوي البنيان، بدا محاربًا مخضرمًا. ثم أجلسه ابن سليمان بجانبه وقال: ابن الصديق الغالي الشيخ موسى بن عثمان، مجيئك يطمئن نفوسنا ويدل على البصيرة والفهم.

بعد السلام قال عبد الرحمن: ماذا ينوي الأستاذ عند دخول مصر؟ تقف على باب الفسطاط والقطائع اليوم.

قال: يا أخي، حُكم ابن طولون كان انحرافًا عن الحق، خطيئة في تاريخ الخلافة وتاريخ البلاد، لأول مرة في تاريخ البلاد الإسلامية ينفرد رجل ببلاد كمصر، ويسيطر على أموالها ويقيم بها جيشًا، هذا جيش ابن طولون وليس جيش الخلافة، هذا لم يحدث من قبل ولابد ألا يحدث بعد ذلك. الناس ذاكرتهم قصيرة وعمرهم أقصر، والأيام تطحن ما تبقى من الذكريات بالآلام، لا أتوقع أن يتذكره المصريون، ولكن لينسوا، لابد من محو الأثر.

- لا أفهمك يا أستاذ.

- لا بأس يا عبد الرحمن، ستفهم بعد قليل، هناك جيش واحدٌ له شرعية الحكم وهو جيش الخليفة في بغداد، جيش مصر لا شرعية له ومع ذلك أعداده كانت تتزايد فأصبح أكثر من جيش الخليفة. هل انفرد عمرو بن العاص بحكم مصر مع أنه كان يعشقها؟ لا. فتحها وأنقذها من البيزنطيين ولم ينفرد بحكمها، لم يجرؤ على تكوين جيش منفصل لمصر. بل لم يجرؤ على فعل ذلك سوى أحمد بن طولون. يجند المصريين والعرب، ولا يكتفي بالترك والروم، هو طامع وظالم. لم أسمع في تاريخ الإسلام وقبلهم تاريخ الرومان عن أحد يجند المصريين. هل جند الرومان المصريين؟ لا. هل جند بنو أمية أو بنو عباس المصريين؟ لا. ثم يأتي هذا الجندي من بخارى ليجند المصريين. أي خطر يتنظر الخلافة وأي مثال يضربه لنا أحد في التمرد والافتراء؟

قال عبد الرحمن: ولكنه أعطى العرب حقوقهم التي تجاهلها الخلفاء، اعذر صراحتي. ماذا تنوي عندما يئول لك حكم مصر؟

قال ابن سليمان بلا تفكير: للعرب حقوقهم دومًا.

قال عبد الرحمن: لطالما ويحنني أبي لصراحتي وكلامي المباشر ولكني أريد أن أكون صادقًا معك فأنت أخ وقائد. أحمد بن طولون ومن بعده خمارويه جنَّدا العرب وأغدقا عليهم العطايا.

قال ابن سليمان في عدم صبر: سيموتون جميعًا في الحرب اليوم أو غدًا، ولو لم يعطوا الأمان لي فسأذبحهم.

- أتمنى أن يتمهل القائد فلم يؤَل له حكم مصر بعد، وجيش الطولونيين فتح الشام ووصل لحدود إفريقية واليمن والحجاز. أتمنى منك يا قائد أن تَعِد ولا تهدد حتى نجد نقطة التقاء.

- هذا كان في الماضي، أما الآن فقد فَقَد الطولونيون الشام والثغور كلها، لم يعد الجيش جيشًا يا أخي بل قطائع متفرقة، يتملكها الطمع ويتحكم فيها الأطفال.

قال عبد الرحمن في حسم: سيحارب منهم البعض حتى ولو استسلم الطولونيون أنفسهم.

- من يجرؤ على حربي وقد أتيت إليَّ الشام، وأنقذتها من القرامطة؟ هل جئت تتحداني يا عربي؟

- بل جئت أفتح عينيك ليكون لك النصر، المصريون جنود اليوم في الجيش لن يرضيهم زوال الطولونيين حتى لو كان أميرهم طفلًا تافهًا، عندما تدرك لا يمكن أن تعود إلى الغفلة، وعندما تملك فالفقد أصعب، أحذرك من قطيع المصريين وقطيع السودان وقطيع النوبة، فولاؤهم ليس لهارون ولا لشيبان بل لأحمد، بل ولاؤهم لن تكتشف لهم أنه مع حكم أحمد.

- مات أحمد منذ عشرين عامًا، غار وانتهى أمره.

- بل لم يبدأ بعد. لو أردت الفوز فلا تسرف في القتل، ولو أردت البقاء فلا تمحُ التاريخ. حتى لو حطمت القطائع فحكاياتها ستبقى في القلب، الحطام يبقى

في النفس حتى عند زوال البشر، كما يبقى الألم وننسى الفرحة، يا قائد.. سيبقى مسجد أحمد، فلا مفر من ترك المدينة قائمة والرفق بأهلها.

تدخل أحد مساعدي ابن سليمان، وكان يدعى قاسم الخراساني، وقال في حسم: بل سيهدم المسجد قبل أن تحرق المدينة.

ساد الصمت برهة ثم قال عبد الرحمن: تنوي أن تهدم مسجدًا أسس على التقوى؟

قال قاسم: بل أسس بمال مسروق. لأحمد مسجدان، مسجد التنور ومسجده الكبير، وسأمحو أثر المسجدين.

فقال ابن سليمان في لين: يا أخي، لم تنول لنا الفسطاط بحد ولا القطائع، أنوي الرحمة بأهل مصر ومهادنة العرب. واليوم لي أخ وصديق هو عبد الرحمن. ستحاربون في صفوفنا، أليس كذلك؟

قال عبد الرحمن: رجالي غير مجهزة للقتال.

- فما فائدة زيارتك إذن؟ هل جئت بالهدايا والذبيحة فقط؟

- ستقف الجنود في صفوف الاحتياط ولو اشتد القتال تتدخل. لن نحارب مع طولون، ولكنني لا أريد أن ألقي بما تبقى من الرجال في التهلكة. ستدخل رجالي لصالحك لو اشتد القتال.

- ومن يحدد أن القتال اشتد؟ رجالك تحت إمرتي.

- عذرًا، تطلب مني أن أتخلى عن كل ما أملك. الرجال لا تطيع سوى شيخ القبيلة. يا أستاذ كان بيننا وبين أحمد عهد، أنقضه اليوم من أجلك، فلا تضغط على رجالي فيثوروا ضدي وضد من أساند. العهد عند العرب دين لا يسقط بموت صاحبه. ومع ذلك أفضل أن أتحالف معك.

- لذا لا أستعين بالعرب ولا يستعين بهم الخليفة إلا للضرورة.

- ولكنك تحتاج إليهم اليوم.

- تؤمن لي الطرق وتحمي ولا تهجم.

- اتفقنا.

- أعطيك ما تحتاج من سلاح وذهب.

- بل نتفق على ما سيكون في المستقبل.

- اطلب..

قال عبد الرحمن: العطايا لرجالي ثلاثين عامًا، وتوليهم أمور الشرطة كما حدث أيام أحمد وابنه خمارويه، أجر للشيخ والصبي طوال هذه المدة، لكل رجال القبيلة، نكتب هذا في رقعة ويشهد عليها رجالك والقضاة.

- تطلب الكثير مقابل خمسمائة رجل لن يحاربوا.

- بل أطلب مقابل الأمان والطريق لو أردت السيطرة.

- لا أريد غيرها. لك ما تريد، وستبقى معنا هنا أنت ورجالك، حتى تتضح الرؤيا.

وافق عبد الرحمن ومن معه من الرجال.

فقال ابن سليمان: ولك مني طوال إقامتك جاريتان هدية، ولكل رجل معك واحدة.

- كرم الأستاذ معروف منذ زمن.

دنا منه وقال: سأعطيك جارية لم تر في جمالها في حياتك تجيد الغناء والرقص وتلقي الأشعار، ستغير كل أيامك القادمة.

- وهل لي أن أرفض عطايا، وقد جئت أطلبها؟!

- تعجبني يا أخي.

* * *

حاصر الجنود الطولونيون الفسطاط والقطائع؛ فمع أن المدينتين بلا أسوار أصبح الدخول مستحيلًا، الفرسان تقف بالرمح والسيف، والعساكر تحوم ليلًا ونهارًا. بعد مقتل هارون على يد عمه شيبان بدأ شيبان تأمين نفسه بالجنود السودانيين وتأمين الحدود ببقية الجنود.

انطلق جيش ابن سليمان في معركة ضارية مع الجيش الطولوني، وتوقع أن يدخل القطائع قبل غروب الشمس ولم يحدث. بدا عليه عدم الصبر واليأس، تذكر ما كان، أهو ماض؟ لا يدري أيود نسيانه أم استحضاره في هذا الوقت ليحثه على الاستمرار؟ كيف لعشرة آلاف جندي ألا تنتصر على جنود الطولونيين؟ كيف لجيش منقسم أن يصمد هذا الصمود؟

استدعى عبد الرحمن وقال في قوة: نحتاج إلى رجالك اليوم.

قال عبد الرحمن في رفق: يا أستاذ، لو أخذت رجالي اليوم فسيُذبحون قبل طلوع الشمس، أبقِ على الرجال، ربما نحتاج إليهم فيما بعد.

- لا أعرف لمَ يقاوم الجيش؟ أي خيانة أن يقاوم جيشٌ جيوش الخليفة!

- يرون في أحمد حلمًا ورمزًا.

- أحمد.. هو سبب كل المصائب. مات وغار، وذكراه تنغص عليّ أيامي، ولكني سأمحو وجوده، أقسمت أن أفعل.

نادى على أحد رجاله، وطلب منه أن يحمل رسالة لشيبان بن أحمد بن طولون من يحكم مصر اليوم، قال في رسالته: إن الجيش الطولوني سيستسلم عاجلًا أم آجلًا، وإن النصر للخليفة اليوم أو غدًا فلا إمدادات ستصل ولا حدود شرقية تساعده، فالشام في يد الخليفة، وأهل الفسطاط والقطائع سيعانون قسوة الحرب ووطأتها. لو كان والده أحمد حيًا كان سيفضل أمان الناس وسلامة المصريين وسلامة القطائع والجيوش. في اعترافه بالخليفة واستسلامه إنقاذ لنفسه

وجيشه حتى لا يرى فناء المدينة. ومن يدري؟ ربما يعطيه الخليفة ولاية مصر. وعده ابن سليمان أن يطلب من الخليفة أن يعطيه ولاية مصر لو استسلم اليوم.

ثم أكمل الرسالة وقال: أعطيه الأمان هو وكل آل طولون.

ثم صاح في ثقة أمام عبد الرحمن وكل الرجال: يشهد عليَّ الرجال اليوم أني أعطي الأمان للطولونيين، وأفضل مصلحة الناس ونجاتهم من أهوال الحروب، أقسم أمام الرجال أن في استسلام شيبان نجاة للمدينة ولكل من فيها. لن يمسهم سوء. ستعود مصر إلى الخلافة، وينتهي الأمر، وسيبقى الطولونيون في مصر أمراء وسادة.

أخبر شيبان أني أقسمت أمام الرجال، وأن العهد عهد إلى يوم القيامة. وقل له إنه لو أراد الاستسلام فأريده أن يأتي بجنوده ناحية خيمتي هو وكل آل طولون بلا سلاح. وإني أثق أنه لن يغدر بي، فهو كريم ابن كريم.

قال أحد الجنود: يا أستاذ ربما يجهز لنا فخًا مع الرجال.

فكر ابن سليمان قليلًا ثم قال: يأتي هو وكل آل طولون أولًا ثم يتبعه الجيش. لا تقلق. كلمة الملوك كالسيف لا تلتوي ولا تنثني.

استمرت الحرب الضارية وابن سليمان يزداد يأسًا من النصر، ويتوقع أن يقتله الخليفة عند عودته إلى العراق.

عند طلوع الفجر جاءته البشرى، وافق شيبان على شروط ابن سليمان. تنفس في ارتياح وهو ينتظر قدوم شيبان وجيشه إلى خيمته.

***

بقي عبد الرحمن ورجاله في الخيمة يشاهدون في صمت، ثم اقترب صالح من عبد الرحمن وقال: لا أثق في وعد ابن سليمان.

قال عبد الرحمن: لا شأن لنا بوعده. لا تتكلم الآن، في وقت اليأس تتفشى القوة. لو سمعك يقتلك على الفور.

جاء شيبان ومعه كل آل طولون، استقبلهم ابن سليمان في خيمته استقبالًا حافلًا، ثم جلس أمام شيبان، وطلب منه أن يعرفه على كل آل طولون من رجال ونساء فهو يتذكر يومًا كان تحت رحمة أحمد وأكرمه وحافظ على حياته. بدأ شيبان يقول أسماء كل آل طولون ثم قال: يا بن سليمان.. لقد أقسمت أمام الرجال بالأمان لنا.

- أقسمت ولا أحنث بالقسم أبدًا. أنت ولي نعمتي، أنت وكل آل طولون. لطولون ثلاثة وثلاثون ولدًا وبنتًا، مات من مات، ولكني أسأل عن زوجته المصرية أسماء، أين هي؟

قال شيبان في حيرة: كيف تعرف اسم زوجة أبي؟

- أعرف كل آل طولون. كان بيننا اتفاق أن يستسلم لي كل آل طولون. أنت تعرف ما أقصد، دخلت الفتنة بيت الطولونيين فلو فر أحد من آل بيت طولون فلا استسلام يجدي، سيجمع الجيش ويعيد الكرة. ولو تزوجت زوجة أحمد بأحد القادة، فلا أهمية لاستسلامك أنت يا أمير. أين أسماء؟

- هربت منذ شهور. لا أحد يعرف عنها شيئًا.

- وأين ابنة أحمد من أسماء؟

- تقصد عائشة؟

- نعم أين عائشة؟

- كيف لي أن أعرف؟ قلت لك هربت هي وأمها منذ شهور.

- ولم تبحث عنها؟

قال شيبان: كنت في سجن ابن أخي يا رجل. ثم إن أسماء أبقت ابنتها بعيدة عنا كلنا، لا تخرج من الحرم إلا قليلًا، كانت كالثعلب يخجل من البشر ويختبئ في الجحور.

- والثعالب خطر على الخلافة. أريد عائشة ابنة أحمد.

رفع شيبان كتفيه في عجز وقال: لا أعرف عنها شيئًا قلت لك. منذ متى يهتم الخليفة بالحريم؟

قال ابن سليمان: سمعت عنها أنها جميلة، وكنت أريد الزواج بابنة ولي النعم.

- لو وجدتها أزوجها لك.

- لابد أن نجدها إذن. لن أبرح الديار المصرية حتى أجدها. وإبراهيم، أين إبراهيم بن خمارويه؟

- يا بن سليمان، تتعامل معي كأنني سجينك وأنا أمير تلك البلاد وابن أحمد.

قال بن سليمان في صرامة: إبراهيم بن خمارويه طفل لم يتعدَّ العاشرة. أين خبأته؟

- أقسم لك لم أخبئه، تم خطفه ليلًا منذ يومين. اعتقدت حينها أن جنودك خطفته لتتفاوض على حياته. معك كل رجال آل طولون وكل نسائهم، وتسأل عن ابنة مجهولة هربت، وطفل لا قوة له!

- من حكم البلاد في السنوات العشر الأخيرة كان الأطفال يا أمير. أين جيوشك وحاشيتك؟ مرهم أن يستسلموا!

- أمرتهم جميعًا.

- ولكن الجيش لم يستسلم.

***

هاج ابن سليمان وماج، وفي وقت اليأس والخوف يسطع الصدق وتُخلَع كل الأقنعة. استسلم فرسان شيبان ولم يستسلم عساكره. سأل شيبان عن السبب فقال شيبان إن العساكر ربما لم يصلها خبر استسلامه. حار واحتار ابن سليمان في أمر العساكر، وأقسم أن يلقن المصريين درسًا اليوم. استدعى عبد الرحمن وسأله عن رأيه.

وأخبره أن عساكر الطولونيين لم تستسلم. تحارب وهي تعرف أن النصر له. لِمَ يلقون بأنفسهم إلى التهلكة، ولو كانوا يحاربون من أجل الأمير شيبان فقد استسلم الأمير؟ ماذا سيجنون، وماذا يعرفون؟

قال عبد الرحمن: يعرفون أكثر مما يعرف شيبان. عاشوا في البلاد، وتوارثوا حلم أحمد.

- أي حلم؟ أحمد مات.

قال عبد الرحمن: قالوا إن أحمد كان يحلم بملوك قدامى، كانت مصر مركز حضارتهم، هي تخاريف وأضغاث أحلام. لا قيمة لها يا أستاذ.

- أريد لرجالك أن تتدخل.

- اليوم الحرب في صفك، لا حاجة لك بالرجال، هم عساكر مشاة لا يقلقون الأستاذ. يحاربون من أجل وهم ونجوم تلمع أمامهم ليلًا ثم تنطفئ. اتركهم حتى يستسلموا.

- أحمد أخطر مما ظننا حيًّا كان أو ميتًا.

ثم أمر ابن سليمان بذبح كل رجال شيبان من قطيع السودان، وبدأ حرقه وتخريبه للقطائع والفسطاط. جاءه المدد من الخليفة، جنود خرسانية أقوياء وأشداء، أمرهم بذبح الجند المصريين الذين رفضوا الاستسلام وذبح الجنود الذين

استسلموا، وذبح كل من لم ينضم إلى جيش الخليفة قبل استسلام شيبان. لا أمان لمن يحارب من أجل حلم. من يحارب من أجل قائد أو أمير تستطيع التفاوض معه. ولكن الحلم لا مدخل له ولا قلب؛ لنصوب السيف داخله. في غضون أسبوع بدأت الحرائق، ودخل العرب الخرسانية الفسطاط والقطائع. اغتصبوا النساء وقتلوا الرجال وهدموا البيوت والأفران والمصانع. ولكن القطائع بها ألف بيت أو يزيد، لن يكفي أسبوع لهدمها، يحتاج ابن سليمان إلى شهور.

دنا منه قاسم الخرساني وقال في حضور عبد الرحمن: تهدم بيتًا بيتًا والبيمارستان والميدان، ولكن كل هذا لن يمحو أثر أحمد. لو هدمت مسجده في القطائع تمحو أثره، لا مسجد سيبقى في العسكر ولا الفسطاط بعد حين، أما مسجده فبناه مصري يجيد السحر لن يهدم ولو بعد ألف عام. لو استطعنا أن تهدم مسجد أحمد فلن يكون هناك وجود لمدينته. أما لو حرقنا كل المدينة وبقي المسجد فسيذكُر الناس بعهد فائت وحلم لطامع كأحمد.

قال ابن سليمان: سيقولون ابن سليمان يهدم مساجد الله.

قال قاسم في قوة: هدمنا مساجد وأحرقناها داخل القطائع، هدمت بنفسي مسجد التنور، ثم أحرقته ولم يعترض أحد، ولم يجرؤ أحد على الكلام، ثم لو أشعنا بين الناس أن مسجد أحمد بناه ساحر قبطي، وأن الكنز الذي سرقه أحمد واستعمله في بناء المسجد مال حرام لن يبالي العامة. وهذه ليست فتنة، بل هي صدق.

نظر ابن سليمان لعبد الرحمن الذي بدا صامتًا ثم قال: ما رأيك؟

- يشرفني وجودي مع الأستاذ، وثقته في رأيي.

- لم تقل رأيك؟

قال عبد الرحمن: أظن أن هدم مسجد فأل شؤم وسابقة خطيرة.

- بل هدم المساجد حدث من قبل وقت بني أمية، ألم تتحطم الكعبة نفسها من المنجنيق وهدمها، وأعاد بناءها عبد الله بن الزبير؟ حتى الكعبة لم تسلم من الحروب.

بقي عبد الرحمن صامتًا، وبدا ابن سليمان مترددًا حتى قال قاسم: اتركني أنا أهدمه، لا علاقة لك أنت يا أستاذ. انفض يديك من التفاصيل الصغيرة نحتاج إليك لما هو أكبر.

قال ابن سليمان: أريد كل كنوز أحمد، كل ما بداخل قصره لي. هل دخل الجنود القصر بعد؟

- ليس قبل أن يأمر الأستاذ.

- يدخل جنودي، ويأتون بكل نفيس أو رخيص داخل القصر. وأريد البحث عن عائشة وإبراهيم أن يتضاعف. قبل مرور الشهر أريد العثور عليهما.

***

ليلًا بدأ النقاش مجددًا بين قاسم الخرساني وابن سليمان عن أهمية هدم المسجد.

فهم عبد الرحمن بسرعة، عرف ماذا ينوي ابن سليمان، وكان من المقربين إليه، قائده وخادمه قاسم الخرساني الذي أتى بعرب خراسان لأنهم رجال أشداء يحاربون حتى آخر نفس، ولا يتذمرون ولا يشكون من جرح غائر أو خفيف.

قاسم الخرساني ينفذ الأوامر قبل أن يسمعها، وولاؤه ليس فقط لابن سليمان بل لأفكار ابن سليمان وأحلام ابن سليمان. حكى له ابن سليمان عما فعله به أحمد، واستفاض في حكيه وهما يحتسيان الخمر وينعمان بما لذ وطاب من الجواري.

فقال قاسم الخرساني في حسم: لو أردت أن تمحو أثر أحمد، فلابد ألا تقضي على مدينته فقط، لا بد أن تهدم مسجده أولًا، وتقطع نسله، المسجد والنسل هما أحمد.

قال ابن سليمان في تأمل: يقال إنه عندما بنى المسجد قال إنه لا ماء سيغرقه ولا نار ستحرقه.

- قوله في مصلحتنا يا أستاذ، فالمسجد لا يُهدم إلا بالمنجنيق.

- سيقولون ابن سليمان هدم مسجدًا يصلي به الناس.

- عندما ضرب بنو أمية الكعبة لم يَلُمْهم الرعية، من يتكلم هو القوي، أما الضعيف فيسمع فقط. عند الانتصار لابد من تنظيف الساحة من أثر أحمد. ابنته تتزوجها أو تذبحها، افعل بها ما شئت، أما مسجده فهدمه واجب.

قال ابن سليمان: أنت من تفعل هذا.

- أنا أنفذ أمرك حتى وأنت في بغداد.

- ولو فشلنا في هدم المسجد يا قاسم؟

- لو فشلنا في هدم المسجد فقد فشلنا في الانتصار على أحمد. هو يعرف وأنت تعرف.

- أنت على صواب. متى سنبدأ في الهدم؟

- عندما تنهزم المدينة وتتساوى بناياتها بتراب الصحراء.

التقت عينا قاسم الخراساني بعيني عبد الرحمن فقال: أخي العربي عبد الرحمن ابن موسى، ألا يعجبك كلامي؟

قال عبد الرحمن وهو يثبت عينيه على قاسم: ما أهمية رأيي أمام رأيك أنت يا قائد؟

اقترب منه قاسم وجلس بجانبه وقال: ما رأيك في الجارية؟ اخترعها لك بنفسي.

قال عبد الرحمن: هذا يدعو للقلق إذًا يا أخي، فأنا لا أعرف ماذا قلت لها وقت الحب.

ضحك قاسم ثم قال: يقولون نساء مصر خير كل النساء، لم أجرب أيًا منهن. وأنت يا عبد الرحمن، ألك خبرة مع المصريات الأقباط؟

قال عبد الرحمن: لا أعرف شيئًا عن نساء مصر. نفضل الزواج من نساء القبيلة.

- أحمد بن طولون من أخبث الرجال، لو قرر الزواج بمصرية فلابد أنه وجد فيهن شيئًا مختلفًا.

قال عبد الرحمن لقاسم: أتنوي الزواج من مصرية يا أخي؟

ضحك قاسم ثم قال: ولِمَ أتزوج من مصرية يا بن موسى وكل نساء مصر أسرى عندي؟!

ساد الصمت برهة ثم قال عبد الرحمن: أتود أن تأسر النساء؟ نساء مصر لسن جواري. لو أسر العرب نساء مصر فلا ولاء لمصري لنا أبدًا. لن ينسى المصريون هذا، بل سينتقمون اليوم أو غدًا.

قال قاسم: المصري ليس عربيًا يا عبد الرحمن.

- الشرف عنده أغلى من العمر يا أخي. أنا وُلدت في هذا البلد وأعرفه.

قال قاسم في تحد: هل تأتي معي غدًا وتراني وأنا أطوع النساء وأملكهن أمام أزواجهن وآبائهن.

- إياك أن تفعل.. لو فعلت فستكون هناك عواقب.

قال قاسم في سخرية: عواقب منك أم من أهل مصر؟ من يتكلم عن التقوى هو من يغور على الفلاحين كلما نقص الغذاء أو المال! عبد الرحمن الذي يعرف

كل الناس أنه يسرق الغلال والماشية، ثم يصرف أموال الفلاحين على اللهو.. ينصحني اليوم بالابتعاد عن بنات مصر!

قال عبد الرحمن: سرقة الماشية غير سرقة الأعراض يا أخي، ثم أنا أخشى على هيبة الخليفة.

- الهيبة تأتي بالقسوة والانتصار، وما يحدث وقت الحروب ينساه الناس بعد الهزيمة، فلا بد من نسيان وقت العجز. لا تشغل بالك بما سأفعل، واستمتع بجاريتك.

ساد الصمت المتوتر بينهما.

***

صرخات النساء امتدت لتحيط الديار المصرية، وذاع صيت ابن سليمان وعرب خراسان حتى اتهمهم المصريون بالكفر فلا رحموا ولا عفوا. أرادوا الانتقام من المصريين في القطائع والفسطاط. دخل الجنود القطائع ومعهم النار والمنجنيق والأسلحة، هدموا البيوت على سكانها، أحرقوا البقالات والمخابز والمصانع ومحال العطارين والجزارين والشوائين والحمامات والأفران والطواحين، ثم أحرقوا المساجد الصغيرة، ودخلوا على النساء فاغتصبوا البنات أمام ذويهم، وسلبوا ونهبوا من السكان. ثم كان الدخول إلى قصر أحمد. دخل ابن سليمان محاطًا برجاله والابتسامة لا تترك فمه، أمر الرجال بحمل كل الذهب والمجوهرات، وكل ما هو ثمين إلى خيمته، ثم بدأ في هدم كل جناح على حدة في تأنٍّ ومتعة. أحرق الأخشاب الثمينة والأشجار النادرة، ذبح الحيوانات البرية ونقل أنواع الطعام إلى خيمته ووزعها على جنوده. كل يوم يباشر بنفسه هدم قصر أحمد وميدان أحمد. نظر إلى السماء ثم قال بصوت عالٍ: هل تراني اليوم يا أحمد؟ هل تندم أم تتحسر على رحمتك بي أم على قسوتك علي؟ تجلدني من أجل حلم يا ظالم؟ ها هو الحلم أصبح حقيقة ولم يعد لك وجود. ما تبقى من بيتك من

رجال ونساء في قبضتي، أرحم أو أعاقب كما أشاء وكل كنوزك بين يدي. كنت ظالمًا، حتى لو عشقك كل أهل مصر، أنا أعرف حقيقتك يا أحمد ولا يعرفها سواي. رأيت عينيك القاسيتين وعرفت بطش يديك، ستصبح مثالًا كفرعون موسى، سيتذكرك الناس كحاكم ظالم لم يترك أثرًا ولم يبن بيتًا. أنت اليوم منسي يا أحمد كأنك لم تكن.

ثم أمر بسجن كل آل طولون حتى يقرر الخليفة ما سيفعله بهم، وأمر جنوده أن يأتوا بعائشة حية أو ميتة اليوم قبل غد هي وإبراهيم.

صاح شيبان في استغاثة: لقد نقضت العهد يا بن سليمان. نقضت العهد، استسلمت لك على أن تعطينا الأمان وتتركنا في مصر في سلام، فسجنتنا.

قال ابن سليمان في حسم: بل لا وجود لك يا شيبان، ستموت قبل نهاية هذا العام لو آل لي حكم مصر. لا عهد بيني وبين اللصوص، وأنت لص، ووالدك لص، وكل بيت طولون لصوص.

***

علت ضحكات ابن سليمان ونظر إليه عبد الرحمن في صمت برهة ثم قال: الأستاذ سعيد بانتصاره؟

- انتصاري لم يبدأ بعد.

- هل تسمح لي بالرحيل؟ أريد أن أحمي القبيلة وأطمئن أهلها، أم أنني سجين هنا؟

أطرق ابن سليمان ثم قال: أنت أخ وحليف، ولكنك لم تفدني يا عبد الرحمن، لا اشترك رجالك في الحرب ولا أمنوا الطريق.

قال عبد الرحمن: ولا حاربوا ضدك يا أستاذ. لا تحتاج إلى رجالي ومعك العرب الخراسانية.

قال في حسم: وعندما أحتاج إليهم؟

- هم رجالك في أي وقت تحتاج إليهم.

- أتقسم على الولاء لي؟

- أقسم على الولاء للخليفة.

- يمكنك الرحيل، ولكن.. لو احتجت إليك فلتأتِ مع رجالك.

- على الفور.

ثم فكر عبد الرحمن هنيهة وقال: لي سؤال عند الأستاذ أتمنى أن يجيبني عليه.

- اسأل.

- لِمَ التنكيل بالمصريين؟ لو كانت حربكم مع بني طولون فلم الانتقام من المصريين؟

التفت أعينها ثم قال ابن سليمان: الجنود المصرية حاربت حتى بعد استسلام شيبان.. أتتذكر؟!

- هؤلاء جنود وليسوا عامة.

- بل العامة أخطر وأشد، أغلقوا بيوتهم أمام جنودنا، وتعاملوا معنا على أننا كفار صليبيون. عيونهم تحن لأحمد وحلم أحمد، عندما تحارب حلمًا لابد أن تقسو.. أتعرف ما الذي يقتل الحلم يا عبد الرحمن؟

- ما الذي يقتل الحلم؟

- الذل. الذل يكسر أكثر من الموت والعجز، عندما ترى الأم ابنها مذبوحًا، ويرى الزوج زوجته تحت جندي خراساني يعرف أن لا حيلة له، وأن انفراد أحمد بمصر كان ذنبًا يستحق العقاب. أتفهم؟

- أحاول.

- يؤنبك ذبح المصريين؟

- يؤذيني اغتصاب نسائهم وهتك الأعراض، هذا ليس من شيمة المسلمين ولا العرب.

- تحكم في الجنود إذن. عندما يتذوق الجندي الدماء لابد أن يلقي بحمل القتل على كتف امرأة، هذه عادة الحروب.

قال عبد الرحمن بعد برهة: أراك على خير.

رحل ومعه ثلاثة رجال: صالح ورجلان آخران. لم يتجه إلى القبيلة، أمر صالح بالعودة قبله ثم أبقى معه الرجلين الآخرين، وقرر أن يسير في حارات القطائع يرى الحطام. سمع الصرخات من النساء ورأى النار تأكل الوجوه والأطراف.

همس لصاحبه: لو لمحت جنديًا من عرب خراسان فاقتله.

نظر إليه صاحبه في فزع. فرفع عبد الرحمن سهمه واستعد للرماية وصوبه ناحية جندي يمسك بفتاة لم تتعد الثالثة عشرة يمزق ملابسها، أطلق السهم فأصاب ظهر الجندي بالضبط فسقط وهو يصرخ وهربت الفتاة. ثم أخفى قوسه داخل قفطانه وسط الزحام وعلت الصرخات، فانطلق في هدوء كأن شيئًا لم يكن، فقال صاحبه: لم فعلت هذا؟

قال في لامبالاة: ابتلينا بهم، وعلى قدر البلاء تأتي المجازفة.

- عبد الرحمن.. لا أفهمك.

- ولا أفهم نفسي. هيا إلى بيتنا.

***

- 4 -

تحتضـن نفسـها طـوال الوقت هـذه الأيام، تحتـاج إلى دفء ذراعيها وسـط كل الصقيـع الـذي يحاصرهـا. عاشر الجارية وسـيعاشر ابنة عمـه وغيرها، وربما يتركهـا في حجرتها وحيدة. أحيانًا تحقـد وكثيرًا تحزن على ما أعطت بلا مقابل. مـا يهز الروح ليس الذهب الذي سرقه منها بل العطاء وقت الحب، اطمأنت له وتدفقت مشاعرها تجاهه بلا رقيب، وجاء وقت الندم. تندم على كل قبلة أعطتها بلا تحفظ وعلى كل كلمة حب قالتها بلا حذر. ستكتب لقطر الندى مرة أخرى.. ستخبرها بكل شيء، حتى لو ماتت قطر الندى فهي تسـمعها، ستخبرها أنه هجرها وعاشر الجارية، هجر الأميرة ابنة أحمد. ستخبرها أنها تحتقر نفسها أحيانًا لأنـه لم يجد فيها ما يعجبـه، وأحيانًا لأنها لا تعرف قلبهـا، ولا لِمَ يصر على موتها. ستقول لقطر الندى إن الأميرات لابد ألا يعلقن قلوبهن بالرجال، وإن الأميرات لديهن واجبات وتقاليد مختلفة. ستخبرها أنها اختارت العربي من بين كل الجنود، فاختار هو الجارية.

عاد زوجها. سمعت أصوات الرجال يتكلمون ولم تبرح حجرتها.

بدا واجمًا مهمومًا، أثلج صدرها هذا بعض الشيء. استقبلته في برود، ولم تلتق أعينهما.

أدهشها دخوله حجرتها كأنه لم يتغيب عنها ولم يخن.

قال وهو يخلع عباءته: أريد أن أغتسل، كان يومًا طويلًا، كله غبار، جهزي لي الماء.

هزت رأسها بالإيجاب، وما إن خرجت من الحجرة حتى تنفست نفسًا طويلًا، وأغمضت عينيها حتى تمنع الدموع من أن تتساقط. تكرهه كرهًا لا يوصف، أتولها عيناه الحزينتان؟ بل لابد أن تشتفي فيه اليوم، وتتمنى أن يموت كما قتلها، أن يحترق كما خلع القلب وألقى به إلى النيران. هل عانق الجارية ونام بين ذراعيها بعد أن عشقها؟ هل ارتجف وهو يهمس: كم هي جميلة؟ ترى هل مر بأصابعه على شعرها في حنان؟

سمعت صوته: عائشة.. أين الماء؟

هل سره التحالف مع ابن سليمان؟ من كان يتلف الخطيرة لدى والدها؟ هل ارتاح من انتصار اللئيم على العظيم؟

دخلت بوعاء الماء، وضعته على الأرض ونظرت إليه بلا كلمة فقال وهو يخلع بقية ملابسه: ساعديني على الاستحمام.

قالت بلا إرادة: ألم تأتِ بجاريتك معك لتساعدك؟ ليس للأميرة أن تساعد أحدًا، هكذا تربينا. لو كان عندك جارية، فأتمنى أن تطلب منها هذه الأشياء.

نظر إليها ثم قال: حتى الأميرة تطيع زوجها.

- أين جاريتك؟

أمسك باللوف، ثم أمسك بيدها ووضع اللوف على كفها وقال: هيا ساعديني على الاغتسال.

قبضت يدها على اللوف ثم استدارت وبدأت تمر به على كتفه حتى لا يرى وجهها والنار تخرج من وجنتيها، لابد أن تتذكر كلمات خالصة.

ثبتت عينيها على قطرات الماء على كتفه وأزاحتها في بطء وكأنها تود أن تمحو أثر الأخرى أو أثر العشق بداخلها، لم تتأكد.

قال فجأة: ما الذي يغضبك؟ تحزنين من أجل انتصار ابن سليمان؟ هل كان لديك شك في أنه سينتصر؟

لم تجب.. استمرت في إزاحة المياه في بطء.

استدار إليها ثم قال فجأة: النار التي تحرق قلبك هي من أجل هزيمة الطولونيين، أم بسبب اقتنائي الجارية؟

قالت وهي تتحاشى عينيه: هو حقك.. حقك أن تقتني الجواري وتتزوج بمن تحب. أحزن من أجل عزيز قوم ذلوا في عصر تختلط فيه الحقائق. سامحني يا زوجي، لم أبد الحماس بعودتك من عند من اغتصب حق أبي.

- والدك مات منذ زمن، تذكري هذا، من كان يحكم كان طفلًا يلهو، ثم حكم عمٌّ قتل ابن أخيه ومعه حزمة من المقربين المفسدين.

اقترب منها وأحاط وجهها بيديه ثم قال: ولكن هذا ليس السبب الوحيد..

أزاحت يده، فنظر إليها وقال: هل ستمتنعين عني اليوم؟

ألقت بالليف داخل المياه في قوة، فتناثرت حبات المياه على وجهه ووجهها، ثم قالت وهي تنتفض من مكانها: ما الذي تغير؟ ألم تهجرني أسبوعين قبل رحيلك، ثم عاشرت الجواري في خيمة منظف حظيرة أبي؟ لمَ تريدني؟

أزاح المياه من على وجهه ثم قال: ما هذا السؤال؟ أريد زوجتي في أي وقت بلا أسئلة.

علت أنفاسها وهي تتخيل أنها تمسك بوعاء الماء وتلقي به على وجهه، تتمنى لو كان الماء ساخنًا مغليًا، ماء يشوي الوجوه. ربما لو أخذت الوعاء ثم سخنت الماء حتى الغليان وعادت به مرة أخرى يكون أفضل.

قال في رفق: عائشة ملابسك مبتلة، هيا اخلعي عنك هذه الملابس.

قالت في صوت مرتعش: أتعرف يا زوجي عندما تعذب البهيمة وتسحلها، لا تستطيع أن تحلبها في نفس اليوم؟ يقولون البهائم لا تنسى.

ابتسم وكأنه لا يفهم كلماتها وقال: ولكنك أميرة، الأميرة تنسى. تعالي هنا.

قبضت كفيها حتى لا تغرز أظافرها في وجهه ثم قالت في غيظ: قلت لي من قبل إنه لا فرق بين الأميرة والجارية أتذكر؟ وأنت لم تعد تشتاق إليّ.

نظر إليها في ذهول ثم قال: لم أقل هذا قط. أين سمعت هذا؟ الفرق أن الأميرة تعرف واجباتها، وتتنزه عن تفاهات النساء، فلا تهتم بأمر الجواري.

ابتسمت في جفاء وقالت: لن أمتنع عنك، أنت زوجي، لك الطاعة كما قلت.

- هذا أفضل كثيرًا.

ترك الاستجمام وأحاط وجهها مرة أخرى ثم قبلها في لهفة، تقبلت قبلته في ثبات وقد أغلقت النفس عنه، كلما غفلت النفس.. ذكّرتها، وكلما ذاب الجسد من لمساته رأته مع غيرها في مخيلتها، فتجمد الجسد وأصبح طوع إرادتها. تركته يفعل ما يشاء، يضمها في قوة، يقبلها، بدا شوقه صادقًا، دومًا شوقه الصادق هو سبب الهوان. كتمت دموعًا لم تتساقط حتى انتهى، ثم ابتعدت عنه. شدها إليه فقالت في حسم وهي تزيح يده: ليس للزوج أن يرغم زوجته على هذا، قمت بواجبي، اتركني أنام كما أريد.

لم ينطق.

ابتعدت قدر المستطاع، وتساقطت الدموع الآن بلا توقف.

قال وهو يعتدل في جلسته: لمَ تبكين؟

فقالت: لا أبكي.. بل ربما أبكي على ما ضاع.

- وما الذي ضاع يا عائشة؟ ما ضاع لم يكن ملكًا لك بالأصل.

- ظننته لي.. هو خطئي وضلالي.

قال وهو يمسك بذراعها: تعالي هنا. كنت تنامين فوق قلبي، أتتذكرين؟

قالت وهي تزيح يده: لا أتذكر.

ساد الصمت المتوتر، وتمنت أن يخرج من الحجرة الآن أو يأتي الفجر على حين غفلة. شدها إليه فابتعدت عنه. طلب منها أن تقترب فرفضت بكل نفسها. لم تنم ولكن عند الصباح شعرت به وهو يقوم ثم يأتي برقعة وقلم ويجلس، ثم نادى عليها. فتحت عينيها ونظرت إليه. قال في حسم: عائشة تعالي هنا.

جلست بجانبه فأعطاها القلم وقال: اكتبي كل محتويات قصرك. كل شيء.. الذهب والحيوانات والزخارف والطرز والفضة والنحاس، كل القناديل والستائر والفراش.

نظرت إليه في ذهول، فقال: هيا.. ماذا تنتظرين؟

- لا أفهم.

- لا يوجد ما يحتاج إلى الفهم. ربما عندما تكتبين وتحتفظين بالذاكرة يساعدك هذا على تخطي ما حدث. هيا اكتبي.

- أعطني بعض الوقت.

- لا يوجد وقت.. اكتبي الآن.

بدأت تكتب في تردد، وكلما تذكرت القصر ازداد الغم.

مكث ينظر إليها في إمعان، فقالت في عدم ارتياح: لا أريد أن أكتب أي شيء.

قال في حدة: لم أسألك عما تريدين. افعلي ما آمرك به بلا كلمة. إياك أن تنسي أي شيء.

- لا أتذكر كل التفاصيل.

- ألم تقضي عشرين عامًا داخل القصر؟ لا بد أنك تتذكرين.

مر بيده على ظهرها ثم قال: كم جارية كان يملك أبوك يا تُرى وكم زوجة؟

فهمت ما يقصد، فلم تجب.

قالت وهي تبتعد عنه: لا أستطيع أن أكتب وأنت قريب مني هكذا.

اقترب أكثر حتى لفحت أنفاسه وجنتها ثم قال: لم تجيبي، هل استاءت أمك من جواري أبيك؟ أو من زوجاته؟ هل قابلته بوجه متجهم؟

طبقت شفتيها ورغبة تجتاحها بأن تفقع عينيه بالقلم الذي بيدها ثم قالت: لم تفعل. اعذرني لست بطيبة أمي ولا كرمها.

ابتعدت عنه وقالت: قلت لك لا أستطيع أن أكتب هكذا.

- اكتبي ولا تعترضي على شيء. هيا..

ثم قال بعد برهة: لمَ تنتقمين مني، أنا لم أفعل شيئًا؟ كل هذا البرود معي أمس. هل تظنين أني لا أعرف؟

لأول مرة تشعر بالفخر، قالت بلا تفكير: وقفت على بابك مرة ومرتين..

ندمت على كلماتها. ولكنه قال وهو يمر بيده على ظهرها: لم يحدث.

قالت في قوة وهي تخبط قدميها في الأرض: لست خرقة بين يديك، ولا كلبًا لاهثًا يتمنى رضاك. جئت إليك.. كنت وحيدة وخائفة، كنت.. لن تفهم..

لم يجب.

كتبت بسرعة، ملأت رقعة كاملة ثم توقفت وقالت: هذا كل ما أتذكره.

أمسك بالرقعة وقرأ ما كتبت في إمعان ثم قال: هذا يكفي.

مدت يدها لتأخذ الرقعة فقال: اتركيها معي بعض الوقت.

- ظننت أنك تريدني أن أحتفظ بها.

- نعم كنت أريدك أن تحتفظي بها ثم غيرت رأيي. أراك في المساء.

خرج وهي تفتح فمها في ذهول.

***

قررت أن تمشي وسط الصحراء اليوم، تكاد تختنق داخل بيته. جلست على صخرة وحدها.

أخذت ترمي بالأحجار في غيظ ويأس حتى سمعت صوتًا، ارتدت خمارها مسرعة.

قال صالح: لم أرَ في حياتي أصفى ولا أعذب من هذا الوجه، اعذريني يا سيدتي.

قامت على حين غرة فقال: من تكونين؟

اتجهت إلى البيت في خطى سريعة، فقال وهو يتبعها بخطاء: اعذريني لا تؤاخذيني، جئت أشكو للصحراء من الخيانة.

توقفت لحظة فأكمل: ليس لي سوى طاعة ابن شيخ القبيلة، وضميري يناصر الطولونيين. أعرف أن كلماتي ربما تؤدي إلى قتلي ولكن صاحبة الوجه العذب لن تخون. من تكونين؟

قالت بلا تفكير: تناصر الطولونيين! كيف؟

- بقلبي.. لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر.. ربما في المستقبل.

- لا مستقبل لهم.

- يقولون إن إبراهيم قد هرب أو هربه أحد الرجال.

قالت بلا تفكير: أتعرف مكانه؟

-من أنت يا سيدتي؟ شيخ القبيلة يذبحني لو نطقت.

جرت إلى البيت في خوف وندم على كلامها مع رجل لا تعرفه، وكلماته لا تتركها. أكمل: تظنين أن الحرب انتهت؟ وهي لم تبدأ بعد. في حسنك الكثير من الحزن. من تكونين؟

أكمل وهو يسير وراءها: أنا صالح، ستجدينني طوعًا لك، أنفذ أوامرك لو احتجتِ إلى أي شيء، ستجدينني هنا كل يوم.. أنتظر قدومك.

دخلت وأغلقت الباب في خوف وحذر.

***

قالت خالصة وهي تُجلس عائشة بجانبها: تعالي هنا استمعي ولا تنطقي.

نظرت خالصة للجارية التي تجلس على استحياء وهي تشهق من جمالها ثم قالت: يا خالتي، من هي؟

مصمصت خالصة شفتيها وقالت: تعرفين.

أمسكت بقلبها، ثم قالت: من أين جئت بها؟ ولِمَ؟

ضربت على يدها وقالت: خالصة تعرف كل شيء. ستخبرنا بكل شيء بصدق.

قالت عائشة في ترجٍّ: لا أريد أن أعرف يا خالتي، أتمنى رحمتك بي.

- في المعرفة رحمة.

ثم نظرت خالصة للجارية وقالت: وعدتني أن تتكلمي بصدق.

قالت في انبهار: سيدي عبد الرحمن.. يا إلهي، لم أرَ رجلًا في جماله من قبل ولا قوته ولا..

قاطعتها عائشة قائلة: ماذا حدث بينكما؟

- أقسم أني كنت أتمنى البقاء معه بقية عمري، لم ينظر إليّ ولم يلاحظني، ولكنه عاشرني بالطبع، لا يوجد رجل لا يفقد صوابه أمام جمالي، عاشرني وعقله ليس معي، وعندما انتهى اقتربت منه أبغي إرضاءه، فأبعدني عنه في حسم، وقال إنه لا يريدني أن أنام معه على مخدعه، طلب مني أن أنام في حجرة أخرى وبعد ثلاثة أيام أهداني إلى سيدي صالح، ولكن سيدي صالح لم يقترب مني، يقول سيدي صالح إن قلبه ممتلئ بحب مستحيل أو شيء من هذا القبيل، لا أفهمه يا سيدتي.

قالت خالصة في تأمل: كيف عرفتِ أن عقله لم يكن معكِ؟

- أعرف يا سيدتي، أشعر بالرجال وأفهمهم.

قالت خالصة في إصرار: تفهمين كيف؟

فكرت قليلًا وأكملت وعائشة تغرز أظافرها في كفها حتى تساقطت الدماء وهي تنظر إلى صدر الجارية وقوامها الممشوق.

قالت الجارية في دلال: مثلًا لمساته كانت بلا دفء من يديه، ولا رجفة شفة وعيناه تنظران إليّ وعندما أخبره كم أشتاق إليه لا يجيب كأنه لا يسمعني أو لا يصدقني. وفي لحظات النشوى كنت أقول له إنه أفضل الرجال، وإني أتمنى أن أبقى معه طوال عمري، بدا وكأنه لم يسمعني أيضًا مع أن كلمات كهذه كانت تذيب قلوب الرجال. ثم..

قالت خالصة وهي تنظر إلى عائشة التي تطبق شفتيها في حنق: ثم ماذا؟

- عندما انتهى، لا قبلني ولا أثنى عليّ، مع أنني في العشق لا مثيل لي، كرمي مع الرجال معروف، وإتقاني يجعل ابن سليمان نفسه ينسى من يكون. أبعدني عنه، وطلب مني أن أرتدي ملابسي وأنام في مكان آخر. لن أخفي عنك يا سيدتي لم أزل أريده، يعجبني الرجل الصارم القوي..

ثم تأوهت وقالت: ولكنه أهداني لصالح الذي لا يلمسني حتى.

ابتسمت الجارية في خبث ثم قالت: ولكنني أسعدته. أسعدت سيدي عبد الرحمن، يقدر الجمال والعطاء.. رأيت الرضا في عينيه، فالعشق فن لا بد من إتقانه..

خفق القلب بآلام لا قبل لها بها، ثم أغمضت عينيها وقالت لخالصة: يا خالتي.. هذا يكفي.

أذنت خالصة للجارية بالانصراف بعد أن أعطتها المال.

قالت خالصة في بطء: لا أفهم ما تقول يا عائشة، ولكن لابد أنك أنت تفهمين.

- أراه مذبوحًا أمامي يتأوه، ودماؤه تغرق البيت، ثم أدنو منه وأقتلع قلبه بين يدي، أفتته إلى قطع صغيرة وهو يشاهدني في عجز.. ترى هل يمكن أن أفعل هذا؟ لم أتيت بها؟

- لأن في المعرفة نجاة، حتى لو شابها الألم. ماذا ترين أيضًا؟

- ربما أحرق القلب أو أطحنه مع قمحك يا خالتي..

- وهو مدرك ومستيقظ؟ أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- اقتلع قلبك أنت إذن؟

هزت عائشة رأسها بالإيجاب.

قالت خالصة في حيرة: الجارية تقول إنها لم تصل إلى قلبه.. كان شاردًا حينها.

- فليحترق قلبه وليمت آلاف المرات.

***

أسندت رأسها إلى الباب تستمع لكلام الضيف مع الشيخ. ما إن نظرت إليه من الثقب الضيق حتى عرفت من يكون، هو الشاب الذي رآها منذ أيام وتكلم معها.

جلس بجانب الشيخ ثم قال: سبحان المعز المذل، يا شيخ رأيت القطائع أمام عيني كالفراش المبثوث، ابن سليمان لديه ثأر قديم مع آل طولون، لا يريد لأحد منهم البقاء في مصر، وربما يقتلهم، من يدري؟ لا أثق به. لا عهد له ولا قسم. هل حكى لك ابنك ما حدث؟

أمسكت بقلبها واختنقت كما لم تختنق من قبل، ثم أكمل صالح: تعرف قصر أحمد بن طولون وساحة الميدان؟ كان قصرًا لا يجرؤ أحد على النظر إليه من بعيد، قالوا إن به كل أنواع الزهور والحيوانات، قالوا إن خمارويه يمتلك الأسود؛ الأبيض منها والأسود في حديقة قصره. كنا ننسج قصصًا وأساطير حول القصر وحدائقه الممنوعة التي لا نعرف عنها شيئًا. كنا نقف في الميدان لنأخذ الحلوى ونحن أطفال، ثم نتصور ما وراء الباب والسور العملاق، حرقها ابن سليمان أمام عيني، رأيت الأسود تصرخ من النار، ورأيت رجال ابن سليمان تدك السور وتدهس الأزهار وكأنه يوم القيامة يا شيخ. تساقطت الدموع من عيني على قصر كنا ننظر لحوائطه على أنها لا تهدم أبدًا، ولكنها تهدمت أمامي في يوم أو بعض يوم. لا أمان لابن سليمان، ولكن عبد الرحمن يهادنه ويتحالف معه.

قال الشيخ في بطء: عبد الرحمن خليفتي ووكلته في الأمر.. هو أدرى بمصلحة القبيلة، إياك أن تتحداه.

قال صالح مسرعًا: لن أفعل، تعرفني يا شيخ. كنت فقط أخبرك بما حدث، وأسألك عن..

صمت فقال الشيخ: تسأل عن ماذا؟

- كأنني رأيت غريبة بيننا.

قال الشيخ في غضب: رأيت وجهها؟

- لا لم أر وجهها، ولكن كأنني سمعت عن غريبة هنا.

- وما بالك أنت وبال الغريبة؟

صمت برهة ثم قال: كنت أسأل لو كان لها زوج أو لو كانت تحتاج للحماية وجاءت إليك لـ..

وضعت يدها على فمها وسمعت صيحة الشيخ: ولو سمع عبد الرحمن سؤالك لقطع رقبتك الآن. ما قلته انسه، هي زوجة سيدك.

قال في خجل وارتباك: اعذرني يا شيخ، هي أيام مربكة و..

- لا تتكلم عن هذا أبدًا. أما أمر القطائع.. فقد استسلم آل طولون جميعًا..

- سوى اثنين.. هناك اثنان لم يستسلما.

- ومن يكونان؟

- إبراهيم بن خمارويه، طفل صغير بدا أن أحدًا قد خطفه ربما ليفاوض سليمان عليه أو ربما.. من يدري، وهناك ابنة لأحمد نفسه لم نجدها في القصر. أولاده ثلاثة وثلاثون، نعرف مصير من قُتل ومن استسلم ومن قبض ابن سليمان عليه، ولكن ابنته لم تزل هاربة.

- ولمَ يهتم ابن سليمان بأمر ابنة لأحمد؟

- لأنها من سلالته ومن يتزوجها ربما يطالب بحكم مصر يا شيخ. يريد أخذها معه إلى العراق.

- أتظن أنه سيسلم شيبان ومن معه للخليفة؟

قال صالح في حسم: بل أظن أنه سيتخلص منهم قبل هذا. جاء وهو يريد أن يمحو أثر أحمد من على وجه الأرض. حتى المسجد ينوي البقاء في مصر حتى يُهدم. لديه خادم يدعى «قاسم» من أشر الناس.

قال الشيخ: كفانا كلامًا على ابن سليمان. كان الأجدر بك أن تتكلم عن هذا مع عبد الرحمن وليس معي. هو قائدك، تذكر هذا.

قام صالح واتجه إلى الباب ثم نظر حوله وكأنه يبحث عنها فلم يجد أحدًا، فقال في صوت خفيض ولكنه مسموع: كم أشفق على الغريبة من زوج يلهو مع الجواري ولا يدرك الجوهرة التي في يده وقبيلة ليس لها عهد!

ترقرقت الدموع في عينيها وكلماته تدوي في أذنيها. القطائع.. مدينة عاشت في مخيلتها ولم ترها سوى مرة. تريد أن تجرب الكعك من بائع الحلوى، لم تجربه بعد، ولا اشترت الحرير ولا شاهدت موكب الجنود.

ليلًا دخل عليها عبد الرحمن.

أخذت نفسًا طويلًا ثم أمسكت بكتف زوجها وقالت: سأساعدك في خلع عباءتك.

نظر إليها نظرة لم تفهمها وتركها تخلع عنه عباءته. قالت في رجاء: عبد الرحمن.. أتمنى فقط ألا تتعاون مع ابن سليمان، أتمنى ألا تشيد الحواجز بيننا، أفهم أنك لا تريد أن تحارب حربًا خاسرة، ولكن لو وقفت على الحياد يكون أفضل لنا. معك الذهب، لا تحتاج إلى ابن سليمان..

قال في حسم وهو يجلس على مخدعه: لا تتدخلي فيما لا يعنيك.

قالت وهي تحاول أن تسيطر على حسرتها: سمعت عن خراب القطائع. أيرضيك هذا الخراب؟

لم يجب. قالت وهي تتحاشى عينيه: هل ستعطي ذهبي لحبيبتك؟

نظر إليها في غضب ثم قال: لا ذهب لك يا عائشة. قلت لك من قبل: أنت لا تملكين هذا الذهب كما لم يملكه والدك.

- ولا تملكه أنت.

- تبادليني الكلمة بالكلمة.. لا يروقني هذا.

صمتت وهي لا تعرف لو كانت تستطيع أن تبقى معه في نفس المكان يومًا واحدًا. أدارت وجهها عنه وقد حسمت أمرها.. ستذهب إلى قصرها غدًا أو بعد غد حتى وهو حطام. لابد أن ترى مدينتها، كانت أمانة في رقبتها ولم تستطع أن تنقذها. لم يطلب منها سعيد ما لا طاقة لها به؟ هي بنت لا حول لها ولا قوة. بنت خدعها الثعلب، وانقض عليها، فلم تعد تملك حتى حق الصراخ.

تُرى هل ضم جاريته طوال الليل؟ ربما فعل. ربما تكذب الجارية. هل همس لها: كم هي جميلة؟ لم لا تستطيع أن تتخلص من صورته مع الجارية؟ إنها تطغى على كل الصور حتى صورة المدينة.

عند طلوع الفجر رحل عن الحجرة..

***

خرجت اليوم أيضًا تبحث عن وسيلة للذهاب إلى القطائع، سارت إلى حيث يدرِّب خيوله وهي لا تدري لو كان فضولها يحثها أن تطارده أم أنها حقًّا تبحث عن وسيلة للذهاب إلى القطائع. لن يأخذها لو طلبت منه، مستحيل أن يأخذها. لم يكن يدرب خيوله اليوم، وضعت كفها كمظلة من الشمس الحارقة وهي تنظر حولها ثم وجدته، كان يمسك بحمامة ثم تركها تطير بعيدًا. كان عند أبراج الحمام يجلس وحده. أيبعث رسائل؟ ماذا يفعل بالحمام وماذا ينوي؟ قالوا إن عبد الرحمن مجازف ومغامر يلهو طوال عمره، لا نضج ولا تكشفت له حقائق العالم. ولكنه

أخطر مما توقعت ومما قالوا. ربما لم تفهمه عزة إذن وبالتأكيد لم تفهمه هي. مكره ومراوغته لا حد لها. لديه أهدافه هو ولا يأبه بمشاعر أو أهداف غيره.

هرولت عائدة إلى البيت قبل أن يراها.

***

حاولت أن تتحاشى رؤيته طوال اليوم وهي تفكر في كيفيه الذهاب إلى مدينتها، لاحت بالذاكرة طفولة بعيدة، ولاحت لها صورتها وهي تجري ساعات وسط أزهار وأشجار وحدائق بها رحيق الجنة، امتلكت العالم حينها حتى وهو يبدو عملاقًا شاهقًا بعيدًا عن الأفق، فتحت ذراعيها الصغيرتين تلملم ذرات الندى ونسمات السماء، وأغلقت ذراعيها بعد أن حبستها بين حنايا صدرها. أغمضت عينيها، وابتسمت حينها، وقالت لأمها إنها تفهم لغة الطير، وتعلم ما يهمس به الهواء للشجر، وصدقتها أمها. أمها تصدقها دومًا، حملتها ودارت بها حتى تساقطت دموعها من ارتطام الهواء بخدها، وضحكت كما لم تضحك من قبل ولا من بعد، امتزجت ضحكاتها بصوت النخيل، وامتدت لتصل إلى أطراف المدينة. قالت لأمها في حماس وبراءة: لو صرخت وناديته هل يسمعني؟

- والدك يسمعك ويحبك. قال لي هذا أمس.

- كيف قاله أمس؟

- في الحلم، قال إنك أفضل أولاده وأقربهم إلى قلبه، وإنه يعرف شجاعتك وقدرتك الخارقة.

- هل يعرف أني أفهم الطير والأشجار؟ هل أخبرته يا أمي؟

- سأخبره اليوم.

- هل يعرف أني أسرع من يجري في هذه الحديقة، وأني أستطيع أن أصل إلى نهايتها قبل أن يرتد إليه طرفه؟

- يعرف.

- ماذا يظن بسرعتي؟

- يظن أنك خارقة، وقوتك تتعدى حدود القطائع.

- ولكن القطائع واسعة والحديقة شاهقة، لا أعرف للمدينة نهاية، ولم أر كل طرقاتها.

- يومًا ستسيرين بين الدروب يا أميرة وترفعين رأسك لأنك ابنة أحمد.

أغمضت عينيها في ألم والكلمات تدوي.. ترفعين رأسك لأنك ابنة أحمد! كيف تخرج من هنا اليوم لترى مدينتها؟ وكيف تفتت هذا القلب الذي يخون كل لحظة.

جاء اليوم متأخرًا وجلس يتناول عشاءه في وجوم. فجلست أمامه وقالت في حنق: أرى في مخيلتي خرابًا ونارًا ومدينة تتأوه من ضربات منجنيق وصرخات نساء. ترى أيروق لك الدمار؟!

نظر إليها في صمت ولم تفهم مغزى نظرته ثم قال: من تكلم معك؟

بلعت ريقها من وهل المفاجأة، ثم قالت في ارتباك: لم يتكلم معي أحد.

- تتكلمين عن المدينة أمس واليوم وعن الدمار.. من تكلم معك؟ انطقي..

قالت في عصبية: وهل أذنبت بالقلق على مدينتي وقصري وكل عمري؟ هل أذنبت لأني أكره الدمار وأريد الحفاظ على ما بناه أبي؟ أين الذنب يا ابن شيخ القبيلة؟

أمسك بمعصمها فجأة وقربها إليه ثم قال: من تكلم معك يا أميرة؟ لو لم تخبريني فسأعرف، ولو عرفت فسأذبحه ثم أجلدك حتى تطلبي الموت. من أخبرك أن القصر تهدم وسرق؟

- عرفت دون أن يخبرني أحد، توقعت هذا.

قاطعها وهو يشد معصمها ناحيته: لا تكذبي، لا تتقنين الكذب.

قالت في رجاء: اترك معصمي، إنه يؤلمني.

ترك معصمها ثم قال: تقولين كل شيء الآن. وإياك، هل تسمعين، إياك أن تفكري في الذهاب إلى المدينة، لو فعلت فسأذبحك، ثم أحطم ما تبقى من بناياتها.

همت وهي تقوم لتتجه إلى باب الحجرة: لو كنت تكرهني كل هذا الكره اتركني.

- أتركك كيف؟

- اتركني كما ترك والدك خالصة، اتركني هنا وتزوج من تحب، وانعم بكل من تشتهي من الجواري، اتركني فقط لحال سبيلي، لا تعذبني بلا داع ولا فائدة.

لم تستمع إلى رده. فتحت باب الحجرة لتخرج فقال في لهجة أخافتها: ادخلي وأغلقي الباب وتعالي هنا.

اتجهت إليه بخطى متثاقلة وجلست على الأرض، فشد ذراعها، وقبل أن تعترض ضمها إلى صدره، ثم قال في صوت ثعباني: هل تكلمت مع صالح؟

حاولت الابتعاد عنه، ولكنه أحكم سيطرته عليها، فقالت في رجاء: اتركني يا عبد الرحمن.

- لا تقاومي، أجيبي عن سؤالي فقط.

دفعت صدره بيدها ثم قالت: لا أعرف هذا الاسم. سمعت بعض الرجال تحكي عما حدث للمدينة وأنا خارج البيت لا أكثر. هل ستمنعني من الخروج من اليوم؟ حتى تكتمل خطة ذلي وكسري؟

صمت برهة ثم قال: لا أريدك أن تخرجي من البيت حتى يرحل ابن سليمان. هو يبحث عنك أنت بالذات.

كانت أول مرة يشرح فيها شيئًا.

قالت في مرارة: وهل تأبه بمصيري؟ ألن يريحك موتي؟

أبعدها عنه بعض الشيء، ورأت عذابًا في عينيه لا تعرف مصدره، ثم قال في رقة: أريدك أن تحبيني كما كنت تفعلين. هل تتذكرين؟

- كيف أحببتك هي؟

- انسي أمرها.. لا تعني لي شيئًا.

- أكنت تريدها لأنها أجمل مني؟

قال في حنان ينحر بلا رحمة: قبليني أنا زوجك.. تريدينني كما أريدك.

- ولو لم أفعل. هل ستجلدني أو تذبحني؟

- اطرحي الكلام جانبًا.. اشتقت إليك.

هزت رأسها بالنفي وهي تبعده وقالت: لا تفعل هذا بي، لم أعد أعرف من أكون.

قبل خدها ثم رقبتها وقال: أنا أعرف من تكونين. سأذكرك.

- هل تريدني أن أخون أبي؟

- لا تفكري في والدك وأنت بين ذراعي.

- أبي..

قاطعها: ليس هنا الآن.

- سيبقى معي.

قبل فاها ثم قال: بادليني القبلة كما فعلت في الماضي بحماس وبراءة، بكل نفسك وروحك.. هيا..

خفق القلب وانفجرت مرارة أيام وغيرة لحظات مرت كالدهر. فقالت: ألم تبادلك هي القبلات ببراءة؟

- هي لا شيء.

- ولكنك كنت تريدها، وستتزوج عزة وغيرها ونفقتي جارية واثنين و..

مر بيده على جسدها وقال: ولو فعلت هو حقي..

- لا تطلب مني ما لا أستطيع.

- قلت إنك تحبينني، من يحب يترك العنان لحبه، ولا يبخل ولا يقسو.

اعتدلت في جلستها وقالت وهي تلهث من غضب مكتوم: أعطيتك حبي فألقيت به إلى القاذورات، دهسته بيديك ثم..

قاطعها وهو يمسك بيدها يقبل ذراعها: الحب لا يُعطى ولا يمكن التحكم فيه، الحب كامن في الأعماق في انتظار صاحبه، لا نهاية له ولا بداية، لا تخدعي نفسك.

قالت ولمساته تجعل التركيز صعبًا: ولكن الشوق إلى الجسد ينتهي.

- لا ينتهي لو كان نابعًا عن شوق إلى الروح. تعالي هنا، لو أحببتك الآن فلا هزيمة لك. أعرف أنك غاضبة، اتركي الغضب ساعات فلن يتلاشى!

نظرت إلى عينيه وهو يقترب منها، وعندما أمسك بيدها لم تستطع أن تمنعه، قال من جديد: قبليني اليوم ثم اغضبي غدًا.

قالت في مرارة: افعل ما شئت يا عبد الرحمن، ثم انتهي واتركني لحالي.

مر بيده على شعرها ثم قال في رقة: ولو قبلتني فهل سينتهي العالم؟

- بل ستنتهي نفسي. سأحتقرها وأكرهها.

تركته يمر بيده على ذراعها وكتفها في رقة، وأغمضت عينيها، والشوق يخترق الغضب، والحيرة تحرق وتذل.

قبل رقبتها ثم أذنيها وهمس: الأميرة لابد أن تطيع زوجها وتخلص له، تقبله وتعطيه نفسها بحماس. هذا واجب عليها حتى لو كانت غاضبة.

أغمضت عينيها وهي تحاول أن تبعده عنها ثم قالت في مرارة: ما الذي يفيدك لي طي؟ أخذت الذهب و..

قاطعها وهو يقبلها ويده تسيطر على جسدها: أعدك أني سأنسى.

- ستنسى ماذا؟

- سأنسى أنك قبلتني وأنك تريدينني وأنك ستذوبين شوقًا إليّ كما أشتاق إليك. لن نتكلم في هذا مرة أخرى..

قالت في يأس: لماذا؟ لِمَ لا ترحم؟

قال وهو لم يزل يقبلها ولمساته تفقد العقل السيطرة: سأرحم غدًا، أعدك. اليوم سأقسو وآمرك وستقبلينني وتخبرينني كم تشتاقين إليّ.

أحاط رأسها ثم وضع رأسها على صدره وهمس: اشتقت إليك..

قالت وهي تضع شفتيها على صدره، تشم رائحته، وتشعر به يهزم كل الحواس: ألم تبتعد قبل سفرك؟ ألم تهجرني و..

قال في حسم: لم يحدث.

قالت وهي تنهض: لا تفقدني عقلي.. لقد فعلت.. جئت إليك وطلبت مني أن أغادر.. انتظرت يومًا وراء يوم.. ولم تأت.. مللت الأميرة بسرعة؟!

قال وهو يدفع برأسها إلى صدره من جديد: ألم أقل لك إن الليل يمحو الذاكرة، فلِمَ تتكلمين في ماضٍ لا أتذكره؟

ثم همس في رقة وهو يقبل وجهها ثم كتفها وذراعها: ما الذي يغضبك لو كان زوجك يريدك؟ أتفضلين أن أرحل؟

قالت بلا تفكير: نعم.

همس: تكذبين، لا تكذبي يا أميرة، لا تتقنين الكذب.

- تتقنه أنت فقط.

- قولي إنك تريدينني أن أبقى.

- اقتلني ولن أقولها.

قال في لهجة آمرة: قبليني يا عائشة.. هذا أمر.

لم تتحرك.. اقترب منها وانتزع رقائق غضبها ثم فتتها بين يديه كالأوراق واللفائف القديمة، همس وهو يزيح عنها عقلها بلمساته: كنت تنتظرينني يومًا وراء يوم.. تشتاقين إليَّ.. كنت تتذكرين..

دفعت به وقالت: ونسيت أنت.

قال: اسكبي كل شوقك في قبلتك، سأنسى هذا أيضًا. يا أميرة..

كانت تشتاق، لم يكذب.. كانت تتعذب من جفائه، وتمنت فقط أن تتسع الحجرة بأنفاسه. هذا ذل لا قبل لها به! ولكن أنفاسه تملأ النفس، وتحرر الجسد السجين. ولو قبله هل يعاهدها على عدم الهجر؟

امتزجت الأزمنة والأزمات، وجدت نفسها تردد بلا وعي: لا تهجرني مرة أخرى، لا تتركني غريبة في بيتك بلا صديق.

أمسك بقلبه وقال في جدية: هذا عهد عليّ. لو قبلتني اليوم فلن أهجرك مرة أخرى.

ترددت برهة ثم أحاطت صدره بذراعيها وقبلت صدره في ألم ولهفة وحزن. هو أمر، هكذا قال، فلا بد من تنفيذه، أبقت شفتيها على صدره وهي تمرر يدها على ذراعه وهمست: هذا الظلم ستحاسب عليه. ما تفعله بي ظلم لا يغتفر. أتعرف أني أخاف البقاء وحدي؟ هل فكرت فيّ؟ في وسواسي وهمي؟ لم أترك حضن أمي إلا منذ شهور ثم تعذبني أنت..

قال في رفق: لو قلت لي إنك خائفة كنت سأعود. وآخذك بين ذراعي.. عائشة..

قبلت رقبته في بطء ثم أحاطت رقبته بيديها، وأغمضت عينيها وقبلاتها تزداد بطئًا وضعفًا.

قال في حنان: الأميرة التي لا يوجد في جمالها. قبلاتك لا مثيل لها لو تعلمين. تنفذ إلى الأعماق.

ودت لو صاحت في وجهه كم تحقد عليه، وكم هي غاضبة منه. ودت لو أخبرته بما فعل بها وبالنار التي تحرق القلب فتشعر أنها في جهنم ولكنها لم تستطع. أعطته نفسها كما فعلت في الماضي بلهفة البريء وشوق اليائس. وهي تعرف أنها ستندم وسينخر الذنب ضلوعها، لا صانت ذكرى والدها ولا كرامتها. أن تعطيه نفسها مذلة، ولكن أن تبوح بضعفها وترجوه ألا يغدر بها مرة أخرى، فهذه خيانة لكل كيانها.

بعد أن انتهى استقر رأسها على صدره، وأبقت شفتيها على قلبه، لا تستطيع أن تحركها، ثم أدارت وجهها عنه، واحتضنت نفسها، وصورة الأب وهو يوبخها لا تترك مخيلتها. شدها إليه ثم أحاط خصرها وحملها لتستقر فوق جسده كما فعل من قبل، هذه المرة لم تشهق بل أغمضت عينيها وقالت: ماذا تريد مني؟ تريد

الحب، تعرف أنك ملكت القلب، هل يرضيك هذا؟ تنتصر أكثر كلما أحكمت سيطرتك أم كلما عرفت أنك كسرتني كما تحطمت المدينة؟

همس في أذنيها في رقة: أنا لم أحطم المدينة.

- كلنا عاجزون عن المقاومة. أحيانًا برضانا وأحيانًا رغمًا عنا. كم يوبخني أبي! ضحيت بكثرة ثم..

قاطعها من جديد: لم يبقى والدك معنا اليوم؟ اتركيه خارج الحجرة. أنا زوجك، لي الطاعة، وأنا آمرك أن تبقي هكذا تنامين فوق صدري.

- تختنق لو بقيت طويلًا.

- لا تهتمي بأمري الآن.

زحزحت نفسها حتى أصبح نصفها فوقه ونصفها على السرير، ثم نامت في أمان وراحة تعرف أنها لن تدوم. عندما يتدفق حنانه يغمر التراب فيصبح ذهبًا. كلما حاولت أن تتحرك شدها إليه وطوق كتفها حتى وهو نائم. تُرى ماذا سيفعل عندما يتزوج عزة؟ لابد أن حنانه سيغمرها هي أيضًا. ستبقى هي في حجرة مجاورة تعرف أنه مع حب عمره، ربما تغيظها عزة وتخبرها بتفاصيل عشقه، من يدري؟ الجارية قالت إنه لم ينم معها في نفس الحجرة ولا أخذها بين ذراعيه. لم يزل يريدها، هذا أكيد ولكن لم يريحها هذا الشعور؟ ولم تهتم بأمره؟ ولم تشتاق إليه وكأنه لم يخبرها من قبل أنه يحب غيرها؟

استيقظت في منتصف الليل ثم دقت على صدره وقالت: قلت إنك لا تحبني. هل تتذكر؟ تحب عزة. قلت هذا.

تأوه في نومه ولم يجب، فهزته في غيظ، قال وهو يمر بيده على جسدها: لم يزل لديك الطاقة لكل هذا الغضب؟ تعالي هنا.

تذمرت واعترضت ثم همست: عدني أنك لن تنام بين ذراعيها، اترك شيئًا واحدًا لي أنا فقط.

لا تعرف كيف قالت هذا ولا لماذا قالته. قال وهو يقبل جسدها: أعدك بأي شيء اليوم. كُفي عن الكلام.

- تعدني ثم تنقض العهد في الصباح.

- لم يأت الصباح بعد.

- تراوغ وتتهرب كالثعبان.

عشقها من جديد حتى أنهكها العشق فنامت بلا حركة، عند الفجر أطفأ الشمعة ثم مر بأصبعه على ذقنها وقال وهو مغمض العينين: ما هذا الجرح في ذقنك؟ هل وقعت؟

بلعت ريقها في خجل من ضعفها أمام سليمة. الضعف عار، وضعف الأميرات موت. قالت في خزي: وقعت نعم. والتأم الجرح.

أحكم ذراعيه حولها حتى الصباح وعندما استيقظت كان قد رحل. حاولت أن تتذكر همساته أمس، ماذا قال وهو يسيطر على جسدها؟ قال: لا يوجد مثلك أميرة، أنت الأجمل، أنت الأروع، أنت الساحرة..

همست: ربما هجرتني..

- وعدت إليك بشوق مضاعف، ألا يرضيك هذا؟

- لا يرضيني. عدت من عند الخائن..

- لا سياسة وقت الحب. كُفي عن الكلام. اليوم لن أتركك حتى يعجز لسانك عن الكلام إلا عن الحب. سأمحو الذاكرة وسأغرق الآلام.

- لن تستطيع.

- لا تتحديني يا أميرة.

وقد فعل. لساعات أثملها الحب وأغرقها.

***

عند الصباح، نظرت إلى السماء من نافذتها وقالت: سامحني يا أبي، لست أفضل أبنائك بين أسوأهم. لا تغضب مني أرجوك، فأنا بنت لا حيلة لي ولا قوة. كنت أظن أني ابنة القائد، الملك الذي لم يأت مثله منذ عهد النبي يوسف، ولكني لا أصلح أن أكون ابنتك. ضعفي يعمي فلا أرى، والهوان يتمسك بي كالحبيب الغارق. لا أنقذت مدينتك ولا حتى استطعت أن أكره الخائن. لو كنت حيًّا كنت ستغضب عليَّ وتحزن أكثر من حزنك من خيانة العباس، فعلى الأقل كان العباس قويًا، أما أنا..

ووسط إحساسها بالذنب كان هناك إحساس بالرضا عن نفسها كامرأة، حاولت ألا تفكر في هذا الإحساس، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الفرح بأنه لم يزل يريدها، ابتعد ثم اقترب، هجر ولكنه عاد.

ارتدت ملابسها وقد قررت أن تذهب اليوم إلى المدينة حتى لو ماتت أو قُتلت أو ذبحها زوجها أو جلدها.

التفتت حولها ثم خرجت من البيت متجهة إلى القطائع بعد أن خبأت سكينًا بين ملابسها. وجدت مكاريًا في الطريق وهي تسير بلا توقف، أعطته بعض المال وطلبت منه أن يأخذها إلى القصر. قال إن الطريق خطير وعرب خراسان يفتكون بالنساء وإنه يخاف عليها، ولكنها صممت أن تذهب.

سمعت صرخات وشمت رائحة الدم الطازج، وقف المكاري على أبواب المدينة ثم قال: لا أستطيع الدخول أكثر من هذا.

رجته أن ينتظرها وأجزلت في العطاء. قالت إنها تريد فقط أن تلقي نظرة أخيرة على المدينة.

هنا كان القصر، اليوم حرق العساكر الأشجار ولم يتبق منها سوى جذور وأخشاب مجهولة فلا أحد يتذكر رونقها ولا أوراقها التي انتشرت في الماضي فغيرت ألوان كل الديار المصرية. ظنت يومًا أن القصر بسقفه الشاهق لا يقوى عليه أحد، عيناها لم تكونا تصلان إلى نهاية السقف ولا حدود الحوائط، ثم تناثرت الأحجار المحطمة حيث كانت حجرتها وحجرة أمها، أما مكان حجرة والدها فقد أصبحت بئرًا سوداء ممتلئة ببقايا الحريق، لم يزل العساكر يحملون الورود المتساقطة وقطع النحاس المتناثرة يخزنونها في جيوبهم بأقصى سرعة. هو شعور جديد عليها أن ترى كل جذورها محترقة، أن ترى بقايا ماض كان كل ما تملك، وكأنهم تركوا الأخشاب بلا جذور، وكأن كل ما كان قد أصبح رفاتًا وبقايا لا يمكن التعرف عليه.

كلما بتر سيف شجرة نارنج أو مشمش أو نخلة شاهقة: اخترق كبدها.

صرخت كما لم تصرخ من قبل، نادت بأعلى صوتها: أبي.. أين أنت؟ لا تتركيني وحدي..

هوت إلى الحطام وغطت وجهها بكفيها وهي ترتجف. ثم ضربت بكفيها على خديها وهي تتمتم: أبي.. سامحنا يا أبي.. سامحنا كلنا..

لمست كتفها يد فانتفضت خائفة وعرفت الوجه والصوت، كان «صالح». تركها وقال في رفق: معذرة رأيتك تبكين، لا تبكي.. يا مولاتي.

قالت بلا تفكير وعيناها لا تتركان الحطام والنيران المشتعلة: اتركني وشأني.

قال في رفق: يا أميرة اطمئني.. إبراهيم في أمان.

نظرت إليه في ذهول ثم التفتت حولها وكان الجنود مشغولين بالهدم والسرقة والحرق، لم يلاحظ وجودها أحد. فقالت: ماذا تقول؟

- أقول إني أعرفك يا أميرة الأميرات، وإني أحمي إبراهيم وسأحمي كل الـ طولون لو كنت أستطيع، وإني لا أخون العهد، فالعهد يبقى ليوم الدين و..

صمت فقالت في صرامة: فلا تخن عهدك مع قبيلتك إذن وتعرف أني زوجة.

قاطعها: لا يستحقك. أقسم أنه لو كان يستحقك أو يقدرك ما تكلمت معك.. ولكنه..

قاطعته وهي تسير متجهة إلى المكاري، وتمسح دموعها في عصبية: لا تتكلم عن زوجي ولا كلمة وإلا أخبرته و..

سمعت تأوهات صالح والسهم مستقر في صدره. هوى إلى الأرض فجلست بجانبه في فزع وهي تنظر حولها إلى مصدر السهم. لابد أن أحد الجنود قتله. ما أقسى جنود ابن سليمان وما..

فتحت فمها وقد تضاعف الفزع وهي تنظر إلى زوجها، مصدر السهم، لقد قتل زوجها صالح للتو. كيف ومتى؟ لا تدري.

قالت في هستيرية: لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

شدها وقال في صرامة: تخرجين دون إذني، ثم تتكلمين وتتغازلين مع رجل وأنت زوجة لآخر، ثم تسألين لماذا؟

قاومته وهي تتجه إلى صالح قائلة: ربما لم يزل حياً لنحاول مساعدته، لمَ قتلته؟ لا يمكن أن تقتل رجلاً هكذا بهذه البساطة؟ أي شيطان سيطر عليك؟ بل أي شيطان أنت..؟

أمسك بذراعها في قسوة وقال: مات وانتهى الأمر.. هيا بسرعة.

أخرجت السكين من ملابسها وقالت وهي تصف واهية: أقسم أني سأقتل نفسي الآن ولن أعود معك. لن أعود معك.

ناحت وبكت وقالت وهي تضرب وجهها بكفيها: آه يا أبي.. آه يا أبي.. كل ما فيه راح.. سامحني يا أبي.. سامحني يا أحمد.. لست جديرة باسمك..

قبل أن يمسك السكين من يدها صوبتها ناحية قلبها وقالت: الموت أهون من العودة معك.

لا تدري بالضبط ما حدث، هم بأن يمسك بالسكين فقاومته، فجرحت السكين ذراعها، سمعته ينهرها ربما، يتمتم بشتائم ويضع السكين في جيبه، ويجرها رغما عنها إلى فرسه ثم يأخذها على الفرس ويرحل.

لفح الهواء وجنتيها فأعاد مشهد القتل، ومشهد الحريق، ومشهد الأم وهي تجري معها في حدائق القصر، ومشهد العشق بينها هي وزوجها في يوم ليس ببعيد. اختلطت المشاهد كما امتزجت الأنفاس بالهواء الجارح وفقدت الوعي.

* * *

ربما لم يكن بدٌّ من أن تقتل نفسها. أتفضل الوقوع في أسر ابن سليمان أم العودة لزوجها؟ ربما من واجبها كأميرة أن تقتل نفسها ولا تذل أباها أكثر من هذا.

كانت تبكي بلا توقف وترتجف، قالت في قوة وهي تستغيث بخالصة: لا أريد أن أراه، أفضل الموت على أن أراه، لو اقترب مني فسأموت.

نظرت إليه خالصة في عتاب ثم قالت: ماذا فعلت بها اليوم؟

قال وهو يتجاهل سؤالها: جرحت ذراعها، نحتاج أن تنظف الجرح.

قالت في تذمر وهو يلقي بها على مخدع خالصة: لا أريد أن..

قاطعها: توقفي عن الكلام.

أخذت تنشج وصورة صالح المقتول أمامها لا تتركها، امتزجت الحقائق. احترقت المدينة.. الميدان.. حدائق القصر.. ترى ماذا حدث للحيوانات؟ هل جفت البحيرات؟ أم تستطيع المياه أن تنتصر على النيران؟ حتى السور تهدم والنخيل المرصع بالذهب أُقتلع من جذوره. ما أبشع الذهب! يُذهب من الرجال عقولهم فيخرج القسوة والغدر.

رأت أمها تنهرها على ما فعلت، تحكي لها عن الأب العظيم، ثم رأت القصر حطامًا محروقًا كالكفار يوم القيامة.

ثم كان هو.. اخترق الطفولة والصبا. لا تراه بوضوح، يؤلمها الآن.. يؤلم القلب والجسد.

تأوهت فقال في لوم: طلبت منك ألا تخرجين، ولكنك خرجت. تريدين الخراب لكل الأماكن وليس للقطائع فقط. تؤلمك ذراعك؟

تأوهت من جديد، وانتزعت ذراعها من بين يديه، فأمسك بها مرة أخرى في قوة وقال: تستحقين وأكثر لو أذبحك اليوم أستريح.

قالت: اذبحني لتستريح وأستريح أنا أيضًا.

وضع بعض الأعشاب على الجرح، فكتمت أنينها أمامه ثم ربطه وقال: من تعصى أمر زوجها تستحق الجلد والحبس، عندما تتحسنين لنا كلام معًا.. الكثير من الكلام.

- ألا ترحم قط؟!

- هل ترين الرحمة حولك يا أميرة حتى أرحم أنا؟ لو رحمت أموت، ولو مت يأخذك ابن سليمان وربما لا يقتلك يا أميرة ربما يتزوجك ليذل والدك كل يوم. يعجبك هذا المصير؟

تمتمت: وهل يختلف هذا المصير عن مصيري اليوم. هو قاتل وأنت قاتل، هو..

قاطعها: إياك، أن تنطقي حتى لا أجلدك اليوم وأنت جريحة.

وأمرها أن تنام على جنبها الأيمن.

تمتمت: لم لم تقتلني؟ لو قتلتني تنتهي من كل المشاكل، أخذت كل ما تريد، الذهب والجسد والقلب.. ماذا تحتاج الآن؟

قال في حسم: تحتاجين الراحة والأكل.. لابد أن تأكلي.

انتفضت من مكانها ونظرت إليه ثم قالت: أموت الآن ولا تقع عيني عليك مرة أخرى، هذا كل ما أتمناه.

تجاهلها ثم نادى على خالصة التي تركت الحجرة: راعيها يا خالة وتأكدي أنها تأكل. سآمر الجواري بإحضار الطعام. الجرح صغير ولكنه عميق لا نريده أن يتلوث.

ارتجفت وتمتمت: أقسم أني سأقتل نفسي ولا أبقى معك.. سأقتل نفسي اليوم..

اتجه إليها وجذب رأسها ناحية وجهه في قسوة وقال: لو سمعتك تقولين هذا مرة أخرى أربطك هنا مكانك بقية عمرك. أتريدين هذا؟

همست: لا أريد هذا.

- تأكلين وتنفذين كلامي كله.

بقيت صامتة فصاح في وجهها: هل تسمعين؟

قالت في صوت مبحوح: أسمع.

تركها ثم نظر إلى خالصة وقال: لا أريد أي سكين في هذه الحجرة. هذه طفلة حمقاء لم تتعلم شيئًا طوال عمرها.

***

في اليوم التالي يبدو أنها أصيبت بحمى فلم تكن ترى ولا تشعر بما يدور حولها. خالصة تقترب أحيانًا وتضع على جبينها بعض الماء، وهو، هو دومًا موجود في مخيلتها.

وضع يده على رأسها ثم مسح بيده على شعرها وقال: عائشة..

لم تُجب. ضغطت على جفنيها وتمنت لو تمزق القلب بيدها، فلم يزل يحن ويشتاق. مر بيده على الجرح في ذراعها ثم قال: ستكونين بخير.

استلقى وراءها ثم أحاط خصرها بذراعيه وهمس: قلت إنك تكرهينني، أعرف.

قبضت يدها وغرزت أظافرها في كفها وهي توبخ الجسد الذي ينبض حبًا بعد كل ما حدث منه. لو تزعمت النوم الآن فربما يبقى معها بعض الوقت، ولو استيقظت ودفعت به تحافظ على ما تبقى من عقلها. شعرت بأنفاسه على رقبتها وذراعه تضغط على خصرها فيكاد يمتزج بصدره ولم تستطع أن تدفع به.

قال: من يدري ربما تتحقق أمنيتك ولا ترينني مرة أخرى، أتريدين ذلك؟

عندما يحنو يسيطر. لابد أن تتعلم فقد حدث هذا من قبل، يفعل هذا كثيرًا.

أمسك بكتفها ليديرها إليه وقال: انظري إليّ..

هزت رأسها بالنفي. فاعتدل في جلسته وحملها معه وضمها إلى صدره وقال: أتكرهينني؟

هزت رأسها بالإيجاب في حماس، فاحتضنها في قوة وكأنه ينتقم منها على الكلمات حتى كادت تتوقف عن التنفس وأغمضت عينيها وهي تتمنى أن تتوقف عن التنفس.

قال من جديد: يا ويلي من هذا الكره.. هو أصعب من حبك لو تعلمين.

ثم ابتعد عنها وقام وأمسك بذراعها، وبدأ يفتح اللفافة التي وضعها حول الجرح. أغمضت عينيها وهي تتوقع الألم القادم. وضع أصبعه على موضع الجرح بتفحصه ثم قال: هل أردت إيذاء نفسك؟ هذه الحماقة لا تليق بك. أؤكد لك أن والدك كان سيحتقر ما فعلته أمس. إياك أن تتصرفي هكذا مرة أخرى. تقولين إنه كان شجاعًا، كيف لرجل شجاع أن ينجب بنتًا بكل هذا الجبن! لا تنطقي هذه الكلمات مرة أخرى.

أدارت وجهها عنه وقالت: لم قتلته؟ ألأنه كان يريد مساعدتي؟ القتل سهل بالنسبة إليك.. تمحو كل ما يقف أمامك.

قال في جفاء: هل تسألين؟ تجرئين على الكلام عليه؟

قالت مسرعة: لم يفعل شيئًا ولم أفعل أي شيء، كنت ذاهبة إلى المكاري لأرجع إلى هنا. أنت تعرف..

صاح في وجهها وهو يمسك بمعصمها: لم لا تفيقين؟ لم لا تفكري؟ أحيانًا أتمنى رثائي وأحيانًا أحتقر سذاجتك. لم قابلتك أصلًا؟ ولم جئت إلى هنا؟ لم تجلبي سوى الخراب قلت لك من البداية.

بقيت صامتة خائفة لم تره بهذا العنف من قبل. أكمل وهو يحيط وجهها بكفيه: انظري إلي..

نظرت إليه فقال: ليتني لم أقابلك ولم أرك. ألعن اليوم الذي رأيتك فيه، بل أكره كل شيء يذكرني بك. حتى بيتي وقبيلتي..

فتحت فمها فصاح: لا أريد أن أسمع صوتك. وإياك.. هل تسمعين؟ إياك أن تعصي لي أمرًا مرة أخرى. لو فعلت سأجعلك تندمين على عدم الموت مع

صالح أمس. ستبقين هنا في حجرة خالصة، لا تخرجين منها سوى بإذن مني. هل تسمعينني؟

قالت في صوت مبحوح: أسمعك.

قال وهو يصوب نظره إلى عينيها: ما حدث أمس كأنه لم يحدث.

أحنت رأسها بالإيجاب.

أحاط رأسها بيديه في قسوة ثم قال: لو سمعتك تتكلمين عن المدينة أو عن القصر أو تعارضين بعد اليوم فسوف أقطع أطرافك بيدي. رأيتني أمس..

همس في أذنيها: رأيت الدم ينبثق من جسد صالح. تعرفين أني قادر على القتل الآن. وجودك في حياتي مصيبة من مصائب الزمن. عليّ أن أتحملها.

قالت في يأس: ولو تركتني أموت..

قاطعها وهو يصيح: لو جازفت مرة أخرى.. لو حاولت قتل نفسك.. أنقذك، ثم أعذبك بقية العمر. اصمتي لا تنطقي. لا أريد أن أراك أو أسمع صوتك من اليوم.

اتجه إلى خالصة التي تنظر إليهما، وقال: تحتاجك، ابقي معها. منعتها أن تخرج من الحجرة حتى آذنَ لها.

قالت في سخرية: تعجبني يا عبد الرحمن، كل قسوة والدك لا شيء أمام قسوتك، تدنو وتبتعد، تقسو وتحن، تريد أن تقضي عليها تمامًا.

لم يُجب.. رحل بلا كلمة.

ضربت خالصة كفًا بكف ثم قالت: فقد عقله هذا الفتى، ماذا قلت لتغضبيه كل هذا الغضب؟

قالت في حيرة: لا أعرف.

***

في اليوم الثاني لم يمر عليها. تلاشت الحمى، وأكلت في وجوم، ولم تتكلم مع خالصة. احتاجت بعض الوقت لتستوعب ما يحدث وما حدث. منذ عرفته ودموعها تنهمر أحيانًا في صمت وأحيانًا ممتزجة بالصراخ على ما ضاع. حاولت النوم ولم تستطع.

في الصباح لم تتحرك من مخدعها ولم ترد أن ترى ولا تسمع من أي شخص. دخلت خالصة وجلست بجانبها تكلمت كثيرًا ولم تسمعها. لم يأت. لا أتى أمس ولا اليوم. ربما تزوج من عزة إذن. من يدري، أو اشترى جارية جديدة. في اليوم الثالث أيقظتها خالصة فجرًا.

هزتها خالصة وقالت: هل أنت مستيقظة؟

قالت في أسى: أنا لم أنم يا خالتي.

قالت في عبوس: تعالي معي لتسمعي ما حدث.

قالت في تردد: لقد أمرني ألا أتحرك من هنا.

- أعرف، ولكنه ليس هنا يا عائشة، وربما لا تراه مرة أخرى. تعالي.

خرجت مع خالصة والقلق عليه يطغى على أي حقد. بحثت عنه فلم تجده. سمعت كلمات متناثرة من النساء لم تفهمها. انتظرت عودة الأب، وعند العشاء خرجت من حجرتها واتجهت إلى مجلس الأب ودخلت عليه بعد الاستئذان، ثم نظرت إلى عينيه فسقط القلب إلى الأعماق قالت في صوت مبحوح: عبد الرحمن بخير؟

فقال الأب في حيرة: لا ليس بخير.

توقعت أن يكون الأب قد عرف بمقتل صالح وربما عاقب ابنه.

صمتت في انتظار المزيد فقال الأب: جاء رجال ابن سليمان فجر أمس وقبضوا عليه.

شهقت في فزع ولم تنطق. فأكمل الأب: لا أفهم شيئًا، أيام سوداء، حاصر الجنود كل القبيلة، كان يمكن أن يقاوم عبد الرحمن برجاله، ولكنه فضل ألا يفعل حتى لا يموت أبناء القبيلة، ذهب مع الجنود.

قالت في ألم: لمَ فعل هذا؟ ألم يحالف عبد الرحمن ابن سليمان؟

قال الأب في حيرة وهو يضرب كفًا على كف: هذا زمن الخيانة والغدر. كنت أقول لعبد الرحمن إن علينا أن نصون العهد مع ابن طولون، وكان يعارضني، وذهب إلى ابن سليمان بنفسه وتحالف معه، ثم يتهمه الجنود بالخيانة، كيف؟

قالت: ماذا قالوا يا عمي؟

- قالوا إنه قتل صالح. لمَ يقتل صالح؟ ولمَ يهتم ابن سليمان بقتل صالح. قالوا إن صالح كان رجل ابن سليمان؛ هل تصدقين هذا الجنون؟ صالح الذي كان يعترض ويسب ابن سليمان وجيشه، وعبد الرحمن الذي.

صمت ثم قال: سيقتله ابن سليمان اليوم أو غدًا. يقولون: إن صالح كان يعرف أين تختبئ ابنة طولون، ما هذا الجنون؟! عبد الرحمن ابني وليس لي سواه.

ضربت على خدها وهي تفتح عينيها في ذهول وفزع مما لا تريد أن تفهم ومما لابد أن تعرف. خرجت من عند الشيخ، واتجهت إلى حجرتها وأمسكت برأسها وهمست: كنت على حق يا عبد الرحمن، أتيت بالخراب، كنت على صواب.

أغمضت عينيها والحقيقة تتضح فتخترق الكون، لم يخنها زوجها، وعد أن يحافظ عليها وفعل. الخائن هو من بدا صديقًا، أما العدو فهو من صان العهد. ليت الحقائق تتبع قوانين الغروب والشروق فنتوقع إيابها وذهابها، ليت الكون والحقيقة يسبحان في فلك واحد، وكأن الحقيقة هي ما نصل إليه عند النهاية

وليس قبلها. وكأننا نسير وراءها ونبغيها ولا تتبدى سوى لمن يزهد ويتخلى. زوجها - حُب القلب وعشق الروح - قتله اليوم. بل سيموت دون أن تعطيه القبلة الأخيرة أو تركع أمامه طالبة المغفرة. لو عاشت طوال ما تبقى من عمرها تطلب أن يسامحها فلن يكفي العمر.

تأوهت بأعلى صوتها وحشايا النفس تبوح بالسر.

عبد الرحمن توخى الحذر لأنه يعرف غدر ابن سليمان، فلم يلق برجاله إلى الهلاك، ولم يستمع إلى ما تريد لأنه كان يعرف أكثر ويفهم أمور الحكم وخيانات الأقارب والموالين، أراد أن يسبح بقبيلته إلى بر الأمان ويحافظ عليها هي أيضًا. لم ماذا؟ هل تحول إلى عدو لابن سليمان؟ ومتى جند ابن سليمان «صالح»؟ ربما كان جنيه على القبيلة منذ البداية، ربما كلام صالح عن ابن طولون كان ليوقع بمن يوالي الطولونيين ومن ينقلب عليهم. ثم ماذا؟ كيف توقع عبد الرحمن خيانة صالح؟ عندما أخبرته أنها سمعت الرجال تتكلم؟ أم قبل هذا؟ ربما لدى عبد الرحمن أيضًا من يتجسس على صالح، من يدري ربما.. شك في نواياه عندما رأى حماسه الزائد للطولونيين فعين الجواسيس.. عين.. عين.. الجارية..

شهقت في فزع ثم ضربت خدها من جديد. الجارية التي كانت تغار منها أعطاها هدية لصالح. قالت: إن «صالح» لا يلمسها، كذبت ربما، تجسست على صالح فتأكد عبد الرحمن من خيانته. ثم عندما عرف أنها تركت البيت فهم إلى أين ستذهب، فأسرع وراءها لأنه يعرف.. يعرف أن «صالح» جاسوس، وأن «صالح» ربما شك في وجود عائشة، أو ربما اكتشف من تكون عائشة. كيف اكتشف؟ سأل ربما، أو سمع وصفًا لشكلها أو.. أو.. ولكنه تأكد عندما نصب الفخ لعائشة، أخبرها بما حدث لمدينتها وقصرها حتى تذهب إلى القصر وتتأكد بنفسها، لو كانت من آل طولون لابد أنها تريد أن تتأكد، لابد أنها تريد أن ترى حطام مكانها. تتبعها هو أيضًا. ولكنه أراد أن يأخذها إلى ابن سليمان. واجهها

بمن تكون، وكان يود استدراجها إلى ابن سليمان، أو خطفها لو اعترضت. قال إنه يعرف مكان إبراهيم؟ إبراهيم؟ من يعرف مكان إبراهيم؟ أين هو؟ ثم جاء زوجها وقتله على الفور. أنقذها مرة أخرى. فوبخته وقالت إنها تتمنى موته. ولو ماتت الآن يكون ذلك أفضل كثير!!

خرجت منها صرخة. تريد أن تراه مرة واحدة، تطلب عفوه، وتخبره أنها حمقاء. تريد أن تحتضنه مرة ربما تخبره كم تحبه حتى لو لم يحبها. تخبره أنه رجل لم تر في شجاعته ولا كرمه. تخبره أنها السبب في ابتعاد عزة عنه، وأنها ستزوجه بعزة بنفسها ولن تغضب بل ستبقى ممتنة له بقية عمرها. تخبره أنها كانت ساذجة لا تعي ولا تعرف، وأن ما يهمها هو سلامته هو فقط. ولاؤها له اليوم.

* * *

كل يوم تمر على الشيخ تدعوه للذهاب إلى ابن سليمان والشفاعة لعبد الرحمن وهو يرفض، يقول إن الوقت لم يحن بعد. بعد أسبوع ثارت وقالت في عدم صبر: سيقتله يا شيخ قبل أن يحين الوقت.

ثم اعتذرت وقبلت يده ورجته مرة أخرى أن يشفع لعبد الرحمن. بدا في حيرة، بعث الرجال إلى ابن سليمان، ولكن ابن سليمان رفض الشفاعة، ورفض مقابلة الرجال. هو مصمم على قتل الخائن، حتى يكون مثالًا وعبرة لبقية العرب في مصر حتى لو كان ابن الشيخ. طلب الشيخ تأجيل قتل عبد الرحمن فقط حتى يتفاوض مع ابن سليمان. طلب الوقت لا أكثر.

وسوست له عاتكة أن عبد الرحمن جلب العار للقبيلة، وأن من يقتل ابن قبيلته لا أمان له ولن يصلح شيخًا قط. لن يثق به الرجال ولن تأمن له النساء. قالت: إن ابنه كما توقعت يخون ويجازف، طوال حياته وهو متدفع مغرور، لا يفكر سوى بنفسه. اقتربت منه وهمست أنها كانت دومًا لا تأمنه، وأنه نقمة على هذه القبيلة، وأن أخاه ربيعة أحق بخلافته وأن يكون شيخًا بعد عمر طويل له.

ويخها ونهرها وطردها من حجرته يومين، ثم طلبت صفحه فأعادها إلى حجرته، ولكنها بدأت تتكلم من جديد.

انقسم رجال القبيلة، بعضهم لم يعد يثق في عبد الرحمن، وكثير منهم كان يبغض ربيعة، فقد كان بخيلًا غليظ الطبع لا يأمن من بطشه عدو أو صديق. بدأ الرجال يختلقون الأعذار لعبد الرحمن، ويتكلمون مع الشيخ كل يوم، بعضهم عرض على الشيخ المال والأغنام ليفتدوا عبد الرحمن. فمع صغر سنه كان أكثر لينًا وأفقه قولًا من ربيعة. وقد أثبت ذكاءه وقدرته على التخلص من المخاطر خلال حرب الطولونيين مع الخليفة، فلم يرم بالرجال إلى التهلكة ولم يتحالف مع الطولونيين، طلب من رجاله الحذر ومراقبة الأجواء. بدا أكثر ذكاءً من ربيعة. لا يفهم الرجال لم قتل «صالح»؟ هذا لا يحدث من ابن شيخ القبيلة سوى لو كان صالح ارتكب جُرمًا كبيرًا، وحتى لو ارتكب صالح جُرمًا فلابد من محاكمة بحضور رجال القبيلة وطرده أو جلده، ولكن قتل رجل من القبيلة أمر جلل. لذا لم يستطع من تعاطف مع عبد الرحمن النطق في حضرة مجلس القبيلة. وبدأ ربيعة في سب عبد الرحمن والهجوم عليه، ورفض أن يدفع أحد فدية لأهل صالح قبل أن يبت ابن سليمان في أمر عبد الرحمن. بل بدا أن ربيعة يزور ابن سليمان سرًا ويدعوه لقتل عبد الرحمن في أقرب وقت. سمعت النساء بما حدث في مجلس القبيلة. ذهبت عزة إلى والدها على استحياء وجلست بجانبه وقالت: أبي.. هل سيقتل ابن سليمان عبد الرحمن؟

قال في حسم: فليقتله.. لا شأن لك بهذا. إياك أن تنطقي باسمه مرة أخرى. هو قاتل خائن لا أمان له. كنت أعرف منذ زمن. لا خطبة بينكما من اليوم.

فتحت فمها لتنطق وخافت من بطش أبيها، ولكنها لم تنم ليلتها، بكت ساعات حتى قالت سليمة في جفاء: كل مصائبنا بسبب الغريبة، لو ماتت نعيش في سلام.

***

- 5 -

قال الصوت في السجن المظلم: ستُقتَل أنت أيضًا، ابن سليمان يريد قتل جيش بأكمله لو استطاع.

لم يُجب، فأكمل الصوت: سمعتهم يتحدثون عنك، أنت عربي من بني سالم، سيذبحك غدًا. هل تخاف الموت؟ ماذا تفتقد؟ من تريد أن ترى؟ ومن تود أن تقتل قبل موتك؟

قال عبد الرحمن بصوت خفيض: كل هذه الأسئلة لرجل ميت! ارفق بي يا أخي، من تكون؟

- خفيف النوبي.

- اسمك خفيف؟

- بل صفتي يا رجل، لا يوجد مثلي بين كل عساكر طولون في السرعة والإتقان.

- ومتى ستُقتَل أنت يا ترى؟

- اليوم أو غدًا. الموت لا يخيفني يا أخي تدربنا عليه وواجهناه، أما أنت...

قال عبد الرحمن: أما أنا...

ثم فتح عينيه واتجه إلى مصدر الصوت، لم ير أي ملامح لوجه النوبي، ولم يدر لِمَ يصر ابن سليمان بأن يجعل سجنه بلا نوافذ، حفرة تحت الأرض حتى يظن

السجين أنه مات ودخل جهنم. لا يخيفه الظلام، بل يرفع الغشاء عن نظره. أغمض عينيه ثم فتحهما مرة ومرات ثم قرر أن يغمضهما، فعندما يغمض عينيه يرى أكثر بكثير ويتلاشى الظلام، ويحل محله ضوء الماضي ولحظات حب صادق تلألأ وسط كل الظلمات، بل يكاد نورها يخطف الأبصار، ولكنه يختفي سريعًا كلما ظهر. يتذكر يوم موت أمه منذ عشرين عامًا، كان في العاشرة، توقفت عن التنفس في سلاسة، ثم تزوج والده بعد ثلاثة أيام بالرابعة. لأمه نغمة معينة تترنم بها كلما ضمته، لم يزل يسمعها، حزينة يائسة ولكنها تسكب الحب بلا حذر. أمه، ثم جاءت عائشة.. تسكب الحب بلا حذر أيضًا. هي ليست أمه، ولكنها حزينة مثل أمه، يراها اليوم وهي تترنم بنفس النغمات.

كم هو جميل أن تسير في الدنيا في دائرة ليس لها نهاية دون أن تبلغ ما تبغي، ودون أن تعرف ما الغاية وما المراد؟! دار في دوائر عمر يغتنم لحظات سعادة غامرة، ويغير أحيانًا على قافلة، أو ينقض على مسافر ليس للمال بل للمغامرة، سرق؟ نعم.. انغمس في الملذات؟ نعم.. عاشر الجواري ثم استيقظ وهو لا يتذكر وجوههن ولا مكانهن من وطأة الثمالة؟ حدث.. أحب عزة واشتاق إليها وكأنها الحلم بحياة بلا دوائر؟ ربما.. ولكن للمغامر قوانين مختلفة لن يفهمها عامة الناس، يلومه الأب ويخبره أنه أمله الوحيد ولا يبالي، توبخه عزة وتتزوج غيره فيُغير على قافلة ويبدد الذهب ويسير بفرسه بين الرمال يومًا أو اثنين ثم ينسى. كل الأموال أمواله، وكل النساء نساؤه، وكل الرمال رماله، وكل الخيول خيوله. استباح الحياة فتركته يسطو عليها وينهب، ثم قبضت على روحه واعتصرت القلب. يا لغدر الأيام وتقلب الأزمنة! ليت العمر يتوقف اليوم ثم يعود من جديد. هذه حياة تلهو وتغدر ثم تذكرنا أننا عاجزون مهما بلغت قوتنا، وأن النهاية قادمة حتى لو سرنا بين الدوائر التي لا تنتهي.

ثم جاءت اليتيمة ومعها الذهب، لم يحتج أن يسطو اليوم ولا أن يُغير، سلمته الجسد والقلب والذهب دون أن يهدد أو يرفع السيف، للسذاجة وطأة السياط،

وللبراءة حدة السيف وقسوة الغادرين. جاءت الأميرة واستقرت ونظرت في لوم، ثم عتاب، ثم حيرة، ثم شوق، ثم عذاب من جديد.. ثم يأس، ثم انهزام واستسلام. فعلت، نحرت الروح التي لا يصل إليها أحد، توغلت بداخلها وفتتت أركانها. لا ضمير لعبد الرحمن، ولكن العشق يُفزع فيوقظ كل الحواس وكل الخير والشر.

عندما توغلت قرر أن يبعد ويقسو. قرر أن يُذكر نفسه بمن يكون حتى لا يغرق بين حنايا ذراعيها. أقسم أن يبتعد ويوقظها قبل أن يوقظ نفسه. لا بد أن تعرف الأميرة أن رسمتها من خيال ساذج ليس لها أصل ولا قرار. الألم في عينيها أراحه وذكره بمن يكون. قال لنفسه حبتها إنه غدًا سيتزوج عزة ثم ينسى الأميرة، غدًا سيأخذ الذهب، ويكتف عن المغامرة، وسيُبقي عليها وسيحميها، ولكنها لن تدخل الروح ولن تفتتها. جاءت إلى حجرته ورأى الشوق والألم في مقلتيها فقسا وأصر، وعندما خرجت قبض يديه وتمنى أن يضرب بيده على صدره الذي ينبض بالشوق إليها. هي امرأة لا أكثر حتى لو تدفق الحب من صدرها وخفق القلب بالحياة، هي امرأة ليس أكثر. لو عاشر غيرها فسينساها. ولو عرفت فستكف عن الشوق، لو ذبحها تتوقف عن نحر الروح. هذا ليس هو، لم يعد يعرف من يكون. تريده بطلًا مغامرًا ينقذ مدينة ويحارب كالأساطير، تريده من عالم الجان بقرون حمراء لا يقوى عليه بنو الإنسان، تريده بطلًا يعرف كلمة السر، ويذيب الحواجز، ويشيد ما هدم، تريده بطلًا يحمي أميرته بيد، ويقتل الأعداء بالأخرى. تريده فوق البشر، وقعت عيناها عليه فقررت أنه هو بطلها وسندها، حمقاء لم تخرج من قصرها، حمتها أمها من المؤامرات فلم تعرف أن الهدم قادم لا محالة، والغدر هو أول ما مكث في الأرض منذ نزول آدم، غدر الأخ بأخيه، والرجل بعشقه، والسيف بحامله. الأميرة، تريد منه أن يهلك لا محالة، أما عشقها أو جهلها فلا حيلة له معها. فهم بعد زمن. ذهب إلى ابن سليمان في حذر فلا ولاء لعبد الرحمن إلا لعبد الرحمن، لا يثق بأحد ولا يهتم بأمر أحد. لا عهد يعنيه ولا قسم يثنيه عن قراره.

حكايته مع ابن سليمان لا تختلف عن حكايته مع عمه أو أي قافلة سطا عليها. ذهب وهو يبغي الفوز والأمان لأهله، ثم عاد وهو يبغي قتل ابن سليمان وكل جنوده.

نعم.. يوم جاءت إلى حجرته وبخ الجسد الذي يشتاق، هدده بأنه لو لم يطاوعه فسيتبرأ منه. هو قوي لن تسيطر عليه رغبة ولا شوق. نجح في التحدي وفاز. شعر بالفخر والرضا. استطاع المقاومة.

والجارية أجمل من الأميرة، تتقن فنون العشق وتعرف كيف ترضي الرجل وتسعده فلِمَ لم تسعده؟ شتان بين براءة الأميرة وقبلاتها المترددة التي تبحث عن السكن وسط الغابات، وإتقان الجارية وحرفيتها. تذيب الحجر بفنون العشق، ولكن الألم لم يترك نفسه وهو يعاشرها. هي حقه، هي ملكه، ليس للأميرة أن تعترض ولا تحترق، ثم عن قريب سيتزوج عزة مَنْ حلم بها في الطفولة والصبا، وليس للأميرة أن تعترض، فما بال القلب يشتاق لتردد الأميرة وارتباك الأميرة ولمسات الأميرة غير الواثقة المتدفقة والملتحمة بالنفس؟ ما بال القلب يشرد وقت الذروة ولا يرى سوى وجه الأميرة وهي تقطب حاجبيها في خجل وتوتر لحظات الوصول، وتخجل، وتتأوه، وتقبل صدره، وتخفي وجهها داخل قلبه؟ كيف له أن يشرد في تلك اللحظات فلا يتذكر ما فعلت الجارية ولا كيف أمتعته؟ عاشرها؟ نعم، ولكن قلبه لم يعاشر سوى الأميرة. استطاع الجسد الخيانة ربما، والقلب استمر في إخلاصه. وأي خيانة؟ هي حقه، فلِمَ يفكر في الأميرة؟ ألم يتزوج والده بخمس نساء، طلق مَنْ طلق، وأبقى على من أبقى، لم تعترض أي منهن، فأين الخيانة؟

ربما لم يعد يستمتع مع غيرها لأنها مختلفة لا أكثر. نعم لا يمكن أن تكون قد سجنت القلب في هذا الظلام للأبد. وأين هو الرجل الذي يكتفي بواحدة ولا يريد سواها؟ حتى لو كان موجودًا فهو ليس عبد الرحمن.

ثم ماذا؟ عاد إليها أكثر شوقًا وأكثر رغبة فيها هي فقط. عاد إليها بحمل ثقيل والكره حمل، والضمير ما أثقله! ابن سليمان نطق اسمها، لمعت عيناه حينها، يريد عائشة، لِمَ يختلج القلب لسماع اسمها؟ ولِمَ يوسوس الخوف للنفس الشجاعة؟

جاء عابسًا مهمومًا لأنه يريدها بشرق يمزق أضلعه، جاء مهمومًا لأنه لا يعرف من يكون ولا بماذا يطمع ولا أين غنائمه؟ أعطته جسدها ولم تعطه النفس، اغتاظ واشتعل الغضب، وقرر أن يعاقبها، لم لا يعاقبها وينساها؟ لم لا يستطيع؟ لم سيطرت وسطت على كل خلجات النفس فلم يعد يرى امرأة غيرها ولا يريد غيرها، خجل من إخلاصه وسذاجة قلبه وتمنى أن تعشقه كما كانت تفعل في الماضي، مرة ربما، ولم تبخل عليه حتى وهو يرى العذاب في عينيها، أعطته بلا مقابل كعادتها. وعرف يومها أنه لها هي فقط، لا يستطيع أن يكون لغيرها لا اليوم ولا غدًا. كره فؤاده الذي لا يسلو عنها ولا يتذكر سوى شفتيها وضحكتها وعينيها. أزعجه سر نفسه المجهولة، وأغضبه العقل الخاضع لضمير لا يملكه ولم يملكه يومًا.

صالح، كلما تذكره تمنى أن يقتله مرة أخرى، شك في نواياه منذ اللحظة الأولى، كان صوته عاليًا، وحماسه مصطنعًا، وهو يعرف الرجال، سرق معهم وشرب معهم حتى الثمالة، يعرفهم بنقاط الضعف والقوة.

طلب من جاريته أن تتجسس لصالحه، وعدها بالذهب، وعرف نية صالح، وفهم أنه يشك في عائشة.

ثم اتجهت بسذاجتها إلى القطائع، ودنو يجلدها خيانة جلدة، وقعت في فخ صالح بكل سلاسة. عندما لم يجدها، عرف أين ستكون، ومن سيحاول الوصول إليها. فهم كل شيء. وجرى بأقصى سرعة، ونبض قلبه أعلى من صوت دقات قدم الفرس، خاف عليها كالفتى الغاشم، ثم تمنى أن تراه فارسًا شجاعًا كما رسمته، ربما سذاجته هو وتحوله إلى راية في مهب الريح هو ما يغضبه اليوم. كيف نفذت إلى الأعماق واستحكمت حلقاتها؟ وكيف يفكر اليوم فيما ستظن به الغدر والقتل؟ وكيف ستبقى على ذكراه بعد موته كشعراء الجاهلية؟ سيمرث بعد ساعات، وسيتلاشى الظلام عنه، ولكنه يعم الديار المصرية ما دام ابن سليمان بها.

عندما ذهب إلى ابن سليمان لم يكن يبغي الحرب. أراد إنقاذ القبيلة بأقل الخسائر، وعندما رأى ما يفعله عرب خراسان بأهل مصر، تسلل الحقد إلى أضلعه في بطء: فلا الهدم غايته ولا تحطيم المساجد طريقه. والاعتداء على نساء مصر جعل عدم إعلان الحرب على ابن سليمان مستحيلًا. في البدء كان الحذر وعدم الثقة ثم تحول الحذر إلى حقد، وعدم الثقة إلى رغبة في الانتقام. لم يعد يعرف نفسه، لم يزل يريد أن يسيطر على القلب الثائر ولا يستطيع. لم يزل يشعر بالضغينة من استحكام سجنها لروحه ولا قرار.

- يا أخي، أين ذهبت؟ هل مت وبُعثت لتوك؟

نظر في اتجاه الصوت ثم قال: خفيف النوبي، سأتذكر اسمك، ربما نلتقي في الآخرة، من يدري؟

- بل أريد لقاء أحمد.

قال عبد الرحمن: هو أحمد سبب كل المصائب، أحمد وحلمه، أحمد ومسجده، أحمد ومدينته، أحمد وقصره أحمد ومصر، أحمد والخليفة.. لن أريد لقاء أحمد.

قال خفيف النوبي في حماس: بل أتمنى لقاء أحمد لأعرف منه سر الملوك القدماء، ولِمَ اختاروه هو؟ تُرى عن ماذا يبحثون في القائد والملك؟ عن الجلد أم عن حب مكتمل للديار المصرية أم عن تقديس للنيل المبارك؟ عن ماذا يبحثون عندما يساعدون ملكًا دون غيره؟

- أتؤمن بسحر القدماء؟

- من منا لا يؤمن بسحرهم؟ بالطبع أؤمن بسحرهم. ولكنهم لا يساندون سوى بعض الرجال، أريد أن أعرف لِمَ ساندوا أحمد دون غيره. مر على مصر حاكم وراء حاكم، ووالٍ وراء والٍ، ولم يظفر بها سوى بضعة رجال فقط. أتفهم قصدي؟ فتحها عمرو بن العاص وتولاها وتمنى البقاء بها وبنى فيها مسجده ثم

رحل، لا انفرد بحكمها ولا استقر وغاص بها، أما أحمد فبنى المسجد والمدينة مثله مثل عمرو ولكنه انفرد بها، جنَّد أهلها، وبنى لها جيشًا مثل جيش الخليفة، أحمد أرادها سكنًا له ولأهله، اختارها بيتًا ومقرًا، هذا لم يحدث من قبل وربما لا يحدث بعد ذلك.

– ربما يحدث، من يدري؟

– يا أخي.. ابن سليمان يريد أن يمحو الأثر ثم الذاكرة، فلا ذاكرة بلا أثر. لا نعرف عن الملوك القدماء سوى ما تبقى منهم ليحكي ويتكلم، لو محا ابن سليمان الأثر فستنسى، ولو نسينا فستبقى تتبع الخلافة في كل مكان على الأرض، لأننا لا نعرف شيئًا عن ملوكنا، فلغة الطير لم نعد نتقنها، أما ما تركه أحمد فنفهمه. أتدري ماذا ينوي أن يفعل ابن سليمان ببقايا جنود أحمد؟ سيقتل البعض، ويذهب بالبعض إلى بغداد أسرى. لا يريد تركهم في مصر حتى يتقن لعبة المحو. فلو كان حظي جيلًا فربما أرحل إلى بغداد غدًا ولا يقتلني، أحيا في أرض أخرى بعيدًا عن أهلي وأولادي. يا عبد الرحمن...

– كيف عرفت اسمي؟

– أعرفك. ربما نلتقي من جديد. من يدري؟ لو لم تمت غدًا فسنلتقي أسرى في بغداد، ولو مت غدًا أعرف أنك ستموت بطلًا وفارسًا.

– لِمَ تثق في هذا؟

– من يقتله ابن سليمان هو بطل بالتأكيد.

***

نام في سجنه، وعقله يفكر في الغد، ثم شعر بالحراس يأتون بسجين جديد، ويتهامسون بأنه سيُقتل في الصباح. قالوا إنه جعفر بن عبد الغفار كاتب أحمد بن طولون. وجدوه أخيرًا في مخبئه، أمر ابن سليمان بقتله في الصباح أمام أهل مصر.

همس جعفر عندما رحل الحراس لعبد الرحمن دون أن يسأل عمن يكون: يا بني لا نجاة لنا من سجن ابن سليمان. بحث عني في الدروب شهورًا حتى وجدني، أتدري لماذا يريد التخلص مني؟ لأني أعرف، المعرفة أخطر عدو لابن سليمان.

- وماذا تعرف؟

- أعرف أصله وحقده. الحقد داء لا دواء له، ولكن ما يسر قلبي أن الحقد يؤذي صاحبه أكثر من الآخرين. لا راحة تدخل قلبه ولا سكينة. هي أيام نداولها بين الناس. وكل ما نمر به سيبدو ساعة أو أقل. انظر إليّ؟ لو سألتني كم عمرك فسأقول أقل من عام. أتعرف لماذا؟ لأن ما أتذكره لا يزيد عن لحظات ممتزجة في اللُّب ما بين عذاب وهناء، ساعات قليلة هي كل ما كان. في أيامه الأخيرة قال الأمير أحد إن العاجلة تُغوي النفوس أكثر من الآخرة، أتدري لماذا؟ لأن العاجلة تهرول بنا إلى نهاية محتومة لا رجعة فيها فنهرول معها لعلنا نقتنص منها لحظات سرور وسط الهزائم، ولكن هيهات. من يجري وراء العاجلة كأنه يجري وراء ظله لا يصل إليه ولا يلمسه. السراب والماء يمتزجان مع الذاكرة يا بني، فتبدو الحياة سريعة وفارغة كذرات الهواء.

- سريعة وفارغة.. معك حق.

كان جعفر يتكلم بسرعة وكأنه يحاول أن يخبئ خوفه أو يخفيه حتى عن نفسه.

أكمل جعفر: في الماضي قابل الأمير راهب، وتمت بينهما صداقة لم أر مثلها، هي أرواح تتلاقى يا بني، وأحيانًا تتلاقى أرواح متباينة، ويسكن أصحابها كلٌّ إلى الآخر وهو يعرف أن في السكينة أمانًا. اليوم عندما اشتعل الرأس شيبًا، أعرف خدعة النصر وهباء الهزيمة.

- لا تهتم بشيء في سنك هذه؟

- لا أدري، لم أزل أخاف الموت كالطفل أمام الأسد. وكلما تقدم بي العمر واقتربت المنية ازداد الخوف. ابن سليمان يعرف هذا لذا يبقيني هنا ليرى قلي. كنت أعرف أنه سيحطم المدينة، ويهدم المسجد بالمنجنيق. نديه خادم يدعى «قاسم الخراساني» وضع نصب عينيه أن يمحو أثر الأمير.

- وكم من أثر أمير قد امّحى يا شيخ! هذا ليس غريبًا على تلك البلاد.

- ترى هل سيبقى من أحد شيء؟ ولو بقي فبم سينطق؟

- وهل تنطق الأحجار؟

- بل لا ينطق سوى الأحجار. الكلمات تخرج من أفواهنا ثم تتلاشى مع ذرات الهواء وصرخات الحروب، أما الأحجار فتبقى لتذكرنا بما كان. لولا أحجار الملوك القدامى ما بنى أحد مدينته ولا مسجده.

- ولكنه لم يستعمل أحجار القدامى في بناء المسجد يا شيخ؟

- ولكن لولا وجود أحجار القدامى نصب عينيه لما بنى المسجد يا بني.

- لا أفهمك.

- انظر إلى شرفات المسجد.. هي عرائس متعانقة تتضرع إلى الله، السماء نصب عينيها ولا عين لها ولا أنف، فمن بعيد هكذا هم البشر. أتريد أن تسمع مني كل حكايته؟

- ولكن القدماء لا نعرف عنهم سوى قصص القرآن.

- وهذا يكفي، استمع واقرأ.

- احك لي إذن..

- في الحكي دومًا هزيمة للخوف.

- وفي الحكي طمأنينة وقت الخطر.

قال جعفر: وفي الحكي معرفة وشوق وابتغاء ونجاة. كلنا نبغي السرور، والسرور ليس في العاجلة ولكن في الآخرة، هو من علامات الجنة، والحكي يذكرنا بأن ما نرى ليس كافيًا، وما نفعل ليس كافيًا، نحارب وننتصر ولكن ما لا نفعله أكثر بكثير مما نفعله. استمع لي، في الحكي الصادق الكثير من الطمأنينة والقليل من الحزن.

ثم أكمل جعفر: أتعرف.. أفهم الراهب الآن، تخلى عن الدنيا فازداد قوة، مات وهو حي فلم يعد يخشى القتل. في التخلي بأس وقدرة، أود لو تخليت عنها الآن، لم تعد تروقني.

- تخل عنها إذن..

- يا عبد الرحمن لو تخليت عن الدنيا بعد أن انهزمت بها خلاف لو تخليت عن الدنيا وأنت تملكها بلا منازع، هذا تخلٍّ وذلك تخلٍّ. القدرة في التخلي وقت الامتلاك، وليس التخلي وقت ضياع الملك. أندونة تخلى وهو شاب قوي فعرف وفهم، أما لو تخليت أنا وأنا كهل كبير فهو تخلِّي العاجزين. قال الراهب يومًا للأمير: هناك حكمة وسر في التخلي؛ لا بد أن تتخلى وأنت تشتهي وتطمع، وليس بعد أن تيئس وتزهد، لا بد أن تنكر الدنيا وهي تفتح ذراعيها بالأماني، وليس بعد أن تذوق مُر صدقها وحقيقة توحشها. سأحكي لك كل شيء.

استمر جعفر في الحكي حتى الصباح، بدأ صوته يهتز وكلماته تتلعثم في حلقه كلما اقترب الفجر. في الصباح أخذه الجنود ليذبحوه أمام الناس.

***

- 6 -

بعد مرور أسبوعين هرولت عائشة إلى خالصة، فنظرت إلى وجهها الشاحب، وعينيها المتضختين، فطلبت منها طلبًا غريبًا، قالت إنها تريد أن تطمئن على سعيد الفرغاني، تريد أن تراه، لو استطاعت خالصة أن تبحث من يبحث عنه في بيته بجانب المسجد، بيته ملاصق للمسجد، لن يبرحه حتى لو أحرقه ابن سليمان، لو لم يزل حيًا فسيبقى بداخله. لم تفهم خالصة لم تريد مقابلته الآن، ولكن أحزنها يأس عائشة وبكاؤها المستمر، ووجدت في عشقها لزوجها قدسية مختلفة وإخلاصًا ظنت أنه تلاشى من قلوب بني آدم. هذا النوع من العشق يضيء ظلمات النفوس فلا بد من احترامه. استطاعت خالصة أن تجد سعيد وترتب مقابلة سرية بينه وبين عائشة في حضورها في جناحها.

بدا سعيد أيضًا شاحبًا، وتدهورت صحته إلى أقصى مدى. عندما دخل على عائشة قال في يأس: ضاعت المدينة وعن قريب سيهدمون المسجد.

قالت مسرعة: ابن سليمان قبض على زوجي.. يريد قتله.

نظر إليها في فزع ولم ينطق.

قالت: يا خال.. لا أمل لي سوى في الذهب.

- أخذه زوجك بالطبع.

- بل أنا متأكدة أنه لم يأخذه بعد. لم يكن لديه وقت، كان مع ابن سليمان. هو في مكانه لن يصل أحد إليه، ولن يتوقع أحد مكانه. أريده يا خال، لا أستطيع الذهاب إلى الجبل الآن ولكني أحتاج إليه.. ساعدني.

- هذا ذهب والدك، لمَ تصممين على إعطائه لزوجك؟

تعلمت في الأيام الماضية أن تسيطر على لسانها، وألا تحكي كل ما تعرف حتى لأقرب الناس. قالت في حسم: هو ذهبي يا خال، وأريد أن أعطيه له. أتمنى أن تساعدني كما عاهدت أمي.

هز رأسه بالنفي ثم قال: فقدت عقلك يا عائشة.

- ما فائدة الذهب الآن بعد أن هُدمت المدينة؟

- من يدري! ربما تحتاجين إليه للنجاة بنفسك. ابن سليمان يبحث عنك أنت بالذات.

- أنا أحتاج إليه اليوم.

وافق سعيد على مضض، ووجد الذهب في مكانه، فأحضره لها بعد يومين.

***

هرولت خارج حجرتها بعد منتصف الليل، واتجهت إلى حجرة الشيخ ودقت على الباب بكل قوتها ففتحت عاتكة وقالت في غضب: أجننت؟ كيف تجرئين؟

قالت وهي تلهث: أريد الكلام مع الشيخ بسرعة.. أيقظيه.

- يا مجنونة..

قال الشيخ: ادخلي يا عائشة.

دخلت ثم قالت: اصرف زوجتك يا شيخ، اعذرني ما أقوله خطير.

صرف زوجته ثم قال وهو يعتدل في جلسته: ماذا تريدين؟

- عندي ما يمكن أن نفدي به زوجي. لدي ما يكفي من ذهب ليجعل ابن سليمان يتركه.

- أي كنز وأي ذهب يجعل ابن سليمان يتركه؟ حتى كنوز طولون لن تكفي.

قالت في تردد: ليس أي كنز، «المطالب» يا عمي.

قال في وجل: كنوز الملوك القدماء؟

- هي بالضبط. ستنقذ عبد الرحمن، لا بد أن تذهب إلى ابن سليمان اليوم قبل الغد وإلا قتل عبد الرحمن.

- تذهب؟ ما شأن النساء بهذا الأمر؟

- لا بد أن أراه، لو كان ينوي قتله فلا بد أن أراه، خذني معك أنا وعزة. أنا أريد أن أراه، وهو يريد أن يرى عزة.

قال في حسم: لا يجوز.

فقالت في تصميم: الذهب مقابل أن أراه، لا بد أن أتكلم معه.

***

دقت على باب عزة في بأس ففتحت لها، ونظرت إليها في امتعاض، فقالت سليمة في احتقار: ماذا تريدين؟ ألا يكفي أنك دمرت هذه القبيلة، وأنهيت حياة رجالها يا فأل الشؤم.

تجاهلتها وقالت وهي تلهث: عزة..

- لا تنطقي اسمي وأنا سيدتك.

- استمعي إليّ..

- لا كلام بيننا.

- عبد الرحمن يحبك، لم يزل يحبك، هو قال لي هذا.

ابتسمت في فخر ولم تجب.

فقالت عائشة في ترجٍّ: لا بد أن تذهبي مع الشيخ إلى ابن سليمان، لو رآك عبد الرحمن قربما يتحمس لإنقاذ نفسه، يريد أن يراك.. يتمنى أن يراك.

نظرت إليها عزة في تحدٍّ ثم قالت: ولو كنت تعرفين أنه يحبني فلِمَ فرقت بيننا؟

قالت في توسل: اعذريني، أنا أخطأت، أرجوك أن تأتي معنا.

- معنا؟

- أنا والشيخ وبعض رجال القبيلة.

- هل جننت؟ كيف سمح الشيخ بذهاب النساء لابن سليمان؟ سيأخذ النساء رهائن.

قالت مسرعة: لا يهم ربما تكون آخر مرة ترى فيها عبد الرحمن، قال إنه ينوي قتله، أتمنى أن أراه ولكنه يتمنى أن يراك أنت، أتفهمين؟

قالت: لا، لا أفهم.. مستعدة أن أذهب ولكن بشرط واحد.

- سأنفذه على الفور.

- ألا تذهبي أنت.

قالت بلا تفكير: لن يحدث، أريد أن أراه.

- كنت أعرف أن أنانيتك لا حد لها، اذهبي إلى الأسر إذن، أما أنا فلن أذهب.

- لو مات فستندمين، ألا تحبينه؟

قالت في فخر: بل أحبه، ولكني لا أريد أن أجازف بحريتي، ولن أغضب أبي.

تركتها وجرت بأقصى سرعة لتلحق بالشيخ.

***

تركهم ابن سليمان أمام بابه يومًا بأكمله. كان يقطن الآن في بيت بدر الحمامي في الفسطاط، جهز البيت وبعث إلى الخليفة برغبته في البقاء بمصر ليكون واليًا عليها، فقد حارب واسترد الشام ومصر، هو لا يريد سوى البقاء بها. لم يأته النبأ اليقين من الخليفة بعد، ولكنه على يقين أن الخليفة سيبقيه في مصر، فقد وصلت

أخبار انتصاراته وإخلاصه. لم يتبق إلا هدم المسجد، وقد قرر قاسم أنه سيهدمه قبل مرور هذا الأسبوع. لا يحتاج إلى هدمه كله، هدم المئذنة والأروقة يكفي، وربما المحراب أيضًا، ولم لا؟ سيهدم ما يستطيع هدمه وما لا يمكن إصلاحه من أي حاكم على مدار تاريخ الديار المصرية.

بعد انقضاء اليوم بعث ابن سليمان أحد كتابه ليستمع لما يريد الشيخ، فاستمع الكاتب، وأوصل الرسالة إلى ابن سليمان. سمح لهم بالدخول في اليوم التالي واستقبلهم في جفاء. طلب الشيخ الصفح ثم أخبره أنه جاء بكنز لا مثيل له، وأنه جاء يفتدي ابنه. بقيت هي صامتة وعيناها تنظران إلى ابن سليمان في اشمئزاز من وراء خمارها، ها هي تقف أمام قاتل أبيها. فقتل أحمد اليوم وليس يوم موته. ها هي تقف أمام منظف الحظيرة الذي يسرق ويهدم ما بناه الجندي. قبضت يدها وكرهها لا حدود له. استمع ابن سليمان ثم قال إنه يريد أن يرى الكنز. أخرج له الشيخ قطعة من الذهب ثم قال: أطمع في كرمك يا أستاذ، معاداة بني سالم ليست بالأمر الهين على أي قائد ونحن نكن لك الحب والولاء.

ثبت نظره على قطعة الذهب ثم قال: هذا يشبه الكنز الذي وجده أحمد. من أين جئت به؟

- وجده الرجال منذ أعوام، واحتفظنا به ليوم عسر كهذا.

قال ابن سليمان: واليوم بإمكاني أن آخذ الكنز، ثم أطردك أنت ورجالك.

التفت إلى عائشة فجأة وقال: وأتيت بالنساء أيضًا. أي بأس لديك يا شيخ؟

- أريد إنقاذ ابني يا أستاذ، هو شيخ القبيلة من بعدي. وأنا واثق في أنك لو أخذت الكنز لن تغدر، فأنت قائد وقدوة لنا جميعًا. هل تسمح لي برؤيته؟

ثبت عينيه على خمار عائشة ثم قال: أسمح لك برؤيته أنت فقط.

ضغطت عائشة على يد الشيخ، فقال مسرعًا: أنا وكل من أتى معي يا أستاذ، ماذا سيفعل رجلان وامرأة في سجن ابن سليمان؟

- حسنًا. ثم تأتي إليّ أنت ومن معك لتتكلم.

***

خفق قلبها وارتجفت وهي تبحث عنه في السجن المظلم. نادته فلم يُجب. ازداد اليأس.

حتى قال الأب: ها هو..

كان بينهما القضبان الحديدية، مدت يدها تبحث عن يده، ولكنه لم يعطها لها. قالت في يأس: عبد الرحمن.. هل تسمعني؟

قال في ثبات وقوة طمأنتها في الظلام: أسمعك.

- أريد أن أخبرك أنك..

ضغط على يدها، وكأنه يمنعها من الكلام ثم قال: ويسمعنا كل حراس ابن سليمان.

- لا أراك في الظلام، ولكني أريد أن أخبرك أن عزة تنتظرك، كانت ستأتي اليوم، ولكن أنانيتي بلا حدود، فضلت أن أراك أنا، لا أستطيع أن أراك، هل أنت بخير؟

قال في صرامة: لو صمتِّ اليوم، ولو لم تأت كان سيكون ذلك أفضل. سأكون بخير لو صمت يا زوجتي. لا تتكلمي ولا ترفعي خمارك.

- سأفعل.. أعدك أني سأفعل.

قال الأب في أسى: سنعطي ابن سليمان الذهب حتى لا يقتلك. ثم نتفاوض على حريتك. ينوي قتلك اليوم.

- أي ذهب؟

- لا يهم أي ذهب.

قال في حنق: لِمَ أتيت بها إلى هنا؟ منذ متى تأتي النساء إلى السجون؟

- صممت أن تراك.

- قبل أن تتكلم مع ابن سليمان لابد أن ترحل زوجتي وإلا فلا فائدة من الكلام.

قالت في حسم: لن أفعل.

ضغط على يدها في يأس وغضب ثم قال: قلت لك من قبل لابد أن تطيعي أوامري. لم أكن أريد أن أراك هنا. ولا أريد أن أسمع صوتك.

قالت في حزن: أعرف أنك غاضب مني.

قال في حسم: قلت لا أريد أن أسمع صوتك.

اقتربت منه وقالت في تلعثم: قل لي فقط إنك لست غاضبًا مني.

بدا أن صبره نفد، قال لوالده في حسم: عُد بها الآن.

قالت في رجاء وهي تتشبث بيده: لن أنطق أعدك.

قال: إياك أن تنطقي.. هل تسمعين؟ مهما حدث لا تنطقي بكلمة واحدة. هل تريدينني أن أعيش؟

قالت في قوة: لا أتمنى سوى هذا حتى لو مت أنا.

- هذه الكلمات لا تساعدني. كان يكفي أن تقولي نعم. لو تكلمتي هكذا سأموت حتمًا. لابد أن تصمتي أمام ابن سليمان.

- سأفعل.

***

أمرهم حراس ابن سليمان بالرحيل عن السجن، فرحلوا وهم ينتظرون مقابلة ابن سليمان مرة أخرى. سمح لهم بمقابلته ثم أتى بعبد الرحمن أيضًا. جلس بجانبه قاسم الخرساني وعيناه تنظران إلى عبد الرحمن في ثبات، ثم همس في أذن ابن سليمان: لابد من قتله، هو خطر علينا.

التقت عيناه بعيني عبد الرحمن وكان الكره بينهما متبادلًا.

ازدادت حدة التوتر، وجلس الجميع أمام ابن سليمان وهو محاط بالجنود، ثم قال الشيخ في رجاء: يا قائد..

قال في فخر: بل قل يا أستاذ، لا يطلقون عليّ هنا سوى لقب «الأستاذ»، أعلّم الجيوش فنون القتال، وأتفوق على أحمد الذي اغتصب الحكم، وسرق الكنز ليبني به مسجدًا سأهدمه اليوم أو غدًا. قبل أن أخرج من مصر لن يبقى أثر لأحد.

بلعت ريقها وقبضت يدها حتى لا تنطق. التقت عيناها بعيني زوجها وهز رأسه وكأنه يأمرها بالصمت.

التفت إليها ابن سليمان ثم قال: من هي؟ لم أعرف أن لعبد الرحمن زوجة. هي من قبيلتكم؟

قال عبد الرحمن بسرعة: هي من قبيلتنا. من الفرع الفقير، يتيمة آويتها.

ابتسم في تهكم ثم قال: لابد أنها جميلة فلم أعهدك بهذا الكرم. أتعرف ماذا فعل أحمد بقائده لؤلؤ عندما ثار عليه، ولجأ للموفق أخي الخليفة المعتمد؟ أتعرف؟

كان يعرف ولكنه بقي صامتًا. فقال ابن سليمان: باع أهل بيته في سوق النخاسة. هل تتصور هذا؟ باع أبناء قائده وزوجاته في السوق كعبيد. استباح العرض. أي حقير يفعل هذا؟!

عضت على شفتيها وأغمضت عينيها والكلمات تخترق الجفن بلا هوادة. ثم التمت بشيء، فنظر إليها ابن سليمان ثم قال: ماذا قلت؟

لم تجب. قال ابن سليمان في بطء: أحمد أبتر فاسد ككفار قريش. سوف أخرج جثته من جوف الأرض، وأفرغ رفاته حول مدينته ليعرف أهل مصر أنه طاغية ومنهزم.

تمتمت بصوت مسموع: رحم الله الأموات.

صفر ابن سليمان في ذهول ثم قال: زوجتك تنطق وتترحم على الأموات!

وأغمض زوجها عينيه في يأس ومعرفة.

ثم فتح زوجها عينيه واقترب منها وصفعها على وجهها بقوة قائلًا: عندما يتكلم الرجال لا أسمع صوتك. تأدبي في حديثك مع الأستاذ.

نظر إلى ابن سليمان وقال: لو كان هذا السوط لي لجلدتها الآن خمسين جلدة، أتمنى أن ترحل يا أستاذ لا مكان لها هنا. بل لم أعد أريدها زوجة، سأتركها كما المعلقة في بيتنا اليوم لتجرئها وكلامها.

ثم أكمل، وهو ينظر إلى أبيه: أبي خذها وارحل وتعال وحدك في المرة القادمة.

قال ابن سليمان في حسم: بل ستبقى.

أطال ابن سليمان نظره إليها ثم قال: وزوجك خان، وليس للموت حرمة عند أحمد، كان يمثل بالجثث ويقطع الأطراف. أحمد أحقر الرجال وأكثرهم خسة. ارفعي خمارك..

قال عبد الرحمن في صرامة: لا. لو انكشف وجه زوجة ابن شيخ القبيلة فلا هيبة للعرب حتى لو انكشف للأستاذ.

- الهيبة لمن يخلص لي. لهجة زوجتك ليست عربية، هي مصرية. هل كذبت عليّ مرة أخرى؟

قال موسى مسرعًا: والدتها مصرية يا أستاذ، ولكن والدها من قبيلتنا. آتي بأهلها اليوم إليك. هم طوع أمرك.

فقال ابن سليمان: هي تستحق الذبح على تجرئها على الأستاذ.

قال عبد الرحمن مسرعًا: هي تستحق الذبح. لو أردت أجلدها أمامك الآن. أعطني سوطًا لأؤدبها، فقد تكلمت دون استئذان.

ثم أكمل عبد الرحمن وهو يحاول أن يغير الموضوع: قتلت رجلًا من رجالي خانني، ما الذي يضر الأستاذ في هذا؟

- كان رجلي أنا.

- لو كنت أعرف لما قتلته. ظننت أنه رجل الطولونيين، دافع عنهم أمامنا في كل الأوقات.

- لا تراوغ يا عبد الرحمن.

- قتلته؛ لأنه كان يدافع عن الطولونيين. ويشهد أهل القبيلة كلهم. كيف لي أن أعرف أنه من رجالك؟

- ومن يخبئ إبراهيم؟

- يا أستاذ أتظن أني أنا أخبئ ابن خمارويه؟ كيف؟ كنت أقضي ليلتي مع جاريتك عندما تم خطفه أو هربه، وأنت تعرف هذا. لا أدري.. لابد أن من فعلها كان من قواد الجيش. وربما مات الطفل خوفًا أو قتله أعمامه من يدري؟

- وأين ابنة أحمد؟ زوجته لا تعنيني؟ ابنته عائشة أين تكون؟

قال عبد الرحمن: تسألني أنا عن مكان أميرة طولونية؟ أنا أقطن على أطراف الفسطاط، والقصر في القطائع، ربما ماتت، ربما هربت إلى الصعيد، كيف لي أن أعرف. وما شأني وشأن آل طولون؟ لم أر أحدًا منهم قط.

- لو وجدت عائشة وإبراهيم أطلق سراحك.

أمسكت بقلبها ونظر إليها عبد الرحمن نظرة أخافتها وكأنه يهددها بأنها لو نطقت سيقطع رقبتها.

ساد الصمت المبتور حتى قال ابن سليمان: صالح قال إن عنده أخبارًا مهمة وإنه سيأتي لي بعائشة ثم قتلته أنت. ما معنى هذا؟

- كان كاذبًا وطامعًا كما توقعت وكما أخبرتك من قبل.

- أو أنك قتلته لأنه يعرف..

اتجه ابن سليمان بنظره إلى عائشة ثم قال: أتعرف يا شيخ مصير من يخون الأستاذ؟ أحمد جلدني ثلاثين جلدة لمجرد أنه رأى حلمًا، وقطع أطراف الرجال الذين تعاونوا مع ابنه، ثم ألقى بهم من أعلى الجبل، أما أنا فسأقطع أطراف ابنك ببطء، ثم أتركه يموت بعد يوم أو يومين أو أسبوع أمامك وأمام زوجته.

اختنقت الدموع في حلقها، فقال الشيخ: ندفع دية من الذهب، هي مشكلة بين الرجال لا شأن لها بالحكام يا أستاذ.

- وكيف لي أن أتأكد من هذا؟

قال الشيخ: الذهب كثير.. ومهادنة العرب أفضل من إعلان الحرب عليهم، قتل عبد الرحمن سيفتح نارًا بين القبائل ليس في مصر فقط بل في كل البلاد، في الشام واليمن والحجاز والعراق نفسها.

نظر ابن سليمان لعائشة من جديد وكأنه بدأ يلاحظها مرة أخرى ثم قال: قاسم الخرساني مصمم على هدم المسجد، يقول إن هدمه لن يحتاج سوى شهر. تعرف أن كل مساجد القطائع قد هدمت ومسجد أحمد ليس أفضل من غيره.

- ما رأيك يا.. ما اسمك؟

قال عبد الرحمن في صرامة: ليس للنساء رأي في أمور الرجال، وأتمنى أن يحافظ الأستاذ على حرمة الحريم.

بقيت صامتة وخدها لم يزل يؤلمها من ضربة الزوج وآثار تحرق عينيها، تعرف أن ضرباته أنقذتها من مصير مظلم، ولكن كلمات ابن سليمان عن أبيها تقتل وتكسر.

قال الشيخ: أعطيك الذهب اليوم وتطلق سراحه؟

- لن أطلق سراحه لأني لا أثق به. لو أعطيتني الذهب آخذه معي إلى الخليفة ليبت في أمره. ولن أقتله اليوم، هذا كل ما أستطيع أن أعد به.

قال الشيخ: اتركه يرحل معي..

ساد الصمت مرة أخرى حتى قال ابن سليمان: اليوم تعطيني الذهب، وغدًا يعود إليك..

تنفس الأب في ارتياح فأكمل ابن سليمان: لليلة واحدة قبل أن يسافر إلى بغداد معي، وهناك يقرر الخليفة مصيره.

- يا أستاذ سأعطيك كل الذهب..

- وأنا سأنقذ ابنك من الموت.

قال موسى: سيُقتَل في الطريق إلى بغداد، أنا أعرف وأنتَ تعرف.

- هذه مجازفة لابد أن تأخذها. غدًا يعود إليك ليلًا حتى يطلع النهار. ولو فكر في الهرب سيقتله الجنود على الفور، ويحرقون القبيلة ومبانيها.

صمت الشيخ ثم قام فأسندته عائشة فقال ابن سليمان: انتظري..

- كنت اليوم أرحم من أحد وأفضل من أحد، أريد أن أسمع منك يا..

قاطعه عبد الرحمن: اعذرني يا أستاذ فصوت المرأة عورة، ضربتها من أجل الله، فلا تتسبب لها في ضرب مرة أخرى أو طلاق.

ضحك قائلًا: حسنًا. غدًا يعود لك زوجك لليلة، ثم يرحل، وربما تكون آخر مرة ترين وجهه، من يدري؟

خرج ابن سليمان، وأشار لرجاله بترك الحجرة وقال: سأتركك مع ابنك دقائق لتعرف رحتي ثم ترحل.

نظر عبد الرحمن لزوجته وقال في حسم: ما فعلته اليوم لا يغتفر. ستعودين لأهلك يا امرأة لا تصلحين زوجة. أي أعدها إلى أهلها حتى لو غضبت القبيلة لا أريدها.

بقيت صامتة فهي تفهم أن كل رجال ابن سليمان تستمع، وأن ابن سليمان أراد التأكد مرة أخيرة من أصلها، وأنه يشك فيها وفي زوجها. وأنها تكلمت ولم تطع أوامره.

ثم قال: عندما أعود سأعاقبها بنفسي.

***

قرار ابن سليمان بعدم قتل عبد الرحمن والبعث به إلى بغداد مع أسرى وجنود بني طولون كان قرارًا أدهش عبد الرحمن، ولكنه توقع السبب حتى قبل أن يتأكد. فقد جاءت رسالة إلى الخليفة تتهم ابن سليمان بسرقة أموال ومحتويات قصر أحمد بن طولون وكل خزائن مصر. بدا أن الرسالة شرحت بالتفصيل كل ما سرق ابن سليمان، وبدا أيضًا أن ابن سليمان عندما بعث للخليفة بمحتويات قصر أحمد وخزائنه لم يكتب له الحقيقة بل أخذ لنفسه الكثير من الأموال وكل المجوهرات والذهب. أمره الخليفة أن يسلم حكم مصر وخراجها لوال جديد اسمه عيسى النوشري، وألا يتصرف في أي من مساجينه بل يبعث بهم إلى بغداد ليبت الخليفة في أمرهم. اضطر ابن سليمان أن يرضخ، ورتب أن يسافر إلى بغداد مع كل الأسرى والمساجين، وأن يسلم الوالي الجديد عيسى النوشري قبل سفره كل أمور مصر. وأقسم ابن سليمان أن يعرف اسم من وشى به، ومن أساء الكلام

عنه عند الخليفة. بقي في مصر أربعة أشهر، وخرج منها بكنوز لا يستطيع حملها ألف رجل أو يزيد، وأمره الخليفة أن يسلم كل الأموال التي لم يعلن عنها لعيسى النوشري.

عندما خرج عبد الرحمن من السجن متجهًا إلى قبيلته وجد أمامه قاسم الخرساني. التقت أعينهما برهة، ثم قال قاسم: أريد أن أتكلم معك قبل سفرك إلى بغداد، فربما لا أراك مرة أخرى.

قال عبد الرحمن في برود وهو يدير وجهه: شرف لا أستحقه أيها القائد.

ثبت قاسم الخرساني نظره على عبد الرحمن ثم قال: تُرى من بعث للخليفة بوشاية عن ابن سليمان الأستاذ، من يريد القضاء عليه؟ ومن يعرف كل ما بداخل قصر أحمد بن طولون؟ شيء محير يا أخي!

قال عبد الرحمن: تسألني وأنا كنت سجينًا هنا شهرًا أو يزيد؟ اسأل رجالك فهم من سرقوا. ومن يسرق يعد غنيمته ويعرفها جيدًا.

- أتجرؤ يا رجل أن تتهمني بالسرقة؟

- السرقة مباحة وقت الحروب، هذه كلماتك، وشرف النساء مباح والذبح أيضًا مباح. كلامك دومًا في عقلي، أتعلّم منه يا قائد.

- أشفق عليك يا عبد الرحمن فلا عودة لك لمصر.

- وهل تشفق على من سيكون في صحبة الخليفة في بغداد؟

- ستترك أهلك وزوجك.

- أتزوج من أخرى في بغداد.

- أتظن أنك ستعيش؟ أحقًا تظن أنك ستعيش؟

ابتسم عبد الرحمن، ثم قال: هي أعمار بيد الله يا قائد، ولكني لا أتمنى سوى طول العمر لك. وأن يدوم بقاؤك هنا.

اقترب منه قاسم وقال: وكأنك تضع حاجزًا زجاجيًا بين نفسك وكل ما يحدث. لا أراك، ولا أفهم، ولكنك خائن.

- خائن تطلق على كل الناس في هذه الأيام.

- بل تطلق على من يكون ولاؤه لغير الخليفة.

- ويكأن من كان ولاؤه للخليفة لا يطمع سوى في رضاه.

- ماذا تقصد؟

- أتكلم معك يا قائد وأصارحك، لأني أعرف أنك لن تقتلني، وأعرف أن مقتلي سيكون بالقرب من الشام. أتعلم سريعًا.

- ربما أستطيع أن أساعدك.

- وربما تحتاج أن تكسر الزجاج لتكتشف ما بداخله. هو حب الاستطلاع الذي أخرج آدم من الجنة. أنا أعرفك، فكيف لا تعرفني؟

- بل أعرفك يا عبد الرحمن.

- أنت عربي وأنا عربي.

- أنا هنا سأبقى حتى عند رحيل ابن سليمان، وسأتأكد أنك ستموت اليوم أو بعد عام أو عشرة، وقبل موتك أتمنى أن أرى الذل يخيم عليك.

طرق عبد الرحمن، ثم قال: هذه غواية لا قبل لي بها.

- ماذا تقصد؟

- ما دمت حيًا فأنا سأموت. ماذا تريدني أن أفعل لأنقذ نفسي؟

- أتهددني بالقتل؟

- بل أطلب رضاك يا قائد ورضا الخليفة الذي عينك والذي تطيع أمره دومًا. ربما تتقابل على حدود الشام وربما لا نتقابل. ولكني أكاد أقسم أني لم أقابل رجلًا مثلك.

- في شجاعتي وولائي.

- في ولائك وتصميمك و...

صمت عبد الرحمن، فقال قاسم في تحدٍّ: أكمل..

- وكرهك لهذا البلد.

- بل هو حبي للخليفة.

- الحب لا يؤدي إلى الكره يا قائد ولكن لنقل إن ولاءك أقوى من رحمتك، وتصميمك يطغى على طيبتك.

قال قاسم: أنت..

قال عبد الرحمن: ماذا فعلت؟

- أنت من وشيت بابن سليمان. لا تريد هدم المسجد. لا أعرف لماذا؟ هل هو حب لبيت طولون أم شيء آخر؟ وأقسم لك اليوم أني سأهدمه وسأقتلك. هل تريدني أن أعاهدك؟

- كفى عهودًا يا قائد. قسمك يقنعني ويؤكد لي قدرتك.

***

انتظره الأب وبعض الرجال أمام أبواب البيوت، هرولت عائشة إلى بيت عزة، رجتها أن تتزوج من عبد الرحمن اليوم فغدًا يرحل، رجتها أن تستقبله فقد قال مرارًا إنه لا يريد غيرها، ترددت عزة ولم تثق في عائشة، ثم قالت في حسم إنه لا يجوز لها أن تستقبله طالما لم يصبح زوجها بعد، وإنه لو أرادها فسيطلبها من

والدها مرة أخرى. تركتها عائشة، واتجهت إلى البيت، ودخلت وجلست وهي تحيط رأسها بيديها في عجز. دخل جندي وبجانبه عبد الرحمن، حمل الجندي سيفًا، وسار وراءه قطيع من الجنود لا حصر لهم، ألفان أو أكثر، انتشروا حول البيوت وخاصة بيته هو. ما إن رآه الأب حتى أمسك بيده في حنان ممتزج بالشفقة، رمقه العم بنظرة توعد وعتاب ودخلوا معًا.

كانت تنتظر في عدم صبر داخل البيت، ما إن رأته حتى همست باسمه، وودت لو تلقي بنفسها بين ذراعيه أمام الرجال، ولكنها لم تجرؤ. نظرت إليه نظرة طويلة، وبادلها النظرة، ولم يتكلم أيٌّ منهما. أدار وجهه عنها ونظر إلى عمه وقال في هدوء وهو يجلس: أنوي العودة حتى لو لم يتوها لي ابن سليمان.

قال العم في حدة: منذ متى نقتل أبناء قبيلتنا؟

- منذ أصبحوا جواسيس.

- كنت تخبر والدك ولا تقتله بنفسك.

قال الأب في حسم: عبد الرحمن هو خليفتي وشيخ القبيلة من بعدي.

فقال العم في استياء: ومن يتولى أمر القبيلة حتى يعود؟ لو عاد؟

قال الأب: أنا لم أزل حيًّا.

فقال العم: وأنت ستدفع الدية لأهل صالح، وستشرح للرجال كيف يغدر ابن الشيخ ويقتل دمه؟

قال عبد الرحمن: أهل القبيلة يعرفون أن من يخون يُقتل حتى لو كان أخي.

- أو عمك؟ أصبحنا مثل آل طولون، يقتل الرجل عمه بدم بارد، ويقتل العم ابن أخيه بلا تفكير.

- عفوًا يا عمي لا تسئ فهمي. نحن عائلة.

- لو كنت تحترم العائلة فاطلب من والدك أن يترك زمام الأمور لي.

قال في حسم وهو ينهض: لا. اعذرني أريد أن أستريح بعض الوقت. وسأعود لا تقلق يا عم.

فتح الباب، وكانت وراء الباب قال: لم تغيري عادتك على الأقل..

نظرت حولها ثم قالت: هل لي بكلمة معك؟

قال في غيظ: بل كلمات. حذرتك من عصيان أمري.. أتتذكرين؟

هزت رأسها وقالت في تلعثم: لا أجرؤ حتى أن أطلب عفوك. معك حق أن تذبحني.. افعل بي ما شئت.

صاح في وجهها: تأتين إليه في بيته؟

أمسك بكتفيها وهزها وأكمل: تتكلمين معه.. تعارضين.. هل تفكرين.. تفهمين.. ثم تعطيه الذهب!

تمتمت: كنت أخاف عليك..

قال في عدم صبر: ستفقديني عقلي بسذاجتك.. ماذا أفعل معك؟ كيف أعاقبك؟

قال والده في استجداء وهو يخرج من الحجرة: عبد الرحمن.. ارفق بها..

تجاهله ثم قال: ادخلي هيا.

أمسك والده بذراعه ثم قال: أنا أخذتها معي يا بني.. لا تقسُ عليها..

قال في حسم وهو ينظر إليها: لو استطعت سأمزقها إربًا. اتركني أؤدب زوجتي.

قال الأب في فزع: يا بني.. تبدو لي من بيت ثري ولم تعتد القسوة يا عبد الرحمن..

دفع بها لتدخل الحجرة، ودخل وراءها وأغلق باب الحجرة عليهما. فبقيت صامتة تنظر إلى الأرض. لا بد ألا يتغلب عليها التعلق اليوم، الحب ارتقاء وعطاء، قررت أنه لحبيبه وليس لها. لن تلمسه فلو تشبثت بأضلعه لا مفر من الأنانية. أغمضت عينيها في ألم وهي تبتعد عنه خطوات.

ثم التفتت إلى سوط خبأته معها وأمسكت به، وبسطت يديها لتعطيه له، وقالت في صوت قوي: الأميرات يتعلمن أن العقاب على قدر الذنب. ويتحملن العقاب في صبر.

فتح عينيه في ذهول ثم قال: ماذا تريدني أن أفعل؟

فتحت يده ووضعت السوط ثم قالت: عصيت أمرك، وكنت السبب في كل ما حدث لك.

أرخى كفه فسقط السوط من يده. ثم رفع يده ووضعها على رأسها، ومر بها على شعرها وكأنه يتأكد أنها بخير، ثم اقترب منها وقبل رأسها. خرجت منها رعشة طفيفة وكتمت دموعًا في حلقها. نفخ في غيظ وصاح: ارفعي رأسك وانظري إليّ.. اقتربي بعض الشيء..

اقتربت بخطى متثاقلة ورفعت رأسها في بطء. مر بأصابعه على حاجبيها، عينيها، شفتيها ثم شدها وقال: أتريدينني أن أجلدك وينتهي الأمر؟

طأطأت رأسها وقالت: افعل أي شيء، ولكن ابق حيًا لا قدرة لي على فراقك.

بلع ريقه وقبض يديه ليمنع نفسه من أن يحتضنها، ثم قال: ألم أقل لك لا تنطقي أمام ابن سليمان؟

بقيت صامتة فصاح في وجهها: كنت تطلبين الصفح.. ماذا حدث؟ تعالي هنا..

شدها إلى أحضانه، فاستقر رأسها على صدره ثم قال: سأعاقبك بعد بعض الوقت، الآن أريدك هنا عند موضع قلبي.

أمسكت بيده ثم قالت: اليوم تذهب لحبيبتك.. تستحق هذا.

لم يفهم ما تعني.. ولم يدر بنفسه وهو يقبض كفه على كفها ويقول في رقة: لابد من معاقبتك، لن تجدي ألاعيبك هذه المرة ولا كلماتك.. ولا لمساتك..

استنشق عطرها، وهمس وهو ينحني ويقبل جبهتها، وألم الخوف عليها يخترق كل المجازفة ويهزمها: غشة.. هل تندمين على ذهابك إلى ابن سليمان وعلى؟

قالت بلا تفكير: أطلب عفوك على أني لم أفهم، ولكن اعذرني لو قلت لك إني لم أندم لا على ذهابي ولا كلماتي ولا إعطائه الذهب، لحظة وجودك حولي تستحق هذا وأكثر.

لم يستطع النطق، تحدته من جديد وأنهكت كل قواه. قال وهو يحاول أن يبدو صارمًا: ماذا قلت؟

رددت وهي تبتعد عنه: قلت إن لحظة وجودك حولي تستحق هذا وأكثر.

قال في حدة وهو يقربها منه: مازلت تقولين هذه الكلمات الفارغة وتتصرفين بحماقة، ولا تندمين على شيء. مازلت تتحدينني يا أميرة.

انحنت أمامه وطأطأت رأسها وهمست وهي تضع يدها على ساقه: أقسم إني لا أتحداك وإن الندم يأكل كبدي.. سامحني.

خرجت أنفاسه حائرة، وقال وهو يحاول أن يسيطر على بعثرة القلب: قومي يا أميرة، تعالي هنا بجانبي.

فتحت كفه وقبلته وقالت: لا يوجد الكثير من الوقت، أريدك أن تقضي هذه الليلة مع من تحب.

نظر إليها وهو لا يفهم. فأكملت: لا أعرف لو كان عملك سيوافق، لا بد أن يوافق، تتزوج عزة الآن وتقضي معها ليلتك. لقد تكلمت مع والدك، قال إنه فاتح عملك، اعلرني فرقت بينكما شهورًا.

فتح فمه ليتكلم فوضعت إصبعها عليه وقالت: لا تقل شيئًا. فقط سامحني. فلم أدرك، لم أفهم، كنت غبية، لا أرى سوى ما أريد رؤيته..

ردد: دومًا لا ترين سوى ما تريدين رؤيته. تعالي هنا..

شدها إليه، احتضنها حتى كادت تذوب بداخل صدره وقال: كدت تقتلين نفسك، في كل مرة تذهبين نحو الخطر بحماس الطفل الذي لا يميز شيئًا.

همست في أذنه: موتك سيقتل روحي وليس نفسي فقط.

قال وهو يتزعم الجدية: لا تقولي هذه الكلمات الساذجة. استمعي إلىّ..

ابتعدت عنه وقالت في حسم: ليس قبل أن تذهب إليها.

نظر إليها في ذهول ولم ينطق فأكملت وهي تبتعد أكثر: لن أسمح لك أن تضحي من أجلي اليوم، ستذهب إلى عزة اليوم، الآن. عندما تعود أعدك أني سأكون في انتظارك بنفس الشوق ونفس اللهفة حتى وأنا أعرف أنها زوجتك وأنها تحبك وأنت تحبها. في أي يوم ستريدني ستجدني..

- أهذا لأنني سأموت بعد ذلك؟

قالت وهي تنظر إليه: إياك أن تقول هذا. كم أندم على كل يوم ضيعته وأنت قريب مني وأنا غاضبة منك، على كل لحظة لم أنم فيها بين ذراعيك.. أستحق أن تتركني اليوم وتذهب إلى حبيبتك.

شدها إليه مرة أخرى ثم قال وهو يقبلها قبلات قصيرة: منذ عرفتك وأنت تنسجين القصص، وترسمين البشر، وتروين الحكايات، وتحرقين وتدمرين.. ألم تدركي؟ ربما لو توقفت عن الرسم ترين أفضل.

قالت في ذهول: كنت أرى بقلبي في البداية، ثم هجرت القلب بعد أن آلمني.

- عودي إليه واطلبي الصفح، قلبك كان يرى بعين الصقر، أما عيناك فلا ترَيان ولا تفهمان. هل يخبرك قلبك أنني أرى غيرك؟

نظرت حولها لا تعرف كيف ستتصرف الآن ومن يكون زوجها. هل هو الفارس الذي أحرقته من قبل؟ ألم يكن وهمًا؟ ربما رأت ما لم ير، ربما نفذت إلى روحه قبل أن ينفذ إليها هو، وربما جاءت النهاية بسرعة البرق.

أحاطت وجهه بيديها ثم همست: شدة الولع تؤدي إلى توغل الأنانية، فيصبح العالم طوفانًا والنجاة في مقلتيك. بل يصبح العمر بلا نجوم، والنجم المضيء يستعصي ظهوره. التعلق آفة مثل حب الذات. اليوم أتعلم أن حياة الظلام والنجم في مكانه مستقر أفضل كثيرًا من أن أطلب من النجم أن يقترب فأحرقه. انس أمري وكل ما طلبته منك.

لم ينطق. نظر إليها وكأنه يحاول استيعاب كلماتها ولا يجرؤ. ثم اقترب منها يحاول أن يقبلها فابتعدت وقالت: والدك ينتظرك وعمك بالخارج.

اقترب منها مرة أخرى ثم قبل شفتيها قبل أن تبتعد، وعندما حاولت أن تدفعه همس: تنفذي كلامي مرة واحدة.

بادلته القبلة بكل قوة عشقها، قال وأنفاسه تتصارع شوقًا إليها: إياك أن تبتعدي عني اليوم. هل تسمعين؟

قالت وهي تطوق عنقه وتقبل كتفه: لا تفعل هذا بي. اذهب لعزة لطالما فرقت بيننا.

- ها أنت تأمرينني من جديد، لابد أنك بقيت في الظلام كثيرًا فلم تدركي بعد أين استقر النجم، ولا كيف يحافظ على ضوئه؟

- عبد الرحمن

- جئت لأعاقبك، فنفضتني عن قلبي كل القسوة. لا أمل لي معك يا أميرة.

ضمته وكأنها تريد أن تُسحق بداخله، واعتصرها وكأنه يريدها أن تُسحق بداخله. دفع بها إلى مخدعها وحاصرها بجسده. اليوم عشقته وهي تعرف أنها ربما لا تراه مرة أخرى، أغدقت عليه في عطائها وكأنها تملك جود اليائس وحماس المسافر. سكب شوقًا كان يحاول أن يتجنب تبعاته. ابتعدت عنه بعد ذلك، والحزن يخيم عليها ثم قالت: ها هي أنانيتي تنتصر من جديد. كانت ليلتها هي اليوم، ولم أستطع إلا أن أبقى بين أحضانك. هل تريد عزة؟ أرجوك لا تكذب.

- ما رأيك أنت؟

- لم أعد أفهم أي شيء ولا أستحق حبك.. جئت بالخراب لك أنت وأهلك، لو مت أنا الآن لكان أفضل. أنت لابد أن تعيش، أما أنا فلا قيمة لي ولا قيمة لوجودي.

- سيختلف معك ابن سليمان في هذا يا عائشة، وجودك له كل القيمة. أنت الأميرة..

انتفضت من مكانها، وأفكارها تتناثر كالجنود المنتشرة ثم قالت: عمك لا يريدك أن تعود، وابن سليمان لابد سيحاول قتلك.. ماذا نفعل؟ الجنود هل تعرف أيًا منهم؟

أمسك بذراعها وقال: تعالي هنا بين ذراعي.. أحبك..

- قلت لي يومًا.. ألا أقول تلك الكلمة، واليوم أتمنى منك أنت ألا تنطقها.

- أتنتقمين مني اليوم؟

- بل أصون ما تبقى من عقلي. لا أستحق حبك.

- وما علاقة الحب بالامتنان. الحب لا علاقة له بما أريد وما لا أريد. تمنيت ألا أحبك، عاندت قلبي وهجرته حتى وأنا أعاشر غيرك كنت أفكر فيك، أرى

صورتك أمامي، أتصور الشوق في عينيك وأتمنى أن أتذوق صدق شفتيك، كنت أفكر في لهفتي عليك وأنا أحارب نفسي وأقتلها حتى لا تخضع لك، ولكنها خضعت بلا استئذان. أتعرفين ما الذي أخرج الضغينة والغضب بداخلي؟ إن حبك توغل دون أن يعطي أي إنذار، في سلاسة وإتقان، توغل المياه في تشققات الجبال، كرهتك وأنا أكره نفسي، غضبت منك لأني أغضب من روحي، ولم أستطع أن أمنع لهفتي ولا شوقي، قسوت ربما لأن الحنان غمرني، فلم أعد أستطيع التنفس، قسوت لأطفو على الأمواج، فغصت في القاع بلا أمل في النجاة. أتفهمين؟

وضعت رأسها على ساقيه، وقبلت يده ثم قالت في صوت مبحوح: أحاول، واحتقر أنانيتي.

ابتسم وقال: يا أميرة.. التعلق أنانية والشوق أنانية وشدة العشق كالإسراف في القتل، لا تُسمن ولا تُغني من جوع. بل تزيد الضعف واليأس.

أكمل وهو يمر بيده على وجهها ورقبتها وشعرها: المشكلة أنك كنت تتصرفين بتلقائية وصدق. أعطيتني كل شيء، وظننت حينها أنني أخدعك وأنتصر عليك، وأن كنزك هو حقي كما أنك أنت حقي ولم أدر أنك تعطينني المفتاح، ثم تأسرين يدي فلا قدرة لي على الطمع ولا الخيانة.

أبقت يده على فمها بلا كلمة فأكمل: فعلت هذا من أجلك، حتى وأنا أقنع نفسي أنني أفعل هذا لأني أكره الخراب الذي جلبه ابن سليمان، كنت أنت نصب عيني دومًا.

قالت في تضرع وهي لم تزل تقبل يده قبلات طويلة: أرجوك أن تتوقف.. كلماتك..

– ربما تكون آخر مرة. أريدك أن تعرفي..

قفزت من مكانها، ثم طوقت بطنه وقالت في خوف: أتوسل إليك ألا تقول هذا.

أكمل وهو يقبل رأسها: لا يا عائشة.. لا أحب عزة.. ولا أريد الزواج منها، كنت مفتونًا ربما، ولكني لم أغضب منها كما غضبت منك، ولم أحقد عليها كما حقدت عليك، ولا حسدتها كما حسدتك على أنك لا تدرين بعذابي وقلة حيلتي أمام صدقك وثقتك بي.. يا أميرة.. تجرحين بلا رحمة.

قاطعته وهي تقبل شفتيه: بل أنت أميري وزوجي وكل حياتي.

أحبته من جديد مرة ومرتين حتى ترتوي منه ولم ترتو.

همست وهي بين ذراعيه: عبد الرحمن.

قال وهو مغمض العينين: نعم.

- ستعود. فأنا أحتاجك. أنا وطفلك.

ابتسم ثم قال: أريدك أن تبقي مع خالصة طوال الوقت ولا تخرجي من البيت قط. هل ستنفذين أوامري؟

قالت في يقين: سأفعل.

قام وارتدى ملابسه، وعيناها تتابعانه في يأس ويقين. ثم قبلها في قوة وقال: أحبك.

قالت: وأنا أعشقك أكثر من أي شيء في كل عمري.

خرج وأغلق الباب. كتمت صرخة بداخلها ولم تجرؤ على الخروج من حجرتها ولا الاستماع لكلامه مع والده.

***

قبل طلوع الفجر انتظر عند مكان اعتاد الذهاب إليه وهو شاب في انتظار أن يقابلها. ورآته وهو في الطريق فذهبت إليه.

ما إن رأته حتى قالت: لم تُطلب مقابلتي منذ زمن، ظننت أنك نسيت اسمي ومكاننا.

نظر إليها، رأت العذاب في عينيه ولم يكن عذاب فراقها. فقالت عزة في حسم: لم تعد الرجل الذي أعرفه.. سحرت لك هذه الغريبة، وقفت عليك، فلا عودة لك لهذه القبيلة. ماذا تريد مني؟

فتح فمه فقالت مسرعة: عيناك لا ترياني يا بن العم، لا تُكثر في القول، ليس ذنبك فقد سيطرت عليك منذ البداية، ومنذ سيطرت عليك انتهيت يا بن العم. قفت عليك وجعلتك تقتل ابن قبيلتك لا ولاء لك؟

لم يُجب؟ قالت وهي تنظر إليه: انتظرتك أعوامًا، تزوجت حتى تتعذب وعندما تتعذب تفهم وتدرك، تزوجت وأنا أتعذب وأنت لا تبالي. لم تفهم ولم تدرك، انصرفت إلى اللهو والخمر والنساء. ثم جاءت الغريبة فأيقظت الحزن واليأس بداخلك. أكنت تبغي عذابي لتستريح أم تبغي سحرها لتدرك؟ قدرك أن تتعذب بحبها وقدري أن أتعذب بحبك. أتمنى ألا تعود، أتمنى أن تُذبح أو تُصلب وتأكل الطير من رأسك يا بن العم.

ثم تركته بلا كلمة.. بقي مكانه كأنه يستوعب كلماتها، ثم سار مع الجندي إلى خارج حدود أرضه. أصابت عزة.. أخرجت الغريبة الحزن، بل ضغطت على أوتار المستحيل في جوفه، فأصبح كمجنون ليلى أو أسوأ. ولكنها لم تبتعد، كانت دومًا طوع إرادته، متاحة له وموجودة حوله، حتى وقت غضبها وسخطها عليه أخرج الشوق واللهفة من قلبها بلا جهد ولا عناء. تلقائيتها وصدقها لم ير مثلها طوال عمره. حتى وقت الألم أخبرته بأنها تحبه فلِمَ الحزن؟ ربما لأن حبها يلقي على عاتقه أمانة لا قبل له بها، فلا هو قادر على هزم جيوش الخليفة ولا إعادة

المجد القديم، ربما لأنها بحبها تطلب منه أن يصبح كالملوك القدماء، كفرعون ذي الأوتاد، تأمره أن يبني صرحًا ليصل به إلى السماء، ربما إنها بتلقائيتها تضغط على عجزه قبل أي شيء. عشقها يذكره أن مجده زائل، وأن تاريخه لا قيمة له اليوم، وأن ابن الأكرمين لم يعد يفتح البلاد ولا يؤمن المواقي، ربما بعشمها في شجاعته تلومه على أنه ليس أحد، لن يستطيع أن يكون أحد. وكم يحقد على أحد. فلا جيوش حوله، ولا ذهب، ولا سجن يلم الأعداء، ولا دير، ولا مسجد. هو من؟ هو من عاش في حلم انبطونة وتفتوحات وعطايا الجند ومرتبة الأشراف، ثم جاءت الغريبة تتعشم في حلمه فاكتشف معها أنه حلم لا أكثر لا أوتاد لديه ولا صروح. فلا هو مصري من الملوك القدماء، ولا هو عربي من قواد عمرو بن العاص. فلتسأل الغريبة عن إخوته، عن أعمامه، كلهم تائهون هائمون داخل حقول القمح والخضراوات نسوا الأصل والتاريخ، أو فهموا قدراتهم وحجمهم. لم لا تعرف حجمه؟ حتى اليوم وهي تودعه تكلفه بما لا يطيق. كيف له أن يتحدى الموت؟ أن يعود إليها؟ أحيانًا يغضب منها، وأحيانًا يتمنى أن يرى الرضا في عينيها. لو كانت له، بين يديه وطوع إرادته فلِمَ التوق؟ ولِمَ العذاب؟ ولِمَ الحلم بالمستحيل؟ لو يأتي قيس ويأتي عنترة اليوم ليحكي لها عن محنته وابتلائه! لو يأتي كل من فقد طريقه من أجل عشق مستحيل ليخبرهم أنها بين أحضانه، وهي غاضبة تسكن في أحضانه، وهي معذبة تسكن في أحضانه، ولكنه يشتاق إلى الرضا في عينيها كشوق الطفل لرضا أمه. يخجل من ضعفه ويحقد عليها. حاول في الماضي معاقبتها فعاقب نفسه. لا سلوان ولا نسيان. هي لعنة أصابته.

***

- 7 -

بعد ساعات ذهبت إلى خالصة بخطى متثاقلة فنظرت إليها خالصة في ذهول، فقالت عائشة: يا خالتي أحتاجك اليوم.. أحبه.. كم أحبه.. ساعديني يا خالتي.

قالت وهي تضرب بعصاها الأرض مرتين وتجلس: تعالي هنا..

فتحت ذراعيها فألقت عائشة بنفسها بين ذراعيها وانهمرت الدموع.

قالت خالصة في تأمل: صدق الرجل يذبح كالسيف، صدقه أقسى من كذبه وإخلاصه، أحيانًا يحرق أكثر من خيانته. ألم أقل لك الرجال نار تحرق من يقترب. يحبك هذا الولد، يبدو مختلفًا عن والده، ولكن لا جدوى من الحب وقت الحروب.

- ادعي له يا خالتي.

- بل أدعو لك ألا تعيشي مثلي في وحدة قاتلة من أجل رجل تركك ليموت أو يخون. ولو خان ربما تكرهينه أما لو مات فلا أمل لك في التخلص منه.

***

زيارة عزة اليوم أثارت شجونها واختلطت عليها المشاعر، تارة تشفق على عزة وتارة تخشاها، وأحيانًا تشعر بالذنب. طغا الإشفاق.. تشفق على كل المحبين من آلام الفراق.

عـزة تتكلم مع عائكة وسـليمة بلا توقـف، وأختها تربت عـلى كتفها وتدعو على عائشـة. ترددت عائشـة قليلًا ثم خرجت في بطء ودخلت عليهم، اشتعلت النيران ولم تخمد.

قالت: أريد أن أطلب منك العفو.

نظرت إليها عزة هنيهة، ثم ضمت كفها ولكمتها في وجههـا، فوقعت على الأرض وقالت عزة: السـاقطة الغانية الجارية تطلب مني أنا العفو! أتيت بالخراب وقتلت الرجال وشردت القبيلة، لو مت الآن ينصلح حال الجميع.

ازداد الصفـير مـن حولها من وقـع اللكمة التي جاءت عـلى الأذن والخد، ثم قامت في بطء ولم تنطق. نظرت إليها سـليمة في ازدراء ثم قالت في غيظ: مكانك الأرض دومًا ليس لك الجلوس معنا!

همت بالقيام فضربت سـليمة رجلهـا بقدمها فوقعت مرة أخـرى وتأوهت، انقضـت عليها سـليمة تلكمها في كتفها ووجههـا وبطنها بلا توقف وهي تصرخ ولا تقوى على المقاومة. وعائكة تشـاهد في استمتاع، وعزة تأمر سليمة بالتوقف دون جـدوى. حتـى جاء صـوت قوي مـن ورائهم، صـوت ضربـات لعصا على الأرض ثم صيحة قوية لعائشة: انهضي يا عائشة.

حاولت النهوض في بطء وهي تمسك ببطنها وتخاف على جنينها.

ضربت خالصة الأرض سـبع ضربات، فسـاد الصمـت. ثم قالت آمرة: تعالي هنا يا عائشة اجلسي هنا أمامهن.

قالت وهي تتألم: أريد الذهاب إلى حجرتي.

- بل تبقين، اجلسي كما آمرك.

ثم نظرت لضرتها الشابة وقالت: هذا البيت له سيدة واحدة.. أنا.

تذمرت عائكة وقالت: يا خالتي لا يصح أن تتدخلي في مشاجرات النساء.

- لست خالتك يا بلهاء.. من اليوم تنفذين أوامري كلها.

قاطعتها عائشة في امتعاض: نتكلم مع الشيخ قبل أن..

ضربت خالصة على كتفها بالعصا وقالت: بل تتكلمين معي أنا من اليوم، تركت لك الحبل فظننت أن لك قيمة. الشيخ يا شابة ينفذ أوامري أنا. وأنت تتكلمين معي أنا من اليوم، وإياك أن تتحديني وإلا قضيت عليك، وعُدت كما كنت، لا شيء، وأنت تعرفين أني أستطيع أن أفعل هذا. عائشة سيدة هذا البيت وزوجة ابن الشيخ وخليفته، لها هنا الاحترام والخدمة منك ومن عزة وسليمة وكل نساء القبيلة.

قالت عزة: الغريبة يا خالة لا احترام لها. جاءت بالخراب.

قالت خالصة في قوة: هذا بيتها. هيا اعتذري لها أنت وأختك عما بدر منكما.

قالت عزة في تحد: لن يحدث، وأبي سيصبح هو شيخ القبيلة وليس عبد الرحمن، عبد الرحمن أثبت أنه لا يصلح من قبل ولن يصلح اليوم. هذا لو عاش وأتمنى أن يموت.

قامت عائشة في إعياء ثم وقفت خلف خالصة لتحتمي بها وقالت لعزة: أتعرفين؟ حبك ممتزج بأنانية وكبرياء تُنفر الرجال.

فتحت عزة فمها في ذهول فقالت عائشة: تحبينه ثم تعاقبينه بالزواج من غيره وكأنك تلقنيه درسًا ثم تتركين زوجك وتعودين طالبة حبه، وعندما لا يحبك تتمنين موته! أما أنا فقد كنت أريده حيًا سعيدًا حتى ولو معك. أتعرفين الفرق؟ أتفهمين شيئًا عن الحب؟ طلبت منك أن تأتي معي لنتريه في سجنه ورفضت، أنانيتك هي المتحكم وليس حبك يا عزة. هو يعرف لذا فضلني أنا.

- أتعلم منك يا غانية، أخبريني أنت كيف جعلته يحبك؟ خلعت ملابسك وأعطيته جسدك حتى وهو لا يريدك أم..

قاطعتها خالصة: اصمتي.. اعتذري لعائشة على ما بدر منك. والدك لا يصلح يا عزة وأنت تعرفين فلا ضمير له ولا ولاء.

- بل والدي أكرم من عبد الرحمن لا يناسب الغرباء ولا يفضلهم عن أهله.

قالت خالصة في حسم: اعتذري لعائشة أو اخرجي من هذا البيت ولا تأتي إليه مرة أخرى.

- هو بيت عمي.

- وعائشة في حمايتي من يؤذيها يؤذيني.

نهضت عزة وقالت في تحدٍّ وهي تتجه إلى الباب: تفضلين الغريبة يا خالة وتتحدين أبي.

قالت عائشة في رجاء: يا خالتي أنا أفهم غضب عزة..

قاطعتها عزة: عزة تحتقرك وتحتقر الرجل الذي جعلك زوجة له.

ثم جرّت أختها وخرجت من البيت.

أمسكت خالصة بيد عائشة ثم قالت: مري الجواري بنقل أشيائي إلى الحجرة الرئيسية، وستكون حجرتك بجانبي.

عودة خالصة إلى قلب البيت أربكت الجواري والشيخ، وأحبطت عاتكة وحيّرتها. عند عودة الشيخ بدأت عاتكة تبكي بصوت عالٍ، وتحكي له ما بدر من زوجته. استمع في وجوم ثم اتجه إلى حجرة خالصة لأول مرة منذ ثلاثين عامًا. لم تنظر إليه.. كانت عائشة بالحجرة فهمّت بالخروج، ولكن خالصة استوقفتها. قالت خالصة دون النظر إليه: يا شيخ أعود لمكاني كصاحبة هذا البيت، وهذه زوجة ابنك لها مكانة بعد مكانتي مباشرة.

بقي صامتًا، لاحظت عائشة رهبته من خالصة وكأنه طفل كذب على أمه، واكتشفت كذبه، أكل كل السكر وانفضحت جريمته من بقايا السكر حول فمه

رانفه، فوقف أمام الأم في شعور طاغ بالذنب. نظرت إليه خالصة فقال: أنت سيدة الدار ولكن رفقًا بعائشة هي صغيرة و..

قاطعته: هي صغيرة وتحتاج إلى الإرشاد والتربية. لهذا البيت امرأة واحدة تحكم وتقرر. ولو تطاولت الصغيرة عليّ فلن يرحمها من عصاي شيء.

قال: يا خالصة..

- لم تنطق اسمي يا شيخ منذ أعوام، ظننت أنك تنسيته. اترك لي أمور الدار واهتم بأمور القبيلة حتى يعود ابنك.

ترك الحجرة، بقيت خالصة ساكتة، رأت عائشة بعض الحزن في عينيها. فقالت في حنان: كنت قوية وحاسمة يا خالتي. أتمنى أن أصبح مثلك في يوم ما.

-لا تتمني هذا، تستحقين ما هو أفضل.

***

قالت لخالصة في حماس بعد عدة أيام: لابد أن نحفظ مكان عبد الرحمن كشيخ القبيلة بعد والده. أريد أن أزور النساء وأتعرف عليهم يا خالتي، ولكنني غريبة ولا يعرفني أحد.

قالت خالصة في حسم: لن يحدث ما تفكرين به.

قالت في رجاء: أنت كل عائلتي يا خالتي. أرجوك أن تفعلي هذا من أجلي، فقد تركت حجرتك وعدت إلى الحجرة الرئيسية لتحميني، بعثك الله لي صديقة وحماية، أتمنى أن تساعديني، وأعرف أنك تريدين سعادتي.

قالت: حتى أولادي لم يجرءوا على هذا الطلب. خالصة لم تترك بيتها منذ ثلاثين عامًا.

- أنا أيضًا ابنتك.

- أي عشم لديك في امرأة تعرفينها منذ شهور؟

- أنت كل شيء لي هنا.. أنت عائلتي وكل ناسي.

صممت على الرقص، وصممت عائشة على أن تذهب معها، وبعد يومين أقنعتها على مضض. خرجت خالصة من البيت وهي تتوكأ على العصا وحولها جاريتان تحملان الخبز بالسكر لنساء القبيلة، وبجانبها عائشة تسندها، ثم بدأت تمر على كل بيوت القبيلة. في كل يوم تمر على بيتين فتصاب النساء بالدهشة، لم تر بعضهن خالصة منذ زمن؛ حتى ظنن أنها قعيدة أو مريضة مرض الموت، ولم تر الكثيرات منهن زوجة عبد الرحمن الغريبة. قالت خالصة: إن عائشة قريبة لأمها وتحت حماية بني سالم. أخذت عائشة رقعتها وقلمها، وعندما اختلت ببنات القبيلة رسمت الفرسان على الخيول، فتنهدت البنات وقلن: إن الرسم حرام وخاصة رسم الوجوه، فقالت عائشة: إنها رسومات لهن فقط لا حرمة فيها ولا ذنب، فهؤلاء الرجال ليسوا حقيقيين. طلبت منها البنات أن يحتفظن بالرقعة، فوافقت مع أنها لم تعد تملك منهم الكثير. ثم غزلت ونسجت بعض القطع الملونة من الصوف لنساء القبيلة. قضت وقتها تعمل إما في خبز الحلوى أو غزل الصوف، ثم بعثت بالهدايا لكبار القبيلة وحاولت كسب ود كل النساء، وبعد عدة زيارات شرحت لهم: إن عبد الرحمن فعل ما فعل لأنه يخاف على القبيلة. تكلمت باستفاضة وصراحة واستمعوا لها في صمت. ثم زارت أهل صالح وقد أعطاهم والد عبد الرحمن الدية. زارتهم مع خالصة وقدمت لهم الخبز والسكر، وطلبت الأمان والصداقة. استقبلوها في فتور ولكنهم استقبلوها وقبلوا هداياها. لم تنم يومًا سوى عند منتصف الليل، عملت ليلًا ونهارًا وخالصة ترمقها بنظرات سخرية كل حين.

فقالت خالصة في تهكم: هذا الحب سيقضي عليك. ألم تتعلمي شيئًا في الشهر الماضي؟

قالت وهي تدّعي القوة: تعلمت الكثير.

مصمصت خالصة شفتيها ثم قالت: عقل العاشق كعقل العصفور لا يرى سوى عشه، ولا يفقه لغة البشر. لترَ ما نهاية هذا العشق؟ تتعلم منك يا عائشة.

- بل تعلمت أنا منك كل شيء يا خالتي، ليحفظك الله لي.

- يحفظني من أجلك فقط؟ أي أنانية هذه؟

ابتسمت: يحفظك من أجلي فقط.

قالت خالصة في جدية: لا ترفعي شراعك ثم تكتشفين أن المياه راكدة. عبد الرحمن ربما يُقتل، بل من المؤكد أنه سيُقتل. وربما يعود ويتزوج من عزة وربما..

قالت في حسم: سيعود.

- ولو تزوج من عزة؟

قالت في حزن: لن يفعل. ولكني أقسم لك إنني مدينة له بالكثير، ولو فعل لن أغضب. سأعمل من أجل سعادته.

ابتسمت خالصة وقالت: لم تعلمك أمك شيئًا، ووالدك الخياط ألم يخبرك أن لا عهد للرجال؟ لا بأس.

***

الباب الثالث

وقالوا لو تشاء سلوتَ عنها — فقلت لـه فإنـي لا أشاء

وحب تنشّأ في فؤادي — فليس له -وإن زجر- انتهاء

قيس بن الملوح

شاعر أموي

- 8 -

سار عبد الرحمن وسط جنود مصريين أسرهم ابن سليمان، وأمره الخليفة بأن يأتي بهم إلى بغداد. بعضهم كانوا قوادًا في جيش ابن طولون، وبعضهم كانوا شبابًا سيطر عليهم حلم أحمد.

طوال الطريق وهو يفكر في ابن سليمان. وصلت رسالته إلى الخليفة في وقت مناسب قبل هدم المسجد وقبل قتله. ما إن يصل ابن سليمان إلى بغداد حتى يتم القبض عليه ومصادرة جميع أمواله. سرق من مصر ألفي ألف دينار، هو مبلغٌ لا يتوقعه الخليفة، ولا تنعم به خزائن بغداد، وسرق الذهب أيضًا. لا بد أن يأخذ منه الذهب. كيف يسرق الذهب من قافلة ابن سليمان؟! خطط لهذا اليوم وهو يعرف أن لا أمان ولا عهد لابن سليمان. عندما طلب من زوجته أن تكتب كل محتويات القصر بعث بها إلى الخليفة، وكان قد زار قصر الخليفة من قبل، وله بعض الأصدقاء من كُتاب الخليفة. بعث بمحتويات القصر إلى الخليفة واتهم ابن سليمان بالسرقة والكذب. قال في رسالته للخليفة إن ابن سليمان لن يبوح بما سرق، وعندما يسأله الخليفة عن كنوز أحمد لن يعرضها على الخليفة، ولن يُفصح عن مكانها. لا ولاء لابن سليمان حتى لو كان قد انتصر على القرامطة في الشام ثم الطولونيين في مصر.

منذ زيارة عبد الرحمن لخيمة ابن سليمان والأمور تتضح له ونفسه تتفتح أمام عينيه. ربما في الماضي كان يريد اللهو، ولا يأبه بمصير القوافل وهو يسرقها، ولكن هدم مدينة ثم مسجد واغتصاب النساء وذبح الرجال كان أكثر مما يتحمل، كما أن نقض العهد سمة الحقراء. ولكنه لا يأبه بعهد والده مع أحمد، العهد الذي غيَّر كل

أفكاره، كان عهد ابن سليمان لشيبان بالأمان له ولأهله. نقض ابن سليمان عهده، وسجن شيبان ثم قتله منذ يومين بعد أن تركوا حدود الديار المصرية، قتله قبل الوصول إلى حلب.

متى يولد الأبطال؟ ابتسم وهو يفكر. يولد الأبطال وسط ضجيج الطامع وشراهة القاتل. لا بطل يولد في بيته وسط دفء النار والغطاء الصوف المطمئن. رأى نفسه من الصعاليك، ولم يدرك مدى كرهه لابن سليمان إلا عندما قرر التحالف معه. ولكن كرهه لابن سليمان لا شيء بالنسبة لكرهه لقاسم الخراساني. لو استطاع يومًا أن يمزقه بين يديه، يقطع أطرافه، ويُلقي به من أعلى الجبل كما فعل أحمد بأصحاب العباس! لو استطاع أن يمنعه من هدم المسجد! قاسم أخطر من ابن سليمان نفسه.

هذه القافلة كلها جنود منهزمون.. مصيرهم الموت. ولكن الخليفة استدعى ابن سليمان وسيسجنه، في هذا المصير بعض الانتصار.

وأصبح ابن سليمان على رأس القافلة ومعه وآل طولون جميعًا. يتوقع ابن سليمان أن يكافئه الخليفة ثم يعود إلى مصر ويعينه واليًا عليها، لا يعرف ابن سليمان مصيره بعد، وربما يشك فقط ولكن عبد الرحمن يعرف. وفي هذا بعض النصر أيضًا.

قاسم الخراساني لم يزل بمصر، في هذا الكثير من الهزيمة. لم يزل يوسوس لعيسى النوشري بهدم المسجد. لم يزل يُنفذ خطة ابن سليمان بمحو أثر أحمد. سار عيسى النوشري بين طرقات الفسطاط ثم القطائع، ورأى الهدم والدمار والنيران التي لا تخمد، ثم قال في حسم: لكي يطمئن الخليفة لمصر ولأطمئن أنا للمصريين لا بد أن نمحو أثر أحمد. لم يتبق في المدينة سوى بضعة بيوت.

ثم سار إلى المسجد فوجد بجانبه بيتًا لم يزل واقفًا فسأل عن صاحبه، فقال قاسم: هو سعيد الفرغاني أحد رجال أحمد، هو رجل هَرِم خرِف لا فائدة منه. لو أردت أقتله اليوم أو أهدم هذا البيت على رأسه.

قال عيسى: هذا البيت الصغير لا يهمني.

فقال قاسم وكأنه يفهمه: ما دام جامع أحمد قائمًا فلا أمل لنا، هو أكبر مسجد رأته عيني، أردت أن أهدمه لو أعطيتني الأمر.

- افعل ما تراه في مصلحة الخليفة ..لك مطلق الحرية.

ابتسم قاسم الخراساني وهو يعرف ما يجب أن يفعل.

***

هذه الرحلة ستحدد المصير، مصيره هو، ومصير ابن سليمان، ومصير كل الجنود والقواد. قُتل شيبان وانتهى الأمر. بقية الطولونيين لن يعرف أحد مصيرهم. وهل المصير اليوم في يد الخليفة؟ لا بد من التفكير السريع.

لا مفر له اليوم، حاول أن يبتعد عن صراع لا يهتم به، ولكنه وجد نفسه في أعماق الحروب فلو لم يُمسك بالسيف يُقتل في لحظات. لو استطاع الهرب يكون أفضل. ابن سليمان في مقدمة القافلة محاط بعشرة آلاف جندي فلا أمل في الفرار. شاء أم لم يشأ أصبح جزءًا من التاريخ، شاء أم لم يشأ استدعاه الأجداد واستنجدوا به، شاء أم لم يشأ سيحارب من أجل أحمد.

في الطريق إلى الشام نظر عبد الرحمن إلى الجندي الذي يسير بجانبه وقال: ما اسمك؟

قال الجندي في وجوم: محمد بن علي الخلنجي.

- من كان قائدك؟

- صافي الرومي.

- لا بد أنك من أقوى الجنود.. لهجتك مصرية. تُرى ماذا سيفعل بك الخليفة؟ ربما يعفو عنك ويبقيك في جيشه في بغداد.

قال محمد في حسم: لا شأن لي ببغداد اليوم. زوجتي وولدي في مصر، ولا أحب الكلام كثيرًا.. لا أمان لأحد.

عرض عبد الرحمن على محمد بن الخلنجي الطعام فرفض، كانوا قد تركوا الديار المصرية متجهين إلى الشام ثم العراق، وكلما حاول عبد الرحمن أن يتكلم معه يقاطعه ويرفض سماعه. بعدما جنح الليل قال عبد الرحمن في حسم: يا رجل لا بد أن تسمعني، اجتزنا الحدود المصرية، ووصلنا إلى حلب، وسوف يأتي الأمر بقتلي بعد أقل من يوم. وليس من الإسلام قتل الأسير.

عندها قال محمد في امتعاض: وما الذي يهمني في قتلك يا رجل؟

- سيقتلني ابن سليمان قبل الوصول إلى العراق. أتعرف لماذا؟ لأنه سرق ما سرق، ولأن هدفه محو الأثر وليس فقط عودة البلاد إلى الخلافة.

- اصمت.. لو كنت تتجسس لابن سليمان فلا يوجد لدي ما أقوله.

قال عبد الرحمن: عندما ينهدم المسجد أمام عينيك تذكر حينها أنك مصري، كنت تعمل في جيش الطولونيين، ثم انهزمت أمام ابن سليمان.

أمسك محمد بسيفه وقال وهو يضعه على رقبة عبد الرحمن: لو قتلتك الآن يكون أفضل لي ولك.

- لأنك لا تريد أن تسمع. من أين أتيت بالسيف؟ هل خبأ الجنود سيوفهم؟

غرز محمد السيف في زاوية رقبة عبد الرحمن فتساقطت الدماء ثم قال: اصمت حتى لا تموت.

- لو كنت ستقتلني فأعطني حق المبارزة.

- لا أحد ينتصر عليَّ في السيف.

- دريك أحد نفسه إذن؟

- إياك أن تنطق.

- بارزني ولو انتصرت أنا تسمعني فقط، ولو انتصرت أنت فاقتلني وسوف يعطيك ابن سليمان بسخاء.

نظر محمد حوله، ثم أخرج سيفًا آخر من جيبه، وأعطاه لعبد الرحمن وقال: هيا دافع عن نفسك.

دارت معركة ضارية بين الرجلين، لم ينتصر فيها أيٌّ منهما، بل تهاوى الرجلان في إعياء، وأنفاسهما تخرج ثقيلة.

قال محمد: منذ متى يهتم العربي بحال مصر، ألا تكفيك قبيلتك؟

- الآن تريد الكلام، وقد أعياني بأسك فلم أعد أقوى على النطق. انتظر حتى آخذ أنفاسي.

جلس محمد بجانبه على الأرض ثم قال: أنتظرك، هيا تكلم.

قال عبد الرحمن وهو يلهث: تلك الأرض التي أحيا بها كيف لي ألا أهتم بأمرها؟

- وماذا بعد؟

- أعرف كيف تفكر.. كنت أفكر مثلك... تفشى الفساد حول الأمير الصغير، ثم قتله عمه بعد فوات الأوان، والعم عندما يقطع رحمه يصبح الولاء له مستحيلًا. فساد القادة وسيطرتهم على الطفل أضاعا هيبة بني طولون، وقضيا على دولتهم، وكم دولة زالت لفساد رجالها! وكم دولة زالت لصراعات أبنائها! وليت الأمراء يتعلمون من بني أمية ثم من بني عباس ومن صراع الأمين والمأمون، ومن الفتنة وشرور النفس. هي دنيا يحيا فيها الإنسان جاهلًا حتى لو عرف ينسى، ولو تذكر يتناسى، عند سيطرة طمع النفس. يا قائد، أيام طولون كان خير مصر للمصريين، وكان الموالي منهم وفيهم، كان لمصر جيشٌ، وكان

المصري قائدًا في جيش طولون. أنت مصري.. لو تركوك تعيش فستصبح جنديًا في جيش الخليفة، تنغمس في صراعات بعيدة عن الدين ربما لا ترى بلادك من جديد. لو كان المال يغني عن الأرض ما ضاعت الأرواح من أجل الأرض يا قائد. ماذا رأيت من ابن سليمان؟ أين ذهبت كنوز الطولونيين؟ في جيبه. وأين ذهبت القطائع؟ هدمها ومحا أثرها، ولم يزل يحطم الأحجار واحدًا تلو الآخر، ترك من ورائه قاسم الخراساني وهو من أبشع من قابلت، لن يترك البلاد إلا لو هدم المسجد. هل ستقف مكتوف الأيدي عند هدم المسجد؟ لا وفاء لعهد ابن سليمان، ولا رخاء يعم هذه البلاد بعد زوال بني طولون. تذكر أحمد وحلمه. ومًّا تذكر حلمه.

ساد الصمت برهة، فأكمل عبد الرحمن: أرى في عينيك منذ البداية أنك تحن لأيام قد ولَّت، ومجد كان.. عندما تُمحى المدينة ستبقى ذاكرة النصر، ولكنها بعد أعوام ستندثر ويظن المصريون أن لا ملجأ لهم سوى الخضوع. أتفهمني؟ بماذا شعرت وجنود ابن سليمان تغتصب النساء وتذبح الرجال في بر مصر؟ لمَ الانتقام من المصريين وتخريب الفسطاط مع القطائع؟ ماذا وجد ابن سليمان في قلب المصري؟ حلمًا أم كرامة لا بد من كسرها، أي قدر أقسى من أن ترى أختك أو زوجتك أو ابنتك تحت جندي من عرب خراسان يعبث بشرفها؟! هذا يكسر كل الجنود يا أخي، ويحطم أعتى الأحلام.

قال محمد: حتى لو كنت على صواب، مع أنك خائن لا أكثر، ولكن فلنفترض أنك على صواب ماذا تتوقع مني اليوم؟ لقد قتل ابن سليمان شيبان، ولا أحد يعرف مصير بقية الطولونيين، مع أني أتوقع أنهم ماتوا في الطريق إلى بغداد أو بعد حبسهم هناك.

ساد الصمت المتوتر حتى قال عبد الرحمن: لو أردت الوشاية بي فعندي أن أؤكد أنهم سيقتلونني بلا تعذيب.

- ماذا تقصد؟

- عدني أولًا.

- لا عهد لكم.. فَلِمَ أعاهدك؟

- بل صنت العهد مع بني طولون، لا عهد لسوانا يا أخي، العربي لا يخون.

- بل الخيانة..

قاطعه: عدني أن القتل سيكون بلا تعذيب.

- أعدك.

التفت عبد الرحمن حوله ثم قال: إبراهيم بن خمارويه لم يزل حيًّا. هو موجود في مصر.

فتح محمد فمه في ذهول، فقال عبد الرحمن: لي طرق أعرف كيف أموت قبل أن أنطق بمكانه.. لن يجدي معي أي تعذيب، معي السم داخل فمي أبتلعه الآن..

ساد الصمت. ودخلت الريبة قلب محمد، أو اليقين، لا أحد يدري.

جاءه الخبر اليقين بعد يومين، رسالة من أحد الجنود تخبرهم بأن الخليفة قد قبض على ابن سليمان في حلب. يقولون إن رجلًا قد وشى به للخليفة، وأخبره أن ابن سليمان قد سرق من مصر ما يقرب من ألفي ألف دينار فأمره الخليفة بالعودة إلى بغداد، وعند حلب أمره نائب الخليفة بأن يُسلم ما معه من ذهب وأموال ونحاس وفضة، ثم قبض عليه.

فازداد قلب محمد حيرة أو يقينًا.

عندما جن الليل دنا محمد من عبد الرحمن ثم قال: ما تطلبه خطير. الموت لا يكفي لمعاقبتنا.

- معاقبتنا.. معًا.. هذه بشرى.. هل ستترك قاسم الخراساني ورجاله يعيثون في الأرض فسادًا؟ هل تستطيع أن تنسى أنه قد كان لمصر جيش غير جيش الخليفة، وأن جيشها كان يستعين به الخليفة، وأن الخلافة كانت ستنتقل إلى مصر لولا موت أحمد؟ هل ستنسى أن أحمد كان يشفق على أهل البلاد ويعدل بينهم؟ هل ستنسى أن قاسم الخراساني لم يزل ينوي هدم المسجد؟

- أين إبراهيم؟

- طفل صغير يحتاج إلى قائد يسيطر على الأمور، قائد مصري تدرب تحت إمارة بني طولون.

- أنت توسوس كالشيطان.

- أنا معك برجالي، ولو سألت العساكر اليوم ستجد أنهم كلهم معك.

- سننهزم أمام جيش الخليفة.

- معك العساكر التي رفضت الخضوع أسرى، استعن بهم واستعن بعساكرك ورجالي وكل من يحن لأيام بني طولون، وكل من اتخذ مصر وطنًا لا يريد تركها، وترك زوجه وأهله.

- سننهزم ونموت.

- يا أخي لو أنقذت الجامع سيبقى يُذكَر الناس بك وبما فعلت، والموت ليس عقابًا بل يقين وحقيقة سيأتي اليوم أو غدًا. توكل على الله.

- ماذا تريد في المقابل؟

- كلنا على أرض الديار المصرية نرعى ونحيا، عندما تشتد الأزمات وتأتي الأيام العجاف سنجوع كلنا وسنموت كلنا وسنعطش جميعًا، لا تفرقة ولا مميزات. أنا معك.

- لا مال عندي..

- قضيت عمري أبغي المال، وخجلت من نفسي وأنا لا أستطيع أن أساعد الفتاة وهي تستغيث من مغتصبها، أريد القوة اليوم.

- كأنك تنخر في القلب..

قال عبد الرحمن: بل كانت رغبتك منذ البداية، أنا فقط أخرج ما تخفيه، وأظهر باطن قلبك. خيرات هذا البلد لا تنتهي، قطعًا سنحصل على الخير من المال والذهب.

نظر عبد الرحمن حوله يبحث عن خفيف النوبي، كان يسير وراء الأسرى بخطى متثاقلة يائسة، ويداه وقدماه مكبلتان بالحديد.

قال عبد الرحمن لمحمد: أطلق سراح الأسرى بالسلاح الذي خبأته واتركهم ينضمون إليك، وعُد من حيث رحلت. لم يزل لبني طولون نسلٌ في مصر.

***

أطلق عبد الرحمن بنفسه سراح خفيف النوبي وهو ينظر إليه في ذهول، ثم بقية الأسرى وقال في صوت قوي: نريد العودة إلى مصر التي نعرفها. من يريد العودة معي؟

صاح الجنود في حماس.

واتفقت الجنود المصرية على أنه ما دام إبراهيم بمصر فآل طولون أحق بالحكم، كانت أيامهم عدلًا ورخاء، لا طاقة لهم بفراق الوطن. كانوا ألف جندي لا أكثر. بايعوا محمد بن عَلِيًّا الخلنجي، وأصبحوا تحت إمرته. عادوا بالخيل والسيوف والكثير من الحماس في اتجاه مصر، وما إن وصلوا إلى الرملة في فلسطين حتى بدأ القتال بين الوالي ابن وصيف وجنوده الخمسة آلاف، ومحمد بن عَلِيًّا الخلنجي وجنوده الألف، ولم ير ابن وصيف مثل حماسة جنود محمد الخلنجي على الرغم من قلة أسلحتهم ومتاعهم، وكأنهم جاءوا من قرية فقيرة، أو كانوا مساجين في سجن مظلم وفرصتهم الوحيدة في النجاة هي محاربة ابن الوصيف. لم يعرف

في عنف هؤلاء ولا في يأسهم، وعندما يمتزج اليأس بالشوق إلى أرض وولد، يصبح صعب المراس. تقهقر ابن وصيف وانهزم جنوده قبل أن يبعث إلى الخليفة ووالي مصر بما حدث، وقبل أن ينتبه بالخطر المختلف الآتي من جنود معظمهم مصريون. نصب محمد خيمته في الرملة وحوله جنوده وطلب من الناس الماء والطعام فأعطوهم في فرح وارتياح وهم يتهامسون بأن إبراهيم بن خمارويه حي في مصر وهذا جيشه. اجتمع الرجال يتشاورون على الخطوة القادمة التي ستكون أشد خطورة وجهدًا، فلا طعام معهم ولا مال ولا عتاد. هم فرسان بالسيف، والفرسان لا تكسب حربًا مع الخليفة.

قال محمد: عند الوصول إلى مصر سنجد خزائن الخراج لنجهز العتاد وندفع رواتب الجنود. ولكن حتى الوصول إلى مصر ماذا سنفعل؟ وكيف سنصل إلى مصر بلا طعام ولا شراب؟

قال عبد الرحمن في يقين: حتى الوصول إلى مصر سيعطينا الأهالي عن طيب خاطر الطعام ولا نحتاج إلى أموال لا نحارب من أجلها. عند صلاة الجمعة ندعو على المنابر للخليفة ثم لإبراهيم بن خمارويه، ثم لك أنت باعتبارك نائبًا عنه.

نظر إليه محمد في ذهول ثم قال: أنا وليس أنت؟!

- أنت في الجيش، أما أنا فلن أستطيع أن آمر الجنود. نحن كلنا معك، وعندما يخطب الخطيب سيشرح للناس من تكون.. سيرحبون بنا.

بعد يومين أمر محمد الخطيب فدعا للخليفة ثم إبراهيم بن خمارويه بن أحمد ابن طولون، ثم نائبه محمد الخلنجي، ودعا الناس إلى مساعدة جيش إبراهيم ومساندته، فجاءوا من كل الديار بالطعام والأسلحة، وانضم إليه الرجال من كل مكان بلا مال ولا رواتب، فقط ولاء لعصر أحمد بن طولون وخيراته على البلاد. ارتاح الجنود ثم استمروا في رحلتهم إلى مصر.

***

بلغ عيسى النوشري الوالي الذي عينه الخليفة المكتفي على مصر- ما فعله القائد المصري وأعوانه، فاستهان بهم، هم بعض الجنود الفارين من ابن سليمان، بالطبع سرقوا السيوف والخيل ولا عتاد لهم. بعد يومين أو أقل سينهكهم الجوع والعطش. توجس خيفة من المصريين، يعشقون أحمد بن طولون، ولم يزل بعضهم يتذكر أيامه وكرمه وعطاياه، وعدله وبناياته و..و.. يخشى لو دخل هذا الجندي محمد الخلنجي إلى الفسطاط أن ينضم إليه المصريون ويحتفلوا به، ولو حدث ذلك فلا هيبة للخليفة. كل هذه المصائب من وجهة نظر عيسى بسبب جنود ابن سليمان، عاثوا في الأرض فسادًا ونهبوا الديار وتعاملوا مع المصريين كالروم أو أسوأ. وما شأنه هو بما فعل ابن سليمان؟ سيلقى ابن سليمان عقابه على طمعه، هذا أكيد، وها هو يجني ثمار غفلته وغروره. ولكن حفنة من الرجال المتمردة لا تمثل شيئًا أمام جيوش الخليفة. قرر عيسى أن يثبت للمصريين شجاعته وهمته، فذهب بنفسه إلى غزة ليقابل الجنود الفارين من ابن سليمان ويهزمهم، ثم يعود إلى أهل مصر ويسيطر على شئون البلاد بلا منازع.

جهز عيسى جيشه وانطلق ليقابل جنود محمد الخلنجي في غزة.

تدرب الرجال الجدد على الخيل والسيف أسبوعًا، عبد الرحمن يدربهم على الخيل، وخفيف النوبي يدربهم على السيف والرمح. وتوكلوا على الله وساروا في طريقهم إلى مقابلة جيش عيسى النوشري. أتقنوا طريق الصحراء فانتشروا حولها. من قابل جيش عيسى كان رُبع الرجال، والباقون اختبئوا في الصحراء. استهان رجال عيسى بمن رأوا فخرجوا عليهم في كامل استعدادهم، وعندما بدأت المعركة خرج الرجال من مخبئهم وحاصروا جيش عيسى من كل اتجاه.

فزع عيسى كما لم يفزع من قبل، ولم ير في حياته جنودًا أكثر حماسة وأكثر مرونة وخفة. أمر جنوده بالتقهقر إلى العريش حيث دارت المعركة، وانهزم جيش عيسى، وطار الخبر مع الحمام إلى الديار المصرية كلها. هزم بضعة جنود من جيش طولون

جيوش الخليفة، وفر الوالي من العريش متجهًا إلى الفرما، وجيش محمد يتبعه ويطارده، ففر من الفرما إلى العباسة، وأصبح الطريق إلى الفسطاط والقطائع قصيرًا. انطلق جنود محمد وراء عيسى وجنوده بحماس وثقة، ثم وصل محمد إلى مدينة جرجير، ففر عيسى إلى الفسطاط. واقترب جيش محمد من حدود الفسطاط.

***

عند اقتراب جيش محمد من مصر تذكر عيسى النوشري ما فعله ابن سليمان والقائد دميانة عند دخولهم مصر منذ أربعة أشهر أو يزيد؛ أحرقوا الجسر الشرقي والجسر الغربي حتى لا تصل الإمدادات ولا الطعام إلى العساكر ولا إلى أهل البلاد فلا يبقى أمامهم سوى الاستسلام. وكان الجسر الشرقي والغربي مربوطين من خلال المراكب المتراصة، فأحرق هو المراكب فانهار الجسران، ثم أصابه الخوف من حماسة الجنود وردة فعل أهل مصر، فقرر عيسى الفرار من مصر والفسطاط إلى الجيزة. وترك مصر عمدًا بلا والٍ ولا شرطة ولا جيش، فخرج اللصوص والقتلة من جحورهم، وعمت الفوضى والخراب في أنحاء البلاد. أراد عيسى أن ينتقم من المصريين ويوضح لهم ما يستطيع أن يفعل حتى وهو يفر خارج حدود العاصمة.

***

دقت عائشة على باب الشيخ موسى كعادتها، وسمح لها بالدخول وسط ضيق عاتكة وغيرتها من زوجة ابنه التي تملكت عقله، فتكلمت معه في حماس عما يحدث. سمعت الأخبار مثلها مثل أهل مصر، الوالي العباسي هرب برجاله من مصر إلى الجيزة وترك الفسطاط وما تبقى من القطائع بلا جيش ولا شرطة.

قال موسى في أسى: نعم وسيدخل اللصوص ويعم الخراب.

- لا يا عمي، هذا ما يريد عيسى بالضبط. لا بد أن تتكلم مع رجال القبيلة.

- وما دخلك أنت؟

قالت في هدوء إنها تتوقع أن بعض رجال القبيلة سيعودون إلى عهدهم القديم، ويغيرون على الفلاحين ويسرقون المحاصيل والأغنام، وبعض رجال القبيلة سيصابون بالحيرة والعجز ويلعنون الطولونيين والقائد المصري الذي طرد بني عباس مع حفنة من الرجال لا أكثر. تكلمت معه ساعة، وشرحت له أنه لا بد أن يتكلم مع رجال القبيلة، فيحرسون بيوتهم وينتظرون قدوم عبد الرحمن، هو قادم هذا أكيد. وهو في قلب هذا الجيش إن شاء الله.

منذ رحل وهي تتمنى أن يعود سالمًا. استسلمت للهزيمة ولم تتوقع عودة لبني طولون في حياتها. كل يوم تدعو الله دعوتين: أن يعود زوجها سالمًا، وأن يحفظ الله مسجد أحمد. ولكن منذ تولي عيسى النوشري وهي خائفة من أعوانه، استمر في هدم ومحو ما تبقى من المدينة. وتوقعت أن يكون قد نوى هو أيضًا هدم الجامع أو جزء منه. لم تحلم أبدًا بأن جنديًا مصريًا سيقود جيشًا طولونيًا. هذا الحلم كحلم أحمد بالملوك القدماء بالضبط، بعيد ومستحيل، ولكنه ممكن وجائز، بل وواجب ونجاة.

استمع إليها موسى وهي تخبره في حماس بما يقول للرجال وبما يجب أن يفعل. قالت إن الحزم مهم اليوم، وإنه لا بد أن يمنعهم من السرقة من أهل مصر، قبيلة بني سالم ستحارب مع القائد محمد الخلنجي، لأنهم أخذوا عهدًا على أنفسهم أن يدعموا بيت طولون. قبيلة بني سالم سيكون لها شأن كبير، وسيصبح رجالها كبار القادة والوزراء في المستقبل. الرجال لا بد أن تتصرف بمسئولية وتحمي النساء ولا تغير على أحد.

في الصباح خرجت من البيت بخمارها، واستمعت لكلماته وهي تبتسم وترددها معه. كانت كلماتها هي. وضعت يدها على قلبها ودعت لزوجها وللمسجد والطفل في أحشائها.

تذمرت النساء من نقص الأكل، ومن خطورة الطريق إلى الفسطاط، ومن الفوضى التي جاء بها القائد المصري بعد هروب عيسى النوشري. تذمر الرجال من البقاء ليلًا ونهارًا يحرسون البيوت والخيام.

ثم جاءت الأنباء، محمد الخلنجي وجنوده دخلوا الفسطاط اليوم.

***

اجتمع المصريون ينتظرون قدوم محمد الخلنجي ودخوله مصر والفسطاط، اجتمع الرجال والنساء والأطفال، اشتروا الزعفران الباهظ الثمن ليزينوا به خيول الفرسان الشجعان، فرسان أحمد بن طولون، فرسان مصر. رفرفت القلوب، وعلت ضحكات الأطفال والنساء، وانتشرت نظرات الإعجاب لدى الشباب. ما إن دخل محمد بفرسه حتى ألقى المصريون الزعفران على وجه فرسه، وهتفوا له وهللوا ثم ألقوا بالزعفران على وجوه خيول أصحابه، عبد الرحمن وخفيف النوبي وغيرهم. لم يزل عبد الرحمن ملثمًا وعيناه تدوران في المكان في فخر لم يشعر به منذ ولد. يريد أن يحكي لها عما كان وما حدث، ربما يخبرها أنها كانت على حق في بعض الأشياء وليس كلها.

خرجت عائشة لم تستطع أن تبقى ولا ترحب بمن نصر أهلها، أقنعت الشيخ أن يخرج معها فربما يقابلان عبد الرحمن هناك. اشتد الزحام ولم تستطع أن تقترب من الموكب، ألقت الورود عليه والزعفران ورأت فارسًا ملثمًا تعرفه. اهتز الفؤاد فرحًا، صاحت بأعلى صوتها: عبدالرحمن..

لم يسمعها ولم تتوقع أن يسمعها، ولكنه حي. ترى أيتذكرها؟ هل سيزورها؟ متى ستلقي بنفسها بين ذراعيه؟ أشارت إلى الشيخ فحاول أن يراه ولم يستطع.

طاف محمد بالمدينة يصافح الناس ويسمع تهنئتهم وصرخات الفرح وآهات النصر. ثم صلى في مسجد أحمد بن طولون وألقى الخطيب خطبة الجمعة ودعا

الإمام من على المنبر للخليفة، ثم من بعده لإبراهيم بن خمارويه بن أحمد بن طولون ثم لمحمد الخلنجي.

***

ما إن دخل محمد الخلنجي مصر حتى انضم إليه خمسون ألفًا من الرجال أو يزيد، جنود من جيش طولون المنهزم وشباب من المصريين يؤمنون بحلم أحمد. لم يتوقع محمد هذا الترحيب ولا هذا الكم من الجنود. جمع جنوده وأخبرهم أن عيسى عندما هرب أخذ معه كل رجال الشرطة ليترك المدينة في فوضى ويعاقب أهل مصر على حبهم لبيت طولون. بل ما إن دخل محمد الفسطاط حتى اكتشف أن عيسى قبل هروبه إلى الجيزة أخذ كل أموال الخراج وكل الأوراق والسجلات التي بها أرقام تخص مصر، فلا دليل لدى محمد ولا مال. خطب في الجنود وقال إنه لا يملك خبرة الحكام، ولن يستطيع حتى أن يدفع رواتبهم ولا أن يعطيهم العطايا. فأجمع الجنود أنهم لا يريدون العطايا، وأنهم سيصبرون على الرواتب حتى يستقر حال البلاد. فطلب محمد من بعض الرجال أن يمسكوا بزمام الشرطة وينشروا الأمن بين الناس حتى يستطيع أن يحارب عيسى ويطرده من كل الديار المصرية. آثر عبد الرحمن التخفي عن الظهور، وقرر أن يبقى ملثمًا طوال الوقت حتى وهو على فرسه بجانب محمد. فهذا في مصلحة محمد حتى يستطيع أن يتنقل بين الناس في حرية ودون أن يكون معروفًا للعدو والصديق. ثم بعث عبد الرحمن إلى قبيلته رجالًا يدعون أبناء القبيلة بأمر من عبد الرحمن للالتحاق بجيش محمد، انطلق الرجال في حماس. واتخذ عبد الرحمن ومحمد وخفيف النوبي من بيت بدر الحمامي حيث كان يسكن عيسى، ومن قبله ابن سليمان مركزًا ومسكنًا.

***

رأت الرجال تستعد للذهاب إلى عبد الرحمن، فدخلت حجرتها في ضيق. توقعت أن يأتي إليها لو كان في الفسطاط. تمنت أن يحاول أن يراها. هل نسيها مرة أخرى؟ ترى كم من الجواري يملك اليوم بعد أن استقر في بيت بدر الحمامي؟

بعد مرور يومين بعث الرجال الملثمين يأخذون زوجة القائد. جرت بأقصى سرعة، كانت الفرحة تقفز من عينيها.

دخلت بيت بدر الدين الحمامي في ترقب للقاء وشوق لا ينتهي.

انتظرت في الحجرة في صبر حتى لمست يد رجل ملثم كتفها وقال: الأميرة.

التفتت إليه وفتحت عينيها والقلب يختلج، ثم نظرت حولها، وقامت في بطء وانحنت أمامه وقالت: مولاي القائد.. أهل مصر كلهم يشكرونك اليوم.

ردد وهو يرفعها: كلهم؟

ألقت بنفسها بين ذراعيه، وضغطت على ظهره بكل قوتها، أحاط خصرها بيد، وأحاط رأسها بالأخرى فقالت: كلهم.. كلفوني بأن أبعث لك رسالة تحية وسلام.

غاصت برأسها داخل صدره، وقالت: والكثير من الشوق.. كلهم يشتاقون إليك، يتمنون أن يروا وجهك ويبقوا معك بقية العمر.

قال وهو يقبل شعرها: لم أكن أعرف أن أهل مصر بهذا الحنان وهذه الرقة.

ابتعدت عنه بعض الشيء، ثم نزعت الغطاء عن وجهه، وقبلته قبلات متقطعة وهي تقول: كنت أعرف أنك ستعود، ولكني لم أتصور ما حدث، يعجز عقلي ولساني عن وصف إعجابي بك، عندما أحببتك لم أعرف حدود نفسك ولا قوة قلبك وإدراكك، سامحني فقد استسلمت لعقلي المحدود، ولم أدرك أني زوجة لأشجع الرجال وأكثرهم ذكاء.

همس في أذنها وهو يقبلها: كنت أظن أن أشجع الرجال هو والدك يا أميرة.

- والذي أشجع الرجال لأنه بنى وأصلح، وأنت أشجع الرجال لأنك تريد الحفاظ على ما بنى، شجاعته غير مكتملة بلا شجاعتك أنت أيضًا، فما فائدة البناء لو كان الهدم قادمًا لا محالة؟ وما فائدة الإصلاح لو كان الفساد مصيرًا محتومًا؟ عندما بنى ربما أيقن أن رجلًا مثلك سيأتي يومًا ليحارب للمحافظة على ما تبقى، كل رجل يحافظ على ما بنى أحمد هو رجل يبقي على الخير وسط الشرور، وينصر المصريين وسط الطمع والكره، ما تفعله يمكث في الأرض يا قائد.

- تمهلي في إطرائك فلست أنا القائد بل محمد الخلنجي.

قالت في حسم وهي تقبل صدره، وتحيط ذراعيه بيديها: بل أنت القائد وأنت الفارس.

- تنسجين القصور من خيالك مرة أخرى.

- قلت لي إن قلبي كان يرى، وقلبي يقول إنك ستنقذ المسجد من بطش قاسم الخراساني. وأريد أن أطمئنك وأخبرك أن القبيلة في انتظارك ومكانك محفوظ.

- مكاني محفوظ كيف؟

- سأخبرك بكل شيء.

- تؤجل الحكايات والكلام بعض الوقت.

ابتعدت عنه في رقة ونظرت إلى عينيه وقالت: ناديتك.. أتعرف؟ هل سمعتني؟

- متى؟

- وأنت تمتطي جوادك وتسير مع القائد، وأنت محاط بكل نساء مصر يلقين عليك الزهور والزعفران. لم تسمعني بالطبع. ترى كم امرأة أعجبتك في طريقك يا قائد؟ وكم جارية هامت بك؟

ابتسم قائلًا: لو كان نصفك إنسيًّا والنصف الآخر من الجان فقد سحرتني فلا شفاء لي. أفكر في واحدة.

قالت وهي تمر بيدها على جسده: ربما تفكر في اثنتين أو ثلاث..

- هي واحدة.

- غبت شهرًا.

- كنت أشتاق لها هذه الساحرة.

همست بعد ساعات وهي بين ذراعيه تلصق قلبها بقلبه: تجازف. كيف يقف جيش محمد الخلنجي أمام جيوش الخليفة كلها؟

- كما وقف جيش أحمد وخمارويه أمام جيوش الخليفة.

ساد الصمت ثم قالت وهي تقبل خده: أريدك أن تعرف شيئًا..

- ما هو؟

- أريدك سالمًا.

قالت في إصرار: لو كنت تحارب من أجلي..

ابتسم وقال: أحارب من أجلك؟ أي امرأة أنت لتقام الحروب من أجلك؟ هل نصفك بشر ونصفك من الجن كأساطير القدماء؟! نعم.. نعم لقد قلت منذ برهة إن نصفك جان.. هل قلت هذا؟

- عبد الرحمن.. ما أقصده هو..

قال مسرعًا: بالطبع أحارب من أجلك..

- لا تراوغ.. أرجوك.. أنا لا أستحق أي شيء.

- بل لا يراوغ غيرك، في البداية تزيدين من إطرائك وتشجعينني على الصمود، ثم تطلبين مني أن أبقى سالمًا، ثم تخبرينني أن جيش الخليفة قوي، أنت أخطر مما ظننت، أين تعلمت هذه الأساليب؟ إذا كنت سأفقد حياتي من أجل ابنة الأمير فلا بد أن تعطيني شيئًا في المقابل.

طوقت كتفه وقالت: كلي ملكٌ لك منذ البداية. أريد البقاء معك.. لا تجعلهم يرحلون بي.

- عائشة.. من الأفضل أن تبقي مع القبيلة، جيش الخليفة قادم وأخاف عليك.

- أبقى معك بعض الوقت، يومًا أو اثنين ثم أرحل.

بدا مترددًا فقبلت يده ثم وضعتها على خدها وقالت: هما يومان أو ربما هو أسبوع واحد وسنعرف قبل مجيء أي جيش.

قبل أن ينطق أكملت وهي تقبل يده وتحتضنها بيدها الأخرى: سأبقى داخل الحجرة لن يراني أحد.. لن أزعجك وعندما تجد بعض الوقت تأتي إليّ لتراني.

فكر برهة ثم قال: لا. ليس وأنت حامل، ستعودين اليوم وعند انتهاء....

قاطعته وهي تضغط على يده: ليس اليوم.

ثم أغرقته بالقبلات وهي تقول: سأبقى يومين أو ثلاثة لا أكثر. ما الفرق بين اليوم وغد؟ أرجوك أن أبقى، لم أطلب منك شيئًا من قبل..

قام وقال في عبوس: هذا خطر.. تعرفين ذلك.

- لن أتحرك من مكاني.

قال في حدة: لا يروقني هذا.

نظرت إلى عينيه في استجداء فقال في تذمر: هما يومان أو ثلاثة لا أكثر.

ضحكت ربما لأول مرة ثم قالت: نعم لا أكثر. اذهب إلى عملك حتى لا تتأخر.

***

جلس عبد الرحمن بجانب محمد يستمع إليه وهو يتكلم مع الجنود، ويطلب منهم محاربة الفساد الذي تركه عيسى النوشري عمدًا ومعاقبة كل سارق. انضم

إلى محمد مسيحيو مصر ويهودها وليس فقط المسلمون، فاختار من رجال جيشه أخوين مسيحيين قلدهما وزارته والخراج، فعين إبراهيم بن موسى النصراني على خراج مصر، وعين أخاه على الوزارة، ثم أعطى الشرطة لإبراهيم بن فيروز. استقر أمر المصريين إلى حين، وطارد خفيف النوبي بجنوده عيسى إلى خارج الجيزة، فهرب إلى الإسكندرية. فخرج وراءه خفيف إلى الإسكندرية وعيسى يتوقع هزيمته وينتظر المدد القادم من بغداد.

شرح إبراهيم بن موسى لمحمد الخلنجي قائلًا إن الخزائن خاوية، وإن الدفاتر مسروقة، فلا هو يعرف من دفع ولا من لم يدفع. وليس لجيش أي بلد أن ينتصر بلا مال ولا ذهب حتى لو أخلص الرجال، وأفنوا عمرهم فلا بد من الطعام والأسلحة.

هذا هو التحدي الأكبر.. مأزق لم يتوقعه محمد ولا عبد الرحمن، اقترح إبراهيم أن يأخذوا من التجار وأصحاب الأراضي أموالًا، ثم يكتبوا إليهم تعهدًا برد ما أخذوه منهم عند انتهاء الحرب.

فقال عبد الرحمن: هل ستأخذون المال عنوة؟

قال إبراهيم: لا خيار لنا، بعد شهر تجوع الجنود وتغلق الدواوين. بدون الطعام ستعم الفوضى من جديد، وقد سيطرنا على الفساد، وقبضنا على اللصوص، لو تلاشى النظام سيعود والي الخليفة أكثر شراسة وعنفًا، ولن يمنعه أهل مصر، فقد اعتادوا الاستقرار لسنوات طوال. يحاربون معنا اليوم ويبغون رخاء أحمد واستقراره وعدله.

قال عبد الرحمن: لو أخذت المال عنوة فلن يثق بك التجار ولا الفلاحون وأعيان الديار المصرية.

قال محمد: سنترك لهم وثيقة يُكتب فيها ما أخذنا منهم من أموال مُوقعة باسمي أنا.

صمت عبد الرحمن والقلق يساوره. ولم يستطع أن يقترح حلًا بديلًا فلا يوجد أي حل.

***

كل يوم ينتظر الانتهاء من العمل ليعود إليها، تتحكم وتسيطر أكثر مما ينبغي ولم يعد يبالي. ويومًا لا بد أن تعود إلى القبيلة، وكل يوم يؤجل عودتها، وكل يوم يطلب منها في عدم حماس أن تعود. اليوم أقنع نفسه أن شهرًا قد مر وليس بضعة أيام، وأن عائشة لا بد أن ترحل، في وجودها مجازفة لا يعرف عواقبها. دخل وقبل أن يلقي عليها السلام قال وهو يتحاشى عينيها إنها لا بد أن ترحل غدًا وإنه سيجهز كل شيء.

أمسكت يطنها وقالت إنها متعبة وتخاف من الطريق على حملها. نظر لها في ارتياب وهو يعرف أنها تكذب. فأمسكت بيده، وجلست، وأجلسته بجانبها وقالت في رقة: لا أستطيع أن أتركك.

قال وهو يتزعم القسوة: ستذهبين غدًا، وعندما يزول خطر عيسى النوشري سنعيش معًا عمرًا بأكمله. وجودك وسط الفسطاط مغامرة لا داعي لها. لم يزل بنو عباس يبحثون عن ابنة أحمد وعن إبراهيم بن خمارويه.

قالت وهي تتزعم البراءة: كنت أريد أن أسألك.

- تسألين عن ماذا؟

- أين إبراهيم؟

ابتسم ثم قال: لا تغيري الموضوع.

- أين خبأته؟ ولمِ خبأته؟ مع أنك كنت تثق بابن سليمان في البداية، أليس كذلك؟

- أنا لا أثق بأحد يا أميرة.

- حتى أنا؟

أحاط وجهها بيديه، ثم قال: ربما أثق بك لو عدت إلى القبيلة.

- هل عصيت لك أمرًا؟ هل خرجت من غرفتي؟ هل رأى أحد وجهي؟

- لا.

- اتركني معك أنتظرك، وأراك حولي فيعتدل العمر. أتعرف كيف أنتظرك كل يوم؟

بلع ريقه وهي تقرب فمها من فمه وقال: كيف؟

لامست شفتاها شفتيه في رقة، ثم مرت بأناملها على رقبته وكتفه وصدره في وجل وإتقان، ابتعدت وقالت: كنت أحيا وسط حدائق من الجنة أنتظر يومًا تتلاشى فيه الوحدة، ويستقر القلب التائه، كنت أعرف أني بين الحجرات الكبيرة حبيسة، وأن مصيري مثل مصير قطر الندى وغيرها من عائلتي، ثم جئت أنت..

قبلت فمه قبلة قصيرة، ثم أكملت وهي تشعر باختلاج أضلعه: أنت حررتني لو تدري، جعلت الحديقة بلا حدود والحجرات تفتح على أبحر لا تنقطع وأنهار مياه عذب، انطلقت معك حتى وأنا حبيسة الجدران، تريد تركي..

حاول أن يقبلها، فابتعدت وقالت في رقة: سأبقى معك..

- من أين تعلمت هذه الكلمات؟

- منك. ألست شاعرًا ومتمرسًا في كسر القلوب؟ هل سأبقى معك؟

قال في تردد: بعض الوقت.

***

قلة الأموال كانت أكبر تحدٍّ لمحمد الخلنجي، لم ينقصه الرجال ولا الحماس، ولكن تذمر التجار من مصادرته أموالهم، واعترض الفلاحون زاعمين أنهم دفعوا ما عليهم من ضرائب لابن سليمان. ولكن الحلم كان كالرياح العاتية تحكم

السيطرة على كل الأشجار، ويطوع الأوراق الملتوية، ويعبر صفير الرياح كل النوافذ فيستقر في أذن الشاب والشيخ. تمنى عبد الرحمن أن تتمهل الريح حتى لا تنتهي سريعًا. خاف أن تمر ثم تخمد أو أن تقلع في طريقها كل الأشجار. ساروا يتحسسون طريقهم إلى قلب دفاتر مصر دون خبرة ألف عام ولا ذهب الأجداد.

قال محمد لعبد الرحمن: متى سيظهر إبراهيم بن خمارويه؟ العامة تحتاج أن تراه.

فقال عبد الرحمن في حسم: لو ظهر الآن يقتله رجال عيسى النوشري، وينتصرون علينا في نفس اليوم. لا بد من الحفاظ عليه.

فقال محمد في عدم صبر: لو كنا معًا نقاتل فلا بد من بعض الثقة بيننا. على الأقل تخبرني بمكانه.

قال عبد الرحمن: بل من الأفضل ألا نفضي بكل ما لدينا لبعضنا البعض، فلو تم القبض عليّ أو عليك فلا نريدها النهاية.

- هذا ضرب من الجنون.

- هل سأل أحد عن إبراهيم؟ أنا أقول لك إنه بخير، وإنه سيظهر بعد زوال خطر عيسى النوشري.

قال محمد: ولو ظهر وقرر أن يحكم منفردًا؟

- هو طفل في العاشرة يا أخي.

- ولو ظهر والتف حوله المفسدون كما فعلوا من قبل مع أولاد خمارويه؟

- وجودنا سيمنع هذا. اهتم بأمر الخليفة، لو استطعنا تأمين البلاد والانفراد بها فكل شيء هين بعد ذلك.

***

يوم وضعت عائشة طفلتها خافت أن يغضب زوجها أنها لم تأت بولد يخلفه، وخافت أن يطلب منها الرحيل إلى القبيلة أو أن يتخذ زوجة أخرى، ولكنه لم

يفعل. انتابها يأس وإحباط لا تعرف مصدره، فقالت في إرهاق وهو يجلس بجانبها: ولو لم أنجب ولدًا يا عبد الرحمن..

قال في حسم: ستكون مشيئة الله.

- ماذا سيحدث للقبيلة؟

قال وهو يربت على يدها: ما الذي يهمك في أمر القبيلة؟ اهتمي بصحتك وصحة ابنتنا.

قالت في عدم صبر: أخبرني الآن، هل تنوي الزواج بأخرى؟

قال في ذهول: لا. ما الذي حل بك؟ لو لم تنجبي ولدًا يتولى أحد الرجال شأن القبيلة من بعدي، ربما زوج ابنتنا أو أي رجل، ربما أموت قبل هذا، من يدري؟

قالت ودموعها تتساقط: لا تقل هذا.

ضمها وقال في رفق: أنت متعبة، ابنتك جميلة مثلك.. ماذا تريدين أن تسميها؟

- خالصة..

- ظننت أنك ستختارين اسم والدتك.

- والدتي لن تغضب، خالصة أنقذتني مرة ومرتين. لو كانت والدتي معي كانت ستختار اسم خالصة.

بعد مرور شهر هدأت نفسها، لم يتغير عليها زوجها بل لم يطلب منها الرحيل، بقي معها كل ليلة يطمئنها، ويعطيها حنانًا لم تعد تعرف كيف تحيا بدونه.

أحيانًا يبدو مهمومًا، لم يفتح قلبه لها بعد، تُرى ألا يثق بها، أم يخاف من سذاجتها وحماسها المعتاد؟ لا بد أن اندفاعها يقلقه، فلم تثبت له حتى الآن أنها قادرة على الحمل الثقيل، مع أنها تحملت وحدها حب أبيها كله، مع أنها أخذت على عاتقها جمع القبيلة حوله، مع أن والده يستمع لها وينفذ كلامها، أما هو فلا.

أقسمت إن اليوم سيكون مختلفًا، لا بد أن يتكلم. أخذت ترتب ما ستفعل وما ستقول، ثم تعيد ترتيب الأفكار، الهم الذي يحمله على عاتقه كبير، ولا يمكن أن يحمله وحده ولو لم يلق الرجل ببعض همه على عاتق زوجته، ويفضي لها فلا بد أنه لا يثق بها ولا يكتمل حبٌ دون ثقة، ولا يسكن قلبٌ دون أمان. عندما دخل عليها والحزن يخيم عليه، ساعدته على خلع ملابسه، ثم طلبت أن ينام على بطنه حتى تدلك ظهره وتضغط على كل أماكن الألم. مرت بيدها على ظهره وقالت في رقة: أين تعلمت القتال؟ تتقن السيف والرمح وكأنك ولدت محاربًا.

ابتسم وهو يغمض عينيه ويستمتع بيديها على ظهره وقال: بل ولدت محاربًا، حكى لي أبي عن مجد الأجداد، قال إن قبيلته كانت مع عمرو بن العاص عندما حارب الروم وانتصر عليهم، فتحنا مصر منذ زمن، وانتظرنا يومًا ليعود المجد ويتجدد، ولكنه لم يأت فبنو عباس تأتي بالجنود الأتراك وتمكنهم، ولكني لم أيأس، منذ كنت طفلًا وأنا أحلم..

ضغطت على كتفه وقالت: كنت تحلم أنت أيضًا مثل أبي..

- كان حلمًا مختلفًا يا أميرة.. أحلم بأن أحارب وأتدرب على السيف، دربني أبي في البداية، ثم أحد أعمامي قبل أن يرحل عن القبيلة. حكيت لك من قبل.

- ظننتك كنت تكذب عليَّ حينها.

- لا أكذب عليك أبدًا.

ازداد تفاؤلها، فقد تكلم بلا توقف ولا تحفظ. قالت: ما الذي يقلقك؟

أغمض عينيه ثم قال: فلنكف عن الكلام، حتى أستمتع بيديك على ظهري، ولا أفكر فيما يقلقني.

قالت في تصميم وهي تقترب وتقبل ظهره: أنت مهموم.. ألا تثق بمحمد؟ أم تقلق من جيش الخليفة؟ أم من ندرة المال والذهب؟

لم يجب. فقالت وهي تجلس بجانبه: ستخبرني..

قال وهو مغمض العينين: لا تتوقفي.

- لن أتوقف لو أخبرتني..

ثم قبلت كتفه وهمست: ثق بي، ليس لي سواك، أنت تعرف.. لا عائلة لي اليوم ولا مكانة، بل يطاردني الرجال، وثقت بك دون أن أعرفك، بينما لا تريد أنت أن تثق بي وحولك كل الرجال، أي عدل هذا؟!

استمرت في الضغط على ظهره وهي تنتظر أن يتكلم. لم يفعل. فقالت في تصميم: هل يغار منك محمد الخلنجي؟

قال مسرعًا: بالطبع لا يغار.

- ألأنك دومًا ملثم لا يعرفك أحد؟ أم لأنك لا تريد منصبًا ولا خراجًا؟

- لأننا نريد نفس الهدف.

ابتسمت لنفسها في انتصار، فقد تكلم ثم قالت: والهدف صعب أم مستحيل؟

- أخذنا حكم مصر يا أميرة، وهذا كان الهدف، ولكن المال مشكلة، عيسى النوشري ليس ابن سليمان، هو أكثر حذرًا، وأكثر دراية بألاعيب الحكم، ينوي العودة هذا أكيد. كيف نحكم الديار المصرية بلا أموال وبلا دفاتر أو خطط؟ كأننا دخلنا على حجرة مظلمة بها بئر عظيمة، نتحسس الخطى ونتحاشى البئر، ونعد الناس بالضوء ولا نعرف مصدره.

- استتبت الأمور في البلاد.. لا تقلق.. أهل مصر معك.

- لن يتركنا الخليفة، وعندما تشتد الحروب لا نستطيع مصادرة أموال كل أهل مصر، سيكرهوننا بالتأكيد.

قالت في غيظ: لو لم يسرقوا كل أموال أبي كنا سنجد الكثير من المال، ولكنهم سرقوا..

- هذا حال كل الحروب، من يغزو بلدًا يسرق يا أميرة.

بقيت صامتة. فقال: أصابك أنت الغم الآن. كنت تريدين معرفة ما يقلقني.

قالت في حماس: سنجد حلًّا.. أهل مصر لن يتخلوا عنكم.

- الجنود المصريون يحاربون معنا بلا مقابل منذ شهور، والمصريون يتحملون أعباء الحروب وندرة السلع في صبر، ولكن لا تكلفي النفوس فوق طاقتها، النيل لم يفض، والحرب التي تستمر أعوامًا تدمر ولا تنفذ.

وضعت وجنتها على ظهره، ثم قالت في حب: سنجد مخرجًا. لمَ تبقى مجهولًا أمام العامة وأنت بطل مثل محمد الخلنجي وخفيف النوبي؟

- حتى لا أعرضك أنت للخطر. لو عرف الناس من أكون سيتساءلون عن أصل زوجتي ويبحثون.

تنهدت ثم احتضنت ظهره، وألصقت به صدرها وسألت: أين إبراهيم بن خمارويه يا عبدالرحمن؟

التف ليحتضنها فابتعدت في دلال وقالت: لم أنته بعد من أسئلتي..

شد معصمها إليه وقرب وجهها من وجهه ثم قال وشفتاه تكادان تلمسان شفتيها: هذا المكر لا يليق بك يا أميرة، إذا كنت لم أخبر محمد الخلنجي نفسه أتظنين أني سأخبرك أنت؟ سيظهر ويأخذ الحكم عندما تنتهي الحرب.

***

مر العام أو كاد. عام غيّر حياتها كلها، ما بين فراق ولقاء شرق وعذاب، رحلت أمها منذ حوالي عام. لم يتبق الكثير حتى موعد لقائها بأمها. اتفقتا على اللقاء عند باب الجبل في مسجد أحمد. ستحكي لها الكثير، ستحكي عن زوجها وعن الحب

وعن الذهب وعن طفلتها وعن خالصة وعن القبيلة وعن القائد المصري وعن المدينة التي رأتها تحترق أمامها ثم المسجد الذي لم يزل قائمًا بفضل زوجها والقائد المصري. ستحكي لها أن مصيرها كان أفضل من مصير قطر الندى، وأن لحظات الألم محاها الزوج بعطائه وكرمه، وكأنه أقام الحروب لأجلها، وقلب حال الكون وتحدى الخليفة. ستخبرها عن الفارس الذي ترتجف كلما اقترب، ويختلج القلب كلما تجلى، ويحتضر القلب كلما ابتعد.

تذكرت اليوم منذ عام عندما ضغطت الأم على يدها وقالت: عائشة ستكونين بخير، وسنلتقي بعد عام.

رجتها حينها ألا تتركها، ولكنها رفضت. تلاشت من أمامها في لحظات، وتركتها تائهة عاجزة كالطفل الوليد. تركتها في عالم لا دراية لها به بعد أن كانت الأم هي كل العالم. لم تنم أسبوعًا. تفكر في اللقاء وفي الأم وفي العام. غدًا ستحتضنها ولن تتركها مرة أخرى قط.

* * *

بدا على محمد القلق، خفيف النوبي لم يزل يطارد عيسى النوشري ولكن عيسى نصب له الفخ في الإسكندرية، ودارت معركة ضارية هرب بعدها عيسى إلى الصعيد، واستدرج خفيف النوبي وجيشه منهك، فانهزم خفيف بعد الكثير من إراقة الدماء.

بعث الخليفة الجواسيس تبحث عن ابنة أحمد، في يدها إنهاء الحروب. لم يعد يأبه بإبراهيم ومصيره، فهو طفل لم يظهر بعد، يحكم البلاد بدلًا منه قائد مصري، وهذا لن يدوم. لو وجد المكتفي عائشة ابنة أحمد تنتهي الحروب، ويئول إليه حكم مصر. فقد قرر الخليفة المكتفي الزواج منها على الفور. ولو كانت متزوجة سيطلقها أو يرملها، هذا لا يهم. يحتاج أن يرسي قواعد حكمه في البلاد.

والمصريون لم ينسوا عهد طولون ولا حلمه. وبتحالفه مع ابنة أحمد ينصب خيامه في مصر في سلام.

نقل محمد الأخبار لعبد الرحمن الذي استمع في صمت. ولدت زوجته عائشة منذ شهرين لا أكثر. لم تزل معه في بيت بدر الحمامي لا تخرج من حجرتها سوى أوقات قليلة ولا يعرفها أحد.

قال عبد الرحمن كأنه يتأكد مما سمع: الخليفة يريد الزواج من ابنة أحمد، عائشة.

- وخفيف النوبي انهزم أمام عيسى يا عبد الرحمن.

قال عبد الرحمن وكأنه لم يسمع آخر كلماته: كيف يتوقع أن يجدها؟

- الا تهتم بأمر هزيمة خفيف؟

- ماذا سيفعل الخليفة ليجدها؟

- هو الخليفة يا أخي، سيجدها، هو ليس ابن سليمان بل خليفة كل البلاد، سيبعث الرجال تتجسس، سيعطي مكافأة لمن يدله على مكانها، سيجد طريقة ليتزوجها. هذا لا يعنينا، بل ربما لو تزوجها يلين قلبه ونتشاور معه في أمر الانفراد بحكم مصر و..

- هذا مستحيل..

- عبد الرحمن..

تركه واتجه إلى حجرة زوجته.

***

هي عدة ساعات لا أكثر ثم سترى أمها بعد عام كامل، أول شيء ستفعله أنها ستعطيها طفلتها لتحملها بين ذراعيها، ثم ستحضنها كما كانت تفعل وهي طفلة، وستجول معها في أركان المسجد، ربما تكون الأم حزينة، من يدري؟ ربما

ستحزن لأن القصر انهار، وانهارت معه كل المدينة. اتفقنا على أن نلتقيا عند باب الجبل، لم يزل الباب في مكانه، عند شروق الشمس ستكون هناك.

دخل زوجها وقد بدا واجمًا قليل الصبر، قال في حسم بغير أن ينظر إليها: سترحلين الآن إلى الصعيد مع بقية النساء. لا تناقشي ولا تفتحي فمك.

قالت بلا تفكير: هذا مستحيل. تعرف أني سأقابل أمي غدًا أمام المسجد. أخبرتك من قبل.

قال في حسم: لم أسألك عن رأيك، سترحلين الآن وعند شروق الشمس ستكونين في الطريق إلى الصعيد. ارتدي خمارك هيا. الطريق طويل ستصلين إلى إسنا بعد عدة أيام، ابن عمي يسكن هناك ويعرف بقدومك أنت وكل القبيلة.

قالت في عدم فهم: لم تفعل هذا؟ تعرف أني أنتظر هذا اليوم منذ عام. من يدري ربما لا أراها بقية عمري.

قال وهو يعطيها الخمار: تكلمي وأنت ترتدين ملابسك لا يوجد الكثير من الوقت.

- لا أفهمك. كنت أظن أنك تهتم بأمري..

- أهتم بحياتك وبشيء أهم بالنسبة لي.

- عبد الرحمن..

قال في عدم صبر: الخليفة يريدك يا عائشة. المكتفي يريدك زوجة، يبحث عنك وسيجدك لو لم ترحلي ولو وجدك...

شهقت وفتحت فمها في فزع ثم ضربت على خدها وقالت: كيف عرف بوجودي؟

- عرف وانتهى الأمر. لا يوجد وقت للكلام، ترحلين الآن مع القبيلة إلى أقصى الصعيد.

أمسكت بيده وقالت: وأنت هل ستأتي معنا؟

أزاح يدها وقال في حدة: بالطبع لا.

- ربما لا أراك مرة أخرى.

قال في غيظ كلما تذكر أن الخليفة يريد زوجته: ربما لا، هذا لا يهم. المهم هو أن تبقي أنت وابنتي سالمتين.

قالت وهي تتحاشى النظر إليه حتى لا يرى دموعها: سأجهز نفسي. ولكن أمي.. هل يمكن أن تجدها أنت؟ تعرفها؟ ستنتظرني غدًا..

قال: سأفعل.. لو استطعت سأفعل.

- وربما لا تستطيع، ربما يحاصرني الموت، موتك وموتها. ربما لا أراك..

- وربما يجدك الخليفة ويأخذك إلى حرمه في بغداد، أيعجبك هذا المصير؟ بالطبع يعجبك. زوجة الخليفة أم زوجة رجل..

قاطعته: لي زوج لا أريد سواه. كيف تقول هذا؟

ارتدت ملابسها وهي تتكلم، ولفلفت ابنتها في الصوف، فأمسك يدها دون كلمة ليخرج بها إلى مكان القافلة. أخذها على فرسه، ثم أنزلها أمام القافلة وعيناه متحجرتان، مدت يدها لتمسك بيده فقال في حدة: اركبي الجمل.. هيا.

أمسك بها، وحملها ووضعها على الجمل، وقال في لهجة آمرة: إياك أن تنطقي مهما حدث. أنت زوجة عبد الرحمن فقط. أبي سيهتم بأمرك حتى أعود. ولو لم أعد تبقين حيث أنت تربين ابنتي مع القبيلة.

ثم قال في قوة: ولا تتزوجي لو مت. هذا عهد بيننا.

قالت بلا تفكير: سأفعل ما تريد.

ثم أمر الرجال الملثمين أن يبدءوا الرحلة، وقال في حسم: إياك أن تنطقي مهما حدث. تفهمين؟

هزت رأسها ثم قالت: ستأتي إلينا.. أليس كذلك؟

تجاهلها وأكمل: لا تتدخلي في أمور القبيلة، ابقي مع خالصة، أوصيت الرجال وأبي بك، وهم يعرفون كيف يحمونك. لن يصل إليك أحد في الصحراء.

قالت في تأكيد: ستأتي.. أليس كذلك؟

نظر إلى عينيها برهة ثم قال: هي رحلة طويلة، اهتمي بأمر خالصة ابنتي.

ثم أدار وجهه عنها وأمر الرجال بالرحيل. لم تقو حتى على البكاء. تتبعته بعينيها وهو يقف منتظرًا أن تختفي القافلة من الأفق، بدا بعيدًا ثم أصبح كقطرة مياه في صحراء قفراء من الصعب رؤيتها ولا بقاؤها دون أن تجف. أغمضت عينيها وهي تتذكر ضحكاته، حماسه أحيانًا وعينيه الممتلئتين بالحياة. لم لم يودعها، ولا أخذها بين ذراعيه، ولا أخبرها أنه يحبها؟ لم يفعل أيًّا من هذا. ولم تحتاج للكلمات أو اللمسات؟ في ذاكرتها تراه وهو يضمها بقبضة قوية، ترى جسدها يغمر جسده، ونبضات القلب تعلو، تستمع إلى همساته وهمساتها، وتتذكر كيف تختلج شوقًا لو رأته أو لمحته قادمًا، وكيف أحاطته بعينيها أول مرة وهو يدرب خيوله، أحبته يومها ربما. لم يزل القلب يتذكر رائحته وأنفاسه. ولكنها تود أن تودعه ربما تخبره بكم تحبه، لم لم يعطها الفرصة لتخبره؟ تلاشى الآن فصرخت بلا إرادة وقالت للرجل: أريد العودة إلى الفسطاط.

قال الرجل الملثم وهو يشد الجمل: هذا مستحيل.

تمتمت: أحبك، لم لم تتركني أخبرك؟ أتعرف؟ أتحتاج أن تسمعها يا ترى؟ كم مرة تحتاج أن تسمعها؟ وكم مرة ستعود إليَّ سالمًا؟

احتضنت ابنتها أكثر وأراحت رأسها، والقلب يتفتت مرة أخرى منذ عرفته والقلب يتفتت وينصهر ويحترق.

***

عيناه كانتا تبحثان عن أسماء المصرية زوجة أحمد، لا بد أنه سيعرفها حتى وهي ترتدي خمارها، سيعرفها من نظرة. لبحث عن ابنتها الوحيدة، وأنفاس اللهث وراء من تفتقد. ولكنها لم تأت، أو لم يعرفها، بدأ صبره ينفد، واليأس يجد موضعًا فيه، حتى وجد امرأة تطرق على كتفه بأصابعها في قوة: أنت العربي؟

نظر إلى عينيها، كانتا تلمعان بضوء كالقمر. والكحل يضفي على شدة بياض حدقتيها وشدة سواد مقلتيها حيرة وجاذبية. تراكمت الخطوط حول جبهتها وحاجبيها فبدت في سن أم عائشة ربما. نظر إليها عبد الرحمن وهو لم يزل ملثمًا ثم قال: هل تحتاجين شيئًا يا خالة؟

قالت في صوت منكسر: أنت من تحتاج وليس أنا. جئت تنتظر أم..

ردد: جئت أنتظر أم..

- لن تأتي.

نظر إليها فزحزحت خمارها بعض الشيء ثم قالت: اعذرني، لا أستطيع أن أزحزح خماري أكثر من هذا، زوجي يغار من كل الناس، الصغير والكبير.

قال في حيرة: زوجك؟

- ألا تعرفني؟ الناس تعرفني من عينيّ. القلادة التي أخذتها يا طامع كانت لي، لا يوجد مثلها في كل مصر، هذه المدينة أنا السبب في وجودها، وها أنا أشهد على خرابها، أنس سيغضب جدًا وسيحزن اليوم. أتعرف ميسون يا عربي؟

نظر إليها ولم يعرف كيف يجيب ولم يفهم عن ماذا تتحدث.

فقالت: هل سمعت عن ابن المدبر والي الخراج الذي أذل أهل البلاد؟ ربما لم تسمع، أنا من تسببت في قتله. لا بأس. هذه أيام عتمة وجهل، الصغار لا يعرفون الكبار، قل للبنت إن الأم عند من لا يظلم ولا يخذل، ولا ينسى، لا داعي للأم أن تختبئ اليوم.

قال في وجوم: ماتت!

- أقول لك عند من لا يظلم فتسألني لو كانت ماتت! يا عربي ماتت منذ عام ربما، منذ جاءتني والمرض لا يتركها، أوصتني بأن آتي لأقول لابنتها إنها لم تتخلَّ عنها، فقد حاصرتها بالدعوات حتى وهي بعيدة.

ربتت على كتفه بلا أدنى حرج ثم قالت: أنت لا تتخلى عمَّن تحب، المحب يضحي ولا يفكر في نفسه قط، ابعث بسلامي لسعيد، سأعود إلى الإسكندرية الآن، ابني ينتظرني، كيف لا تعرف ميسون؟ كل مصر تعرف ميسون، انتظر سأحكي لك عن ميسون.

وحكت ساعتين أو أكثر.

***

أرهقت الحروب المصريين وعمَّ الجفاف، ونفد المال، ولم يستطع محمد أن يرد الأموال التي أخذها من الأغنياء، ولا أن يأخذ غيرها ولا أن يدفع الرواتب لرجاله، ولكنهم استمروا في الحرب بلا استسلام، دخل جيشٌ مهولٌ للخليفة العريش، اتجه إلى الفسطاط، فقابله محمد في العريش بجنوده، وبقي عبد الرحمن يحمي الفسطاط بجنوده.

عانى الناس من ندرة الطعام وغلاء الأكل والخراب الذي لا ينقطع منذ مجيء ابن سليمان منذ عام وحتى اليوم، قلوبهم مع محمد الخلنجي وبطونهم تتأوه من الجوع وتتمنى الإنقاذ بأسرع وقت، جاءت الأنباء بمقتل خفيف النوبي في

الصعيد على يد عساكر عيسى النوشري، ولكنّ محمدًا لم يستسلم، خرج بجيشه يقابل عساكر الخليفة فانهزم أمامهم وتقهقر، ووصل جنود الخليفة إلى الفسطاط ودخلوا دار بدر الحمامي فوجدوها خاوية، لا أحد يعرف بالضبط القائد العربي الذي حارب مع محمد الخلنجي، ولا أين فرّ مع جنوده. قال البعض إنه ينتمي لقبائل من الشام، وقال آخرون إنه ينتمي لقبائل من اليمن، وقال آخرون إنه ينتمي لقبائل من الجزيرة العربية، وقرر عيسى البحث عنه بعد أن تستقر أمور مصر بين يديه ويجد أولًا محمد الخلنجي.

دام حكم إبراهيم بن خارويه الذي لم يعرف له أثر عن طريق القائد المصري محمد الخلنجي حوالي سبعة أشهر، يدعو له الشيوخ في المساجد ويفرح به المصريون. وما بين ذهول أهل مصر بتولي قائد مصري أمورهم ويأسهم من عودة الملوك القدامى أصبح الطعام هو المطلب، وأصبح الحلم يتنقل كالسحاب ولا يمكن التمكن منه.

بقي قاسم الخراساني في مصر يدعم عيسى النوشري ويرشده، قال قاسم إنه يعرف العربي الذي حارب، وإن القبض على العربي وقتله على الفور لا بد أن يحدث حتى تستقر أمور البلاد.

انهزم محمد الخلنجي، بحث عنه قاسم الخراساني أيامًا، بحث حيث يقطن أهل زوجته، وحيث يقطن رجاله، بحث بجانب الأنهار والأبحر حتى وجده وقبض عليه وهمّ بقتله، ولكن عيسى النوشري كان يريد تسليمه للخليفة؛ ما فعله الجندي محمد الخلنجي لم يجرؤ عليه غيره قط، ولا بد ألا يجرؤ عليه غيره أيضًا. لا بد لمحمد أن يصبح مثالًا لكل من يفكر أو يخطر بباله الخروج على الخلافة، أرسله عيسى إلى بغداد؛ فطاف به رجال الخليفة وهو مقيد، أذلوه ثم قتلوه أمام الناس ليكون عبرة لكل جندي يريد أن يثور على الخليفة.

خرج عبد الرحمن مع رجاله من الفسطاط هاربًا إلى الجيزة، استقر في الصحراء بعيدًا عن أعين الجنود. عرف بمقتل محمد الخلنجي واستقرار عيسى النوشري، وبحث قاسم الخراساني عنه هو بالذات، وعرف أنه أصبح عاجزًا لا قدرة له لا على الاتصال بأهله ولا على مواجهة أهل مصر. ما الذي حدث؟ انضم الجنود إلى محمد بلا وعد بمال ولا بذهب. خمسون ألف جندي، ولكن إدارة البلاد بلا دفاتر وبلا أموال مستحيلة. عيسى يعرف هذا ويعرفه الخليفة أيضًا، ماذا سيفعل الحماس أمام الجوع؟! وكيف ستواجه النوايا الطيبة فساد اللصوص ونهب البيوت؟ إلى متى يصبر التاجر على خسارته؟ ومتى يحين للصانع أن يعلن استسلامه؟ ماذا توقع؟ امتلك الدنيا شهورًا، رأى في عينيها امتنان كل شعوب الأرض، اكتمل غروره واكتفت نفسه. أصبح الفارس والقائد وكل ملوك القدماء، كان أحد لساعات قليلة، ثم تهاوى، فوقع وسقط في أعماق الأبحر مجتمعة، اختنق بين ذرات الملح وزبد البحر فلا عودة الآن ولا مخرج، ضاقت الدنيا فأصبحت مثل الكهف الذي يختبئ به، وأصبح هو بحجم النملة ولكن بدون قدرتها على حمل الأثقال، غدًا سيهدم قاسم المسجد أو جزءًا منه، ربما يضرب سيفه إلى الجذر حتى يصبح المسجد حطامًا بعد عام أو مائة، لو ضرب الدعامات والصخور يكفي، لو ضرب السقف ضربات موجهة يكون قد انتصر، كم زالت أبنية وأضرحة من قبل! وكم تحطم بيت من بيوت الله أمام شراسة الغرور واستحكام القدرة! لا بأس، ربما يموت داخل كهفه أو بيد قاسم، وربما يعود إلى الأميرة فارغ الكفين تنظر له في شفقة وتتحمله في صبر، يا له من مصير مظلم! لو لم يعد يكون ذلك أفضل، لا بد أن يكف عن التفكير في الأميرة وفيما ستفعل الأميرة، فقد أصبح مهووسًا بعينيها، ونظرات الإعجاب والامتنان حتى أوشك على الجنون أو كاد.

ثم ماذا؟ ماذا بعد الجنون؟ سيموت أو يعود، وسيجدها الخليفة ويتزوجها، هي أميرة، والأميرة مكانها بيوت الخلفاء، هناك ستنسى الغريب وحبها ولحظات الصدق والسكينة، هناك ستأخذ ابنته فلن يستطيع رؤيتها طوال عمره ولن تعرف

شيئًا عن والدها، ولا كيف تحول إلى بطل قبل أن يرتد إليه طرفه، ثم أصبح هاربًا قبل أن يرتد إليه طرفه. بدأ الشك يوسوس، تُرى كم ستصبر الأميرة؟ ومتى ستستسلم؟ ترى لو استسلمت فكم خنجرًا تستحق؟ وكم نجمة ستحرق عروقه وتنسكب من بين أطرافه؟

***

- 9 -

لم تدر بما يدور حولها، سيطر عليها صوت زوجها وهو يأمرها أن ترحل بلا وداع. الطريق طويل ومجهد. غطت وجه ابنتها من الغبار والهواء والشمس. قبل الوصول إلى إسنا سمعت صرخات عالية من عائشة. توقفت القافلة وانحنت الجمال، نزلت تهرول ناحية الصوت فوجدت موسى بن عثمان ميتًا. مات قبل الوصول إلى إسنا بقليل. قرر أخوه ربيعة دفنه في إسنا، وطلب من النساء التوقف عن العويل. بحثت عائشة عن خالصة، وجدتها تشاهد ما يحدث في صمت، اتجهت إليها وقالت: ماذا سيحدث لي يا خالة؟

قالت خالصة في صرامة: أنا أحميك يا عائشة أنت وخالصة الصغيرة.

نظرت إلى وجه خالصة المتجمد ثم قالت: ألا تحزني يا خالة؟

قالت في حسم: لا أحزن يا بنتي. جفت دموعي منذ هجرني.

قالت عائشة في قلق: ابن عم عبد الرحمن الذي سيساعدنا.. هل تعرفينه يا خالتي؟

قالت وعيناها على جثة موسى: أعرفه.. طيب ولا يتدخل في أي مشاكل. مات والده وهو صغير وقرر الاستقرار هنا. له عزوة هنا وأهل. لا تقلقي. لو أردت العيش فلابد أن تتخلصي من خوفك.

- أخاف على ابنتي.

- توكلي على الله. سيحميها.

❊❊❊

جلست بجانب خالصة في استسلام بينما يعلو صوت الرجال ثم ينخفض، وتتهامس النساء حولها ثم تشرن إلى عائشة، وعزة تحكي في تأثر ما حدث من الغريبة، وكيف جاءت بالخراب إلى قبيلتهم وإلى كل البلدة، قضت على الأب والابن. انكمشت عائشة في مكانها وهي تحتضن ابنتها فأمسكت خالصة بيدها وقالت: اثبتي.

بدأت تُرضع ابنتها، وغطت وجه الطفلة بخمارها فقالت عزة في امتعاض: من سيحسد ابنتك يا وش الخراب؟ ألم تستطيعي أن تنجبي ولدًا؟ لو أصبحت ابنتك مثلك.. فستأتي بالعار على كل البلد.

قالت خالصة في حسم: تأدبي يا عزة.

فقالت عزة في قوة: لا تأمريني يا خالتي. والدي اليوم شيخ القبيلة.

قالت خالصة: بل عبد الرحمن شيخ القبيلة.

ما إن سمعتْ عزة اسمه حتى امتزج السخط بحنين وقالت في قوة: لا وجود لعبد الرحمن.. سيموت ويريحنا.

قبل أن تجيب خالصة دق العم ربيعة على الباب، فغطت النساء وجوههن، وقال العم في حسم: سيبدأ الرجال في بناء البيوت حولنا ونصب الخيام، اليوم أنا شيخ القبيلة وبعد مرور شهور العدة سأكتب على عاتكة.

ابتسمت عاتكة في رضا وهي تزحزح غطاء رأسها، وفتحت عائشة عينيها وهي تحاول أن تتأكد أن ما يحدث ليس كابوسًا.

نظر إلى خالصة وقال: من اليوم عزة وسليمة مسئولتان عنك يا خالصة، أنت والغريبة.

ثم التفت إلى عزة وقال في حسم: ستتزوجين من سالم ابن عمك غدًا.

قالت في وجوم: أمرك يا أبي.

ثم قال: عصبنا وأهلنا أكرمونا وأعطونا بيوتًا وأرضًا هنا. ولكن البلاد في حالة حرب والغلاء يعم الديار المصرية، والجفاف ينتشر؛ لذا لا بد للنساء أن يعملن كما الرجال. الغريبة تجيد الغزل والنسج.

نظر إلى سليمة فقالت: أنا أتولاها يا أبي.

- ربما كان هذا أفضل، فأختك ستكون مشغولة بزواجها. ولكن لابد من الحرص في توزيع الطعام والشراب، نحن على شفا مجاعة وجفاف وحرب وخراب.

قالت سليمة: لا تقلق يا أبي. سأنفذ كل أوامرك.

***

تكلم ربيعة مع ابن أخيه، وشرح له ما حدث من عبد الرحمن، ثم أخبره أن الحرب تنتهي اليوم أو غدًا لصالح الخليفة، وعبد الرحمن سيموت حتمًا مع كل من تحدى الخليفة، أقنع سالم ابن أخيه أنه الأكبر سنًّا والأكثر خبرة، وأن القبيلة لا يمكن أن تبقى بلا شيخ. معه اليوم مائة رجل بعد أن أغوى عبد الرحمن أربعمائة رجل، وجعلهم ينضمون إليه ويتحدون الخليفة. عرض ربيعة على سالم الزواج من عزة، كان لسالم زوجة ولكنه وافق على الفور، لم يزل يتذكر جمال عزة حتى وهي طفلة. استتب الأمر لربيعة، ولكن الطعام حتى وسط الحقول قل وندر.

***

ما حدث بعد ذلك حاولت أن تستوعبه عائشة أيامًا، وكان لديها الوقت الكافي لاستيعابه. طلبت خالصة أن تبقى مع عائشة في نفس الحجرة فرفضت سليمة، وتطاولت على خالصة وهددتها، ثم باعدت بين خالصة وعائشة وحبست كلًّا منهما في حجرة مختلفة. حجرة خالصة صغيرة وحقيرة، وحجرة عائشة كبيرة ولكنها بلا سرير وبلا غطاء، بها منوال ومغزل والكثير من الصوف. دفعت

بها سليمة إلى الداخل فانكفأت على وجهها مع ابنتها. تشبثت بالطفلة حتى لا تطيح وبقيت صامتة. فقالت سليمة: تعملين بطعامك يا عاهرة. تعرفين حجمك وصفتك؟ لا يوجد رجال هنا تريدك ولا تريد صدرك وخصرك يا جارية. كنت تعيشين بفتح ذراعيك ورجليك، واليوم تعيشين بعملك يا جلابة الخراب والعار.

انتفخ وجه عائشة، ودارت دموعها حول مقلتيها من غضب لم تشعر بمثله ثم قالت: لا تسبيني.

ضحكت سليمة في جفاء ثم نظرت حولها وقالت: أتغضبين؟ تغضبين يا عاهرة؟ ربّ لم تغضبي وأنت تتاجرين بجسدك؟ أنت أقذر من الخرقة العفنة.

تنفست عائشة أنفاسًا متقطعة وهي تعرف أن المعركة خاسرة، ثم قالت في صوت مبحوح: ماذا تريدين مني أن أفعل؟

- تغزلين ثم تحولين غزلك إلى نسيج يصلح للبيع كما فعلت من قبل. والدك خياط هكذا سمعنا. تعملين طوال اليوم، وسأدخل عليك بالطعام والشراب مرة واحدة في اليوم. لو لم يعجبني إنتاجك فلا طعام ولا شراب، ستموتين جوعًا وستموت طفلتك قبلك فترحنا من عارها.

قالت عائشة في ثبات: تُرى لِمَ تكرهينني كل هذا الكره؟ ألأنك جوفاء بلا مشاعر، لا تصلحين زوجة أو ابنة؟ أنت تغارين مني لا أكثر.

رفعت سليمة يدها لتضربها، فأمسكت عائشة بيدها ودفعتها فوقعت، صرخت سليمة تستغيث بالنساء وتقول: العاهرة تضربني، أنقذيني يا خالتي..

دخلت النساء وفضضن الاشتباك، فقالت عائشة مسرعة: هي من بدأت، هي تريد تجريحي أنا وابنتي، أريد أن تتولاني أيّ منكن، ولكن ليس سليمة.

قالت سليمة في قوة: هي أوامر شيخ القبيلة.

ثم اقتربت من عائشة وقالت: لو لم تتأدبي أخنق ابنتك، وألقي بها إلى القاذورات، ولن يبالي أحد. لو لم تعتذري لي الآن أمام النساء أقتلها ليلًا. وأنت تعرفين أني قادرة على هذا.

ارتجفت عائشة وبقيت صامتة، فقالت سليمة في قوة: اطلبي الصفح لأنك تجرأت على أسيادك يا غريبة، وقبلي يدي أمام النساء بعد أن صفعتني وطرحتني أرضًا يا فاجرة.

تهامست النساء في حيرة ثم قالت إحداهن: اتركيها لحالها.

قالت في استياء: لم تتأدب، وواجبي أن أؤدبها وإلا ستتطاول عليّ كل يوم ولن أستطيع السيطرة عليها.

أمسكت سليمة بالطفلة وقالت: ربما لا تصلح يا خالتي أن ترعى ابنتها، ربما من الأفضل أن ترعيها أنت أو أنا.. وإلا خرجت لنا الطفلة...

قاطعتها عائشة وهي تمسك الطفلة من يدها: سأعتذر لك. سأفعل كل ما تريدين.

ابتسمت سليمة ثم قالت: لا تتطاولي عليّ.

قالت عائشة وهي تحاول أن تأخذ ابنتها من يدها: لن يحدث.

مدت سليمة يدها تتوقع أن تقبلها عائشة، ويدها الأخرى لم تزل تحمل الطفلة. فقالت عائشة: أعطيها لي أولًا.

- ليس قبل أن تعتذري.

انحنت قليلًا وقبلت يدها وهي تقول: سامحيني. أخطأت في حقك.

بقيت النسوة ينظرن إلى المشهد في صمت، ثم قالت إحداهن: هذا يكفي يا سليمة.

قالت سليمة في تذمر: لم تري يا خالتي كيف ضربتني وكيف آلمتني.

فقالت السيدة من جديد: هذا يكفي. أعطيها ابنتها.

أعطتها الطفلة وقالت: أتمنى أن تكوني قد تعلمت الدرس اليوم.

قالت عائشة في صوت مبحوح: تعلمته.

التفت أعينهما، ثم خرجت سليمة وأغلقت الباب.

لم تتساقط الدموع، بقيت داخل عينيها تذكرها بيوم الذل والكسرة، واحتضنت ابنتها والأمل في عودة زوجها يتلاشى.

***

بعد أسبوع بدأ لبنها يجف وعيناها تزوغان. تدخل عليها سليمة بقطعة من الخبز والماء ليلًا فلا تشبع هي ولا تشبع طفلتها. عندما دخلت عليها سليمة اليوم وجدت يدها ترتجف وهي تعمل في بطء، فقالت إنها لن تحصل على أي طعام مادامت لا تعمل بجد وإتقان. رجتها عائشة وهي تتكلم في تلعثم أن تعطيها بعض الطعام ووعدتها أن تنتج أضعافًا غدًا.

فرفضت سليمة وأخذت معها الخبز والماء، وهمت بأن تغلق الباب فأمسكت بها عائشة، ودفعت بها لتخرج واصطدمت حينها بامرأتين سمينتين، دفعتا بها إلى الداخل. صاحت عائشة تطلب المساعدة، ولم يجب أحد. قالت سليمة في حقد: ألم تتعلمي شيئًا مما حدث من قبل؟

ثم اقتربت منها وقالت: مصيرك بين يدي يا عائشة. أنت تحت رحمتي، أقتلك اليوم أو أنقذك. لابد أن تفهمي هذا.

قالت في ألم: لماذا تفعلين هذا؟

- أكرهك.. الكره كالحب يحدث بلا سبب. لا تروقين لي.. حطمت قلب أختي.

- هي لا تحقد مثلك.

قالت سليمة في عدم صبر وهي تصفع خد عائشة: تتطاولين عليّ مرة أخرى! قلت لك أنت هنا تحت رحمتي، مثلًا لو مت من سيهتم؟ خالصة؟ هي عجوز خرفة لا تترك حجرتها، كل الناس اليوم تهتم بأكلها فقط.

قالت عائشة وهي تمسك بخدها: الله يراك ويعرف.

شدت سليمة عائشة من ردائها وقربتها إليها وقالت: هل تدعين عليّ؟

فقالت عائشة في رجاء: أرجوك أن تعطيني بعض الطعام؛ من أجل طفلة لا حول لها ولا قوة.

قالت سليمة: لو توقفت عن المقاومة فسأفكر في الأمر. ربما لو رجوتني..

ثم مدت يدها، طبقت عائشة شفتيها ولم تجب. قالت سليمة: ألن ترجوني؟ كنت سأعطيك الخبز.. ألن تطلبي الصفح؟

بقيت عائشة صامتة. فقالت سليمة: لو قبلت قدمي ربما أعطيك الماء أيضًا، ما رأيك؟

لم تجب عائشة.

قامت سليمة وقالت: لا بأس، غدًا ستقبلين قدمي، وتبكين ساعات. ولن ينفع الندم.

أغلقت سليمة الباب، وهي تسب وتشتم، وتركت عائشة تلهث وتتأوه، وهي ترى ابنتها تبكي جوعًا.

احتضنت ابنتها وأغمضت عينيها وهي تتوقع أن تموت الطفلة ثم تموت هي اليوم أو غدًا.

ندمت بعض الشيء أنها لم تتذلل أكثر لسليمة، ولكنها أيضًا شعرت ببعض الفخر أنها لم تفعل. هي ابنة أحد، لابد ألا تنسى. بدت ذكرياتها مع زوجها بعيدة وصوته يتلاشى وراء السحاب، طغت صورة الأب توبخها: فلتموتي يا عائشة ولا تتذللي أبدًا، ولتمت ابنتك ولا تقبلي قدم أحد. ابتسمت ثم علت صرخات الطفلة، فقامت وبدأت تدق على الباب في يأس وهي تقول: سليمة.. تعالي سأفعل كل ما تريدين.. لا تتركيها تموت..

لم تأت. ضربت بقبضة يدها الحائط وهي تصرخ: لم تركتني يا عبد الرحمن؟! لم تركتني؟! لن أسامحك.. وأنت يا أمي.. أين أنت؟! أبي.. لا تطلب مني ما لا طاقة لي به.. دومًا تحملني ما لا أطيق، أنا بنت ضعيفة لا أكثر.

سمعت الباب يُفتح ليلًا فلم تبال. هزتها عزة في قوة ووضعت أمامها الخبز والماء وقالت: هيا كلي بسرعة قبل أن تأتي سليمة.

أكلت بسرعة وشربت الماء وهي تكاد تتوقف عن التنفس من سرعة ابتلاعها للماء والطعام.

فقالت عزة في احتقار: تبدين كالكلب الجائع. أين جبروتك وسيطرتك على الرجال؟

لم تجب، بدأت ترضع ابنتها في يأس حتى شعرت باللبن يخرج من صدرها، فنظرت لعزة وقالت في استجداء: لا أعرف كيف أشكرك.

نظرت إليها عزة ثم قالت: أتعرفين كم أكرهك؟

- أعرف.

- وتعرفين أنك قضيت على حياتي. أتعرفين هذا أيضًا؟ أتعرفين أني تزوجت من رجل لا أحبه للمرة الثانية بسببك أنت؟

قالت في يأس: لا أريد سوى أن تعيش ابنتي.

- وأنا أتمنى موتك وموتها. ولكني لا أستطيع سوى أن أطعمك. ولكني لن أطعمك مرة أخرى، هذه آخر مرة.

قالت في استجداء وذل لم تدرِ أنها قادرة عليه: أتوسل إليك أن تأتي ليلًا بالخبز فقط. ما تعطيه لي أختك لا يكفي.

ثم أكملت: لا أريدها أن تموت. أتوسل إليك. سأفعل أي شيء. سأغزل ليلًا ونهارًا، سأصنع لك أنت ثوبًا لم تري في جماله.. سأفعل كل ما يرضيك.

تأملتها عزة ثوانٍ ثم قالت: عبد الرحمن..

قالت في حسم: لو عاد لا أريده. سأخبره أني لا أريده. كنت أنت على صواب، كان لابد ألا أتزوجه. هو يحبك أنت، أنا فرقت بينكما.

- أنت شيطانة.

بقيت صامتة لا تدري ما تقول لترضي عزة.

قالت عزة في حسم: ولكنه لن يعود. تعرفين هذا، أليس كذلك؟

ارتعش جسدها وقالت: ربما.

قالت وهي تنظر إليها: لو عاد وحارب أبي.. لابد أن يقتل أحدهما الآخر.

قالت عائشة في يأس: اطلبي مني أي شيء. مُريني وسأنفذ على الفور، ولكن اتركي ابنتي تعيش.

قالت في بطء: أخاف أن يقتل أحدهما الآخر. وأخاف أن يموت عبد الرحمن أو أن يعود. أتحبينه يا جلابة الخراب؟

قالت في يأس: أريد لابنتي أن تعيش.

- لو عاد وحارب أبي سأقتلها أمام عينيك. سأساعدك وآتي لك بالخبز ليلًا، ولكن لو عاد عبد الرحمن فلابد أن تمنعيه من محاربة أبي.

قالت في حسم: سأفعل. أقسم لك أني سأفعل. حتى لو قتلت نفسي أمامه.

- ولو لم تفعلي؟

- افعلي بي أي شيء.

- هذا عهد بيننا.

قالت في صرامة: أنت أفضل مني، وأفضل منه. هذا عهد.

قالت عزة: إياك أن تخبري سليمة ولا أي إنسان بذلك.

- لن يحدث.

قالت عزة: أريدك أن تعرفي أن الطعام قد قلّ في البيت، وأننا كلنا لا نأكل الكثير، غلت السلع، وحل الجفاف. لا تظني أن أختي تعذبك.

حنَت رأسها بالإيجاب وقالت: أفهم.

رحلت، فبكت عائشة ساعة أو أكثر، ثم نامت في أحضان ابنتها، ثم هتفت باسم زوجها وقالت: أحبك، كم أحبك! ولن أسامحك على تركي هذه المرة. وفي الصباح بدأت تعمل في حماس، وعندما دخلت عليها سليمة عند الغروب بقطعة الخبز الصغيرة نظرت إلى عملها وقالت: هذا أفضل كثيرًا. التهمت الخبز كعادتها، وابتلعت الماء دفعة واحدة.

قالت عائشة وهي تنسج في إتقان أشكالًا وزخارف وألوانًا: أريد هذه القطعة لعزة هدية من أجل زواجها.

قالت سليمة في ريبة: ولِمَ عزة بالذات؟ ومن أنت لتقرري ماذا تفعل بالنسيج؟

قالت مسرعة: كنت أفكر فقط. أنت تقررين بالطبع.

فكرت قليلًا، ثم قالت: ربما أعطيها لعزة هدية مني من أجل زواجها.

في منتصف الليل دخلت عزة بالخبز والماء وبقدح من لبن الماعز، فقالت عائشة مسرعة: نسجت لك قطعة مختلفة أريدك أن تأخذيها. هي مع أختك.

نظرت إليها عزة في ذهول فأكملت: ربما في وقت غير الوقت وزمن غير الزمن كانت ستجمعنا صداقة ومعزة. أنت كريمة. أريد القطعة لك.

ضاقت عينا عزة وهي تنظر إليها في ريبة ثم قالت: أنا لا أثق بك يا غريبة.

- أعرف وأفهم. وأشعر أيضًا بحزنك ومرارتك.

التفت أعينهما ثم قالت عزة: الرجل ربما يتزوج من الكثيرات، ولكنه لا يحب سوى واحدة. لا يوجد قلبان في جوفه.

قالت عائشة مسرعة: ولكنه يحبك.. هو قال لي.

- ربما أحبني في الماضي ولكن ليس كما أحبك.

قالت عائشة في صراحة: مع أنك أكرم مني وأفضل، لا أدري لو كنت مكانك..

ابتسمت عزة وقالت: تمنيت قتلك مرارًا، ولكنه لن يعود، فلا جدوى من العداء. سأخبرك برأيي في القطعة غدًا أو بعد غد.

***

لسليمة طرق غريبة وغير محسوبة للكسر. أحيانًا تدخل عليها وهي تبتسم وتضع الخبز أمامها، ثم تطلب منها أن تبدأ في العمل، وما إن تنكفئ عائشة على الغزل حتى تضربها سليمة بقبضة يدها على ظهرها، فتغمض عينيها في ألم ولا تفتح فاها. فتقول سليمة: هل آلمتك دون قصد؟

فلا تجيب عائشة. وأحيانًا أخرى تصفعها بقوة أو تدفع بها لتتكفئ على وجهها. وعائشة لا تعطيها انتصار التألم ولا الشكوى، تتحمل في صمت، ثم تبكي وحدها قليلًا.

بعد يومين قالت عزة وهي تعطيها الخبز واللبن: أعجبني نسيجك. كنت على حق.. هي قطعة مختلفة.

ابتسمت عائشة في إعياء ثم قالت: احتفظي بها يا أختاه.

- لسنا أختين.

- أنت أفضل من أختك بكثير.

- لا تتطاولي على أختي.

قالت عائشة: أتمنى أن يعرف زوجك قدرك ونُبلك.

نظرت إليها عزة برهة ثم قالت وكأنها نسيت من تكون عائشة: هو أفضل من زوجي الأول، هذا أكيد.

قالت عائشة في حذر: أتمنى لك السعادة.. فأنت تستحقينها.

ثبتت عزة عينيها على عيني عائشة ثم قالت: تستطيع المرأة أن تجد الرضا بلا حب، وأحيانًا لا يأتي الحب سوى بالخراب. ولكن السعادة كلمة تعني الكثير. لا سعادة لنا هذه الأيام. كلنا.

خرجت وأغلقت الباب.

طلبت من عزة أن تقابل خالصة ولو بوجودها ولكنها رفضت؛ فمقابلة خالصة ربما تثير ريبة سليمة وتجعل قدوم عزة لمساعدتها مستحيلًا. حاولت عائشة أن تفهم لمِ تملك سليمة قوة لا تملكها أختها. سليمة الأخت الكبرى ولها دلال على الأب على ما يبدو، متزوجة من أحد رجال القبيلة ولديها أولاد فلم

كل هذا الحقد؟ ترى أتكره زوجها؟ أيمكن أن يكون الحقد سببه سخط على العالم؟ أولدت بنفس فاجرة لا أمل في إصلاحها؟ هل قدرتها على فعل أي شيء بعائشة جعلتها تقسو وتعتدي؟ لدى عائشة الكثير من الوقت لتفكر، ابنتها تملأ حياتها وتجعل السجن كبيرًا بحديقة خلابة، بدأت الطفلة تبتسم اليوم، فتكلمت معها ساعات وأخبرتها عن عبد الرحمن. قالت لابنتها إن عينيها تشبهان عيني والدها، وإن والدها حارب وانهزم، وربما مات، وربما عاش، لا أحد يدري. تعلمت الجلد في شهر أو شهرين، فأصبح القليل من الطعام يكفيها، والعمل هو أول شيء تفعله في يومها، سيطرت على كرهها لسليمة، فلم تعد تظهر لا ذلًا ولا وجعًا أمامها، تعلمت السيطرة على تلقائيتها وتهذيب النفس. تصلي كل يوم، وتطلب من الله أن يعود، ثم تصلي وتطلب من الله أن يُبقي على مسجد والدها فهو كل ما تبقى منه، ثم تصلي وتدعو الله أن يحفظ ابنتها. تتكلم مع الله كثيرًا. ولا تدري بما يحدث خارج الحجرة سوى القليل. بعد مرور شهرين جاءت لها عزة ليلًا وقالت إن سليمة ليست في البيت اليوم، ويمكنها أن تأخذها لتسير خارج البيت. ارتدت خمارها وغطت ابنتها وخرجت وهي تستنشق الهواء لأول مرة، ثم سألت عزة لم تحبسها سليمة فلم تجب عزة. دخل العساكر حدود القبيلة بلا استئذان، فصرخت النساء واجتمع الرجال، وتخفت هي وراء عزة وهي تخاف قدوم سليمة، لكن يبدو أن سليمة لم تلحظها. قال القائد العباسي في قوة: الخليفة يبحث في كل أنحاء مصر عن ابنة أحمد بن طولون، من يخفيها سيدفع حياته ثمنًا لإخفائها.

فقال ربيعة: نحن ندعو للخليفة يا أخي، قبيلتنا ليس بها غرباء.

فقال القائد وهو ينظر إلى النساء: الخليفة طلب منا أن ندخل كل بيت، ونسأل كل رجل وامرأة. لو لم نجدها فالعقاب لكل أهل مصر.

ثم أخرج سجله وقال: أخبرني باسم كل امرأة في القبيلة، واسم والدها وزوجها..

أمسكت بقلبها، ثم همست لعزة: هل يمكن أن أدخل الحجرة؟

بدا أن أحد العساكر سمعها، فقال في حسم: أطلب من كل النساء الخروج لأن العساكر ستفتش البيوت اليوم.

قال ربيعة: يا أخي هذا لا يجوز، للحريم حرمة.

- هي أوامر الخليفة، لا تختص بها قبيلتك بل كل أهل مصر، بدأنا منذ شهرين، ولو لم نأت بها يعاقبنا الخليفة.

بدأ العساكر يسألون النساء عن أسمائهن، ويكتبون في سجلاتهم وهي ترتعد رعبًا. ثم جاء الدور عليها، سألها الجندي عن اسمها فقالته في صوت مرتجف، ثم سألها عن والدها، فقالت وهي تتلعثم: هو قريب خالتي خالصة. هي هنا، اسألها.

- ما اسمه؟

نظرت إلى خالصة فقالت خالصة مسرعة: هو زوج ابنة خالي أنجبها من زوجة مصرية.

بدا أن العساكر لا تثق في كلام خالصة، فقالت سليمة مسرعة: خرجت من الحجرة دون إذن؟ يا مولاي هي غريبة لا أهل لها ولا أصل. خالصة تكذب.

كاد قلبها يتوقف. تجمدت مكانها.

قال القائد: اخلعي خمارك.

لم تجب. فأعاد الأمر بلهجة حادة، خلعته بيد ترتجف. حدق فيها، ثم قال: ما اسمك؟

- عائشة.

ساد الصمت حتى إن صوت الصراصير الطائرة طغى على كل حواسها. نظر القائد إلى زميله ثم همس إليه بشيء وقال لها: عائشة هو اسم ابنة أحمد بن طولون.

ثم نظر لربيعة وقال: منذ متى جاءت الغريبة؟

قال ربيعة: منذ تزوجها عبد الرحمن من أكثر من عام. لا يمكن أن تكون تلك اليتيمة ابنة أمير.

قالت في تلعثم: يا مولاي عائشة هو اسم نصف بنات مصر.

تفحصها من جديد، نظر إلى يديها الممتلئتين بالجروح من الغزل، ثم نظر إلى عينيها والهالات السوداء التي تسيطر على وجهها. قال في حسم: اخلعي خمارك عن شعرك أيضًا.

قالت: يا مولاي هذا لا يجوز.

- افعلي ما آمرك به. أين زوجك؟

قال ربيعة: مات.

لم يجرؤ على أن يقول إن عبد الرحمن حارب ضد الخليفة، فالعقاب دومًا لكل القبيلة وليس لبعض رجالها، ولو أصبحت قبيلة بني سالم من القبائل المغضوب عليها من الخليفة فلا أمل لهم. يكفي ما هم فيه من جفاف وجوع.

نزعت خمارها في بطء. فقال القائد: لِمَ ترتجفين؟

- لم يرَ أحد شعري من قبل سوى زوجي.

نظر القائد إلى شعرها الأسود الطويل، ملامحها تبدو رقيقة، ولكنّ يديها تشيان بالعمل الشاق، الأميرة لا تقوى على هذا النوع من الأعمال.

قال في لهجة آمرة: افتحي كفيك..

فتحتهما وهي تبلع ريقها فنظر إليهما ثم قال: أين تعلمت الغزل والنسج؟

- في بيت أبي، كنا كلنا نعمل ثم مات و..

- وماذا..

- واستمررت في العمل حتى تزوجت..

نظر فجأة إلى عزة ثم قال: ما رأيك أنت؟ هل هي ابنة أحد؟

نظرت إلى عائشة في حيرة ثم قالت: لا أعتقد ذلك يا مولاي.

- هل أخبرتك بشيء؟ من أنت؟

قالت عزة في ثبات: أنا صديقتها، ابنة عم زوجها، هي يتيمة فقيرة، أنا أعرف أهلها، هم أقارب خالتي خالصة كما قالت، ولكننا لم نرهم منذ زمن بعيد.

نظر إليها الأب في ذهول، ثم رمقتها سليمة بنظرة لائمة. تهامس العساكر ثم قال القائد: لو سمعت عن وجود عائشة في أي مكان فلابد أن تخبرني، من يجد عائشة سيحصل على ألف دينار من الخليفة نفسه.

ثم رحل الجنود، وجرت هي إلى حجرتها ووراءها عزة. أغلقت الباب، ثم قالت وهي تثبت نظرها عليها: من أنت؟

قالت وهي تلهث: كما قلت يتيمة فقيرة.

- كاذبة.

ثم خرجت، وسمعت عائشة صوت سليمة وهي توبخ أختها وتلومها على ما قالت، كيف تصف نفسها بصديقة هذه الغريبة؟ أغلقت سليمة الباب في إحكام وهوت هي إلى سريرها تحتضن ابنتها وتهدئ خوف النفس.

***

بعد مرور شهرين تأقلمت عائشة، وتعلمت أن تتجاهل تجريح سليمة وهجومها. توالى الهجوم؛ مرة هجوم بالشتائم وأحيانًا بالأيدي، وفي كل مرة تتجاهلها. لا تبكي، لا ترجو ولا تغضب. تعلمت أن يبقى الوجه بلا حياة أمام سليمة وكأنها تدعي الموت، وبعد وقت ملت سليمة من اللعبة وأصبحت تعطيها الطعام، وتأخذ منها الأقمشة في صمت. تعلمت عائشة أن تسيطر على جموح النفس، ونمت بينها وبين عزة صداقة حذرة أو ربما فضول من عزة لا نعرف بالضبط. أصبحت تأتي لها كل أسبوع ليلًا وتأخذها في جولة خارج البيت، ثم تعود بها دون علم أحد. طلبت منها عائشة مشطًا للشعر وماء لتغتسل. جاءت بهما عزة سرًا. وأصبح كل هدف عائشة أن تنتظر فتات الخبز وتتكلم مع ابنتها ساعات، تشكو وتحكي. قالت لابنتها يومًا: لو جاء والدك الآن فلن أروق له، فلابد أنني أصبحت نحيفة باهتة، ولابد أن سليمة تريدني أن أكون قبيحة لتنتقم مني. هل تظنين أني تغيرت كثيرًا؟

عزة لا تتكلم معها كثيرًا، ولكن جاءت في يوم ومعها الرداء الذي نسجته عائشة، وجلست أمام عائشة وقالت في تأمل: هذه النقوش مختلفة لا عهد لنا بها. كالنجوم في السماء والورود المتألقة. والأوراق الخماسية هذه غريبة. كيف فكرت في غزلها؟

- هي نقوش من القطائع حيث كنت أسكن.

- هي نقوش ملكية يا غريبة.

نظرت إليها عائشة، ثم قالت: لا أعرف عن ماذا تتحدثين.

قالت عزة في تأمل: فلنفترض.. مجرد افتراض يا عائشة أنك ابنة أحمد بن طولون، الأمير العظيم، وأنك هربت وقت هجوم ابن سليمان، ووعدت عبد الرحمن بالذهب فتزوجك.. ترى أيعرف هو أيضًا؟

قالت في حسم: هذا هراء. أنا يتيمة لا أهل لي.

- قلت لك فلنفترض يا عائشة، لا تخافي، أنا أفكر معك. عبد الرحمن مات ربما. بل من اليقين أنه مات؛ لأن الحرب انتهت وهو لم يعد، استقر عيسى

النوشري في حكم مصر وهو لم يعد. ولكن الخليفة لم يزل يريد ابنة أحمد. أنا لا أعتقد أنه يريد قتلها. هل سمعت شيئًا عن الخليفة المكتفي؟

قالت في عدم صبر: لا أعرفه.

- أنا سمعت عنه الكثير، هو شاب جميل الوجه، رقيق ومحب للشعر ليس مثل والده الذي تزوج قطر الندى، أنا أعتقد أن المكتفي يريد الزواج من ابنة الأمير. من ترفض الزواج من الخليفة يا عائشة؟ فلنفترض أنك مثلًا ابنة الأمير أكنت سترفضين الزواج من خليفة المسلمين؟

قالت بلا تفكير: لي زوج.

- ولو كان قد مات.

- كنت سأرفض.

- لماذا؟ لأنك تحبين عبد الرحمن؟ أم تفضلين البقاء هنا ذليلة؟ تتصورين كيف ستكبر ابنتك في بيت الخليفة في بغداد؟ هل تحلمين بهذا؟ لو كنت اعتدت القصور فما الذي يبقيك هنا فقيرة يتيمة؟!

- وعدت عبد الرحمن ألا أتزوج غيره حتى لو مات.

- عبد الرحمن أنانيته لا توصف، يسيطر وهو حي وهو ميت، فكري في مستقبل ابنتك.

قالت وهي تمسك بالرداء: احتفظي به دومًا يا عزة، أعطيه لأولادك من بعدك. واغفري لي.

أطالت عزة نظرها إليها، ثم قالت: سأحتفظ به يا عائشة وسأعطيه لأولادي، ولكني أبدًا لن أغفر لك.

***

بعد ثلاثة أشهر جاءتها رسالة غريبة، توقعت أن تكون من عبد الرحمن ولكنه لم يحاول الاتصال بها، ترى أقتل؟ أم يخاف أن تقع رسالته في يد العساكر؟ تمنت أن يكتب أي شيء، أن يتتشلها من يأس وحزن على ما آل إليه حالها، وعلى خوفها من مستقبل مجهول، وعلى يأسها من أن تراه. تفتقده وتتمنى لو أتيحت لها فرصة واحدة لتودعه، لتخبره بما جرى. كلما مر الوقت تعذر اللقاء واستعصى الأمل. جاءت عزة بالرسالة، قرأتها، أعطاها لها طفل صغير. قالت لعائشة إن من حسن حظها أن الرسالة لم تقع في يد سليمة أو ربيعة. رسالة قصيرة بالقبطية. قال صاحبها:

كلنا نبحث عن ابنة الأمير أحمد، لو تزوجها الخليفة فلن يهدم مسجد أحمد، لا أحد يستطيع إنقاذ المسجد سوى ابنة أحمد. سيتم الهدم بعد عدة أيام. شفاعة الزوجة تنقذ الأب. يقولون إن بيوت الأمراء يحكمها الانتماء والولاء وليس الحب. كل أهل مصر يأملون، ينتظرون.

تساقطت الدموع وعزة تنظر إليها في إمعان. فهمت رسالة سعيد. وجدها، هو يعرف كل شيء، يعرف أن القبيلة هاجرت إلى إسنا، وأن العشق يمنعها من أن تضحي هذه المرة.

أمسكت بالرسالة ومزقتها ثم قالت في حسم بصوت مسموع: كنت دومًا قاسيًا يا خال، تحملني الكثير.

قالت عزة: هل طلب منك الزواج من الخليفة من بعث الرسالة؟

لم تجب.

قالت عزة: فكري في ابنتك، لو كان عبد الرحمن أنانيًا، فالأم تفكر في أطفالها. تريدينها هنا تحت رحمة سليمة بقية عمرها؟ تريدينها هنا أم في بيت الخليفة؟ تريدين أن تضحي أنت فلا بأس، ولكن لم تعذبين طفلة لا حول لها ولا قوة. الأم

تضحي لو كانت أمًا حقيقية. أنا لا أقول هذا لأني أريد عبد الرحمن، فقد تزوجت غيره، وأعرف أنه لن يعود، أنا أقول هذا لأني لا أعرف ما الذي ينتظرك هنا، ومن يضمن لك أن أبي لن يزوجك عنوة بعد حين من أحد رجال القبيلة؟ أي مصير ينتظرك يا أميرة؟

- لست أميرة.

قالت عزة في حسم: بل أميرة. أنا أعرف. ولكنك أم والأم تضحي من أجل ابنتها دومًا، الأم تضحي. ابنتك ليست في أمان هنا. وأبي سيزوجك من رجل من القبيلة بعد عام أو قبل عام. الوقت يمر والأمل سيتلاشى. خذي قرارك اليوم قبل الغد.

***

- 10 -

استقر عيسى في مصر، وأخرج السجلات التي خبّأها عن خراج مصر والنقود التي أخذها معه من خزانة البلاد، وخطب في الناس ووعد وهدّد، لو أرادوا الاستقرار فلينسوا ما كان، سيسامح أهل مصر على نصرتهم لمحمد الخلنجي، سينسى ما حدث على أن ينسوا هم أيضًا أن آل طولون حكموا تلك البلاد. ستعود القطائع عاصمة، وسيوفر عيسى الطعام للناس، ويضرب على يد اللصوص، سيشيع النظام ويشجع التجار والأعيان. لن يعاقب سوى الجنود، مَن حاربوا ضد الخليفة، خمسين ألف جندي، تفرقوا وسط أرجاء الديار المصرية وأصبح القبض عليهم صعبًا. ولكن الكثيرين هربوا إلى الجنوب. بدأ يحصر القبائل العربية التي ساعدت محمد ليخطط لمعاقبتهم، عرف بعضهم، ولم يعرف الآخرين. تحركت القبائل من أماكنها، وأصبح العثور عليها مستحيلًا. وجد عيسى في قاسم سندًا وقوة.

ولم يزل قاسم الخرساني يخطط لهدم المسجد، وسيبدأ اليوم أو غدًا. تتبّعت جيوش الخليفة كلَّ من ساعد محمد الخلنجي الجندي المصري، وكل من أراد عودة بيت طولون لحكم مصر واستقلالها عن الخلافة. سار قاسم الخرساني بعساكر الخليفة في أزقة القطائع والجيزة يبحث عن أسماء بعينها من المصريين والعرب والأتراك والنوبيين والسودانيين، هؤلاء لا بد من قتلهم أو جرّهم إلى الخليفة ليقتلهم في بغداد. والبحث عن عائشة ابنة أحمد وإبراهيم بن خمارويه لم يعد مطلبًا بل هدف دونه تنهار الخلافة. رحمة الخليفة المكتفي وذكاؤه جعلاه يريد

الزواج بعائشة. في زواجه منها بعض المهادنة لأهل مصر وفي زواجه منها انتصار ونهاية لبيت طولون. لو لم تمت عائشة فهي في الديار المصرية، وما دامت هي في الديار المصرية فقاسم الخرساني لا بد أن يجدها. حصول الخليفة عليها أهم من عثوره على إبراهيم الطفل، فجيش محمد الخلنجي لم يقوَ على الخليفة، ولكن ليُحكم الخليفة سيطرته على مصر لا بد من أن يتزوج من آل طولون حتى يحبط الحلم ويمتص الذكريات. خرج رجال الشرطة يبحثون في كل قرية ومدينة وكل بيت وحارة. عرف قاسم أن بعض القبائل العربية تعاونت مع محمد الخلنجي وكل أقباط مصر مسيحيين ومسلمين. ولكن حلّت عليهم اللعنة فلا جدوى من العقاب، غلت الأسعار، وساد الجفاف، وعرفوا أن مَن يُغضب الخليفة لا أمل له في عيشة كريمة. أشاع قاسم الخرساني في حارات الفسطاط من جديد أن المسجد يأتي بالخراب على مصر وأن من واجب أهل مصر أن يهدموا مسجدًا بناه أحمد من مال مسروق، نشر الأخبار بين الناس أن عيسى النوشري ينوي بناء مسجد جديد أكبر منه وأعظم عندما يستقر له الحال في مصر، وأن العهد البائد ذهب وولّى، ولا رجعة عن انضمام الديار المصرية للخلافة. أغلق المصريون أبوابهم، وصمّت آذانهم فلم يسمع لقاسم أحد ولم يثق به أحد. ولم يجرؤ أحد على الخروج على عيسى مرة أخرى بعد ما كان، بل اهتم كل بيت بتوفير الخبز والماء، ونعى الباقون أيام العز والرخاء عندما كانت اللحوم توزع على المصريين، والزينة تملأ الشوارع، والصناعات والزراعة تزدهر، والفرحة تعم الأرجاء، هذا كان وسبحان من له الدوام. كتم الناس المرارة، واستمروا في صمت ظاهره استسلام وباطنه غضب. بقيت الذكريات طازجة وحية، فلم يزل المسجد موجودًا كما هو. يؤرق منام الخليفة ووالي مصر وقاسم الخرساني، ويؤرق منام ابن سليمان في محبسه أيضًا.

انطلقت الجنود تبحث عن رجال بني سالم، لا بد أن عبد الرحمن ممن ساعد محمد الخلنجي، إما أن يُقتل أو يُسلَّم للخليفة فيدور به في أنحاء بغداد، ثم يقتله بعد ذل وحسرة. اختفى عبد الرحمن على ما يبدو. وكل رجال بني سالم. بنو سالم

في إسنا لم يساندوا محمد الخلنجي، هذا أكيد، هم مائة رجل أو أقل. شك عيسى أن عبد الرحمن الذي يتهمه قاسم بمساعدة محمد وكان يعاونه على الثورة لا وجود له. فلم يرَ أحدٌ وجهه، الكل يعرف أن عربيًا ملثمًا كان يساعد محمد، ولا أحد يعرف اسمه، ولا ما حدث له. نشر قاسم رجاله حول بني سالم في إسنا، وحول أطراف الفسطاط، البحث عن رجل ملثم شبه مستحيل. ولكن هدم المسجد أو جزء منه سيقضي على ما تبقى من اليقظة.

***

سعيد الفرغاني عاصر الحروب جميعًا، عاصر نصرة محمد الخلنجي ثم هزيمته، ساوره الشك، وأثمله الأمل، وأيقظته الهزيمة وعرف أن النهاية قادمة لا محالة. لم يزل يسكن بيتًا صغيرًا بناه بنفسه ملتصقًا بالمسجد، لم يُهدم بعدُ. لم يزل يسكن وسط الخراب وبقايا المسجد، كل يوم ينظر إلى المسجد ساعات ثم يدخل بيته ولا يبرحه. بكى كثيرًا، أصبحت دموعه تأتي بلا استئذان هذه الأيام، ربما وَهَن عظمه، وتلاشت قوته، وربما هي شيخوخته تثقل عليه ولا ترحم. آه من زمن يأخذ ولا يعطي، يعتصر القلب ولا يضمد الجراح. تبقى الحبيبة بعيدة، ويصبح ما مر سحابًا متنقلًا، لم يتبقَّ له سوى ما بنى، أراد الزمان أن يمحيا ليعاصر الفناء فيتذكر، ليشهد على الهدم فيتواضع، لينكسر فيقوى. دق بابه غريبٌ، فتح ونظر في عينَي الملثَّم، ثم قال وهو يسمح له بالدخول مع رجاله: العربي..

أغلق الملثم الباب، ثم رفع الغطاء عن وجهه، التقت أعينهما، بدا عبد الرحمن منهزمًا حزينًا ربما، وبدا سعيد مستسلمًا، يائسًا. انتشر الرجال في البيت الصغير، وقال سعيد: أسأت الظن بك، سامحني، أنت أفضل مما توقعت.

ابتسم عبد الرحمن في مرارة، ثم قال: ما حاولت الحفاظ عليه سيُهدَم عن قريب. لا أمل لك يا سعيد.

- أعرف. كيف حالها؟

صرف عبد الرحمن رجاله، ثم قال: لم أرها منذ ثلاثة أشهر. كنت أحارب مع محمد في الفسطاط، ثم العريش، ثم اختبأت برجالي بعد الهزيمة.

- هل جئت تُوبِّخني على ما قلت لك منذ عام؟

- بل جئت أسأل عن حالك.

- أنت لست بالرجل السهل يا عبد الرحمن، تظنني لا أعرف؟ تغامر وتجازف، هل ارتويت من مغامرتك؟ كنت تحتاجها في حياتك الفارغة.

- لا بد أن يجازف الإنسان ويغامر مرة على الأقل في حياته وإلا فسيموت بدون أن يعرف طعمًا للارتواء.

- لك شرف المحاولة.

قال عبد الرحمن في جدِّية: عيسى النوشري أخطر بكثير من ابن سليمان، هو ذكي وليس طامعًا؛ ينفذ أوامر الخليفة دون أن يضع الأموال في جيبه. لا أمل لنا. لم يزل قاسم يساعده.

- لم يزل قاسم يريد عائشة.

ساد الصمت برهة، ثم قال عبد الرحمن: لن يحدث.

ابتسم سعيد ثم قال: أتعرف لو تزوج الخليفة من عائشة قريبا ينقذ هذا المسجد. عائشة تستطيع أن تقنعه أن يُبقي عنه. لن يستطيع إقناعه غيرها.

كتم عبد الرحمن غيظه ثم قال: أموت وتموت ولا تتزوجه. لها زوج، ولو متُّ فلن تتزوج غيري.

- أنانية الرجال لا مثيل لها، لا تختلف عن طمعهم. تُنافس الخليفة اليوم وتقف أمامه هل تعرف هذا؟

- واثق أنها لن تخونني حتى في الغياب. ستبقى على العهد.

تنهد سعيد وقال: العشق لا دواء له، يقتل بلا رحمة. لم أتوقع أن تحبها، كانت بين يديك، لِمَ لَمْ تحب من تعطي بلا مقابل؟ ظننت أن العرب تُرتب الأشعار للمحب الغائب، وليس لمن يستسلم ويطيع. كانت لك وظننت أنك ستبحث عمن تكون صعبة المراس، يبحث الرجل عمن تعذبه.

- بل يبحث الرجل عمن تصدق معه.

اقترب سعيد منه وقال: لم تعلّمها أمها أن الأميرات لا يحببن، الأميرات يُضحّين من أجل أوطانهن وآبائهن. ليت أسماء علّمتها أي شيء. أنا يا عبد الرحمن لا يهمني العشق، يهمني بقاء المسجد، في قصص العشق الحزينة رونق وحياة. هل سمعت يومًا عن قصة عشق سعيدة عاشت ليومنا هذا؟ أنا مثلًا عذابي أخرج أجمل ما في الحب. لا تخف من شق النفس لحظة الفراق، فقد افترقتُ عن حبيبتي منذ أعوام وها أنا ذا أمامك، حي.. أحارب وأحاول..

قال عبد الرحمن: كنت أعرف أنك ستفكر هكذا؛ لذا جئت إليك. لو كنت تنوي أن تساعد عيسى في معرفة مكانها فسأذبحك اليوم وننتهي منك. لن تجدها لو بحثت كل عمرك.

ابتسم سعيد ثم قال: سأجدها، بل أعرف أين تكون.

أخرج عبد الرحمن سيفه، وضعه على رقبة سعيد ثم قال: إياك أن تجرؤ.

- أعطها الاختيار بين إنقاذ ما بنى والدها والبقاء معك. ربما تعرف ما يجب عليها أن تقوم به.

- أقتلها قبل أن تصل إلى الخنيفة، وقبل أن تصل أنت إليها.

- في يأس العاشقين عنف لا مثيل له. لم أزل أتذكر عندما زرتك منذ عام وعلى وجهك ابتسامة المنتصر بعد أن سيطرت عليها تمامًا، وعرفت منها كل الأسرار، ملكتَ الدنيا حينها، وظننتَ أنك القادر، كيف ملكتْك هي بعد ذلك؟ ليتني

أعرف! ولكن في أحوال العاشقين مفاجآت لا يمكن فهمها، العشق كما الحياة، لا يمكن التنبؤ به. لن تراها مرة أخرى يا عبد الرحمن، أتعرف هذا؟

قال وهو يتجاهله: قاسم لا بد أن يموت.

- تريد أن تُنقذ ما بناه أحمد. من أجلها؟ أم من أجل كبريائك؟

- بل من أجل الحلم.

- وماذا أفعل أنا؟ أنا رجل عجوز لا قوة لي.

- لو مات قاسم ستنقذ المسجد.

- وستموت أنت أيضًا.

- أن أموت فهذا قدر مكتوب؛ لا أخاف الموت.

قال سعيد: ألم تكتفِ من المجازفة؟

- أتمنى أن أعيش معها، ولكن الموت لا فرار منه.

- إبراهيم بن خمارويه..

حدّق كلٌّ منهما في الآخر، فابتسم عبد الرحمن، ثم قال: لا أعرف هل مقابلتك منذ عام كانت أسوأ ما حدث لي طوال عمري أم أفضل ما حدث لي. لم أتأكد بعد.

- بل أنا أعرف أن خبثك لا مثيل له. كيف تتعامل معك الأميرة؟

- سعيد لم أقتلك اليوم لأن هدفنا واحد لا أكثر، ولكن انسَ أمر عائشة. انسَ أنك كنت تعرفها ولا تراودك أفكار لا نفع بها.

***

اختبأ عبد الرحمن مع رجاله في أحد بيوت القطائع المهدّمة، أصبح إقناع الرجال بالبقاء معه صعبًا بل مستحيلًا، نفدت الأموال والطعام. ولم يعد الهدف واضحًا. أربعمائة رجل لو تمردوا عليه اليوم وقتلوه فلن يلومهم، حاربوا بلا فوز

ولا غنائم، ثم أصبحوا مطرودين ضعفاء، يعيشون بين حطام المباني والحوائط المهدَّمة كالكلاب الضالة.

تكلم معهم اليوم. طلب من رجاله أن يعودوا إلى القبيلة لو أرادوا، لا يعرفهم أحد، والحرب انتهت.

تساءلوا لِمَ يبقى هاربًا؟ لِمَ لا يحاول أن يعود؟ لم يُجب. قال إن مهمته لم تنتهِ.

قرر معظم الرجال العودة إلى القبيلة ما عدا عشرة قرروا البقاء معه حتى يعود سالمًا، ويأخذ مكانه شيخًا للقبيلة. عرف بموت والده، وعرف بأن عمه أصبح الشيخ، عرف أن زوجته بخير، ولم يعرف أكثر من هذا ولم يستطع. انصرف الرجال ليلًا، وبقي هو مع العشرة يفكر كيف سيخبرهم بما ينوي. أصبح الليل أقصر من النهار، وأصبحت الأيام لا تنتهي. بعد الهزيمة تحِلُّ الضعف. وبعد الإدراك يصبح العيش أصعب دومًا. أسند رأسه إلى الحائط، والعجز يعتصر نفسه، ويطهر روحه من كل سوء. اليوم يقف أمام الخليفة يعاديه ويتحداه، اليوم يتوقع منها أن تنسى مَن تكون من أجله. اليوم يموت بلا أمل في البعث.

في طفولته دلَّلته أمه، لا يتذكر أنها وبَّخته يومًا، أعطت بلا مقابل حتى ماتت، لا يتذكر سوى وجهها المبتسم، وعندما ماتت ضل الطريق، أصبح كل أصدقائه من الأحصنة يتكلم معهم ويوبِّخهم ويحكي لهم عن مجد قديم. غمرته وحدة مثقلة لا أمل في التخلص منها. أفنى العمر في الملذات فلم يتهِ، أحب عزة فلم يرتوِ، تصارع من أجل القوة فلم يصل. ثم ظهرت هي، أزاحت الغبار عن القلب وطمأنت النفس الحائرة، جاءت كسحاب متنقل لا يبقى ولا يمكن الوصول إليه. ماذا يتوقع؟ أن تبقى معه وهو هارب؟ وهو ميت؟ وهو منهزم، بينما يمكنها أن تنقذ ما بناه والدها، وتعود إلى مجدها القديم؟ أي غرور سيطر عليه؟ ضرب الحائط بقبضة يده، من هو أمام الخليفة؟ شاب؟ قوي؟ والخليفة شاب قوي ولكن بين ذراعيه كل بلاد المسلمين مجتمعة. يا ويلها لو خانته! لن

يسامحها، بل سيذبحها قبل أن ترحل. لا بد أن يذبحها، يريد أن يرى دماءها تتساقط حوله كما ستذبح هي حشايا الصدر إن فكرت في الرحيل إلى الخليفة. يمتزج حبه بحنان رهيب وقسوة لا يعرف مصدرها، لِمَ حارب ولِمَ انهزم؟ استمتع بالمغامرة، انتظرها أعوامًا، يريد إعادة مجد قديم، ولكنها كانت نصب عينيه دومًا، يريدها أن تعرف ما فعل وما أنجز، ولِمَ حارب ولِمَ جازف، يريدها أن تعرف أنه محارب لا يقلُّ عن والدها، كانت أمامه طوال الوقت، تغمر العمر وتطوي الأيام كلها. آهٍ.. هو بلاء لا شفاء منه ولا مغفرة. آه من أوجاع عذبة تُحيي ولا تعطي. وهل يستطيع أن يتخلى؟ ليته يستطيع. يتشبث ويأمل، وفي الأمل غواية وخيانة. هو الأمل يطمس النهار ويجعل الليل مبصرًا، هو الأمل يزيل الرغبة في العيش والنجاة. هو الأمل لا تحلُّ يصلح معه ولا استسلام. سمع عن الراهب أندونة، حكايته مع أحمد حكاها له جعفر في السجن. يحسد الراهب على ترك الدنيا، ويعرف أنه لا يستطيع أن يعلن خبر وفاته اليوم. الراهب مات باختياره وهو سيموت باختيارها هي. ستُبْدِي مصلحة الأب عليه، ستبدي الحلم عليه. ضحّت من أجل الحلم من قبل، وستضحي من جديد، كلما فكر في هذا اشتعلت نيرانه. قال بصوت مسموع والعجز يتفشى بين الأضلع: إياك يا عائشة.. أقسم أن أذهب إلى بغداد، وأذبحك بيدي لو تزوجته.

***

في اليوم التالي قابل سعيد، وتكلم معه عن خطته لقتل قاسم الخرساني. استمع إليه سعيد في إمعان. طلب من سعيد أن يجلس في صحن المسجد لحظة حضور قاسم وعيسى التوشري لهدمه، سيحاول الحراس أن يحملوه خارج المسجد، عليه أن يدافع عن المسجد وكأنها آخر مرة يراه، عليه أن يلفت انتباه قاسم وعيسى، وحينها سيرمي عبدُ الرحمن قاسمَ بسهم في القلب ثم يهرب. سيكون الهروب مستحيلًا ربما لأن الحراس تحيط بكل المسجد. لا بد من التفكير في مخرج. لا يعرف المخرج سوى سعيد؛ هو من بنى المسجد وهو من يعرف. سأله سعيد

عن قدرته على رمي السهم من بُعد، وعن قدرته على تسلق المئذنة. أخرج عبد الرحمن رقعة، وطلب من سعيد رسم المسجد وأبوابه، قال إنه ينوي أن يعيش، ولو هرب إلى الجبل فسيكون من الصعب على العساكر أن تجده، جبل يشكو به كهوف مظلمة من المستحيل حصرها. بعد عدة أيام سينتظره رجاله بالأحصنة وسيرحل إلى قبيلته. لم يعرفه أحد، ولم يرَ وجهه أحد وحتى لو شك عيسى في عبد الرحمن فمن الصعب أن يتبعه إلى أقصى الصعيد. رسم سعيد المسجد، ثم نظر إلى عبد الرحمن في تأمل وقال: عليك أن تختار ما بين تسلق المئذنة أو سرعة الجري. يبدو لي أن الهرب مستحيل.

قال عبد الرحمن: ربما لو استطاع رجالي تشتيت الجنود يكون الهرب ممكنًا. ولكني أطلب منهم الكثير، هذه المجازفة لن يعرفوا سببها.

ذهب سعيد إلى حجرة، ثم أخرج بعض الذهب وقال: أعطها للرجال. أعرف أن حال البلاد أثر فيهم.

نظر إليه عبد الرحمن، ثم قال: لمَ تساعدني؟ ألأنك تريد إنقاذ المسجد فقط؟

قال سعيد: يا عربي، لقد بعثت برسالة إلى عائشة، طلبت منها أن تضحي من أجل والدها.

أمسك عبد الرحمن بتلابيب سعيد، وقال: لو لم تكن كبيرًا لضربتك حتى الموت بدلًا من أن أقتلك بسهم فتستريح.

قال سعيد في تحدٍّ: يعجبني شعورك بالعجز يا عبد الرحمن، تحتاجه، ابتسامة الانتصار التي قابلتني بها منذ عام لم تترك مخيلتي، تحتاج بعض التواضع، لا شيء يُلين القلب كعشق العاجزين.

قال عبد الرحمن في حسم: لستُ عاجزًا. أموت قبل أن أصبح عاجزًا.

- ولا تملك الأرض أيضًا.

- ولا يملكها الخليفة. وحتى لو ملك الأرض فلن يملك زوجتي.

- لِمَ تغضب مني؟ أنا لم أرغمها على شيء. أم أنك لست واثقًا من أنها ستختار البقاء معك؟ ستبقى في أقصى الصعيد بلا عائلة ولا مجد، ستمحو كل ما بناه والدها بأيديها من أجلك أنت، حتى وهي لا تعرف إن كنت ستعود أم لا. ثقتك بنفسك لا تضاهيها ثقة، أم أنك تعرف عدم قدرتك على منافسة الخليفة؟ أتريد إنقاذ المسجد من أجلها؟ حتى تعرف أنك تستطيع منافسة الخليفة؟ أم تريد إنقاذه من أجل حلم أحد؟

أمسك عبد الرحمن بأحد الأحجار المتناثرة في بيت سعيد، ثم ألقى به بكل قوّته على الحائط وقال: اصمت حتى لا أقتلك.

ابتسم سعيد ثم قال: لا تدمر ما بقي من البيت.

- لم يتبقَّ الكثير من بيتك يا رجل.

قال سعيد: لو نجحتَ سترحل ولن أراك مرة أخرى، وربما لا أراها، بل من المؤكد أني لن أراها، فلو قررت أن تذهب إلى بغداد فلن أراها، ولو بقيت معك في إسنا فلن أراها، لم يتبقَّ من العمر الكثير. تعرف يا عبد الرحمن، أجد سعادة لا توصف عندما أنظر لعينيك وأرى كل هذا الحزن. أتعرف لماذا؟ ليس لأني أكرهك، بل لأنك تعجبني منذ زمن، كنت تسير في الدنيا هائمًا، تغتنم منها لحظات المتعة بلا تفكير لا في العواقب ولا في من حولك، ثم تعثرت ناقتك ومكثت في حفرة كبيرة لا خروج منها، وسط الحفرة تحررت من المتعة، واتسع العالم أمام عينيك. لو وجدتها في انتظارك أو لم تجدها لم تعد أنت مَن كنتَ منذ عام. ولو لم تجدها فلا بد أن تسامحها، فهي بشر.

قال عبد الرحمن في حدة: تتعمد أن تنغز الجروح الطازجة. لا بأس، كنا نتكلم عن الرجال الذين يساعدونني على الهرب.

حدّق سعيد في مقلتيه، ثم قال في صوت هادئ: سننقذ المسجد معًا، ستحاول، ثم تعود لتجدها قد رحلت، وتهيم في الصحراء وتلملم الذكريات بين راحتيك، وتتضرع إلى النجوم ليلًا طالبًا منها نظرة في المنام إلى وجهها، ستحيا عمرًا طويلًا حتى تؤانس كل الأحجار وكل ذرات المطر، وأنت ترجو الله أن تزورك في مخيلتك، ستمدُّ ذراعك لتلمس ظلها في ضوء الضحى، فتسطع الشمس في عينيك فتفيقك من غفلتك، وتدرك حينها أنها رحلت، كلما استيقظت شقَّ العذاب صدرك، وكلما غابت ازداد الكون توحشًا، سيعم الهدوء حتى تصرخ في الصحراء فلا تسمع سوى صدى صوتك، ستعرف حينها يا عربي، ستتعلم، أنك لست محور الكون، وأن أولاد الأكرمين ليس لهم مكانة خاصة عند القدر، يعجزون ويحزنون وينهزمون ويعيشون أبدًا في لهفة لا تنقطع إلى ما كان وإلى ما لن يعود. غدًا تنظر إلى شرفات المسجد، هي عرائس تتعانق في السماء، تتضرع إلى ما هو أسمى وما هو أعلى، غدًا تدرك أن الفقد يخفف الأحمال الثقيلة، فيجعل الروح تحلق كعرائس السماء في شرفات المسجد، بلا خوف على حبيب فانٍ ولا دنيا متقلبة. غدًا تعرف حزني أنا وتُقدِّره.

ثبّت عبد الرحمن نظره إلى أرض البيت، ثم قال بعد برهة: تكرمني كرمًا لا مثيل له. وتقرأ الشعر العربي. من علّمك قراءة الشعر يا قبطي؟

ابتسم سعيد ثم قال: هذا الرجل الذي يطاردك في كل مكان.

- أحمد بن طولون.

- هو الأمير أحمد، قال لي: يا سعيد قبل أن تبني المسجد لا بد أن تزور سامراء أولًا، وأنت في الطريق تقرأ عن العشق، لا يتقنه سوى ساكني الصحراء.

ثم نظر إلى عبد الرحمن وقال: أتعرف لِمَ يتقن ساكنو الصحراء العشق؟ لأنهم يعرفون أن الفراق قادم لا محالة. عشقهم دومًا مستحيل. والتعلق بالمستحيل جنون، والعاشق دومًا يفقد العقل قبل القلب. الأميرة تحتاج أن تتزوج من

أمير المؤمنين، تلبس الحرير، وتغرق في المجوهرات، تجري بين حجرات قصرها وتعيش في رفاهية حرمتها أنت منها. لا بد أن تتعلم ألا تفكر في نفسك فقط. جئتك منذ عام مضى وأخبرتك أنك ستندم، وستجلس أمامي والحزن يخيم.. أنا دومًا على صواب يا عربي، ولكم أفرح لحزنك اليوم! لن أخفي عليك، عندما قابلتك بعد أن خدعتها تمنيت قتلك ولم أفعل.

- تقابلنا بعدها يا قبطي.

- ولكني لم أرك بهذا الحزن من قبل. سيزداد الحزن ويتوغل.

قال عبد الرحمن في حسم: الأميرة، لا يعرفها غيري.. لن تتركني.

فابتسم سعيد ثم قال: الأميرة لا يعرفها غيري، سترحل. وعندما ترحل ويزداد يأسك ابحث عن ساحرة الهرم، قل لها سعيد بن كاتب الفرغاني حبه أعمق من حبك، فهو أخلص حتى لو تملكه اجبن لحظات، أما أنت فحقدت وعاقبت عمرًا بأكمله. قل لها سعيد عنده كرامته لن يرجوكِ ولن يزوركِ.

- عن أي ساحرة تتكلم؟

- ستذهب إليها.. أعرف.. وعندما تفعل كما نفعل كلنا أخبرها أنها ربما قرأت، ولكنها لم تعرف شيئًا عن الحب.

ثم أكمل سعيد بن كاتب الفرغاني وهو يخرج رقعة و يكتب في بطء:

«في عمر المدينة رائحة الخوف وطعم الخطر

وفي عمر المدينة حرب على الذاكرة بالسيوف والرماح

وفي عمر المدينة نقمة ونعمة، فالمدن الراحلة تكمن في الذاكرة

المدن الراحلة دومًا بشمس ساطعة ومباني شامخة

عند البحث عن المدينة يلفظ القلب أنفاسه الأخيرة

نأت المدينة فاستيقظ المسافر

دنت المدينة فغفل ساكنوها.

هذه حكاية مدينة غير كل المدن، في بدايتها التقاء بين الغدر والخيب

وفي أزقتها اقتراب من هوة كلها كنوز، لا ترحم من يتردد ولا تتعلق إلا بمن يغني بها.

قالوا لم تكن هنا، ولا هناك، قالوا بل كانت عند جبل يعصم من الموت، قالوا سكانها تناثروا حول الأرض بلا ذاكرة ولا معرفة.

قالوا الأجداد لملمت أحجارها في حفرة قعرها أعمق من قاع البحر

ثم طمسوا معالمها ليحموا الأوراق من التلف.

قالوا الوقت يتلف القلوب، ويوهن الجسد، ويودي بكل المدن

ولكن على هذه الأرض لا آثار تفنى ولا تاريخ يضيع.

هنا يتقنون الاحتفاظ بكل الأوراق حتى لو لم يقرءوها.

تعالَ أحكِ لك عن المدينة وعن العشاق وعن الحلم وعن الوصول وعن التيه أربعين عامًا أو أكثر».

نظر إليه عبد الرحمن في رهبة لم يشعر بها منذ ولد.

***

علت الأصوات تُناجي عبد الرحمن وأحيانًا تؤنّبه. حذّرته ميسون الجميلة من مرافقة ظله، وها هو ظله لا يكاد يبرحه ولو لحظات. هو هنا اليوم داخل المسجد. عبد الرحمن في مسجد أحمد بن طولون، وحده.

في ضوء الفجر تتضح الرؤية، غريب أن يؤذّن للفجر ويبقى الجامع خاويًا. لا يدري بالضبط من أين يسمع الأذان، ولكنه ليس من جامع أحمد. يا لحسرتك

اليوم على نهايتك يا أحمد! وقف عبد الرحمن في صحن المسجد وصاح: تطاردني بأحلامك يا أبا العباس أحمد بن طولون.. وتطاردني في أحلامي.. يا حسرتك اليوم على فنائك ومحو أثرك. يقولون ملوك المصريين القدماء كانت لا تنتقم بالتعذيب ولا بالموت بل بمحو الأثر. ما أقسى القدماء وما أعظمهم!

صاح وهو ينظر إلى نجوم السماء: ماذا تريد مني يا أحمد؟ كفَّ عن الوسوسة داخل قلبي!

اتسع الصحن حتى التف حول الفسطاط، ثم امتد إلى أطراف الشام والعراق ثم إلى الهند.. رأى اتساع الكون وضيقه، رأى في صحن المسجد فراغ الأيام المؤلمة، وتمكُّن لحظات الحب. جاء ليتفقد المسجد فلم يعد يرى سوى ظله في الأروقة، على المحاريب، حول الدعامات، وعند أطراف الشرفات.. آه من شرفات سعيد الفرغاني ومعاناته معها.

هوى إلى أرض المسجد، أغمض عينيه ورأى تفاصيل المكان مطرزة على حائط جصّي داخل عقله.

لم يرَ في مساحة هذا المسجد ولا هيبته؛ مربع ومفصَّل، ومتماثل الأجزاء، ربما كمعادلات الخوارزمي التي سمع عنها من زوجته.

يتوسط المسجد صحن كبير لا يفصله شيء عن نجوم السماء، يرى في مخيلته استحواذ الشمس على الفناء وأصابعها التي تكاد تشكل أطراف الإيوانات الأربعة. أكبر إيوان هنا أمامه، إيوان القبلة، يحتوي على خمسة أروقة، لو خرج رجل من كل رواق لزاغ بصر جند عيسى النوشري وحارت سيوفهم.

رأى وهو مغمض العينين خمسة محاريب جصّية يستطيع الاختباء بها عربي ملثم ربما. وكيف سيهرب من السور الكبير الذي يحيطها. لو كان هناك اثنان وأربعون بابًا فالهروب ممكن. ارتكزت عيناه المغمضتان على الزخارف المورّقة على المعابر الخشبية للأبواب. ولو غاص رجلان يُتقنان الجري داخل أروقة

المسجد فلا أمل في الإمساك بهما. تقف الأروقة على مائة وستين دعامة في هذا المسجد بدلًا من الأعمدة الرخامية.

شيدت الدعامات من الطوب الأحمر، تأخذ أركانها الأربعة هيئة عمد ممتزجة، كل دعامة لها تيجان ناقوسية الشكل مكسوّة بالجص المزخرف برسوم أوراق خماسية الفصوص تحيط الدعامات في صفّين، وتحمل الدعائم عقودًا من النوع المدبب على شكل حدوة فرس، وعلى هذه الدعائم يستقر كل هذا المبنى المتسع الذي يريد قاسم الخراساني هدمه اليوم. على هذه الدعامات بنى أحمد حلمه، ونفذه له قبطي من فرغان. آه يا سعيد.. كيف أتقنت هذه الأعمدة؟ ومن أشار عليك بتلك الرسومات؟

في الأعمدة تيجان مزيّنة بالزخارف.. يرتكز عليها سقف الجامع، والمحراب... ما الذي يثير الشجن في المحراب الرئيسي يا ترى؟ لم يرى أمامه لوحًا مكتوبًا عليه اسم من شيد المسجد بخط واضح.. تكاد تحترق عينيه المغمضتين، شيده أبو العباس أحمد بن طولون.. أبو العباس.. الخيانة تبتر كحسام السيف المسموم، تصيب الجسد بالحمى ولا تقضي عليه إلا بعد معاناة. يعرف معاناة أحمد من العباس، عندما ينغرز طرف السيف ويستقر في حشا القلب لا يقتل بل يخنق الأنفاس فقط. إياكِ يا عائشة.. إياكِ أن تفعلي مثل أخيك! ولكنها ربما تظن أنها لو صانت العهد مع الزوج تخون الأب، وبزواجها من الخليفة تنقذ ما تبقى لأحمد.. لو فكرت هكذا..

فتح عينيه فلم يعد يرى تفاصيل المسجد، لم يعد يرى سوى ضوء الشمس الذي يحرق بلا هوادة. نظر إلى جدران الجامع والشرفات التي تعلوها، تشبه العرائس المتشابكة التي تتضرع إلى السماء. ترى ما الذي يحزن تلك العرائس؟ ولِمَ تتضرع إلى السماء؟ ما أحزنك يا سعيد، وما أعجبك يا رجل! كأن روح سحرة

القدماء امتلكتك فبنيت المسجد كما بنى الملك الهرم الذي لا يفنى. يا سعيد الفرغاني حزنك يمتد إلى السماء أكاد أشعر به في خلجاتي ونبض روحي.

تنهد وأغمض عينيه فرأى بوضوح. تلا سورة البقرة كاملة، ثم سورة آل عمران، الاثنتان هنا بداخل المسجد، بخط واضح بارز. اقتربت الساعة، وعليه التفكير السريع.

المئذنة الملتوية لها سلالم خارجية حلزونية مرتفعة تعلوها قبة. في التواء المئذنة نجاته. ولكن في سقوطه منها موت محقق. لا بد أن يفكر جيدًا. يستطيع الاختباء داخل القبة، وعندما يبدأ جنود عيسى وقاسم في تسلق السلالم الملتوية ماذا سيفعل؟

***

وكانت اللحظة التي انتظرها قاسم الخراساني منذ عام أو أكثر. تردد عيسى النوشري وقال إن هدم المسجد سيعمُّ بالخراب على الخليفة، فأخبره قاسم أن كل مساجد القطائع قد هُدمت مع أنها لم تُبنَ بمال حرام مثل هذا المسجد. وعيسى استمر في هدم ما تبقى من القطائع؛ وحرق المنازل والمحال. جهز قاسم المنجنيق وخرج مع رجاله إلى ساحة المسجد مع عيسى النوشري وعساكر الخليفة. لم يخرج المصريون من بيوتهم، أغلق كل رجل بيته على أولاده وعلى الهم يثقل الجوع والعطش. ولكنَّ رجلًا واحدًا خرج وجلس في صحن المسجد وهو بالكاد يستطيع أن ينطق أو يمشي، ولم يعرف أحد مَن يكون. قال عيسى إنه أحد المجاذيب ربما، وإنَّ قتله سيجلب الخراب فلا بد من إزاحته فقط.

حمله الجنود وهو يتذمر ويصرخ ويقاوم ويطلب أن يقابل الخليفة أو والي مصر، أين والي مصر؟ وعيسى ينظر إليه في حيرة، وبعض الجنود تلاحظه عن بُعد، والبعض يجره إلى خارج المسجد ودموعه تتساقط بلا توقف. صاح سعيد

بأعلى صوته وهم يحملونه: انظروا أولًا إلى عرائس السماء.. انظروا إلى من يتضرع إلى الله اليوم..

رفع قاسم يده للجنود للبدء في الهدم، وعلت الأصوات، وعمّت الفوضى وسط الصراخ والصياح وأصوات السهام والسيوف ولم يدرِ أحد بما يحدث حتى غطّى الجنود عيسى النوشري وهرولوا به إلى خارج المسجد، ولكن الرجل المعمر كان يرى وينظر في صمت لما يحدث.

بدا أن بعض الرجال الملثّمين قد اتخذوا من المسجد مكانًا ليختبئوا فيه منذ ساعة أو أقل أو ربما تسللوا إلى المسجد بينما جنود الخليفة تجهز للهدم، وأن أحد الملثمين قد اعتلى سطح أروقة المسجد وهو يتقن الرمي بالسهام؛ ثم صوب سهمه على رأس قاسم بالضبط، بينما أغرق الملثمون جنود الخليفة بالسهام، جرى الملثمون خارج المسجد بأقصى سرعة، انتشروا حول الأبواب ثم اختفوا في ثوانٍ، بعضهم خلع ملابسه وغطاء وجهه والتحم بالمصريين الذين التفّوا وسط ساحة المسجد بسرعة مذهلة منذ أن سمعوا الصراخ، وبعضهم جرى إلى الجبل واختبأ في الكهوف. أمر عيسى بتتبع الملثمين وقتلهم أو القبض على واحد على الأقل.

بدأت سهام الجنود وسيوفهم تضرب في من لم يهرول بأقصى قوّته، فلحقت برجلين قُتلا على الفور، وأزاح جنود الخليفة غطاءهما ليروا وجهيهما، ارتديا رداءً مصريًّا فلم يتعرف عليهم أحد. التفّ الجنود حول قاسم الخراساني، وقد مات فور تلقيه السهم في رأسه.

علت صرخات المصريين، وهتافهم للفرسان الذين أنقذوا المسجد اليوم، قال الرجال إن الله حمى بيته، وإن روح أحمد تحوم حول المكان. قالوا إن العرائس في الشرفات ستحمي المسجد إلى أبد الدهر. لن ينهدم سوى يوم القيامة. بكت النساء على أحمد وكأنه مات للتوّ، لم تزل الذاكرة طازجة ولم تزل اليقظة مرعبة تخيف أهل مصر أنفسهم، لم يتوقعوا أنهم يتذكرون كل التفاصيل، ويقظتهم

أرعبت أيضًا عيسى والخليفة. ازداد التفاف الرجال والنساء حول ساحة المسجد، وتعالت الأصوات، بعضها كان ينعى أحمد، بعضها يدعو له، وبدأت بعض الأصوات تلوم الخليفة والوالي. استمع عيسى أو حاول. فهم الرسالة. وأمر الجنود أن يرحلوا به إلى بيته، وكتب للخليفة بما حدث. اليوم مات قاسم الخراساني، قتله بعض المصريين على ما يبدو. استطاع الجنود قتل اثنين من القتلة، وهرب آخرون. كانوا مائة أو يزيد. كتب عيسى على استحياء أن أهل مصر غريبو الأطوار، يؤمنون بالسحر وبقدرة الملوك القدماء، وبلعنة تصيب من يغضب تماثيل القدماء أو حتى ينظر إليها باستهزاء. كتب أن أهل مصر يقدرون المسجد، وكأنه أحد أبنائهم، وأنهم ظهروا بسرعة البرق حين بدأ القتال، وأنهم سعدوا بمقتل قاسم الخراساني، قال عيسى على استحياء إنه لا يستطيع أن يعاقب كل أهل مصر، وإن الحروب قد أعيتهم بما يكفي. وكتب عن عرائس السماء في شرفات المسجد، لا يعرف لِمَ شيَّدها من بنى هذا المسجد بهذا الشكل، ولم يرَ مثلها في أي مسجد من قبل. لا بد أن وجودها له علاقة ببقاء المسجد. كتب الرسالة في حذر ولم يحضر جنازة قاسم سوى عساكر بني عباس. جاءت رسالة الخليفة سريعة وواضحة.

وأقرَّ الخليفة قرار الوالي بعدم هدم المسجد، ولكنه حرم الصلاة فيه. قال الخليفة إن الزمن كفيلٌ بهدمه، وإن الأمير أحمد بن طولون لا بد سيختفي أثره من على وجه الكون اليوم أو غدًا وسيبقى اسم الخليفة. ولو تجاهلوا المسجد فسيهدمه زلزال أو حاكم بعد مائة عام ربما. قال الخليفة إنه لم يرَ عرائس السماء على الشرفات، ولن يؤمن بسحر القدماء.

***

اختبأ عبد الرحمن في الهرم الأكبر، خسر اثنين من رجاله، سيسأل أهل القبيلة عنهما، وعن سبب المجازفة، لن ينفع الذهب الذي أعطاه له سعيد في كتم صرخات

الأمهات والأطفال. ولكن نظرات الإعجاب والفرحة في عيون المصريين أثملت الرجال الذين لم يتوقعوا هذه الحفاوة وهذا الترحيب بعضهم اختبأ في بيوت المصريين، فضموهم وكأنهم أهل البيت، وعرضوا عليهم الزواج من بناتهم. قالوا إن من أنقذ المسجد بطل جاء من السماء، هو ساحر أو كاهن وليس إنسانًا. من أنقذ المسجد له قدرة تفوق كل السلاطين، هي قدرة مثل قدرة التاريخ وأوتاد الأهرامات ورهبة أبي الهول. مكث في الحرم أسبوعًا، يحث جنود عيسى حول الحرم، سمع أصواتهم تكاد تصل إليه. أيام ثم يعود إليها. لا بد أنها تنتظره. قلبه يحدثه عنها، يقول إنها تخلص له، أليست هي مَن تعلَّم منها الإخلاص؟ أليست هي من تعلم منها الصدق وحفظ العهود؟ أليست هي من تعلم منها العطاء بلا مقابل وبلا انتظار؟ ألم تغمره بتلقائيتها؟ ألم تغرقه بالقبلات بلا حذر وهي تفصح عن حشا القلب بلا خجل ولا مراوغة؟ الأميرة، لا يمكن أن تضعف اليوم. ترى لو تزوجت الخليفة فهل ستحبُّه بنفس الطريقة؟ هل ستغمره بالقبلات؟ هل ستنتظره بلهفة؟ وهل ستحرمه من ابنته طوال عمره الباقي؟ هذه ليست الرحلة الأخيرة، لو تزوجت من الخليفة فسوف ينوي الذهاب إلى بغداد، سيجدها. أقسم إنه سيفعل. يكاد يفقد عقله. الوحدة تفرغ الوساوس من النفس وتثير الشكوك. تارة يتخيل اللقاء، وتارة يتصور زوجته وهي بين ذراعي المكتفي، تارة يصرخ وتارة يُمنِّي النفس، هذا العشق مسٌّ من الجنون. أنقذ الجامع، لا يعرف بالضبط هل فعل هذا من أجلها، أم من أجل نفسه، أم أن روحه لم ترضَ بكل هذا الدمار؟ لم يتوقع يومًا أن يفكر في الدمار ولا البناء ولا أن يهتم بما لا يخصُّه، وربما لم يعرف أيضًا ما الذي يخصه وما الذي لا يخصه. هي مصر، كل بناية فيها له ومنه، هي بلاده ولد بها فأمسكت بتلابيب القلب. غريب أمر القلب؛ تأتيه اليقظة على حين غفلة بينما ينمو الضلال على مدار أعوام. سرق وسطا في الماضي، ظلم ربما ولم يُبالِ، واشتاق لها لحظات الفقد، لم يدرِ بما يخبئه القلب من مفاجآت حتى حانت لحظات اليقظة والندم والحزن والمجازفة. يأتي إليه أحد المصريين كل

يوم بالطعام، اتفق معه الرجال على هذا. من الخطر أن يأتي الرجال إليه الآن. اتفق معهم على أن يعودوا إلى القبيلة قبله، وأن يأتي هو بعد أن يطمئن أن الجنود توقفت عن البحث حول الهرم. أتى المصريُّ بالطعام والشراب، وأخبره أن عيسى قد قرر عدم هدم المسجد بأوامر من الخليفة، ثم قال إن الأنباء جاءت اليوم بخبر زواج الخليفة من آل طولون، وأن العرس سيقام خمسين ليلة في بغداد، قال الرجل إن الخليفة يريد التقرب إلى أهل مصر بزواجه هذا. استمر المصري في الكلام، قال إن قطر الندى المسكينة كان والدها يريد أن يزوجها من «علي المكتفي بالله» الذي كان حينها أميرًا شابًا جميلًا، ولكن الخليفة المعتضد أرادها لنفسه. فماتت كمدًا في قصره، أما عائشة بنة أحمد، نعم هي عائشة بنة أحمد التي تزوجها الخليفة، فلا بد أن من تتزوج الخليفة تكون عائشة بنة أحمد، ابنته ستحيا في هناء مع شاب جميل، وهو خليفة المسلمين أيضًا، يقولون إن المكتفي يحب الشعر، ترى كم قصيدة سيشدو بها في حب عائشة؟ ابنة أحمد ليست ككل النساء.. تكلم المصري وزاد في الحديث، وعبد الرحمن يفتت الخبز بين يديه ولا يعلق، تذكر كلماتها، قالت «كنت أحيا وسط حدائق من الجنة، أنتظر يومًا تتلاشى فيه الوحدة ويستقر القلب الثائر، كنت أعرف أني بين الحجرات الكبيرة حبيسة، وأن مصيري مثل مصير قطر الندى وغيرها من عائلتي ثم جئتَ أنت..» هل يتغير قلب المرأة كتغير المواسم أم أن القدر يأبى أن يشفع للعاشقين؟ ألقى عبد الرحمن بفتات الخبز حول النار فاشتعلت، ولم تُدفئه، ولم تُشبع جوعه.

***

الباب الرابع

خِــلٌّ قَــرِيبٌ بَعِيــدٌ فـي تَطَلّبِهِ — والموت أسهل عندي من تَغَضُّبِهِ
ولي فـؤاد إذا طـال العـذاب بـه — طـار اشـتياقًا إلى لُقيا مُعَذِّبِهِ
يَفديكَ بِالنَفسِ صَبٌّ لو يكون له — أعَزُّ مـن نفسِـهِ شَيءٌ فَـداكَ بِـهِ

البحتري شاعر عباسي

يوم بالطعام، اتفق معه الرجال على هذا. من الخطر أن يأتي الرجال إليه الآن. اتفق معهم على أن يعودوا إلى القبيلة قبله، وأن يأتي هو بعد أن يطمئن أن الجنود توقفت عن البحث حول الهرم. أتى المصريُّ بالطعام والشراب، وأخبره أن عيسى قد قرر عدم هدم المسجد بأوامر من الخليفة، ثم قال إن الأنباء جاءت اليوم بخبر زواج الخليفة من آل طولون، وأن العرس سيقام خمسين ليلة في بغداد، قال الرجل إن الخليفة يريد التقرب إلى أهل مصر بزواجه هذا. استمر المصري في الكلام، قال إن قطر الندى المسكينة كان والدها يريد أن يزوجها من «علي المكتفي بالله» الذي كان حينها أميرًا شابًا جميلًا، ولكن الخليفة المعتضد أرادها لنفسه. فماتت كمدًا في قصره، أما عائشة بنة أحمد، نعم هي عائشة بنة أحمد التي تزوجها الخليفة، فلا بد أن من تتزوج الخليفة تكون عائشة بنة أحمد، ابنته ستحيا في هناء مع شاب جميل، وهو خليفة المسلمين أيضًا، يقولون إن المكتفي يحب الشعر، ترى كم قصيدة سيشدو بها في حب عائشة؟ ابنة أحمد ليست ككل النساء.. تكلم المصري وزاد في الحديث، وعبد الرحمن يفتت الخبز بين يديه ولا يعلق، تذكر كلماتها، قالت «كنت أحيا وسط حدائق من الجنة، أنتظر يومًا تتلاشى فيه الوحدة ويستقر القلب التائه، كنت أعرف أني بين الحجرات الكبيرة حبيسة، وأن مصيري مثل مصير قطر الندى وغيرها من عائلتي ثم جئت أنت..» هل يتغير قلب المرأة كتغير المواسم أم أن القدر يأبى أن يشفع للعاشقين؟ ألقى عبد الرحمن بفتات الخبز حول النار فاشتعلت، ولم تُدفئه، ولم تُشبع جوعه.

***

الباب الرابع

خِـلٌّ قَـريبٌ بَعيـدٌ في تَطَلُّبِهِ ... والموت أسهل عندي من تَغَضُّبِهِ
ولي فؤاد إذا طـال العـذاب بـه ... طـار اشـتياقًا إلى لُقيـا مُعَذِّبِهِ
يَفديكَ بِالنَفـسِ صَبٌّ لو يكون له ... أعَزُّ مِـن نَفسِـهِ شَيءٌ فَـداكَ بِـهِ

البحتري شاعر عباسي

- 11 -

أغمض عينيه وبكى. لم يبك يومًا، حتى يوم وفاة أمه. لم يبك ليس فقط لأن البكاء للنساء، ولكن لأنه دومًا يتجاهل الألم ويخبئه في بئر داخل النفس، يستعصي الوصول إليه. اليوم بكى في صمت. في الأيام الماضية كان اليأس ممتزجًا بشوق عنيف في قسوته يحث على القتل وتفتيت البدن، ولكن اليوم استقر العجز والحزن. وعند استقرار العجز تكون النهاية. نهاية المحاولة والمقاومة. استقرار العجز هو كل الهزيمة. لا لامها ولا كرهها، فقط ترك القلب يلفظ ما يختبئ بالأعماق. يعجبه الهرم، يناسب حزنه، لا هواء يدخله سوى القليل، وفي هذه الأيام أصبح التنفس صعبًا. يستسيغ النوم على الصخور المبتلة والتحديق في عش الخفافيش التي تتحرك في عصبية وتحلق في الهواء معلقة كأنها خنقت للتو. يعجبه البقاء بين الرفات وحول الصقيع. سيتوقف الزمن عن الحراك، وربما يبقى في الهرم مائة عام ولكن بلا كلب يبسط ذراعيه أو صاحب يشاركه الغفلة. هذا زمن الغدر والنوم الطويل. هو زمن لا ثبات له ولا وتد. كيف ينصب خيمته في دنيا تتحرك بسرعة السحب والشموس؟ كيف ينصب خيمته في دنيا تلتف حول رقبته، وتتركه معلقًا في الهواء كالخفاش؟ وكيف ينصب خيمته في دنيا لا وصول فيها ولا طمأنينة؟ آه من معرفة الراهب وجهله هو.. آه من عمر لا محاولة تجدي معه ولا شجاعة، وآه من أيام تتجاهله ولا ترمقه بنظرة واحدة. ظن أن الشموس تدور في فلكه بينما الشموس لا تدري بوجوده ولا تعرفه. ترى، هل فكرت في القسم والعهد قبل أن تستسلم للخليفة؟ تُرى هل تذكرته قبل أن تسافر بعيدًا؟ هل عذبها عمه

لـذا قـررت الهرب؟ ربما حقـدت عليه لأنه لم يسـأل عنها، وربما ظنـت أنه مات. ربما.. لم يتزوجهـا الخليفة، جاءه الأمل على استحياء، طرق بـاب العقل يطلب الدخـول ولم يكن واثقًا أنه يريد أن يسـمح له اليـوم، الأمل يؤلم أكثر من الهزيمة، الأمل يحرق ويهدم أكثر من سيوف العساكر في القطائع. ولكن الأمل فتح الباب، ودخل في خجل ودون أن ينتظر السماح له. لو عاد إلى إسنا ووجدها على العهد! لـو كانـت هذه الأخبار كلها شـائعات! لو ولـو.. ربما تزوج الخليفة من أخرى. ولكـن من تكـون؟ الجنون أيضًا يدخل بلا اسـتئذان. وماذا ينـوي لو عاد فوجد أن زوجته وابنته قد رحلتا؟ هل سيهيم في الصحراء؟ هل سيتبعهما؟ أقسـم أن يتبعها. صاحب الغضب الأمل، وعاد الغيظ يسـيطر، تلاشـى العجز مع احتمال وجودها في إسـنا. طوال بقائه في الهرم توقع أن يرى سـاحرة الهرم، يسمع عنها، يقولون إنها تصاحب الجان، تصفها شـيطان ربما.. تكلم عنها سـعيد.. يناديها في أحلامـه هذا القبطي، اسـمها بحنس، ولكنـه لم يرها. حتى يومه السـابع، عندما دخلت عليه في بطء.

***

قالـت السـاحرة في صـوت يشـبه تغريد البلابـل في حلاوته: جئـت إلى الهرم الأكبر يا عربي ولم تخف. ألم يحذروك من ساحرة الهرم؟ ومن مقابر القدماء؟

رأى عينيها في الظلام، انتصف الليل أو كاد، ظهرت بجمالها المستحيل وبأسها السـاطع. لا أفزعته ولا طمأنت قلبه المجفول.

لم يجب. أغمض عينيه، وأراح رأسه على الجدار.

قالـت في صـوت هادئ: كم رجلًا يأتي إليّ بعد أن يعبـث بعمره، وكأنه ثعبانٌ يعبث بضفدع بين أسـنانه. أنادم أنت أم يائس؟

- خائف. لو ضاعت يضيع عمري.

ساد الصمت، ثم قالت في صوت رقيق: سعيد بن الفرغاني بنى العرائس التي تتضرع إلى الله فوق سور المسجد، تحتضن بعضها البعض، تلتحم أرواحها وتذوب ملامحها. كان يقول لا يمكن قطع ما هو موصول ولا إتلاف ما لا يمكن تقسيمه. تمنى يومًا أن أغفر له. وكيف تغفر لمن قتل الروح؟ لو أن الجسد فانٍ فالروح لابد أن تبقى.

تمتم: سعيد الفرغاني.. يريدني أن أضحي بكل ما أملك.. ويقول لك إنه لم يزل على العهد، يحبك..

ابتسمت ثم قالت: منذ متى يفكر عبد الرحمن ابن الأكرمين في أن يضحي؟ وكيف يفي سعيد على عهد لم نتفق عليه ويضحي بعهد اتفقنا عليه؟ عندما كنت له لم ينصرني، وعندما هجرته نصرني. هكذا هو الإنسان، لا يصيب الهدف إلا في المعارك، أما في الحياة فبصيرته لا تبدو ولا تفوز.

قال في استجداء: قولي لي إنها لن تتركني. فعلت كل هذا من أجلها.

ابتسمت، ثم قالت: تعلمت منها يا رجل ما لا يقدر بثمن. تعرف هذا وأعرفه أنا.

قال في ذهول: ماذا تعرفين؟

- تتكلم معي عن ما أعطيت وما حاربت من أجله، هكذا هم الرجال.. ولكنك لن تتكلم معي عن لحظات ندم وإدراك، ولا لحظات التحام أرواح وغوص في الأعماق. الصعلوك أصبح فارسًا والفارس اتضح أنه صعلوك. هي اخترقت نفسك فرأت الفارس بينما عقلك لم يكن يرى سوى الصعلوك. هي وثقت في قدرتك وضميرك، بينما أنت تعدد غنائمك وتستعد للتخلي عنها. هي علمتك.. كنت تنوي أن تأخذ الذهب، لنفسك، ثم ماذا؟ تركته في مكانه فأخذته هي ولكنها لم تأخذه لنفسها! أعطته لعدو أبيها لتنقذك أنت. ماذا علمتك الأميرة يا ابن الأكرمين؟

- هل ستصون عائشة العهد؟

ابتسمت ثم قالت: هي علمتك أن تصون العهود. وربما تعلمك أيضًا أن هناك عهودًا لا يمكن أن نصونها حتى لو حاولنا.

- لا تريحين النفس بل تشعلين نيرانها. العهد عهد، ونقضه خيانة.

رسمت بأصابعها عرائس على حائط الأهرام، ثم قالت: ولكم من العهود نُقضت. أبلغ سعيد سلامي وقل له ساحرة الهرم لا تنسى الحب ولا التخلي.

- لست رسولًا بينكما، قولي له أنت ما تريدين..

- بل جئت لي برسالة، جئت لساحرة الهرم لأنك خائف يائس. لا لقاء سيجمعني بسعيد إلا وروحانا معلقتان في السماء كعرائس الشرفات.

فتح فمه في فزع ثم قال فجأة: تكذبين يا ساحرة.. ادعيت أنك لا تتكلمين العربية وها أنت تتحدثين بلاغة بني قحطان. هل الكذب من صفات الساحرات؟ أم أن الساحرات لديهن القدرة على فهم كل الكلمات؟ أم أنك تعرفين اليوم أن كل مصر ستتكلم العربية وتنسى القبطية؟

مرت يدها على حائط الهرم وعيناها تلمع بجمال يسر الفؤاد ثم همست: أنت لا تفهم لساني، لذا أحدثك بلسان تفهمه، ولكن الحب ليس بالكلمات بل بالبذل. للبذل لسان خاص، ناهل كالسهام يغرص ويستقر في الفؤاد.

قال في حزن لم يعرف مثله من قبل: هو ناهل كالسهام، ليتها تعرف.. حتى لا تهجر.

ثم التفتت إليه وقالت: عبد الرحمن.. قدم التحية للقدماء. واشكرهم على المحافظة على الأرض والذهب.

قال عبد الرحمن في حسم: أنا حافظت على الأرض والذهب. أنت تعرفين. ما تبقى من ابن طولون.. أنا من ساعدت على بقائه.

ابتسمت وقالت: أنت من ملوك القدماء إذن يا عربي. حتى لو خسرت ابنة أحد. وحتى لو كان لسانك غير لساني.

ابتسمت وتلاشت من أمامه.

***

في الصباح طلب من المصري أن يأتي له بفرس، وأعطاه بعض الذهب. أخذ فرسه، وشرع في رحلة طويلة إلى إسنا، جرى بأقصى سرعة. تلاشت جنود عيسى من حول الهرم منذ أيام. لم يستطع التوقف حتى وصهيل الفرس المتعب يصم أذنيه.

***

اضطر للتوقف بعد سبع ساعات متواصلة. الصبر الآن أصعب من الغضب، وأقوى من كل الجيوش. يلهث وراء الأمل ويخشى اليأس الذي سيتبعه. أقسمت أمامه أنها لن تتزوج غيره حتى لو مات. قالت من قبل إن العهد ميثاق لا يمكن نقضه. ربما كذبت، ربما ضعفت، ربما فقدت الأمل في عودته، ربما تغير حالها بعد وفاة والده. لم يستطع أن يعرف الكثير عنها طوال الأشهر الثلاثة الماضية، كل ما عرفه هو أن والده قد مات، وأن عمه أصبح شيخ القبيلة، وأنها بخير. عرف أنها على قيد الحياة لا أكثر.

لاح بذاكرته يوم رحلت، لم يودعها حينها، ولا أخبرها كم يحبها، لم يقبلها، ولم يطمئن قلبها، غمرته غيرته فأفقدته كل الحنان. الخوف يخرج القسوة، وقسوة الغيرة ليس بعدها قسوة. طلبت منه أن يذهب إلى أمها في اليوم التالي، أن يخبر أمها بما جرى. نفذ العهد. فلم لا تنفذه هي. آه من كلام سعيد..

سعيد دومًا يعرف كل شيء. يحتفظ بالقصة والقصيدة، يفهم العشق والطمع، يقرأ القلوب والنفوس، يرسم مثل الأميرة، ويحتفظ برسوماته وكلماته داخل

حوائط بيته، يقول إن الرسم يطهر القلب من الحقد، يقول إنه عندما كان شابًا، بنى المسجد ليحقق مجده، ويكسب الكثير من الأموال، واليوم لو طلب منه أحد أن يبني المسجد سيبنيه، ولكن ليبقى ويُذكر، وليس من أجل طمع الشباب وأهواء القلوب. فهم عندما مرت السنون. عرف، وتتبع خطوات عبد الرحمن كالذنب الذي لا يغتفر.

ابتسم لنفسه في مرارة اليوم. ربما كان سعيد على صواب. كيف يمكن للصبر أن يكون بهذه القوة؟ وكأنه لو اكتشف رحيلها يكون أهون عليه من انتظار الوصول إلى إسنا. لم ينم. عند طلوع الفجر استمر في رحلته.

لم تزل الرحلة طويلة، وكل ساعة تمر تجعل اللقاء أكثر بعدًا. يحتاج أسبوعًا على الأقل ليصل إلى إسنا. حاول أن يفكر في أمور حياته، في عمه الذي اغتصب مكانه، كيف سيواجهه؟ هل سيتقاتل معه؟ هل سيقتله؟ وهل ستنقسم القبيلة؟ وماذا لو أخبر العم العساكر بأن عبد الرحمن كان يعمل مع محمد الخلنجي؟ ماذا لو وشى به كيف سيتصرف حينها؟ لا دليل لدى عيسى النوشري، ولا لدى عمه، لم يترك وراءه أي أثر. كان ملثمًا طوال الوقت. وماذا ستفعل القبيلة في إسنا؟ هل ستستقر بها ويعمل الرجال في الزراعة؟ لم يعد هناك أمل في الانضمام لديوان الجند، ولا في عودة بيت طولون. لذا لابد من الاستقرار في إسنا. النيل المبارك يكرم أهله حتى لو جف وقسا أحيانًا. التفكير في التفاصيل يساعد على الصبر، يجاهد عقله على التركيز في تفاصيل الحياة، فيعود ثائرًا عليه يفكر فيها هي وفي ابنته. مر اليوم الثاني، ازداد الاشتياق، واقترب الفقد، وتبدد ما تبقى من صبره. أمسك بسيفه لئلا يحارب ظله، يلوح يمينًا ويسارًا، يخرج طاقة لا قبل له بها من الأمل. وكأن الأمل أشرس من كل الأعداء مجتمعة، وكأن الأمل أعتى من الفرس المتوحش.

تذكر كلمات ميسون، قابلها مرة واحدة فقط عند المسجد. جاءت لتخبره أن أسماء أم عائشة كانت تحتضر ولذا اضطرت للرحيل وتركت ابنتها حتى لا تصبح عبئًا عليها وقت الحروب. وقبل أن ترحل ميسون حدقت في عينيه، وقالت: خَف من ظلك يا عربي، فلا عدو للنفس سوى الظل.. لو طاردك هادنه، فلا قدرة لك على محاربته.

لم يفهم كلمات ميسون. ربما يفهم الآن. دار حول نفسه مثلها ربما، ولم ير سوى ظله حوله وها هو ظله يتخلى ويخون.

عائشة، سترتدين الحرير، تجري حول القصر بفرسها الأبيض، تربي ابنتها بين الأميرات في بيت الخليفة ثم تنجب الأطفال من الخليفة فيصبح ابنها هو الخليفة. عائشة..

***

لم يزل الطريق طويلًا، والوصول يبتعد ولا يقترب. انطلق فجرًا، وبدأ يومه الثالث، فكر اليوم في أشجار السفرجل، لا يعرف شكلها. كيف لم يرها من قبل؟ كانت داخل القصر، أتى بها خمارويه من الشام، حكت له زوجته عنها، حكت عن طعم السفرجل بالسكر وعن حلاوة أوراق الأشجار، حكت كيف ظنت وهي صغيرة أن شجرة السفرجل ملك لها وخبأتها بكفيها من كل سوء، كيف مر الزمن وتحطمت الأشجار، واقتلعت من جذورها. ابتسم حينها، يتذكر عينيها وهي تحكي، لمعت عيناها وكأنها طفل صغير، رفعت حاجبيها في حماس، وأشارت بيدها إلى طول الشجرة وعرضها، كان حينها يظن أنه يخدعها ولم يدر أنها هي من خدعته، كان يستمع في حماس ليصل إلى مكان الذهب أو هكذا ظن. اعتاد حكيها دون أن يدري، وانتظر ذراعيها كل ليلة. ثم ابتعد، ظنًّا أن مصيره بين يديه، ولكنه لم يعرف أنها تملك الحشايا والجذور. هي خطيئته، لم أحبها؟ لا يعرف كيف يجيب. وخز الفرس ليجري، وجرى ساعات ثم انتظر الفجر والقلب يرتجف

وبدأ يومه الرابع. إسنا تقترب والأمل يدنو ويبتعد. مع نهاية هذا اليوم، أصاب اليقين الفؤاد فأرهقه، لم ترحل. لا يمكن أن تتركه. حبها صادق، قابلت الهوى قبله وتعذبت به، رسمته فارسًا، وحرقت الرقعة، ثم أعادت رسمها. مستحيل أن تتركه. اختلج الفؤاد ورأى. مر اليوم جميلًا، وكلما حاول الشك الدخول طرده في حسم. نام وهو مطمئن أن الليل قصير، وأن النهار أقصر، وأن اللقاء قادم، سينام بين ذراعيها شهورًا، سيغلق عليها كل الأبواب، سيخبئها من كل العيون، فلا خليفة يصل إليها، ولا الملوك القدماء. بدأ اليوم الخامس في حماس الصبي وغفلة القوي، استمر وهو يفكر في تفاصيل اللقاء، هل سيضمها إلى صدره أم سيغرقها بالقبلات؟ هل ستنهمر الدموع من عينيها أم سيرتجف القلب ويصيح باسمه؟ كيف ستستقبله الأميرة؟ نام في أمان، والأماني تحيطه كأوراق السفرجل، حلم يومها بشجرة السفرجل وبزوجته تطعمه منها. في الحلم أخبرته أنها لم تزل تحبه، وأنه أهم عندها من كل المجد والحروب. استيقظ في يومه السادس واليأس قد نخر في الأعماق، فبعد نشوة الطعام والقبلات بينهما وجدها تختفي وتتلاشى، لن يجدها. عندما يصل سيجد فجوة الفؤاد تنمو أكثر وأكثر حتى تبتلع ما تبقى من روحه. لم يعد يفكر في شيء. محا صورتها كلما تجلت له، ظهر والده وهو يخبره أن أمه قد ماتت، قال حينها: لديك كل نساء البيت اختر أمًّا منهن. نظر إلى والده في حيرة، ما حيره حينها هو عدم دراية الأب بالعجز الذي أصابه، وبأن كلمات الأب لم تعطه القوة بل كشفت مدى الضعف. أي أم سيختارها؟ إحدى زوجات والده؟ أم خالة أم عمة؟ أي أم لن تعوض من رحلت. ولكن الأب لا يفهم، يظن النساء سواء، واحدة تحل محل الأخرى، مثلهن مثل القفطان والعمامة. لا لم يبك حينها. يتذكر عزة توبخه على اللهو حتى وهو في العاشرة، لم يعد يتذكر عزة كثيرًا، ولكنها كانت دومًا أفضل منه. هذا الطريق يطول به وكأن النهاية لن تأتي، لو ترك الدنيا يستريح، ولو تركها قبل أن يثأر لنفسه لن يستريح. أقسم من جديد أن يذهب وراءها إلى بغداد، ولو استطاع قتل الخليفة نفسه يكون أفضل. لا عذر

ها، هي خائنة وليس أكثر. وخز فرسه والحقد يحرق، ويشعل الحماسة للوصول. لم يتبق سوى يوم، سيصل غدًا أو بعد غد. توقف ليشرب الماء ويستريح، تكلم مع بائع الماء بضع كلمات حتى يتأكد أن عقله لم يزل يعمل، سأله لو كان الخليفة قد تزوج حقًا من بيت طولون، قال الرجل في حماس إن الخبر قد انتشر في أرجاء الديار المصرية، وإن الخليفة أذاعه على كل المصريين بهدف استرضائهم. صم أذنيه. ربما يكذب الرجل، ربما وجد الخليفة أخرى من آل طولون. الأمل لن يتلاشى. ربما تلاشى. صاح لقلبه.. فلتستيقظ يا مجنون! يقولون لك الخليفة تزوج من آل طولون وأنت تفكر في العرائش المتشابكة على جدار الجامع! ما أشبهك بسعيد.. تتأرجح ما بين الجنون والأمل ويسيطر الظل ويتحكم. فلتستيقظ يا عبد الرحمن، ابنة الأمير ليست لك. لم تكن لك سوى لحظات اليأس والهزيمة. الأميرة تتزوج من خليفة.

دخل مسجدًا صغيرًا، واستلقى على ظهره، وأغمض عينيه، بدت بعيدة، تذكر يوم أخبرته بمكان الذهب، ويوم طلبت منه أن يذهب إلى غزة، ويوم جازفت بحياتها وزارته في سجن ابن سليمان. عند صلاة الفجر صلى وراء الشيخ، ثم جلس لحظات يستجمع شجاعته للاستمرار في الرحلة، ما ينتظره ربما يقضي على ما تبقى من نفسه. قال الشيخ في رفق: تبدو مهمومًا. هل تحتاج إلى مساعدتي؟

قال عبد الرحمن: أحتاج إلى مساعدته هو.

- أنت راحل إلى بيت جديد أم عائد إلى بيت قديم؟

- لست متأكدًا بعد يا شيخ، ضاقت بي الدنيا، حاربت، وانهزمت، ثم انتصرت انتصارًا صغيرًا ثم وجدت نفسي في معركة مع من هو أكبر وأقوى.

- أي معركة هذه؟ تبدو لي رجلاً قويًا لا يقوى أحد على هزيمتك.

قال عبد الرحمن: تصور نفسك يا شيخ تقف في معركة أمام كل جيوش الخليفة، وكل قوته وقدرته وحدك. ماذا ستفعل حينها؟

- أترك أمري لله، ولكن لِمَ أدخل في معركة لا قبل لي بها؟

- ربما لأن الأقوى يريد أن يأخذ كل ما تملك بينما يملك هو كل شيء.

- لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، لا تيئس من رحمة الله. أتعرف قصة أنس الصياد؟ لم يزل أهل مصر يحكونها كل يوم. أنس الصياد تحدى والي الخراج وتزوج ميسون الجميلة. ولكنه لم يهنأ بانتصاره. يقولون مات بعد موت ابن المدبر بقليل. لذا حتى لو رحلت عنك حبيبتك لا تيئس. فالفرج هين عليه مستعصي عليّ وعليك.

- أثق في رحمته ولكن لا أعرف لو كانت ستصون العهد، أم سترضخ للقوة والجيوش.

بقي الشيخ صامتًا، وكأنه لا يفهم بالضبط عن ماذا يتكلم عبد الرحمن.

فقال عبد الرحمن وهو يغير الموضوع: يقولون إن أحمد بن طولون قد حلم حلمًا منذ زمن، بأن الله تجلى لمدينته بكل ما فيها ولم يتجل لمسجده. لكم حيرني هذا الحلم. هل لديك تفسير له يا شيخ؟

- كنا نتكلم عن الخليفة، والآن تتكلم عن الأمير أحمد بن طولون. من تكون يا بني؟

- هل عندك تفسير يا شيخ؟

- إذا تجلى الله للجبل هبط خاشعًا من خشية الله، ولو تجلى الله للمدينة ولم يتجلَّ للمسجد فهذا معناه أن المدينة ستختفي والمسجد سيكون هو كل ما يبقى مما بناه الأمير. هي رسالة. أيهمك أمر المسجد؟

- لم يكن يهمني في البدء، ثم أصبح يعنيني، ربما من أجلها، وربما من أجل عهد أخذته على نفسي، ولم يسمعه أحد.

- أهي من تصيبك باليأس؟

- ربما.

- مع أني لا أعرف عن ماذا تتكلم. ولكني أعرف حزنك وأشعر به، لو كانت لك فلا يوجد من يستطيع أن يأخذها منك حتى لو كان الخليفة، ولو لم تكن لك فلا حرب تنفع ولا شفاء يشفع. هو قضاء الله في الحالتين. اترك حملك عليه، وامض في طريقك. إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون.

قام عبد الرحمن ليرحل، فسأل الشيخ: اصدقني القول يا بني، أحد الأغنياء الأقوياء في قريتك يريد زوجتك أليس كذلك؟

- هو كذلك يا شيخ.

- هل يمكن أن تشكوه إلى الوالي مثلًا.

تنهد عبد الرحمن ثم قال: ربما..

صمت الشيخ برهة ثم قال: ولكن لو رضخت هي للأقوى لا تلُمها، فربما لم يكن لديها اختيار. سامحها.

قال عبد الرحمن في صوت خفيض: ساحرة الهرم تقول، إن الجسد فان فيمكن أن تسامح من قتله ولكن كيف تسامح من قتل الروح؟

ابتسم الشيخ في مرارة ثم قال: غضب الشباب يسيطر على الحواس، ويجعل الفهم مستحيلًا. ربما بعد عشرة أعوام ستسامح.

صمت عبد الرحمن، وخطوط العمر تبدى على عينيه. فأكمل الشيخ: تذكر أن الله رحيمٌ.

- الله رحيم، ولكنني لست رحيمًا. لا تشغل بالك بحالي، هو قضاء الله كما قلت.

ترك الشيخ، استمر في الجري بفرسه.

سيحاول أن يصل غداً حتى لو جنّ عليه الليل. يعرف مكان بيت ابن عمه سالم، لا بد أن القبيلة قريبة من البيت. لم ينم في ليلة اليوم السابع، اخترق الأمل كل الحواجز، انقض على الحواس والدماء في عروقه فلا شفاء منه، سيصل، وسيجدها، وستبدأ حياتهما ولن تنتهي. الأميرة ليست ككل النساء كما كانت أمه ليست ككل النساء. لا يمكن استبدالها، ثم أنّبه عقله على التفكير بها هي فقط، وكأنه ليس برجل قوي، وكأنه مجنون أو مهووس، لا بد للرجل ألا تشغله امرأة عن كل العالم. لا بد أن يفكر في الخيول والسيوف والحروب والانتصار، لا بد أن يبقى الذهب، ويلملم الدنانير والفضة، ينجب الذكور ويتأكد من وجوده أبد الدهر في أولاده، ثم يستمتع بكل النساء، فلديه الفضة والذهب، ويأمر الرجال، ويقود. ما الذي حل به؟ لِمَ يفكر فيها هي فقط وكأنها كل الكواكب والشموس؟ لِمَ تعلو الدقات ويسطو الشك ويخرب؟ أي سارق يسطو على يقين الأمل، هل أصابه الجنون أم لم يصبه بعد؟ لِمَ يطارده ظل شرير يمتص دماءه كلما تحركت الشمس من موضعها؟ اقترب من إسنا. توقف يلتقط أنفاسه، ويتأكد من سلامة عقله. انتصف الليل ولم يستطع أن ينتظر النهار. وصل عند بيت سالم، ربط فرسه، وتوقف برهة يفكر: هل يبحث عن القبيلة حول البيت أم يوقظ سالم؟ هل يسأل سالم أولاً لو كانت زوجته بخير قبل أن يبحث عن القبيلة حتى يستعد للمعرفة أم يبحث عن القبيلة؟ قرر أن يبحث بنفسه عن القبيلة، لن تبتعد عن بيت سالم، سيطر الصمت على كل البيوت وكأن هذا البلد بلا نفوس وبلا صراعات، حتى الأشجار لا تتحرك، تغمر الطرق في بطء وهدوء. ربما مات وبعث. ابتعد عن الأشجار، واتجه إلى الصحراء. ربما انتهى العذاب والشك والشوق واليأس والأمل. آه من عشق يقتل بلا رحمة. وجد مكان القبيلة، عرف الخيام والبيوت الملتصقة بها. دخل بفرسه وتوقف في منتصف الصحراء حيث نصبت خيام القبيلة، واتخذ رجالها البيوت. نادى على أهل البيت. طرق الأبواب

في قوة. خرجت له عزة. عرفها حتى وهي ترتدي خمارها. وعرفته حتى وهو ملثم. التقت أعينهما، ابتسمت ربما ثم قالت: ظننتك قُتلت منذ زمن.

نزل من على فرسه، وأزاح الغطاء ثم قال: أين زوجتي وابنتي؟

صمتت برهة.

أعاد السؤال في عدم صبر فقالت: لم تلقِ عليّ السلام يا ابن العم.

- لم تجيبي سؤالي يا ابنة العم.

- جئت تبغي الخراب إذن.

اتجه إلى باب الدار، ثم قال وقلبه على مسمع منه: أهي بالداخل؟

لم تجب عزة.

قال في حدة: لِمَ لا تجيبين؟

- ولِمَ أجيب يا ابن عمي؟ هل أنا حارسة زوجتك؟ ابحث بنفسك عنها.

نظر إليها وقال: عزة، كان الطريق طويلًا، لك مني السلام..

قالت في ألم: لا سلام يأتي منك يا عبد الرحمن، لك مني العذاب والفقد والألم.

- أين هي؟ هل رحلت؟

ثم دخل البيت فقالت مسرعة: هناك نساء بالداخل. توقف عن...

استيقظ والدها، وخرج، ونظر إلى عبد الرحمن برهة ثم قال: لا مكان لك هنا.

قال عبد الرحمن في حدة: بل مكاني هنا. وقبيلتي هنا. أين زوجتي؟

قالت عزة مسرعة: هي بالداخل. نائمة.

ارتجف قلبه، ثم هدأ. خاف أن تكون عزة لاحظت رعشة عينيه الطفيفة أو نبضات جسده. هي هنا، لم تخن ولم ترحل. هي هنا بالطبع. ماذا توقع من الأميرة؟ عاهدته ووفت بالعهد.

قال في رفق: أريد أن أدخل إليها.

قال العم: في الصباح.

فقال في تصميم: الآن.

أمسكت عزة بيد والدها، وقالت في رفق: اتركه يراها يا أبي. أنت شيخ القبيلة، وقد حافظت عليها حتى وهو غائب.

تنحى الأب جانبًا، ثم قال لعزة: يدخل لها ثم يرحل بأسرع وقت.

لم يجب، اتجه بعينيه إلى حجرتها، فتحت عزة بالمفتاح فقال في دهشة: أتبقينها حبيسة؟

- أبي يغلق الباب على كل النساء. فلتحمد ربك أنها بخير.

لم يهتم بكلماتها، عيناه كانتا مصوبتين ناحية الباب، دخل، ثم أغلقت عزة الباب عليه، ووقفت عزة برهة وراء الباب تبتلع دموعًا لم تتساقط، ثم ذهبت إلى حجرتها.

ما إن أغلق الباب حتى استيقظت، تعرف رائحته وروحه، تشعر به في الظلام، همست وهي تحتضن نفسها: عبد الرحمن..

اتجه إلى الأرض حيث تنام، وحملها بين ذراعيه بلا كلمة. أجمل ما في الظلام أنه يخفي الضعف والانكسار، ويخفي الشوق الجبار واللهفة الظالمة. ضغطت على كتفيه بكل قوتها، واعتصرها بين ذراعيه حتى كادت تختنق ولم تبالِ، حكت خدها في رقبته، وقبّل وجنتها، ثم استمر في عناقها ساعة ربما أو أكثر.

بدا أن دموعها لم تتوقف طوال الساعة، سمعها تنشج بين الحين والآخر، شعر بالدموع على رقبته ووجهه ولم يجففها، ولم يسألها عن السبب.

سكن بين ذراعيها بعد عمر من التيه. وجدت الأمان بعد عذاب وذل. ما دام هو معها فهي الأميرة، وعندما تركها أصبحت جارية بين قسوة الفقر وقهر النساء. عاد لتلقي كل حموتها بين ذراعيه، عاد لتبكي على كل الأيام الماضية، عاد لتتحرر من عبء ثقيل.

بعد أيام من الجنون، لم يعد يريد سوى أن يحتضنها في صمت، لو بكت فلا بأس، فهي تبكي على صدره وبين ضلوعه. ترى هل شعرت بوسوسة الشيطان في أذنيه، هل تعرف شيئًا عن الجنون الذي تملكه؟ هل توقعت أن يهيم بين الصحراء يفيق من لفحة الهواء، ثم يغمره الغبار فيختنق بلا موت. هل توقعت هذا؟ هل تصورته؟ قال سعيد إنها سترحل. لم قال هذا؟ أراد أن يشق بسيفه صدره. ما أحنّ ذراعيها، وما أرقّ نبضات قلبها.

سمع صوتًا خفيفًا: عبد الرحمن، أبي لا يريدك هنا. لابد أن ترحل، وتأتي في الصباح.

ابتعد عنها بعض الشيء، فتشبثت به وهمست: لا تتركني.

قال وهو يدفع بها إلى صدره من جديد: أقسم إنه لن يحدث. لن أتركك.

قال: اتركيني معها اليوم، غدًا نتكلم.

قالت عزة: لا أريد أن تحدث مشاجرة اليوم يا عبد الرحمن، اترك الدار، ليس مُرحبًا بك هنا.

ابتعد عنها في رفق، وحمل ابنته النائمة وقبّلها، ثم قال وهي تمسح دموعها: هيا معي، سنخرج من هنا معًا.

أمسكت بيده بكل قوتها، وفتح الباب وهو يحمل ابنته ويمسك بزوجته، ومر أمام عزة بلا كلمة. استوقفه العم أمام الباب، ثم قال: خذ زوجتك وابنتك واترك هذا البلد.

أمسكت عائشة بذراعه بكل طاقتها، ودموعها لا تتوقف.

قال عبد الرحمن: سأنصب خيمة هنا، لو أردت قتلي سيشهد عليك كل رجال القبيلة، سآخذ زوجتي وابنتي وكل من يريد الانضمام إليّ..

لم ينتظر الإجابة، خرج من البيت وهي معه، ثم توقف في منتصف الصحراء حيث خيام قبيلته، خرج بعض الرجال يرحبون به ويساعدونه على نصب خيمته. تهامس الرجال، بعضهم لم يتوقع عودته، بعضهم فرح بعودته، وبعضهم سئم الحروب، وبعضهم لا يريده هنا. نصب الخيمة وهي تمسك بابنتها وتنتظره، ثم أعطاه أحدهم الغطاء، ودخل خيمته وهي وراءه. هوت إلى الأرض، ووضعت ابنتها بجانبها. أغلق الخيمة، وأوقد شمعة، وعانقها من جديد في قوة لا قبل لها بها. قال في لوم: هل ظننت أني لن أعود؟ ظننت أني سأتركك للخليفة؟

ولم تجب. قال في ألم: كدت أفقد عقلي.. لو تدرين.. لو تشعرين.. لن أسامحك على عذاب شهور بين يأس وأمل، وعمري بين يديك إما أن تذبحيني وإما أن تبقي على حياتي. لن أسامحك!

قالت في دهشة: وهل ظننت أني سأنقض عهدي معك؟

نظر إليها فقالت: عندما عاهدتك، عاهدتك بما أطيق، وليس بما لا أطيق، لا أطيق فراقك. كنت قد عاهدت نفسي أني لك سواء كنت ميتًا أو حيًّا.

- الموت فراق يا أميرة.

- بل الموت سفر على موعد باللقاء، هكذا قال أنس بن الصياد لزوجته الجميلة ميسون. أمي حكت لي حكايتهما. لو مت كنت سأنتظر اللقاء ولن يلمسني سواك، سيبقى أثرك على جسدي وروحي.

قال وهو يقبل كتفها: أنقذت روحي لو تعلمين.

قالت في حسم: ولكنك عدت. لن تموت اليوم بسبب القبيلة. فلتذهب القبيلة للجحيم. أريدك معي حيًا.

تحسس عظام كتفها فجأة، ثم ابتعد وحاول أن يرى ملامحها في الظلام، بدت مرهقة باهتة نحيفة.

قام، وهو يسب، ويلعن، وخرج من الخيمة، وطلب من أحد رجاله إحضار الطعام؛ أحضر الرجل الخبز واللحم واللبن. وضعه عبد الرحمن أمام زوجته فالتهمت كل الطعام في ثوان وهو يتفحصها لأول مرة منذ عاد، ينظر إلى يديها والجروح التي تغطيها، ثم نظر إلى ذراعيها الرفيعتين، ثم إلى عينيها اللتين غاصتا داخل وجهها. حدق فيها في فزع ليس بعده فزع. بعد أن انتهت من الطعام، فرش لها الغطاء ثم شدها إليه فطوقت رقبته، وأغمضت عينيها، وراحت في نوم عميق وكأنها لم تنم دهرًا. بقي هو مستيقظًا يستوعب ما حدث، ويحاول أن يفهم ما تحملت. تكلمت في نومها، تأوهت، ثم قالت وهي تضغط على صدره: هل عدت يا عبد الرحمن؟

قال وهو يمسك بيدها التي استقرت على صدره: عدت.

بعد ساعتين من نوم هادئ، حلمت خلالها بحديقة قصرها، سمعت صوته يهمس وهو يقبلها: اشتقت إليك كشوق العين للقناديل في ليال دُجَى.

غاص بداخلها بلا مقدمات، اكتملت وهو بداخلها، تأكدت أنه ليس حلمًا. أرادت أن تبقيه قطعة منها داخل الجسد والنفس بقية العمر.

بدا أنه يفكر في نفس الشيء قال: لو بقيت بداخلك هكذا أضمن أننا لن نفترق فتهدأ نفسي.

تمتم حين الاكتمال: وكأنك تقتلينني كل يوم، كل ساعة، امتلكتِ وقبضتِ على الروح فلا مفر.

لم تسمع زوجها يقول كلمات كهذه قط، ولم تعرف كيف تجيب، فآثرت الصمت، وضمته إليها وكأنها تريد أن تبتلع قلبه في جوفها.

عندما انتهى، جلس ونظر إليها برهة في ضوء الفجر، ثم قال في صوت أخافها: من فعل هذا بك؟

قالت في صوت مبحوح: فعل ماذا؟ أنا بخير..

قال في غيظ لا تدري لو كان موجهًا إليها أم لغيرها: أنت لست بخير.

اقترب منها، أمسك بكفها، فتحه ونظر مرة أخرى للجروح التي تملؤه، ثم نظر من جديد إلى عينيها الباهتتين اللتين توغلتا داخل الرأس، والهالات السوداء تسيطر على كل وجهها، وجسدها النحيف بلا لون وقال في صوت أخافها: سأذبحه الآن. هو وكل رجاله.

قالت في صوت مجهد: هل يمكن أن تضمني مرة أخرى.

- ليس قبل أن أذبحه.

مدت يديها، وقالت: أرجوك أن تضمني. أحتاج إليك الآن.

تردد قليلًا ثم قال: لم يعطوك حتى غطاء.

ألقت برأسها على صدره، وأحاطت كتفيه.

بقي متجمدًا لا يستطيع أن يهدئها، ولا أن يضمها. ظن أن الخليفة سيتزعها منه، ولم يتوقع أن يذلها أهله ولا أن تجوع وتتعرى بينهم.

أمسكت يده، وضعتها على كتفها وقالت: أنا بخير وابنتك بخير.

قال في حدة والغضب مصوب لنفسه وليس لها ولا لهم الآن: لا تكذبي. احكي لي كل شيء منذ تركتك وحتى الآن.

أحاطت رقبته ثم قالت: عم الجدف علينا جميعًا، كنت أغزل، وأنسج، وأبيع لأساعد أهل القبيلة. عزة أصبحت صديقًا وسندًا. لم أرَ خالصة. أتمنى أن أراها.

- هل سجنوك؟

- لا، لم يحدث.

بدا أنه لم يصدقها، أو ربما لم يسمعها، قبل شعرها، وقال: سيدفع الثمن. من فعل هذا بك سيدفع الثمن. من ذل زوجتي سيذبح أمام الرجال. هي خطيئتي. لم أخطط لهذا اليوم، تركتك مع لصوص وقطاع طرق وليس مع أهل. هي..

قاطعته وقالت: لن تحارب أهلك. لن أسمح لك.

قام، وهو يقول: نامي بعض الوقت.

قالت: أريدك معي.

- سأكون معك بعد قليل.

قالت في تصميم: لا تحارب عمك.

نظر إليها نظرة أخافتها، ثم قال: نامي يا عائشة.

قالت وهي تحتضن ابنتها: أرجوك أن تستمع لما حدث. أعطني فرصة أشرح لك.

نزع يده من يدها، واختفى من أمامها.

راحت في نوم عميق، ثم استيقظت، فأكلت من جديد وشربت حتى امتلأت، وانتفخت بطنها ثم نامت.

استيقظت وعقلها مشوش والناس تمتزج بعضها ببعض. عزة وعهدها وأمها التي لم ترها ولا وقت بالوعد وقابلتها عند باب المسجد، زوجها يتلاشى من أمامها وتبقى الصحراء طويلة بعيدة ممتلئة بالأحجار، سليمة وصوتها القاسي والخبز، قطع متناثرة تملأ الخيمة، هي غارقة في لبن وماء، والخبز حولها وصرخات ابنتها لا تتوقف. أهذا حلم يا ترى؟ الصرخات لا تتوقف. أرضعت الطفلة وهي نصف واعية، وراحت في نوم عميق مرة أخرى وكأنها لم تنم منذ ثلاثة أشهر.

***

استيقظت على صوت خالصة الذي افتقدته، قالت وهي تدخل الخيمة: افتقدتك يا بنت أنت وطفلتك الجميلة، ثم أمسكت خالصة بالطفلة وابتسمت لها قائلة: ما هذا الوجه الحسن..

قالت عائشة في ريبة: أين عبد الرحمن؟

- الرجال مثل الأطفال يحاربون على أتفه الأسباب، اتركيه الآن وأخبريني كيف حالك؟

قامت، وارتدت خمارها، وخرجت من الخيمة تبحث عنه. بدا أن أهل القبيلة تجهز لمعركة، جمع عبد الرحمن الرجال وتكلم معهم، أخبرهم أنه هو من اتفق مع سالم على استقرار القبيلة في إسنا، وأن الأب عهد إليه بمسئولية القبيلة، فاتهمه العم أنه غير مسئول وأنه ألقى بالقبيلة إلى التهلكة، فقد مات عشرة رجال بسبب الحروب التي اشترك فيها عبد الرحمن، ولم يأخذوا من الحرب لا مال ولا غنيمة. قال العم: إن عبد الرحمن لا أمان لقراراته. فقال عبد الرحمن إنه صان العهد الذي أخذه والده موسى مع أحمد بن طولون، وإن صيانة العهد واجب، قال إنه حارب لينقذ مسجدًا من بيوت الله من الهدم، وإن إعمار الأرض هو لب الدين. التفت النساء حول الخيام يشاهدن في صمت.

فقال العم في حسم: عبد الرحمن هارب من الخليفة، يمكن القبض عليه اليوم أو غدًا. سيبحث عنه عيسى النوشري وسيجده، وعندما يجده سيقتله أو يسجنه، كيف له أن يتحمل مسئولية القبيلة؟

قال عبد الرحمن: لو كنت تنوي أن تشي بابن أخيك فلابد للرجال أن تعرف. ستكون سابقة عند كل القبائل أن يشي أحد الرجال بدمه إلى الحاكم.

ساد الصمت، فقال العم في استنكار: هذا لن يحدث. ولكن ليس لك مكان هنا يا عبد الرحمن.

- بل مكاني هنا.

- سالم الذي اتفقت معه هو الآن زوج ابنتي.

- المصاهرة لا تعني نقض الوعد. هي قبيلتي وهم رجالي.

- سأقتلك بيدي.

اقترب منه عبد الرحمن، ثم قال بصوت منخفض: سأذبحك على ما فعلته بزوجتي. لن يكفيني القتل يا عم.

***

دخل عبد الرحمن الخيمة وهو يجهز لمعركة بالسيف مع عمه، بعض الرجال انضموا لعبد الرحمن لكره كامن للعم منذ أعوام، وبعضهم انضم للعم لأنه أكبر سنًا. حاول الرجال أن يثنوا عبد الرحمن عن محاربة عمه ولم يفلحوا.

أمسكت زوجته بذراعه، وقالت في لوم: لم تفعل بي هذا؟ وجدتك بعد ثلاثة أشهر من العذاب ثم تحارب من جديد لتموت وتتركني لهم؟ كيف تفكر؟ ليتك لم تأتِ، ليتك لم تعطني الأمل، لم لا تترك هذا المكان؟ لم تصمم على الموت؟

لم يجب، قالت في رجاء: أرجوك لا تفعل هذا بي مرة أخرى.

نظر إليها، ثم قال وعيناه لا تراها، ورغبته في الانتقام تغمر كل النفس: سأعود، لا تقلقي.

قالت في حسم: هو عهد أعطيته ألا تقتل عمك.

- عهد لمن؟

- لمن أنقذت حياتي، لعزة.

- لا شأن لي بعهدك.

وقفت أمام باب الخيمة، وفتحت ذراعيها ثم قالت: لو قتلت عمك فلن أعيش معك. سأرحل.

نظر إليها في فزع، ثم قال وهو يشدها لتجلس أمامه: من ضربك؟

بلعت ريقها ثم قالت: لم يضربني أحد.

- تكذبين. هل ضربتك عزة أم سليمة؟ لو لم تخبريني فسأعرف.

بقيت ساكنة، ثم قالت مرة أخرى: قلت لك لو حاربت عمك فلن أعيش معك.

صاح في وجهها وهو يتجه إلى الباب: لا تهدديني. سأحارب عمي وسأقتله، وستعيشين معي.

قبل أن تنطق، خرج من الخيمة.

سار زوجها ووراءه رجاله، وسار العم ووراءه رجاله. أخرج كل رجل سيفه، فجرت بكل قوتها وهي تتوقع انفجار زوجها فيها هي الآن. وقفت أمامه وهو يشهر سيفه، وقالت في حسم: لا تقتل عمك. هو عهد أعطيته لمن أنقذني والعهد دين.

قال في صوت يخيف السباع في الصحراء: سأقتلك أنت الآن لو لم تبتعدي يا امرأة.

قالت: اقتلني لو أردت. ولكنني أعطيت عهدي لمن أنقذ حياتي.

تجاهلها فقال العم في تهكم: هل اتفقت مع زوجتك أن تتدخل لأن جبنك يمنعك من أن تحارب يا ولد؟

دفع بها جانبًا، فوقعت على الأرض، ثم أشهر سيفه من جديد، وبدأت المعركة بين الرجلين، وهي تشاهد في خوف، وعيناها تبحثان عن عزة. وجدتها. نظرت إليها عزة في لوم. فرفعت كتفيها وهي تقول: ليس بيدي!

أصبح نبض الرجلين على مسمع من النساء وعرقهم يتساقط، والرغبة في القتال تفوق رغبة ابن آدم في قتل أخيه.

صاحت بصوت قوي: لا تقتل عمك. أعطيت عهدي يا عبد الرحمن.

بدا وكأنه لا يسمعها، جرح ذراع العم بسيفه، وقال وهو يصوب سيفه على قلب العم: لا تحترم حرمة النساء ولا صلة الدم، عاملت زوجتي كالحيوانات، ربما رحمتك لو كنت رحمت امرأة وحيدة بلا سند ولا زوج..

هذه المرة سمع صوتًا آخر. اقتربت عزة من والدها ثم قالت في رجاء: لا تقتل أبي يا عبد الرحمن.

توقف برهة وسيفه لم يزل مصوبًا إلى قلب العم، وقال وهو لا ينظر إليها: لا شأن لك بهذا.

همست: لا تقتل أبي يا ابن العم. يا مالك القلب منذ البداية.

لم يسمعها غيره. تردد قليلًا.

أمسك بسيف العم ثم قال في قوة: لا مكان هنا يسعنا معًا. إما أن يبقى ربيعة وإما أن أبقى أنا. هذا مكاني وأنا من اتفقت مع أهلي هنا على اللجوء إليهم. من يريد الرحيل مع ربيعة فليرحل، ومن يريد البقاء هنا معي فليبق.

فتح العم فمه، فقال عبد الرحمن في حسم: لو أردتها حربًا فسأحارب، ولكنني لا أريد إراقة دماء عصبي وعشيرتي.

قال العم وهو يقوم: سنتشاور في الأمر.

فقال عبد الرحمن: ولا تغدر، فلو غدرت لا أمان لك، ولا لمن سينضم إليك.

التقت عيناه بعيني عزة هنيهة، وعائشة تنظر إليهما في عدم فهم، ثم أمسك بيد عائشة، وشدها إلى داخل الخيمة.

صاح فيها أمام خالصة: تخرجين وتتحدثين أمام الرجال، وتعصين أمري.. أين ذهب عقلك؟

قالت في إصرار: قلت لك أعطيت عهدًا.

ثم قالت في حنق: أعطيته لحبيبتك التي استمعت إليها اليوم، ولم تستمع إليّ.

ابتسمت خالصة ابتسامتها الممتلئة بالسخرية، وقالت: النساء..

ثبتت عينيها على عينيه ثم قالت: هي تحبك. لم تزل تحبك حتى بعد أن تزوجت. الصدق يخرج من المحب أكثر من الكذب يا زوجي.

قال وهو يثبت نظره على الأرض: لابد من معاقبة سنيمة.

- عبد الرحمن، إياك. لم يكن قرارها وحدها. تعرف الجفاف الذي حل، والحرب والغلاء. جئنا نطلب مساعدة أهلك هنا ونحن لا نملك الكثير. لو عاقبت ابنة عمك فستفتح دائرة من الكره لن تنتهي.

قال وهو لا يراها ولا يسمعها: تجلد ثمانين جلدة على ما فعلت بك.

قالت في تصميم: لم تفعل شيئًا.

قال في عدم صبر: لا تكذبي، أتظنين أني لا أعرفها؟ الكره والحقد يتحكمان في كل تصرفاتها. لابد أنها عذبتك.

قالت: هل تراني؟ هل تهتم بأمري؟ أحتاج إليك الآن ولا أحتاج إلى انتقامك. لو نظرت إليّ تفهم، ولكنك لا ترى سوى نفسك وكرامتك و.. لو كنت شيخ القبيلة فلابد أن تفكر بحكمة.

تردد قليلًا، ثم جلس أمامها، فأخذت خالصة الطفلة وخرجت من الخيمة. وقال: سأبقى بعض الوقت، ولكن لابد أن تدفع سليمة الثمن هي وربيعة. الجلد أقل عقاب، القتل والتقطيع كان أفضل.

قالت في رفق: لو رحل عمك وعائلته نتخلص منهم إلى الأبد. ولا نولد الثأر لأولادنا. كنا في ضيق، وفقر، ورفقت عزة بحالي وساعدتني.

أمسك بيدها، ونظر إلى تورم كفيها، وإلى الجروح بهما، فوضعت رأسها على صدره في بطء، وقالت في صوت مبحوح: ظننت أني لن أراك مرة أخرى. عندما تنتصر ترحم يا عبد الرحمن.

تمدد على مخدعه، وحملها معه فطوقت رقبته، وقالت: كنت أتمنى ذراعيك وسط كل الذل، أتمنى فقط أن أخبرك كم أحبك!

ثم مرت بيدها على وجهها، وقالت: أنا لم أعد جميلة كما كنت، أليس كذلك؟

ابتسم، وهو ينظر إليها في إعجاب: أنت أجمل مما كنت. أين طعامك؟ أريدك أن تأكلي طوال الوقت لتعوضي شهورًا من الجوع.

نظر حوله إلى طبق الطعام، ثم أمسك به، ووضعه أمامها وقال: هيا، لا تتوقفي.

قالت فجأة: أمي.. هل قابلت أمي؟

اعتدل في جلسته، وقال في وجوم: لم تأت يا عائشة.

- ربما لم تذهب.

- بل ذهبت بنفسي وانتظرت.. قابلت صديقتها ميسون، هي ماتت. سأحكي لك كل شيء.

حكى وهي تستمع في صمت، والدموع لا تتساقط، ثم قالت: وإبراهيم، أين هو؟ أنت فقط تعرف مكانه. هل سأراه؟

قال: عندما يحين الوقت. ليس الآن. المسجد قائم يا أميرة. لم يمسسه شر. وقاسم الخراساني مات.

أحاطت وجهه بكفيها، ثم قالت: يومًا سأحكي لابنتي عنك، عن الفارس والبطل، عمَّن لم يعرف حجم وعمق روحه ورأيتها أنا أولًا، عمَّن ظن أن غايته هي العيش في لعب ولهو وهو لا يدري أن نفسه تتوق إلى ما هو أعظم. سأحكي لها عن محارب ملثم لم يهتم بذيوع صيته ولا بكلمات إطراء، انطلق من بين حنايا الصحراء ليحافظ على ما شُيد وما سيبقى. سأحكي لها كيف تنكشف حقيقة الذهب عند الانصهار، وكيف تولد البطولة في وسط الخراب في لحظة تلقائية يختار فيها الإنسان الحياة ولا يغريه الدمار.

أمسك بيدها وقبلها قائلًا: وهل ستخبرينها بأنك أميرة؟

قالت في فخر: سأخبرها بأني زوجة شيخ القبيلة.

***

قرر ربيعة ومعه نصف رجال القبيلة الرحيل إلى بهنسا، حيث يسكن ابن ربيعة، والاستقرار بها، ولكن سالمًا أراد لعزة أن تبقى معه في إسنا فرفضت. قالت إن من واجبها البقاء مع والدها، وإنها تتمنى أن يزورها كل عام ولو مرة. اعترض الزوج، ولكنها صممت على رأيها حتى اضطر أن يرضخ. وَلَوَّلت سليمة ولعنت عائشة التي أتت بالخراب، وتأوهت من كره دفين لا يتقد ولا يهدأ. تملكها الغل،

هرولت إلى زوجها تحكي له، فصفعها في قوة عدة صفعات أمام والدها وأختها. وبدا أن الزوج يضربها كثيرًا، وأنها لا تشكو ولا تتكلم. اليوم خيمت الغيوم على إسنا، وحملت الجمال أثقالها، خرجت عائشة من الخيمة تشاهد في صمت، والتقت عيناها بعيني عزة. لم تكن واثقة أن عزة تريد أن تودعها. مكثت مكانها، وقد تخلت عن اندفاعها القديم. اقتربت منها عزة، وقالت: أنا لم أحبك يومًا يا عائشة.

قالت عائشة في إعجاب: أعرف، ولكنك كنت رحيمة معي. أن تحبيني وترحميني فهذا متوقع، أن تكرهيني وترحميني فهذا من عظمتك وكرمك. وأعرف أيضا لمِ صممت على الرحيل. ليس لأنك لا تريدين أن أغار على زوجي ما دمتِ أنت هنا..

إبتسمت عزة في مرارة. فأكملت عائشة: بل لأن العذاب سيكون أقسى بوجودك بجانبه. أنت خير النساء. أتمنى لك كل السعادة، وأتمنى أن تحتفظي بالرداء.

اقتربت منها عزة وقالت في صوت خافت: أنا أعرفك يا أميرة. أتدرين ما الذي أكد لي أنك أميرة؟

فتحت عائشة فمها فقالت عزة: تعمدت سليمة كسرك، ولكن عينيك لم تفقدا الكبرياء والقوة حتى وسط توسلك.

قالت عائشة: كبرياؤك أنت يا عزة هي التي أعجبتني منذ البداية.

لم تجب عزة، أحنت رأسها بالإيجاب، ثم لحقت بالقافلة. بعد رحيل ربيعة، اجتمع عبد الرحمن بالرجال وشرح لهم أن الأيام قد تغيرت، وأن الاستقرار في إسنا لابد أن يصاحبه عمل، يعرف الآن أن العمل بالزراعة ليس جريمة وليس خطيئة. ما أغضبه من إخوته في الماضي هو تفرقهم، استقر كل منهم على حدة في بلد مختلف، تزوجوا ونسوا أمر القبيلة. اليوم الوضع مختلف. ستستقر كل القبيلة في إسنا، وتبحث عن أرض خصبة تزرعها، لم تزل هناك أراضي لا يملكها أحد.

تضع القبيلة قدمها على الأرض وتزرعها ولا تفرق. يبقى أهلها معًا في رباط. هذه أرض خصبة عذراء تخرج الخيرات، وهذا النيل المبارك لا يبخل إلا نادرًا. سيتدفق الطمي غدًا وسيعم الخير.

قالت زوجته عند عودته ليلًا: ستعمل في الزراعة يا عبد الرحمن؟

ابتسم ثم قال: كبقية المصريين. ولكن ستبقى القبيلة كالبنيان المرصوص.

ذاع خبر زواج الخليفة من بيت طولون. وبعد وقت اتضح الأمر، تزوج الخليفة من سلمى أخت قطر الندى. فقد اصطحبتها معها قطر الندى منذ أعوام، كانت طفلة حينها، وتربت مع أختها في بغداد. أراد الخليفة الزواج من ابنة أحمد، وعندما عرف أن هذا أصبح مستحيلًا وأن عائشة ربما ماتت أو قُتلت، قرر أن يتزوج من حفيدة أحمد ابنة خمارويه الثانية.



- 12 -

مرت أعوام على انقسام القبيلة. أنجبت عزة خمسة أطفال، وأنجبت عائشة تسعة أطفال. حكت لهم عن والدهم، وعن جدهم أحمد. قالت إن سر أحمد لابد أن يبقى داخل البيت، وإن حلم أحمد أكبر من كل الخلفاء. قالت الكثير وكل عام تطلب من زوجها أن تزور المسجد فيرفض. يقول: ما دام عيسى النوشري يحكم مصر فوجودها في القسطاط مجازفة. مات عيسى النوشري وجاء والٍ جديد، ونسي الناس أمر الأميرة، ولكنهم لم ينسوا أمر أحمد. بعد عشر سنوات وافق أن يسافروا جميعًا إلى القطائع أو إلى المسجد فلم يتبق من القطائع سوى المسجد وبقايا بيت سعيد بن كاتب الفرغاني وبعض البيوت الفقيرة.

انقطع خبر سعيد، وظن عبد الرحمن أنه مات؛ فقد تعدى السبعين، ولكنه تمنى أيضًا أن يراهما؛ سعيدًا والراهب أندونة. تمنى أن يقابل الراهب الذي سمع عنه الكثير ولم يحدث. ولكن سعيد لم يزل حيًا. عند الوصول إلى المسجد انتشر الأطفال في ساحته الفارغة، وجروا بها وكأنها أوسع من حدائق كل القصور. اتجه عبد الرحمن بعينيه إلى البيت الصغير الملتصق بالمسجد لم يزل نصفه قائمًا وحوله خراب وبعده خراب. أصلح سعيد بيته واستقر به. ناداه عبد الرحمن وهو يتوقع أنه مات. أراد أن ينطق اسمه.. سعيد الفرغاني.. أين أنت؟

بعد ساعتين ظهر سعيد، هو سعيد، حمله غلامان وبدا شعره الأبيض وقد غمر عينيه اللتين لم يعد يرى بهما إلا القليل، عندما اقترب قال له عبد الرحمن:

ظننت أني لن أراك مرة أخرى منذ آخر مرة؛ منذ عشرة أعوام مضت.. كنت تجلس في ساحة المسجد كأشجع رجل في البلاد.

قال في صوت متحشرج: صنعته من قلبي.. هو كل ما أملك.

- والله لم أقابل أحدًا مثلك قط. أي رجل أنت؟!

أكمل وكأنه لا يسمعه: وأنا أبنيه كنت أتمنى من الله أن يبقيني حيًا حتى أنتهي منه، وعندما انتهيت تمنيت أن يبقيني حيًا حتى أراه كل يوم، ثم جاء ابن سليمان يريد فنائي بهدم المسجد. ثم جاء شيطانٌ اسمه قاسم الخراساني وقتلته أنت. كيف حالك يا عربي؟ أمازلت بنفس أنانيتك واندفاعك؟

ابتسم عبد الرحمن ثم نظر لزوجته وقال: اشتعل الرأس شيبًا.

- أنت تقول هذا؟ فماذا أقول أنا؟

رَبَّتَ على ظهر عبد الرحمن ثم قال: منذ رأيتك وأنا لا أرتاح لك. كيف تعاونت معك لا أدري، وقت اليأس تحدث معجزات.

قال عبد الرحمن: وأنا أيضًا لم أرتح لك.

- ولكنك أنقذت المسجد.

- كما قلت: وقت اليأس تحدث معجزات.

اتجه إلى عائشة ثم قال: زوجك هذا أخبث رجل رأته عيني. هل تعرفين؟

ابتسمت وهي تنظر إلى زوجها ولم تجب.

فقال سعيد وهو ينظر إلى عبد الرحمن: يا عائشة.. هل تعرفين مكان إبراهيم ابن خمارويه؟ الذي دعا له محمد الخلنجي في المساجد، الذي أقام محمد الخلنجي الحرب من أجله؟ الذي حكم محمد الخلنجي الجندي المصري مصر سبعة أشهر باسمه؟ هل تعرفين؟

قالت: زوجي وعدني أن يخبرني عندما يتلاشى الخطر على إبراهيم وأخبرني أنه في أمان.

ابتسم سعيد في تهكم ثم بدأ في السعال دون توقف، وبعد برهة أكمل: هو في أمان يا عائشة.

نظرت عائشة إلى زوجها فالتقت عيناه بعيني سعيد، ثم قال: يا رجل توقف عن الضحك، ستموت لو سعلت مرة واحدة.

قالت عائشة: عبد الرحمن هل إبراهيم لم يزل في أمان؟

لم يُجب. فرد سعيد: هو في أمان يا عائشة، لا تسألي، زوجك يكذب طوال الوقت. هو في أمان لأنه مات.

أمسكت بقلبها، وبقي زوجها صامتًا، فأكمل سعيد: عندما زار زوجك ابن سليمان منذ أعوام عرف كل شيء. لم يعرف السر أحدٌ سوى أنا وهو.

نظرت إلى زوجها في فزع. أكمل سعيد: عندما هجم جنود ابن سليمان على القطائع فكر عبد الرحمن في خطف إبراهيم. فكر في مصلحته ومصلحة قبيلته وربما فكر فيك، لا أدري بأمور الحب هذه. اتفق مع أحد رجاله أن يصاحب الجنود إلى القطائع، وأن يبحثوا عن الطفل، ولكن الطفل اختفى من القصر، وقت أن تشاور شيبان مع رجاله على الاستسلام، شردت عنه جاريته التي تراعيه وهي تتجسس على حديث الرجال خوفًا على مصيرها، فخرج من القصر، وأصيب بسهم، عرفه رجل عبد الرحمن من ثيابه وشكله، وعرفته أنا لأني جئت أبحث عنه فقد كان أملي الباقي. رآني الرجل وأنا أمسك به أحاول أن أوقظه، رآني وأنا أبكي على آخر أمل. احتضنته وخبأته داخل ملابسي، ودفنته في مكان لا يعرفه أحد. تبعني رجل عبد الرحمن. عرف مكان دفن الطفل، أخبر زوجك يا عائشة. زوجك كان يعرف أن إبراهيم مات منذ اندلاع الحرب. وزوجك كان يعرف أني أنا أيضًا أعرف. وتوقع أني لن أتكلم، فما يريده زوجك هو ما أريده، ومع أنني

لا أحب خبثه فإن ذكاءه يعجبني وكذلك مجازفته. حارب محمد الخلنجي الخليفة ودعا لإبراهيم، وبحث ابن سليمان عن إبراهيم، وبحث عنه الخليفة وقامت الدنيا ولم تقعد وهو في أمان كما تقولين. هو حيث كل الأمان يا عائشة.

بقيت صامتة. فابتسم سعيد ابتسامته الساخرة وقال: يا عربي.. خدعت الجيوش والخلفاء. كيف حركت الجيوش بكلمات عن طفل من بيت طولون؟

قال عبد الرحمن: إبراهيم كان الحلم، والحلم لا يموت. ما حرك الجيوش ليس ابن خمارويه يا قبطي بل حلم أحمد. عرفت وفهمت، أبصرت ما لم يبصره غيري منذ البداية.. عرفت منها.

نظر إلى زوجته التي لم ترمش عيناها منذ بدأ الحكي ثم قال: عرفت منها أن الحلم أكبر من الحكام، هو القائد بينما الحكام هم جنوده التي تطيع أوامره.

قال سعيد وهو يشير لرجاله بحمله: أتعرف يا عربي.. أعتقد أني لا أكرهك، ربما بدأت أعجب بك.

ثم نظر إلى عائشة وقال: هل يسيء معاملتك يا عائشة؟

قالت وعيناها لا تتركان عيني زوجها: هو لم يسئ معاملتي قط.

- آه يبدو أنك تكذبين.. فقد أساء معاملتك.. أتذكرين؟

قالت في حسم: لا أتذكر إلا أنه رزق لي من السماء.

تنهد سعيد ثم قال: لا أعتقد أني سأراك مرة أخرى يا عربي.

- ربما.. وربما لا.. سعيد الفرغاني.. سيكتب كل شيء.

قال سعيد في ثقة: كل شيء. سأكتب ما قاله لي جعفر بن عبد الغفار الكاتب، وما قالته لي أسماء ابنة الخياط المصرية، وما سمعت محمد بن سليمان يقوله عن أحمد بن طولون. سأكتب عن ابن الصياد وميسون وسأكتب عنك أنت بالذات.

ابتسم عبد الرحمن وقال وهو ينظر إلى سعيد: لطالما سيطرت على نفسي كلما أردت أن أصفعك يا قبطي. لطالما قلتُ: الرجل كبير لابد أن أحترمه.

قال سعيد: ولطالما سيطرت أنا على نفسي وأنا معك، فكثيرًا ما أردت أن أقتلك، وقلت إن عائشة تحبه وسوف تلومني لو مات.

ضحك عبد الرحمن ثم قال: تستحق الخير.. كل الخير.

- تذكر أنه لولاي ما أنقذت المسجد.

- أعرف.

- وتذكر أن زوجتك أميرة، فأحسن معاملتها.

- أقصر في القول يا قبطي.. وفي النصائح.. ليس لدي صبر كما تعرف. تذكر انت أن ترعى صحتك.

نظر سعيد إلى عائشة ثم قال: أمتأكدة أنه يُحسن معاملتك؟

قالت في حماس: هو كل شيء بالنسبة لي.

نظر إليه عبد الرحمن في تحدٍّ ممزوج بالمداعبة، ثم قال: قلت لك اهتم بصحتك.

ثم مد يده قائلًا: يشرفني أن أصافح هذا الرجل الحاذق في الهندسة الذي يتقن فنون السحر.

صافحه سعيد ثم قال: الصداقة كما الحب تأتي دومًا على حين غرة، بلا قواعد ولا تدبير. كان لي صديق لم يكن لديه وقت لي اسمه أنس بن حمزة الصياد. ولكني لم أنسه. واليوم لي صديق اسمه عبد الرحمن.. ولكني سأحاول أن أنساه.. فغروره لا طاقة لي به.

ضحك عبد الرحمن ثم قال: بل لن تنساني كما لن أنساك. كنت تقول: الصداقة بلا قواعد ولا تدبير.. أعتقد أنك على صواب هذه المرة.

ثم قال عبد الرحمن: لك السلام والسكينة دومًا يا سعيد بن كاتب الفرغاني.

مد زوجها يده قائلًا: هيا يا عائشة.

نظرت إليه، ثم أمسكت بيده قبلتها في بطء، وهمست: لا أعرف كيف أشكرك.

تجاهلها وقال: لن نستطيع زيارة المسجد عن قريب. املئي عينيك منه، لابد من العودة الآن إلى إسنا.

- أعرف.

سارت معه وعيناها لا تفارقان صحن المسجد.

ترقرقت الدموع في عينيها حتى بدا المسجد عائمًا بين السحاب يخرج من محرابه ضوء بعيد يقترب ثم يتلاشى، تمتد ساحته لتحيط البحر والنهر ثم تطفو على سطح السماء، وتسبح بين السحب القطنية. لم يعد لساحته حدود تتسع كلما ابتعدت، تسير معها في رحلتها ولا تنتهي بانتهاء الرحلة.

أروقته تتحول أمامها لأبواب تبتلع العالم، أما المحراب فترتج صدى أركانه بـ «الله أكبر» بصوت عميق معذب وفرح يرى النهاية، ويعرف أنها البداية، هذا رواق الماضي وهذا رواق القادم، وهذا صحن سيبقى ألف عام أو يزيد. كيف يبني الضعيف هذه القوة؟ وكيف يُشيد من فني مبنى للخلود؟

ازدادت الدموع، وسيطرت على الوجه، شعرت بيد زوجها على ذراعها تحثها على السير، ابتعدت ولم يبدُ أحد بعيدًا، كان بداخلها حتى ولو لم تره عيناه داخل عينيها، وأطرافه حول أطرافها، هذا المحراب هي، وهذا الرواق قلبها، وهذه المدينة ذاكرة، والأم لن تعود. ربما عرفت من البداية أنها مريضة من يدري؟ ربما أيقنت منذ اللحظة الأولى أنها لن تعود. ويبقى البشر على موعد بلقاء مؤجل دومًا، وتبقى دموعها تتساقط فتمحو الخراب والحطام، وترى ساحة المسجد اللا متهية.

العين ضعيفة كالقلب والجسد، لا ترى إلا ما يمكث في الأرض، أما الذكرى فكساحة المسجد بلا حدود. تلاشى المسجد من الأفق، وقال الزوج: هو باقٍ لا تقلقي.

قالت: لم أعد أراه وأعرف أني لن أراه بقية عمري.

فقال: ولكنه باقٍ ونحن راحلون. ها هي الشرفات أمامك، عرائس تتعانق بلا حواجز ولا فروق، كالبنيان المرصوص بنفس الملامح والألوان، كما البشر قبل أن يدخل الحقد قلوبهم. ستظل العرائس في عناق أبدي، تذكرة بما يجب أن يكون، وما لم نفلح في تحقيقه وما حافظنا عليه، وما تبقى لنا من تقوى النفس وفجورها. هي نفس واحدة لا لون، لا عشيرة، ولا مسافة تفرقها عن الخالق، نَفْسٌ خلق الله منها كل البشر كما العرائس التي تتلاشى في الأفق.

القاهرة 1919

انتهى عادل من القراءة، وأبقى على مقلتيه داخل الكلمات، كلمات حانية، تتدفق من بين الأوراق في يده، فتنفذ إلى القلب فتزلزله. سمع صوتها تؤنبه، تلومه، تطلب منه أن يكون أفضل، دومًا تطلب منه أن يغير نفسه، ولو غير نفسه هل ستحبه؟ كان لابد أن يسألها هذا السؤال. أو يحكي لها عن عائشة فقد أصبحت عشرة وصديقة، أو عن العربي، أو الراهب، أو أحمد، ربما لو حكى لها عن أحمد، يعرف الإجابة. حتى في اللحظات الحميمة بينهما تطل برأسها لتنفخ في غيظ وعدم صبر تريده أن ينتهي، أن يتركها لحالها. ترى هل أحبت غيره ربما قبل زواجها؟ أحيانًا يتصور أنه يدق رأسها بمطرقة قوية فلا تموت، يطل رأسها ليؤنبه لأنه لم يجد القتل. لا يجيد شيئًا. سمع صوتها اللائم: لو استمررت في قراءة هذه الأوراق القديمة فستفقد وظيفتك.

ربما كانت على حق. ربما تخونه ذاكرته كثيرًا ويسبح في أحلام وأوهام. ينظر إلى الأوراق كأنه وجد غايته ومنيته، وهب عمره للصخور والأعمدة. ما أجمله من قدر! قالت: عادل، هل تسمعني؟

قال وهو يطبق الأوراق في حرص: ولو تركت الأوراق فهل ستحبينني؟

نظرت إليه في فزع، وفتحت فمها كأنه اتهمها بالخيانة، ثم قالت: الأوراق تحت عقلك.

- ذكية، هل تعرفين أحمد؟

- أحمد من؟

- الذي بنى المسجد الذي صلى فيه السلطان أحمد فؤاد؟

قالت في عدم صبر: ولمَ أعرفه لو كان مات منذ آلاف السنين؟

- هم ألف واحدة.

- أتتهمني بالغباء يا رجل؟ أم بالجهل؟

- كنت أسألك عن حياتنا بعد غد. بعد أن أتوقف عن القراءة ماذا سيحدث؟

ضربت كفًا بكف ثم نادت على أولادها، وبدأت تشكو كعادتها، والأولاد تستمع في تعاطف. حدث كل شيء منذ عشرة أعوام. تزوجها دون أن يرى وجهها، وكانت أجمل مما توقع، ثم ليلة دخل بها، نهرته وبكت، وقررت أنها لا تريده. أنجبت خمسة أطفال ولم تزل تكرهه ولا تريده. فكر في تركها، لا يستطيع أن يطلقها ولكنه يستطيع أن ينسى وجودها حوله، يرحل بلا رجعة، وهذا أهم من الطلاق. لامته أمه عندما شكى غباء زوجته لا تخطئ، هي مثال للزوجة المثالية، بيتها دومًا مرتب، أولادها دومًا يرتدون أفضل وأنظف الملابس. كريمة وعذبة الحديث. العيب لابد أن يكون منه.

***

نظر عادل إلى كلمات سعيد بن كاتب الفرغاني، سيفتقد كلماته ولكنها آخر رسالة ربما. قرأ:

«حبيبتي بحنس، تمحي أثر المدينة يا ساحرة الهرم، وكأنها لم تكن. لم يتبق سوى المسجد وجدار بيتي. كان بيتنا، رأيتك بداخله تضيئين الأركان بنور معرفتك وحكمتك، من يعرف وسط الجاهلين زلل، ومن يملك الحكمة وسط الضالين لا بد من معاقبته. رأيت ما لم تر وعرفت ما لم نعرف. اغفري لهم ضيق النفس، فهي لعنة البصير تصيب الناس أجمعين عند الحيرة. أتسمعينني؟ لم أزل أسكن البيت، وأنتظرك في القطائع، لنتذكر لحظات وضحكات وأنفاسًا غير الأنفاس، تخرج في تلقائية ونقاء. زال البشر من حولي، ولكن الحزن استقر حول الجدران، الحزن باق ما دامت الأنفاس تخرج مني، باقٍ ما دام الضوء يشع من عيني، باق مادام الجسد يهزل ولا يفنى. لم لم أمت؟ لم كُتب عليَّ البقاء هائمًا أربعين عامًا؟ ومتى تشفقين؟ قلت لي: إن للمدن عمرًا كالبشر، وإن المدن العامرة تحث على

المعصية، وتدعو الغزاة إلى أسوارها. كانت مدينة بلا أسوار، بنيت فيها ما بنيت، وشوقي إليك لا ينقطع. أشفقي.. حبيبتي..

اليوم بحثت عنك داخل الهرم، كنت أكلم نفسي اليوم، ولم أجدك ولم أسمع سوى صدى صوتي داخل الحجرة المعتمة. اختفيت يا بحنس بلا أثر. هل رحلت عن الدنيا أم عن الهرم؟ لم تزل كتبك تحمي الجدار، ولم تزل بقايا الكعك تدعو الفئران إلى وليمة غنية. ولكنك رحلت، ربما مع رحيل المدينة أو بعدها، لا أعرف. منعتني كبريائي من التوسل إليك منذ أعوام، هل تذكرين؟ طمس الدمار ذاكرتي بعض الشيء، ولكن القلب دلني على المكان. وجدت ساحرة الهرم قد رحلت. فجمعت أوراقي، وكتبت الكلمات لعلها تبقى بعد الفناء، أو تُذكر من تنفعه الذكريات».

***

رتب عادل حقيبته واستعد للرحيل؛ سيبحث عن قبيلة بني سالم. سيتأكد من كلمات المخطوطة. ومن أناس يتمنى العيش معهم، لو ترك هذا العصر وهذه الدنيا ورحل إلى عصر أحمد! لو بحث عن امرأة مثل ميسون أو أسماء أو عائشة! بل من يريدها حقًّا هي عزة. ترى ماذا حدث لعزة؟

نعم سيبحث عن قبيلة بني سالم، سيأخذ المخطوطة دليلًا. انقسمت القبيلة أو هكذا قالت المخطوطة. سيذهب إلى إسنا أولًا ثم بهنسا. ربما عند المعرفة تتكشف له حقيقة زوجته، ويقرر ماذا سيفعل بها. يقتلها، يطلقها، يحيا معها في استسلام، يرحل بلا كلمة.. هناك مصير ينتظره بعد العودة.

سألته ذكية إلى أين سيذهب؟ لم يُجب. هددت وتوعدت. لم يُجب. رحل في القطار وأغمض عينيه وشخصيات المخطوطة لا تتركه، معه في قلبه تتنفس وتتحاور.

عند الوصول إلى إسنا سأل عن قبيلة بني سالم، كل البلد تعرفها. من أقدم وأكبر القبائل. أوصله أحد الرجال إلى شيخ القبيلة، جلس معه ساعات ولم يخرج بكلمة واحدة. أخبره أنه يبحث عن تاريخ القبيلة، فلم يثق به الشيخ. أخبره أنه يريد أن يعرف أكثر عن عراقتهم فلم يقتنع. خرج من عنده مهمومًا يائسًا، ثم أعطى الحارس الذي دله على شيخ القبيلة بعض المال، فقال الحارس في حماس: تريد أن تسمع الحكايات؟ لابد أن تتكلم مع الشيخ الدمياطي.

- وما الذي أتى بدمياط إلى الصعيد؟

- هو صعيدي ولكن اسمه الشيخ الدمياطي، يعرف كل شيء. يجلس على المقهى كل يوم من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ليدخن ويشرب الشاي. سأعرفك عليه.

بدا الأمل قريبًا. جلس أمام الشيخ وهو يدخن الأرجيلة وينفخها في وجهه، أزاح الغبار فنفخه الشيخ في وجهه من جديد وهو يضحك، أزاح الغبار مرة أخرى فنفخ مرة أخرى. قال عادل في صبر: جئت أتكلم معك وأسمع حكاياتك.

- لا حكايات عندي.

- ولكن الحارس..

- لو كنت تريد أن تسمع التاريخ فهذا شيء آخر. أنا لا أحكي قصصًا كقصص المسارح في القاهرة.

- أريد أن أسمع عن التاريخ. عن أصل قبيلة بني سالم.

- تقصد قبيلة بني سالم في إسنا أم قبيلة بني سالم في بهنسا؟ القبيلة انقسمت نصفين منذ ألف عام أو أكثر.

ازدادت نشوة عادل وقال: احك لي يا شيخ.

- الشيخ الدمياطي يعرف كل شيء.

- لمَ انقسمت القبيلة؟

- يقولون بسبب غريبة تزوجها أحد رجال القبيلة، ورفض بعض الرجال، فانفصلوا عن القبيلة.

- من هم بنو سالم؟

- أعيان البلد وأكابر رجالاتها.

- من الغريبة؟

- هذه قصة يطول شرحها. يقولون الغريبة قريبة قطر الندى، أختها، عمتها، خالتها لا أحد يعرف، يقولون كانت أميرة من بيت طولون، عشقت العربي وتزوجته، وعندما زال عصر طولون هربوا إلى الصعيد. هذا كان..

- من طولون؟

رفع الرجل كتفيه في حيرة ثم قال: عنده مسجد كبير في القاهرة باسمه.

- من هو؟ يا حاج؟

- أنا لا أتذكر اسم أولادي، تريدني أن أتذكر رجلًا من ألف عام.

- ماذا حدث للغريبة؟

قام وقال لعادل: تعال معي.

أخذه إلى بيت صغير على شاطئ النهر، ثم طلب منه أن ينتظره بعض الوقت، وعاد بعد برهة ومعه شيخ آخر أكبر سنًّا وأضعف بدنًا.

بعد التحية أخرج الشيخ الآخر ورقة قديمة بها رسومات وأسماء ثم قال: قبيلتنا بنو سالم قبيلة العظماء. من قبائل قيس من الجزيرة العربية، شيخها اسمه هنا في الورقة.

قرأ عادل اسم عبد الرحمن ثم رأى اسم عائشة زوجته فاستقر قلبه.

قال الرجل في فخر: تزوج عبد الرحمن عائشة، أنجبا عشرة أولاد على ما أعتقد. أكبر قبيلة في هذا البر وحول هذه المدينة هي قبيلتنا.

نظر إلى الورقة من جديد، ثم وضع أصبعه على اسم ابن عائشة وقال: عثمان ابنها تزوج أربعة. ولكن عبد الرحمن لم يتزوج إلا عائشة.

- لماذا؟

- دمها أزرق مثل السلطان فؤاد وربما أفضل. يقولون عشقها العربي، فسيطرت عليه حتى إنه حارب من أجلها كل رجال الخليفة. هكذا هن النساء لا يأتي من ورائهن سوى الهم.

قال عادل وخفقات قلبه على مسمع منه: لكن ألديك ما يثبت أن عائشة أميرة، أنها تنتمي لبيت طولون؟

قال الشيخ: ألا تكفيك كلماتي؟ لا يوجد ما يثبت هذا هنا. ولكن في بهنسا. لو ذهبت إلى هناك تجد الإثبات.

قال عادل في عدم صبر: لنذهب معًا.

- أنا شيخ كبير، لا قبل لي بهذا السفر الطويل..

- لا تعرف كم تساعدني بذهابك معي..

***

صافح الشيخ الدمياطي رجلًا بحرارة، وقدم عادل على أنه صديق قديم يهتم بتاريخ القبيلة. جلسوا معًا في خيمة الشيخ شرقي في بهنسا، فأخرج الشيخ ورقة قديمة أيضًا، وأشار إلى اسم ربيعة وزوجاته.

ثم قال في فخر: أتعرف قطر الندى؟ هي من قبيلتنا.

- كيف هذا؟ أليست ابنة خمارويه وحفيدة أحمد بن طولون؟

- لا أعرف من خارويه هذا. ولكنها من قبيلتنا، بيننا نسب ودم. ألم يخبرك الشيخ الدمياطي عن قصة الأميرة التي تزوجها عبد الرحمن؟

قال عادل والفرحة لا تتركه: ولكن ربما هي حكايات وأساطير. من يثبت صحتها؟

- تعال معي.

أخذه شيخ القبيلة في بهنسا إلى بيته، وأخرج صندوقًا كبيرًا من الخزانة، ثم أخرج من الصندوق لفافة من ورق قديم فتحها في بطء، بدت كرداء من الصوف عمره يزيد على ألف عام، كاد يذوب بين يدي الرجل. قال الشيخ شوقي: انظر إلى هذه الأشكال، نبات بأوراق خماسية، هذه أشكال ملكية. أهدته الأميرة إلى ابنة عم زوجها، كانت صديقتها المقربة. احتفظت به جدتنا منذ ألف عام وحتى اليوم نتوارثه. هذا هو الإثبات أن التاريخ حقيقي. انظر إلى الألوان، وطزاجة الأحمر، وقوة الأزرق، كأنها تتحدى كل الأيام. الألوان تستطيع أن تتحدى الدهر، الألوان والنباتات وبعض النسيج، أما نحن فأول من يهلك، ومع ذلك نطغى ونتكبر.

قال عادل وهو يقرب أصبعه من الرداء: أعرف هذا الرداء. أعطته عائشة لعزة. هل يمكن أن ألمسه؟

- يتحلل بين يديك يا بني، لا يلمسه أحد حتى أنا. لتحافظ على الأشكال والألوان لابد أن تتعامل معه برفق. ولكن بهنسا مشهورة بصناعة النسيج. لدينا أقمشة مثله وأجمل.

ثم قال في صوت هادئ: في يوم بعيد، في زمن غير الزمن، قامت الحروب، ومات الملك وكل أفراد عائلته ما عدا ابنته، هربت الابنة من بطش المُغير وقسوة الحروب، بحث عنها الخلفاء والحكام في كل أركان مصر ولم يجدوها. اختبأت

داخل خيمة رجل عربي، خبأها عن كل الناس، وحارب من أجلها، وحاربت من أجله.

- من الملك؟

- لا يهم. هو أبو قطر الندى أو جدها. أحد الملوك. من يهتم بأسماء الملوك القدماء يا رجل؟ أعرف أن ملكنا اليوم هو أحمد فؤاد، يقولون الثورة متأججة في القاهرة.. ماذا سيفعل الملك؟

رفع عادل كتفيه في حيرة.

فقال الشيخ: هل وصلت إلى ما تريد؟

- أي سؤال هذا؟ هذا أصعب سؤال سمعته في حياتي. بالطبع لم أصل إلى ما أريد. ليس بعد.

***

هل وصلت إلى ما تريد؟ سؤال يعجز البشر عن الإجابة عنه. لم يقرر بعد لو كان سيعود إلى ذكية أم سيتركها. الارتواء لا يأتي فقط من عشق بين رجل وامرأة، أحيانًا يأتي من كشف الأسرار، وفهم الطلاسم، وقراءة الأوراق القديمة، ربما يأتي من العيش داخل قصة عطاء وبذل. تُرى أي ارتواء ينتظره وهل هو في هذا العالم؟ لم يحاول أن يبحث عن ماء في عمق الصحراء لو كان النهر أمامه ممتلئًا بالمياه العذبة؟ ولكن البحث عن الماء في عمق الصحراء يروي أكثر من البحث عنها حول الأنهار. هو البحث ما يبغي. «لا بد أن تتخلى وأنت تشتهي وتطمع، وليس بعد أن تيئس وتزهد». هكذا قال الراهب. ولكنه تعدى مرحلة التخلي، فقد استقر اليأس منذ الأزل. اليوم هو أحمد بعد أن اكتشف خيانة ابنه، اليوم هو عبد الرحمن والوساوس تمزق أحشاءه، والعجز يذيب غروره. اليوم هو سعيد والخوف على ما شيد يستقر ويتوغل. اليوم هو الشيخ الدمياطي وهو يفتح

اللفافة في حرص ليحافظ على الرداء وألوانه ونقوشه المعقدة. هو سعيد، وهو أحمد، وهو عبد الرحمن، وهو الشيخ الدمياطي، هو كل هؤلاء.. كل من تملكهم الحلم وتركوا ما سواه. ولكنه ليس واثقًا من حلمه ولا من جدواه. يقولون إن الثورة ترج أنحاء مصر. لم يتسن للسلطان فؤاد أن يصبح خليفة المسلمين حتى بعد أن أقام صلاة الجمعة في مسجد أحمد بن طولون. تُرى من سيصلي في المسجد غدًا؟ ومن سيتذكر حلم القدماء؟

***

العالم يحترق ويموت وزوجته لا تتوقف عن الذم والانتقاد، مات من مات، وأفاق البشر على لون الدماء وزوجته تذم وتتشاجر. لجأ إلى الله يشكو همه، ثم إلى القس في كنيسته. طلب منه الصبر. ثم قال في هدوء: «من يحب امرأته يحب نفسه» تحبها حتى لو قالت لك نفسك عكس ذلك.

فقال عادل في بؤس: بل أخشى أن أكون قد كرهت نفسي إرضاءً لها.

ذهب إلى دير القُصير، فكر منذ شهور في الراهب أندونة، أُعجب بالتخلي والترك أكثر من الحروب. قرر أن يصبح راهبًا، ترددت كلمات سمعها في الدير: «معك لا أريد شيئًا على الأرض» منذ شهور وهو يتردد على الدير، واليوم أبلغه رئيس الدير أن هذا لن يحدث. من يترك لابد أن يترك بلا ضغوط ولا صعوبات. أن تترك وأنت قادر شجاعة، أما أن تتخلى لأنك لا تريد المجاهدة فجُبن لا يتسم به الرهبان. من يأتي إلى الدير ليهرب من الزوجة والأبناء غير من يأتي بالرغم من وجود الزوجة والأبناء. لا أمل له إذن.

ذكية.. لا مفر من وجودها حوله. وجد نفسه سائرًا إلى الأهرامات، تُرى أين سكنت ساحرة الهرم؟ وماذا كانت ستقول اليوم؟ توقف أمام مدخل الهرم الأكبر، رأى أمامه الخليفة المأمون وهو يحطم الحجر ليكشف المختبئ تحت رمال الدهر، سمع صوت الأحجار وهي تتزحزح في بطء، ويقسم أنه سمع صوت

الساحرة وهي تهمس، ساحرة الهرم، كانت تقول: هي هنا.. ليست فقط في المسجد وبقايا البيت، هي هنا، وفي بهنسا وإسنا، في كل لحظة التحام ورجفة روح، في كل تأوهات الفقد والألم، في كل موضع قدم يسعى ولا يعرف ما سيدرك ولا أين المصير. هي هنا، في صلب الفؤاد، لا تبرح مكانها، هي بين طيات العروق النابضة، وسكينة التسليم والرضا، القطائع.. مدينة .. كما الحياة، تراوغ تارة وتتجلى ببهائها تارة. ثم تتلاشى كالجسد».

نادى بأعلى صوته: بحنس، يا ساحرة الهرم! لِمَ حطمت قلب سعيد؟ أليس في صدرك رحمة؟ لِمَ لم تغفري؟ أكل النساء سواء؟ لا صفح يدخل قلوبهن، يا ساحرة الهرم، ما بالك كالأيام، تتعذبين وتعذبيننا معك. ترى هل تسمعينني؟

***

على هامش التاريخ

يعتبر مسجد أحمد بن طولون أقدم مسجد لم يزل موجودًا في مصر، وأكبر مسجد من حيث المساحة. ومع أن مسجد عمرو بن العاص أقدم منه إلا أنه تغير بشكل كبير مع كثرة التجديدات وعوامل الزمن بينما بقي مسجد ابن طولون محتفظًا بنفسه على الرغم من مرور الأزمنة والحكام.

حار متخصصو العمارة الإسلامية في روعة شرفات مسجد أحمد بن طولون، وفي مغزى العرائس المتشابكة المتضرعة للسماء التي تعلو جدار المسجد. وحتى هذا اليوم لم يوجد مثلها في أي مسجد لا قبل أحمد بن طولون ولا بعده.

لم يبق من القطائع سوى مسجد أحمد بن طولون، والبيت الذي اكتشف الأثريون جزءًا منه كما في الرواية. وبقيت أيضًا القناطر التي بناها أحمد بن طولون في حي البساتين في القاهرة وهي من أقدم الآثار الإسلامية.

في العهد الفاطمي أمر الولاة ببناء سور حول مدينة القطائع المهدمة حتى لا تؤذي عين المارة المتجهين إلى القاهرة. قال عنها المقريزي: «اعلم أن القطائع قد زالت آثارها ولم يبق لها رسم يُعرف».

أحمد بن طولون هو أول من أنشأ دولة مستقلة لمصر في العصر الإسلامي، وجيشًا مستقلًا لمصر منذ عهد الفراعنة. ستتبعها دول أخرى مثل الدولة الإخشيدية والفاطمية، وستتوجها دولة المماليك التي اتخذت من العصر الطولوني مثالًا للنجاح والقوة. انتقلت الخلافة العباسية لمصر بالفعل في عهد المماليك. والسلطان المملوكي حسام لاجين من أهم من اهتم بترميم مسجد أحمد

ابن طولون وإصلاحه. دولة المماليك استلهمت فكرها من أحمد بن طولون في بناء جيش مستقل وإعطاء الحكم لمحارب قوي وتبجيل المحاربين.

أحمد بن طولون سمح للمصريين بالالتحاق بجيشه وأعطاهم العطايا وأسكنهم مدينته. يعتبر أحمد بن طولون أول من كون جيشًا يضم جنودًا مصريين منذ عهد الفراعنة وقبل جيش محمد علي بنحو ألف عام. محمد بن عليًا الخلنجي القائد المصري الطولوني الذي حكم مصر لمدة سبعة أشهر.

استقر سعيد بن كاتب الفرغاني في بيت أنس بن حمزة السكندري في القطائع، البيت الذي بناه بنفسه. اكتشف الأثري البريطاني بجانب المسجد حائط البيت المصنوع من الجص بزخارف تشبه زخارف سامراء في العراق. سعيد بن كاتب الفرغاني أصله من فرغان التي تقع اليوم في ديارب نجم في محافظة الشرقية.

في سيرة أحمد بن طولون التي كتبها أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي جاء ذكر «أسماء» زوجة أحمد بن طولون التي كانت من الموالي، أي ليست من العرب، مصرية. وجاء ذكر ابنته عائشة.

لم تزل بهنسا مشهورة بالنسيج، وقد استقر الكثير من القبائل العربية في صعيد مصر.

القطائع كمدن الأحلام، ضمت كل أجناس الأرض في سلام، وتفاعلت معها لمدة تزيد على ثلاثين عامًا. وعندما مُحي أثرها لم تترك الذاكرة لقرون من الزمن، كما لم تترك الذاكرة قطر الندى وميسون وعائشة وأسماء المصرية التي تزوجها أحمد بن طولون. اختفاؤها يشي برهبتها وسطوعها. وبين البناء والمحو الكثير من الحكايات. بقيت رائحة الضوء تُذكر بما كان، ومن علم، ومن ظلم، ومن انتصر،

ومن هام عشقًا، ومن نسي الدرب وسط الأهوال، ومن وضع النجوم نصب عينيه، وكيف اشتعل النجم، وكيف هوى وكيف أضاء.

***

تمت بحمد الله

شكر

في أثناء محنة عظيمة مررت بها أرسل الله لي بعض السلوى في صورة أشخاص بعضهم حولنا وبعضهم لا يعيشون حولنا اليوم، ولكن روحهم كانت تطوف حولي وكلماتهم «ونس» وبلسم. كلما قرأت أعمالهم تصورت لقاء افتراضيًّا بيننا في يوم من الأيام. أتمنى أن يحدث هذا اللقاء في عالم مختلف ومستقر. من هؤلاء:

أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي المؤرخ المصري الذي كتب سيرة أحمد بن طولون بعد موت بن طولون بحوالي خمسين عامًا. شعرت أني أعرفه وأعرف أحمد بن طولون، أسير معهما في الأسواق وأكتشف الجواسيس وأقيم السماط وأدعو كل أهل مصر. هذه أرواح تبقى معنا دومًا.

أما المؤرخ الذي عاش في قلبي حتى إنني تصورت إنني لو عشت في زمن المماليك لم يكن بد من أن أقع في حبه هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري. ابن الأمير تغري بردي أمير مملوكي في عهد السلطان برقوق. ابن تغري بردي كتب كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. كتاب من أعظم ما كتب في تاريخ مصر من وجهة نظري. كتبه بأسلوب عالم موضوعي متمرس وبلغة سلسة واضحة. لم أزل أجد في كلماته السكينة.

أشكر أيضًا عالمًا آخر من عصر المماليك، جلال الدين السيوطي الذي بلغت مؤلفاته ستمائة مصنف، فهو من وجهة نظري مصري وطني بجدارة يتكلم عن الهوية المصرية والهوى المصري بإخلاص وصدق ويذكرنا بعبقريته أننا مهما بلغنا بكتاباتنا، فنحن لم نصل بعد.

هؤلاء الثلاثة كانوا نعم الرفيق والصديق. أعرفهم وأحبهم.

أشكر أيضًا أصدقاء يعيشون حولنا، كلماتهم عون وإلهام. أشكر كل قارئ تعايش مع الرواية فأصبحت جزءًا منه وأصبح هو جزءًا مني.

- «إننا أمام حالة أدبية سارت منذ بدايتها على طريق الوعي والإدراك» هذه كلمات مديرة النشر الثقافي في نهضة مصر نشوى الحوفي عن أعمالي التي قرأتها كلها بقلبها ووعيها وليس فقط بعقلها. أشكرها على كلمات أتمنى أن أستحقها وألا أخذلها أو أخذل القراء أبدًا. وأريد أن أوضح أن وجود مدير نشر واعٍ مثقف يؤمن بموهبة الكاتب من أهم مقومات الإبداع لدى أي كاتب. أشكرك.

الشكر للجامعة الأمريكية بالقاهرة من أجل المنحة لتكملة البحث التاريخي المرتبط بالرواية.

الصور المرفقة:



صورة للبيت الطولوني الذي تم اكتشافه في بداية القرن العشرين:



صورة للعرائس التي تزين سور مسجد أحمد بن طولون.

سنوات من التاريخ:

- عام 642 ميلاديًا، 21 هجريًا: فتح مصر على يد عمرو بن العاص.

- عام 662 ميلاديًا، 41 هجريًا: قيام الدولة الأموية.

- عام 750 ميلاديًا، 132 هجريًا: سقوط الدولة الأموية.

- عام 750 ميلاديًا، 132 هجريًا: قيام الدولة العباسية.

- عام 217 هجريًا: تولى مصر عيسى بن منصور، وثار أهل مصر ضده بسبب زيادة الضرائب حتى طردوه من مدينة العسكر ومدينة الفسطاط.

- 217 هجريًا إلى 218 هجريًا: قدوم الخليفة المأمون نفسه لمصر لقمع ثورة المصريين.

- 218 هجريًا: تولى مصر نصر بن عبد الله.

- عام 254 هجريًا: تولى مصر أربعة ولاة من الخلفاء العباسيين: مزاحم ابن خاقان، أحمد بن مزاحم، أرخوز بن أولوغ طرخان التركي، ثم جاء أحمد بن طولون.

- عام 868 ميلاديًا، 254 هجريًا: أصبح بن طولون نائبًا لوالي مصر من الخليفة العباسي.

إهداء

هذه الأوراق تكفينا عمرًا أو أكثر.. نلملمها في حرص حتى لو تآكلت وقدمت، عند القراءة تعود إلى سابق عهدها دون أدنى مجهود.

إلى من قرأ الأوراق ولم يكتف بفهمها، بل نقلها في حرص وإتقان إلى لسان مختلف.. إلى «روجر آلن»، أهدي هذه الأوراق وهذه الرواية.

للتواصل مع المؤلفة:

البريد الإلكتروني: reembassiouney@hotmail.com

الصفحة الرسمية: https://www.facebook.com/reem.bassiouney



رواية

القطائع

القطائع..

هذه المدينة بها

سحر القدماء ولعنتهم.. لا مفرّ من

عشقها.. في الأزقة رائحة الخبز والحلوى

الذكرنا بمحاسن العيش ومذاق العشق، لا أحد يكتفي

هنا من الخبز بالسكر، من يد إلى يد، ومن فم إلى فم يذوب

القمح في الأعماق، ثم ينعش الذاكرة المبهمة.

في هذه المدينة خياط ينسج ثوبًا من الحرير الخالص، ولا أحد يعرف مصير صاحبه.. ربما كان ثوبًا لعروس تشتاق وتتمنّى، أو لوالي الخراج الذي يمشي في الأرض مختالًا فرحًا، ربما كان مصنوعًا من خيوط ممتزجة ببلاء ومعاناة أو صبر وجلد.. هنا يكمن فرح غير مكتمل، وجسد عاجز دومًا حتى لو أخذته العزة بالإثم.

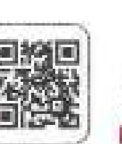
في هذه المدينة حدّاد يصنع السيوف ويفكر فيمن سيموت بها، يتمنّى أن تقضي على كل ظالم وكل طامع، ويعرف أنها ستبتر رءوسًا بريئة، وبعض رءوس التائهين في طرق كلها ظلام، وكثيرًا من رءوس المحاربين من أجل الذاكرة التي دومًا تتسرب من بين أيدينا.

وهذا الدكان ينسخ كتبًا عن تاريخ قد مضى وآخر آتٍ، يحاول أن يجمع الذاكرة في كفيه، ويتذكر حكمة القدماء، ولكنه ينهزم أمام النار والدمار. وعندما تمحى آثار المدينة وتنتصر القوة على الذاكرة لا بد من الكتابة.. في الإبقاء على الأوراق بعض الانتصار. هنا مات شيخ ولم يتزحزح عن الحق، وهنا راح رجل ضحية حلمه، وهنا انزوى العجز لكل قوي، وتفشّى الضعف لكل ظالم، هنا اكتشف الإنسان أنه يفقد بضعة منه في كل يوم يمرّ عليه، وأن النهاية قادمة لا محالة، وسوف يصاحبها بعض اليأس والكثير من الحنين.

المؤلفة في سطور:

- أستاذة اللغويات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولها كتب علمية عديدة صدرت عن أشهر دور النشر الأوروبية والأمريكية.
- صدر لها روايات: «بائع الفستق» و«دكتورة هناء» و«الحب على الطريقة العربية» و«أشياء رائعة» و«مرشد سياحي» و«أولاد الناس ثلاثية المماليك» و«سبيل الغارق».
- حصلت على:
  جائزة أفضل عمل مترجم في أمريكا عام 2009 عن رواية «بائع الفستق».
  جائزة ساويرس الأدب عام 2010 عن رواية «دكتورة هناء».
  جائزة نجيب محفوظ لأفضل رواية في 2020 عن رواية «أولاد الناس ثلاثية المماليك».
- ترجمت أعمالها إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية واليونانية.


ISBN 978-977-14-6041-1

نهضة مصر